

دوستويفسكي



الأعمال الأدبية الكاملة المجلد

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

800 18 90 3721 22

BTJ System AB



BTJ

الشياطين ١



INTERNATIONELLA BIBLIOTEKET

Hsg

DOSTOJEVSKIJ
al-Amal al-adabiyah
al-kamilah

/ 2



الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الثاني عشر



المكتبة العربية الشرقية

أورينتاليا

Surbrunnsgatan 13
114 21 Stockholm
Tel. 08-612 04 35

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فودان - بناية شبارو
ص.ب: ٥٥٣٧ / ١٤ - هاتف: ٢٥٢٨٢٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبع بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

الشياطين
١

جميع الحقوق محفوظة

« الشياطين » (Biéssy) : نشرت هذه الرواية أول مرة
في مجلة « الرسول الروسى » ، فالجزء الأول والثانى نشر
سنة ١٨٧١ ، والجزء الثالث نشر سنة ١٨٧٢ .

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين ؟

الشيطان يجرنا هنا وهناك

ويديرنا الى كل الجهات

..

ما عددهم ، والى أين يسرون مسرعين ؟

ماذا تعنى أغنيات الحداد هذه التى يرددونها؟

أهم يدفنون أحدا من أهلهم ؟

أم هم يزوجون ساحرة ؟

أ • بوشكين

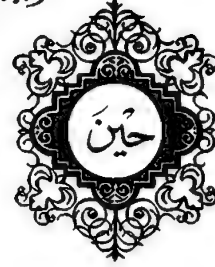
« وكان هناك قطيع كبير من الخنازير يرعى فى الجبل ،
فتفرعت الشياطين الى يسوع أن تدخل فى الخنازير . فاذن
لها . فخرجت من ذلك الانسان ودخلت فى الخنازير . فاندفع
القطيع من أعلى الجرف الى البحيرة ، وغرق فيها . فلما
رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبأ فى المدينة وفى
القرى . فخرج الناس ليروا ما جرى ، فلما وصلوا الى قرب
يسوع وجدوا الانسان الذى كانت الشياطين قد خرجت منه،
وجنوه لابسا ثيابه ، مائكا عقله ، جالسا عند قدمى يسوع .
وروى لهم شهود الحادث كيف خلص المجنون . »

(انجيل لوقا ، الاصحاح الثانى ، ٣٢)

الجزء الأول

الفصل الأول

بمناوبة مرغل: بصفة تفصيل عن حياة المحترم
المجمل سيفان تروفيموفتش فرخوفسكى



أشرع فى سرد قصة الأحداث الأخيرة الغريبة
التي وقعت فى مدينتنا - فى هذه المدينة التي لم
تتميز بشيء يوما - فانتى أجدنى مضطرا أن
أتهقر قليلا الى وراء ، أى أن أبدأ بذكر بعض
التفاصيل عن حياة ذلك الرجل الموهوب المحترم المجمل سيفان تروفيموفتش
فرخوفسكى * . ان هذه التفاصيل لن تكون الا مدخلا الى القصة التي
تنوى أن نرويها . أما القصة نفسها فتأتى بعد ذلك .

يجب أن أقول بصراحة ان سيفان تروفيموفتش قد مثل بيننا على
الدوام دورا خاصا ، دورا « مدنيا » بمعنى من المعانى ، وكان مولعا بهذا
الدور أشد الولع ، شغوقا به أقوى الشغف ، حتى ليخيل الى أنه ما كان
ليستطيع أن يعيش دون أن يمثله . ليس معنى هذا أنتى أشبهه ب ممثل
على مسرح . معاذ الله ! لا سيما وأنتى أنا نفسى أحترمه . ولعل الأمر
لا يبدو أن يكون عنده أمر عادة ، أو قل أمر ميل ثابت نبيل كان يحصله
منذ الطفولة على أن يحلم لنفسه - متلذذا - بوضع مدنى جميل . فهكذا
كان يصير أشد الاصرار على أن يحتفظ لنفسه بحالة انسان « مضطهد »
أو انسان « منفى » بمعنى من المعانى . ان فى هاتين الكلمتين الصغيرتين

جمالاً كلاسيكياً قد فتن لبه مرة الى الأبد ، وكان يرفع قدره في نظر نفسه شيئاً بعد شيء ، خلال سنين بلغت من الكثرة أنه نصبه أخيراً على نوع من قاعدة تمثال عالية ترضى غروره كثيراً . في رواية ساخرة انجليزية يرجع عهداً الى القرن الماضي ، أن رجلاً اسمه جوليفر عاد من بلاد الليلوبيسين التي لا يزيد طول البشر فيها على بوصتين ، فكان قد بلغ من التعود على أن يعد نفسه بينهم عملاقاً ضخماً أنه حتى أثناء سيره في شوارع لندن كان يصيح على غير ارادة منه ، مهيباً بالمارة والعربات أن تزيع عن طريقه مخافة أن يدوسها ، فهو ما يزال يتخيل نفسه عملاقاً وما يزال يتصور الناس أقزاماً . وكان الناس يضحكون منه ساخرين ، وكانوا يشتمونه ويسبونه ، وكان الحوذيون الغلاظ يمشون الى حد لسع العملاق بضربات من سياطهم . ولكن هل كان هذا عدلاً ؟ أهم يجهلون الى أي حد يمكن أن تمنى العادة بالانسان ؟ الحق أن ستيفان تروفيموفتش كان قد وصل الى هذا الحد تقريباً ، وان يكن في صورة أكثر براة وأقل ضرراً وأذى ، اذا جاز استعمال هذا التعبير ، لأنه كان رجلاً ممتازاً ، والحق يقال .

أغلب ظني أنه كان في النهاية قد نسي في كل مكان ، وأنه غاب عن ذاكرة جميع الناس . ولكننا لا نستطيع أن نقول انه كان رجلاً مجهولاً تماماً في جميع الأزمان . فمما لا يمكن أن يججده أحد أنه كان هو أيضاً في وقت من الأوقات أحد نجوم الحياة العامة من أبناء جيلنا الماضي ، وأن عدداً من المسرفين في التعجل قد قرنوا اسمه خلال فترة من الوقت - وان تكن فترة قصيرة جداً - بأسماء رجال مثل تشايف * وبيلسكي وجرانوفسكي وهرتسن الذي كان يخطو أولى خطواته في الخارج حينذاك . غير أن نشاط ستيفان تروفيموفتش ما كاد يبدأ حتى انتهى ، في أعقاب « اعصار من الظروف » ان صح التعبير . وقد تبين

فيما بعد أنه لم يكن ثمة « اعصار » ولا كان ثمة « ظروف » ، في هذه الحالة التي تعيننا على الأقل . ولم أعلم الا الآن ، منذ بضعة أيام ، أن ستيفان تروفيموفتش لم يكن يعيش في مقاطعتنا منفياً ، كما كان يظن الناس عندنا عامة ، بل ولا كان مراقباً في يوم من الأيام . لقد دُهِشت أكبر الدهشة حين عرفت هذه الحقيقة ، ولكنني عرفتُها من مصدر لا يتطرق الشك الى صدقه . فانظر اذن الى قوة الخيال ما أكبرها ! لقد ظل هو نفسه ، طوال حياته ، يعتقد أن هناك أوساطاً لم تنقطع عن التخوف منه يوماً ، وأن جميع خطاه كانت معروفة معدودة ، وأن كل واحد من الحكام الثلاثة الذين تعاقبوا على مقاطعتنا خلال السنين العشرين الأخيرة كانوا يحملون عنه منذ وصولهم فكرة خاصة قلقه يوحى بها اليهم من أعلى ، ويوحى بها اليهم منذ تعيينهم قبل كل شيء آخر . فلو حاول أحد حينذاك أن يقنع المحترم جدا ، ستيفان تروفيموفتش ، بالأدلة القاطعة ، أن له أن يطمئن وأن في وسعه أن لا يخشى شيئاً ، لكان يفضبه حتماً . على أن ستيفان تروفيموفتش كان من خيرة الناس ذكاء وموهبة ، حتى نستطيع أن نعدّه بمعنى من المعاني رجلاً من رجال العلم ، وان يكن من ناحية العلم لم ينتج شيئاً ذا بال ، أو لم ينتج شيئاً البتة . ولكن هذا أمر يقع كثيراً لرجال العلم عندنا في روسيا .

لقد عاد من الخارج ولمع نجمه مدرسا بالجامعة حوالى سنة ١٨٤٠ ؛ ولم يتسع وقته لأكثر من القاء بضع محاضرات . وكانت هذه المحاضرات عن العرب فيما يبدو . واستطاع أيضاً أن يناقش رسالة لامعة عن الأهمية الحضارية والتجارية التي بدأت تحظى بها فيما بين عام ١٤١٣ وعام ١٤٢٨ ، مدينة هاناو الألمانية الصغيرة * ، وكذلك عن الأسباب الخاصة الغامضة التي منعت تلك المدينة من اكتساب تلك الأهمية بعد ذلك . وكان

من شأن تلك الرسالة أن طغت أنصار السلافية حينذاك ببراعة وحذق ، فأوغرت صدورهم عليه ، وأصبح له من بينهم أعداء كثيرون عتاة • وبعد ذلك - وكان قد فقد كرسيه في الجامعة - نشر (على سبيل الانتقام ان صح التعبير ، ولكي يرى الناس فداحة الخسارة بفقده) - نشر في مجلة جديدة تقديمية كانت تترجم ديكنز وتدعو الى جورج صاند ، بداية دراسة عميقة جدا ، كان موضوعها فيما يبدو هو أسباب النبيل الخارق الذي يمتاز به فرسان لا أدرى أى عصر من العصور ، أو كان موضوعها شيئا من هذا القليل • لكنه على كل حال قد برهن في تلك الدراسة على فكرة رفيعة غاية الرفة ، نبيلة أقصى النبيل • وقد قيل فيما بعد ان تمت هذه الدراسة قد منع نشرها فورا ، بل وان المجلة التقديمية قد لقيت متاعب كثيرة لأنها نشرت نصفها الأول • جائز جدا أن يقع هذا ، فأى شيء كان يستحيل حدوثه في ذلك الزمان ؟ ولكن الأرجح ، في الحالة التي تغينا الآن ، أن هذا لم يحدث ، وأن الكاتب نفسه قد تقاعس عن اتمام دراسته كسلا • أما دروسه عن العرب فقد أوقفها لأن شخصا لا ندرى من هو (لا شك أنه أحد أعدائه الرجعيين) * قد قبض لا ندرى كيف على رسالة كانت موجهة الى واحد من الناس وفيها عرض لبعض « الظروف » ، فكان من جراء ذلك أن أحد الأشخاص طلب منه بعض الايضاحات • لا أدرى هذا صحيح • ولكن قيل أيضا ان جمعية كبيرة قد اكتشفت ببطرسبرج في ذلك الوقت نفسه ، وهي جمعية تناهض الطبيعة وتناهض الدولة ، بلغ عدد أعضائها ثلاث عشرة عضوا ، وأوشكت أن تزعزع البناء ؛ حتى انها كانت تنوى أن تترجم فورييه نفسه • وبمصادفة تشبه العمد ، ألقى القبض بموسكو ، في ذلك الوقت نفسه ، على قصيدة كان ستيفان تروفيموفتش قد نظمها قبل ذلك بعشر سنين ، في مدينة برلين ، أيام شبابه الأول *

ألقى القبض عليها بينما كانت تنتقل من يد إلى يد ، بين اثنين من الهواة وأحد الطلاب . اننى أحتفظ بهذه القصيدة فى درج منضدتى : أهدانيها ستيفان تروفيموفتش بنفسه منذ سنة واحدة وقد نسخها بخط يده ، وزينها بأهداء منه ، وجلدّها بجلد أحمر جميل . ان هذه القصيدة لا تخلو من شعر ، بل ولا تخلو من بعض الموهبة . هى غريبة ، ولكن كثيرا ما كان الشعراء ينظمون على هذا النحو فى ذلك الأوان (أو قل على وجه أدق بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٠) . صعبٌ على أن أحديثكم عن موضوع القصيدة ، لأننى فى حقيقة الأمر لا أفهم منها شيئا . انها نوع من الرمز مصبوب فى قالب غنائى درامى يذكر بالجزء الثانى من فاوست . يرفع الستار عن جوقة من النساء تعقّبها جوقة من الرجال ثم جوقة من عناصر الطبيعة لا أدري ما هى ، وتأتى أخيرا جوقة أرواح لم تمش بعد ولكنها تشعر برغبة قوية فى أن تذوق الوجود . وهذه الجوقات كلها تغنى شيئا مبهما شديد الابهام هو فى أكثر الأحيان نوع من اللعن لكنه لعن يقال بلهجة لا سبيل الى مغالبة ما تثيره من ضحك ؛ وفجأة يتغير المشهد ليحل محله ما يسميه المؤلف « عيد الحياة » ، وفيه تشترك الحشرات نفسها بأغنيات . وتظهر سلحفاة ، فتتطق بمبارات لاتينية من تراويل الصلاة ؛ ويظهر كذلك ، اذا صدقت ذاكرتى ، معدن من المعادن ، أى شيء لا حياة فيه ، يأخذ ينشد هو أيضا . وهؤلاء جميعا لا يزيدون على أن يغنوا ، فاذا اتفق لهم أحيانا أن يتكلموا ، فانما هم يتكلمون ليتشاجروا ، دون أن يكون ثمة ما قد يبعث على المشاجرة ، ولكن بلهجة من أكثر اللهجات أبهة وفخامة بطبيعة الحال . ثم يتغير الديكور مرة أخرى . فالمكان الآن متوحش . وهذا شاب متحضر يسير وحيدا بين الصخور ، يقطف الأعشاب وهذه جنية تسأله لماذا يأكل هذه الأعشاب ، فيجيبها بقوله انه لشعوره بفرط ما يتدفق فيه من قوى حيوية ينشد النسيان ،

وانه يجد ضالته في مص هذه النباتات ، لكن رغبته الأساسية هي أن يفقد عقله بأقصى سرعة (رغبة نافلة) . ويدخل بعد ذلك ، على حصان أسود ، فتى لا سبيل الى وصف جماله ، ووراء جمهور كبير من الناس ينتمون الى جميع القوميات ! ان هذا الفتى يجسد الموت الذي ترنو اليه جميع الشعوب ! ثم يظهر فجأة ، في الفصل الأخير ، برج بابل ، وقد أخذ رجال أشداء يكملون بناءه وهم ينشدون نشيد الأمل الجديد . فإذا تم البناء حتى القمة رأينا المالك - ولنسمه صاحب الاولب - يهرب هروبا مزريا . فإذا بالإنسانية التي أصبحت منذئذ تعرف ماذا تريد ، تحتل مكانها ، ثم اذا بها تبدأ عصرا جديدا وتكوّن لنفسها في الوقت ذاته نظرة جديدة الى الكون . تلك هي القصيدة التي عدت حينئذ خطرة . وقد اقترحت على ستيفان تروفيموفتش ، في العام الماضي ، أن ينشرها لأنها في أيامنا هذه خالية خلوا مطلقا من كل خطر . فرفض اقتراحي باستياء واضح . ذلك ان القول بأن قصيدته لا تشتمل على شيء خطر ، لم يرضه ، وهذا هو السبب الذي أعتقد انه جفاني من أجله بعد ذلك طوال شهرين . ولكن حدث في نحو ذلك الوقت نفسه الذي اقترحت عليه فيه نشر قصيدته أن نشرت القصيدة في ديوان شعر ثوري صدر « هناك » ، أي في الخارج ، وذلك على غير علم من ستيفان تروفيموفتش طبعا . فأفزع هذا النبأ في أول الأمر . فإذا هو يهرع الى الحاكم ، ثم اذا هو يكتب الى بطرسبرج رسالة تبريرية رفيعة جدا ، قرأها لي مرتين ، لكنه لم يرسلها لأنه لم يعرف الى من يرسلها . الخلاصة انه عاش خلال شهر كامل في حالة من يتوجس خيفة من شر يهيم أن يحيق به ، لكنني واثق أنه كان يشعر في قرارة نفسه بكثير من الزهو . ولما حصل ستيفان تروفيموفتش على نسخة من الديوان أصبح لا يفارقها الا في الليل مكرهاً

حين يريد أن ينام • وكان يخبئها في النهار تحت الفراش ولا يسمح
لخادمه بأن ترتب سريره • وكان يصطنع هيئة التعالي والكبر ، على توقعه
في كل يوم أن تصل اليه برقية لا أدري ما هي • ولكن ما من برقية
وصلت • وعندئذ صالحنى ، وهذا دليل على طيب قلبه الخنون ، وعلى أنه
لا يحمل حقدا ولا يضمّر ضغينة •

لست أدعى أنه لم يلق أية متاعب ، ولم تعترضه أية مصاعب .
ولكننى اليوم مقتنع اقتناعا تاما بأنه كان فى وسعه أن يثابر على القاء
محاضراته عن العرب ما شاء أن يثابر ، مكتفيا بتقديم الايضاحات
اللازمة . غير أنه تشدد وأسرف فى التشدد ، وتعجل تعجلا كبيرا فعقد
عزمه على أن يعتقد اعتقادا جازما بأن حياته الجامعية قد حطمتها « اعصار
الظروف » الى الأبد . واذا كان علينا أن نذكر الحقيقة كلها فيجب أن
نقول ان السبب الذى دفعه الى تغيير مهنته فعلا هو أن فرارا بتروفا
ستافروجين ، وهى زوجة جنرال وامرأة واسعة الثراء جدا ، قد عرضت
عليه فى الماضى أن يتولى تثقيف ابنها الوحيد وأن يشرف على تنشئته
الفكرية ، بصفته عالما من علماء التربية وبصفته صديقا ، (ناهيك عن
المكافأة المالية الكبيرة التى سينالها دون أن تجىء هى على ذكرها) ، ثم
عادت تجدد عرضها فى ذلك الحين . لقد قدّمت اليه عرضها أول مرة
وهو ما يزال ببرلين ، بعد فقد زوجته الأولى . كانت زوجته تلك فتاة
طاشة اللب جامحة الطبع من مقاطعتنا ، تزوجها فى أيام شبابه الأول
المندفع . ويظهر أنه لقي مع هذه الانسانة ، الفتاة والحق يقال ، كثيرا
من الحزن والعباء ، لأنه لم يستطع أن يفي بحاجاتها من جهة ، ولأسباب
أخرى يتخرج المرء من ذكرها من جهة أخرى . وقد توفيت بباريس بعد
أن عاشت السنين الثلاث الأخيرة منفصلة عنه ، وتركت له طفلا فى
الخامسة من عمره هو « ثمرة الحب الأول الفرح الذى لم تكن قد كدرته
سحابة » ، على حد التعبير الذى أفلت يوما أمامى من ستيفان تروفيموفتش

ففي لحظة حزن • وسرعان ما أُرسِلَ الطفل الى روسيا ، فكفلت تربيته نساء تمت اليه بقرابة بعيدة ، فعاش الطفل في مكان ناء بأعماق الريف • وقد رفض ستيفان تروفيموفتش العرض الذي قدمته فرافارا بتروفنا • وما هي سنة أو بعض سنة اذا بصاحبنا يتزوج مرة أخرى بألمانية من برلين ، وهو زواج لم يكن يبدو أن ثمة ما يدعو اليه أو يقضي به • وهناك أسباب أخرى دفعته الى رفض وظيفة المربي : لقد كان يغريه الصيت الذي يحظى به أستاذ شهير من أساتذة العصر ، وكان لا بد له أن يطير الى ذلك الكرسي الذي طالما رنا اليه بصره ، وأن تجرب هو أيضا جناحي النسر اللذين يملكهما • أما الآن وقد احترق الجناحان ، فإن من الطبيعي أن يتذكر صاحبنا ذلك العرض الذي تردد في قبوله من قبل • واختطف الموت زوجته الثانية فجأة - بعد زواج لم يدم أكثر من سنة واحدة - فترتب كل شيء على الوجه الأكمل • يجب أن أقول بصراحة ان هذا الحل انما يرجع الى ما كانت تحمله فرافارا بتروفنا لصاحبنا من مودة خالصة وصداقة ثمينة ، صداقة كلاسيكية ان صح التعبير • فارتمى ستيفان تروفيموفتش في أحضان هذه الصداقة ، وتحدد بذلك وضعه مدة تزيد على عشرين عاما • قلت « ارتنى في الأحضان » ولكن أرجو أن يحمي الله القاريء من سوء الظن فما يحتمل قولي ما لا يحتمل • ان كلمة الأحضان هذه يجب أن تفهم بمعنى أخلاقي تماما • فالصلة التي ربطت بين هذين الشخصين الممتازين قد ظلت على أروع جانب من الرهافة والنعومة •

وهناك سبب آخر دعا ستيفان تروفيموفتش الى قبول منصب المربي • ان الميراث الصغير جدا الذي خلفته زوجته الأولى يقع على مقربة من الأطنان الواسعة المجاورة لمدينة سكفورشنيكي ، التي كانت أسرة ستافروجين تملكها في مقاطعتنا • هذا الى انه سيستطيع في خلوة مكتبه ،

حين لا يكون عليه أن ينهض بأعبائه الجامعية الضخمة ، أن ينقطع للعلم
وأن يمهر الأدب القومي بدراسات عميقة • على أن هذه الدراسات لم تر
النور يوما ، لكن صاحبنا استطاع في مقابل ذلك ، خلال حياته كلها بعدئذ ،
أى خلال ما يزيد على عشرين عاما أن ينتصب بقامته تجاه الوطن « لوماً
مجسدا » على حد تعبير ذلك الشاعر القومي الذى قال :

**مثل لوم مجسد
تنتصب قامتك تجاه الوطن
لبراليا مثاليا**

يجدر أن نقول ان الفرد الذى يتحدث عنه هذا الشاعر القومي ربما
كان من حقه ، اذا شاء ، أن يقف تلك الوقفة خلال حياته كلها ، رغم أنها
وقفة مملة مضجرة • أما صاحبنا ستيّفان تروفيموفتش فانه لا يعدو أن
يكون بالقياس الى أمثال أولئك الناس مقلدا ومحاكيا • لقد كانت الوقفة
المنتصبة تتبعه • وما أكثر ما آثر عليها أن « يستلقى على جنبه » • يجب أن
نقول مع ذلك ، اذا نحن شئنا الانصاف ، ان اللوم المجسد ظل موجودا رغم
الاستلقاء على الجنب ، خاصة وأن مقاطعتنا كانت فى حاجة اليه • ليتكم
رأيتموه فى النادى حين يلعب الورق ! لقد كان وضعه كله يهتف : هاتوا
الورق ! ••• صحيح أنتى ألعب معكم ••• ولكن أية صلة تربطنى بكم ؟
من هو المذنب فى هذا ؟ من الذى هدّم حياتى الجامعية ، وردّنى الى هذا
الدرك حتى أصبحت لا أزيد على أن أكون واحدا من حلقة مقامرة ؟
أهلك الله روسيا ! • • وفيما هو يشمخ بأنفه ، تراه يقطع الورق فى
حماسة •••

والحق انه كان مقتونا باللعب ، وهذا هو السبب فى كثير من
المشاجرات المزعجة التى وقعت بينه وبين فر فارا بتروفا ، لا سيما فى المدة

الأخيرة • وكان مما يفاقم الأمر أن صاحبنا يخسر في اللعب دائما • على أن لى عودة الى هذا الموضوع • وحسبى الآن أن أذكر أن الرجل كان حساس الوجدان مرهف الضمير (أو قل على الأقل انه كان يتفق له أن يكون كذلك فى بعض الأحوال) ومن أجل هذا كان فى كثير من الأحيان حزين النفس • وفى خلال الاعوام العشرين التى قضاها فى صداقة فرفارا بتروفنا ، كان يتفق له دائما ، ثلاث مرات أو أربعة فى العام ، أن يصاب بنوبات من « الحزن الحضارى » ، كما أسميناه فيما بيننا ، أى بنوبات من الكتابة لا أكثر ولا أقل ؛ غير أن المحترمة فرفارا بتروفنا كانت تحرص أشد الحرص على استعمال هذه اللفظة • وقد أصبح يصاب بعد ذلك بنوبات سببها « الشمبانيا » ، غير أن فرفارا بتروفنا المرهفة الحس الرقيقة الشعور استطاعت دائما أن تحميه من التردى فى حمأة الميول الخسيسة • والحق أن هذا الرجل كان فى حاجة الى مربية من مربات الأطفال ، اذ كان يتفق له أحيانا أن يكون غريب الأطوار : فبينما هو مثلا فى ذروة حزنه الرفيع اذا هو يأخذ يضحك على حين غرة ضحكا مبتذلا • وكان فى بعض الساعات يطفىق يتحدث عن نفسه بلهجة ساخرة • وفرفارا بتروفنا لا تفزع من شئ فزعها من السخر • انها امرأة تعتق مبادئ كلاسيكية ، امرأة تحمى العلماء وترعى الأدباء ، ولا تستلهم فى سلوكها غير البواعث العليا والدوافع السامية • ولقد كان تأثير هذه السيدة الكبيرة فى صديقها المسكين خلال عشرين سنة تأثيرا قويا • ويحسن أن نتحدث عنها حديثا خاصا • وهذا ما أنا فاعله الآن •

ثمة صداقات غريبة : رب صديقين يوشك كل منهما أن يلتهم صاحبه في كل لحظة ، ثم هما يقضيان حياتهما كلها دون أن يطبقا الافتراق ، حتى ليستحيل عليهما أن يهجر أحدهما الآخر . فإذا بدا لأحد منهما أن يقطع صلته بالآخر في ساعة نزوة ، كان أول من يسقط مريضا من شدة الحزن، حتى لقد يموت كمدا ولوعة . أعرف أن ستيفان تروفيموفتش قد حدث له غير مرة ، بعد مكاشفات خلوية مع فرارا بتروفنا ، أن وثب عن أريكته منذ أصبح وحيدا ، وأخذ يضرب الجدار بقبضة يده .

لست أزخرف . . . حتى لقد بلغ من شدة الدق على هذا النحو في بعض الاحيان أن أسقط جير الجدار . رب سائل يسألني : كيف استطعت أن تعرف أمرا تفصيليا كهذا الامر ، وهل شهدته بأمر عينك ؟ لقد طالما أخذ ستيفان تروفيموفتش ينتحب فوق كتفي مرات كثيرة ، وهو يصور لي العواطف التي تضطرم في قرارة نفسه أقوى تصوير ! وما أكثر الأمور التي كان يعترف لي بها في تلك اللحظات ! اليكم ما كان يحدث دائما على وجه التقريب بعد هذه الثوبات من الانتحاب : كان لا يأتي الفد الا وستيفان تروفيموفتش مستعد لأن يتتجر معاينة لنفسه على عقوفه وانكاره للجميل . كان يرسل في طلبى على عجل ، أو يهرع الى بيتى بنفسه ، لا لشيء الا ليخبرني بأن فرارا بتروفنا « ملاك من ملائكة نبل الشرف ورهافة الشعور ورقة العاطفة ، وانه هو نقيض ذلك » . وكان لا يكتفى بأن يسر الى أنا بدخيلة نفسه ، بل كان يبعث اليها باعترافاته في رسائل يودعها غاية ما يطيقه من بلاغة . كان يعترف لها مثلا بأنه بالأمس قد قص

على أحد الناس انها لا تحتفظ به الا حبا بالظهور ، وانها تنفس عليه علمه ومواهبه وتثار منها ، وأنها تكرمه ، وانها ان كانت لا تظهر له هذا الكره ، فما ذلك الا مخافة أن يتركها فيسيء بذلك الى سمعتها كأديبة ؛ ويضيف الى ذلك أنه يحقر نفسه ، وأنه قرر أن يتحجر ، وأن ينتظر منها كلمة أخيرة تحدد مصيره ، وهلم جرا ! ... تستطيعون أن تتخللوا بعد هذا مدى ما كانت تصل اليه الانفجارات العصبية لدى هذا الطفل الذي يفوق في برأته سائر من هم في الخمسين من العمر . لقد قرأت أنا نفسي ، ذات يوم ، رسالة من تلك الرسائل كتبها على اثر مشاجرة قامت بينه وبين صاحبه لسبب تافه ، وتفاقت مع ذلك أشد التفاقم . لقد أرعيتني هذه الرسالة ، فرجوته أن لا يبعث بها اليها ، فأجابني بما يشبه الهذيان قائلا : « مستحيل ... هذا أشرف ... هذا واجبي ... لسوف أموت ان لم أعترف لها بكل شيء ، بكل شيء » .

• وبعث بالرسالة •

ان الفرق بينه وبين فرفارا بتروفا هو انها لا يمكن أن تبعث رسالة كهذه الرسالة في يوم من الأيام . والحق ان صاحبنا كان يحب الكتابة كثيرا ، ولقد كان يكتب اليها رسائل حتى حين كانا يقيمان في بيت واحد ، وكان يكتب اليها رسالتين في اليوم الواحد حين تستبد به نوبات العصبية . وأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقرأ رسائله باهتمام كبير دائما ، حتى حين يصل اليها منه بريدان . فاذا انتهت من قراءة الرسائل نصّدتها في صندوق خاص بعد تزيئها بالحواشي وتصنفها . (كانت تنصّدها أيضا في ذاكرتها) ، ثم تدع صاحبها بلا جواب طوال يوم بكامله ، ثم تلقاه بعد ذلك وكأن شيئا لم يكن ولا حدث أمر من الأمور البتة . وشيئا فشيئا تكون قد بلغت من ترويضه أنه لا يجروء هو نفسه أن يذكر ما وقع

بالأمس ، ثم لا يزيد على أن يختلس النظر الى عينيها • لكنها لا تكون قد نسيت شيئاً ، بينما هو ينسى في بعض الأحيان كل شيء بسرعة كبيرة ، يشجعه على ذلك ما يلاحظه فيها من فرط الهدوء ، فإذا اتفق أن جاء بعض الاصدقاء في اليوم نفسه رأيته في كثير من الأحيان قد أخذ يضحك ويمزح كالمهزول وهو يفرغ أفداح الشمبانيا في جوفه دفعة واحدة • وما أمراً النظرات التي كانت ترشقه بها في مثل تلك اللحظات ، دون أن يلقى إليها بالاً !

لكنه حين كان يتذكر فجأة على غير ارادة منه ، بعد أسبوع ، أو بعد شهر ، أو حتى بعد ستة أشهر ، هذه العبارات أو تلك من العبارات التي ضمته رسالة من رسائله ، أو حين كان يتذكر رسالة بكاملها من تلك الرسائل في أدق تفاصيلها ، كان يحمر وجهه خجلاً ، وسرعان ما يستحيل ألمه عندئذ الى عذاب شديد ، فإذا هو يصاب بنوبة اسهال حاد • لقد كانت هذه النوبات العجيبة التي تشبه مرض الكوليرين ترجع في بعض الاحوال الى اضطرابات العصبية وتصورّ صفة غريبة من صفات بنيانه •

والحق ان فرفارا بتروفا كانت تكرهه في كثير جدا من الأحيان ، ما في ذلك ريب • غير ان هناك شيئاً ظل الى النهاية لا يستطيع أن يدركه فيها ، وهو أنها كانت من طول صحبتها له قد انتهت الى اعتباره ابناً لها هي خالقه بل هي مبدعته ان صح التعبير • لقد أصبح جزءاً منها ، فإذا احتفظت به وعالته ، فليس يرجع ذلك الى « غيبتها من مواهبه » • وما كان أشد ألمها من مثل هذه الافتراضات ! حتى لقد كانت تشعر نحوه بحب عنيف يمازجه كره في جميع اللحظات ، كما تخالطه غيرة ويخالطه احتقار • لقد سهرت عليه ودلته خلال عشرين عاماً كما تسهر الأم على طفلها وتدله • ولا شك انها أرقّت ليالى طويلة حين كانت تُمسّ سمعته كشاعر

وعالم ومواطن • انها هى التى خلقتة ، وهى أول من خلقه • هذا ما كانت
تعتقد به • لقد كان عندها بمثابة حلم لها • لكنها كانت فى مقابل ذلك
تطالبه بأمور كثيرة ، حتى لقد كانت تقتضيه فى بعض الأحيان أن يكون لها
عبداً • وكانت حقودة الى درجة لا نظير لها • وانى لأحرص فى هذه
المناسبة على أن أروى هاتين القصتين الصحيحتين :

فى ذات يوم ، ابان رواج أولى الشائعات عن تحرير الفلاحين ، بينما أصبحت روسيا كلها فى نشوة وفرح على حين فجأة ، وبينما كانت تنهيا لأن تبث بعثاً جديداً ، زار فرفاراً بتروفناً بارون من بطرسبرج ، كان ماراً بمدينتنا ، وهو رجل له علاقات رفيعة وله بالحكومة صلات وثيقة . لقد كانت فرفاراً بتروفناً تحرص على أمثال هذه الزيارات أشد الحرص ، لأن علاقاتها بالمجتمع الراقى قد كانت منذ وفاة زوجها تنهن مزيدا من الوهن يوما بعد يوم ، الى أن انقطعت فى النهاية انقطاعاً تاماً .

قضى البارون عندها ساعة واحتسى الشاي . ولم يكن معها أحد الا ستيفان تروفيموفتش الذى دعتة فرفاراً بتروفناً لتعرضه . وكان البارون قد سمع عنه أو تظاهر بأنه سمع عنه ، لكنه لم يكذب يخاطبه أثناء الشاي بكلمة . ولا شك أن ستيفان تروفيموفتش كان يحسن التصرف أياً ما احسان ؛ ولقد كانت له آداب رفيعة . انه على وضاعة محتده قد أتيح له أن ينشأ منذ طفولته فى منزل أسرة نبيلة بموسكو ، فهو اذن قد تربى تربية حسنة . وكان لذلك يتكلم اللغة الفرنسية كما يتكلمها باريسى . وكان على البارون اذن أن يدرك منذ النظرة الأولى نوع هؤلاء الناس الذى يحيطون بفرفاراً بتروفناً حتى فى عزلتها بالريف . غير أن شيئاً من هذا لم يحدث . فحين أعلن البارون أن الشائعات التى أخذت تروج عن الاصلاح الكبير صحيحة كل الصحة ، لم يستطع ستيفان تروفيموفتش أن يسيطر على نفسه فصاح يقول فجأة : «مرحى !» ، وأرقق الصيحة بحركة تعبر عن حماسه . ولقد أطلق صيحته هذه بصوت معتدل ، حتى ليمكن

أن نقول انها لم تكن تخلو من رشاقة وأناقة ؛ بل ان من الجائز أيضا أن الجماسة كانت محسوبة وأن الحركة قد درست أمام المرأة قبل الشاي بنصف ساعة . ولكن أغلب الظن أن ستيفان تروفيموفتش لم يوفق فيها . لذلك سمح البارون لنفسه بابتسامة خفيفة ، وأسرع يدس مع ذلك جملة مهذبة مؤدبة يعبر فيها عن أن الانفعال القوي الذي تحسه القلوب الروسية ازاء الحدث الكبير أمر مفهوم جدا ومعقول جدا . ثم لم يلبث أن استأذن بالانصراف ، ولم ينس حين ذهب أن يمسد الى ستيفان تروفيموفتش اصبعين . فلما عادت فرفارا بتروفنا الى الصالون لزمت الصمت بضع دقائق متظاهرة بأنها تبحث عن شيء على المنضدة ، ثم التفت نحو ستيفان تروفيموفتش فجأة ودمدمت تقول له من بين أسنانها ، شاحبة الوجه متقدة العينين :

— لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام !

ولقيته في الغداة فكان شيئا لم يحدث ، ثم لم تشر الى هذا الحادث أية اشارة . ولكنها تذكرته بعد ثلاثة عشر عاما في دقيقة أليمة ، وأخذته عليه ، مستقعة اللون كما في المرة الأولى تماما . ان فرفارا بتروفنا لم تقل لصديقتها هذه الجملة « لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام » الا مرتين في حياتها . فالحادث الذي وقع أثناء زيارة البارون كان هو المرة الثانية . أما المرة الأولى فقد وقعت قبل زيارة البارون بمدة طويلة . وهي تبلغ من التميز ومن خطورة الشأن في حياة ستيفان تروفيموفتش أنني أعزم أمرى على أن أرويها .

كان ذلك في ربيع سنة ١٨٥٥ ، في شهر أيار (مايو) ، بعيد أن علم في سكفورشنيكى نبأ موت الليوثنان جنرال ستافروجين ، المجوز المتحلل الطائش الذى توفى من آثار اضطراب في المعدة أثناء ذهابه الى

بلاد القرم التي عيّن في جيشها العامل • لقد لبست فرفارا بتروفا ملابس الحداد • ولكن حزنها لا يمكن أن يكون عميقا جدا ، لأنه بسبب فقدان التوافق في الزواج بينها وبين زوجها كانت تعيش منفصلة عنه انفصالا تاما منذ أربع سنين ، وتقدم له ما هو في حاجة اليه من نفقة (كان الجنرال ينتمى الى أعلى طبقة نبيلة ، وكانت له علاقات كبيرة ، لكنه كان لا يملك الا خمسمائة نفس ومرتب الوظيفة • أما الثروة كلها ، وكذلك سكفورشنيكى ، فقد كانت لفرفارا بتروفا ، وهى الابنة الوحيدة لتاجر غنى من تجار الخمور) • ومع ذلك فقد هزّها الحادث هزاً قويا ، فانزوت فى عزلتها ، ولم يتركها ستيفان تروفيموفتش طبعاً •

كان شهر أيار (مايو) فى تمام ازدهاره • الأماسى جميلة رائعة • أزهار الكرز البرى قد بدأت تتفتح براعمها • والصديقان يمضيان الى الحديقة كل مساء عند هبوط الليل ، ويظلان جالسين تحت قبة من أغصان الشجر يفضى كل منهما الى صاحبه بعواطفه وأفكاره • انهما يعيشان لحظات شعرية حقا • وكانت فرفارا بتروفا ، بسبب التغير الذى أصاب حياتها ، تتكلم أكثر مما اعتادت أن تتكلم قبل ذلك • فهى تبدو منجذبة الى قلب صاحبها انجذابا قويا • هكذا انقضت ليل كثيرة • وفجأة خطرت ببال ستيفان تروفيموفتش فكرة غريبة : ترى أليست تطمع فيه هذه المرأة الحزينة التى لا يجد العزاء الى نفسها سبيلا ؟ ألا تنتظر منه أن يخطبها متى انتهت سنة الحداد ؟ فكرة عجيبة • لكن رهافة البنيان النفسى تشجع فى المرء أحيانا بعض الميل الى مثل هذه الأفكار العجيبة ، فعلى قدر نمو النفس يكون الاستسلام لجموح الخيال • وقد أخذ الرجل يتعمق دراسة الأمر فوجد أن افتراضه جائز • فجعل يفكر : « صحيح ان الثروة طائلة ، ولكن ... ! » • الواقع ان فرفارا بتروفا لم تكن على أى حظ من



فرقارا بتروفنا ستافروجين

جمال : امرأة طويلة القامة ، صفراء الوجه ، بارزة المظام ، يشبه وجهها من فرط طوله أن يكون وجه حصان • وأصبح ستيفان تروفيموفتش يزداد ترددا • وغزت رأسه الشكوك ، حتى لقد هطلت دموعه مرتين من شدة حيرته (كانت دموعه سريعة الانسكاب) • لكنه فى المساء ، أى تحت قبة الشجر ، كان وجهه يعبر ، رغم ارادته ، عن النزوة الى جانب شىء من الكبر والصلف • ان مثل هذا التعبير يظهر ظهورا غير متوقع ، وكلما كان المرء رفيعاً بدا هذا التعبير فى وجهه واضحا •

واذا كنا لا نستطيع أن نقطع برأى فيما كان يعتلج فى قلب فرفارا بتروفا فأغلب الظن أن قلبها لم ينبت فيه شىء مما يسوِّغ ظنون ستيفان تروفيموفتش • ثم انها ما كان لها أن ترضى أن تستبدل باسمها - ستافروجين - اسم ستيفان تروفيموفتش مهما يكن هذا الاسم مجيدا • ولعل الأمر كله لا يعدو أن يكون عندها تسليية صغيرة من تسليات النساء ، وثمره حاجة لا شعورية ، طبيعية فى المرأة فى بعض الظروف الخاصة • ومهما يكن من أمر فاني لا أستطيع أن أقطع برأى حاسم • ولقد ظل قلب هذه المرأة مغلقا حتى يومنا هذا • ولكن فلتتابع القصة •

أغلب الظن أن فرفارا بتروفا لم تلبث أن أدركت معنى هذا التعبير الغريب الذى يظهر فى وجه صاحبنا • فلقد أوتيت قوة الحدس وموهبة الملاحظة ، فى حين أن ستيفان تروفيموفتش كان فى بعض الاحيان ساذجا مسرفا فى السذاجة • ومع ذلك ظلت الأمسيات تنقضى على عاداتها وظلت الأحاديث بين الصديقين تجرى شعيرة شائعة • وفى ذات مرة ، عند هبوط الليل ، بعد حديث من أكثر الأحاديث امتلاء بالحياة وتضمخا بروح الشعر ، افترق الصاحبان على مودة عند عتبة الجناح الذى يقيم فيه ستيفان تروفيموفتش ، بعد أن تصافحا فى حرارة • لقد كان ستيفان تروفيموفتش



بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسکی

فى مطلع كل صيف ، يترك الدار الواسعة المريحة ، ويستقر فى هذا البيت الصغير الذى يكاد يثوى فى قلب الحديقة •

دخل الرجل الى بيته ، وتناول سيجارا فى تردد مهموم واجم ، ووقف أمام النافذة قبل أن يشعل السيجار ، وقف متعبا ساكنا ، يحدق بنظره الى الغمامات الصغيرة البيض ، الخفيفة كندف الثلج ، التى تحوم حول القمر الهادى ••••• وفيما هو كذلك اذا به يسمع على حين فجأة ضجة صغيرة ، فيرتعش ويلتفت ••••• كانت فرارا بتروفا التى تركها منذ أربع دقائق ، واقفة هنالك أمامه • ان وجهها الشاحب قد ضرب الى زرقة ، وان شفيتها المنقبضتين ترتعشان عند الزاويتين • وظلت المرأة تنظر اليه خلال عشر ثوان نظرة قاسية ، دون أن تنبس بكلمة ، ثم دمدت تقول على عجل : « لن أغفر لك هذا فى يوم من الأيام ! » •

حين قص على ستيفان ترفيموفتش هذه القصة بعد عشر سنين ، بصوت خافت ، وقد أغلق الأبواب ، حلف انه بلغ من الانشده فى تلك اللحظة انه لم يسمع ولا رأى كيف اختفت فرارا بتروفا • ولأن فرارا بتروفا لم تشر الى هذا الحادث مرة واحدة بعد ذلك ، ولأن كل شىء قد جرى بعدئذ فى مجراه الطبيعى ، فقد ظل صاحبنا طوال حياته يعتقد انه كان فريسة وهم من الأوهام التى تسبق المرض عادة ، لا سيما وأنه فى تلك الليلة قد مرض فعلا ، وظل مريضا طوال خمسة عشر يوما ، وهذا ما قطع لقاءهما كل يوم فى المساء تحت قبة الاشجار • ومع ذلك ، رغم رغبته فى الاعتقاد بأن الامر لا يعدو أن يكون وهما ، فقد ظل خلال حياته كلها ، وفى كل يوم من الايام ، ينتظر تنمة هذا الحادث أو ينتظر خاتمة هذه المغامرة ان صح التعبير • كان لا يستطيع أن يصدق أن القصة قد انتهت ! واذا كان الامر كذلك حقا ، فلك أن تتصور النظرات الخاصة التى كان يلقيها على صديقه من حين الى حين •

كانت فرارا بتروفا قد بلغت من الاهتمام بأمره انهما تخيلت له ملابس ظل يرتديها طوال حياته ، وهي ملابس أنيقة متميزة تشتمل على ما يلي : ردتجوت اسود طويل الجانبين ؛ مزرر حتى العنق تقريبا ، ولكنه يناسبه الى أبعد حد ؛ قبعة لينة واسعة الحافة (هى فى الصيف قبعة من القش) ؛ ربطة عنق من حرير أبيض ، كبيرة العقدة متموجة الطرفين؛ عصا ذات قبضة من فضة ، هذا الى شعر طويل متهدل حتى الكتفين • ان شعره الكستائى لم يبيض قليلا الا فى السنين الاخيرة • وكان يحلق شاربيه ولحيته • ويقال انه كان فى شبابه فتى وسيما الى أبعد حدود الوسامة • وفى رأى انه ظل يحتفظ بمظهر مهيب حتى شيخوخته • وهل يُعد المرء شيخا وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ؟ على أن صاحبنا كان ، من قبيل التزيّن البطولى ، لا يحاول أن يظهر بمظهر الشباب ، بل يستمد من تقدمه فى السن زهواً أى زهو • وكان بملابسه الغريبة وقامته الطويلة النحيلة وشعره المتهدل على كتفيه أشبهَ ببطرك من البطارقة ، أو قل كان أشبه بصورة الشاعر كوكولنيك * كما تراها منقوشة على طبعة مؤلفاته التى ظهرت بين عام ١٣٨٠ وعام ١٨٤٠ •

وكان هذا الشبه يبرز بروزا خاصا حين كان صاحبنا يجلس فى الصيف على مقعد بالحديقة ، فى ظل أشجار الليلك المزهرة ، وقد أسند يديه على عصاه ، والى جانبه كتاب مفتوح ، وغاب فى أحلام شعرية يوحى بها منظر الشمس الغاربة • وعلى ذكر الكتب يجب أن ألفت النظر الى الى أن صاحبنا قد انتهى بضى الزمن الى النفور من القراءة • غير أن

ذلك لم يحدث الا فى السنين الاخيرة من حياته • هذا الى انه كان يواظب على قراءة الصحف والمجلات التى كانت فرارا بتروفا تكثر من استحضارها • وكذلك لم ينقطع عن الاهتمام باتصارات الادب الروسى ، ولكن دون أن يفقد شيئاً من رصاته • وقد شغف بدراسة سياستنا المعاصرة، الداخلية والخارجية ، فى وقت من الاوقات • لكنه لم يلبث أن عدل عن مشروعه هذا • وكذلك كان يتفق له حين يمضى الى الحديقة أن يحمل كتابا من كتب توكفيل * وان كان يضع فى جيبه مؤلفا من مؤلفات بول دو كوك • على أن هذه تفاصيل لا قيمة لها •

وعلى ذكر صورة كوكولنيك أحب أن أشير مستطردا الى ان هذه الصورة قد وقعت لأول مرة بين يدي فرارا بتروفا حين كانت طالبة داخلية فى « معهد البنات النييلات بموسكو » • فما ان رأتها حتى افتتت بها ، على عادة جميع الفتيات فى المدارس الثانوية ، اللواتى يعشقن أى شئ ، ويعشقن أساتذتهن فى الوقت نفسه ، وأساتذة الخط والرسم خاصة • على أن هذا ليس أهم ما فى الحكاية ، فهو شئ لا يكاد يلفت النظر فى فتاة صغيرة ، وانما أهم ما فى الحكاية أن فرارا بتروفا ظلت وهى فى الخمسين من عمرها تحتفظ بهذه الصورة بين أعز ما تحتفظ به من ذكرياتها الخاصة الحميمية • ولعل هذا هو السبب الوحيد فى انها فصّلت لستيفان تروفيموفتش رداء شبيها برداء الشاعر كما يرى فى الصورة • على أن هذا أمر لا قيمة له أيضا بطبيعة الحال •

وفى ابان السنين الاولى ، أو قل فى خلال الشطر الاول من اقامة صاحبنا عند فرارا بتروفا ، كان ما يزال يفكر فى تأليف كتاب لا أدرى ما هو ، فما من يوم الا وهو يتهاى لمباشرة عمله جاداً • ولكن فى خلال الشطر الثانى من اقامته هذه ، هجر المشروع فيما يظهر • وكثيرا ما كنا

نفاخته يقول : « يلوح لى دائما أنتى سأشرع فى الكتابة ، بعد أن جمعت المواد اللازمة ... ولكننى أنظر فأرى أن لا سبيل الى ذلك ، وأن لا شئ يوافى » .

وكان اذ يقول ذلك يخفض رأسه مرهقا . ولا شك أن هذا الوضع كان ينبغى أن لا يزيد فى نظرنا الا عظمة ومهابة ، فهو شهيد من شهداء العلم . أما هو فكان يرغب فى شئ آخر . لقد أفلت منه غير مرة قوله : « لقد نسيت ، ولا حاجة لأحد بى بعد الآن . » غير أن هذا الشعور بالأسى العميق القوى انما استبد به استبدادا خاصا حوالى عام ١٨٦٠ . وأدركت فرفارا بتروفا أخيرا أن الأمر فى هذه المرة خطير . هذا الى انها كانت لا تستطيع أن تسلّم بأن صاحبها قد نسيه الناس وأصبحت حياته غير ذات جدوى . فمن أجل أن تسليّه قليلا ، ومن أجل أن تعيد الى شهرته شيئا من النضادة فى الوقت نفسه ، ذهبت به الى موسكو ، المدينة التى لها فيها علاقات طيبة بعالم العلم والادب . ولكن اتضح لها أن موسكو غير كافية البتة .

انه لعصر عجيب ذلك العصر ! ... ان شيئا جديدا يهّم أن يولد ، شيئا لا شبه بينه وبين الهدوء القديم ، شيئا غريبا كل الغرابة ، ولكن الناس يستشقونه فى كل مكان ، حتى فى أراضى سكفورشيكي . كانت أصداء منه قد وصلت إلينا . اتنا نعرف الوقائع . لكن الوقائع تجر وراءها عددا كبيرا من الافكار الجديدة . كان هذا ينشر الحيرة والاضطراب فى العقول . وكان يستحيل علينا أن ندرك المعنى الصحيح والدلالة الصادقة لهذه الأفكار . لذلك قامت فى نفس فرفارا بتروفنا ، بحكم طبيعتها النسوية ، رغبة قوية فى ادراك السر . فأخذت تقرأ جميع ما يأتون به اليها من الجرائد والمجلات ، والنشرات الاجنبية المتنوعة فى روسيا ، وحتى

الدعوات الثورية التي أخذت تنتشر حينذاك (كان هذا كله يرسل اليها)
لكن ذلك لم يزد رأسها الا اضطرابا . وشرعت كذلك فى كتابة رسائل .
الا أن الاشخاص الذين تكتب اليهم لا يحييون الا قليلا ، وكلما استمرت
المراسلة أصبح فهمها أعسر . واتجهت الى ستيفان تروفيوفتش ترجوه
أن « يعرض لها هذه الآراء عرضاً كاملاً » مرة واحدة . لكنها ظلت غير
راضية عن شروحه صراحة . كان رأى ستيفان تروفيوفتش فى الحركة
العامة القائمة متعالياً أشد التعالى . كان كل شىء يرتد عنده الى هذا : أنه
قد نسى ، وأن أحداً لا يذكره الآن . وأخيراً ذكره الناس هو أيضاً .
ذكروه أول الامر فى المجلات الاجنبية التى عدته شهيدا من شهداء المنفى .
وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه فى بطرسبرج أيضا ، كنجم كان فى
الماضى واحدا من طائفة من الكواكب الكبرى . حتى لقد شبهه بعضهم
برادششيف دون أن يدرك أحد لماذا . وبعد فترة وجيزة أشيع أنه مات ،
وأعلن أحدهم انه سيكتب نبذة عن حياته وأعماله . فاتفش ستيفان
تروفيوفتش مرة واحدة ، واكتسى وجهه على حين فجأة أرفع معانى
العظمة التى يعبر عنها . واختفى من نفسه كل ما كان يعلن عنه من احتقار
لمعاصريه ، واشتغل فى قلبه لهيب جديد : انه يفكر الآن فى الانضمام الى
الحركة وفى اظهار مدى ما يملكه من قوى . واستردت فرارا بتروفا
نقتها وأصبحت غارقة فى عالم من المشاغل . لقد قرر الصديقان أن يذهبا
الى بطرسبرج فوراً ، ليستطلعا الامور ، وليقضيا كل شىء بنفسيهما ،
ولينخرطا فى الحركة الجديدة انخراطا كاملا اذا أمكن ذلك . وأعلنت
أرملة الجنرال ، فيما أعلنته ، انها مستعدة لانشاء مجلة ، ولأن تنذر لهذه
المجلة ما تبقى من أيام حياتها . وحين لاحظ ستيفان تروفيوفتش ما وصلت
اليه الامور أصبح يصطنع من مظاهر العلو والرفعة أكثر مما كان يصطنع

منها قبل ذلك ، حتى لقد أصبح يقف من فرارا بتروفا موقفا يشبه أن يكون موقف من يحميها ويرعاها ، وقد لاحظت هي ذلك وسجلته في ذاكرتها • ثم ان هناك باعنا هاما آخر قد حثها على مباشرة مشروعها ، هو أنها كانت تريد تجديد علاقاتها بالدوائر العليا من أوساط المجتمع • كان لا بد لها ، أن تذكر المجتمع الراقى بها ما وسعها ذلك ، أو أن تحاول هذا في أقل تقدير •

أما الحجة الرسمية التي تذرعت بها للقيام بهذه الرحلة ، فهي انها تريد رؤية ابنها الوحيد الذي كان أيامئذ ينهى دراساته في ثانوية سان بطرسبرج •

قضى الصديقان فى بطرسبرج فصل الشتاء كله تقريبا • وما أتى صوم الفصح فى أثناء ذلك الا وكان كل شئ قد تبدد كفقاعة صابون • ذهبت الأحلام ، وأصبح الوضع المبهم أشد ابهاما بدلا من أن يتضح • العلاقات بالطبقات العليا من المجتمع لم يمكن أن تتعد ، اللهم الا فى حدود ضيقة كل الضيق وبمساع ذليلة • وقد جُرحت من ذلك كبرياء فرارا بتروفا فانخرطت انخراطا قويا فى الدعوة الى الافكار الجديدة ، وراحت تهى فى بيتها أمسيات دعت اليها عددا من الادباء الذين سرعان ما قُدِّمت اليها طائفة كبيرة منهم ، وأصبحوا بعد ذلك يفدون من تلقاء أنفسهم بلا دعوة ، ويصحب بعضهم بعضا • انها لم تر قبل الآن أدباء من هذا النوع • لقد كانوا جميعا مغرورين الى أبعد حدود الغرور ، ولكن غرورهم كان يبلغ من الوضوح والظهور أنهم يوشكون أن يعدوه واجبا • وكان بعضهم (لا جميعهم) يمضون فى هذا الى حد المجيء سكارى ، وكأنهم يرون فى ذلك فضيلة خاصة اكتشفوها فى الوقت المحدد • ان لهم طريقة عجيبة فى الاختيال كالطواويس حين يذكرون مواهبهم ، حتى تستطيع أن تقرأ فى وجه كل واحد منهم انه قد اكتشف سرا خطيرا الى أبعد حدود الخطورة • وكانوا يختصمون ويناقشون ويتنافسون • ولئن كان يصعب على المرء أن يعرف ماذا انتجوا فى حياتهم الأدبية ، لقد كان بينهم نقاد ، وروائيون ، ومؤلفو مسرحيات ، وكتاب ساخرون ، ومدبجو مقالات • واستطاع ستيفان تروفيموفتش أن ينفذ الى القلب من هذه الحلقة ، أى الى النقطة التى تنطلق منها قيادة الحركة ؛ ومن أجل أن يستطيع مقاربة

القادة اضطر الى أن يجتاز عددا لا نهاية له من درجات السلم • على أن هؤلاء القادة قد استقبلوه في مودة وحرارة ، رغم أن أحدا منهم لم يسمع به من قبل ، ولا عرف عنه الا انه « يجسّد الفكرة » • وقد عرف ستيفان تروفيموفتش كيف يداورهم في براعة ، حتى استطاع أن يجتذبهم الى بيت فرفارا بتروفنا مرتين ، رغم عظمتهم الأولية • وكان هؤلاء الناس رجالاً جاديين الى أبعد حدود الجد ، وكانوا على جانب عظيم من التهذيب وسلامة السلوك • وكان يبدو أن الآخرين يخشونهم • ولكن كان واضحاً أنهم أناس لا يملكون من الوقت ما يبدونه سدى • وقد وفد الى بيت فرفارا بتروفنا كذلك أديان أو ثلاثة أدباء من ذوى الشهرة القديمة ، وكانوا يومئذ في بطرسبرج ، وكان لفرفارا بتروفنا بهم صلة من أحلى الصلات يرجع عهدها الى زمن قديم • ولكن ما كان أشد دهشتها حين لاحظت أن هؤلاء الادباء المشهورين كانوا ، رغم ما يتصفون به من أصالة ومن مواهب لا سبيل الى انكارها « أهدأ من الماء ، وأكثر تواضعاً من أعشاب الارض » ، وكان بعضهم يجد أن خير مايفعله هو أن يتشبث بهذه العصبة الجديدة طالبا جودها وكرمها • وقد واثى الحظ ستيفان تروفيموفتش بعض المواثاة في أول الأمر ، فقد تعلقوا به ، وأخذوا يظهرونه في الاجتماعات الادبية • وحين صعد المنبر أول مرة ، في حفلة أدبية اشترك فيها ، استقبله الجمهور بتصفيق جنوني استمر خمس دقائق طوال • انه بعد عشر سنين ، ظل يتذكر تلك اللحظة وعيناه مخضلتان بالدموع (لا عرفانا بالجميل ، بل من فرط حساسيته الفنية) ، فقال لى (وحدي سرّاً) : أقسم لك أن أحدا من الحضور لم يكن قد سمع بى فى حياته قبل ذلك •

وهذا اعتراف جدير بأن يلاحظ • فاذا صح أن صاحبنا قد أدرك

وضعه هذا الادراك الواضح ، فى تلك اللحظة نفسها ، رغم شدة الانفعال التى كان يعانىها من فوق المنبر ، فلقد كان اذن على جانب من رهافة الذكاء . لكن الواقع انه لم يكن على قدر عظيم من الذكاء المرفف ، فانه بعد تسع سنين ، كان لا يستطيع بعث تلك الذكرى الا ويشعر من ذلك باهانة . لقد أجبروه على أن يوقع اثنتين أو ثلاثاً من عرائض الاحتجاج الجماعية (على ماذا كان الاحتجاج ؟ انه هو نفسه لم يكن يدرى) ، فوق كل ما شاءوا له أن يوقعه . وقد حُملت فرفارا بتروفا أيضا على توقيع عريضة من تلك العرائض احتجاجا على « عمل من الاعمال الشائنة » . ويجب أن نذكر من جهة أخرى أن أكثر هؤلاء « الناس الجدد » رغم ترددهم على فرفارا بتروفا ، كانوا يشعرون أن من واجهم (لأندرى لماذا) أن ينظروا إليها نظرة احتقار وان لا يكلفوا أنفسهم عناء اخفاء سخرهم منها . وقد ذكر لى ستيفان تروفيموفتش بعد ذلك ، فى ساعات مرارته ، أن فرفارا بتروفا انما أخذت تغار منه ابتداءً من تلك اللحظة . لقد أدركت ، ولا شك ، انها لا تستطيع أن تعقد صلات بهؤلاء الناس . لكنها كانت تستقبلهم فى نهم وشراسة ، يدفعها الى ذلك ما يتصف به أفراد جنسها من فرط حب الاطلاع ونفاد الصبر ، بالاضافة الى انها كانت ما تنفك تتوقع حدوث حدثٍ ما . وكانت فرفارا بتروفا لا تتكلم فى أثناء هذه الاجتماعات الا قليلا ، رغم انها كانت قادرة على أن تتكلم كثيرا لو أرادت . لقد كانت تؤثر أن تصغى الى كلامهم . وكانت الأحاديث تدور على الغاء الرقابة ، وعلى قواعد الاملاء ، وعلى احلال الالقاء اللاتينية محل الأحرف الروسية* وعلى ترحيل فلان أو فلان من الناس ، وعلى آخر فضيحة حدثت ، وعلى فائدة تقسيم روسيا الى قوميات يضمها اتحاد فدرالى حر* ، وعلى الغاء الجيش والبحرية ، وعلى اعادة قيام بولونيا حتى نهر دنيبر ، وعلى الاصلاح

الزراعى والبيانات الثورية ، وعلى الغاء حق الارث ، وعلى الأسرة والأولاد والكهنة ، وعلى حقوق المرأة ، وعلى بيت كرايفسكى * وما لم يغفره أحد لكرايفسكى ، النخ • النخ • ولئن ضم هذا الخليط من «الناس الجدد» أفرادا صالحين لقد ضمَّ كذلك كثيرا من الرجال الصالحين، بل ومن الرجال اللطاف المحبين ، على ما هناك من صفات خاصة تجعل الامر مختلطا مشتبها • أما «الصالحون» فقد كانوا أكثر استعصاء على الفهم من الطالحين الجفاة الغلاظ ، ولكن المرء لا يعرف أى الفريقين كان يقود الآخر • وحين أُعلن ان فرفارا بتروفنا تفكر فى انشاء مجلة ، هرع اليها عدد أكبر ، لكنها لم تلبث أن اتهمت بأنها رأسمالية ، وبأنها مستغلة ، وقد قُذف الاتهام فى وجهها قذفا • ولئن كانت هذه الاتهامات حادة عنيفة ، لقد كانت كذلك مفاجئة • ففى أمسية من الأمسيات التى كانت تنعقد فى بيت فرفارا بتروفنا، تناقش الجنرال المعجوز ايفان ايفانوفتش دروزدوف مع شاب شهير من الشباب (والجنرال المعجوز صديق قديم من أصدقاء المرحوم الجنرال ستافروجين وأحد رفاقه فى الجيش ، وهو شخصية من أكرم الشخصيات مقاما - على طريقته الخاصة - يعرفه جميع الناس ، ويتصف بالعناد والحقق، ويأكل كثيرا ، ويخاف من الاحاد خوفا رهيبا) • فما أن بدأت المناقشة بين الجنرال والشاب حتى قال له هذا : « لا بد أن تكون جنرالا حتى تقول هذا الكلام » يريد بذلك أن يشير الى انه ما من شتيمة أقذع من وصف أحد بأنه جنرال ، فما كان من ايفان ايفانوفتش الا أن قال وقد استشاط غيظا : « نعم ، أنا جنرال ، بل أنا ليوتنان جنرال ، وقد خدمت قيصرى ، أما أنت أيها الشاب فلست الا فتى غرا وملحدا » ، وتبع ذلك جرسة كبيرة ، وفى الغد أشارت الصحافة الى الحادث ، وشرع بعضهم فى توقيع عريضة جماعية يحتجون فيها على « السلوك الشائن » الذى صدر عن

فرافرا بتروفنا اذ رفضت أن تطرد الجنرال من بيتها فورا • ونشرت إحدى المجلات المصورة صورة كاريكاتورية ساخرة تمثل فرافرا بتروفنا والجنرال وستيفان تروفيموفتش على أنهم ثلاثي رجعي • وقد نشرت الصورة الكاريكاتورية بضعة أبيات لشاعر شعبي نظمها خصيصا لهذا الغرض • وأحب أن ألفت النظر في هذه المناسبة إلى أن كثيرا من الذين وصلوا إلى رتبة جنرال قد درجوا على هذه العادة المضحكة ، عادة قولهم « لقد خدمت قصري ، ... كأن قصيرهم ليس قصيرنا ، نحن رعاياه البسطاء المخلصين ، وكأنه قصيرهم الخاص الذي خلق لهم وحدهم من دون غيرهم •

وأصبح من المستحيل طبعاً أن يبقى الصديقان في بطرسبرج ، لاسيما وأن ستيفان تروفيموفتش قد مَنى هو أيضا باخفاق حاسم ، ذلك أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الكلام باسم الفن ، فجلب له ذلك مزيداً من السخریات • وأراد في أثناء محاضرة أخيرة ألقاها أن يؤثر في مستمعيه بالضرب على وتر الحقوق المدنية ، آملاً أن يهز قلوبهم ، معتمداً على ما يجب أن يوقظه « نفيه » في نفوسهم من احترام له ، فأعلن صراحة أن كلمة « الوطن » كلمة باطلّة سخيفة ، وأيدّ الفكرة القائلة بأن للدين تأثيراً ضاراً ، ولكنه قال بصوت عال ولهجة قاطعة ان حذاءين أقل قيمةً بوشكين ، أقل كثيراً* . فإذا بصيحات السخر تنهمر عليه من كل جانب في غير رحمة ، حتى انفجر باكياً أمام الناس من قبل أن ينزل عن المنبر •

وقد قادته فرافرا بتروفنا يومئذ إلى البيت وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، فكان يدمدم كالمجنون قائلاً « لقد عاملوني كما تعامل طاقية عتيقة من القطن » • وسهرت عليه صديقه طوال الليل ، وهي تسقيه قطرات من الآس ، وتردد على مسامعه حتى مطلع الفجر قولها : « انك

ما تزال مفيدا • ستمود الى الظهور من جديد ، وسيعرف الناس قدرك
وقيمتك ... فى مكان آخر . »

وفى ساعة مبكرة من صباح الغد جاء الى بيت فرفارا بتروفنا خمسة
أدباء ، ثلاثة منهم غرباء لم يسبق لها أن رأتهم يوما ، فقالوا لها ، وقد تجهمت
وجوههم ، انهم قد درسوا مسألة المجلة و انتهوا الى قرار فى هذا الصدد .
والحق أن فرفارا بتروفنا لم تمهد الى أحد البتة بدراسة مسألة المجلة
المذكورة ، ولا كلفت أحدا باتخاذ أى قرار بشأنها . واليكم قرارهم الذى
اتتهوا اليه :

ان عليها ، وهى مؤسسة المجلة ، أن تتنازل لزمريتهم عن المجلة
وأموال المجلة حالا ، ثم أن تعود الى سكفورشيكي وأن لا تنسى أن تأخذ
معهما ستيفان تروفيموفتش الذى أصبح الآن «عتيقا باليا» . ومن قيل اللطف
فى المعاملة وافقوا على الاعتراف لها بحقها فى ملكية المجلة ، وعلى أن
يرسلوا اليها سدس الارباح فى كل عام . وأجمل ما فى الامر كله أن
أربعة من هؤلاء الخمسة على الاقل كانوا لا يسمعون الى تحقيق غرض
خاص أو منفعة معينة ولا يريدون الا خدمة ، القضية المشتركة » .

قال ستيفان تروفيموفتش ، فيما بعد ، وهو يروى القصة : « لقد
سافرنا ونحن فيما يشبه الخبل ... كنت لا أستطيع أن أربط بين فكرتين
ولا أزيد على أن أتمم مرددا مع ضجة القطار - ما زلت أذكر هذا - :

ليف كامبيك وفييك وفييك*
ليف كامبيك وفييك وفييك

وما لا أدرى أيضا ، حتى وصلنا الى موسكو . وهناك انما ملكت أن
أنوب الى رشدى كأن فى وسع المرء أن يجد فى موسكو شيئا آخر !
وكان يقول لنا أحيانا بلهجة الملهم : آه يا أصدقائي ! انكم لا تستطيعون

أن تتخللوا مدى الألم والحنق اللذين يغزوان نفوسكم حين تعبرون عن
فكرة عظيمة قدستموها طوال حياتكم ، فإذا بأفراد جهلة يعجرونها على
أرض الشارع وسط أناس لا يقلون عنهم غباء وحماسة ، ثم إذا أنتم ترونها
فجأة في السوق وقد تغيرت ساحتها حتى لا تكاد تُعرف ، وتمرغت في
الوحل وتشوهت وتكسرت ، وتغيرت أبعادها وفقدت انسجامها ، كلعبة
بين أيدي أطفال لا ! لم يكن الامر كذلك في عهدنا ، ولا الى هذا
صبونا . لقد أصبحت أنكر كل شيء ولا أعرف شيئا . يجب أن يعود
زماننا فيرد الى الطريق القويمه كل ما يترنج اليوم ويهتر . والا فما عسى
يحدث ؟

ما ان عادت فرارا بتروفا الى بطرسبرج حتى صرفت صاحبها الى خارج روسيا « ليستجم » ، ولشعورها كذلك بأنهما في حاجة الى فترة من الانفصال . ولقد سافر ستيفان تروفيموفتش في حماسة ، وصاح يقول : « لسوف أبعث هنالك بعثاً جديداً ، لسوف أنقطع هنالك للعلم . »

لكنه استأنف شكواه الأبدية منذ الرسائل الاولى التي أرسلها من هناك . كتب الى فرارا بتروفا يقول : « قلبي محطّم . أصبحت لاأستطيع أن أنسى شيئاً . كل ما أراه هنا في برلين يذكرني بماضي القديم ، باندفاعاتي الأولى وآلامي الأولى . أين هي ؟ أين هما الآن كلاهما ؟ أين أنتما يا ملاكي اللتين لم أكن جديرا بكما في يوم من الأيام ؟ أين هو ابني ، أين هو ابني الحبيب ؟ وأين أنا ، أين أنا نفسي ، أين نفسي القديمة ، الصلبة كالفلواز ، الصلدة كالصخر ، اذا كان يستطيع رجل اسمه آندريف ، اذا كان يستطيع مهرّج أرثوذكسي ذو لحية « أن يحطم وجودي نصفين » ، الخ الخ . أما ابنه فقد رآه مرتين في حياته لا أكثر ، الأولى حين وُلد ، والثانية في الآونة الأخيرة ، بطرسبرج ، حيث كان الفتى يتهاى لدخول الجامعة . ولقد سبق أن قلت ان الصبي قد نشأته خالات له طوال حياته ، على نفقة فرارا بتروفا ، في مقاطعة « أو . . . » التي تبعد حوالي سبعمائة فرسخ عن سكفورشينكي . وأما آندريف فهو تاجر بسيط بمدينتنا ، غريب الاطوار ، مولع بالآثار ، علّم نفسه بنفسه ، وكان يميل الى جمع الآثار الروسية القديمة ، ويحلّو له أحيانا أن يناقش

ستيفان تروفيموفتش ، فى علم الآثار وخاصة فى السياسة • ان هذا التاجر المحترم ، ذا اللحية البيضاء ، والنظارتين الكبيرتين اللتين لهما اطار من فضة ، كان لا يزال مديناً لستيفان تروفيموفتش بمبلغ أربعمئة روبل ، وذلك ثمن أشجار غابة قطعها من الارض الصغيرة التى يملكها ستيفان • ورغم أن فرفارا بتروفنا قد زودت صديقها بمال كثير حين أرسلته الى برلين ، فقد كان ستيفان تروفيموفتش يأمل أن يسترد هذا الدين قبل سفره ، ربما لتفقاته السرية ، فلما استمهله آندرييف شهراً ، كاد يبكي من فرط ألمه • ثم انه كان من حق التاجر أن يطلب هذه المهلة ، فان الدفعات الأولى من المال ، التى أخذها منه ستيفان تروفيموفتش قد سبقت الشراء ستة أشهر ، وذلك فى الايام الاولى التى كان ستيفان تروفيموفتش يعاني فيها عسراً • قرأت فرفارا بتروفنا هذه الرسالة الاولى باهتمام واستطلاع ، ووضعت خطأ أحمر تحت قول صاحبها : « أين هما الآن كلتاهما ؟ » ثم أرخت الرسالة وأودعتها الصندوق • لا شك انه يشير الى امرأته الراحلتين • أما الرسالة الثانية فقد كان فيها أغنية أخرى : « اننى أعمل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم (دمدمت فرفارا بتروفنا تقول : يكفى احدى عشرة) : أنبش المكتبات ، أفتش فى النصوص ، أدوّن ملاحظات ، أقوم بجولات ، أزور الاساندة • جددت صلاتى بأسرة دونداسوف الرائعة • ما تزال الى الآن فاتنة تلك الناديجدا - نيقولايفنا ! انها تبتغى تحياتها • زوجها الشاب وأبناء أختها الثلاثة يقيمون ببرلين • فى المساء أتحدث مع هؤلاء الشباب حتى الفجر • سهرات أئنية * لكنها ليست أئنية الا من ناحية رهاقة الذوق وجمال الحديث • كل شئ فيها رفيع الطراز نيسل الأسلوب : موسيقى كثيرة ، ألحان اسبانية ، أحلام فى بعث الانسانية كلها ، فكرة الجمال الابدى ، صورة العذراء فى كنيسة سكستين ، الضوء المنساب

من خلال الظلمات • لكن الشمس نفسها لا تخلو من بقع ! أواه يا صديقتي يا صديقتي النبيلة الوفية ! اننى لك ، وبقلبي معك ، معك وحدك دائما ، فى كل بلد من البلاد ، وحتى فى « بلاد ماكار وعجولها » التى طالما تحدثنا عنها فى بطرسبرج ونحن نرتعش قبل رحيلنا عن تلك المدينة - تذكرين ذلك - ان ذكرى هذا لتطوف الآن فى خيالى فترسم على شفتى ابتسامة • اننى ما كدت أجتاز الحدود حتى شعرت اننى بعدت عن الخطر ••• احساس غريب جديد ، شعرت به لأول مرة منذ سنين ، « النخ النخ •••

قالت فرارا بتروفا وهى تطوى الرسالة وتضعها فى الصندوق مع الرسائل الاخرى :

- كلام فارغ ••• اذا كانت السهرات الأنيبة تستمر حتى الفجر فانه غير منقطع الى كته اثنتى عشرة ساعة فى اليوم • هل كان نملا حين كتب هذا الكلام ؟ وهذه المرأة دونداسوف ، كيف تجبرؤ أن تبعث الى بتحياتها ؟ على كل حال ، فليسرّ عن نفسه ! ••• •

أما قوله « فى بلاد ماكار وعجولها » فقد حرص ستيفان تروفيموفتش على أن يترجم به الى الفرنسية الأمثال والأقوال المأثورة الروسية مشوّهة رغم أنه كان قادرا على أن يؤولها على نحو أحسن ، لكنه يفعل ذلك تطرفاً ، وكان يجد فيه فكاهة جميلة •

على أن سلوى ستيفان تروفيموفتش لم تدم طويلا • فما هى الا أربعة أشهر ، حتى فقد صبره وعاد مسرعا الى سكفورشنيكى • ان رسائله الأخيرة التى لم تكن الا ذوبانا عاطفيا تجاه صديقه الغائبة كانت مبللة بدموع حقة يذرفها حزنا على فراقها • ان هناك بشرا لا يقلون عن الكلاب

الصفيرة تمسكاً بمساكنهم وحنينا اليها • وقد التقى الصديقان في حماسة
وحرارة •

غير أن كل شيء عاد الى مجراه الطبيعي بعد يومين ، بل أصبح أشد
املا • قال لي ستيفان تروفيموفتش بعد خمسة عشر يوما : « يا صديقي ،
لقد اكتشفت شيئا ••• شيئا رهيبا بالنسبة الى ••• ما أنا الا طفيلي •••
طفيلي •• لا •• أكثر •• من •• ذلك ؟ •• »

بعد هذا دخلنا فى مرحلة من الركود دامت تسع سنوات ، ولم يحدث خلالها أى تبدل تقريباً • كانت الانفجارات العصبية والدموع السخية تُستأنف على كفى من حين الى حين ، لكنها لا تفسد معادتنا البتة •

انه ليدهننى أن ستيغان تروفيموفتش لم يسمن فى أثناء هذه الفترة • كل ما هنالك أن أنفه احمرّ ، وأن حركاته اكتسبت مزيداً من اللطف والتحضر • وقد تكونت من حوله ، شيئاً بعد شيء ، حلقة من الاصدقاء ، حلقة صغيرة والحق يقال • وكنا نعد فرفاراً بتروفا راعيتنا الجلييلة ، رغم انها كانت لا تتصل بهذه الحلقة الا قليلاً • انها بعد الدرس الذى تلقته فى بطرسبرج ، قد استقرت فى مدينتنا نهائياً ، ففى الشتاء تسكن قصرها ، وفى الصيف تمضى الى منزلها الريفى • ولم تحظ طوال حياتها فى مجتمعنا الريفى بما حظيت به من احترام ونفوذ فى السنين السبع الاخيرة ، الى أن عيّن الحاكم الحالى • ان حاكمنا القديم ، اللطيف ، الوديع ، ايفان أوسيوفتش الذى لا يُنسى ، كان يمت بقرابة قريبة الى فرفاراً بتروفنا التى أحاطته فى الماضى بكثير من الرعاية وأغدقت عليه كثيراً من النعم • لقد كانت امرأة الحاكم ترتعد فرقاً متى تصورت انها توشك أن تفقد رضى فرفاراً بتروفنا عنها ، وكان الاحترام الذى يشعر به الناس فى مجتمعنا الريفى نحو فرفاراً بتروفنا يكاد يكون نوعاً من العبادة • وواضح أن ستيغان تروفيموفتش كان من ذلك فى خير • لقد كان عضواً فى النادى وكان يخسر فى لعب الورق بوقار وجلال ، واستطاع أن يحظى باعتبار

الناس جميعا ، رغم أن كثيرا من الأفراد كانوا لا يعدونه أكثر من «عالم»
في أحسن تقدير . وحين سمحت له فرفارا بتروفنا فيما بعد ، أن يقيم في
منزل مستقل ، تمتعنا بمزيد من الحرية ، فكنا نجتمع عنده مرتين في
الاسبوع ، وتنسلى خاصة حين يقدق علينا الشمبانيا في غير قصد ولا
اعتدال . وكان الخمر يأتي من دكان ذلك التاجر نفسه ، آندريف ،
وكانت فرفارا بتروفنا هي التي تدفع فاتورة الحساب كل ستة أشهر ،
وكان يوم الدفع هو يوم المرض ، دائما على وجه التقريب .

ان أقدم أفراد حلقتنا الصغيرة رجل يقال له ليوتين* ، وهو موظف
ريفي متقدم في السن قليلا ، يعتنق مبادئ الحرية ، ويعده الناس في
المدينة ملحدا . وكان قد تزوج للمرة الثانية من فتاة جميلة ذات بائنة
كبيرة . وكان ، الى ذلك ، أبا لثلاثة بنات بلفن سن الرشد ، وكانت أسرته
كلها تعيش سجيئة البيت حياة منعزلة ، وتخشا خشية كبيرة . وكان بخيلا
الى أبعد حدود البخل ، فاستطاع بالتوفير من رواتبه ، أن يملك بيتا صغيرا
وأن يجمع قدرا من المال . ولأنه كان قليل الانصاع والطاعة ، فقد ظل
في الدرجات الدنيا من سلم الوظائف . وكان الناس في المدينة لا يحترمونه
كثيرا ، وكانت أسر الطبقة الراقية لا تستقبله في بيوتها . زد على ذلك أن
ليوتين كان شديد الغيبة والنميمة ، وقد عوقب على ذلك عقابا قاسيا غير
مرة ، عاقبه أولا ضابط من الضباط ، وعاقبه بعد ذلك رجل من أصحاب
الأملاك هو رب أسرة شريف . لكننا كنا نحب فكاهته اللاذعة وشغفه
بالمعرفة وتدره المر . أما فرفارا بتروفنا فكانت لا تحبه قط ، ومع ذلك
كان يستطيع دائما أن يحصل منها على حسن المعاملة وكرم الوفادة .

وكانت زوجة الجنرال لا تحب كذلك شاتوف* الذي لم يصبح عضوا
من أعضاء الحلقة الا في السنة الاخيرة . ان شاتوف هذا طالب قديم طُرد

من الجامعة على اثر اساءة مدرسية ارتكبها ، وكان فى طفولته تلميذ ستيبان تروفيموفتش . لقد ولد شاتوف قنا من قنان فرارا بتروفا ، لأب كان خادما من خدمها هو المرحوم بافل فيدوروفتش ، وهو مدين لها بنعم كثيرة، لكنها كانت لا تحبه لصلفه وكبريائه وانكاره المعروف، ولا تستطيع أن تغفر له بحال من الأحوال انه لم يأت إليها فور طرده من الجامعة ، وانه لم يجب عن الرسالة التى بعثت بها اليه عندئذ من أجل أن يأتى إليها وأثر على ذلك أن يرزح تحت عبء العمل فى تعليم الاطفال عند أسرة نكرة من أسر التجار « المثقفين » ، وسافر مع هذه الأسرة الى الخارج أقرب الى الخادم منه الى المعلم . لقد كان شاتوف يحترق فى ذلك الوقت شوقا الى زيارة البلاد الاجنبية . وقد صحبت الاطفال أيضا مربية من المربيات هى آنسة روسية ذات طبع حاد ، دخلت فى خدمة تلك الأسرة قبل السفر بيوم واحد ، ومما أغرى الأسرة فى تشغيلها أن مطامعها متواضعة . وبعد شهرين طردها التاجر بسبب « أفكارها التحررية » ، فتبعها شاتوف ، وتزوجها بعد قليل بجنييف . وعاش الزوجان معا ثلاثة أسابيع ثم افترقا افتراق شخصين حرين لا يربطهما شئ ، ولكن أغلب الظن أن الفقر كان أحد أسباب هذا الانفصال أيضا . وبعد ذلك ظل شاتوف يطوّف وحيدا خلال مدة طويلة فى أوروبا ، فلا يعلم الا الله كيف كان يدبّر رزقه . قيل انه كان ينظف الأحذية فى أركان الشوارع وقيل انه عمل شيالا فى أحد المرافىء . وأخيرا ، منذ سنة ، عاد الى المدينة التى ولد فيها معنا ، وأقام عند عمته المعجوز التى دفنها بعد ذلك بشهر واحد . وكانت أخته داشا ، التى نشأتها فرارا بتروفا أيضا ، تعيش بالقرب منها ، وتحظى بحبها ، وتتمتع فى بيتها باحترام . ولم يكن لشاتوف بأخته الا علاقات ضعيفة جدا . وكان شاتوف يبدو فى حلقنا متجهما

الوجه صموتا • غير أنه ، حين يمس أحد معتقداته ، من حين الى حين ،
يندفع فى غضب جارف مرضى ، فيفقد سيطرته على لسانه • كان ستيفان
تروفيموفتش يقول فى بعض الاحيان مازحا : « من أراد أن يناقش
شاتوف ، فعليه أن يوثقه أولا » • وكان ستيفان تروفيموفتش يحبه مع
ذلك • كان شاتوف قد غيّر بعض معتقداته الاشتراكية القديمة أثناء اقامته
فى الخارج تغيرا جذريا ، حتى انزلق الى نقضها فى تطرف شديد • ان
شاتوف واحد من أولئك الروس المثاليين الذين متى أشرفت فى نفوسهم
فكرة قوية كبيرة ، بُهروا بها ، وتسلطت عليهم تسلطا تاما قد يدوم فى
بعض الاحيان الى الأبد ، فلا يصلون يوما الى السيطرة على هذه الفكرة
التي أصبحوا يعتقدونها اعتقادا عنيفا • فحياتهم كلها تنقضى بعد ذلك فيما
يشبه التشنجات الكبرى تحت وطأة تلك الصخرة التي سقطت عليهم ذات
يوم فحطمتهم نصف تحطيم •

وكان مظهر شاتوف يناسب معتقداته تماما : فهو أخرق الحركات ،
صغير القد ، كث الشعر ، قصير القامة ، عريض الكتفين ، أشقر اللون ،
ذو حاجبين أبيضين ثخينين ، وجبين مفضّن ، وعينين مطرقتين فى عناد ،
يبدو أن نظرتيهما القلقة تخفى وراءها خجلا مستترا • وكان يبقى على
رأسه دائما خصلة عصية من شعر تنتصب قائمة • أما عمره فقد يكون
سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاما • وقد قالت فرفارا بتروفنا ذات
يوم ، بعد أن تفرست فيه : « أصبحت لا أستغرب أن امرأته هجرته » •
وكان شاتوف رغم فقره المدقع ، يحاول أن يكون حسن الهندام • وفى
هذه المرة أيضا لم يشأ أن يستعين بفرفارا بتروفنا ، بل عاش مما كان يبعث
الله به اليه •

لقد اتفق له أن عمل عند بعض التجار • وعيّن بعض الوقت موظفا



شاتوف

فى محل تجارى ، وأوشك أن يسافر على احدى البواخر التجارية مساعد
ممثل لهذا المحل التجارى ، لولا انه مرض قبل السفر بيوم واحد . انه
ليصعب على المرء أن يتصور مقدار البؤس الذى يستطيع شاتوف أن يتحملة
حتى دون أن يفكر فيه . وحين أبل من مرضه أرسلت اليه فرارا بتروفنا
مائة روبل دون ذكر اسم المرسل ، لكنه عرف الحقيقة مع ذلك ، حتى اذا
فكر فى الامر ، قرر الاحتفاظ بالمال ومضى الى فرارا بتروفنا يشكر لها
صنيعها . وقد استقبلته استقبالا حارا ، لكنه خيب ظنهما مرة أخرى . فانه
لم يمكث فى بيتها الا خمس دقائق ظل خلالها صامتا مطرقا الى الارض
وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء ، وفجأة نهض عن مقعده قبل أن تم
حديثها ، بل فى أهم لحظة من لحظات هذا الحديث ، فحيّاها فى خراقة
شديدة ، حتى لقد صدم من فرط خراقة منضدة صغيرة ثمينة مرصعة
فانقلبت المنضدة على الارض وتهشمت محدثة ضجة قوية . وخرج من
عندها وهو يوشك أن يكون ميتا من شدة الخجل . وقد أخذ عليه ليوتين
فيما بعد انه لم يرفض المائة روبل فى احتقار ، وانه رضى أن يأخذ هذا
المبلغ من هذه الطاغية ، سيدته القديمة . وأدح من ذلك أنه ذهب اليها
يشكرها .

كان شاتوف يقيم فى ظاهر المدينة منعزلا منزويا ، ويكره أن يزوره
زائر ولو كان الزائر واحدا منا . وكان يحضر سهرات ستيفان
تروفيموفتش باطراد ، ويستعير منه جرائد وكتباً .

وكان يشترك فى هذه السهرات أيضا شاب من مدينتنا اسمه
فرجنسكى * هو موظف فى مؤسسة تجارية ، يشبه شاتوف بعض الشبه ،
وان بدا نقيضه من جميع النواحي . ولكنه كان « رب أسرة » . انه شاب
فى الثلاثين من العمر ، له وجه يثير فى نفسك الشعور بالشفقة ، وله طبع

دمت الى أبعد حدود الدمانه وهو على جانب كبير من الثقافة ، لكنها ثقافة من يعلّمون أنفسهم بأنفسهم . وكان فقيرا متزوجا ، وهو يزاول مهنته عائلا خاله وأخت زوجته . كانت زوجته مأخوذة بالأفكار الحديثة كسائر هاته السيدات ، لكن هذه الأفكار كانت تكتسى عندها طابعا عاميا ، حتى ليصدق عليها ما قاله ستيفان تروفيموفتش ذات يوم : « فكرة أُلقيت في الشارع » . ان الذخيرة الفكرية لدى هاته النساء مستعارة ، فيكفى أن تروج في الاوساط التقدمية بالعاصمة شائمة من الشائعات حتى تراهن مستمدات لطرح كل شيء من النافذة عند أول ايحاء . وكانت السيدة فرجنسكى تزاول في مدينتنا مهنة القابلة . وقد أقامت قبل زواجها زمنا طويلا بطرمبرج . أما فرجنسكى نفسه فهو رجل يمتاز ببراعة نادرة ونقاء غير شائع ، وقلما أتيج لي أن لقيت نفسا تفوق نفسه في الاندفاع النبيل . كان يقول لي وقد أشرقت نظراته : « لن أتخلي يوما ، لن أتخلي يوما عن هذه الآمال المضيئة » . وكان يتكلم بصوت خافت ، في رقة وعذوبة ، حتى ليكاد يتمتم تمتمة ، كأنه يفضي اليك بسر . وكان طويل القامة بعض الشيء ، لكنه شديد النحول ، ضيق المنكين ، قليل الشعر ، يضرب لون شعره الى حمرة . وكان يقبل في مذلة جميع السخريات التي يتفضل ستيفان تروفيموفتش فيوجهها الى بعض آرائه . لكنه كان مع ذلك يعترض على ستيفان تروفيموفتش اعتراضات قوية جدا تفحمه وتسقط في يده . ومن الواجب أن نذكر مع ذلك أن ستيفان تروفيموفتش الذي يتصرف معنا جميعا تصرف الأب مع أبنائه كان يعامله في مودة ولطف . كان يخاطب فرجنسكى بقوله :

— أنت وأمثالك « ففس » سابق لأوانه ، ، رغم أنك شخصا مبرأ من ذلك الضيق العقلي الذي رأيته بطرمبرج لدى أولئك التلاميذ . لكن هذا

لا ينفي أنك من ذلك « الفقس السابق لأوانه » • ان شاتوف يتمنى لو يكن
من الفقس الذى يتم فى حينه ، لكنه فقس سابق لأوانه هو أيضا •
فيقول له ليوتين :

— وأنا ؟

— أنت الوسط تماما ، الوسط الذى يعرف كيف يدبّر أموره فى
جميع الظروف ••• بطريقته الخاصة •
فينضب ليوتين •

وقد شاع فى المدينة — ويظهر أن الشائعة قائمة على أساس صحيح
للأسف — ان زوجة فرجنسكى قد أعلنت له « استقالتها » ولما يمض على
زواجهما حول كامل ، قائلةً انها تؤثر عليه ليادكين • وليادكين هذا ليس
من مدينتنا • وقد اتضح بعد ذلك انه من الاشخاص المشبهين جدا ، حتى
انه لم يكن ضابطا متقاعدا كما كان يلقب نفسه بهذا اللقب كاذبا • كل
ما كان يجيده هو أن يعقف شاربيه ويشرب الخمرة ويروى أسخف
المغامرات التى يمكن أن يتصورها الخيال • وكان يرضيه أن يعيش عالة
على الآخرين ، فلم يتخرج من أن يقيم فور وصوله عند أسرة فرجنسكى ،
آكلا شاربا نائما ، ناظرا الى رب الدار آخر الأمر نظرة احتقار • وقد
ادعى بعضهم أن فرجنسكى قال لامرأته حين أعلنت له « استقالتها » :
« يا عزيزتى ، كنت لا أشعر نحوك الا بالحب ، أما الآن فأنا أحترمك » *
ولكن من المشكوك فيه أن يكون فرجنسكى قد نطق حقا بهذه العبارة
الرائعة التى تليق بأن تصدر عن روماني من الرومان القدماء • وقال
آخرون : بل انه حين « استقالت » امرأته أجهش باكيا منتحبا • وفى ذات
مرة — حدث ذلك بعد « الاستقالة » بخمسة عشر يوما — مضى الجميع فى



الكاتبين لبياديين

زيارة « عائلية » الى منزل بعض الأصحاب في ضاحية من ضواحي المدينة لاحتساء الشاي ، فكان فرجنسكى يُظهر نوعاً من المرح العنيف ، ويشارك في الرقص ، ثم اذا هو ينقض على العملاق ليادكين فجأة ، وبدون أى تشاجر سابق ، بينما كان هذا يرقص رقصة الكانكان منفردا ، فيمسك شعره بكلتا يديه ، ويثنيه نصفين ، ويأخذ يهزه هزا قويا ، وهو يبكي ويصرخ صرخات حادة ؛ فبلغ العملاق من شدة الخوف أنه لم يدافع عن نفسه ، لا ولا نطق بكلمة واحدة طوال هذا الاشتباك . لكن ليادكين أظهر عند انتهائه كل ما يمكن أن يظهره سيد مهذب من غضب واستياء .

وقضى فرجنسكى الليل كله راكما عند قدمي امرأته يضرع اليها أن تصفح عنه ، لكنها لم تصفح ، لأنه لم يقبل ، رغم كل شيء ، أن يعتذر الى ليادكين . وقد أخذوا عليه فيما بعد أن عقيدته فاترة وأن ذكاه ضعيف ، لأنه حين أراد أن يعتذر لامرأة ركع على ركبتيه . وقد اختفى ذلك « الضابط المتقاعد » بعد قليل ، ولم يعد الى مدينتنا الا في المسدة الاخيرة تصحبه أخته ، ومضى يلاحق عندئذ أهدافا أخرى . لكننى سأعود الى الحديث عنه في فرصة ثانية . لا غرابة اذن في أن « رب الأسرة » المسكين قد احتاج الى صحبتنا ينشد لقلبه عزاء . على انه لم يحدثنا في يوم من الايام عن شؤونه الخاصة . وفي مرة واحدة ، بينما كنا عائدين معا من بيت ستيفان تروفيموفتش ، بدأ يتكلم عن حاله في غموض ، لكنه لم يلبث أن صاح يقول في توهج وقد أمسك بيدي :

— ليس لهذا من قيمة ... هي حالة فردية لا أكثر ... لن يضع هذا أى عقبة أمام « القضية المشتركة » لن يضع أى قيمة ؟

وكان نادينا الصغير يستقبل كذلك ضيوفا طارئين ، مثل اليهودي

ليامشين والكابتين كارتوزوف • وفي وقت من الاوقات أخذ يجيء الى نادينا رجل طيب عجوز يرغب في التثقف • وفي ذات يوم قاد الينا ليوتين كاهنا محكوما عليه بالترحيل ، اسمه سلوفزفسكى ، وقد استقبلناه بعض الوقت من قبيل التمسك بالمبدأ ، ولهذا السبب نفسه كففتا عن استقباله فيما بعد ***

سرت في المدينة ، في وقت من الأوقات ، شائعة تقول ان حلقتنا
 بؤرة فساد أخلاقي وزندقة والحاد . ثم ان هذه الشائعة قد وجدت لدى
 سكان المدينة شيئا من التصديق دائما . والحق أن الامر كله
 كان لا يتعدى حدود ثرثرة لبرالية ظريفة ، ولا يحمل في طياته أى أذى
 أو خطر ، على الطريقة الروسية تماما . ان « اللبرالية النبيلة الرفيعة » ،
 أى اللبرالية التي لا ترمى الى تحقيق أى هدف محدد أو غاية معينة شيء
 ليس ممكنا الا في روسيا . كان ستيفان تروفيموفتش ، ككل رجل من
 رجال الفكر ، يحتاج الى سامعين ، وكان يشعر عدا ذلك بأنه يحقق بنشر
 أفكاره واجبا أسمى . كما أن الشيبانيا أخيرا يطيب للمرء أن يشربها مع
 صحة طيبة وأن يبادل أفراد هذه الصحة أثناء ذلك بعض الملاحظات
 اللاذعة المعروفة ، عن روسيا وعن « الفكر الروسى » وعن « الاله » عامة ،
 وعن « الاله الروسى » خاصة* ، وأن يكرر للمرة المائة بعض الحكايات
 الفاضحة التي ذاع نبؤها وانتشر خبرها في كل مكان . وكنا
 كذلك لا نهمل الحكايات والأقاويل التي تجرى في المدينة ، وكنا
 في بعض الأحيان نصدر في حقها أحكاما تتصف بأرفع الأخلاقية . وكن
 لكبريات المشكلات الانسانية نصيب من اهتمامنا أيضا : فكنا نتناقش عن
 مستقبل أوروبا والانسانية ، وتتبأ بأن فرنسا ما ان يزل عهدها القيصرى
 حتى تسقط الى مستوى أمة من الدرجة الثانية . وكنا مقتنعين بأن ذلك
 سوف يحدث ببساطة ، وفي أقصر مدة . أما البابا* فكنا قد حددنا له منذ
 زمن طويل دور أسقف بسيط في ايطاليا الموحدة ، مقتنعين بأن هذه المسألة

التي عمرها أكثر من ألف عام لم يبق لها من قيمة في عصرنا هذا الذي نعيش فيه ، عصر الصناعة والسكك الحديدية • ولكن ألم يكن هذا هو موقف « البرالية النبيلة الرفيعة » الروسية دائما ؟ وكان ستيفان تروفيموفتش يتكلم أحيانا عن الفن ، فيفيض في الكلام وي جيد الحديث ، ولكن كلامه كان يتصف أحيانا بأنه مجرد بعض التجريد • وكان يستحضر في بعض الأحيان أيضا ، بخنان واحترام ، ولكن مع شيء من الحسد ، ذكرى أصدقاء شبابه الذين كان لهم جميعا شأن في انماء ثقافتنا • حتى اذا مللنا مللا شديدا وسئما سئما مفرطا قام ليامشين (وهو موظف بمصلحة البريد) الذي يجيد العزف على البيانو اجادة ممتازة ، فأخذ يعزف مقلدا أصوات الخنزير ، وهمهمات العاصفة ، وأنات المرأة أثناء المخاض ، وصرخات الطفل الوليد ، الخ • ومن أجل هذا الغرض وحده انما كان يُدعى الى حلقتنا على كل حال • فاذا أسرفنا في الشراب - وكان ذلك يحدث أحيانا ولكن نادرا - استسلمنا للفرح والعريضة ، حتى لقد اتفق لنا في ذات مساء أن أنشدنا نشيد المارسييز معاً ، بمصاحبة عزف ليامشين • ولست أدري على كل حال هل وُفّقنا في الانشاد كثيرا •

أما اليوم العظيم ، يوم التاسع عشر من شباط (فبراير) فقد احتفلنا به في حماسة • ويا طاملا سبق أن أفرغنا الكئوس تكريما له على كل حال • ولكن هذا أمر قديم : ففي ذلك المهد لم يكن شاتوف ولا فرجنسكي قد أصبحا من حلقتنا ، وكان ستيفان تروفيموفتش ما يزال يقيم في نفس المنزل الذي تقيم فيه فرفارا بتروفنا • وقيل حلول ذلك اليوم العظيم كان ستيفان تروفيموفتش قد أخذ يدندن مغمياً ، بصوت خافت ، أبيات الشعر المعروفة جدا ، ولكن على نحو غير صحيح ، وهي أبيات لعل ناظمها سيد قديم لبرالي من مالكي الأفيان :

**الفلاحون يتقدمون
حاملين فنوسهم بأيديهم
ان أمورا هائلة تتهيا**

أو شيء من هذا القليل . فأننى لا أتذكر النص تذكرًا دقيقًا . وحين سمعت فر فارا بتروفا صديقها يدندن مغنيا هذا الغناء صاحت تقول : « سخافات ، كل هذا سخافات ! » ، وانصرفت غاضبة . وقال ليوتين الذى حضر المشهد ، قال استيفان تروفيموفتش بلهجة ساخرة :

— لسوف تكون خسارة حقا أن يسبب الأفتان القدامى ، أثناء فرحتهم بعض الازعاج للسادة المالكين .

قال ليوتين ذلك وهو يرسم بابهامه خطأ حول عنقه .

فأجابه ستيفان تروفيموفتش يقول له بساطة وطيبة :

— يا صديقى ، صدقنى اذا قلت لك ان هذا (وكرر حركة ليوتين) لن يكون له أى نفع لا للمالكين ، ولا لنا جميعا بوجه عام . فرغم أن رموسنا هى نفسها التى تمنعنا من فهم ما يجرى ، فانا اذا قُطعت رموسنا لن نزداد فهما .

أحب أن ألفت النظر فى هذه المناسبة الى أن عددا منا كانوا يتصورون أن أمورا خارقة ستحدث يوم نشر البيان ، ولا سيما أمورا من نوع الأمور التى أشار اليها ليوتين فى كلامه . فما أغرب أن يتصور هؤلاء الناس أنفسهم رجال سياسة ، وأن يدعوا أنهم يفهمون الشعب ! وكان ستيفان تروفيموفتش يشارك فى هذه المخاوف فيما يبدو . حتى انه فى عشية ذلك اليوم العظيم تقريبا طلب من فر فارا بتروفا فجأة أن ترحله الى الخارج ، وكان يشعر بقلق . ولكن اليوم العظيم حلَّ ومضى ، واسترد ستيفان تروفيموفتش ابتسامته المتعالية بعد فترة قصيرة من الوقت . وألقى علينا

فى ذات مرة بضع ملاحظات وتأملات عن طبع الروس عامة ، وطبع
الفلاحين خاصة • وختم كلامه بقوله :

- نحن أناس متعجلون ، تسرعنا كثيرا مع فلاحينا الطيبين ، جعلناهم
« موضة » ، وانصب جزء كبير من أدبنا عليهم كاتصبا به على كثر تم اكتشافه
حديثا ، وظل متوفرا عليه خلال سنين • كنا نتوَّج بأكاليل الغار رؤوسا
مقمَّلة • وماذا أعطانا الفلاح الروسى منذ وُجد ، منذ قرابة ألف سنة ؟
لقد أعطانا « الكامارسكيا » * ان شاعرا روسيا مرموقا لا يخلو من ذكاء
وفكر قد هتف يقول متحمسا حين رأى راشيل * العظيمة أول مرة : « انى
لا أشتري راشيل بفلاح » • ولكننى أنا أذهب أبعد من ذلك فأقول : « انى
لا أبيع راشيل بجميع الفلاحين الروس ! » • لقد آن لنا أن نرى الاشياء
كما هى ، وأن لا نمزج قطراتنا بعطر « أزهار الامبراطورة » * •

فسرعان ما وافقه ليوٲوتين على رأيه ، ولكنه لاحظ أنه فى ذلك
الزمان ، كان لا بد ، باسم الفكرة ، من التمثيل والتظاهر وتمجيد الموجيك •
وأضاف ان سيدات من المجتمع الراقى قد سكين دموعا غزارا لدى قراءة
« أنطون جوريمىكا » * حتى ان بعضهن قد كبن من باريس رسائل الى
وكلاء أملاكهن طالبات منهن أن يُعامل الأقنان فى المستقبل معاملة
انسانية الى أبعد حد ممكن •

ومع ذلك حدث بمصادفة تشبه أن تكون عمداً أن أحدانا مؤسفة
لم تلبث أن وقعت فى مقاطعتنا ، على مسافة خمسة عشر فرسخا من
سكفورشينكى ، بعد الشائعات التى سرت عن انطون بتروف *
فأرسلت الحكومة الى المكان فى لحظة الانفصال الأول فصيلة
مسلحة • وسرعان ما استبد الاضطراب بسستيفان تروفيموفتش ،
وبلغ هذا الاضطراب من القوة أننا خفنا نحن أيضا • فكان سستيفان

تروفيموفتش يصرخ قائلاً فى نادينا انه كان من الواجب ارسال فصيلة أكبر وأضحى ، واستقدام تعزيزات من المقاطعة المجاورة برقياً • وهرع الى الحاكم يؤكد له أنه لا شأن له فى الامر ، وأنه غير ضالع فيه ، ويتوسل اليه أن لا يقحمه فى هذه القصة ، كما قد يغريه أن يفعل ذلك بسبب ماضيه • حتى لقد اقترح على الحاكم أن ينقل تصريحه هذا الى من يعنيه الأمر ببطرسبرج • ومن حسن الحظ أن الأحداث انتهت بسرعة ولم يكن لها عواقب • ولكن ستيفان تروفيموفتش قد أدهشنى فى تلك المناسبة أشد الدهشة •

بعد ذلك بنحو ثلاث سنين أخذ الناس يتحدثون فى « الوعى القومى » وفى « الراى العام » ، فكان ستيفان تروفيموفتش يضحك كثيراً من هذا كله ؛ ويقول لنا :

- يا أصدقائى لو أن وعينا القومى قد « نشأ » فعلاً ، كما تؤكد الصحف فى هذه الأيام ، فانه ما يزال على مقاعد المدرسة ، على مقاعد مدرسة ألمانية* ، يقرأ كتابا ألمانيا ويلتفت فى تعلم درسه الأبدى باللغة الألمانية أمام معلم ألماني يجعله يركع على ركبتيه عند الحاجة • وأنا من جهتي أؤيد هذا المعلم الالماني ، ولكن الارجح هو أن لا شئ قد حدث ، وأن لا جديد ، وأن كل شئ يسير كما كان يسير من قبل ، أى يسير بتيسير الله • وفى رأى أن هذا يكفى كل الكفاية روسيا « بلادنا المقدسة روسيا » • ثم ان هذه الأقوال كلها عن الوحدة السلافية والوعى القومى* أقدم من أن تُعدّ جديدة • ونستطيع أن نقول على وجه الاجمال ان فكرة « القومية » لم توجد يوماً فى بلادنا الا اختراعاً من تلفيق سادة عاطلين عن العمل ، من سادة موسكو خاصة • ولست أتكلم طبعاً عن عهد الأمير ايجور* الخلاصة أن مصدر هذا كله انما هو فراغنا • وكذلك فان كل ما هو لطيف ومحبَّب عندنا انما مرجعه الى الفراغ ، الى ذلك الفراغ اللذيد

الذى نعم به المثقفون سادتنا أصحاب النزوات والبدوات ! اننى ما برحت
أكرر هذا منذ سنين • اتنا لا نعرف أن نعيش من عملنا • ما بالهم
يحدثون جميعا كل هذه الجلبة الآن حول ما يسمونه « الرأى العام » ، وما
يزعمون أنه نشأ الآن وكأنه هبط علينا فجأة من السماء ، هكذا ، دفعةً
واحدة ! ... ألا تفهمون أن على المرء من أجل الحصول على رأى أن
يعمل قبل كل شيء ، أن يعمل هو نفسه ، وأنه فى حاجة الى ممارسة ، الى
تجربة ؟ لا يستطيع أحد فى يوم من الايام أن يمتلك شيئا دون أن يدفع
شيئا • ألا فلنشرع فى العمل فيمكن أن يكون لنا رأى خاص بنا • ولكننا
أناس لن نعمل أبدا ، لذلك فإن الآخرين هم الذين سيكوّنون لنا رأياً ،
وهؤلاء الآخرون هم أوروبا أيضا ودائما ، هم الألمان أيضا ودائما ، الألمان
الذين يعلموننا منذ قرنين • يُضاف الى ذلك أن روسيا لغز يبلغ من
الضخامة أننا لن نتوصل يوما الى أن نحله وحدنا ، بدون مساعدة الالمان ،
وبدون عملهم الدائب • اننى ما برحت ، منذ عشرين عاما ، أقرع الجرس
لأوقظ الناس وأهيب بهم الى العمل • لقد ضحيت بحياتى كلها فى سبيل
هذا النداء ، وكنت - لجنونى ! ... - أظن أننى سأفعلح • أما الآن فقد
فقدت الايمان والثقة ، ولكننى ما زلت أقرع الجرس ، وسأظل أفعل حتى
النهاية الى أن أوارى فى التراب • سأظل أشد الجبل الى أن يدق ناقوس
موتى أنا !

وا أسفاه ! كنا لا نزيد على أن نرد على هذه الكلمات بغير الموافقة
والتايد • كنا نصفق لمعلمنا ، وكنا نصفق له بحرارة شديدة ! ومع ذلك ،
أيها السادة ، ألا ترون أن هذه الثروة الروسية القديمة ، الذكية هذا
الذكاء ، الفتانة هذه الفتنة ، اللبرالية الى هذه الدرجة ما تزال ترجع فى
آذاننا الى اليوم ، وفى كثير من الاحيان ؟

وكان معلمنا يؤمن بالله •

فكان يقول فى بعض الاحيان :

— لست أدري حقا لماذا اشتهرت هنا باننى ملحد • اننى أؤمن بالله •
ولكن « يجب أن نفرّق » : اننى أؤمن بالله ايمانى بوجود لا يعنى ذاته
الا فى أنا • ليس فى وسعى طبعاً أن يكون ايمانى كايمان خادمى ناستاسيا ،
أو كايمان سيد من السادة يؤمن كيفما اتفق له أن يؤمن ، أو كايمان
صاحبنا اللطيف شاتوف • على أن شاتوف يجب أن لا يُحسب ، لأن شاتوف
يجبر نفسه على الايمان اجباراً ، كما يفعل واحد من أنصار السلافية
بموسكو • أما المسيحية ، فانتى رغم كل ما أحمله لها من احترام ، أنتى
اليها ، فأنا لست مسيحياً • انتى أقرب الى أن أكون وثنياً من الزمان القديم ،
على طراز جوته العظيم أو الاغريق القدماء • على الأقل لأن المسيحية لم
تفهم المرأة ، كما بينت ذلك جورج صاند* أروع بيان ، فى احدى رواياتها
العبرية • أما عن العبادات ، كالصوم والصلاة وما الى ذلك ، فانتى لا أفهم
لماذا يتدخل الناس فيما لا يعنيههم ؟ مهما يبذل الوشاة هنا من جهود ، فلا
أحب أن أصبح يسوعياً • فى عام ١٨٤٧ ، حين كان بيلنسكى فى الخارج ،
كتب الى جوجول رسالته الشهيرة التى يؤاخذها فيها على أنه يؤمن بذلك
« الاله الذى لا أدري ما هو ! »* • اسمعوا ما سأقوله لكم « سرّاً بيننا :
انتى لا أستطيع أن أتخيل شيئاً أبعد على الضحك من تلك الدقيقة التى
قرأ فيها جوجول (جوجول ذلك العهد) تلك العبارة ، و ... بقية
الرسالة ! ولكن كفانا مزاحاً • وما دمنا رغم كل شيء متفقين على جوهر
المسألة ، فسأقول : أولئك رجال ! أولئك كانوا يعرفون كيف يجبون
شعبهم ، كانوا يعرفون كيف يتألمون من أجله ، ويضحون بكل شيء فى
سبيله • ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه ، يعرفون كيف يقاومونه فى بعض

الشئون اذا اقتضى الامر ذلك ، فلا يتملقونه ولا يخادعونهم • ما كان بيلنسكى ليستطيع أن يبحث عن السلامة فى الصيام عن الطعام ، وفى اشغال الشموع !...•

ولكن هنا كان يتدخل شاتوف :

— ان أولئك الرجال لم يجبوا الشعب فى يوم من الايام ، ولا تأملوا من أجله ولا ضحوا بشئ فى سبيله ، وانما كانوا يتسلون بأخيلتهم ...•
بذلك كان يجمع شاتوف مكفر الوجه ، مطرقا الى الأرض ، مضطربا على كرسيه • فكان ستيفان تروفيموفتش يزأر سائلا :
— كانوا لا يحبون شعبهم ؟ هم ؟ آه ...• لشد ما كانوا يحبون روسيا !

فيعمل شاتوف قائلا بدوره وقد سطعت نظراته وحييت عيناه :

— لا ، لا الشعب ولا روسيا • ان المرء لا يستطيع أن يحب ما لا يعرف • وأولئك كانوا لا يعرفون عن الشعب الروسى شيئا البتة ، ولا يفهمونه اطلاقا • انهم جميعا ، وأنت معهم ، قد مروا بالشعب مروراً دون أن ينظروا اليه ، ولا سيما بيلنسكى • ان رسالته الى جوجول تبرهن على ذلك برهانا كافيا • انه يشبه تماما ذلك « المستطلع » * الذى تحدثنا عنه حكاية كريلوف ، ذلك « المستطلع » الذى لم يلاحظ الفيل الموجود فى المتحف ، لأن عينيه كانتا منصرفتين انصرفا تاما الى رؤية الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا • ولم يذهب الى أبعد من ذلك • ومع هذا فلعله كان أذكأكم جميعا • فأنتم لا تجهلون الشعب فحسب ، بل لاتشمرون نحو الشعب الا بأشبع الاحتقار والازدراء ، لأن الشعب الوحيد فى نظركم انما كان هو الشعب الفرنسى ، بل وشعب باريس وحدها ، وكأنما يُخجلكم أن الشعب الروسى لا يشبه الباريسيين • تلك هى الحقيقة صافية خالصة • ومن لم يكن له شعب لم يكن له اله • فاعلموا أن جميع أولئك الذين

أصبحوا لا يفهمون شعبهم ، وأصبحوا على غير صلة به ، يفقدون إيمان آبائهم بذلك المقدار نفسه ، ويصبحون ملاحدة أو غير مكثرئين بالدين .
ان ما أقوله صحيح . انه واقع يسهل البرهان عليه . ذلك هو السبب في أنكم جميعا ، في أننا جميعا الآن ملاحدة أشرار أو أشقياء غير مكثرئين بالدين ؛ ذلك هو السبب في أننا لسنا الآن شيئا على الإطلاق . هذا يصدق عليك أنت أيضا يا ستيفان تروفيموفتش . اننى لا أستثيك . بالعكس : لقد قصدتك أنت نفسك ، فاعلم هذا .

كان من عادة شاتوف ، حين يندفع في حديث طويل من هذا النوع ، أن يتناول قبعته ، وأن يهرع الى الباب ، مقتنعا بأن كل شيء قد انتهى الآن ، وأن علاقات الصداقة بستيغان تروفيموفتش قد انقطعت الى الأبد . ولكن ستيفان تروفيموفتش عرف كيف يستوقفه في الوقت المناسب . فقال له بلهجة طيبة وهو يمد اليه يده :

— حسنا يا شاتوف ! ما رأيك في أن نتصالح بعد أن تبادلنا هذه العبارات اللطيفة ؟!...

وكان شاتوف امرءاً أخرق التصرف شديد الحياء ، لا يحب الاندفاعات العاطفية ؛ وهو خشن المظهر لكن له نفساً رقيقة مرهفة فيما أعتقد . لقد كان يتفق له في كثير من الاحيان أن يفقد حس القصص والاعتدال ، ولكنه كان أول من يتألم من ذلك ويندم عليه . فهاهوذا يرد على كلمات المصالحة التي وجهها اليه ستيفان تروفيموفتش ببضعة ألفاظ مبهمه غير متميزة جمجم بها جمجمة ، ثم أخذ يرقص في مكانه كما يرقص دب ، ثم اذا هو يتسهم ابتسامه خرقاء على حين فجأة ، ويعيد قبعته ، ويرجع الى كرسيه مطرقاً الى الارض . وجيء عندئذ بخمرة طبعاً ، واقترح ستيفان تروفيموفتش أن يشربوا نخباً يناسب الظرف ، كأن يكون نخب ذكرى واحد من أولئك الذين لمع نجوعهم في الماضي .

الفصل الثاني

الأمير هاري. عرض زواج

١



يوجد في العالم شخص ترتبط به فرفارا بتروفنا ارتباطا لا يقل عن ارتباطها بستيغان تروفيموفتش. ذلك هو ابنها الوحيد نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين. ومن أجل ابنها هذا انما كانت فرفارا بتروفنا قد دعت ستيغان تروفيموفتش الى الاقامة في سكفورشينكى؛ ليشرف على تربيته. كان الولد يومئذ في نحو الثامنة من عمره. وكان أبوه الجنرال ستافروجين قد انفصل عن فرفارا بتروفنا من قبل، فكانت فرفارا بتروفنا وحدها تتولى أمر ابنها وتهتم بشئونه. ويجب أن ننصف ستيغان تروفيموفتش فنقول انه أفلح في اكتساب مودة تلميذه. وسرّه كله في هذا انه كان هو نفسه طفلا. لم أكن قد عرفت في ذلك الحين بعد. وكان في حاجة مطلقة الى أن يكون له بقربه صديق. لذلك لم يتردد في أن يتخذ الصبي نيقولاى ستافروجين صديقا له، منذ خرج الصبي من مرحلة طفولته الأولى. وكانا يحسان كلاهما أنهما متساويان تساويا تاما. وكثيرا ما اتفق لستيغان تروفيموفتش أن أيقظ في الليل صديقه الصغير، البالغ من عمره عشر سنين أو إحدى عشرة، لا لشيء الا أن يعبر له عما يعيش في نفسه من مشاعر المرارة والحسرة، أو أن

يكشف له عن سر عائلي ما ، دون أن يدرك أن مثل هذا البوح لا محل له . فكان الطفلان يتعانقان ويكيان . كان الولد يعرف مدى ما تحمله له أمه من حب ، ولكن الأرجح أنه كان لا يحمل لها هذه العواطف نفسها . كانت لا تكلمه الا نادرا . ورغم أنها كانت تدعه حراً ، فلقد كان يؤله أن يشعر بنظراتها المتبهة تلاحقه في كل مكان . ثم انها في كل ما يتعلق بتعليم ابنها وتهذيب نفسه كانت تعتمد على ستيفان تروفيموفتش اعتمادا تاما ، لأنها كانت في ذلك الأوان تثق به ثقة مطلقة .

يجب أن نعتقد أن المربي قد شوش أعصاب تلميذه في آخر الأمر . فحين بلغ الولد السادسة عشرة وأدخل المدرسة الثانوية كان مرافقا صاحب اللون ضعيف الجسم (لسوف يكتسب في المستقبل قوة جسمية خارقة) . ويجب أن نعتقد أيضا أن الصديقين كانا يتعانقان ويكيان في الليل لا بسبب حوادث عائلية فحسب . لقد استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يمس من نفس الصبي أوتارا خفية ، وأن يوقظ فيه الاحساس المتبىء الغامض بذلك الحزن المقدس الذي متى ذاقته نفس من نفوس الصفوة أصبحت ترفض أن تستبدل به أية لذة من اللذات العادية (بل ان ثمة هواة يحبون هذا الحزن أكثر مما يحبون الرضى الكامل ، اذا كان للرضى الكامل وجود) . مهما يكن من أمر فقد أحسنوا حين فصلوا المربي عن مربيه ، ولو في وقت متأخر قليلا .

في السنتين الأوليين من دراسته بالمدرسة الثانوية ، جاء الفتى يقضى عطلته بالمنزل . وفي أثناء اقامة فرافرا بتروفنسا وستيفان تروفيموفتش بطرسبرج ، شهد بعض السهرات الأدبية التي كانت تقيمها أمه ، فكان يقتصر على الاصغاء والملاحظة . كان قليل الكلام لطيفا خجولا على عهدنا به في الماضي . وكان ما يزال يلتزم تجاه ستيفان تروفيموفتش موقف الثقة والمحبة ، ولكن على شيء من التحفظ مع ذلك . كان واضحا أنه يتحاشى

أن يخوض معه في الحديث عن أمور رفيعة ، ويتجنب إثارة ذكرى الماضي .
حتى اذا أنهى دراسته اختار المهنة العسكرية تلبية لرغبة أمه ، وسرعان
ما دخل ألمع كتيبة من كتائب فرسان الحرس . لكنه لم يجيء لزيارة أمه
في زيه العسكري ، وأصبحت رسائله اليها قليلة نادرة . وكانت فرفاراً
بتروفا ترسل اليه المال بسخاء ، ليعيش في بحبوحة ، رغم أن عائدات
أملاكها قد بلغت من الهبوط بعد الغاء الرق أنها أصبحت لا تقبض حتى
نصف المبالغ التي كانت تقبضها من قبل . وانما ينبغي أن نذكر أنها بفضل
اقتصادها وتوفيرها كانت قد ادخرت رأس مال كبير . وكانت تتابع بكثير
من الاهتمام والشفغ ما كان يحققه ابنها في المجتمع الراقى ببطرسبرج من
نجاح تلو نجاح . فان الضابط الشاب ، الفنى ، الملىء بالآمال والوعود ، قد
استطاع أن ينجح نجاحاً باهراً ، حيث أخفقت هي . فعقد صلات كانت هي
قد انقطعت حتى عن أن تحلم بمثلها ، وأصبح يُستقبل بترحيب شديد
حيثما يذهب . ومع ذلك ، سرعان ما أخذت تصل الى مسامع فرفاراً
بتروفا شائعات غريبة كل الغرابة : لقد أخذ الشاب يلهو لهوا مسعوراً على
حين فجأة . ليس معنى ذلك أنه يقامر ويسكر وانما هو فيما يقال يقوم
بأعمال غريبة ويرتكب أفعالا وحشية : فمرة يدوس أناساً بحصانه ، ومرة
يهين سيدة من المجتمع الراقى كانت له بها علاقة ، يهينها على مرأى
ومسمع من الناس . ان هذه الحادثة الاخيرة تتصف بخسة ودناءة خاصة .
وقيل أيضاً انه يسلك سلوك امرئ يهوى مشاجرة الناس ، ويسعى الى
الاعتقال معهم ، ويتلذذ باهانتهم . ان هذه الأنباء تفرق فرفاراً بتروفا في
قلق شديد وغم بالغ . وقد أكد لها ستيفان تروفيموفتش مع ذلك أن هذه
الأمور ليست الا اندفاعات عارمة لطبيعة غنية المواهب جداً ، وأن البحر
سيهدأ حتماً ، وأن هذا كله ، على وجه العموم ، انما يذكر بشباب الامير

هارى* الذى كان ، كما يصوِّره لنا شكسبير، يندفع اندفاعات مفرطة شتى فى صحبة فالستاف وبوانس ومسز كوكلى . ففى هذه المرة لم تصرخ فرفارا بتروفنا قائلةً لصديقتها : « سخافات ، هذه كلها سخافات ! » ، على عادتها فى الآونة الأخيرة ، وانما أخذت أقواله مأخذ الجد ، وطلبت منه شروحا فيها مزيد من التفاصيل ، وتولّت بنفسها قراءة القصة الخالدة بأكبر انتباه وأعظم اهتمام . ولكن شكسبير لم يدخل الهدوء والطمأنينة الى قلبها ؛ وكان من رأيها أن التشابه ليس قويا الى الحد الذى زعمه سيفاز تروفيموفتش . وانتظرت جوابا على الرسائل التى أرسلتها مستفسرة مستطلعة ، انتظرت جوابا وهى على أحرّ من الجمر . ولم تتأخر الأجوبة كثيرا . وعُلم أن الأمير هارى قد أجرى مبارزتين كان فيهما كليهما هو المخطئ، كل الخطأ . ففى الاولى قتل خصمه ، وفى الثانية جرح خصمه جرحا بليغا . ومثل الشاب ستافروجين فى أعقاب ذلك أمام المحكمة العسكرية ، فحكّم عليه بتجريدته من رتبته ، وأُرسل جنديا بسيطا الى كتيبة مدفعية ، بعد أن رَأف به القضاة رَأفة كبيرة وتسامحوا معه تسامحا خارقا .

واستطاع سنة ١٨٦٣* أن يتميز وأن يلمع ، فنال وساما ، ورُقّي الى رتبة صف ضابط ، ثم لم تنقُص الا فترة قصيرة جدا ، حتى رُدّت اليه رتبته وعاد ضابطا . ان فرفارا بتروفنا ، فى أثناء تلك المدة ، قد كتبت ما يقرب من مائة رسالة تتوسل فيها لابنها وتتضرع من أجله . حتى انها فى تلك الظروف الاستثنائية قد عمدت الى مساع فيها مذلة .

ما ان رُدّت الى الشاب رتبته فعاد ضابطا حتى قدم استقالته . ولكنه لم يرجع الى سكفورشنيكى ، حتى لقد انقطع عن الكتابة الى أمه انقطاعا تاما . وعُلم أخيرا بطرق ملتوية أنه عاد الى بطرسبرج ، ولكنه أصبح



نیقولای ستافروچین

لا يرتاد المجتمع الذى كان يختلف اليه من قبل . حتى لكأنه كان يخفى فيما يبدو . وسرعان ما اكتشف انه يعيش بين أناس عجيبية أنواعهم ، أناس هم سقط الرعاع وحثالة البشر بمدينة بطرسبرج ، أناس هم خليط من فقراء أشقياء ، وموظفين بؤساء ، وعسكريين محالين على التقاعد ، يتعاطون الاستجداء ويدمنون الخمرة . ويظهر أنه كان يتردد الى أسرهم الشقية ، ويقضى أيامه ولياليه فى أكواخ مظلمة ، وفى أماكن مشبوهة لا يدرى الا الله ما هى ، ولا يعتنى بنفسه أى اعتناء ، وكأنه يجد لذة فى هذا النوع من المعيشة . وكان لا يطلب من أمه مالا . ان له أرضا صغيرة ورثها عن أبيه ، فلا بد أن هذه الارض كانت تدر عليه بعض المال مهما يكن ضئيلا ، فهى مؤجرة فيما يقال للألمانى أصله من ساكس .

واستطاعت فر فارا بتروفا أخيرا ، بالتوسلات والتضرعات ، أن تحمله على العودة اليها ، فظهر الأمير هارى فى مدينتنا . وحينذاك انما استطعت أن أراه أول مرة ، لأننى لم أكن قد لقيته قبل ذلك قط .

انه شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، جميل الى أقصى حدود الجبال ، قد خطف منظره بصرى منذ اللحظة الاولى والحق يقال . لقد كنت أتوقع أن أرى فتى رث الأسمال ، قدر الهيئة ، تفوح منه رائحة الخمرة ، ويعبر وجهه عن التبذل والفجور فاذا أنا أرى سيذا من أرفع من لقيت فى حياتى من السادة حسن هندام وأناقة ملابس ومهابة مظهر ولطافة وضع ورقة آداب ، فهو بهذا كله يتسمى الى أرقى بيئة . ولم أكن الشخص الوحيد الذى دهنس من ذلك ، وانما كانت الدهشة عامة شاملة فى مدينتنا التى كانت مطلعة على سيرة السيد ستافروجين كلها اطلعا يبلغ من كثرة التفاصيل أن المرء يتساءل عن مصدرها ولا يفهم من أين أتت . وأعرب ما فى الأمر أن نصف هذه المعلومات على الأقل قد ثبتت صحته .

سرعان ما جُنّت سيداتنا جميعا بضيفنا الجديد ، وانقسمن طائفتين :
فأما الطائفة الأولى فهي تعبد عبادة ، وأما الطائفة الثانية فهي تكرمه كرها
قاتلاً . ولكنهن جميعا قد جُنّ جنونهن . ان عدداً منهن كن يشعرن
بانجذاب خاص قوى نحوه ، لأنهن يتصورن أن نفسه تنطوى حتماً على
سر حاسم من الأسرار العجيبة . وكان يحلو لبعضهن أن يرين فيه قاتلاً
وقد اتفق أن كان مثقفاً ، حتى انه يملك معارف واسعة . صحيح أنه لم
يكن فى حاجة الى أشياء كثيرة حتى يبهرننا . ولكنه كان فى الواقع قادرا
على أن يتحدث فى أخطر القضايا وأهم المسائل التى كانت تلهب العقول
والنفوس فى ذلك الأوان ، وأن يتحدث عنها فى كثير من سداد الرأى
وسلامة الحس ، وذلك أمر يستحق أكبر التقدير . هناك أمر عجيب :
ان جميع الناس ، منذ اليوم الأول تقريبا ، قد رأوا أنه شاب عاقل جدا .
انه لا يكثر من الكلام ، وهو أتيق الهندام بغير تكلف ، وهو متواضع
تواضعا مدهشاً ، وهو فى الوقت نفسه أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسه من أى
واحد بيننا . كان المتأفقون المتطرفون ينظرون اليه نظرة غيرة وحسد ،
ويمحون أمامه امحاء كاملاً . وقد كان وجهه مما خطف بصرى أيضا :
ان شعره أسود ، أسود سواداً يوشك أن يكون مفرطاً ؛ وان عينيه
واضحتان مسرفتان فى الوضوح والهدوء ؛ وان وجهه الناعم أبيض مسرف
فى النقاء والتورد ؛ أضف الى ذلك أسنانا كأنها اللؤلؤ وشفقتين كأنهما من
مرجان . الخلاصة : رجل جميل جدا ، لكن فيه مع ذلك شيئاً منقراً .
كان يُقال ان وجهه يشبه قناعاً . أما ما كان يذكر عن قوته الجسمية
الخارقة ، فهو من الأمور المذهلة ! وكانت قامته أطول من قامة وسط .
ان فرفارا بتروفا تأمله بزهو وفخر ، ولكنهما زهو وفخر يخالطهما
شئ من قلق . عاش بيننا قرابة ستة أشهر ، حياة خالية ، وادعة ، أقرب الى

الجهامة ؛ يرتاد المجتمع اذا اقتضى الامر ذلك ، ويراعى قواعد آدابنا
الريفية مراعاة دقيقة صارمة • وكان الحاكم ، وهو يمت الى أبيه بقرابة
بعيدة ، يستقبله استقبال صديق حميم • ولكن ما ان انقضت بضعة أشهر
حتى كشف الحيوان الكاسر عن مخالفه •

يجب أن أشير هنا ، عابرا ، الى أن حاكم مقاطعتنا ، وهو ذلك الطيب
العزير ايفان أوسيوفتش ، كان أشبه بامرأة عانس ، ولكنه من أسرة
ممتازة ، وله علاقات رفيعة • وذلك ما يفسر بقاءه في منصبه تلك المدة
الطويلة كلها رغم الاهمال الذي كان يعالج به شؤون الادارة • انه كريم
مضيف ، يصلح لأن يكون ماريشال الطبقة النسيبة في الزمان القديم أكثر
مما يصلح لأن يكون حاكم مقاطعة في عهد يبلغ من الاضطراب ما بلغه
ذلك العهد • كان يقال عندنا ان الذي يحكم المقاطعة ليس هو الحاكم ، بل
فرفارا بتروفنا • تلكم مزاحة شريرة ، ولكنها في الوقت نفسه ظلمة غير
عادلة • ألا ما كان أكثر الفكاهات التي كان الناس يطلقونها عن هذا
الموضوع متدريين!... والحق أن الواقع كان نقیض ذلك تماما : ان فرفارا
بتروفنا ، في خلال هذه السنين الأخيرة ، قد انسحبت ، عامدة ، من جميع
الشئون التي تهم الناس (رغم الاحترام العظيم الذي لم ينقطع المجتمع كله
عن محضها اياه) ، وجبست نفسها حبسا تاما في الحدود التي رسمتها
لنشاطها بارادتها • لقد تنازلت عن الاهداف العليا والغايات السامية التي
كانت ترمى اليها من قبل ، وانصرفت الى ادارة أملاكها فجأة ، فما انقضت
سنتان أو ثلاث سنين حتى كانت أراضيها تغل لها نفس ما كانت تغله تقريبا
في عهد القناة • لقد تركت تطلعاتها القديمة (الأسفار الى بطرسبرج ،
اشاء مجلدة ، الخ) ، وأخذت تجمع المال وتكنزه ، وأصبحت بخيلة •
حتى ستيفان تروفيموفتش ، أ"بعد وأ"ذن له بأن يكرى شقة في منزل آخر

(وذلك أمر سعى الى الحصول عليه متذرعاً بحجج شتى) • وشيئاً فشيئاً ، أخذ ستيفان تروفيموفتش يصفها بأنها امرأة عامية ، أو يسميها مازحاً باسم « الصديقة العامية » • ولكنه لم يسمح لنفسه طبعاً بمثل هذه الأمازيح الا مع كثير من الاحترام ، وبعد أن ارتقب اللحظة المناسبة زمناً طويلاً •

وكنا ندرك نحن أبناء بيئته التي تحيط به - وكان ستيفان تروفيموفتش أكثرنا احساساً بهذا - أن نيقولاى فسيفولودوفتش تتركز فيه كل آمال أمه ، وأنه أصبح محلاً لجميع تطلعاتها • ان تعلقها الشديد به يرجع عهده الى فترة النجاحات التي حققها فى المجتمع البطربرجى ، فلما علمت باحذار الفتى لم يزد لها ذلك الا تعلقاً به • ومع ذلك كان واضحاً أن فرفاراً بتروفنا تخاف ابنها وتتصرف أمامه تصرف عبد تقريباً • كان المرء يلاحظ أنها تخشى من جانبه شيئاً ما ، شيئاً غامضاً غريباً سرى لا تدركه هى نفسها • وكثيراً ما كانت تلقى على نيقولاى نظرات خاطفة ، لكنها نافذة ، كأنها تحاول سبر غوره لتعرف كيف تتصرف ••••• وها هو ذا الأيّل الأشقر يُظهر مخالفته •

فجأة ، بدون سبب ظاهر ، أباح أميرنا لنفسه أن يرتكب في حق عدة أشخاص وقاحات لا يصدقها العقل : ان الشئ الخاص الذي تتميز به هذه الوقاحات هي أنها وقاحات. لا يتصورها الخيال حقا ، فهي لا تشبه الاستفزازات التي تجرى عادة ، ولا تمت اليها بصلة من الصلات . أصبح الشاب يرتكب في آن واحد أعمالا صيانية وأفعالا دنيئة دون أى باعث أو دافع ، لا يدري الا الشيطان لماذا ! من ذلك أن واحدا من عمداء نادينا اسمه بافل بافلوفتش جاجانوف ، وهو رجل مسن يجمع الناس على اعتباره ، كان قد اعتاد هذه العادة البريئة وهي أن يقول في كل مناسبة بنقة واضحة: « لا ، لن أسمع لأحد بأن يجرنى من طرف أنفى ! » ففي ذات يوم ، ما كاد يقول هذه الجملة في نادينا بعد مناقشة من المناقشات أمام جمع من الناس يكادون ينتمون كلهم الى الارستقراطية المحلية ، حتى قام نيقولاى فسيفولودوفتش الذى كان منتحيا في ركن من الاركان ، والذى لم يكن قد اشترك في المناقشة ، فاذا هو يقترب فجأة من بافل بافلوفتش ، ويمسك طرف أنفه بأصبعه امساكا قويا ويجره فيحمله على أن يمشى وراه خطوتين أو ثلاث خطوات في الصالة . ان الشاب لا يمكن أن يكون حاملا أية عداوة للسيد جاجانوف . وكان يمكن أن يُظن أن عمله هذا عمل صياني لا أكثر ، عمل لا يفتقر طبعاً ، لولا أنهم أكّدوا فيما بعد أن نيقولاى فسيفولودوفتش ، في لحظة قيامه بهذه « العملية » كان حالم الهيئة شارد الفكر « كأنما هو فقد عقله » . ولكن هذا الامر التفصيلي لم يتذكره أحد ولم يفكر فيه أحد الا بعد ذلك بمدة طويلة . أما في تلك اللحظة نفسها

فان الحاضرين لم يحفظوا الا وضع نيقولاى فسيفولودوفتش بعد وقوع الحادث فورا ، حين أدرك ما فعله ادراكا تاما ، فرأوا أنه لم يضطرب أى اضطراب ، بل ابتسم مرحا ، فى خبث ، « دون أى ندم » • وأحاط الناس به وأخذوا يصرخون جميعا • فكان نيقولاى فسيفولودوفتش يلتفت يمينه ويسرة دون أن يقول شيئا ، وكان يبدو عليه أنه يتأمل هؤلاء الناس الذين يصرخون مستقربا • وأخيرا ، شرد فكره من جديد (أو هذا ما حكى فيما بعد ، على الأقل) ، وقطب حاجبيه ، واتجه نحو بافل بافلوفتش بخطى ثابتة وتتم يقول له وهو ظاهر التمليل :

— سوف تعذرني حتما ••• اننى لا أدري حقا لماذا شئت فى نفسى هذه الرغبة فجأة ••• لقد كان ذلك سخفا منى •••

قال ذلك بلهجة فيها اهمال واضح ، فكان ذلك بمثابة اهانة جديدة ، وازداد اللفظ • فهزّ نيقولاى فسيفولودوفتش منكبيه وانصرف •

ذلك كله كان غباء تاما ، وكان خسة مقصودة متعمدة محسوبة (فيما بدا من أول نظرة) وكان اذن اهانة أراد الشاب أن يوجهها الى مجتمعنا كله • على هذا النحو انما فهم جميع الناس الحادثة • فقرروا مجتمعين أن يبدأوا أولا بشطب اسم السيد ستافروجين على الفور من قائمة أعضاء نادينا • ثم اتفقوا على أن يرفعوا شكوى باسم النادى الى الحاكم راجين منه أن يستعمل سلطاته الادارية (دون أن ينتظر مثول القضية أمام المحاكم) فيردّ الى الصواب هذا المخنون الخطر ، هذا « المشاجر » الهائج ، ويصون بذلك شرفاء الناس من أى « عدوان غاشم يفسد عليهم صفو حياتهم » ، واتفقوا على أن يضيفوا الى ذلك قولهم ، بسذاجة زائفة ، انهم يأملون أن « يوجد قانون » ما يعاقب حتى السيد ستافروجين » ، وانما اختاروا هذه العبارة ليخزوا الحاكم بالالمح الى فر فارا بتروفا • ولكن

شاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون الحاكم غائبا عن المدينة في تلك الآونة : كان قد ذهب الى قرية مجاورة ليمسك فوق جرن المعمودية ابن أرملة لطيفة كان زوجها قد مات عنها منذ مدة قصيرة وتركها في وضع شائن . فبانتظار عودته التي يعرفون أنها قريبة كرموا الضحية أكبر التكريم واحتفوا بها أشد الاحتفاء ، فجاءت المدينة كلها تزور الرجل المحترم بافل بافلوفتش ، وتشد على يديه ، وتعانقه وتقبله . حتى لقد اقترح بعضهم أن تقام له مأدبة يشارك في دفع نفقاتها مكسبون ، ثم لم يعدلوا عن هذه الفكرة الا بالحاج منه أن يعدلوا عنها ؛ ولعلمهم أدركوا أخيرا من جهة أخرى أن المسكين ، مهما يكن من أمر ، قد جُرَّ من أنفه ، فلا محل لأن تقام له حفلة باهرة .

كيف حدث هذا مع ذلك ؟ كيف أمكن أن يحدث أمر كهذا الامر ؟ ان أعجب ما في القضية أن أحدا من مدينتنا كلها لم ينسب هذا الفعل الهمجي الى الجنون . فيجب أن نعتقد اذن أنهم كانوا ميالين الى أن يعدوا أمثال هذه الأفعال طبيعية من جانب نيقولاى فسيفولودوفتش . أما أنا فانتى الى هذا اليوم أشعر بعجزى عن تفسير الواقعة رغم أن حادثة أخرى قد وقعت بعد قليل فبدا أنها توضح كل شئ ، وهدأت جميع النفوس . وأضيف الى هذا اننى حين اتفق لى بعد ذلك بأربع سنين أن أسأل نيقولاى فسيفولودوفتش ، محاذرا ، عن حادثة النادى ، قد سمعت منه هذا الجواب وهو يقطب حاجبيه : « نعم ، لم تكن صحتى جيدة حينذاك » . ولكن لا نستبقن الأمور .

ومما خطف انتباهى أيضا أن كرها أجماعيا قد انصب فجأة على « الجنون » ، على « المشاجر » . لقد كانوا يصرون على أن يعدلوا فعلته تحديا مقصودا متعمدا ، واهانة رشق بها المجتمع كله هادئا دون أن يتأثر .

حقا ان هذا الانسان لم يظفر بأن يحمل أحدا على أن ينظر اليه نظرة حسنة • بالعكس : ان جميع الناس قاموا عليه وناصبوه العدا • وم هو السبب أخيرا ؟ انه قبل ذلك انجذبت لم يكن قد شاجر أحدا قط ، ولا كان أحد منا قد تلقى منه أية اهانة ، وكان يبدو دائما مهذباً تهذيب سيد من السادة الذين نرى صورهم في مجلات « الموضة » اذا أوتى أحد من هؤلاء السادة أن ينطق • اننى أفترض أنهم كانوا يكرهونه لزهوه وكبريائه • حتى سيداتنا اللواتي عيذه عباداً فى البداية أصبحن الآن أكثر من الرجال سخطا عليه وزعيقا ضده •

وكانت فرفارا بتروفا مضطربة أشد الاضطراب • وقد اعترفت لستيفان تروفيموفتش فيما بعد أنها قد أوجست ذلك كله منذ زمن طويل ، وأنها خلال الأشهر الستة الاخيرة كانت فى كل يوم تتوقع حدوث شئ ما ، شئ « من هذا النوع » بعينه • هذا اعتراف له شأنه من جانب أم •

حدثت الأم نفسها قائلة " وهى تترنن : « لقد بدأ الأمر... » وفى غداة وقوع الحادث حاولت أن تناقش ابنها بلباقة ولكن بثبات • ورغم ما كانت تتصف به من عزيمة ، فلقد كانت المرأة المسكينة ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها • لم تكن قد نامت طوال الليل ، ولما طلع الصباح جاءت تستشير ستيفان تروفيموفتش ، حتى لقد بكت عنده ، هى التى لم يسبق لها أن بكت أمام أحد فى يوم من الأيام • تمت لو يقول لها نيقولاى أى شئ ، تمت لو يقدم لها أى شرح • ولكن نيقولاى ، الذى ظل على عهدنا به أدباً وتهذيباً واحتراماً فى معاملته ، أن أخذ يصفى إليها فى البداية جاداً الهيئة عابس الوجه ، ثم اذا هو ينهض على حين فجأة ، فيقبل يدها ، ويخرج دون أن يقول كلمة واحدة • وفى ذلك المساء نفسه انفجرت فضيحة جديدة بما يشبه العمد ، وهى فضيحة ان تكن أقل خطورة من

سالفها ، فانها فضيحة خارقة كالأولى سواء بسواء ، جعلت الاستياء العارم يبلغ ذروته ويصل الى تمامه .

ان صديقنا لبيوتين هو الذى تناولته الفضيحة فى هذه المرة . لقد جاء الى نيقولاى فسيفلودوفتش ، بعد الحديث الذى جرى بين الشاب وأمه فورا ، ورجاه ملحا أن يشرّفه بحضور السهرة التى يقيمها فى ذلك المساء نفسه بمناسبة عيد ميلاد زوجته . ان فرفارا بتروفنا كانت قد نظرت، مرتاعةً مشمّثة ، الى العلاقات المتبدلة التى يعقدها ابنها مع بعض الناس ، ولكنها كانت لا تجرؤ أن تفتاحه فى هذا الأمر وأن تحدثه فيه . كان الشاب قد تعرّف بأشخاص حقيرين من مجتمعنا ، بل هبط الى ما دون ذلك أيضا تلك كانت ميوله وأذواقه . غير أنه لم يكن قد ذهب الى بيت لبيوتين حتى ذلك الحين ، رغم أنه لقيه مرارا . وأدرك فسيفلودوفتش أن لبيوتين انما يدعوه بسبب الفضيحة التى أثارها حادث النادى ، وهى فضيحة لا بد أن لبيوتين قد سرّ بها سرورا عظيما وافتن بها افتانا ، من حيث هو رجل لبرالى ، لاعتقاده بأن هذه المعاملة هى التى يجب أن يعامل بها عمداى النادى ، وبأن الشاب قد أحسن التصرف . انفجّر نيقولاى فسيفلودوفتش ضاحكا ، ووعد بحضور الحفلة .

كان بيت لبيوتين يضم جمهورا غفيرا ؛ ولئن لم يكن الحضور من عليّة القوم ، فقد كان جو الحفلة زاخرا بالحياة والنشاط . ان لبيوتين ، المغرور الحسود ، لا يستقبل الا مرتين فى السنة ، ولكنه حين يستقبل يعرف كيف يرتب الأمور وكيف يجيد تدبيرها . ان ستيفان تروفيموفتش ، وهو أعلى المدعوين مقاما ، لم يستطع أن يحضر الحفلة لأنه كان مريضا . وقدّم الشاي . وكانت المقبّلات كثيرة ، والخمرة وافرة . وكانت قد حُجزت ثلاث موائد للمقامرين . وبانتظار موعد العشاء أخذ الشباب

يرقصون على أنغام البيانو • وجاء نيقولاى فسيفولودوفتش الى زوجة ليوتين يدعوها الى الرقص ، وهى امرأة صغيرة بارعة الجمال شديدة الخوف من هذا الشاب ؛ فبعد أن رقص معها رقصتين أو ثلاثا على أنغام الفالس جلس الى جانبها وأخذ يروى لها حكايات سلّتها كثيرا • واذ لاحظ مدى جمالها أثناء ضحكها ، أمسك بقامتها على حين فجأة ، وأطبق بضمه كله على شفتيها فقبلها قبلتين أو ثلاثا على مرأى من جميع الناس • فما كان من المسكينة الا أن أغمى عليها من شدة ما أصابها من روع • فتناول نيقولاى فسيفولودوفتش قبعة واقرب من الزوج خجلاً أشد الخجل ، وسط الانفعال العام الذى أنارته فى الجمهور فعلته ، فأمله لحظة ، ثم فقد سيطرته على نفسه فتمتم قائلاً له بسرعة : « لا تزعل ! » • وخرج •

أسرع ليوتين يجرى وراءه الى حجرة المدخل ، وساعده فى ارتداء معطفه ، وصحبه الى أسفل السلم وهو يشيّمه بتحيات كثيرة •

غير أن هذه الحكاية البريئة نسيها قد كانت لها فى الغداة تمة مسئلة رفعت قدر ليوتين منذ ذلك الحين رفعاً عرف كيف يستفيد منه •

ففى الساعة العاشرة من الصباح جاءت آجافيا خادمة ليوتين ، وهى فتاة لينة فى نحو الثلاثين من العمر ، حمراء الوجه ، جاءت الى عند السيدة ستافروجين موفدة من مولاهما الذى حملها رسالة الى نيقولاى فسيفولودوفتش يجب أن « تبلغه اياها شخصيا » • وكان الشاب يشعر بصداق ، لكنه استقبل الفتاة بحضور فرفار بتروفنا التى اتفق أن كانت هناك •

- لقد أمرنى سرجى فاسيلفتش (هذا هو اسم ليوتين) أن أنقل اليك أولاً تحياته ، وأن أستفسر بعد ذلك عن صحتك ، وأن أسألك

كيف نمت في الليلة البارحة وكيف حالك الآن بعد الذي جرى أمس •
كذلك قالت الفتاة • فابتسم نيقولاى فسيفولودوفتش ، وأجابها
قائلا :

– سلّمتى على مولاك واشكركيه • وقولى له على لسانى يا آجافيا انه
أذكى رجل فى المدينة •

فاستأنفت آجافيا كلامها بمزيد من الانطلاق قائلة :

– وقد أمرنى مولاي أن أرد على كلامك هذا بأنه يعرف ذلك دون
أن تقوله أنت ، وانه يتمنى لك مثل هذا القدر من الذكاء •

– هه ! هه ! ولكن كيف أمكنه أن يعرف ما قد أقوله لك ؟

– لا أدري كيف ؛ لكننى بعد أن خرجت وعبرت الشارع سمعته
يركض ورائى دون قبعة ، ويصرخ قائلاً لى : « اذا اتفق أن أجابك
يا آجافيا : « قولى لمولاك انه ليس فى المدينة كلها رجل أذكى منه » ، فلا
يفوتنك أن تجيبه قائلة : « نحن نعرف هذا دون أن تقوله ، وتتمنى لك
مثل هذا القدر من الذكاء » •

وتمت مفاتحة الحاكم بالأمر أخيراً • فما ان عاد صاحبنا العزيز ايفان أوسيوفتش ، حتى أُطلع على شكوى أعضاء النادي • وكان بديها أن من الواجب فعل شيء ما ، غير ان ايفان أوسيوفتش الرقيق شعر بحرج كبير وارتباك شديد • ان هذا الشيخ المضيف ، الرقيق الحديث ، كان هو أيضا يخاف من قربه الشاب بعض الخوف ، فيما يبدو • ومع ذلك قرر أن يدفعه الى الاعتذار للنادي وللمهان ، شريطة أن يكون شكل الاعتذار مناسباً ، بل وأن يكون الاعتذار مكتوباً اذا اقتضى الامر ذلك • ثم قد يحضه بعدئذ بلطف ورقة على السفر ، على القيام برحلة ، الى ايطاليا مثلاً ، لا غناء ثقافته ، أو الى أى بلد آخر فى الخارج •

وفى الصالة التى استقبل فيها نيقولاى فسيفولودوفتش (وكان نيقولاى فى العادة يتجول حراً طليقاً فى المنزل كله بصفته من الأقرباء) ، كان هناك موظف شاب مؤدب جداً هو محل ثقة الحاكم ، اسمه أليوشا تلياتنيكوف ؛ انه جالس أمام منضدة فى أحد الأركان يفض رسائل • وفى الفرفة المجاورة ، عند نافذة قريبة من الباب ، كان كولونيل ضخم الجسم قوى البنية ، هو صديق لايفان أوسيوفتش ورفيق قديم من رفاقه ، يقرأ جريدة « الصوت » * دون أن يلتفت أى التفات طبعا الى ما كان يجرى فى الصالة ، حتى أنه كان مديراً ظهره الى الباب •

أخذ ايفان أوسيوفتش يتكلم بصوت خافت • حتى اذا قارب الموضوع قليلاً ارتبك بعض الارتباك وأخذ يلف ويدور فى كلامه • ان وجه نيقولاى خال من البشاشة ، لا يرى فيه المرء أثراً لعاطفة عائلية •

وكان نيقولاى جالسا ، شاحب اللون ، خافض العينين ، يصغى ويقطب حاجبيه كأنه يقاوم ألماً حاداً .

قال له الحاكم فيما قال :

- ان قلبك طيب نبيل يا نيقولاى ، وانك رجل مثقف ، وقد ترددت على أرقى البيئات الاجتماعية ؛ وحتى هنا كان سلوكك الى الآن سلوكا يستحق أن يضرب به المثل ، فكنت فرحةً لأملك التي نقدرها جميعا ونحمل لها أكبر الاعزاز ... ولكن ها أنت ذا الآن تطلع علينا بسلوك يحير العقل ويشكل خطرا على الناس كافة . انتى أكلمك كصديق لأسرتكم ، وكقريب يحبك حباً صادقا خالصا ، فما ينبغي أن تسوءك أقوالى . قل لى : ما الذى دفعك الى ارتكاب أفعال تبلغ هذا المبلغ من الهمجية ، وتخالف الأصول والآداب الاجتماعية الى هذا الحد ؟ مامعنى هذا الشذوذ الذى يحمل المرء على أن يفترض أن بك هذيانا .

كان نيقولاى يصغى الى كلام الحاكم وقد لاح فى وجهه الضجر والتلملم فى آن واحد . ثم اذا بشيء فيه مكر وسخر يسطع فى نظرتة على حين فجأة . قال للحاكم مظلم الهيئة :

- طيب ... سأقول لك ما الذى يدفعنى ...

ثم مال على ايفان أوسيوفتش بعد أن ألقى نظرة حذر . فارتأى أليوشا تلياتنيكوف ، الموظف المؤدب ، أن يتعد نحو النافذة بضع خطوات أخرى . وكان الكولونيل يتنحى من وراء جريدته . ووثق الحاكم المسكين واطمان ، فأسرع يقرّب من فم نيقولاى أذنه . لقد كان على أحر من الجمر شوقا الى سماع كلام نيقولاى . وعندئذ انما حدث شيء لا يصدق خيال المرء أن يحدث ، ولكنه ذو دلالة واضحة بليغة . لقد أحس الشيخ فجأة أن نيقولاى ، بدلا من أن يفضى اليه بسر هام ، قد قبض بأسنانه

على الجزء الأعلى من أذنه وأخذ يعضه عضاً قويا • ارتجف ايفان أوسبوفتش ، واقطع تنفسه ، ثم قال فى أنين بصوت مشوّه :

– كفى مزاحا يا نيقولاى !

ان ألبوشا والكلونيل لا يفهمان حتى الآن ماذا يجرى • كان يبدو لهما من المكان الذى هما فيه أن الرجلين يتحدثان بصوت خافت • غير أن ما كان يلوح فى وجه الشيخ من ألم شديد قد أقلقهما • لذلك نظر كل منهما الى صاحبه محمّلا ، متسائلا هل يجب أن يتدخل وفقا لما تم الاتفاق عليه ، أم يجب أن ينتظر قليلا • ولمسل نيقولاى قد لاحظ ترددهما فهاهو ذا بعض بمزيد من القوة • وعاد الشيخ المسكين يئن قائلا من جديد :

– نيقولاى •• نيقولاى •• كفى مزاحا !

فلو انقضت دقيقة أخرى لمات الشيخ المسكين من الخوف حتما • ولكن جلّادّه رأف به وعفا عنه فأرخى أذنه • ولبت الحاكم تحت وطأة الذعر دقيقة كاملة لا يتحرك ، ثم اعتراه ما يشبه أن يكون نوبة صرع • وبعد نصف ساعة كان نيقولاى قد اعتقل ، واقتيد الى هيئة الحرس ، وورضع فى زنزانة تحت مراقبة حارس • ان هذا الاجراء قوى شديد ، ولكن حاكمنا الرقيق كان قد بلغ من شدة الغضب أنه قرر أن يتحمل تبعه هذا الاجراء أمام فرفارا بتروفنا • وما كان أشد دهشة الناس جميعا حين أسرع فرفارا غاضبة تطلب ايضاحات من ايفان أوسبوفتش ، فما كان من الحاكم الا أن رفض استقبالها ! وقد صمّعت فرفارا بتروفنا من شدة الدهشة ، ولم تصدق عينيها ، لكنها اضطرت أن ترجع الى البيت حتى دون أن تنزل من مركبتها •

واتضح أخيرا كل شيء • ففى الساعة الثانية من الصباح أخذ السجين

الذى بدا الى ذلك الحين هادئا حتى لقد نام ، أخذ يُجن جنونه على حين فجأة : فهو يضرب الباب بقبضة يده ضربات مسـمـورة ، وهو يخلع قضبان الباب الحديدى بقوة فوق قوة البشر ، وهو يحطم الزجاج فتصاب يده بجراح . فلما أسرع ضابط الحرس مع رجاله ففتحوا باب الزنزانة ليقبضوا على السجين ويوثقوه ، وجدوه يعانى نوبة حمى حارة شديدة . فقلوه الى أمه . واتضح عندئذ كل شئ . ان الأطباء الثلاثة بمدىنتنا قد أجمع رأيهم على أن المريض ربما كان قبل انفجار النوبة بثلاثة أيام فى حالة قريبة من الهذيان ، فهو واعٍ وهو قادر على أن يتصرف بحيلة ومكر ، ولكنه كان منذ ذلك الوقت لا يسيطر على عقله ولا على ارادته ، كما تدل على هذا الوقائع . وهكذا اذن يكون لـيـوتـين أول من أدرك الحقيقة . وقد ارتبك ايفان أوسيوفتش ، الرقيق العاطفة ، المرهف الشعور ، فأصبح حائرا لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول . ان من الأمور الغريبة أنه هو أيضا كان يرى أن نيقولاى فسيفولودوفتش لا يتورع عن ارتكاب أشد الاعمال طيشا وجنونا ولو ملك عقله كاملا . وخجل أعضاء النادى أيضا . وأظهروا دهشتهم من أنهم لم ينتبهوا الى ما كان ينبغى لهم أن ينتبهوا اليه ، وأنهم لم يفتنوا الى ذلك التفسير الوحيد الذى يمكن أن يعلل تلك الأفعال الشاذة . ولئن أظهر بعضهم شيئا من شك وريب ، فانهم سرعان ما انقادوا للاقتناع بأن ذلك هو التفسير .

لزم نيقولاى سريره مدة شهرين . وقد جرى له من موسكو بطيب شهير يشارك فى فحصه . وتوافدت المدينة كلها على فرارا بتروفا تحيها وتعرب لها عن احترامها ، ففرت للجميع وسامحتهم . حتى اذا جاء الربيع ، وأبل نيقولاى ابلا تامة ، ورضى دون أى اعتراض أن يسافر الى ايطاليا كما طلبت منه أمه ذلك ، اقترحت عليه أمه أيضا بأن يقوم ببعض زيارات

الوداع ، وأن ينتهز فرصة هذه الزيارات فيعتذر لمن أساء إليهم • فوافق الشاب على ذلك راضيا • وعلم في النادي أن نيقولاى قد أجرى مع بافل بافلوفتش جاجانوف حديثا لبقاً الى أبعد حدود اللباقة أَرْضَى جاجانوف ارضاء تاماً • وكان نيقولاى أثناء جولة الزيارات هذه ، يبدو عليه كثير من الجد ، بل ويبدو عليه أيضاً شيء من الحزن • ويظهر أنه قد استقبل في كل مكان بأكبر المودة وأحرَّ العاطفة • ومع ذلك كان الناس - لا يدرى المرء لماذا - يلوح عليهم شيء من الضيق والانزعاج ويلوح عليهم أنهم سعداء برحيله • أما ايفان أوسيوفتش فقد ذرف بعض العبرات أثناء وداعه ، ولكنه لم يعزم أمره على أن يقبله • يجب أن نذكر أن عدداً منا قد ظلوا ، رغم كل شيء ، مقتنعين بأن هذا « الشقى » انما ضحك على الناس ، وأن حكاية المرض هذه ليست واضحة •

وقد ذهب ستافروجين الى ليوتين أيضاً • وسأله :

- قل لى : كيف استطعت أن تتبأ سلفا بما سأقوله عن ذكائك فكلفت آجافيا بأن تجينى ؟

فأجابه ليوتين ضاحكا :

- الامر بسيط جدا • أنا أيضا أعدك رجلا ذكيا ، فكنت أعرف جوابك سلفا •

- تلك مع ذلك مصادفة عجيبة • ولكن اسمح لى : أكنت اذن تعدنى رجلا ذكيا لا مجنوناً حين أرسلت الى آجافيا ؟

- نعم ، كنت أعدك من أذكى الناس وأعقلهم • ومع ذلك تظاهرت بالاعتقاد بأنك لم تكن تملك عقلا كاملا • وأنت نفسك ، من جهة أخرى ، قد فهمت فكرتى فورا فبعثت الى آجافيا بشهادة ذكاء • تتم نيقولاى فسيفولودوفتش يقول مقطبا حاجبيه :

- مع ذلك أنت مخطيء قليلا فى هذه النقطة ... فلقد كنت مريضا ... حقاً !

ثم صاح يقول :
- أتراك تظن أننى يمكن أن أهاجم على الناس هذا الهجوم وأنا فى حالة سليمة ؟

فصغّر ليوتين جسمه ولم يعرف بماذا يجيب • واصفرّ نيقولاى
فسيفولودوفتش قليلا • أو هذا على الأقل ما لاح لصاحبنا ليوتين •

وأردف ستافروجين يقول :
- طريقة تفكيرك مضحكة على كل حال • أنا أدرك طبعاً أنك انما أرسلت الى آجافيا لتهيننى •

- لم يكن فى امكانى أن أدعوك الى مبارزة •
- آ • • • نعم • • • لقد سمعت عنك أن المبارزة ليست أقوى مافيك !
قال ليوتين وهو يصغّر جسمه كثيراً من جديد :

- ما حاجتنا الى تقليد الفرنسيين ؟

فسأله ستافروجين :

- أأنت من أنصار العادات القومية ؟

فغطس ليوتين فى مقعده مزيداً من الغطس •

ورأى نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين فى مكان بارز على المائدة
كتاباً من تأليف كونسيديران * فجأة ، فهتف يقول :

- هاه ! ماذا أرى ؟ أتراك من أتباع مذهب فورييه ؟ لم لا ، على كل حال !

ثم أضاف يقول ضاحكاً وهو ينقر الكتاب بأصبعه :

- ولكن أليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية ؟

فأجاب ليوتين محتجاً قائلاً بشيء من الغضب :

- لا ، ليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية ، بل هو ترجمة عن اللغة الشاملة ، المشتركة بين جميع البشر ؛ هو ترجمة عن لغة الجمهورية الاجتماعية الشاملة والانسجام الانساني الكامل . ذلك هو هذا !

أجاب الشاب قائلاً وهو ما يزال يضحك :

- غريب ! ولكن هذه اللغة لا وجود لها .

يتفق أحيانا أن يخطف انتباه المرء شئٌ تفصيل تافه لا قيمة له يبقى في الذاكرة بعد ذلك زمنا طويلا . هناك أمور كثيرة أخرى يمكن أن أقولها عن السيد ستافروجين . ولكنني أحرص الآن على أن أذكر ، ولو لطرافة الواقعة ، أن بين جميع الانطباعات التي خلقتها في نفسه اقامته بمدينة كانت هي صورة هذا الموظف الريفي الصغير هي التي انحرفت في فكره أعمق من أية صورة أخرى . نعم صورة هذا الموظف الريفي الصغير ، هذا الانسان التافه ، هذا المخلوق الذي يكاد يكون دنيئاً ، هذا الطاغية في بيته ، هذا الغيور القاسي البخيل ، هذا المرابي الذي يقفل بالمفتاح على بقايا وجبات الطعام ، وأعقاب الشموع ، والذي كان في الوقت نفسه رسولا يدعو الى ما لا أدرى من « انسجام اجتماعي شامل ، ويتشئ وجداً أمام اللوحة الرائعة التي ترسم في خياله عن تعاونيات فورييه في المستقبل ، مؤمناً بأنها ستتحقق قريباً في روسيا ، في مقاطعتنا ، كإيمانه بوجوده ؛ وذلك في هذه المدينة التي اشترى لنفسه فيها بالتوفير والحرمان « منزلاً » وتزوج امرأة ثانية ذات بائنة كبيرة ، هذه المدينة التي ربما كان لا يوجد فيما حولها ولو على مسافة مائة فرسخ فرد واحد يشبه حتى من ناحية المظهر عضواً مقبلاً في تلك « الجمهورية الاجتماعية الشاملة » ، ولا ليويتين نفسه .

« لا يعلم الا الله كيف خلُق هؤلاء الناس ! » . كذلك كان يقول ستافروجين لنفسه مدهوشاً اذ يتذكر أحيانا ذلك النصير الغريب من أنصار فورييه .

دامت رحلة أميرنا أكثر من ثلاث سنين ، حتى لقد كاد الناس أن ينسوه تقريباً في مدينتنا . ومع ذلك كنا نعرف من ستيفان تروفيموفتش أنه طاف أوروبا كلها ، بل وأنه زار مصر والقدس ، وأنه بعد ذلك مضى حتى جزيرة ايسلندة في بعثة علمية ألحق نفسه بها . وقد قيل أيضاً انه خلال فصل من فصول الشتاء تابع محاضرات جامعة ألمانية .

وكان لا يكتب لأمه الا قليلاً ، مرة كل ستة أشهر ، أو أقل من ذلك أيضاً . لكن فرفاراً بتروفا كان لا يبدو عليها أنها تضيق بذلك أو تتألم منه . لقد ارتضت هذا النوع من العلاقات التي قامت بينهما دون تذمر أو تملل . ولكن لا شك طبعاً في أنها خلال هذه السنين الثلاث لم تقطع يوماً واحداً عن أن تفكر في ابنها نيقولاى ، وعن أن تحلم بعودته ، حزينة قلقة . على أنها كانت لا تبوح لأحد بما يعتلج في نفسها من مخاوف وما يراود خيالها من أحلام ؛ حتى لقد ابتعدت بعض الابتعاد عن ستيفان تروفيموفتش . ولا شك في أنها كانت تبني بعض المشاريع ، وكان يبدو أنها تزدد بخلاً ، ولذلك أصبحت تظهر مزيداً من التبرم بالخسارات التي كان يمنى بها ستيفان تروفيموفتش في القمار .

وفي شهر نيسان من ذلك العام تلقت أخيراً رسالةً من باريس بعثتها اليها صديقة طفولتها براسكوفيا ايفانوفنا دروزدوف ، وهي أرملة جنرال . لقد كتبت هذه المرأة التي غابت عن عيني فرفاراً بتروفا غياباً تاماً منذ نحو ثمانى سنين ، كتبت تقول لها ان نيقولاى فسيفولودوفتش قد أصبح يتردد على منزلها كثيراً ، وأن بينه وبين ليزا (ابنتها الوحيدة) صداقة كبيرة ، حتى

انه يتوى أن يصحبهم هذا الصيف الى سويسرا ، الى فرنه مونترو ، مع أنه يستقبل استقبال الابن في أسرة الكونت ك . . . (شخصية عظيمة الشأن جداً في بطرسبرج) الذى يقيم الآن بباريس .

ان الرسالة قصيرة تكشف عن غايتها كشفاً واضحاً ، رغم اقتصارها على الوقائع دون سواها . لم تفكر فرفارا بتروفنا مدة طويلة ؛ وسرعان ما اتخذت قرارها ، فما كاد ينتصف شهر نيسان (ابريل) حتى سافرت الى باريس فسويسرا مصطحبة ربيبتها داشا (أخت شاتوف) . ورجعت فى شهر تموز (يوليه) ، لكنها رجعت وحيدة ، تاركة داشا عند آل دروزدوف . وقالت فرفارا بتروفنا ان هاتين السيدتين ستأتيان إلينا فى آخر شهر آب (أغسطس) .

وكان لآل دروزدوف أرض فى مقاطعتنا هم أيضاً . لكن ضرورات وظيفة الجنرال ايفان ايفانوفتش (الصديق القديم من أصدقاء فرفارا بتروفنا ، ورفيق زوجها فى السلاح) كانت قد منعتة دائماً من أن يعيش فى أرضه الرائعة . فلما مات الجنرال فى السنة الماضية ، سافرت أرملته الحزينة الى الخارج مع ابنتها متوية ، فيما كانت تتويه من أمور أخرى أيضاً ، أن تصيب خطأ من العلاج بالغب فى فرنه مونترو . وكانت تعزم أن تقيم فى مقاطعتنا اقامة نهائية متى عادت الى روسيا . وكانت براسكوفيا ايفانوفنا تملك أيضاً فى المدينة منزلاً كبيراً لم يسكن منذ زمن طويل فنوافذه ظلت مغلقة دائماً . ان آل دروزدوف أغنياء . ان براسكوفيا ايفانوفنا ، كرفقتها فى المدرسة فرفارا بتروفنا ، هى بنت تاجر كبير من تجار الخمر فى النظام القديم . وقد حملت الى زوجها مهراً كبيراً هى أيضاً وضابط سلاح الفرسان توشين الذى تزوجته زواجا أول كان يملك هو نفسه ثروة لا بأس بها . وكان لا يخلو كذلك من مواهب . وحين مات ترك لابنته

الوحيدة ليزا ، التي كان عمرها عندئذ سبع سنين ، ترك لها ثروة ضخمة .
والآن وقد بلغت ليزا ثمانين عاماً ، يمكن أن تُقدّر ثروتها الشخصية بمائتي ألف روبل ، ناهيك عن المال
الذي سترته من أمها ، لأن أمها لم تنجب من زوجها الثاني .

ان فرارا بتروفا تبدو راضية جداً عن رحلتها . ففي رأيها أنها ،
هي وبراسكوفيا ايفانوفنا ، قد انتهتا الى اتفاق . فما ان عادت ، حتى قصّت
كل شيء على ستيفان تروفيموفتش ، وأفاضت في الكلام والبوح ، وذلك
أمر كانت قد كفت عنه منذ زمن طويل .

صاح ستيفان تروفيموفتش قائلاً وهو يصفق بأصابعه :

- مرحى ! عظيم !

كان مسروراً أعظم السرور ، مفتناً أشد الافتنان ، لا سيما وأنه أثناء
غياب صديقه قد عاش حياة حزينة جداً .

وكانت فرارا بتروفا ، حين سافرت ، قد ودعته وداعاً فاتراً ،
وحاذرت أن تبلغ هذا « النمام » مشاريعها ، خشية نثراته طبعاً . يُضاف
الى ذلك أنها كانت غاضبة منه حائقة عليه حين علمت أنه خسر في اللعب
بالورق مبلغاً ضخماً . ولكنها حتى قبل أن تغادر سويسرا قد أحست أن
من واجبها أن تعوّض صديقها المهجور الذي كانت تعامله منذ مدة طويلة
بكثير من الشدة والصرامة . وكان سفرها المفاجيء السرى قد أثّر تأثيراً
بالغاً عميقاً في قلب ستيفان تروفيموفتش الوجل ، لا سيما وأنه اتفق أن
كان في تلك الآونة يعاني من مصاعب أخرى كثيرة . لقد كان عليه أن
يواجه التزاماً مالياً قديماً كبيراً ما كان له أن يستطيع سداده بدون مساعدة
فرارا بتروفا . زد على ذلك أن حاكمنا الطيب ، ايفان أوسيووفتش ، قد
ترك منصبه في شهر أيار (مايو) من تلك السنة نفسها ، اذ اضطر الى

الاستقالة فى ظروف مؤسفة • وقد تم استقرار الحاكم الجديد ، آندره أنطونوفتش فون لمبكه كمبله أثناء غياب فرفارا بتروفنا • وكان من شأن هذا أن بدّل وضع فرفارا بتروفنا فى بيتنا الريفية تبديلاً محسوساً جداً ، وسرعان ما بدّل وضع ستيفان تروفيموفتش تبعاً لذلك ، وهذا ما استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يقتنع به من ملاحظة علامات مزعجة لكنها ذات بال • لذلك أخذ يراوده الخوف أثناء غياب فرفارا بتروفنا • ثم انه قد علم من مصدر مطلع أن عدداً من سيداتنا قد قررن أن لا يرين فرفارا بتروفنا بعد الآن • وكان لا يُنتظر أن تصل امرأة الحاكم الجديد الا فى مطلع الخريف ، ولكن كان يقال انها ان كانت متعجرفة جداً ، فهى ارسقراطية حقيقة على الأقل ، تختلف عن صاحبتنا « المسكينة فرفارا بتروفنا » اختلافاً كبيراً • لا أدري كيف كان جميع الناس يعلمون ، بكثير من التفصيل ، أن السيدة فون لمبكه وفرفارا بتروفنا كاتتا قد التقتا فى المجتمع سابقاً ، وانهما افرقتا متعاديتين ، حتى ان ذكر اسم زوجة الحاكم كان يكفى وحده لأن يزعج فرفارا بتروفنا • وها هى ذى فرفارا بتروفنا تصل ، فاذا بهيئتها المتصرة ، واذا بالاهمال الذى أظهرته حين علمت بعداوة هاته السيدات ، واذا بالازدراء الذى بان عليها حين عرفت الشائعات التى هزت مجتمعنا ، اذا بهذا كله ينعش شجاعة ستيفان تروفيموفتش ويرد اليه صفاء مزاجه • وأراد أن يكسب حظوة صديقه فأخذ يصف لها وصول الحاكم الجديد وصفا ساخراً •

قال وهو يبط كلماته متفنجاً :

— لا شك أنك تعلمين ، « يا صديقتى العظيمة » (بالفرنسية) ، كيف يكون حاكمٌ روسى على وجه العموم ، وكيف يكون حاكمٌ روسى حديث التعيين على وجه الخصوص ، ولكننى أشك فى أن تكونى قد أتيج لك أن تعرفى بالتجربة ما هى « نشوة الحكم » !

– نشوة الحكم ؟ ما نشوة الحكم هذه ؟

– اسمعى « انت تعلمين أن الناس فى بلادنا الخلاصة...
(بالفرنسية) .. اذا وُضع أحدهم وراء شبك قطع التذاكر فى محطة
من محطات القطار ، وكلّف بأن يبيع أية تذاكر ، لا يلبث التافه أن يعتقد
أن من حقه أن يصطنع وضع جويتر « اظهارا لسلطته » (بالفرنسية) اذا
جئت تشتريين منه تذكرة سفر ، فكأنه يقول : « انتظرى قليلاً .. سوف
ترين ما لى عليك من سلطة » . هذا نوع من نشوة الحكم «الخلاصة»
(بالفرنسية) لقد قرأت أن خادم احدى كنائسنا فى الخارج
« ولكنه أمر عجيب جدا » (بالفرنسية) قد طرد نعم طرد طرداً...
من الكنيسة أسرة مرموقة جدا « سيدات فانتات » (بالفرنسية)
قبل ابتداء صلاة العيد الكبير تعرفين تلك الأناشيد ، وسفر
أيوب طرد الأسرة بحجة وحيدة هى أن « الأجانب الذين يتسكعون
فى الكنائس الروسية يحدثون فيها فوضى ، وما عليهم على كل حال الا أن
يأتوا فى غير أوقات الصلاة » ذلك ما قاله ، حتى ان احدى السيدات
قد أغمى عليها . ان خادم الكنيسة هذا قد أصابته أيضا « سكرة حكم » ،
« وأظهر سلطته » (بالفرنسية) .

– أوجز اذا استطعت يا ستيفان تروفيموفتش .

– ان السيد فون لمبكه يزور الآن مقاطعته . بكلمة واحدة : ان هذا
السيد آندره أنطونوفتش هو ألماني روسى ، أرثوذكسى الديانة ، لا أنكر
أنه رجل جميل جدا ، فى نحو الاربعين من عمره

– من قال لك انه رجل جميل جدا ؟ ان له عينين كعيني كبش .

– نعم ، كعيني كبش ، ولكننى أوافق سيداتنا على رأيهن

- لننتقل الى موضوع آخر يا ستيفان تروفيموفتش ، أرجوك •
بالمناسبة : أأنت تضع ربطة عنق حمراء منذ مدة طويلة ؟
- اليوم ... فقط ...

- هل تريض ؟ هل تمشي كل يوم مسافة الفراسخ الستة التي أمرك
بها الطبيب ؟
- لا دائما

- قدّرتُ هذا • خمّنته وأنا بسويسرا •
قال لك ذلك صائحة غاضبة • وأردفت :

- طيب... لن تمشي بعد اليوم ستة فراسخ بل عشرة • انك لم تشخ
فحسب ، بل هرمت هراً شديدا • لقد دُهِشت حين رأيّتك منذ قليل ،
رغم ربطة عنقك الحمراء • ما هذه الفكرة السخيفة التي راودتك : ربطة
عنق حمراء ؟ طيب ... أكمل حديثك عن فون لمبكه اذا كان عندك شيء
تقوله حقاً ، ولكن اختتم قصتك ، أرجوك • اننى متعب •

- « الخلاصة » (بالفرنسية) أنا انما أردت أن أقول انه واحد من
حكامنا أولئك الذين يبدأون فى الأربعين من العمر • يعيشون قبل ذلك
حياة بائسة خاملة ؟ ثم اذا هم يصبحون على حين فجأة شخصيات مرموقة ،
بفضل زواج لم يكن فى الحسبان ، أو بأية وسيلة أخرى لم يكونوا
يأملونها ... لقد سافر الآن ... ولكن يجب أن أقول لك انهم أسرعوا
يدسون فى أذنه أننى أفسد الشيبية وأنشر الاحاد ... لقد استطلع وسأل
فوراً •

- ولكن هل هذا صحيح ؟

- لقد اتخذت احتياطاتى • وحين نقلوا اليه أنك كنت أنت «تحكمين
المقاطعة » ، أباح لنفسه أن يقول : « لن تجرى الأمور على ذلك النحو
بعد الآن » •

— هل قال هذا حقاً ؟

— نعم ، قال « لن تجرى الأمور على ذلك النحو بعد الآن » ، وقد قال ذلك « بتلك المعجزة » (بالفرنسية) . . . أما زوجته جوليا ميخائيلوفنا فسوف تشرف برؤيتها هنا في آخر شهر آب (أغسطس) . سوف تصل رأساً من بطرسبرج .

— خطأ . سوف تصل من الخارج . لقد التقينا هناك .

— « حقاً ؟ » (بالفرنسية) .

— في باريس ، وفي سويسرا . انها قريبة آل دروزدوف .

— يالها من مصادفة خارقة ! ويقال انها طموحة ، وان لها علاقات قادرة . . .

— سخافات ! ليس لها الا علاقات صغيرة لا تُذكر . لقد ظلت حتى الخامسة والأربعين من العمر عانساً لا تملك قرشاً . ثم اصطادت هذا السيد فون لمبكه ، وهي تريد الآن أن تصنع منه شخصية مرموقة طبعاً كلاهما دساس صاحب مكائد .

— ويظهر أنها أكبر منها بستين ؟

— بل بخمس سنين . كانت أمها في موسكو تكس عتبة منزلي بحافات ثوبها . كانت تستجدي أن أدعوها الى حفلات الرقص التي كنت أقيمها في أيام فيسيفولود نيقولايفتش * . وكانت ابتها هذه تقضي ليالى بكاملها قابعة في ركن من الأركان دون مراقص ، مزدانة الجين بقرص فيروزي اللون ، حتى اذا دقت الساعة الثالثة من الصباح أخذتني بها شفقة فأرسلت اليها أول مراقص . كان عمرها حينذاك خمسة وعشرين عاماً ، ولكن أهلها كانوا ما يزالون يلبسونها فستاناً قصيراً كفتاة صغيرة ، حتى أصبح المرء يستحي أن يستقبلهم .

– انى لأكاد أراه ، ذلك القرص الذى كانت تزين به جبينها •

– أقول لك اتنى ما ان وصلت حتى وجدت نفسى فى وسط مكيدة •
لقد أطلعتك منذ لحظة على رسالة السيدة دروزدوف • هل يمكن أن يكون
نمة ما هو أوضح من هذا ؟ ماذا اكتشفت ؟ ان دروزدوف الحمقاء هذه
– ولقد كانت حمقاء دائما – قد نظرت الى كأنمما لتسألنى لماذا جئت •
فتصور دهشتى ! لقد نظرت فرأيت لبكته تلك تدور حولنا ، ومعها ذلك
الشاب ، ابن أخت الشيخ دروزدوف • لقد اتضح لى عندئذ كل شيء •
أدركت الموقف فى طرفة عين طبعاً ، ولم تلبث براسكوفيا أن انحازت الى
جانبى من جديد • ولكن ما قولك فى هذه المكيدة ؟

– التى انتصرت عليها مع ذلك ! أوه ، انك لبسارك ! *

– دون أن أكون بسمارك ، أستطيع أن أميز الزيف والحماسة
الذين أصادفهما فى طريقى • ان لبكته هى الزيف ، وان براسكوفيا هى
الحماسة • قلّ أن رأيت فى حياتى امرأة تفوقها رخاوة ؛ وهى عدا ذلك
متورمة الساقين ، وهى فوق كل شيء طيبة • فهل نمة أغبى من انسان
أحمق طيب ؟

أجاب ستيفان تروفيموفتش :

– الأحمق الشرير أغبى يا « صديقتى العزيزة » (بالفرنسية) •

– قد تكون على حق • لا شك أنك تتذكر ليزا ، هه ؟

– « طفلة فاتنة » (بالفرنسية) •

– ما هى الآن بطفلة ؛ هى الآن امرأة ، بل امرأة قوية الشخصية •
انها حارة الطبع كريمة النفس • ان ما يمجبنى فيها هو أنها تقاوم أمها ،
تلك الحمقاء السريمة التصديق • لقد قامت بينهما مشكلة كبيرة ، بسبب
ابن الأخت ذاك •

- ها ... فعلاً ... انه لا يمت بأية قرابة الى ليزافتا نيقولايفنا •
أيكون طامعا فيها ؟

- اسمع ! هو ضابط شاب ، قليل الكلام ، بل ومتواضع . اننى أحرص دائما على أن أكون منصفة • أظن أنه هو نفسه ضد هذه المكيدة ، وأنه لم يكن يطمع فى شيء • ان السيدة لمبكة هى التى تدبر الحيلة كلها • لقد كان يحمل لنيقولاى تقديرا عظيما • ان كل شيء متوقف على ليزا • وحين تركتهم كانت على صلات ممتازة بنيقولاى الذى وعدنى بأن يجيء النسا حتما فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) • واذن فان زوجة لمبكة وحدها تدبر الحيلة ، أما براسكوفيا فهى عمية لا أكثر • ألم تصرّح لى بأن الشبهات التى تراودنى ليست الا هواجس خيالية ؟ لقد أجبتهأ رأسا بأنها امرأة حمقاء • وأنا مستعدة لان أكرر قولى هذا الى أن ألفظ آخر أنفاسى • ولولا أن نيقولاى قد رجائى أن لا ألح الآن ، لما كنت تركتهم قبل أن أزيح القناع عن وجه تلك المرأة المتافقة المرائية • انها بواسطة نيقولاى تحاول أن تظفر بالخطوة لدى الكونت ك • • • ! انها تريد استمداء الابن على أمه • ولكن ليزا الى جانبنا • أما براسكوفيا فقد اتفقت معها أخيرا • أنت تعلم أن كارمازينوف قريبها ، أليس كذلك ؟

- كيف ؟ قريب السيدة فون لمبكة ؟

- نعم ، قريبها ، ولكنها قرابة بعيدة •

- كارمازينوف ، الكاتب ؟ *

- نعم ، الكاتب • لماذا يدهشك هذا ؟ انه يعد نفسه رجلاً عظيما • انه متنفخ غرورا • سيصلان معا • وهى تحدث الآن من أجله جلبة كبيرة فى الخارج • انها تنوى أن تنظّم هنا شيئا ما ، تنوى أن تنظم اجتماعات أدبية لا أدرى ما هى ! سيحجى شهرا واحدا . انه يريد أن يبيع آخر قطعة

من الارض يملكها هنا • أوشكت أن ألقاه في سويسرا ، ولم أكن أحرص على ذلك البتة • آمل على كل حال أن يتنازل فيتعرفني أنا على الأقل • كان في الماضي يكتب اليّ ، وكان يزورني في البيت • أحب أن تعتنى بملابسك اعتناء أكبر يا ستيفان تروفيموفتش • انك تزداد اهمالاً لمظهرك يوما بعد يوم ••• آه ••• ما أشد ما تعذبني ! ماذا تقرأ الآن ؟

— أنا الآن ••• أنا الآن •••

— أعرف • مازلت على عهدي بك : الاصدقاء ، جلسات الشراب ، النادي ، اللعب بالورق ، وتلك السمعة ، سمعة الالحاد ! ان هذه التسمية لا تعجبني يا ستيفان تروفيموفتش • لا أحب أن تُعدّ ملحداً • لا ، لا أحب هذا ، ولا سيما الآن • وفي الماضي أيضا كان ذلك لا يعجبني ؛ فما هو في آخر الامر الا ثرثرة • يجب عليّ أن أقول هذا أخيرا •

— « ولكن ، يا عزيزتي ••• » (بالفرنسية) •

— اسمع يا ستيفان تروفيموفتش : في كل ما يتعلق بالمعارف العلمية ، ما أنا الا جاهلة بالقياس اليك • ومع ذلك ، فانتى عند عودتي الى هنا ، فكرت فيك كثيرا وانتهيت الى اقتناع •

— ما هو هذا الاقتناع ؟

— هو أننا ، أنت وأنا ، لسنا أذكى الناس في هذا العالم • هناك من هم أذكى منا •

— هذا كلام صحيح • وهناك اذن من يرون رؤية أصدق ، ويترتب على هذا أن من الممكن أن نخطئ • أهذا ما تريدني قوله ؟ • ولكن يا صديقتي الطيبة « (بالفرنسية) ، لنفرض اننى مخطئ • اننى مع ذلك أملك حرية الاعتقاد ، وذلك حق عام مقدس • ان من حقى أن لا أكون متعصبا للدين وأن لا أكون متظاهرا بالتقوى اذا كان هذا لا يرضيني •

ولكننى أتعرض طبعاً فى هذه الحالة للبغضاء يحملها لى عدد من الناس الى الأبد . » ثم ان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول « (بالفرنسية) ...
ولما كنت أوافق على هذا الرأى كل الموافقة ...

— ماذا ؟ ماذا قلت ؟

— قلت : « ان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول » ، ولما كنت ...

— ليس هذا القول قولك أنت حتماً . لا شك أنك اقتبسته ...

— هو قول للفيلسوف باسكال .

— قدّرت فعلاً ... أنه ليس قولك أنت . لماذا لا تعبّر عن فكرك أبدا بهذه الطريقة ، بطريقة فيها هذه القوة وهذا الإيجاز ، بدلا من الاطالة دائما ؟ هذا أفضل كثيرا مما كنت تقوله منذ قليل عن نشوة الحكم .

— « والله ... يا عزيزتى ... » (بالفرنسية) ... لماذا ؟ أولاً ، ربما لأننى لست باسكال ، على كل حال ، « ثم » (بالفرنسية) ثانياً ، لأننا معشر الروس لا نجد التعبير عن شيء بلفظنا ... أو أننا لم نصل الى هذا حتى الآن على الأقل ...

— هم ... قد لا يكون هذا صحيحاً كل الصحة . مهما يكن من أمر ، فانه ينبغي لك أن تدوّن هذه التماير على الأقل ، وأن تحفظها لتستعملها فى المناسبات . آه ... ستيفان تروفيموفتش ، كنت أنتهاً لأن أكلّمك بجِد ، بجِد كبير ...

— « صديقتى العزيزة ، صديقتى العزيزة ! » (بالفرنسية)

— الآن وأنا أرى جميع هؤلاء الذين أسماؤهم لمبكه ، وكارمازينوف ... آه ! يا الهى ! ما أشد اهمالك لنفسك ! انك لتعذبني تعذيباً كبيراً باستيفان تروفيموفتش ! ... أود أن يحترمك هؤلاء الناس ، لأنهم جميعاً

لا يساوون خنصرك • فانظر الى سكوكك أنت ! ما الذى سوف يرونه ؟
ما عسانى أريهم فيك ؟ انك بدلا من أن تكون قدوة للآخرين ، وبدلا من
أن تلتزم وضعا نيلا ، تحيط نفسك بجمع غفير من أوغاد ، وتكتسب عادات
سيئة ، وتهمل نفسك ، وتصبح مدمنا على الخمرة والقمار ، ولا تقرأ الا
بول دو كوك ، وتضيع وقتك فى ثرثرات • هل يجوز أن تعقد صلة صداقة
برجل وبش كصاحبك ليويتين الذى لا تفارقه ولا يفارقك ؟

ـ لماذا تقولين اننى لا أفارقه ولا يفارقنى ؟

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش محتجا فى خجل ووجل •
وتابعت فرارا بتروفا كلامها بلهجة قاسية قاطعة ، فسألته :
ـ أين هو الآن ؟

ـ انه ... انه يحترمك الى أبعد حدود الاحترام ، وقد سافر الى
ـ ... لك ، لاستلام الميراث الذى آل اليه من أمه •
ـ يخيّل الى أنه لا يفعل شيئا غير أن يرث • وشاتوف ؟ أما يزال
على حاله ؟

ـ « سريع الاهتياج ، لكنه طيب القلب » (بالفرنسية) •

ـ اننى لا أطيق احتمال صاحبك شاتوف هذا • انه شرير ، وانه
ممتلىء غرورا بنفسه •

ـ كيف حال داريا بافلوفنا ؟

ـ تقصد داشا ؟ ما هذه الفكرة الغريبة التى واثت ؟

كذلك سأله فرارا بتروفا ، وهى تنظر اليه متعجبة مستطلعة •
وتابعت كلامها فقالت :

- هـى بهـير • لـقد تركـها عـند آل دروزدوف... سمعتُ حـديثاً عـن
ابـنك حـين كـنت فـى سويسرا ، بشرٍ لا بهـير •
- « أوه ، هـذه حـكاية سـخيفـة جـدا • كـنت أـتـظر وـصـولـك يا صـديقـتى
الطـيبـة لأقـص عـليك ... » (بالـفرنـسيـة) •

- كـفى يـاسـتـيفـان تروفيـموفـتش ، دـعنى وشـأنى هـادئة البـال • انـتى
مـتـعبـة مـرهقـة • سـوف يـتـسع وـقتـنا للـكـلام عـلى مـهل كـما نـشاء ، ولا سـيـما عـن
أـمـور مـزعـجـة • انـك حـين تـضحـك تـرشـق مـن فـمـك رذاذاً غـزيراً مـن اللـعـاب •
هـذا وـحـده دـليـل شـيـخوـخـة وهرم • ثم انـك الآن تـضحـك ضـحـكاً غـريـباً جـدا •
ما أـسـوأ هـذه العـادات الـتى تـأصـلت فـيك ! ان كـارماـزـينوف لـن يـأتى اليـك !
والنـاس يـعـبـثـون الآن بـكل شـئ • وبيـتـهـجـون لـكل شـئ •... لـقد كـشـفت الآن
عـن نـفـسـك كـلـها • هـيـآ ، كـفى كـفى ! أنا مـتـعبـة • هـلأً أشـفـقت عـلى كـائن
انـسانى آخـر الـامر !

« أشـفـق سـتـيفـان تروفيـموفـتش عـلى كـائن انـسانى » آخـر الـامر • وـلـكنـه
انـصـرف مـضـطرباً أشـد الاـضطـراب •

كان صاحبنا قد اعتاد كثيرا من العادات السيئة فعلا ، ولا سيما فى هذه الآونة الاخيرة . واضح أنه أصبح قليل الاكتراث ، وأنه أخذ يهمل مظهره مزيدا من الاهمال يوما بعد يوم . وهو الآن يشرب أكثر مما كان يشرب ، وقد صار سخىّ الدموع يذرفها بسهولة ، وصارت أعصابه تنور فى كل مناسبة . واكتسب وجهه سرعة فى الحركة غريبة ، حتى انه ينتقل فورا من التعبير عن أعظم الأبهة والفخامة الى التعبير عن أتفه الهزل المسف المضحك ، بل والى التعبير عن أبلغ الحماقة البلهاء . وقد غدا عاجزا عن احتمال العزلة والوحدة ، فلا بد له دائما من أحد يعجى اليه فيسليّه . وكان ينبغي أن تنتقل اليه النائم والأفاويل ، وأن تروى له الحكايات التى تشبع فى المدينة ، وكان يطالب دائما بجديد . فإذا لم يأت اليه أحد ، طفق يطوف من غرفة الى غرفة حزينا ، واقترب من النافذة فى كل لحظة ، وتنهد وزفر ، وحرّك شفتيه حالم الهيئة شارد اللب ، ثم اذا هو يكاد يبكى . وأصبحت تساوره هواجس ومخاوف مستمرة ، فهو فى كل وقت يخشى وقوع حادث غير منتظر ، وهو دائم الجفول والتخوف كغير الاهتمام بما يراه فى النوم من أحلام .

قضى ستيفان تروفيوموفتش النهار والليل حزينا مكثبا ، ثم بعث يستدعيني . فلما جئت اليه وجدته مضطربا أشد الاضطراب ، وأخذ يتحدث طويلا ، ولكن حديثه مشوش مبهم . ان فرفارا بتروفنا تعرف منذ مدة طويلة أنه لا يخفى عنى شيئا . وبدا لى فى النهاية أن ثمة شيئا يقلقه

وبيث في نفسه الاضطراب ، وأنه ربما كان هو نفسه لا يدرك هذا الشيء
ادراكا واضحا ، ولا يبعه وعيا كاملا . وقد جرت العادة ، حين نكون
وحيدين فيفرغ من الافضاء الى بهومه وآلامه ، أن نؤتى على الفور
بزجاجة خمر تسرى عنا قليلا . ولكن الخمرة في هذه المرة لم تكن
موجودة ، وكان واضحا أنه يكبح رغبته في طلب شيء منها .

انه لا يفتأ يكرر شاكيا كطفل :

– ما الذى يفضيها دائما ؟ « ان رجال العبقريّة والتقدم فى روسيا
كانوا وما يزالون وسيظلون الى الأبد » (بالفرنسية) مقامين وسكّيرين
... وأنا لست مقامرا ولا سكيرا الى هذا الحد ... انها تأخذ علىّ أننى
لا أكتب شيئا ... يالها من فكرة غريبة ! ... لماذا أظل مضطجعا ؟ هى
تقول لى : « عليك أن تكون قدوة ، وأن تقف أمام الجميع صورةً مجسدة
للوم والرفض » . فقل لى – وليكن الكلام سرا بيننا – ما عسى يفعل رجل
يجب أن يكون صورة مجسدة للوم والرفض ، الا أن يبقى مضطجعا ؟
كيف لا تفهم هى هذا ؟

وأدركت أخيرا سبب هذا القلق الخاص الذى كان يعذبه فى ذلك
اليوم . انه فى أثناء تلك السهرة قد اقترب من المرأة مرارا ليتأمل وجهه
طويلا . وفى النهاية التفت نحوى وقال فى كرب شديد :

– « يا عزيزى » (بالفرنسية) لقد سقطت ...

الواقع أنه كان حتى ذلك الحين ، حتى ذلك اليوم ، محتفظا باعتقاد
جازم لا يتزعزع ، رغم « وجهات النظر الجديدة » ورغم « الافكار
الجديدة » التى انتهت اليها فرفارا بتروفا ، بأنه ما يزال يحظى من صديقه

باعتبار عظيم من حيث هو رجل وسيم جميل ، لا من حيث رجل منفى أو
عالم شهير فحسب . ان هذا الاعتقاد المبهج المطمئن كان قد تأصل فيه
وترسخ منذ عشرين عاما ، ولعله كان هو الاعتقاد الذى يصعب عليه أن
يتنازل عنه أكثر مما يصعب عليه أن يتنازل عن أى اعتقاد آخر . ترى ،
هل وافاه فى ذلك المساء احساس يتنبأ بالمحنة الرهيبة التى كان يهيئها له
مستقبل قريب ؟

الآن أصل من قصتي الى الجزء الذى هو بدايتها حقا ، وهو جزء مضحك بمض الشئ .

فى آخر شهر آب (أغسطس) ، وصلت السيدتان دروزدوف أخيرا الى مدينتنا . فكان لوصولهما الذى أعقبه بعد برهة وجيزة وصول قريتهما امرأة الحاكم التى طالما انتظر وصولها ، كان له دوى كبير . سأعود فيما بعد الى هذه الاحداث الطريفة جدا . أما الآن فأذكر فقط أن براسكوفيا ايفانوفنا التى انتظرتها فرفارا بتروفا بصبر فارغ قد حملت الى فرفارا نبأ غريبا مشوشاً : هو أن نيقولاى ترك آل دروزدوف منذ شهر تموز (يولييه) وأنه وقد التقى على نهر الراين بالكونت ك وأسرته قد تبعهم الى بطرسبرج (ملاحظة : ان للكونت ك ثلاث بنات للزواج) .

قالت براسكوفيا ايفانوفنا :

- ولم أستطع أن أستخرج من ليزافتا شيئا بسبب كبريائها وسوء مزاجها ، لكننى رأيت بعينى أن شيئا ما قد جرى بينها وبين نيقولاى فسيفولودوفتش . لا أدري ما هو هذا الشئ ، ولكن يخيّل الى يا صديقتى العزيزة أن عليك أن تسألى عن هذا الامر صاحبك داريا بافلوفنا . فى رأيى أن ليزا قد أحست بأنها أهنت . انى ليسرنى أعظم السرور أن أرد اليك أثيرتك أخيرا ، وأن أضعها بين يديك : فهأناذا أتخلص منها .

هذه الكلمات المليئة بالمرارة والضعف قد نطقتها براسكوفيا ايفانوفنا بكثير من الغيظ والحنق . كان واضحا أن « المرأة الرخوة » قد حضّرت هذه الكلمات منذ مدة طويلة متلذذة بتأثيرها سلفا . لكن فرفارا بتروفا

ليست امرأة يمكن التأثير فيها بحمل عاطفية وألغاز . فلم تلبث أن تكلمت بلهجة قاسية تطلب ايضاحات دقيقة كاملة ، فخفضت براسكوفيا ايفانوفنا نبرة صوتها ، وانتهت أخيرا الى الافضاء بمشاعرها والبوح بعواطفها بوحا حسيما ، حتى لقد بكت أثناء ذلك . ان هذه السيدة تشبه ستيفان تروفيموفتش ، فهي سريعة الاحتياج لكنها عاطفية تشعر دائما بالحاجة الى « صداقة صادقة مخلصة » ، وكان كل تأذيتها من ابتها ليزافتا يقولوا ايضا أنها « لم تشأ أن تكون صديقة » ، لأنها .

لم يخرج من جميع افضاءاتها وايضاحاتها الا شيء واحد جلي ، هو أنه قد حدث خلاف فعلا بين ليزا ونيقولاى . أما ما هو هذا الخلاف ، فان براسكوفيا ايفانوفنا لم تستطع أن تدركه حق ادراكه وأن تفهمه حق فهمه . وأما الاتهامات التى ألقته على داريا بافلوفنا فانها انتهت لا الى العدول عنها فحسب ، بل أُلحّت كذلك على فرافارا بتروفا أن لا تكثر أى اكترات بتلك الأقوال التى خرجت من فمها فى لحظة « غيظ » . الخلاصة أن كلامها كله كان قليل الوضوح ، بل كان فيه ما يشوش ويحير . هى ترى أن الخلاف ناشئ عن أن ليزا لها « طبع ساخر نزق شرس » . ومن جهة أخرى فان نيقولاى فيسغولودوفتش ، لم يستطع لشدة كبريائه أن يحتمل تلك السخريات ، فاصطنع لهجة ساخرة هو أيضا ، رغم الحب الشديد الذى يحمله لها . وأضافت براسكوفيا ايفانوفنا تقول : « وبعد قليل ، تعرفنا بشاب هو ابن أخى صاحبك « الأستاذ » فيما أظن وهو يحمل نفس اسمه على كل حال . . . » .

صححت فرافارا بتروفا كلام صديقتها قائلة :

— بل هو ابنه لا ابن أخيه .

ان براسكوفيا ايفانوفنا لم تستطع فى يوم من الأيام أن تحفظ اسم

ستيفان تروفيموفتش ، فكانت تسميه دائما باسم « الاستاذ » . قالت تسأل :

— هو ابنه ؟ طيب . لا فرق . هو شاب كسائر الناس ، شديد الحيوية منطلق السلوك ، ولكن ليس له شيء يميزه عن غيره على وجه الاجمال . ان ليزا هي المذنبه في هذه المرة : فمن أجل أن تثير غيره يقولاي فيسفلودوفتش لاطفت هذا الشاب . انتي لا ألومها كثيرا ، فهذا شيء طبيعي في فتاة ، بل هو شيء محجب . ولكن يقولاي فيسفلودوفتش ، بدلا من أن يفار ، عقد بينه وبين الشاب صداقة ، ظاهرا بمظهر من لا يكثرث أو من لا يلاحظ شيئا . فاستمر حتى ليزا من ذلك طبعاً . وما لبث الشاب أن سافر (كان مستعجلاً ، لا أدري لماذا) ، وأخذت ليزا تتأكد يقولاي فيسفلودوفتش في كل مناسبة . حتى اذا لاحظت أن يقولاي يتحدث مع داشا أحيانا ازداد أوار غيظها . يا لها من حياة ! ان الاطباء يحظرون على أن تثور أعصابي . ثم ان تلك البحيرة التي طالما كالوا لها المديح قد قد أخذت ترعجني أخيراً : أوجاع أسنان ، وآلام روماتيزم ، ذلك كل ما جنيته منها . يظهر أن هذا من خصائص بحيرة جنيف . انها تهيم لأوجاع الاسنان . وها هو ذا يقولاي فيسفلودوفتش يتلقى رسالة من الكونتيسة . فسرعان ما أعد عدته للسفر ، ثم بارحنا في ذلك اليوم نفسه . على أنهما افترقا صديقين . حتى ان ليزا أظهرت ، وهي تصطحبه الى المحطة ، كثيراً من المرح فكانت تضحك طول الوقت . لكن ذلك لم يكن الا تمهيداً . فما ان سافر حتى أصبحت حاملة شاردة الفكر ، وكفّت عن الاتيان على ذكره تماماً ، بل لقد منعتني من أن أمسّ هذا الموضوع . واني لأنصحك ، أنت أيضاً ، يا عزيزتي فرفارا بتروفا ، بأن لا تعرضي لهذه المسألة مع ليزا ، والا فيمكن أن تفسدي كل شيء . أما اذا التزمت الصمت فانها ستكون البادئة بالحديث معك في الامر ، فتستطيعين عندئذ أن تعلمي

ما لا تعلمين • فى رأى أنهما سوف يتصالحان ، على شرط أن يصل
نيقولاى فيسفلودوفتش بأقصى سرعة ، كما وعد •

— سأكتب اليه فورا • اذا كان كل شىء قد جرى كما تصفين ، فلا
يعدو الامر أن يكون شقا طارئا ليس بذى بال • تلك كلها مخافات ! ثم
اننى أعرف داريا جيدا • مخافات !

— فيما يتعلق بدائنا اعترف أننى أخطأت • لم تجر بينهما الا أحاديث
تافهة مبتذلة ، وكانا يتكلمان دائما بصوت عال • لكن تلك المشكلات كلها
كانت قد أثارت أعصابى • ثم اننى قد رأيت أن ليزا عادت تعاملها بمسودة
وصداقة ، كما كانت تفعل من قبل •

فى ذلك اليوم نفسه كتبت فرفارا بتروفنا الى نيقولاى فيسفلودوفتش
ضارعة اليه أن يرجع قبل الموعد الذى حددته لرجوعه ولو بشهر واحد •
وكان هناك شىء ما يزال مع ذلك غير واضح لها فى تلك الحكاية • فكّرت
فى الأمر طول السهرة والليل • ان رأى براسكوفيا ايفانوفنا يبدو لها
بسيطا مسرفا فى البساطة ، عاطفيا مسرفا فى العاطفية • قالت تحدث نفسها:
« ان براسكوفيا تميل دائما الى العاطفيات ، حتى منذ كانت فى المدرسة
الداخلية • ليس نيقولاى بالرجل الذى تهزمه سخريات طفلة • فاذا كان
قد حدث شقاق بينهما فعلا ، فلا بد أن يكون هناك سبب آخر غير هذا
تماما • ومهما يكن من أمر ، فان ذلك الضابط هو هنا ، اصطحبته معهن
وأقام فى منزلهن بصفته قريبا • ثم ان براسكوفيا قد كفت عن مهاجمة
داريا بسرعة : لا شك أنها كنتم فى نفسها أشياء لم ترد أن تقولها لى...» •

ما ان طلع الصباح حتى كانت فرفارا بتروفنا قد وضعت خطة يجب
أن تتيح لها أن تحلّ واحدةً ، على الأقل ، من المسائل التى أوقعتها فى
تلك الحيرة كلها وتلك البلبلة كلها ؛ وهى خطة غريبة ، غير منتظرة ولا

متوقعة • ترى ما الذى كان فى قرارة قلبها حين تصورت هذه الخطة ؟
ذلك أمر يصعب على المرء أن يعرفه ، ولست أتحمل عبء توضيح التناقضات
التي تشتمل عليها تلك الخطة • اننى ، بصفتى قاصاً ، أقصر على عرض
الوقائع كما حدثت ، بأكبر صدق ممكن وأكبر دقة ممكنة ، فاذا لاح أنها
غير معقولة فليس الذنب فى ذلك ذنبى • يجب أن أشهد مرةً أخرى مع
ذلك أن شكوك فرفارا بتروفا فيما يتعلق بداشا كانت قد تبددت تبداً تاماً فى
الصباح • والحق أنها لم تأخذها مأخذ الجد فى وقت من الأوقات ، لأنها
كانت عظيمة الثقة برببيتها • ثم انها كان يستحيل عليها أن تصدق أن ابنها
يقول لاى يمكن أن يشق ••• داريا • وفى الصباح ، بينما كانت داريا
تسكب الشاى ، تأملت فرفارا بتروفا طويلاً باتباء شديد ، فقالت لنفسها
ربما للمرة العشرين منذ البارحة ، قالت لنفسها بثقة واطمئنان : « تلك
كلها سخافات ! » •

كل ما هنالك أنها لاحظت أن داشا تبدو متعبة قليلاً ، وأنها تبدو
كذلك أكثر صمتاً وأكثر برودة مما كانت من قبل • وبعد الشاى جلستا
تطرزان ، على عادتهما • فطلبت فرفارا بتروفا من داريا أن تحدثها عن
رحلتها فى الخارج ، عن الطبيعة ، والمدن ، والسكان ، وعاداتهم ، والفنون ،
والصناعة ، وعن كل ما لاحظته • ولم تلق عليها سؤالاً واحداً عن آل
دروزدوف وعن الحياة التي عاشتها مع هاته السيدات • وكانت داشا
جالسةً أمام منضدة صغيرة للشغل ، تتحدث بصوتها المتساوى ، الرتيب ،
الضعيف ، الذى يجرى على وتيرة واحدة ، فاذا بالسيدة تقاطعها فجأة بعد
نصف ساعة من كلامها سائلة اياها :

— داريا ، أليس لديك أى شيء خاص تريد أن تفضى به الىّ ؟

فأجابت الفتاة بعد لحظة تفكير وهى ترفع نحو فرفارا بتروفا عينها
الواضحتين :

- لا ، لا شيء البتة !

- لا فى فكرى ، ولا فى قلبى ، ولا فى ضميرى ؟ •

فكرت داشا تقول بصوت أجش ، ولكن بنوع من تصميم متجهم :
- لا شيء •

- كنت أقدر هذا • اعلمى يا داريا أنتى لن يراودنى أى شك فىك أبدا • والآن ، كونى هادئة وأصغى الى • اجلسى على هذا الكرسي أمامى • أريد أن أراك كلك • نعم ••• هكذا ••• اسمعى • هل تريدن أن تتزوجى ؟

فألت داشا نظرة طويلة مستفهمة ، ولكنها نظرة ليس فيها استغراب كبير • قالت فر فارا بتروفا :

- انتظرى • اسكتى • هناك فرق فى السن ، بل فرق كبير جدا • لكنك أعلم الناس بأن هذا أمر لا قيمة له • أنت عاقلة • وما ينبغى أن يكون فى حياتك خطأ • ثم انه رجل جميل على كل حال • الخلاصة : انه ستيفان تروفيوفتش الذى كنت دائما تقدرينه حق قدره • ما رأيك ؟
ألت داشا نظرة فيها مزيد من الاستفهام • وبدت عليها الدهشة فى هذه المرة ، حتى لقد احمر وجهها •

قالت فر فارا بتروفا :

- انتظرى • اسكتى • لا تستعجلي • رغم أنك تملكين بعض المال - لأننى خصصتك فى وصيتى بمبلغ - فما عسى تصيرين اليه بعد موتى ، ولو ملكت ذلك المال ؟ سوف تُخدعين فيُسرَق مالك ، فإذا أنت تضيعين • أما اذا تزوجت فانك تصبحين زوجة رجل معروف • وانتظرى الى الجانب الآخر من الموقف : لقد كفلت له حياته ، ولكن ما الذى سيحدث له اذا أنا توفيت ؟ أما اذا كنت أنت معه ، فانتى أكون واثقة مطمئة • انتظرى • لم

أنته من كلامي : انه خفيف ، متقلب ، أناني ، ولعله قاسر ، وان له عادات عامية مبتذلة ، ولكن يجب عليك أن تقدره ، ولو لهذا السبب الوحيد : أن هناك من هم أسوأ منه . انك لا تصورين طبعاً أنني أريد التخلص منك وتسليمك لوغد من الأوغاد ، هه ؟ لكنك ستقدرينه خاصةً لأنني أطلب منك ذلك . هل تسمعينني ؟ مابالك تعندين ؟
كذلك قالت بلهجة حائقة .

وكانت داشا صامتةً تصفى الى كلامها . وأردفت فرارا بتروفا
تقول :

- انتظري أيضا . انه يشبه امرأة عجوزا . ولكن هذا أفضل لك .
انه يثير الشفقة في النفس . انه غير جدير حتى بأن تحبه امرأة . لكنسه يستحق أن يُحَبَّ لأنه أعزل من كل سلاح ، ويجب عليك أن تحبيه لأنه أعزل من كل سلاح . هل تفهمينني ؟ أليس ما أقوله صحيحا ؟ هل تفهمينني ؟

هزت ذائنا رأسها بحركة تعني الموافقة على كلام محدثها . فقالت
فرارا بتروفا تصيح بصوت حاد حدةً غريبة :
-

كنت واثقة بهذا . لم أكن أتوقع منك شيئا آخر . سوف يحبك ،
لأنه يجب عليه أن يحبك ؛ سوف يجب عليه أن يحبك ، سوف يجب عليه
أن يعبدك عبادة ؛ بل انه سيهيم بحبك دون أن تتدخل فكرة الواجب .
انتي أعرفه حق معرفته . ثم انني سأكون موجودة . لا تقلقي . سأكون
موجودة دائما . سوف يتشكى منك ، وسوف يقتابك ويشي بك ، وسوف
يروح بأسراره لأول قادم ؛ سوف يشن ويتوجع بغير انقطاع ، وسوف يبعث
اليك برسائل من غرفة الى أخرى ، رسالتين في يوم واحد ، ولكنه لن
يستطيع أن يعيش بدونك ، وذلك هو الشيء الأساسي . توصلني الى جعله

طبعاً • فإذا لم تتوصلى الى ذلك كنت حمقاء لا أكثر •• سوف يزعم لك أنه سيشتق نفسه ، سوف يهددك ، ولكن لا تصدقني شيئاً من هذه الدعاوى • ما هذا كله الا هذر وثرثرة ! لا تصدقني ما يقول • ومع ذلك عليك أن تكونى مفتحة العينين دائماً : فقد يشتق نفسه • يمكن أن يتوقع المرء كل شيء من أمثال هذا الانسان • انهم يشتقون أنفسهم لا لأنهم أقوياء ، بل لأنهم ضعفاء مسرفون فى الضعف • لذلك ينبغي لك أن لا تستغزيه الى آخر الحدود أبداً • تلك أولى القواعد التى يجب على المرأة أن تراعيها فى معاملة زوجها • تذكرى أيضاً أنه شاعر • اسمى يا داشا ! ما من سعادة أعظم من السعادة التى يشعر بها الانسان حين يضحى بنفسه • ثم انك ستسعدينى سعادة كبيرة ، وهذا هو الشيء الأساسى • لا تخيلى أن حماقة قد أفلتت من لسانى الآن : اننى أعى ما أقول ، وأدركه حق ادراكه • أنا أنانية ، فكونى أنت أيضاً أنانية • لكننى لا أجبرك البتة • كل شيء رهن بارادتك • افعلى ما يستقر عليه رأيك • فماذا ؟ مابالك تصمتين؟ تكلمى !

قالت داشا بصوت ثابت :

— اذا كان لا بد حتماً من أن أتزوج ، فأنا موافقة يا فرفارا بتروفنا •
يستوى عندى •••

سألتها فرفارا بتروفنا بلهجة قاسية وهى تلقى عليها نظرة فاحصة :
— اذا كان لا بد حتماً ؟ الى ماذا تلمعين ؟

صمتت داريا وهى تفرز ابرتها فى نسيجها الذى تطرزه •
قالت فرفارا بتروفنا :

— أنت ذكية ، ولكن أفلتت منك الآن جملة سخيفة • صحيح اننى أحرص حرصاً مطلقاً على تزويجك ، ولكن هذا لا يرجع الى ضرورة ،

وانما هو فكرة وافتي • ولن أزوجه الا ستيفان تروفيوفتش • فلولا
أن هناك ستيفان تروفيوفتش لما خطر ببالي أن أزوجه أحدًا ، رغم أنك
بلغت العشرين من العمر • هيه ، ما رأيك ؟
— سأفعل ما تشائين يا فرفارا بتروفا •

— اذن توافقين • انتظري • اسكتي • لا تستعجلي • لم أنه بعد :
لقد خصصتك في وصيتي بخمسة عشر ألف روبل ، لكنني سأعطيك هذا
المبلغ منذ الآن ، بعد الزفاف فورًا • سوف تعطينه من هذا المبلغ ثمانية
آلاف روبل • لا ، لن تعطيه هو ، بل تعطيني أنا • انه مدين بثمانية آلاف
روبل سوف أتولى سدادها عنه • ولكن يجب أن يعلم أنني أسددتها من
أموالك أنت • واحتفظي بالآلاف السبعة التي ستبقى لك • لا تعطيه منها
شيئًا البتة • ولا يخطر ببالك يوما أن تسددي عنه دينًا ، فلو فعلت ذلك
ولو مرة واحدة لتقاطرت عليك المضايقات من كل جهة • على كل حال ،
سوف أكون موجودة • وسوف أكفل نفقات معيشتك ، ألفًا ومائتي روبل
في السنة ، بل ألفًا وخمسمائة روبل ، عدا النفقات الطارئة الخارقة ،
وسأكفل المسكن والطعام ، كما أفعل له الآن • ولكن ستدفعين أنت أجر
الخدمة • سأدفع المعاش السنوي مرة واحدة ، أضعه بين يديك أنت •
ولكن كوني طيبة : أعطيه شيئًا من حين الى حين ، واسمحي له أن يستقبل
أصدقاءه مرة في الاسبوع • فاذا جاءوا أكثر من ذلك ، فاطرديهم •
سأكون موجودة على كل حال • واذا مت فان المعاش السنوي سيظل يُدفع
لك الى أن يموت ، هل تفهمين ؟ الى أن يموت « هو » • ذلك أن هذا
المعاش ليس لك ، بل له • أما أنت فبالإضافة الى السبعة آلاف روبل التي
ستأخذينها الآن والتي ستحافظين عليها اذا لم تكوني حمقاء ، سوف أخصك
في وصيتي بثمانية آلاف روبل • ولكن لا تنتظري مني شيئًا آخر • اعلمي
هذا • هل توافقين ؟ هلاً أجبتي أخيراً ؟

- لقد أجبتك يا فرفارا بتروفا •

- تذكرى أنك حرة تماما ، تفعلين ما تشائين •

- ولكن اسمحي لى يا فرفارا بتروفا : هل سبق أن كلمك ستيفان تروفيوفتش فى هذا الموضوع ؟

- لا ، لم يقل لى شيئاً ، حتى انه لا يعلم شيئاً ، ولكن انتظرى قليلاً •
سوف يتكلم •

ونهضت فرفارا بتروفا فجأة ، ووضعت على كفيها شالها الاسود •
فاحمر وجه داشا من جديد وهى تتابعها بنظرة مستفهمة • والتفت فرفارا بتروفا نحو ربيبتها فجأة ، وقد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط الغضب ، وانقضت عليها انقضاض الصقر تقول صائحة :

- أنت حمقاء ! حمقاء وعقواق ! ما هى الفكرة التى خطرت ببالك ؟
أتصورين أتنى يمكن أن أعرضك لمهانة مهما تصغر ؟ الا انه هو الذى سيزحف على ركبتيه زحفا طالبا يدك • يجب أن تعلمى اتنى لا أرضى قط أن تهانى • أم تُراك تتخيلين أنه سيتزوجك فى سبيل الثمانية آلاف روبل ، وأتنى سأركض اليه الآن لأبيعه اياك ؟ حمقاء ! حمقاء ! أتنى جميعا حمقاوات عاقت ! ناولينى مظلتى !

وأسرعت الى عند ستيفان تروفيوفتش سيرا على قدميها ، سالكة الأرصفة الرطبة والجسور الخشبية المبتلة •

صدق فر فارا بتروفنا : ما كان لها أن تطيق أن تُهان داريا أبة
 اهانة ، وهى فى هذه اللحظة خاصة تعد نفسها المحسنة اليها المنعمة عليها .
 لذلك نار فى نفسها أنقى استياء وأنبل استياء حين لاحظت ، أثناء وضعها
 شالها على كتفها ، نظرة قلق وريبة لدى الفتاة . ان فر فارا بتروفنا قد أحبت
 داشا دائما أصدق الحب ، ومن أجل هذا انما وصفتها لها براسكوفيا ايفانوفنا
 حين حدثتها عنها بأنك «أثيرتها» . كانت فر فارا بتروفنا قد استقر رأيها
 استقرارا حاسما على أن طبع داريا لا يشبه فى شئ . طبع أخيها (ايفان
 شاتوف) ، وعلى « أنها فتاة هادئة رقيقة عذبة قادرة على التضحية مخلصه ،
 متواضعة الى أقصى حدود التواضع ، عاقلة حصيفة الرأى ، زاخرة النفس
 بالشكر والامتنان خاصة » . وقد جاء سلوك داشا حتى الآن مصدقا لما
 استقر عليه رأى فر فارا بتروفنا . لقد قالت فر فارا بتروفنا مرة حين كانت
 الفتاة فى الثانية عشرة من عمرها : «لن يكون فى حياة هذه الفتاة أخطاء» . واذ
 كانت هذه السيدة تشبث تشبثا غيدا جارفا بكل مشروع أو كل حلم أو
 كل رأى يفتتها فقد قررت على الفور أن تربي داشا كأنها ابنتها . فسرعان
 ما خصتها برأس مال ، واستقدمت لها مربية هى مس كريجى التى ظلت
 فى البيت الى أن بلغت الفتاة السنة السادسة عشرة من عمرها . ثم
 صُرفت الانجليزية مشكورة فى ذات يوم على حين فجأة ، لا يدرى أحد
 لماذا ! وأخذت فر فارا بتروفنا تكلف باعطاء دروس لربيبتها أساتذة من
 أساتذة المدارس الثانوية كان بينهم فرنسى أصيل . وهذا أيضا صُرف
 بفته بما يشبه الطرد . وقامت باعطاء دروس للفتاة فى العزف على البيانو

أرملة فقيرة تنتمي الى أسرة نبيلة ، وتقيم بمدينةتنا اقامة عابرة . غير أن
الاستاذ الرئيسى الذى علّم الفتاة انما هو ستيفان تروفيموفتش . والحق
أنه هو الذى كان أول من اكتشف داشا . فكان 'يعنى بتعليم الفتاة حتى
قبل أن تنبّه اليها فرفارا بتروفنا أى انتباه . أعود فأقول : ان الأطفال
كانوا يحبون ستيفان تروفيموفتش حباً خاصاً . وقد عملت معه ليزافا
نيقولاييفا توشين منذ سنتها الثانية حتى سنتها الحادية عشرة (وكانت
الدروس بالمجان طبعاً ، فما كان له بحال من الاحوال أن يقبل أن يتقاضى
من السيدة دروزدوف أية مكافأة) . كان هو نفسه يعبد تلك الطفلة
القاتنة ويروى لها تاريخ الانسانية فى صورة قصص ، ويحكى لها
كيف نشأ الكون وتطورت الارض . وكانت دروسه عن الانسان البدائى
والشعوب المتوحشة تخلب الألباب أكثر من الحكايات العربية نفسها .
فكانت ليزا تفرح بأفاصيصة أشد الفرح . ولكنها متى خلت الى نفسها فى
البيت شرعت تقلده تقليداً مضحكاً الى أبعد حدود الاضحاك . وقد فاجأها
ستيفان تروفيموفتش على هذه الحال فى ذات مرة على حين بفته ، فما
كان منها الا أن ارتمت بين ذراعيه باكية . وقد أخذ يبكى هو أيضاً ،
ولكنه بكى حناناً وحباً . فلما سافرت ليزا لم يبق له من تلميذ الا داشا ،
حتى اذا عهد بتعليمها الى أساتذة من المدارس الثانوية قطع هو دروسه ،
ثم انتهى اهتمامه بعد ذلك بالفتاة انتهاء تاماً . وانقضت السنون فاذا هو
يلاحظ فجأة فى ذات يوم - بينما كان على المائدة عند فرفارا بتروفنا -
ما تتمتع به الصبية من فتنة وقد بلغت سن السابعة عشرة . فأخذ يكلمها ،
ورضى كل الرضى عن أجوبتها ، واقترح عليها أخيراً أن يعطيها دروساً
مفصلة فى تاريخ الادب الروسى ؟ فشكرت له فرفارا بتروفنا هذه الفكرة .
أما داشا فقد سرّت أعظم السرور وافتنت اقتاناً . وأعد ستيفان

تروفيموفتش دروسه بعناية خاصة جدا ، وكان درسه الذى وقفه على
أقدم عهد من العهود شائقا الى أبعد الحدود • ولكن حين أبلغ ستيفان
تلميذته فى نهاية الدرس أنه سيتناول فى المرة القادمة «حلمة ايجور» * ،
نهضت فرارا بتروفا فجأة وأعلنت أن هذا الدرس هو الأخير • فصعّر
ستيفان تروفيموفتش وجهه ، لكنه لزم الصمت • واحمرت داشا احمرارا
شديدا • ووقفت الأمور عند ذلك الحد • لقد حدثت هذه القصة منذ
ثلاث سنين تماما •

كان ستيفان تروفيموفتش المسكين وحيدا ، وكان لا يتوقع شيئا •
انه غارق فى أحلام كثية ، ينظر من النافذة بين الفينة والفينة عسى أن
يجيئه زائر • ولكن ما من أحد يأتي • وكان يتساقط على الأرض فى
الخارج رذاذ مطر ، وقد أخذ الاحساس بالبرد يبدأ ، فكان ينبغى اشعال
المدفأة • تنهد ستيفان تروفيموفتش • وانه لذلك اذا هو يرى أمامه
ما بثّ الرعب فى نفسه : انها فرارا بتروفا قد جاءت فى مثل هذا الجو
الماطر البارد ، سائرة على القدمين أيضا ! ••••• بلغ ستيفان تروفيموفتش
من الدهشة أنه نسي أن يبادر الى تغيير ملبسه ، فاستقبلها كما هو ،
بصديرته المعتادة ، الوردية اللون ، المبطنة بالقطن •

هتف يقول بصوت ضعيف وهو يتقدم للقائها :

— « صديقتى الطيبة ! ••••• » (بالفرنسية) •

— أنت وحيد ، يسمعننى هذا • انتى أكره أصدقاءك • ما أكثر
ما تدخن ! رباه ! ما أفسد هذا الهواء ! لم تشرب الشاي حتى الآن
والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة • انك تسعد بالفوضى ولا تجد لذة
الا فى القذارة • ما قطع الأوراق الممزقة هذه التى تفرش أرض الغرفة ؟
ناستاسيا ، ناستاسيا ! ماذا تفعل خادمك ناستاسيا ؟ افتحى النوافذ ،

يا عزيزتى ، والأبواب والطاقات ، افتحي كل شيء الى آخر مداه ! وبانتظار
أن تفعل ذلك سنتقل الى الصالون • لقد جئت لعمل • هلاً كنست قليلاً
ولو مرة واحدة فى حياتك يا عزيزتى !

صرخت ناستاسيا تقول بصوت شاكٍ غاضب فى آن واحد :

- سيدى يوسنخ طوال الوقت !

وظيفتك أن تكسى ، ولو خمس عشرة مرة فى اليوم اذا لزم
الأمر •

ثم أضافت مخاطب ستيفان تروفيموفتش وهى تدخل الى الصالون :
- ما أشنع صالونك • أغلق الباب جيداً فقد تتجسس ناستاسيا
علينا • يجب تغيير ورق الجدران هذا حتماً • لقد بعث اليك بعامل
مختص مع عيّنات ، فلماذا لم تختبر شيئاً ؟ اجلس ، وأصغ الى كلامى •
اجلس ، أرجوك ! الى أين أنت ذاهب ؟ الى أين تمضى ؟

فصاح ستيفان تروفيموفتش يجيبها من الغرفة المجاورة :

- سوف ... سوف أرجع حالاً •

وسرعان ما عاد بعد أن غير ملبسه وقال :

- هأنذا رجعت •

قالت وهى تفحصه ساخرة :

- آ ... غيرت ملبسك ! حقاً ان هذا الرداء يناسب طبيعة حديثنا

أكثر • اجلس ، تفضل اجلس •

وكان ستيفان تروفيموفتش قد ارتدى فوق صدرته رندجوتا •

شرحت له فراراً بتروفا القضية كلها دفعة واحدة ، بلهجة قاطعة
مقنعة • فأشارت الى الثمانية آلاف روبل التى كان فى حاجة مستعجلة اليها ،
وفصلت القول فى مسألة المهر أيضاً • فكان ستيفان تروفيموفتش يحلق

بعينه ويرتشف في داخله • كان يسمع ما تقوله سسماً جيداً ، ولكنه لا يفهمه فهماً واضحاً • وأراد أن يتكلم لكن صوته اختنق في حلقه • انه لا يعرف الا شيئاً واحداً ، هو أن كل شيء سوف يتم على نحو ما تقول فرفارا بتروفنا ، وأن الجدل والرفض جهـد ضائع ، وأنه سيتزوج لا محالة •

قال أخيراً :

– « ولكن يا صديقتي الطيبة » (بالفرنسية) للمرة الثالثة وفي سنى ... ثم مع طفلة كهذه الطفلة ؟ « انها طفلة » (بالفرنسية) •

– طفلة في العشرين من عمرها والله الحمد • لا تجل بنظرك على هذا النحو • ما أنت فوق مسرح • أنت ذكى جداً وأنت عالم ، لكنك لا تفهم من شؤون الحياة شيئاً • انك في حاجة الى خادمة تكون بقربك على الدوام • ماعسى تصير اليه بعد موتى ؟ انها هى التى ستكون خادمتك ، وانها لخدمته ممتازة • هى فتاة متواضعة ، ثابتة ، عاقلة • ثم انتى سوف أكون موجودة • لن أموت فوراً • انها تحب أن تعيش حياة أسرة ، وانها فى رقتها كملاك • لقد وافتنى هذه الفكرة الموفقة وأنا فى سويسرا ! هل تفهم عنى حين أقول لك انها فى رقتها كملاك ؟

بهذا صاحت فرفارا بتروفنا غاضبةً على حين فجأة • وتابعت كلامها تقول :

– ان بيتك تسوده القذارة والوساخة ، فستأتيك هى بالترتيب والنظافة فاذا بمنزلك يلعم كمرآة ... هيه ! أترك تخيل أنتى سأضرع اليك أن تقبل كترأ كهذا الكنز وأنا أحنى لك اجلالاً ، وأعدّد لك جميع المزايا والفوائد ، وأفعل كما تفعل خاطبة ؟ ألا انك أنت الذى يجب أن تتوسل الى راكما على ركبتك ! يالك من رجل طائش جبان !

- لكننى عجوز ...

- ان سنك ثلاثة وخمسون عاما • ما ثلاثة وخمسون عاما ؟ ليست الخمسون نهاية الحياة بل وسطها • وانك رجل جميل • أنت نفسك تعرف هذا • وتعرف أيضا أنها تقدرك حق قدرك • ما عسى تصير هى اليه بعد موتى ؟ لعلها تكون معك هادئة البال ، وسوف أكون أنا هادئة البال قريرة العين • ان لك مركزا ، واسما ، وقلبا محبا • سوف تستمر على قبض المعاش الذى أرى أن من واجبى أن أقدمه اليك • قد تكون أنت منقذها ؛ نعم ، سوف تكون منقذها • وعلى كل حال ، سوف يكون هذا شرفا لها • سوف تتولى تهذيب طبعها ، واغناء قلبها ، وتوجيه عقلها وفكرها • ما أكثر الذين يهلكون فى هذا الزمان لأن أحدا لم يحسن توجيههم ! والى ذلك الحين تكون قد فرغت من تأليف كتابك ، وتذيع شهرتك ويتحدث عنك الناس من جديد •

تتم ستيفان تروفيموفتش وقد أثر فيه هذا المديح الذى تزجيه له فرفار بتروفا :

- نعم ، لقد فكرت فعلا فى الشروع فى تأليف كتابى « أفاصيص من تاريخ اسبانيا » * •

- أرايت ؟ لقد جاء الامر فى حينه •

- ولكن ... ما قولها هى ؟ هل كلمتها ؟

- لا يقلقنك هذا الامر • ولا تسرف فى الفضول • سوف يكون عليك طبعاً أن تطلب منها بل وأن تضرع اليها أن توليك هذا الشرف • هل فهمت ؟ ولكن لا تقلق • سأكون موجودة • ثم انك تحبها ...

شعر ستيفان تروفيموفتش بدوار • أخذت الجدران تهتز حوله •

ان فكرة رهيبة قد ساورت فكره واستولت عليه فهو لا يستطيع السيطرة عليها والتحكم فيها •

قال بصوت مرتعجف :

– « صديقتي العظيمة » (بالفرنسية) *** اننى *** اننى ***
ما كنت لأتخيل أن تقررى أن تزوجينى أخرى *** أن تزوجينى امرأة
أخرى ***

فأجابته فر فاراً بتروفا قائلة بصوت مسموع :

– ما أنت بفتاة ياستيفان تروفيموفتش • الناس لا يزوجون الا
الفتيات • أما أنت فانك تزوج نفسك بنفسك •

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يثبت عليها نظرة زائفة :

– « نعم ، استعملت كلمةً بدلاً من كلمة أخرى *** ولكن ***
سيان عندى *** » (بالفرنسية) •

قالت له باحتقار :

– أرى فعلاً أن الأمرين عندك سيّان •

ثم صاحت تقول مستنجدةً على حين فجأة :

– رباه ! لقد أغمى عليه ! ناستاسيا ، ناستاسيا ! هاتى ماءً !

لكنه لم يكن فى حاجة الى ماء • فقد عاد اليه وعيه • وتناولت فر فاراً
بتروفا مظلّتها ، وقالت :

– أرى أن ليس هذا أوان التحدث اليك فى كل هذا ***

– نعم ، نعم ، اننى عاجز عن ***

– لكنك ستكون فى الغد قد ارتحت وفكرت • ابقى فى البيت • واذا
حدث شيء فأبلغنى ولو فى الليل • ولكن لا تبعث الىّ برسائل ، فالرسائل

لن أقرأها • غدا ، في مثل هذه الساعة تماما ، سأجىء لأحصل على جوابك
النهائي الذى أرجو أن يكون مُرضيا • وافعل ما يجب حتى نكون
وحيدين ، وليكن البيت نظيفا • انظر ، انظر الى هذه الوساخة كلها !
ناستاسيا ، ناستاسيا !

وجاءته فى الغد ، فوافق طبعاً • كان يستحيل عليه أن لا يوافق •
لقد كان ثمة ظرف خاص جدا •

ان الارض التى كانت تسمى عندنا أملاك ستيفان تروفيموفتش (وهى
تجاور سكفورشنيكى وتقدّر بنحو خمسين « نفساً » كما كان يقال فى
الماضى) كانت فى الواقع ملكاً لزوجته الأولى ، وصارت اذن ملكاً لانيهما
بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى . أما ستيفان تروفيموفتش فقد أدارها
من حيث هو وصى على الابن ، حتى اذا بلغ الابن رشده أناب عنه أباه فى
ادارتها بتوكيل رسمى . وكان هذا الاجراء مفيداً للشباب فهو يتلقى من
أبيه ألف روبل فى السنة عن أرض أصبحت منذ تحرير الفلاحين لا تغل
الا خمسمائة روبل (وربما أقل من ذلك أيضا) . أما كيف تم اتفاق
كهذا الاتفاق ، فذلك أمر لا يعلمه الا الله ! على أن هذه الألف من
الروبلات انما كانت ترسلها فرفارا بتروفا فى كل سنة ، دون أن يشارك
ستيفان تروفيموفتش فى دفع كوبك واحد . لقد كان يحتفظ بايرادات
الارض ، حتى لقد انتهى به الامر الى تخريبها تماما : فقد أكرها لرجل
من رجال الصناعة وباع أخشاب غابتها جزءا بعد جزء ، دون أن تعلم بذلك
فرفارا بتروفا ؟ وكانت أخشابها هذه هى التى تشكل قيمتها الاساسية .
وكان فى وسعه أن يجنى ثمن هذه الاخشاب ثمانية آلاف روبل ، ولكنه
لم يحصل فى الواقع الا على خمسة آلاف . غير أنه كان يتفق له أن يخسر
فى النادى مبالغ تبلغ من الضخامة أنه يخشى أن يستعين فى سدادها الى فرفارا
بتروفا . فلما علمت فرفارا بتروفا بالامر أخيرا ، صرفت بأسنانها من شدة
الغضب . وهذا هو بطرس ستيفانوفتش يبلغ أباه أنه سيصل الى مدينتسا
ليتولى بنفسه بيع أرضه ، ويكلف أباه بأن يجد له مشترى فى أقرب وقت

ممكن • واذا أن ستيفان تروفيموفتش رجل نبيل كريم منزله عن المنفعة فقد شعر طبعاً بحرج كبير وارتباك شديد تجاه « هذا الابن الغالى » (بالفرنسية) (لقد رآه آخر مرة قبل تسع سنوات ببطرسبرج ، حين كان الشاب ما يزال طالباً) • كانت الارض فى البداية يمكن أن يقدّر ثمنها بثلاثة عشر ألف روبل أو بأربعة عشر ألف • أما الآن فيصعب إيجاد مشترٍ لها بخمسة آلاف • صحيح أن ستيفان تروفيموفتش كان يملك كل الحق فى بيع الغابة بحكم التوكيل الرسمى • كما أنه اذا أدخل فى حسابه أن مبلغ الألف روبل الذى كان يُدفع لابنه كل سنة فى موعده كان مبلغاً ضخماً يفوق ما يستحقه الابن ، فان فى امكانه أن يعدّ نفسه برىء الزمة تجاه ابنه • ولكن ستيفان تروفيموفتش رجل نبيل الطبع على النفس • لذلك خطرت بباله فكرة بدت له جميلة جداً ، وهى أن يضع على المائدة أمام ابنه أكبر مبلغ يمكن أن يأمل المرء أن تباع به الارض ، أى خمسة عشر ألف روبل ؛ ثم دون أن يشير أية اشارة الى المبالغ المرسلة حتى ذلك الحين ، يضم « هذا الابن الغالى » (بالفرنسية) الى صدره ضمّاً قوياً ، دافع العنين ، وينهى بذلك كل حساب • حتى لقد شرع فى وصف الشهيد لفرفاراً بتروفناً ، ولكن بشيء من الحذر وبعبارات فيها تلميح جعلها تستشف منها أن عملاً كهذا العمل سوف يفضي طابعاً خاصاً على الصداقة التى تربطهما و « الفكرة » التى تجمع بينهما ، وسوف يظهر الترفع عن المنفعة وعظمة النفس لدى « الآباء » ، ولدى الجيل القديم عامة بالقياس الى ما تتصف به الشبيبة المولعة بالاشتراكية من خفة وطيش • وقد قال لها أشياء أخرى كثيرة أيضاً ، ولكن فرفاراً بتروفناً أهملت الحديث وأشاحت عنه ؛ ومع ذلك أعلنت له أخيراً بخشونة أنها مستعدة لأن تشتري الارض وأنها ستدفع ثمنها الحد الأقصى الذى تستحقه ، أى سبعة الاف روبل أو

ثمانية آلاف (والواقع أن من الممكن شراؤها بأربعة آلاف) ، أما عن الثمانية آلاف التي أضعها ببيع الأخشاب فإنها لم تنبس بكلمة واحدة .

حدث ذلك قبل مشروع الزواج بشهر . وقد ذُهل ستيفان تروفيموفتش من جواب صديقه وبقى مضطربا اضطرابا شديدا . لقد كان من الممكن في الماضي أن يأمل أن لا يجيء الفتى (حين أقول «يؤمل» فأننى أستعمل كلمة يمكن أن يستعملها غريب ، لأن ستيفان تروفيموفتش من حيث هو أب ، ما كان له إلا أن يرفض تصور مثل هذا الأمل مستاءً) . ولقد كانت الشائعات التي تصل إلينا عن بتروشكا* عجيبة . انه بعد أن أنهى دراسته (منذ ست سنين) ، عاش بيطرسبرج حياة فراغ . ثم علمنا فجأة أنه شارك في نشر نداء ثورى وأن القضاء أخذ يلاحقه فورا . ثم عرفنا أنه قد أقام في الخارج ، في سويسرا ، بجنيف ، فأدركنا أنه هرب .

كان ستيفان تروفيموفتش يقول لنا في ذلك الوقت متحيراً أشد

التحير :

– اننى لمستغرب حقاً . ان بتروشكا « دماغ فقير » (بالفرنسية) . صحيح أنه طيب ، وشهم ، وحساس جداً . وما كان أسعدنى فى بيطرسبرج حين كنت أقارنه بغيره من الشباب . ولكنه « دماغ فقير جداً مع ذلك ! » (بالفرنسية) . الحق أن مرد هذا كله الى ذلك النقص فى النضج ، الى الى تلك العاطفية نفسها . ان الشيء الذى يخلب ألبابهم فى الاشتراكية انما هو جانبها العاطفى ، المثالى ، وليس واقعيتها . ان الشيء الذى يفتنهم فيها هو نوع من الروح الشعرية ، نوع من الروح الدينية ان صح التعبير ، وهم لا يعرفونها الا سماعاً . ولكن انظروا الى المآزق الذى يضعنى فيه . ان لى هنا أعداء ، و « هناك » لى أعداء أكثر . ولسوف ينسبون أخطاءه

الى التأثير السيء الذى يحدثه أبوه فيه • ربه ! أتروشا يصبح زعيما ؟ فى
أى زمان نعيش ؟

ولكن بتروشا لم يلبث أن أرسل عنوانه بسويسرا ، حتى لا ينقطع
إرسال معاشه اليه : انه اذن لم يهاجر تماما • وهاهو ذا الآن يمسود الى
بلاده ، بعد إقامة أربع سنين فى الخارج ، ويبلغنا أنه واصل قريبا • اذن
ليس هناك أى اتهام موجه اليه • حتى لكأن ثمة أحدا يهتم به ويحميه •
انه يكتب الآن من جنوب روسيا ، حيث ذهب لشأن هام جدا لكنه خاص •
هذا كله حسن • ولكن من أين يؤتى بالسبعة آلاف أو الثمانية آلاف روبل
لاكمال المبلغ الذى كان ستيفان تروفيموفتش يريد أن يقدمه لابنه ؟ ان
شيئا ما يلقى فى نفس استيفان تروفيموفتش أن بتروشا الحساس سوف
يدافع عن مصالحه دفاعا قويا وسوف يطالب بالمبلغ مطالبةً عنيفة • قال لى
ستيفان تروفيموفتش يوما : « لقد لاحظت أن جميع هؤلاء الاشتراكيين
المسعودين وهؤلاء الشيوعيين هم فى الوقت نفسه أناس بخلاء ، وأن
نفوسهم نفوس رجال يحبون الكسب والربح ، نفوس مالكيين ، فعلى قدر
ما يُظهرون من التمسك بالاشتراكية يكونون نهمين شرهين • ما مصدر
هذا ؟ أياكون نتيجةً لعاطفتهم أيضا ؟ » • لا أدري هل هذه الملاحظة
صادقة أم هى غير صادقة لكننى أعرف أن بتروشكا كان قد علم ببيع
أخشاب الغابة وعلم بأشياء أخرى أيضا • وكان ستيفان تروفيموفتش يعلم
أن ابنه عالم بالحال • ولقد اتفق لى أن قرأت رسائل بتروشا الى أبيه •
كان لا يكتب اليه الا نادرا ، مرة فى السنة ، أو أقل من ذلك أيضا •
ولكنه فى الآونة الأخيرة ، بعد أن أبلغ عن وصوله ، بعث رسالتين متاليتين ،
كانتا قصيرتين جافتين على عهدنا به ، وكانتا لا تشتملان الا على تعليمات •
وكان الأب والابن يتخاطبان بصيغة المفرد دون كلفة ، منذ أن كانا

ببطرسبرج ، وذلك جرياً على « الموضة » ، فكانت رسائل بتروشا أشبه
بالمكاتيب التي كان السادة في الزمان القديم يعثونها الى أبنائهم المكلفين
بإدارة أموالهم .

هاهي ذى الثمانية آلاف روبل التي يجب أن تذلل كل مصاعب
ستيفان تروفيموفتش وأن تحل كل مشكلاته ، ها هي ذى تهبط عليه من
السماء فجأة بفضل العرض الذي قدمته فرافرا بتروفنا ؛ حتي ان فرافرا
بتروفنا قد أفهمته بوضوح أن المبلغ لن يهبط من السماء الا على هذا
الشرط . وقد قبل ستيفان تروفيموفتش عرضها طبعاً .

وقد أرسل يستدعيني بعد انصراف صديقه فوراً ، وحرص على
ايجاد بابيه دون سائر أصدقائه طوال النهار . وبكى أمامي قليلاً بطبيعة
الحال ، وأفاض في الكلام وأجاد ، مرتبكاً مع ذلك من حين الى حين ،
وألقى نكته قائمة على الجناس مصادفة ، فسرّ بها سروراً عظيماً ، ثم
وافته نوبة منفض خفيفة . الخلاصة أن كل شيء جرى وفقاً للقواعد
والأصول . وفي النهاية ، استل من أحد الأدراج صورة زوجته الألمانية
الحبيبة التي توفيت منذ عشرين عاماً ، وأخذ يخاطبها بلهجة شاكية : « هل
ستغفرين لي ؟ » . كان يبدو على وجه العموم ضائماً كل الضياع . ومن
أجل أن نسرّي عن نفسي شربنا زجاجة خمرة ، ثم لم يلبث أن نام نوماً
عميقاً . وفي صباح الغد ، عقد ربطة عنقه عقداً فنياً ، وعنى بهندامه عناية
كبيرة ، متوقفاً أمام المرأة مراراً ومراراً . وقد عطّر منديله ، عطّره
خفيةً ، ولكنه ما ان رأى فرافرا بتروفنا من النافذة حتى أسرع يأخذ
منديلاً آخر ، وأخفى المنديل الاول تحت الوسادة .

قالت فرافرا بتروفنا مجبذةً حين أعلن لها موافقته :

عظيم • انك بهذا تتخذ قرارا نييلا • ذلك من جهة أولى • ومن جهة ثانية تسمع صوت العقل الذى قلما تكثر به حين يتصل الامر بشئونك الشخصية •

ثم أضاف تقول وهى تنظر الى عقدة ربطه عنقه البيضاء :

- على كل حال ، لا داعى الى السرعة • احفظ السر الآن ، وسوف أصمت أنا أيضا فلا أقول شيئا • فى القريب يحين عيد ميلادك ، فأصطحبها معي • سوف تقيم حفلة شاي فى المساء • ولكن أرجوك • لا خسر ولا مقبلات • على انى سأتولى تدبير هذا كله بنفسى • ادعُ أصدقاءك • سنشترك أنا وأنت فى اختيار من سندعوهم • وقبل الحفلة بيوم تُجرى حديثا بينك وبينها اذا لزم الأمر • وفى أثناء السهرة نلمح أنا وأنت الى الزواج تلمحاً دون أن نعلمه اعلاناً رسمياً • وبعد ذلك ، بعد خمسة عشر يوماً ، نحتفل بالزفاف احتفالاً متواضعا الى أبعد حد ممكن ... فاذا انتهى الاحتفال كان فى إمكانكما أن تسافرا معاً الى مكان ما ، الى موسكو مثلاً • وقد أصبحكما ... وانما الشيء الأساسى الآن هو أن لا تقول لأحد شيئاً •

دهش ستيفان تروفيموفتش • وحاول أن يبين لصديقه أنه لا يمكنه أن يتصرف على هذا النحو ، فلا بدله من حديث مع خطيبته ، ولكن فرغاً بترفنا غضبت فجأة وقاطعته غاضبة تقول :

- ما حاجتك الى التحدث معها ؟ أولاً ، من الممكن أن لا يتم الأمر ...

فدمدم الخطيب يقول مذهولاً :

- كيف هذا ؟

- نعم ، سوف أرى • على أن كل شيء سيتم على نحو ما قلت لك •
لا تقلق • سوف أهيء داشا • لا حاجة بك الى التدخل فى هذا • سيُقال
وسيُفعل كل ما يجب أن يُقال وأن يُفعل • ليس هذا شأنك • لماذا تهتم
بهذا الأمر ؟ ما عسى يكون دورك فيه ؟ لا تجيء الى • ولا تكتب • تظاهر
بأنك لا تعرف شيئاً ، أرجوك • وسأصمت أنا أيضا •

هكذا رفضت فر فارا بتروفا أن تفصح عما بنفسها ، وخرجت
مضطربة اضطرابا واضحا • لكأن موافقة ستيفان تروفيموفتش بهذه السرعة
الكبيرة قد شدهتها • وا أسفاه ! لقد كان ستيفان تروفيموفتش لا يعرف
الوضع الذى هو فيه ، وما يزال لا يميز بعض جوانب المسألة • بالعكس :
لقد لاحظتُ لديه نبرة جديدة فيها استملاء واستخفاف • انه يصطنع
التكبر • لقد هتف يقول لى ذات مرة وقد وقف أمامى رافعا ذراعيه الى
السما :
السما :

- يعجبني هذا • هل سمعت ؟ سوف تفعل ما من شأنه أن يجعلنى
أرفض فى آخر الأمر • ان من الممكن أن ينفذ صبرى أنا أيضا •••
فأقول لا • « ابق فى بيتك ، ليس هذا شأنك » • ولكن لماذا يجب أن
أتزوج حتما ؟ ألأن هواها شاء ذلك لا أكثر ؟ ولكنى رجل جاد ، ويمكننى
أن أرفض الخضوع لنزوات سخيفة تقوم فى نفس امرأة شاذة ! ان على
واجبات نحو ابنى ••• و ••• نحو نفسى • انتى أضحى • ألا تفهم هى
هذا ؟ لعلنى انما وافقت لضجرى من الحياة ولأن الأمور عندى سواء •
لكنها ستير حلقى فى النهاية الى حيث لا تستوى عندى الأمور ، فأغضب
وأرفض • « ثم ان المسألة مضحكة ••• » (بالفرنسية) ما عسى يقولون
فى النادى ؟ ما عسى يقول ••• ليوئين ؟ « من الممكن أن لا يتم الأمر ••• »
ما رأيك • هذا ما ينقص •• ذلك •• ذلك •• أرانى عاجزاً عن المشور

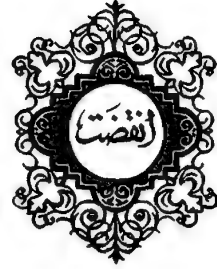
عن الكلمة المناسبة .. « انتى كرجل محكوم عليه بالأشغال الشاقة ، انتى
أشبه بـرجل مثل بانديجيـه * (بالفرنسية) ... انتى رجل حُـصـر عند
حائط ! ... »

وفى الوقت نفسه ، من خلال جميع هذه الشكاوى ، كان يلوح نوع
من غرور يتصف بالنزوة وقلة الاكتراث . وشربنا فى المساء زجاجة خمرة
أخرى .

الفصل الثالث

خطايا الغير

١



ثمانية أيام ، واتسعت القضية مزيدا من الاتساع .
يجب أن أذكر عابراً أنني عرفت في أثناء هذا
الأسبوع العس لحظات أليمة جدا . لقد كان
على ، بصفتي نجياً حميماً لستيفان تروفيموفتش ،
أن أقضي كل وقتي تقريبا بقرب هذا الخطيب الشقي الحزين . ورغم أننا
لم نَرَ أحداً طوال ذلك الأسبوع الذي قضيناه في وحدة تامة وعزلة
كاملة ، فإن الشيء الذي يعذبني أكثر من أي شيء آخر هو الشعور بالخزي
والعار حتى تجاهي أنا ، حتى انه كلما صارحتني مزيدا من المصارحة أصبح
يحقد عليّ بسبب ذلك مزيدا من الحقد . وكان من فرط وجله يتخيل
أن المدينة كلها على علم بالموقف ، فكان يخشى أن يظهر لأعضاء النادي
فحسب ، بل لأصدقائه الحميمين أيضا . لذلك كان لا يخرج ليقوم بنزهته
الصحية الا في المساء حين يخيم الظلام خالكا .

انقضت ثمانية أيام وهو ما يزال يجهل أهو خطيب أم لا . لقد
ظل الموقف غامضا رغم كل ما فعل . لم يستطع أن يرى خطيبته ، حتى
لقد كان يتساءل : هل يجب عليه أن يعدها خطيبته فعلاً ؟ هل يجب عليه
أن يأخذ أقوال فرفارا بتروفا مأخذ الجد ؟ ان فرفارا بتروفا مصرّة على

أن لا تستقبله ، لا يدري أحد لماذا ! وقد أجابت على إحدى الرسائل الأولى التى بعثها اليها (وقد كتب اليها عددا كبيرا من الرسائل) أجابت ترجوه أن يجنبها زياراته ورسائله الى حين ، لأنها مشغولة جدا ، وتقول له ان هناك أشياء هامة كثيرة تريد أن تنقلها اليه ، لكنها تنتظر للقيام بهذا دقيقة من فراغ ، وانها متى « حان الحين » (بالفرنسية) ستبلغه الموعد الذى تستطيع أن تستقبله فيه ؛ أما الرسائل فانها تنبهه الى أنها سوف تردّها اليه دون أن تفضّلها ، لأنها تعدّها « عبثاً صيانياً محضاً » . لقد قرأت أنا هذه البطاقة : فهو الذى أطلعتني عليها .

ومع ذلك ، كانت هذه الفظاعات كلها وكانت حالة الشك والبلبله التى هو فيها ، كان ذلك كله لا يُعد شيئاً مذكوراً بالقياس الى الهمّ الأكبر الذى كان يعذبه عذاباً رهيباً بلا رحمة ولا هوادة . فبسبب ذلك الهمّ الفظيع انما نحل جسمه وتنبطت عزيمته وخارت قواه ، ومن ذلك الهمّ انما كان يأتي شعوره بالخزي والعار . لكنه كان لا يريد أن ييوح لى به مهما يكن أمر ، ويؤثر أن يكذب وأن يراوغ كصبي صغير اذا دعا الداعي . ومع ذلك كان يستدعيني كل يوم ، عاجزاً عن البقاء ساعتين دون أن يراني ، محتاجاً الى حضوري كاحتياجه الى الهواء أو الماء .

وكان هذا التصرف يؤذى شعورى بعض الايذاء . وكنت قد اكتشفت سرّه الكبير منذ مدة طويلة طبعاً ، ونفذت الى دخيلة نفس ستيفان تروفيموفتش . كنت مقتنماً أعماق الاتّساع حينذاك أن ازاحة النقاب عن ذلك السر ، عن ذلك الهمّ الرئيسى الذى يعذب صاحبنا ، ليس يشرفه ، وكنت ، وأنا فى غنفوان شبابى فى ذلك الوقت ، أستاذ من عامية عواطفه وبشاعة شكوكه وشبهاته . ولعلنى كنت لحماستى ، وربما لتعبى من دور النجى ذاك الذى كنت أقوم به ، أبالغ فى اتهامه وأغلو فى ادانته .

حتى لقد قسوت فدفعته الى أن يعترف لي بكل شيء ؛ وأدركت مع ذلك أن هناك أشياء يصعب الاعتراف بها . وكان هو أيضا قد نفذ الى دخيلتي ، أى أنه أدرك أنني نفذت الى دخيلته وائني مستاء منه ناغم عليه ، وكان حائقا من أنني ناغم عليه وائني نفذت الى دخيلته . لعل غيظي كان أحق مسكينا ، ولكن خلوة شخصين تسيء الى الصداقة الحقيقية أحيانا وتناهما بأذى . ولقد كان يدرك بعض جوانب وضعه ادراكا واضحا ، وكان يحكم عليها بكثير من رهافة الفكر حين لا يكون الامر أمر النقطة التي يرى أنه مضطر أن يبقيا سرّاً لا يبوح به .

كان يقول لي في بعض الاحيان متكلمنا عن فرارا بتروفا :

— آه ... لشد ما تغيرت ! لقد كانت تبدو في محادثاتنا شخصا آخر تماماً ! ... تصور أنها كانت تجيد الحديث حينذاك ! هل يمكن أن يصدق أحد أنها كانت لها أفكار ، أفكار شخصية ؟ لقد تغير الآن كل شيء . انها تقول ان ذلك كله لم يكن الا ثرثرة أصبحت اليوم بالية . انها تحتقر الماضي . ما هي الآن الا تاجرة ، الا مديرة أعمال . لقد قست نفسها ... وهي لا تنفك تقضب وتسخط بغير انقطاع ...

سألته :

— ولكن ما الذي يفضيها ويسخطها الآن ما دمت قد قبلت مطالبها ؟

فألقى عليّ نظرة مأكرة وقال :

— « يا صديقي العزيز » (بالفرنسية) ، لو لم أقبل مطالبها لزعلت زعلاً شديداً ، شد ... يدا ! أقلّ شدة مع ذلك منه الآن وقد قبلت .

وارتاح ستيفان تروفيوموفتش لهذه الكلمة الموفقة التي اهتدى اليها ، وشعر بتحسن في حالته النفسية ، وأفرغنا في المساء زجاجة خمرة أخرى . لكن مزاجه الحسن لم يدم طويلا ، فما جاء الغد حتى كان صاحبا أشدّ تجهماً وانهيارا مما كان في أي وقت مضى .

والشيء الذى كان يضايقنى أكثر مما يضايقنى أى شيء آخر مع ذلك هو أنه لم يعزم أمره على ما كان يجب أن يعزم أمره عليه ، وهو أن يمضى يزور السيدة دروزدوف وابنتها اللتين وصلتا منذ مدة قصيرة وكاتتا ترغبان من تلقاء نفسيهما ، كما قيل لنا ، فى رؤية ستيفان تروفيموفتش .
انهما لا تبرحان تسألان عن أخباره ، فكان هذا يقام عذابه . انه يتكلم دائما عن ليزافا يقولاننا بحماسة تدهشنى وتثير فى نفسى الاستغراب .
صحيح أنه كان لا يزال يرى فيها الطفلة التى طالما أحبها كل الحب . ولكنه كان يتصور أيضا - لا أدري لماذا - أنه سيجد فى قربها سكينه لنفسه وراحة من تباريح عذابه ، بل وأنها سوف تساعده فى تبديد شكوكه وحل مشكلاته . كان يتوقع أن يجد فى ليزافا يقولاننا إنسانة خارقة . ورغم ذلك لم يستطع أن يعزم أمره على زيارتها ، مع أنه يتنوى أن يفعل ذلك كل يوم . وكنت من جهتى أرغب أشد الرغبة فى أن أقدم إليها وأن أذكرى عندها ، وكنت لا أستطيع أن أعوّل فى ذلك الا على ستيفان تروفيموفتش . كنت أراها أحيانا كثيرة ، فى الشارع طبعاً ، حين كانت تنزه على الحصان مرتدياً ملابس الفرسان (كانت تغطى صهوة جواد رائع) ، فى صحبة ضابط شاب جميل يقال انه قريبها ، فهو ابن أخت الجنرال دروزدوف . كانت هذه اللقاءات تملأ نفسى باحساس خارق . ولكن عملاوتى لم تدم زمنا طويلا ، فسرعان ما أدركت بنفسى مدى ما يشتمل عليه حلمى من خيال . على أن هذا الحلم قد هزنى هزاً عميقاً مهما تكن مدته قصيرة . فمن الممكن أن يدرك القارىء مدى ما كنت أشعر به من حنق على صديقى حين أراه يصر على حبس نفسه فى البيت لا يخرج منه أبداً .

ان جميع أعضاء حلقتنا الصغيرة قد أبلغوا منذ البداية أن ستيفان تروفيموفتش لن يستطيع أن يستقبل أحداً ، وأنه يرجوهم أن لايزعجوه .

وقد أصرَّ رغم نصائحى على أن يضيف على هذا الإبلاغ شكلا رسميا . فطفت على جميع الأصدقاء تنفيذا لطلبه ، شارحا لكل واحد منهم أن فرارا بتروفا قد كلفت شيخنا (فكذلك كنا نلقب ستيفان تروفيموفتش فيما بيننا) بعمل مستعجل جدا هو أن يرتب مراسلات لها قديمة تمتد على عدة سنين . لذلك أوصد باب بيته دون جميع الناس الا أنا الذى أقوم بمساعدته فى هذا العمل . وكان ليوتين هو الشخص الوحيد الذى لم يتسع وقتى لابلاغه . فكنت أرجى زيارتى له من يوم الى يوم ، لأننى كنت أخشى أن أذهب اليه فى حقيقة الامر . كنت أعرف سلفا أنه لن يصدق كلمة واحدة مما سوف أذكره له من ايضاحات وشروح ، وأنه لن يلبث أن يتصور أن هذه الايضاحات والشروح تخفى سرا من الأسرار . فسا ان أخرج من عنده حتى يمضى يستطلع ويستعلم ويملا المدينة بالنمائم والأقاويل والشائعات . وفيما كنت أحدث نفسى بهذا الكلام ذات مرة ، اذا أنا ألقاه فى الشارع مصادفة . فأدركت أن أصدقاءنا الذين أبلغتهم الأمر كانوا قد أطلعوه عليه . شئ غريب : انه لم يظهر أى رغبة فى الاطلاع ، بل ولا سألتنى عن ستيفان تروفيموفتش ، ولكن حين أخذت أعذر له عن تأخرى فى ابلاغه ، قاطعنى وغير مجرى الحديث فورا . الحق أن هناك أشياء كثيرة كان يريد أن يقصَّها على ؛ كان يبدو مهتاجا احتياجا شديدا ، وقد سرَّه أعظم السرور أن عثر على مستمع . أطلعنى فى البداية على أخبار المدينة ، فحدثنى عن وصول امرأة الحاكم ، وعن « مشاريعه الجديدة » ثم قال لى انه تشكل فى النادى حزب معارضة ، وأن الناس فى كل مكان أصبحوا لا يتحدثون الا عن الافكار الجديدة التى تسوء بعض الفئات كثيرا من جهة أخرى ، وهلم جرا ظل يتحدث طوال ربع ساعة ، وبلغ من الاجادة والبراعة فى الحديث أننى لم أستطع

أن أعزم أمرى على مقاطعته • لقد كنت أكرهه • ولكن يجب أن أعترف أنه يملك موهبة حمل الآخرين على الاصغاء اليه ، ولا سيما حين يطلق العنان لفضبه • فى رأى أن هذا الرجل جاسوس بطبيعته ، بفطرته • انه مطلع دائما على آخر الأنباء ، وعلى جميع أسرار مدينتنا ، وعلى الحكايات الفاضحة خاصة • وكان الناس يُدهشون حين يرون مدى اهتمامه بأمور لا تعنيه فى شئ • لقد خيّل الىّ دائما ان السمة الاساسية فى طبعه هى الحسد • فلما رويت لستيفان تروفيموفتش فى المساء أننى لقيت ليوتين ، ولما قصصت عليه الحديث الذى جرى بيننا اضطرب اضطرابا شديدا دُهِشت له ، وألقى عليه سؤالا غريبا • قال : « أيعلم ليوتين أم لا ؟ » فحاولت أن أبين له أن من المستحيل أن يعلم ليوتين بالامر ، وأن أحدا لا يمكن أن يكون قد حدثه عن مشروع فرفارا بتروفنا • ولكن ستيفان تروفيموفتش لم يصدق • وختم كلامه قائلا على نحو غير متوقع :

— قد لا تصدقنى ، ولكننى مقتنع بأنه ليس مطلعا على « وضعنا » بجميع تفاصيله فحسب ، بل هو يعرف أكثر من ذلك أيضا ، يعرف أشياء لا نعرفها بعد نحن ، لا أنا ولا أنت ، وربما لن نعرفها فى يوم من الايام ، أو نعلم بها حين يكون الأوان قد فات ، وحين تكون الجسور قد قُطعت •

لم أقل كلمة واحدة • رغم أن هذه الكلمات كانت زاخرة بالدلالة • وخلال الأيام الخمسة التى أعقبت ذلك لم يشر أية اشارة الى لوشين • وكنت أرى رؤية واضحة أن ستيفان تروفيموفتش نادى كل الدم على أنه انجرف فى الكلام فكشف لى عن شكوكه وشبهاته •

فى ذات صباح من الأصباح ، حوالى الساعة الحادية عشرة (كان ذلك بعد قبول ستيفان تروفيوفتش عرض فرافارا بتروفا بسبعة أيام أو ثمانية) ، بينما كنت على عادتى مسرعا الى بيت صديقى المسكين ، وقعت لى حادثة صغيرة •

لقد لقيت كارمازينوف ، « الكاتب الكبير » ، كما كان يلقبه ليبتين • كنت قد قرأت كارمازينوف منذ طفولتى • ان الجيل الماضى ، وحتى الجيل الحاضر ، يعرفان رواياته وقصصه معرفة جيدة • أما أنا فكنت أجد فيها لذتى • لقد كانت فرحة طفولتى ومراهقتى • ثم فترت حماسى بعض الفتور بعد ذلك • ان الروايات المشتتة على رأى ، التى أخذ ينشرها ، تعجبنى أقل مما كانت تعجبنى كُتبه الاولى الزاخرة بالصدق والشعر • أما كُتبه الاخيرة فقد أصبحت لا تهز فى نفسى شيئا البتة •

أستطيع أن أقول بوجه عام - مع أننى لا أجرو أن أفصح عن رأى فى موضوع حرج الى هذه الدرجة - ان جميع هؤلاء الكتاب الذين هم كتاب من الطبقة الثانية والذين 'يعدون أثناء حياتهم عباقرة تقريبا ، يغبون فجأة دون أن يتركوا أثرا فى الذاكرة حين يموتون • لا هذا فحسب ، بل انهم كثيرا ما يرون أنفسهم مهجورين منسين حتى أثناء حياتهم ، متى جاء جيل جديد فحلَّ محلَّ الجيل الذى صنع نجاحهم • وهذا يحدث فى بلادنا على نحو مفاجئ • عجيب : فكأن الامر أمر تغير فى ديكور المسرح • ولكن الامور لا تجرى هذا المجرى بالنسبة الى كتاب مثل بوشكين أو جوجول أو مولير أو فولتير ، أو سائر أولئك الرجال العظماء الذين

ينطقون أقوالا جديدة أصيلة • ويجب أن نقول من جهة أخرى ان كتاب الطبقة الثانية يسفون في أواخر أيامهم المجيدة اسفا فادعو الى الرثاء لهم والاشفاق عليهم ، ويموتون وهم ما يزالون أحياء • وكثيرا ما يحدث لكاتب ظل الناس ينسبون اليه أفكارا عميقة منذ مدة طويلة ، وظلوا يعتقدون أنه سيؤثر في المجتمع تأثيرا قويا ، أقول : كثيرا ما يتفق لمثل هذا الكاتب أن ينكشف أمره عن فقر وفراغ يبلغان من القوة أن أحدا لا يأسف بعد ذلك على أنه نضب بتلك السرعة الكبيرة • غير أن هؤلاء الشيوخ الثائين لا يلاحظون ذلك ، ويفضون • ان غرورهم ، ولا سيما في أواخر أيام حياتهم الادبية ، يبلغ في بعض الاحيان أبعدا تدعو الى أشد الدهشة والاستغراب • فهم يعدون أنفسهم آلهة على الأقل !

كان يروى عن كرامازينوف أنه يحرص على علاقاته بأصحاب المراكز العالية وبالمجتمع الارستقراطي حرصا أشد من حرصه على سلامة روحه • يقال انه يستقبلك فاتحا ذراعيه ويمدحك ويتملقك ويفتك بلطفه وطيبته اذا كان في حاجة اليك أو اذا كان أحد قد أوصاه بك خيرا • ولكنه ما ان يلق أول أمير أو أول كوتيسة أو أول شخص يخشى رأيه فيه ، حتى يرى أن من أقدر واجباته أن يظهر لك أعرق احتقار ، وأن يبعدك على الفور كابعاد قشة أو ذبابة قبل أن يتسع وقتك للابتعاد من تلقاء نفسك • انه يتصور جادا كل الجد أن ذلك برهان على أعظم الامتياز والرقى • وهو رغم قوة ارادته ورغم قدرته على السيطرة على نفسه ورغم اختلاطه بالناس ومعرفته بالبشر ، يبلغ من استعارة الغرور وحب الظهور في نفسه أنه يستحيل عليه أن يخفى سرعة تأذيه ككاتب ، حتى في البيئات التي لا تهتم بالادب • فاذا اتفق مصادفة أن أظهر له أحد شيئا من قلة الاكثريات ، فان غيظه يبلغ من الشدة أنه يحتفظ بذكرى ذلك الى الأبد ويبحث عن فرصة للانتقام •

كنت قد قرأت له ، منذ عام ، مقالةً في إحدى المجلات ؛ انها مقالة
تشتمل على ادعاء وسذاجة في آن واحد ، فهو يصطنع فيها مظهر الشاعر
ومظهر عالم النفس معاً . كان يصف في هذه المقالة غرق باخرة قُرب
الساحل الانجليزى . لقد شهد بنفسه جهود رجال الانقاذ وموت عدد
كبير من ركاب الباخرة غرقاً في الأمواج . ولكن تلك المقالة ، وهى مقالة
طويلة فيها كثير من الاسهاب والافاضة ، لم يكن لكتابتها من هدف الا حمل
الناس على الاعجاب بكتابتها ، فكأن كل سطر من سطورها يقول لهم :
« انظروا الىّ . اليكم ما شعرت به في تلك اللحظات . مالكم ولذلك
البحر الهائج وتلك الصخور وذلك المركب المحطم ؟ ألم ترسم لكم ريشتى
لوحةً رائعة ؟ ما بالكم تنظرون الى تلك المرأة الغريق التى تضم بذراعيها
طفلاً ميتاً ؟ أحرى بكم أن تعجبوا بى أنا ، أنا الذى لم أستطع احتمال
رؤية ذلك المشهد فأشحت عنه . هأنذا أدير له ظهري وقد استبد الرعب
والهول بنفسى ، فلا أقوى على القاء نظرة الى وراء ، وأغمض عيني ...
أليس هذا كله شائئاً ؟ » * . حين عبّرت عن انطباعى هذا لستيفان
تروفيموفتش وافقنى على رأيى .

لما انتشرت فى المدينة شائعة وصول كارمازينوف قريباً ، شعرت طبعاً
بأقوى الرغبة فى أن ألقاه وأن أعرف به اذا أمكن ذلك . وكنت أعلم
أننى أستطيع التوصل الى ذلك بفضل ستيفان تروفيموفتش ، لأنهما كانا
فى الماضى صديقين . وهأنذا أرانى أمامه فجأةً فى مفرق طرق ، فسرعان
ما أتعرفه : كانوا قد دلونى عليه قبل ثلاثة أيام بينما كان ماراً فى عربة مع
زوجة حاكمنا .

انه شيخ يتكلف العظمة (على أن عمره لا يزيد على خمسين سنة) ،
زاهى الحياء ، تحف بوجهه عقفات شعر شائبة تخرج من تحت قبة عالية

وتتلفف حول أذنيه الصغيرتين المتوردتين • ان هذا الوجه الذى عنى صاحبه بحلافته لم يكن على جانب كبير من الجمال بشفتيه الطويلتين الرقيقتين اللتين تمان عن الحيلة والمكر ، وبأنفه البدين وعينه الصغيرتين النافذتين الذكيتين • وكانت ملابسه تبدو مهترئة • انه يرتدى نوعا من معطف خاص ربما كان يرتديه الناس فى هذا الفصل بسويسرا بشمالى ايطاليا • ولكن جميع ملحقات زينتة الصغيرة ، كأزرار الأكمام ، أو الياقة المضافة ، أو النظارة المعلقة بشريط أسود ، كل ذلك كان كما يكون لدى أناس يعنون بحسن هدايتهم أشد العناية • انى لعل يقين من أنه يتعمل فى الصيف جزمتين رقيقتين زامٍ لونهما مع أزرار من عروق اللؤلؤ على جانبيهما •

حين صادفته كان واقفا فى ركن شارع ينظر فيما حوله باتباه • فلما لاحظت أننى أتأمله بكثير من الاهتمام ، سألتنى بصوت مترقق متكلف لكنه مع ذلك حاد كالصراخ :

— من فضلك ، ما أقصر طريق للذهاب الى « شارع الأبقار » ؟

فهمت أنجبه فجأة وقد انفعلت انفعالا قويا :

— « شارع الأبقار » ؟ انه قريب جدا من هنا • أسلك هذا الشارع مستقيما حتى الشارع الثانى على اليسار •

— أشكرك كثيرا •

لن الله تلك الدقة ! أعتمد حقاً أننى كنت وجلاً ، واننى كنت أتأمله كالمتعبد • وسرعان ما لاحظت هو ذلك ، وأدرك طبعاً اننى عرفته ، وأننى أعلم من هو ، وأننى قرأت كنبه ، وأننى أحترمه منذ طفولتى ، واننى أشعر أمامه بوجل شديد ، واننى أتأمله بحب يبلغ العبادة • فابتسم ، وحيانى بحركة من رأسه ، وسلك الشارع الذى دللته عليه •

لا أدري لماذا عدت أدراجي لأتبعه • لا أدري لماذا سرت الى جانبه
قراءة عشر خطوات • وها هو ذا يسألني بصوت حاد :
- هل في وسعك أن تدلني على أقرب محطة للعربات ؟
ياله من صوت مزعج !

- محطة عربات ؟ ان أقرب محطة للعربات توجد قرب
الكاتدرائية والعربات موفورة دائماً في الميدان •

قلت له ذلك وأوشكت أن أسرع لأتيه بعربة • أظن أن هذا ما كان
ينتظره مني • ولكنني ثبت الى صوابي في تلك اللحظة نفسها فلم أتحرك •
لكنه لاحظ حركتي التي لم أكد أهم بها ، وظل ينظر الى مبتسماً ابتسامته
السيئة تلك • وعندئذ انما حدث شيء لن أنساه ماحيت •

لقد سقطت منه ، على حين فجأة ، حقبة صغيرة كان يحملها بيده
اليسرى • والحق أنها لم تكن حقبة بمعنى الكلمة ، فهي أقرب الى أن
تكون علة أو قل محفظة من نوع المحافظ التي كانت تحملها السيدات في
الزمان القديم • على انني لا أدري ماذا كانت تلك الحقبة على وجه الدقة •
ولكنني أعرف أنني أسرعت أهم أن أرفعها له عن الارض فيما يبدو •

انني على ثقة تامة بأنني لم أرفعها ، ولكن لا يمكن للمرء أن لا يدرك
معنى الحركة التي قمت بها ؛ لقد استحال عليّ أن أخفي معنى هذه
الحركة • فاحمر وجهي كأبله • وسرعان ما استمد ذلك الرجل الماكر
من هذه الظروف كل ما كان يمكن أن يستمد منها • قال لي برقة حين
رأى أنني لن أنحنى على الارض لأرفع الحقيقة بنفسى :
- لا تزعج نفسك • سأرفعها أنا •

ولكن رفع الحقيقة كمن سبقني الى ذلك سبقاً ، وحياني مرةً أخرى
بإشارة من رأسه ، وتابع طريقه وقد تركني مسحوقاً • الخلاصة : لكأنني

رفعت له حقيته فعلاً • ولبت خمس دقائق أعد نفسي مجللاً بالخزى
والعار الى الأبد • لكننى حين وصلت الى قرب بيت ستيفان تروفيموفتش
انفجرت ضاحكا • لقد بدا لى هذا اللقاء ، على حين فجأة ، باعنا على أكبر
الضحك ، فسرعان ما قررت أن أتخذ منه موضوع تسليه لصاحبنا ، فأقصص
عليه المشهد كله مقلدا تفاصيله ، مسريا به عنه •

ما كان أشد دهشتي حين رأيت ستيفان تروفيموفتش في هذه المرة متغيراً كل التغير • صحيح أنه ما ان رأني حتى أسرع الىّ بنوع من النهم ، وأخذ يصغى الىّ • ولكنه كان زائغ النظرة شارد الفكر بحيث كان واضحاً أنه لم يفهم ما كنت أقوله له • ومع ذلك فما كدت أنطق باسم كارمازينوف حتى غضب فجأة ، وصرخ يقول حانقا :

— لا تكلمني عنه ، لا تنطق اسمه • خذ • انظر • اقرأ هذا •

قال ذلك وهو يفتح درجاً ويلقي على المائدة ثلاث قطع من ورق هي ثلاث رسائل من فرفارا بتروفنا كتبها على عجل بالقلم الرصاص كيفما اتفق • فأما الأولى فهي من أمس الأول ، وأما الثانية فقد وصلت أمس ، وأما الثالثة فقد جئ بها قبل وصولي بساعة • والرسائل الثلاث كلها تتكلم عن كارمازينوف • انها خالية من أية قيمة أو شأن ، وهي تكشف عن القلق السخيف الطموح الذي تعانيه فرفارا بتروفنا خائفة أن لا يزورها كارمازينوف • واليك نص الرسالة الاولى (ولعل رسائل أخرى كانت قد سبقتها) •

« اذا تنازل أخيراً فزارك اليوم ، فلا تقل عني كلمة واحدة ، أرجوك • لا تشر الىّ أية اشارة • لا تأت على ذكرى • لا تذكرهم بوجودي • »

« فرفارا ستافروجين »

وتقول رسالة الأمس ما يلي :

« اذا صحّ عزمه أخيراً على أن يزورك هذا الصباح ، فالأكرم في

رأيت أن لا تستقبله • تلك هي وجهة نظري • لا أدري ما رأيك أنت •
« فرارا ستافروجين »

وهذا نص الرسالة الأخيرة :

« أنا واثقة بأن بيتك ملىء بالغبار والتراب الآن ، وأن دخان التبغ
يجعل الهواء فاسدا يستحيل استنشاقه • سوف أرسل اليك ماريا وفوما •
فيرتب كل شيء بعد نصف ساعة • لا ترعجهما ؛ اذهب الى المطبخ الى أن
ينها عملهما • أبعث اليك بسجادة من بخاري ، وبنايين من الخزف
الصيني • اتنى أتوى اهداء هذه الاشياء اليك منذ مدة طويلة • وأبعث
اليك عدا ذلك لوحة تينيه * (الى وقت محدود) • أما الاناءان ففي وسعك
أن تضعهما على النافذة ، وأما لوحة تينيه فمعلقها على يمين صورة جوته •
فهناك تبرز ، لأن الضوء في هذا المكان يكون ساطعا على الدوام في الصباح •
فاذا جاءك أخيرا فأحسن استقباله وأكرم وفادته وعامله بهذيب مرهف ،
ولكن حاول أن لا تتكلم الا في أمور تافهة ، في موضوع علمي مثلاً ؛
وتصرف تصرفاً عادياً فكأنكما لم تفترقا الا أمس • لا تقل كلمة واحدة
عني • قد أجيء اليك لحظة في هذا المساء • »

« فرارا ستافروجين »

« حاشية : اذا لم يجيء اليوم ، فلن يجيء أبدا • »

أذهلتني قراءة هذه الرسائل : لم أستطع أن أفهم كيف يصير في
حالة كهذه الحالة لأمر تافهة هذه التفاهة كلها • ولكن حين رفعت اليه
نظرة مستهمة ، لاحظت أنه انتهز فرصة انشغالي بالقراءة فأبدل ربطة
عنقه العادية البيضاء بربطة حمراء • وكانت قبعته وعصاه موضوعتين على
المائدة • وكانت يدها ترتجفان ، وكان وجهه شديد الشحوب والاصفرار •
صاح يقول خارجا عن طوره ، ردا على نظرة الدهشة التي رآها في
عيني :

- لا يهمنى قلقها هذا كله البتة ! « اننى لا أعابُ به إطلاقاً »
(بالفرنسية) • تتجاسر أن تضطرب من أجل كارمازينوف بينما لا ترد
على رسائلى أنا • هذه رسالة أعادتها الىّ دون أن تفضّئها • اليك الرسالة •
هى على المائدة ، تحت هذا الكتاب ، تحت كتاب «الرجل الذى يضحك» •*
ليس يعينى أن تتعذب من أجل نيقو •• لنكا • ، أنا لا أبالى هذا كله ،
وأطالب بحريتى ! ليذهب كارمازينوف الى الشيطان ! لتذهب لمبكه الى
الشيطان ! « (بالفرنسية) • لقد خبأت اناها فى حجرة المدخل ،
ودسست لوحة تينيه فى الصندوق ، وطالبت بأن تستقبلنى فوراً • هل
سمعت ؟ طالبت باستقبالى مطالبة • أرسلت اليها مع ناستاسيا ورقة صغيرة
على عادتها هى ، وكبت بالقلم الرصاص ، ولم أضع الورقة فى ظرف •
وأنا الآن أنتظر • أريد أن تعلن داريا بافلوفنا رغبتها بلسانها هى ، أمام
السماء ، أو بحضورك على الأقل • « سوف تدعمنى أنت ، صديقاً وشاهداً ،
أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) • لا أريد أن أشعر بخجل ، لا أريد
أكاذيب ، لا أريد أسراراً • لن أقبل أسراراً فى هذه القضية ! يجب أن
يعترف لى بكل شيء ، بصراحة ، ببساطة ، بنبل ••• وعندئذ ••• عندئذ
قد أدهش الجيل كله بشهامتى ، بعظمة نفسى ! ••• أنا جروو ياسيد ؟
بهذا السؤال ختم كلامه وهو يرشقنى بنظرة تهديد ، كأننى أنا الذى
أعده جرواً •

ألححت عليه أن يشرب قليلاً من الماء • اننى لم أراه فى مثل هذه
الحالة قبل ذلك قط • كان وهو يتكلم يركض من طرف من الغرفة الى
طرفها الآخر • ولكنه تسمّر أمامى فجأة على وضع فيه غطرسة ، وقال
وهو يشقلى من القدمين الى الرأس :

- هل تظن حقاً ، هل تستطيع أن تقترض اننى ، أنا ستيفان

تروفيومفتش ، لن أملك من القوة النفسية ما يمكنني من أن أحمل كيس ،
كيس التسول ، وأن أضعه على كتفي ، وأن أعبر الباب ، منصرفا الى الأبد ،
إذا كان الشرف ومبدأ الحرية العظيم هما اللذان يقتضيان ذلك ؟ ليست
هذه أول مرة يحدث فيها لستيفان فرخوفنسكى أن يقاوم الطغيان بعزة
النفس ، ولو كان هذا الطغيان طغيان امرأة لا احساس لها ، أى أشد
أنواع الطغيان والاستبداد اهانةً وقسوة على وجه هذه الارض . أظن أيها
السيد أنك سمحت لنفسك منذ برهة أن تبسم ! آه ... انك لا تصدق
أنتى قادر على أن أجد فى نفسى قدرا كافيا من القوة الروحية لأمضى أنهى
أيامى لدى تاجر من التجار معلما لأولاده ، أو أهلك جوعا تحت سياج
من الأسيجة . أجبني ، أجبني فورا : أأنت تصدق هذا أم لا تصدقه ؟

لزمت الصمت . حتى لقد تظاهرت بالتردد كأنتى أخشى أن أخرج
شعوره بجواب بالنفى مع عجزى عن أن أعزم أمرى على أن أجيئه بنعم .
لقد كان فى وضعه الحائق الساخط شىء يؤذى كرامتى ، لا من الناحية
الشخصية ، لا ، لا ، لا ... لكننى سأشرح شعورى فيما بعد .

اصفر وجهه . ثم قال بلهجة الصقيع تلك التى تسبق فى العادة
انفجارا رهيبا :

— لملك تعبت منى يا « ج ... ف » (ذلك هو اسمى) ، فأصبحت
تريد أن لا تأتى الى .

فنهضت فجأة وقد اتابنى دعر شديد . ولكن فى تلك اللحظة نفسها
دخلت ناستاسيا ، ومدت الى ستيفان تروفيومفتش ، دون أن تقول كلمة
واحدة ، مدت اليه ورقة هى رسالة مكتوبة بالقلم الرصاص . فألقى على
الرسالة نظرة ، ورشقها الى من فوق المائدة : كانت الورقة لا تضم الا هذه
الكلمات بخط فرفارا بتروفنا : « ابق فى البيت » .

تناول ستيفان تروفيموفتش عصاه وقبعته دون أن ينطق بحرف ،
وخرج من الغرفة مسرعاً ، فتبعته آلياً • ودوت في الدهليز على حين فجأة
أصوات وضجات • فتوقف ستيفان تروفيموفتش كأن صاعقة قد نزلت
عليه • وقال هامسا وهو يمسك ذراعى :

– هذا ليوتين • لقد هلكت •

وفي تلك اللحظة نفسها دخل ليوتين الغرفة •

أما كيف يمكن أن « تهلكه » زيارة ليوتين ، فهذا ما أجهله .
والحق اننى لم أقم وزناً كبيراً لهذه العبارة التى نسبتها الى اضطراب
أعصابه . غير أن رعبه كان غريباً ، فأليت على نفسى أن ألاحظه عن كتب .

ان مجرد مظهر ليوتين ، حين دخل ، كان يدل دلالة واضحة على
أن من حقه فى هذه المرة أن يلج المنزل رغم جميع الاوامر . وكان فى
صحبته سيد لا أعرفه ، لعله وصل الى مدينتنا منذ مدة قصيرة .

رد ليوتين على النظرة المبهوتة التى رآها فى ستيفان تروفيموفتش
بأن صاح على الفور قائلاً :

— جئتك بزائر ، بزائر فذ . أبحث لنفسى أن أعثر عليك صنفو
عزلك . السيد كيريلوف ، مهندس مدنى مرموق . وهو يعرف ابنك
خاصةً ، ابنك المحترم جداً بطرس ستيفانوفتش . انه يعرفه معرفة حميمة
وهو مكلف بابلاغك رسالةً منه . لقد وصل منذ قليل .

قال الزائر يخاطب ليوتين بلهجة جافة :

— أما فيما يتعلق بالرسالة فأنت الذى أضفت هذا . ليس هناك أية
رسالة . لكننى أعرف فرخوفنسكى فعلاً . لقد تركته فى مقاطعة س . . .
منذ عشرة أيام .

مدَّ اليه ستيفان تروفيموفتش يده آلياً ، وأوماً الى مقعد يسأله أن
يجلس عليه . ثم نظر الى ، ونظر الى ليوتين ؛ وكأنما تاب الى رشده
فجأة ، فإذا هو يسارع الى الجلوس هو أيضاً ، دون أن يلاحظ أنه ما يزال
حاملاً عصاه وقبعته بيده .

- ها ... كنت تتأهب للخروج ! ولكن قيل لى أن صحتك متوقعة
من فرط العمل •

- نعم ، اننى مريض قليلاً • وكنت أريد أن أخرج للنزهة ...
اننى ...

وانقطع ستيفان تروفيموفتش عن الكلام فجأة ، وأسرع يرمى عصاه
وقبعته ، واحمر وجهه •

وكنت أرقب الزائر فى أثناء ذلك • انه شاب فى نحو السابعة
والعشرين من العمر ، حسن الھندام ، أسمر ، نحيل ، ممشوق • وجهه
شاحب أغبر ، وعيناه سوداوان كابتان • وهو حالم الهيئة ذاهل ؛ كلامه
موجز مقطّع ؛ لا يھمه كثيراً أن يلتزم قواعد النحو ، فهو يبدل ترتيب
الكلمات فى الجملة تبديلاً غريباً • ومتى كان عليه أن ينطق بجملة
طويلة بمض الطول ، رأيتھ يرتبك •

لاحظ ليوتين ، بوضوح كامل ، الاضطراب الشديد الذى اعترى
ستيفان تروفيموفتش ، وكان واضحاً أنه سُرعَ به سروراً عظيماً ، واغتنبط
له اغتباطاً كبيراً • وقد جلس على كرسى من قش جره الى وسط الغرفة
تقريباً ليكون على مسافة واحدة من صاحب البيت والزائر • وكان هذان
قد جلسا على ديوانين يقابل أحدهما الآخر • ان عينيه النافذتين الثابتين
تحركان الى جميع الجهات تفتشان كل ركن من الاركان بفضل شديد •
قال ستيفان تروفيموفتش بجهد شاق :

- منذ زمن طويل ... لم أرَ بتروشا ... هل لقيته فى الخارج ؟
- هنا وفى الخارج •

تدخل ليوتين فى الكلام فقال :

- ان الكسى نيلتش يعود الآن من الخارج بعد غياب دام أربع سنين •

لقد سافر من أجل أن يعمّق اختصاصه الهندسى ، وهو يعود آملاً - وهذا أمل فى محلّه - أن يشارك فى بناء الجسر الذى تنوى بناءه لسكتنا الحديدية • وقد عرف آل دروزدوف ، ولا سيما ليزافتا نيقولايفنا ، بواسطة بطرس ستيفانوفتش •

كان المهندس جالسا ، متجهم الهيئة ، يصفى بنوع من الضيق والتبرم والتمليل • كان يبدو عليه أنه غاضب من شىء ما •

- وهو يعرف أيضا نيقولاى فسيفولودوفتش •

قال ستيفان تروفيموفتش سائلاً :

- حقاً ؟

- نعم ، أعرفه أيضا •

- منذ زمن طويل ••• طويل جدا ••• لم أرَ بتروشا ••• وفى اعتقادى اننى لا أستحق كثيراً اسم الأب ••• « وهذه هى الكلمة ، (بالفرنسية) ••• على أى حال تركته ؟

أجاب كيريلوف متمللاً وهو يرغب رغبةً واضحةً فى انهاء الحديث :

- سوف يجيء بنفسه قريباً •

ان كيريلوف زعلان حتماً •

- آآ ••• سيجىء قريباً ! آه ••• أخيراً ••• اننى منذ مدة طويلة جداً لم أرَ بتروشا •

كذلك كرر ستيفان تروفيموفتش عاجزاً عن الخروج من هذه الجملة • ثم أضاف يقول :

- اننى أنتظر ابنى المسكين ••• الذى أشعر نحوه ••• نعم ••• أشعر نحوه بأننى آثم فى حقه كثيراً • أقصد ••• حين تركته بيطرسبرج ،

كنت ... الخلاصة : كنت أعده تافهاً لا قيمة له البتة ... » شيء من هذا القليل ، (بالفرنسية) • كان طفلاً عصياً جداً ، حساساً ، خَوْفاً • كان قبل أن ينام يصلي ساجداً أمام الأيقونة ، ويرسم إشارة الصليب على وسادته ، مخافة أن يموت في الليل • « أذكر هذا » (بالفرنسية) • لم يكن يملك أى احساس بالجمال ، بالروعة ؛ لم تكن نفسه تضم أية بذرة لفكرة عظيمة ما ... » كان كأبله صغير ، (بالفرنسية) • ولكن يخيّل الى أنني أرتبك وأخلط ... معذرة ... لقد فاجأتموني في اللحظة التي ...

سأله المهندس مهتماً على حين فجأة :

- كان يرسم إشارة الصليب على وسادته حقاً ؟

- نعم •

- أردت أن أتعلم • أكمل •

نظر ستيفان تروفيموفتش الى ليوتين سائلاً • ثم قال :

- أشكر لك زيارتك كثيراً ، ولكنني في هذه اللحظة لست في حالة

يمكنني فيها أن ... ولكن هل تأذن لي بمعرفة عنوانك ؟

- شارع ايفانيا ، عمارة فيليوف •

قلت على غير ارادة مني :

- آ ... وهناك أيضاً يسكن شاتوف •

فهتف ليوتين يقول :

- تماماً في العمارة نفسها • شاتوف يشغل الطابق الصغير الاوسط •

أما السيد كيريلوف فقد أقام تحت ، عند الكابتن ليادكين • انه يعرف

شاتوف أيضاً ، ويعرف زوجته • عرفها في الخارج عن كتب •

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل متقاداً لماطفته :



کیریلوف

- كيف ! (بالفرنسية) ... اذن أنت تعرف شيئا عن ذلك الزواج
التيس الذي وقع فيه « هذا الصديق المسكين » (بالفرنسية) ! انك أول
واحد بين أصحابنا يعرف هذه المرأة شخصا ، فلو ...

فقال المهندس جازما قاطعا وقد احمر احمرارا شديدا :

- ما هذه السخافة يا ليوطين ؟ لماذا تضخم دائما مايقال لك ؟ أنا
لا أعرف زوجة شاتوف أبدا ؛ لم أرها الا مرة واحدة ، وقد رأيتها من
بعد لا من قرب . أما شاتوف فأعرفه . لماذا توشى الكلام دائما ؟

واضطرب على ديوانه ، وتناول قبعته ، ثم ردها الى مكانها ؛ حتى
اذا عاد يجلس أخذ يحدق الى ستيفان تروفيموفتش بنوع من التحدي
يسطلع في عينيه السوداوين اللتين اشتعلتا فجأة . لم أستطع أن أفهم
سبب حنقه .

أجاب ستيفان تروفيموفتش يقول بلهجة ذات دلالة :

- معذرة . لعل الامر حساس جدا ...

- بتاتا . ولكن هذا مخجل حقا ! اننى لم أتجه بكلامى اليك حين
قلت « ما هذه السخافة » ؟ وانما توجهت بكلامى الى ليوطين . لماذا يبلغ
دائما ؟ اذا كنت ظننت أنك كنت المقصود بصيحتى ، فمعذرة ! اننى أعرف
شاتوف ، ولكننى لا أعرف زوجته البتة ... البتة ! ...

- فهمت ، فهمت . ولئن ألححت ، فلأننى أحب كثيرا صديقتنا ،
« صديقتنا النرق » (بالفرنسية) ، وقد اهتمت دائما بـ ... فى رأى أن
هذا الرجل قد غيّر ، بشىء من المباغة والمفاجأة ، أفكاره السابقة التى قد
تكون فنية كثيرا ولكنها مع ذلك صادقة صحيحة . وهو ينطق الآن بأقوال
شاذة عن « روسيا المقدسة » (بالفرنسية) ... أقوال تبلغ من الغرابة اننى
أصبحت منذ مدة طويلة لا أعزو هذا التغير فى بنية جسمه - هذا هو
التعبير الذى لا تعبير سواء - الى الأزمة التى طرأت على حياته العائلية ، أو

قل الأزيمة التي أصابت زواجه التمس . أنا الذي أعرف بلدى روسيا كما أعرف أصابع يدي ، والذي وهبت للشعب الروسى حياتى كلها ، أستطيع أن أؤكد لك أنه لا يعرف الشعب الروسى ، وأنه عدا ذلك ...

قال المهندس مقاطعا وهو يتحرك على ديوانه من جديد :
- أنا أيضا لا أعرف الشعب الروسى ... ليس فى وقتى متسع لدراسته ...

فلم يحر ستيفان تروفيموفتش جوابا ، وانقطعت سلسلة حديثه .
قال ليوتين مقاطعا :

- بلى ! انه يدرسه ، أؤكد لك أنه يدرس الشعب الروسى . حتى انه يهين . مقالة شائقة جداً عن تزايد عدد الانتحارات فى روسيا ، وبوجه عام ، عن الاسباب التي تسهل أو تقلل عدد الانتحارات . وقد وصل الى نتائج باهرة .

احتد كيريلوف ، وهمهم يقول غاضبا :

- ليس من حقك أن تقول هذا . أنا لا أهى . مقالة ، ولا تخطر ببالى سخافة من هذه السخافات . وانما أنا حدثك فى هذا الموضوع عرضاً . ليس الأمر أمر مقالة ... أنا لا أنشر شيئا . ليس من حقك أن تقول هذا الكلام .

سُرَّ ليوتين سرورا كبيرا واضحا كل الوضوح : وقال :

- معذرة . لعلنى أخطأت حين أسميت عمـلك الأدبى مقالة . انه يكتفى بجمع ملاحظات ، ولا يمس جوهر المسألة ، أعنى جانبها الأخلاقى ان صح التعبير . حتى انه ينكر الاخلاق انكارا تاما ، وهو من أنصار المبدأ الجديد القائل بالتدمير الشامل فى سبيل تحقيق الانتصار الكامل

للأفكار السليمة • انه يطالب بقطع أكثر من مائة مليون رأس لاقامة النظام الصحيح في أوروبا ، وهو في هذا يتجاوز ما طُلب في مؤتمر السلام الذي عُقد أخيراً * • ان ألكسى نيلش قد مضى في هذا المضمار الى أبعد مما مضى اليه أى انسان آخر •

كان المهندس يصفى وهو يتسم ابتسامة صفراء فيها احتقار • ولزنا الصمت جميعا خلال لحظات •

واستأنف كيريلوف كلامه أخيراً ، فقال بشيء من الرصانة :

- هذا كله غباء يا ليويتين • اذا كنتُ قد رويت لك بعض الأمور عرضاً فاستوليت عليها ، فأنت حر تفعل ما تشاء • ولكن ليس من حقك أن ... لأننى لا أقول لأحد شيئاً في يوم من الأيام • اتنى أحتقر الكلام ... اذا كان للمرء اقتناعات ، فالأمر يكون واضحاً • حماقة ما فعلت ... أنا لا أناقش في مسائل هى عندى محلولة • اتنى أكره المناقشة ، ولا أجادل أبداً •

لم يستطع ستيفان تروفيموفتش الا أن يقول له :

- ولعلك تحسن بهذا صنعا •

تابع المهندس كلامه يقول بنوع من الحمى :

- اننى أعذر أمامك ، ولكننى لا أحقد على أحد هنا • أنا لم ألق الا قليلا من الناس • خلال أربع سنين لم أتكلم ، لم أتكلم الا قليلاً جداً • كنت أحاول أن لا أقابل أحداً ... نعم ... خلال أربع سنين • لست سريع التأذى ، لكن عدم تحرجه يزعجنى •

وختم كلامه فجأة وهو يلقي علينا جميعاً نظرة واثقة ، قائلاً :

- اذا كنت لا أعرض عليكم أفكارى وآرائى ، فليس ذلك خوفاً

من أن تشوا بي الى الحكومة ، أبدا • لا يذهبن° بكم الظن الى شيء من هذا ، أرجوكم •

لم يجبه أحد منا عن هذه الكلمات • واكتفينا بأن تبادلنا نظـرة سريعة • لـيـوتـين نفسه نسي أن يضحك ساخرا •

قال ستيفان تروفيموفتش بلهجة ثابتة وهو ينهض عن ديوانه :

— أنا آسف جدا أيها السادة ، ولكنني أشعر بأنني مريض • معذرة •
فهتف السيد كيريلوف يقول وهو يتناول قبعته :

— آآآ معنى هذا أن علينا أن ننصرف • أحسنتَ إذ قلت لي هذا •
فأنا كثير النسيان •

قال ذلك ونهض فاقرب من ستيفان تروفيموفتش ومدّ اليه يده
بحركة طليقة • وأضاف يقول :

— يؤسفني أنك مريض ، وأنتى جئتكَ وأنت على هذه الحال •••

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يضافحه هائلاً باشاً ، على مهل بدون تعجل :

— أتمنى لك كل النجاح عندنا • انتى أفهم أن تنظر إلينا ، نحن الروس الحقيقيين ، بشيء من الدهشة ، بعد أن عشت في الخارج مدة طويلة كما تقول ، معتزلاً الناس ، دون أن تفكر في روسيا • ومن الطبيعي جداً أن نحس نحن تجاهك هذا الاحساس نفسه • « ولكن ذلك سينقضى »
(بالفرنسية) • ليس هناك الا شيء واحد يضايقنى : انك تريد أن تساهم في بناء جسرنا ، وتعلن في الوقت نفسه انك من أنصار التدمير الشامل •
فلن يمهـدوا اليك بناء جسرنا •

صاح كيريلوف يقول مشدوهاً :

ـ ماذا ؟ ماذا قلت ؟

وانفجر يطلق ضحكة مرحة صريحة على حين فجأة • لقد اتخذ وجهه تعبيراً طفولياً رأيته مناسباً له أروع مناسبة • وكان ليوطين يفرك يديه مفتتاً بمزاحه ستيفان تروفيموفتش • أما أنا فلم أقطع عن التساؤل لماذا خاف ستيفان تروفيموفتش من ليوطين ذلك الخوف كله ، ولماذا صاح يقول حين رآه : « لقد هلكت » •

كنا واقفين جميعا على عتبة الباب • انها اللحظة التي يتبادل فيها الزائرون والمزورون كلمات سريعة فيها كل الملاحظة والتودد قبل أن يفترقوا مسرورين •

وفجأة قال ليوتين ، باهمال ، وهو يهم أن يخرج :

- اذا كان اليوم متجهماً فلأنه تشاجر مع الكابتن ليادكين بسبب أخت الكابتن • ان الكابتن ليادكين يجلد بالسوط (ناجايكا) * كل يوم ، مساءً وصباحاً ، أخته الفاتنة المجنونة • حتى لقد قرر الكسى نيلتش أن ينتقل الى جناح بقرب المنزل كي لا يشهد مناظر التعذيب هذه • هيّا ! الى اللقاء !

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل كأنما تلقى هو نفسه جلدة سوط •

- أخته ؟ مجنونة ؟ يجلدّها بسوط ؟ أى أخت ؟ أى ليادكين ؟ وعاد الرعب يستولى عليه من جديد •

قال ليوتين :

- ليادكين ؟ كابتن محال على التقاعد • وكان فى الماضى يقول انه كابتن مساعد •••

- ما شأنى ورتبته ؟ من هى أخته هذه ؟ يا الهى ! ••• أقول ليادكين ؟ ولكن لقد كان عندنا هنا فى الماضى رجل يقال له ليادكين ، أليس كذلك ؟

- هو ذاته • هو « صاحبنا » ليادكين نفسه • هل تتذكر ، عند
فرجنسكى ؟

- ولكن ليادكين ذاك قد سرّب أوراقا نقدية مزوّرة ، أليس
كذلك ؟

- رجع • رجع منذ ثلاثة أسابيع ، فى ظروف خاصة جدا •

- ولكنه وغد حقير •

- وهل مستحيل أن يوجد فى مدينتنا وغد ؟

قال ليوتين ذلك مبتسماً ، وكانت عيناه الصغيرتان الماكرتان كأنما
تجسّان ستيفان تروفيموفتش •

- ليس هذا ما أردت أن أقوله ، يارب ! فيما يتعلق بالأوغاد أنا متفق
معك كل الاتفاق ، متفق معك أنت • ولكن ماذا بعد ؟ ماذا بعد ؟ ماذا تريد
أن تقول ؟ لأن من المحقق أنك لم تتكلم عن ليادكين بدون نية ميتة ؟

- أوه ! ذلك كله لا قيمة له ! ... أغلب الظن أن هذا الكاتب لم
يتركنا بسبب الأوراق النقدية المزوّرة ، وانما ليقبض على أخته التى يقال
انها كانت مخبئة فى مكان ما • وقد اقتادها الآن الى هنا • هذه هى القصة
كلها • مالى أراك مرتاعا هذا الارتياح كله يا ستيفان تروفيموفتش ؟ على
كل حال ، أنا لا أزيد الآن على أن أكرر ترثراته وهو سكران • انه
يحفظ لسانه حين لا يشرب • هو انسان شرس ، وفاسد الذوق جدا ، رغم
انه يصطنع مظهر عسكري راق • أما أخته فهى مجنونة ، وهى فوق هذا
عرجاء • يظهر أن أحدا قد أغواها ، وأن السيد ليادكين يتقاضى من الرجل
الذى أغواها مبلغا من المال بانتظام منذ عدة سنين ، تعويضا عن الاساءة التى
أُحلت بشرفه العائلى • ذلك هو ، على كل حال ، ما يستخرجه المرء من
ترثرته • ولكننى أعتقد أن هذا الكلام كله ليس الا أفاويل سكير • فهو

لا يزيد على أن يتباهى • ان الشئون التى من هذا النوع لا تكلف مبالغ باهظة الى هذا الحد • ولكن لاشك فى أن معه مالا : فمذسة أسايىع كان حافى القدمين ، والآن أرى فى يديه بعينى أوراقاً نقدية من فئة المائة روبل • ان الأخت تصاب كل يوم تقريبا بنوبات لا أدرى ما هى • فهى تطلق صرخات حادة ، فيقوم لها فيجلدها بالسوط تأديبا ، وهو يقول : يجب أن تعلم النساء الاحترام • انتى لا أفهم حقاً كيف يحتمل شاتوف هذا الامر ، فيبقى مقيما فى هذا المنزل • لقد ضاق الكسى نيلتش ذرعا بعد اقامته ثلاثة أيام فحسب ، فانتقل الى الجناح المجاور هرباً من الضجة • هو يعرفهم منذ كان بيطرسبرج •

قال ستيفان تروفيموفتش يسأل المهندس :

— هل صحيح هذا كله ؟

فنجبم كيريلوف يقول غاضبا غصبا شديدا :

— أنت تثرثر كثيرا جدا يا ليوطين •

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أصبح عاجزا عن السيطرة

على نفسه :

— دائما أسرار وألغاز ! ما هذه الأسرار والألغاز كلها التى تنبجس

من حولنا !

قطب المهندس حاجبيه ، واحمر وجهه ، ورفع منكبيه ، واتجه نحو

الباب •

قال ليوطين مضيفا :

— حتى ان ليوطين انتزع من بين يديه السوط ، ثم حطمه ورماه من

النافذة • لقد تشاجرا تشاجرا قويا فى هذه المناسبة •

قال ليوتين وهو يستدير فجأة :

- لماذا تروى هذه الأمور كلها يا ليوتين ؟ ما حاجتك الى ذلك ؟
لماذا ؟

- ولماذا أكنم بالتواضع الهزات النيلة التي قامت في نفسه ؟ أقصد
تواضعك أنت ، لا تواضعي أنا .

- ما أغبي هذا كله ! وما أقل جدواه وفائدته ! ان ليادكين غبي ،
وحقير ، ولا حيلة لنا في الامر ... بل انه ضار ! لماذا تهذر هذا الهذر
كله ؟ أنا ذاهب .

هتف ليوتين يقول وهو يتسم ابتسامة ساذجة :

- آه ... خسارة ! كنت أريد أن أسلّيك ياستيغان تروفيموفتش ،
بأن أقص عليك حكاية أخرى صغيرة . حتى لقد كان هذا هدف زيارتي .
ولكن أغلب الظن أنك سمعتها . فالى المرة القادمة : ان ألكسى نيلش
مستعجل جدا . الى اللقاء . تلك القصة الصغيرة تتعلق بفرارا بتروفا .
لقد سلّنتى كثيراً أمس . استدعتنى خصيصاً . شئ يفتّس من الضحك !
الى اللقاء .

ولكن ستيغان تروفيموفتش لم يشأ عندئذ أن يدعه . فأمسك كتفيه ،
وأداره ، وأعادته الى الغرفة ، وأجلسه على كرسي . حتى لقد خاف ليوتين
قليلاً .

بدأ ليوتين يتكلم فقال وهو يلقي على ستيغان تروفيموفتش نظرة
محاذرة :

- لقد استدعتنى ذات يوم ، وسألتنى أن « أسرّ إليها » برأىي في
نيقولاى فيسيفولودوفتش : أهو سليم العقل أم لا ؟ أليس هذا مثيراً
للدهشة ؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول :

- أنت مجنون !

ثم اذا هو ينفجر قائلاً :

- أنت تعلم جيداً يا ليوتين أنك لم تجيء الا لتقصّ على قصة ذنبه
من هذا النوع ... أو أسوأ من ذلك ...

سرعان ما تذكرت الشبهات القائمة في ذهن ستيفان تروفيموفتش ،
وهي أن ليوتين يعرف من أمرنا أكثر مما نعرف ، بل ويعرف أموراً لن
نعرفها نحن في يوم من الايام .

جمجم ليوتين يقول مصطنعاً الرعب :

- رحماك يا ستيفان تروفيموفتش . ما هذا الذي تقول ؟

- كفى ! قل كل شيء . أرجوك ملحاً ياسيد كيريلوف أن تعود
فتشهد حديثاً . أرجوك ! اجلس . والآن ابدأ يا ليوتين ، هياً ،
وبلا تمهيد !

- لو كنت أعلم أن الامر سيفجؤك الى هذا الحد ، لما قلت شيئاً .
لكنني كنت أتخيل أن فرفاراً بتروفا لا بد أن تكون قد أطلعتك على كل
شيء .

- أنت تعلم تماماً أن لا شيء من هذا البتة . هيا ابدأ !

- ولكن اجلس أنت أيضاً ، أرجوك . لو بقيت أنا جالسا وبقيت
أنت تجرى في الفرقة تائر الاعصاب ، فسوف أرتبك ...

سيطر ستيفان تروفيموفتش على نفسه وجلس برصانة على مقعد .
وأطرق المهندس الى الارض عابس الوجه . وكان ليوتين ينظر اليهما
كليهما بتلذذ كبير .

- كيف أتكلم الآن ؟ انني أشعر باضطراب شديد ...

- أمس الاول زارنى خادم من عند فرفاراً بتروفنا وقال لى : « ان مولاتنى تطلب منك تجيء اليها غدا فى الظهر » تخيل هذا ! تركت جميع مشاغلى ؛ وفى الظهر كنت أفرع بابها • أدخلت الى الصالون • وظهرت هى بعد دقيقة ، فأجلستنى ، وجلست قبالتى • لم أصدق عينى • أنت تعلم كيف كانت تعاملتنى دائماً • قالت لى : « انك تتذكر أن يقولاي فسيفولودوفتش قد ارتكب ، منذ أربع سنين ، بضعة أعمال غريبة أدهشت جميع الناس ، الى اليوم الذى اتضح فيه كل شىء • ان أحد تلك الاعمال قد تناولك أنت شخصياً • وما ان أبلّ يقولاي فسيفولودوفتش من مرضه حتى ذهب يزورك تلبيةً لرغبتى • وانى لأعلم من جهة أخرى أن أحاديث كثيرة كانت قد جرت بينكما من قبل • فقل لى اذن بصراحة ، بصدق كامل ، ماذا كان ... (هنا اضطربت قليلاً) ... ماذا كان رأيك عندئذ فى يقولاي فسيفولودوفتش ؟ ... ماذا قام فى ذهنك عندئذ عنه ؟ ... وما رأيك فيه الآن ؟ ... »

هنا اضطربت اضطراباً كاملاً ، حتى لقد بلغت من الاضطراب أنها صمتت دقيقة كاملة واحمرت ، واتبانى أنا من ذلك رعب • ثم استأنفت كلامها فقالت بلهجة لا أصفها بأنها مؤثرة (فهذا الوصف لا يناسبها) وانما أصفها بأنها ذات دلالة • قالت :

« أريد أن تفهم عنى جيداً ، وأن لا يقوم بيننا أى سوء تفاهم • لقد استدعيتك لأننى أعددك رجلاً حصيف الراى ذكياً قادراً على أن ترى الأمور كما هى • وانك لتدرك أيضاً أن أمأ هى التى تتوجه اليك وتعتمد

عليك (انظر الى هذه الملاحظات والمجاملات !) . ان نيقولاى فسيفلودفتش قد قاسى أثناء حياته من بعض المصائب ، وعرفت حياته أنواعا من الاضطرابات . فمن الجائز أن يكون هذا قد أثر فى حالته النفسية . أنا لا أتحدث عن جنون طبيعى . فالامر لا يمكن أن يكون جنونا (قالت ذلك بقوة وكبرياء) . ولكن لعل فيه شيئا من الشذوذ فى الآراء والتفرد فى الأفكار ، لعل له ميلا غريبا الى مواجهة الامور من زاوية خاصة والى رؤية الأشياء رؤية فريدة . (هذه هى أقوال فرفارا بتروفنا بالفاظها ، ولم يسعنى الا أن أدهش ياستيفان تروفيموفتش من وضوح شروحه !) .

وقد لاحظت فيه أنا نفسى اضطرابا مستمرا وميولا غريبة . ولكننى أمه ، أما أنت فغريب عنه . لذلك أتوسل اليك (نعم ، هذا بعينه هو ما قالته : « أتوسل اليك ») أن تقول لى الحقيقة كلها دون أى تكلف . وإذا وعدتني عدا ذلك بأن لا تتسنى أن حديثي اليك سر ما ينبغي أن تبوح به لأحد ، كان فى وسعك أن تكون على يقين من أننى سأكون مستعدة لأن أبرهن لك على امتنانى وشكرى متى سنحت المناسبة ، . فما رأيك ؟

قال ستيفان تروفيموفتش مدمدماً :

– اننى قد بلغت من الاندهاش اننى لا أصدقك .

قال ليويتين وكأنه لم يسمع جملة ستيفان تروفيموفتش :

– لا ، ولكن لاحظ مدى الانفعال الذى لا بد أنه كان يهز نفسها ومدى التعلق الذى لا بد أنه كان يعذبها حتى تتنازل فترضى أن توجه سؤالاً كهذا السؤال الى رجل مثلى ، وتتواضع فقبل أن تطلب السر منى أنا . ما معنى هذا ؟ أتراها تلقت أنباء جديدة عن نيقولاى فسيفلودفتش ؟

– لا أدرى . . . لا أنباء . . . اننى لم أرها منذ بضعة أيام .

نطق ستيفان تروفيموفتش بذلك ثم جمجم يقول ، وكان واضحا أنه أصبح فى تلك اللحظة عاجزا عن ترتيب أفكاره :

- ولكننى ألفت نظرك يا ليويتين نعم ألفت نظرك الى أنها أفضت اليك بهذا سرّاً من الأسرار ، ثم هأنت ذا تقصه علينا جميعا
- نعم ، أفضت الى سرّاً من الأسرار ! ولكن ألا فليُنزل على الله صاعقةً فى هذه اللحظة نفسها اذا كنت قد أما ما قلته الآن هنا فلا قيمة له . لقد قلته بيننا ، وليس ألكسى نيلتش غريبا .

- لا أشاركك رأيك . ان بيننا ثلاثة سيحفظون السر حتما ، لكننى أخشى الرابع وهو أنت . اننى لا أثق بك أية ثقة .
قال ليويتين :

- ما هذا الذى تقول ؟ اننى أحرص من أى واحد آخر على كتمان السر ، لأننى وعدت بأن أكافأ الى الأبد . ولكننى فى هذه المناسبة أريد أن أثير لك الى واقعة شائقة الى أبعد حد ، شائقة من الناحية السيكلوجية .
فى مساء أمس ، أنا تحت تأثير الحديد الذى جرى بينى وبين فرفارا بتروفنا (تستطيع بسهولة أن تتصور الانطباع الذى خلّفه ذلك الحديث فى نفسى) سبرت غور ألكسى نيلتش على نحو خفى قائلا له : انك قد عرفت نيقولاى فيسولودوفتش فى الخارج وفى بطرسبرج . فما رأيك فى ذكائه وفى قدراته ؟ فأجابنى ألكسى نيلتش بايجاز : هو رجل مرهف الذكاء سديد الرأى . فسألته : ألم تلاحظ فيه مع ذلك شيئا من ميل غريب شاذ فى أفكاره ، ألم تلاحظ فيه نوعا من تفكير خاص ، أو قل على الجملة ضربا من جنون ؟ أى كررت السؤال التى كانت فرفارا بتروفنا قد ألقته على .
فصور ! لقد شرد ذهن ألكسى نيلتش لحظة ، وقطب حاجبيه كما يقطبهما الآن تماما ، ثم قال : نعم ، لقد بدا لى غريب الاطوار أحيانا . فكر : اذا

بدت بعض الاشياء غريبة عجيبة حتى لألكسى نيلتش ، فما عسى أن يكون الامر فى الواقع ؟

قال ستيفان تروفيموفتش يسأل كيريلوف :

- أهذا صحيح ؟

فأجاب ألكسى نيلتش فجأة رافعا رأسه وقد سطعت عيناه :

- أفضل أن لا أتكلم فى هذا • ليس لك حق يا ليوتين • لا يجوز لك أن تذكر هذه الحادثة • اتنى لم أعبر عن رأيى كله أبدا • لقد عرفت' نيقولاى فسيفولودوفتش فى بطرسبرج ، ولكن منذ زمن بعيد ، ورغم اتنى التقت به الآن من جديد ، فأتنى لا أعرفه الا قليلا جدا • وان كلامك كله يشبه أن يكون نائم •

رفع ليوتين ذراعيه الى السماء كأنما يستشهدها على براءته التى طعن فيها صاحبه ، وقال :

- أنا نائم ؟ ولماذا لا أكون جاسوسا كذلك ؟ سهل عليك أن تنتقد الآخرين يا ألكسى نيلتش بعد أن سحبت يدك من الامر ، وتنصت ! لعلك لن تصدق ما سأقوله لك الآن يا ستيفان تروفيموفتش ، ولكن اسمعه : ان الكاتبين ليادكين - وأنت تعلم أنه غبى مثل ... لا أجرو أن أنطق بالكلمة ولكنك تعرف المثل الروسى * - أقول ان الكاتبين ليادكين ، رغم أنه يُجل ذكاء نيقولاى فسيفولودوفتش ، يرى أن هذا الشاب قد اعتدى عليه وأساء اليه • وهو يقول : « هذا الرجل يذهلنى : انه أفموان بارع كل البراعة » (هذه ألفاظه نفسها) • وهأنا ذا أسأله (وكنت ما أزال تحت تأثير لقائى مع فرفارا بتروفنا ، بعد حديثى مع نيقولاى نيلتش) : « ما رأيك فى صاحبك الذى تصفه بأنه أفموان بارع كل البراعة ، أليس مجنونا ؟ » ، فكأتنى بهذا السؤال قد لسعته بسوط ، فاذا هو يثب قائلا : « نعم ، نعم ،

ولكن ذلك لا يمكن أن يؤثر . . . ، أن يؤثر فى ماذا ؟ انه لم يكمل
جملته . ثم غرق فى نوع من أحلام كئيبه مظلمة حتى أن سكره تبدد
أخيرا . كنا فى الحانة ، عند فيليوف . وبعد نصف ساعة ، ضرب المائدة
بقبضة يده فجأة وهتف يقول : « نعم ، جائز جدا أنه مجنون . ولكن ذلك
لا يمكن أن يؤثر . . . » . وصمت مرة أخرى فلم يكمل جملته . لست
لست أنقل اليك طبعا الا الشيء الأساسى من الحديث الذى جرى بيننا .
ولكن الامر واضح وضوحا تاما : اسأل من شئت من الناس يجيئك هذا
الجواب نفسه ، حتى أولئك الذين لم يسبق أن خطررت لهم هذه الفكرة
على بال : « نعم ، هو مجنون » انه ذكى جدا ، ولكن من الجائز أيضا أن
يكون مجنونا . . .

كان ستيفان تروفيموفتش شارد الذهن يفكر فى شيء ما تفكيراً
عميقاً .

- وكيف علم ليادكين ؟

- عن هذا اسأل ألكسى نيلتش الذى وصفنى منذ هنيهة بأننى
جاسوس . أنا جاسوس ، ولكننى لا أعرف شيئاً ، أما ألكسى نيلتش فانه
يعرف كل شيء ويسكت .

أجاب المهندس قائلاً بتلك اللهجة الغاضبة نفسها :

- لا أعرف شيئاً ، أو لا أعرف شيئاً ذا بال . انك تسكر ليادكين
لتحمله على أن يثرثر . وقد جئت بى أنا الى هنا لأتكلّم فأنت اذن
جاسوس .

- أنا لم أسقه بعد ، ثم انه هو وأسراره كلها لا يساويان فى رأى
نمن الشراب . لا أدرى ما قيمة هذه الأسرار عندك ، أما عندى أنا فليس
لها أية قيمة . بالعكس : انه هو الذى يبدد المال الآن ، بعد أن كان منذ

اننى عشر يوما يتضرع الىَّ أن أعطيه خمسين كوبكاً • انه هو الذى يسقيني
الآن شبنانيا • ولكنك تلهمنى فكرة طيبة : سوف أُسكركه اذا احتاج الأمر ،
من أجل أن أعرف الحقيقة • ومن الجائز جدا أن أكتشف حينذاك ...
جميع أسرارك الصغيرة •

كذلك أجاب ليوتين فجأة بلهجة شرسة •

كان ستيفان تروفيموفتش يتأمل الخصمين متحيراً كل التحير • انهما
يفضحان نفسيهما ؛ وأكثر من ذلك انهما لا يحاولان حتى اخفاء ذلك •
وسرعان ما خطر ببالى أن ليوتين انما جاء بكيريلوف هذا لا لشيء الا أن
يستدرجه الى حديث مع شخص ثالث فيحمله بذلك على الكلام ، وتلك
كانت طريقته المفضلة •

وتابع ليوتين كلامه فى حق :

- ان ألكسى نيلتش يعرف نيقولاى فسيفولودوفتش كل المعرفة ، لكنه
يخفى ذلك • أما الكابتن ليادكين فأننى أجيب عن سؤالك بأنه عارف
نيقولاى فسيفولودوفتش ببطرسبرج ، قبلنا جميعا بمدة طويلة ، منذ خمس
سنين أو ست ، أثناء تلك الفترة الغامضة من حياة نيقولاى ، ان جاز هذا
التعبير ، أى حين كان نيقولاى لا يخطر بباله أن يشرفنا بزيارته • يجب أن
نعتقد أن أميرنا كان فى ذلك الحين يحيط نفسه بأناس عجيبين • وفى ذلك
الحين ، فيما أظن ، انما انمقدت الصلة بينه وبين ألكسى نيلتش •

- حذار يا ليوتين • اننى أنبّهك الى أن نيقولاى فسيفولودوفتش
قادم الى هنا بنفسه قريباً ، وهو رجل يعرف كيف يدافع عن نفسه •

- ما شأنى أنا ؟ اننى أول من يصيح قائلاً فى كل مكان انه من أرهف
الناس ذكاء وأكثرهم ثقافة ، حتى لقد طمأنت فر فارا بتروفا تماماً من هذه
الناحية ، وأضفت أقول لها : « لكننى لا أستطيع أن أجيب بشيء عن

طبعه ، ؛ ولياديين يرى هذا الرأي نفسه . لقد قال لى : « ان طبعه هو ما عانيت منه وكنت ضحيته . . . آه ياستيفان تروفيومفتش ! سهل عليك أن تهمنى بأننى نمام وجاسوس بعد أن استخرجت منى كل شىء بكثير من الاستطلاع والفضول . لقد استطاعت فرارا بتروفا أن تضع اصبعها على النقطة الحساسة فقالت : « اننى أتوجه اليك لأن الأمر يهمك شخصياً » . نعم ، أعتقد أن الأمر يهمنى ! لا داعى الى البحث عن بواعث أخرى ، ما دام قد أهانتى اهانة شخصية اضطرت أن أبلغها أمام المجتمع كله . يبدو لى اذن اننى كنت أهتم فلأسباب هامة جدا ، لا جبا بالنميمة والتقول . هو اليوم يضافحك ، ثم اذا به فى الغد ، اذا استبدت به الزروة ، يشكر لك حسن ضيافتك وكرمك بأن يصفحك على وجهك أمام مجتمع محترم . وما ذلك كله الا لأنه يشعر بسأم وضجر ولا يعرف ماذا يفعل بقواه . على أن الامر الاساسى عند أمثال هؤلاء الناس انما هو النساء . انهم فراش ، انهم ديك ، يطير أحدهم من واحدة الى أخرى بأجنحة صغيرة كأجنحة عشاق الأساطير القديمة . سهل عليك ياستيفان تروفيومفتش ، وأنت عازب قاسى القلب ، أن تدافع عن « معاليه » وأن تصفى بأننى نمام . ولكن اذا تزوجت امرأة شابة جميلة - وذلك أمر قد يحدث طبعاً ، لأنك مازال رجلاً جميلاً - فمن الجائز أن توصد بابك بمزلاج فى وجه أميرنا ، وأن تقيم حول بيتك أسواراً . سأقول لك بصراحة : ان هذه الأنسة لياديين التى تجلد بالسوط ، لو لم تكن مجنونة وعرجاء لاعتقدت أنها كانت ضحية أهواء أميرنا وأن هذه هى الاهانة التى أُلحقت « بالشرف العائلى » للياديين ، على حد تعبير الكابتن نفسه . صحيح أن الذوق المرفه لدى « معاليه » يتعارض مع هذا الافتراض ولكن . . . هه . . . ما أظن أن هذا ما يمكن يصدّه ! ان جميع الثمار تطيب له متى كان مهياً النفس لاقتطافها . أنت تقول اننى أذيع نمام كاذبة .

فاعلم اذن أن المدينة كلها لا حديث لها الآن الا فى هذا الموضوع . وأنا أكفى بأن أسمع وأؤيد . أظن أن التأيد غير محظور !

– المدينة كلها تتحدث فى الموضوع ؟ فى أى موضوع ؟

– الأصح أن الكاتبن ليادكين هو الذى يعلن ذلك جهارا نهارا حين يسكر . ولكن الأمرين واحد . فأى ذنب أرتكب أنا ؟ أنا لا أتكلم فى الموضوع الا بين أصدقاء . ألسنا هنا أصدقاء على كل حال ؟

قال ليوتين ذلك وهو ينظر إلينا ببراءة . وتابع كلامه يقول :

– اليك الأمر : يظهر أن « معاليه » قد استودع بسويسرا آنسة محترمة هى يتيمة يشرفنى اننى أعرفها ، استودعها ثلاثمائة روبل طالباً منها أن توصلها الى الكاتبن ليادكين . ثم عرف ليادكين بعد فترة من الوقت ، عرف من شخص محترم هو أيضا ، جدير بالثقة اذن (ولن أسمي هذا الشخص) أن المبلغ الذى أُرسل إليه ليس ثلاثمائة روبل بل ألف روبل . وهاهو ذا ليادكين يمضى يصرخ فى كل مكان أن الفتاة التى أوّمنت على المال لتوصله إليه قد سرقت منه سبعمائة روبل ، بل ها هو ذا يريد أن يشكو الفتاة الى الشرطة . وقد هدّدها بذلك على كل حال ، وأثار فضيحة فى المدينة كلها .

صاح المهندس قائلاً وهو ينهض على حين فجأة :

– هذه دناءة منك ، هذه دناءة !

– ولكنك أنت ذلك الشخص المحترم الجدير بالثقة الذى أبلغ ليادكين ، نقلاً عن نيقولاى فسيفولودوفتش أن المبلغ ألف روبل لا ثلاثمائة . ان الكاتبن هو الذى قال ذلك فى حالة سكر .

– هذا خطأ فى الفهم ... خطأ مؤسف محزن .. لقد وقع خطأ ،

فنشأ عن ذلك الخطأ أن ... على كل حال ، لا قيمة لهذا كله . وتلك
دناءة منك ! ...

– أريد أن أصدق أن هذا كله لا قيمة له فعلاً ، وأنا حزين لتلك
الشائعات كلها (ولك أن تقول عن كلامي ما تشاء) ، أولاً لأن فتاة محترمة
قد أُنجمت في هذه القضية ، وثانياً لأن هذه الفتاة مقتنعة بأن بينها وبين
نيقولاى فيسولودفتش صلة حميمة . ان « معاليه » لن يتورع طبعاً عن
الاساءة الى سمعة فتاة نبيلة ، أو عن تلطّيح شرف زوجة رجل آخر ، كما
حدث لى أنا ؟ واذا وقع على رجل ذى نفس سمحة كريمة ، فسيرتب أمره
بحيث يجعل هذا الرجل يغطى باسمه المحترم خطايا غيره . ذلك بعينه
هو ما حدث لى . اتى أتكلم عن نفسى ...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض عن مقعده شاحباً كل
الشحوب :

– حذار يا ليوتين !

وصرخ المهندس يقول مضطرباً :

– لا تصدّقه ، لا تصدّقه ! ان أحداً قد أخطأ ، وليس ليادكين الا
مكبراً ! سوف يتضح كل شيء ... ولكننى لا أقدر الآن ... هذه دناءة
... كفى ! كفى ! ...

وأسرع يخرج من الغرفة .

فهتف ليوتين يقول مدهوشاً :

– هيه ! ماذا تفعل ؟ انتظرنى ! سأصحبك !

واندفع يركض وراء ألكسى نيلتش .

لبث ستيفان تروفيموفتش شارد الذهن لحظةً ، ثم نظر الى ، ولكن دون أن يرانى ان صح التعبير ، ثم تناول قبعته وعصاه وخرج من الغرفة صامتا . قبعته كما تبعته منذ برهة . حتى اذا صار عند باب المدخل لاحظ وجودى فقال :

- آآ نعم .. تستطيع أن تكون شاهداً ... على « ما حدث ستصحبني ، أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) •

- كيف يا ستيفان تروفيموفتش ؟ أتذهب الى هناك ؟ هلاً فكرت فيما قد ينجم عن ذلك ؟

فتوقف عندئذ ، وجمعهم مبسماً ابتسامةً زائفة تثير الشفقة ، ابتسامة خزي وعار ، وكمد ويأس ، ولكن فيها مع ذلك نوعاً من حماسة غريبة فيما تراءى لى • قال :

- لا أستطيع أن أتزوج لأعطي « خطايا الغير » ...

كنت أتوقع هذه الكلمات • ها هو ذا يفصح لى أخيراً ، بعد اسبوع من التصعيرات والتلميحات ، ها هو ذا يكشف لى عن فكرته الخفية التي أخرجتني عن طوري ، فهتف أقول له :

- كيف يمكن أن تراودك فكرة تبلغ هذا المبلغ من القذارة ... وتبلغ هذا المبلغ من الخسة ، أن تراودك أنت يا ستيفان فرخوفنسكى ، أنت الذى تملك كل ما تملكه من ذكاء واضح وقلب طيب ! ولقد راودتك هذه الفكرة حتى قبل زيارة ليوتين ! فكيف يحدث هذا ؟ كيف ؟

نظر الىّ دون أن ينطق بكلمة وتابع سيره • ولكننى لم أشأ أن أتركه • كنت أريد أن أشهد أمام فرفارا بترفنا بما جرى • ولقد كان يمكن أن أغفر له ، بسبب ضعفه الذى يشبه ضعف النساء ، لو أن الفكرة التى ساورته قد جاءت من كلام ليوتين ، ولكن كان واضحاً الآن أنه فكر فى الأمر قبل زيارة ليوتين بكثير ، وأن ليوتين لم يزد على أن ثبت شكوكه وصبّ على النار زيتاً • انه لم يتردد عن الاشتباه فى الفتاة منذ اليوم الاول ، ولم ينسب القرارات المستبعدة التى اتخذتها فرفارا بترفنا الا الى رغبتها فى أن تغطى خطايا ابنتها الحبيب نيقولاى بزواج محترم يتم بأقصى سرعة • وتمنيت لو يعاقب على هذه الفكرة •

بعد نحو مائة خطوة هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وهو يتوقف على حين فجأة :

- اللهم يا كريم يا رحيم ! أين لى من يهدى قلبى ويدخل السكينة الى نفسى ؟

قلت له وأنا أديره الى وراء •

- لارجع الى البيت ، وسأشرح لك كل شئ •

وهنا رنّ فى مسمعنا صوت كالموسيقى ، صوت فى "مرح" ندى طرى يقول :

- انه هو ! ستيفان تروفيموفتش ؟ ألسنت هو ؟

لم نكن قد لاحظنا فتاة على صهوة جواد قد توقفت بقربنا • انها ليزافتا نيقولايفنا مع صاحبها الوفى •

ونادت تقول فى فرح :

- تعال ، تعال ، أسرع ! عرفته رغم اننى لم أره منذ اثنتى عشرة سنة ؟ وهو ... ألم تعرفنى حقاً ؟

تناول ستيفان تروفيموفتش اليد التي مدتها اليه الفتاة ، وقبلها
باحترام . ونظر الى الفتاة كالمتعب ، عاجزاً عن النطق بكلمة واحدة .
قالت :

- نعم ، عرفني ، وهو سعيد . انه مسرور برؤيتي أعظم السرور
يا مافريكى نيقولايفتش . أكون هنا منذ خمسة عشر يوماً ولا تزورنا ؟
كيف هذا ؟ كانت عمتي تؤكد لي أنك مريض ، وأنه ما يجب ازعاجك .
لكنني كنت أعلم أنها تكذب . وكنت أتميز غيظاً ، وأنتسك ، ولكنني كنت
أحرص حرصاً مطلقاً على أن تكون أنت البادئ ، على أن تخطو أنت
الخطوة الأولى . لذلك لم أرسل أحداً في طلبك .

ثم قالت وهي تنحني من على سرجها وتأمل متفلسة :

- رباة ! انه لم يتغير البتة . حتى ليكاد يكون ذلك مضحكاً . ولكن
غضونا كبيرة توجد مع ذلك حول عينيه وعلى خديه ؛ كما أن شعره قد
ابيض ... غير أن عينيه ما تزالان على عهدي بهما . وأنا ، هل تغيرت ؟
قل لي : هل تغيرت ؟ ولكن ما لي أراك صامتاً لا تتكلم ؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت كسّره الفرح :

- أنت ... لقد هتفت منذ لحظة قائلاً : « أين لي من يهدي قلبي
ويدخل السكينة الى نفسي ؟ » ثم اذا أنا أسمع صوتك ... انني أعد
هذا معجزة ، « وبدأت أو من » (بالفرنسية) .

- « بالله ؟ بالله العلي القدير الرحيم ؟ » (بالفرنسية) . أرايت كيف
انني ما زلت أحفظ دروسك على ظهر القلب . ليتك تعلم يا مافريكى
نيقولايفتش كم كان يغرس في نفسي الايمان « بالله العلي القدير الرحيم ! »
(بالفرنسية) هل تذكر أفاصيصك عن كريستوف كولومب واكتشاف
أمريكا ، وكيف صرخوا جميعاً يقولون : « أرض ! أرض ! » ؟ تقول

خادمتى أليونا فرولوفنا اتى حلمت فى الليلة التالية ، فكنت أتكلم أنتما ،
النوم بصوت عال صارخةً « أرض ! أرض ! » . وهل تذكر كيف كنت
تقص على قصة هاملت ؟ ثم كنت تشرح لى أيضا كيف كانوا ينقلون
المهاجرين النساء من أوروبا الى أمريكا . وكان كلامك غير صحيح .
عرفت ذلك فيما بعد . ما كان أحلى كذبه يا مافريكى نيقولايفتش ! كان
كذبه أحسن من الحقيقة ! ما بالك تتأمل فى مافريكى نيقولايفتش هذا
التأمل ؟ هذا أحسن انسان وأوفى انسان على وجه الارض ، ويجب عليك
حتماً أن تحبه بقدر ماتحبنى . « انه يفعل كل ما أريد » (بالفرنسية) .
ولكن هأت اذن شقى من جديد ياستيفان تروفيموفتش ما دمت قد سمعتك
تصبح فى الشارع : من لى بمن يهدى قلبى ويدخل السكينة الى نفسى ؟
أأنت شقى ؟ قل !

- أنا الآن سعيد ...

- عمتى هى التى تعذبك ... هذه العمة السيئة ، الظالمة ، العزيزة
مع ذلك ! هل تذكر كيف ارتميت بين ذراعى فى الحديقة ، وكيف
واسيتك فيما كنت تبكى ؟ لا تتخرج أمام مافريكى نيقولايفتش ! انه يعرف
كل شىء عنك ، كل شىء تماما ، منذ مدة طويلة . فى وسعك أن تبكى على
كفه ما اشتهى قلبك البكاء ، فيبقى واقفا لك فى مكانه لا يتحرك ... ارفع
قبعتك قليلا ، بل وانزعها تماما لحظة ، وقرّب رأسك ، وتناول على
رموس الأصابع ، لأقبّل جبينك كما قبّلتك فى آخر مرة يوم افترقنا .
انظر الى هذه الآسة التى تنظر الينا معجبةً من النافذة ! هيا ! اقترّب !
أيضا ! رباه ! ما أكثر ما ابيض شعره !

ومالت من على سرجها فقبّلت جبينه .

- والآن ، عد الى البيت ! أنا أعرف أين تقيم ، وسأتى اليك فوراً ،

بعد دقيقة • سأكون البادئة بزيارتك أيها العنيد ، ثم يكون عليك بعد ذلك أن تأتي إلينا فقط عندنا نهارا بكامله • هيا ! استعد لاستقبالي !
ومضت تجرى بحصانها في صحبة فارسها جرياً سريعاً • وعدنا الى البيت •

جلس ستيفان تروفيموفتش على الديوان ، وطفق يبكي • وهتف يقول :

« يا رب ! يا رب ! هذه أخيراً دقيقة من سعادة ! » (بالفرضية) .
وبعد دقيقتين وصلت بارة بوعدها ، يصحبها مافريكى نيقولايفتش أيضا •

قال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض لاستقبالها :
« أنت والسعادة تصلان في آن واحد » (بالفرضية) .
قالت :

« هذه باقة أزهار لك ، أتيتك بها من عند مدام شوفالييه • ان عندها أزهارا طرية طوال الشتاء لأيام الأعياد وحفلات الميلاد • وهذا مافريكى نيقولايفتش • تعارفا ، أرجو كما ! خطر ببالي أن أتيتك بقرص جاتوه بدلاً من باقة الأزهار ، ولكن مافريكى نيقولايفتش يؤكد أن هذا ليس من « الموضة » في روسيا •

ان مافريكى نيقولايفتش ، وهو كاتب في المدفعية ، يجب أن يكون في نحو الثالثة والثلاثين من العمر • انه رجل فارغ القامة وسيم مهيب يوحى بالاحترام ، في وجهه رصانة تكاد تبدو في النظرة الأولى قسوة • غير أن المرء سرعان ما يلاحظ ، حين يعرفه ، أنه طيب القلب الى أقصى حد ، وأنه رقيق الشعور كل الرقة • وهو قليل الكلام ، يبدو مسيطرا على نفسه ، ولا يحاول أن يلتمس صداقة أحد • وقد قيل عنه فيما بعد انه

ليس على جانب كبير من الذكاء ، ولكن هذا القول ليس صحيحا كل
الصحة •

لن أحاول أن أصف جمال ليزافتا نيقولايفنا التي كانت المدينة كلها
قد أخذت تتكلم عن جمالها ، رغم احتجاج بعض سيداتنا وبعض آسأتنا •
ان بعضهن يكرهن ليزافتا نيقولايفنا منذ الآن ، ويأخذن عليها كبرياءها
قبل كل شيء : ان آل دروزدوف لما يزوروا أحداً بعد ، تقريباً ؛ فكان
الناس في المدينة مستائين من ذلك ، رغم أن هذا التأخر ليس له من سبب
غير سوء صحة براسكوفيا ايفانوفنا • وكنَّ يكرهنها أيضاً لأنها قريبة
زوجة الحاكم ؛ وكنَّ يكرهنها أخيراً لأنها تقوم بنزعة على الحصان في
كل يوم • لم يكن أحد عندنا يرتدى لباس الأمازون بعد ، فكان طبيعياً أن
يفتاز مجتمعنا حين يرى ليزافتا نيقولايفنا تنزه على الحصان ، رغم أنها
لم تقم بزيارات بعد • وكان معروفاً مع ذلك أن هذه النزعات انما نصحبها
بها الاطباء ، ولكن الناس كانوا يستغلون هذا لابداء ملاحظات لاذعه عن
صحتها • والحق أن صحتها لم تكن جيدة ، حتى ان المرء يرى فيها منذ
أول نظرة اليها نوعاً من الاضطراب المرضي المستمر المتصل • وا حزناه !
لقد كانت الصغيرة المسكينة تقاسى كثيراً ، وقد اتضح كل شيء فيما بعد •
الآن ، حين استحضر ذكريات الماضي ، لن أقول انها جميلة جمالا رائعا
كما بدت لي حينذاك • ولعلها لم تكن جميلة البتة • انها طويلة ، نحيلة ،
ولكنها مرنة قوية ، وهي تخطف البصر بما في خطوط وجهها من قلة
الاتساق • عيناها تعلوان نحو الصدغين مواربتيين • وهي الى ذلك هزيلة
الجسم ناشئة الوجنتين ، شاحبة اللون • غير أن في هذا الوجه كذلك شيئاً
يخلب اللب ويأسر القلب ؛ وثمة قوة عجيبة تنبع من عينيها الكحلاوين ،
الحاريتين • اذا رآها المرء قال لنفسه انها قد اعتادت النصر حتما • فهي
متكبرة ، حتى انها في بعض الاحيان متفطرسة • لا أدري هل كان في

وسمها أن تكون طيبة ، لكننى أعلم أنها كانت تريد ذلك كثيرا ، وكانت تبذل جهودا هائلة للتوصل اليه . لا شك أنها زاخرة بتطلعات كريهة وعزومات نبيلة ، لكنها تحاول أن تهتدى الى توازنها دون أن تظفر بذلك ، وكان كل شيء فيها مضطربا مشوشا . لعلها كانت تسرف فى القسوة على نفسها ، ولكنها لا تجد القوة التى تمكنها من تحقيق هذه المطالب .

جلست على الديوان ، وأجالت بصرها فى الغرفة . ثم قالت :

- لماذا أحس دائما بالحزن فى مثل هذه اللحظات ؟ اشرح لى هذا وأنت العالم ! لقد تخيلت دائما اننى سأسعد سعادة جنونية حين أراك ثانية فأتذكر كل شيء ، ثم هأنذا أحس أننى لست سعيدة البتة . وانى مع ذلك لأحبك . رباه ! لقد علّق صورتى على الحائط . اعطنى هذه الصورة ! اننى أتذكر ! كيف لا ؟

انها صورة ليزا وهى فى الثانية عشرة من عمرها ؛ هى صورة رائعة صغيرة مرسومة بالألوان المائية ، أرسلها آل دروزدوف الى ستيفان تروفيوفتش من بطرسبرج . ومنذ ذلك الحين لم تبارح الصورة حائط غرفته .

- هل ممكن اننى كنت جميلة هذا الجمال كله فى طفولتى ؟ أهذا وجهى حقاً ؟

قالت ذلك ونهضت حاملة الصورة بيدها ، ونظرت الى نفسها فى مرآة . ثم هتفت تقول وهى تمد الصورة الى ستيفان تروفيوفتش :

- خذها . أسرع . ولا تعلقها الآن . علقها فيما بعد . لا أريد أن أراها .

وعادت تجلس على الديوان . ثم تابعت كلامها تقول :

- حياة تمضى ، وأخرى تبدأ ، ثم تمضى الثانية لتحل محلها نالئة

... وهكذا دواليك الى غير نهاية • النهايات كلها تشبه أن تكون مقطوعة بمقص • هذا كلام معاد مكرر أقوله لك • ولكن ما أصدق ما يعبر عنه ! ونظرت الى مبتسمة • وكانت قد رشقتى قبل ذلك بنظرات خاطفة مرارا • ولكن ستيفان تروفيموفتش كان قد نسي ، من شدة انفعاله ، وعده بأن يقدمنى اليها •

قالت :

- ولماذا تعلق صورتى تحت هذه الخناجر ؟ ولماذا عندك هذه الخناجر والسيوف كلها ؟

لا أدري لماذا كان ستيفان تروفيموفتش قد علّق على الحائط خنجرين متصاليين عليهما سيف شركسى ، فعلاً • وحين أَلّقت الفتاة هذا السؤال اتجهت الى نظرة مباشرة حتى كدت أجيبها ، ولكنى أمسكت • واتبه ستيفان تروفيموفتش الى الموقف أخيراً ، فقدمنى اليها •

قالت :

- أعرف ، أعرف • أنا سعيدة بمعرفتك • ماما أيضاً سمعت كثيراً عنك • تعرّف الى مافريكى نيقولايفتش • انه رجل ممتاز • لقد قامت فى ذهنى فكرة مضحكة عنك : أنت نجى ستيفان تروفيموفتش ومستودع أسرارهِ ، أليس كذلك ؟

احمر وجهى • فاستدركت تقول :

- أوه ! سامحنى ، أرجوك • ليست هذه الكلمة هى التى كنت أريد أن أستعملها • لا أقصد : مضحكة ، بل ... (واحمرت واضطربت) ... على كل حال ، هل يضيرك أن تكون رجلاً شهماً ؟ هيئاً يا مافريكى نيقولايفتش ! لقد آن لنا أن نتصرف • بعد نصف ساعة يا ستيفان تروفيموفتش يجب أن تكون عندنا • يا الهى ! ما أكثر الأشياء التى

ستحدث فيها ! سأكون أنا نجيّك ومستودع أسرارك الآن ، وستحكى لى كل شىء . هل فهمت ؟ « كل شىء » (بالفرنسية) •

فما أن سمع ستيفان تروفيموفتش هذا الكلام حتى قام بحركة تقهقر على الفور • قالت :

- أوه ! ان مافريكى نيقولايفتش يعلم كل شىء ، فلا تتحرج أمامه !

- ماذا يعلم ؟

فصاحت تقول مذهولة :

- ولكن ماذا بك ؟ آ ••• حقّ اذن انهم يجعلون من الأمر سرّاً ! كنت لا أريد أن أصدّق • وهم يخفون داشا أيضا • لقد منعتى عمتى من الدخول على داشا منذ قليل ، بحجة أن داشا تعاني من صداع •

- ولكن ••• ولكن كيف عرفت ؟

- كما عرف جميع الناس ! ••• ليس هذا بالامر الصعب !

- ولكن هل جميع الناس ••• ؟

- كيف لا ؟ ماما عرفه من أليونا فرولوفنا ، خادمتى • لقد هرعت خادمتك ناستاسيا تحكى لها كل شىء • أنت الذى حكيت لناستاسيا ، أليس كذلك ؟ ان ناستاسيا تؤكد أنك أنت الذى قلت لها •••

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة :

- أنا ••• أنا ••• قلت لها ذات يوم ••• ولكننى لمحت تلميحا

لا أكثر ••• كنت نائر الأعصاب جدا وكنت مريضا ، ثم •••

أخذت الفتاة تضحك •

- ثم ان نجيّك لم يكن عندك ، فوجدت أمامك ناستاسيا ، فحكيت

لها ، وهى تعرف جميع نساء المدينة • ولكن أى خير فى أن يعلم

الناس ؟ بل ان من الأفضل أن يعلموا • لا تتأخر عن الحضور الينا • انتا
تعتنى فى ساعة مبكّرة •

ثم أضافت تسأله وهى تعود الى الجلوس :

- ها •• نعم •• نسيت • قل لى : ما شاتوف ؟

- شاتوف ؟ هو أخو داريا بافلوفنا •••

فقاطعته تقول :

- أعرف أنه أخوها • حقا انك تفقد الانسان صبره ! أنا أريد أن
أعرف أى رجل هو ؟

- « رجل سريع الفضب هو أحسن شرس فى الناس كافة »
(بالفرنسية) •

- نعم سمعت أنه غريب الأطوار قليلاً • يظهر أنه يعرف ثلاث لغات
منها الانجليزية ، ويستطيع أن يتولى القيام بأعمال أدبية • وأنا عندى عمل
كثير أريد أن أعهد اليه به : انتى فى حاجة الى معاون بمعنى من المعانى ،
فى حاجة اليه بأقصى سرعة ممكنة • هل تقدّر أنه يقبل ؟ لقد
نُصحت به •••

- آ ••• طبعاً ••• حتما ! « وانت بهذا تسدين صنيعا حسنا »
(بالفرنسية) •

- ليس الأمر أمر « صنيع حسن » • انتى أبحث عن أحد
يعاونتنى •
قلت :

- انتى أعرف شاتوف معرفة جيدة ، فان شئت ذهبت اليه فى هذا
اليوم نفسه •

- قل له أن يجيئني غدا ، في الظهر • عظيم ! أشكرك • مافريكي
يقولايفتش ، أأنت مستعد ؟

وانصرفا • وأسرعت ' أمضى الى شاتوف على الفور طبعاً •

قال لي ستيفان تروفيموفتش وهو يدركني على درجات المدخل :

- « يا صديقي » (بالفرنسية) ••• تعال الى حتماً في نحو الساعة
العاشرة أو الحادية عشرة ، حين أرجع • آه ••• أنا مذنّب كثيراً في
حقك ! ••• وفي حق جميع الناس ، نعم ، في حق الناس كافة •

لم يكن شاتوف فى البيت • وحين رجعت بعد ساعتين ، لم يكن قد عاد • ورجعت مرةً ثالثةً فى نحو الساعة الثامنةً آملاً أن أترك له رسالة إذا وجدت أنه ما يزال غائبا • وفى هذه المرة لم أجده أيضا • وكان مسكنه مقفلاً بالمفتاح • ان شاتوف يعيش وحيداً ، بلا خادم • خطر ببالى أن أقرع باب بيت الكابتن ليادكين ، لأسأل عن شاتوف • ولكن كل شىء فى الطابق الأدنى كان مغلقاً كذلك • وما من ضجةٍ تُسمع من خلال الباب ، ولا من ضوء يتسرب من أى مكان • لكأن المنزل خال • واذا تذكرت ما رواه لنا ليويتين ، شعرتُ بشىء من حب الاستطلاع والفضول • وقررت أخيراً أن أعود غداً فى ساعة مبكرة • ولم تكن تراودنى أوهام عن الأثر الذى يمكن أن تحدثه رسالتى : ان شاتوف ، العنيد الخجول ، قادر على أن لا يوليهما أى انتباه ، وأن لا يكثر بها البتة •

وفىما كنت أجتاز بوابة العمارة لاعتاً اخفأقى ، اذا ببى أرى نفسى أمام كيريلوف • كان عائداً الى بيته ، وقد عرفنى قبل أن أعرفه • وجواباً عن أسئلته ، ذكرتُ له سبب مجيئى ، وقلت اننى أود لو أترك لشاتوف رسالة • فقال لى :

— تعال معى • سأدبّر الأمر كله •

تذكرت أن كيريلوف ، كما قال ليويتين ، كان قد انتقل من مسكنه فى هذا الصباح الى جناح من خشب يقع فى فناء المنزل • لقد كانت تسكن فى هذا الجناح ، وهو أوسع مما يحتاج اليه ، امرأة عجوز صماء تقوم على خدمة البيت • أظن أن هذه العجوز قريبةٌ للمالك ، قد عهد اليها

بحراسة العمارة ومضى يقيم بمنزل جديد ليفتح فيه مطعماً • ان غرف الجناح نظيفة ، ولكن ورق جدرانها بدا لى وسخاً • وكانت الغرفة التى دخلناها تضم أثاثاً متنوعاً يحسن من يراه أنه اشترى من دكان لبيع الأثاث العتيق : فهناك مائدتان من موائد اللعب ، ومنضدة من خشب الجور ، ومائدة كبيرة من خشب أبيض لو وضعت فى كوخ أو فى مطبخ لكانت فى مكانها ، وكراسى وكنبة ذات مسند من قش وعليها وسائد من جلد • ولحقت فى ركن من الأركان أيقونة قديمة كانت المرأة المعجوز قد أشعلت أمامها قبل دخولنا سراجاً صغيراً • وعلى جدارين من الغرفة علقت صورتان كبيرتان مرسومتان بالزيت ، لكن ألوانها قد بهتت على مرّ السنين : فأما الأولى فهى صورة للإمبراطور نيقولا الأول ، يدل مظهرها على أن تاريخها يرجع الى بداية حكمه ؛ وأما الثانية فهى تمثل لا أدري أى أسقف •

أشعل كيريلوف شمعةً ، وأخرج من حقيبته التى لم يكن قد فضّها بعد ، أخرج ظرفاً وعوداً من شمع الأختام وختماً من كريستال • وقال لى :

– اختم رسالتك بالشمع ، واكتب عليها الاسم •
فاعترضت قائلاً ان ذلك لا داعى اليه ، ولكنه أصرّ • فلما انتهيت من عملى ، تناولت قبعتى لأخرج ، فقال لى :
– كنت أظن أنك قد تحتسى شيئاً من الشاي • فهل تريد ؟ لقد اشتريت شاياً •

فلم أرفض • ولم تلبث المعجوز أن جاءت بالشاي ، أى بابريق ضخم ممتلئ ماءً غالباً ، وabric صغير فيه شاي قوى جداً ، وفنجانين كبيرين من خزف مطلى عليه رسوم غليظة ، وخبز أبيض قُطّع قطعاً ووضع فى صحن عميق •

قال :

- أحب الشاي • ليلاً • كثيراً • أمشي وأشرب شايًا • حتى الفجر .
في الخارج ، ليس مناسباً أن يشرب المرء شايًا في الليل .

- ألا تنام الا في الفجر ؟

- دائما . منذ زمن طويل • أكل قليلاً • لا شيء الا الشاي . ليوتين
ماكر ، لكنه نافذ الصبر •

أدهشني أنه يريد الكلام • وقررت أن أستغل الفرصة •
قلت :

- في هذا الصباح ، حدث سوء تفاهم مؤلم •
فقطب حاجبيه . ثم قال :

- سخافات • سفاسف . ما هذا كله الا سفاسف ، لأن ليوتين
سكير • أنا لم أقل شيئاً لليوتين • أوضحت له أن ذلك كله ليس له أية
قيمة . لكنه اخترع لا يدري الا الله ماذا ... ان ليوتين ذو خيال واسع ،
فهو يبني من الحبة قبة • أمس ، كنت أثق به ...
قلت ضاحكا :

- واليوم تتق بي أنا •

- ولكنك مطلع على كل شيء منذ هذا الصباح • ان ليوتين ضعيف ،
أو هو نافذ الصبر ... أو خطر ... أو وحسود ...

فجأتني هذه الكلمة الأخيرة • قلت :

- لقد ذكرت من العيوب عددا كبيرا بحيث لا بد أن يصدق
أحدها عليه •

- أو تصدق كلها دفعة واحدة •

- نعم ، ربما كان هذا صحيحا كذلك • ان ليوتين خليط مشوش •
هل كذب اليوم حين أكّد أنك تؤلف كتابا ؟
- لماذا يكون هذا كذبا ؟

بذلك أجبني وهو يعبس من جديد ويخفض عينيه .
فاعتذرت له مؤكدا أنني لم أشأ أن استدرجه الى الكلام . فاحمر
وجهه • وقال :

- لقد صدق • اننى أكتب • ولكن ليس لهذا من قيمة •
وصمتا دقيقة • ثم اذا هو يتسم تلك الابتسامة الطفولية نفسها التى
سبق أن لاحظتها فيه •

- فيما يتعلق بالرموس ، تلك حكاية أخذها من الكتب • انه هو
الذى حدثنى فى هذا الموضوع • ولكنه قد أساء الفهم على كل حال • أما
أنا فأتى أبحت فقط فى الاسباب التى تجعل الناس لا يجرؤون أن يقتلوا
أنفسهم • وليس لهذا من قيمة •

- لا يجرؤون ؟ ما هذا الذى تقول ؟ هل الانتحارات قليلة الى هذا
الحد من القلة ؟

- نعم ، قليلة جدا •

- أهذا رأيك ؟

لم يُجب ، بل نهض وأخذ يمشى فى الغرفة طويلاً وعرضا ، شارد
الذهن • سألته :

- وما الذى يمنع الناس من قتل أنفسهم فى رأيك ؟
فنظر الىّ ذاهلاً ، كأنه يحاول أن يتذكر ما كنا نتكلم فيه • ثم أجاب
بقوله :

- لا أدرى بعدُ على وجه اليقين • غير ان هناك وهين شائعين يمنعاننا

من ذلك .. شيئين لا ثالث لهما ، أحدهما صغير جداً ، والثانى كبير جداً .
ولكن الصغير كبير أيضاً .
- فما هو الصغير ؟

• الألم

- الألم ؟ أهو هام الى هذا الحد .. فى مثل هذه الحالة ؟

- نعم ، هام جدا • هناك فئتان من الناس : الذين يتحرون بسبب
عذاب كبير ، أو يتحرون غضباً ، أو يكونون مجانين ، أو يتحرون لأى
سبب آخر .. وهؤلاء يتحرون فجأة • وهم لا يخطر الألم بالهم كثيراً •
ففى دقيقة واحدة ينتهى كل شىء • أما الذين يفكرون ، فهؤلاء يحسبون
حساب الألم كثيراً .

- هل هناك أناس يتحرون وهم يفكرون ؟

- كثيرون . ولولا الأوهام الشائعة ، لكانوا أكثر ، ولكن عددهم
كثيرا جدا ، ولكانوا كل الناس •
- كل الناس ؟ حقاً ؟

لم يجب بكلمة •

- ولكن أليس هناك وسيلة للانتحار بدون ألم ؟

قال وهو يقف أمامى :

- تخيل صخرة فى حجم عمارة كبيرة • وتخيل أنها بارزة فوق
الطريق وأنت تحتها • هل تحس بألم اذا هى سقطت على رأسك ؟

- صخرة فى حجم عمارة ؟ سوف أخاف طبعاً •

- لا أتكلم عن خوفك ، ولكن هل يمكن أن تشعر بألم اذا هى
سقطت على رأسك ؟

- صخرة كالجبل ، وزنها مليون طن ؟ لن أحس بشىء طبعاً •

- ومع ذلك فأنك اذا وُجدت فى هذا الموقف ستظل تخاف من أن

يصيك ألم ، ما بقيت تحت الصخرة • وأكبر العلماء ، وأعظم دهاقنة العلم ، سيخافون جميعا ، جميعا ، سيخافون خوفا كبيرا من أن يتألموا . هم يعلمون أنهم لن يتألموا ، ولكنهم سيخافون من أن يتألموا .

- وما هو السبب الثانى ؟ السبب الاكبر ؟

- الحياة الآخرة ؟

- أى العقاب ؟

- العقاب ليس له شأن كبير • بل الحياة الآخرة • الحياة الآخرة

فقط .

- أليس هناك ملحدون لا يؤمنون بالحياة الآخرة ؟

لزم الصمت . قلت :

- لملك تقضى فى الأمر على أساس شعورك أنت ؟

أجاب وقد احمر وجهه :

- كل انسان لا يستطيع أن يحكم فى الامر الا على أساس شعوره •

سوف تكون الحرية كاملة متى استوى عند الانسان أن يعيش وأن يموت •

تلك غاية كل شىء •

- هدف ؟ ولكن من الممكن اذن أن أحدا لا يرغب فى أن يعيش ؟

- نعم •

كذلك أجاب بلهجة قاطعة • قلت :

- ان الانسان يخاف الموت لأنه يحب الحياة • هكذا أفهم أنا

الأمر • ذلك ما أرادته الطبيعة •

صاح يقول وقد التمت عيائه :

- هذا جبن • وتلك هى الخدعة • الحياة ألم • الحياة رعب •

الانسان شقى • كل شىء الآن ليس الا عذاباً ورعباً • الانسان يحب الآن

الحياة لأنه يحب العذاب والرعب • ذلك ما حصل • الحياة ثمنها العذاب

والرعب • تلك هي الخدعة • اليوم ليس الانسان انساناً بعد • سيحيى
انسان جديد ، سعيد فخور • الانسان الذى سيستوى عنده أن يعيش وأن
يموت ، سيكون هو الانسان الجديد . الانسان الذى سينتصر على الألم
والرعب ، سيكون هو نفسه الاله . أما الاله الآخر فلن يكون له وجود
بعد ذلك •

– فهذا الاله موجود اذن فى رأيك ؟

– نيس موجودا ، ولكنه موجود • ان الصخرة ليس فيها الم ، ولكن
الألم هو فى الخوف من الصخرة • الاله هو عذاب الخوف من الموت •
فالانسان الذى سينتصر على الألم والخوف ، سيكون هو نفسه الله • وسوف
تبدأ عندئذ حياة جديدة . عندئذ سوف يظهر الانسان الجديد • سيكون
كل شيء جديداً ••• وسوف يقسمون التاريخ عندئذ الى عهدين : عهد
يمتد من الفوريللا الى انعدام الاله ، وعهد يمتد من انعدام الله •••

– الى الفوريللا ؟

– الى التحول الجسمى الذى يطرأ على الانسان والارض • سيصبح
الانسان الهاً ، وسيبذل جسمه • والكون سيتحول ، والأعمال ستتحول ،
والعواطف والأفكار • ألا تعتقد أن الانسان يتبدل عندئذ جسمه ؟
اذا استوى عند الانسان أن يحيا وأن يموت ، فسوف ينتحر جميع
الناس ، وربما كان هذا هو التبدل •••

– ما لهذا من قيمة • سوف يُنتحر الكذب . ان الذى يريد الوصول
الى الحرية القصوى ، فعليه أن يملك الشجاعة اللازمة للاتحار • والذى
يملك الشجاعة اللازمة للاتحار ، فسوف ينفذ الى سر الخدعة • ليس ثمة
حرية أعلى • كل شيء ينوى هنا ، وليس وراء هذا شيء • من يجرؤ أن
ينتحر فهو هو الله • كل انسان يستطيع الآن أن يجعل أن لا يكون ثمة اله ،

وأن لا يكون ثمة شيء • ولكن أحداً لم يفعل ذلك فى يوم من الأيام حتى الآن •

- غير أن ملايين الناس قد انتحروا مع ذلك •

- ولكن لأسباب أخرى دائماً • انتحروا دائماً برعب • لم ينتحروا أبداً لهذا السبب • لم ينتحروا أبداً لينحروا الرعب • ان الذى سيقتل نفسه من أجل أن يقتل الرعب فقط ، سيكون فى تلك اللحظة نفسها الهاء قلت :

- ولكن قد لا يملك الوقت اللازم لهذا •

فأجاب برفق وكبرياء هادئة ، وبما يشبه أن يكون احتقارا :
- لا ضير !

وأضاف بعد لحظة :

- يؤسفنى أن يبدو عليك أنك تضحك .

- وأنا يدهشنى أن أراك الآن هادئاً هذا الهدوء ، بينما كنت فى الصباح غاضباً حاققاً •

قال وهو يتسهم :

- هذا الصباح ؟ كان هذا الصباح مضحكاً جداً • أنا لا أحب أن أتساجر •

- ثم أضاف فى أسى وكآبة :

- ولا أضحك أبداً •

- نعم ، ليست ليالك مرحلة •

ونفضت وتناولت قبعته لأنصرف •

فسألنى وهو يتسهم ابتسامة فيها شيء من دهشة :

- أهذا ما تراه ؟ لماذا ذلك ؟ ... لا ... لا أدرى ..

وأمسك عن الكلام مضطرباً متحيراً على حين فجأة • ثم أضاف :

- لا أدري كيف تجرى أحوال الآخرين ، وأشعر أنني لا أستطيع أن أكون كسائر الناس • جميع الناس يفكرون في شيء ، ثم ينتقلون فوراً الى التفكير في شيء آخر • أما أنا فلا أستطيع أن أفكر في غير هذا • أنا أفكر في شيء واحد طوال حياتي • طوال حياتي عذبتني فكرة الله •

بهذا ختم كلامه فجأة باندفاعه صدق غريب •

- اسمح لي أن أسألك : لماذا لا تتكلم اللغة الروسية سليمة ؟ أترك نسيها أثناء غيابك في الخارج خمس سنين ؟

- هل لفتي غير سليمة ؟ لا أدري ! لا ، لم أفس أثاء غيابي في الخارج ! هكذا كنت أتكلم طول حياتي !... يستوى عندي !

- سؤال آخر قد يكون أكثر إحراجاً : انني أصدقك حين تقول انك لا تحب أن ترى الناس ، وانك لا تكلمهم الا قليلاً • فلماذا كلمتني أنا في هذا المساء مختاراً راضياً ؟

- أنت ؟ في هذا الصباح ، كان وضعك حسناً جداً ، وانك ... ما لهذا من قيمة على كل حال • انك تشبه أخى كثيراً ، كثيراً جداً ، تشبهه شَبهاً خارقاً • لقد مات منذ سبع سنين • هو أخى الأكبر • نعم • تشبهه كثيراً •

- لا بد أن تأثيره في تفكيرك كان كبيراً •

- لا ، كان يتكلم قليلاً • كان لا يقول شيئاً • سأوصل رسالتك الى شاتوف •

وشيعني حتى الباب الكبير ، وهو يحمل فانوساً ، وذلك ليفلق الباب • قلت لنفسى جازماً « انه مجنون • هذا واضح لا ريب فيه ! » • وهذا لقاء آخر يفاجئني لحظة خروجي •

ما ان اجتزت الباب حتى أمسكتني يدٌ قوية من صدرى • وزأر
صوت يسأل :

- من هنا ؟ أصدق أم عدو ! هيّا اعترف !

فصرخ صوت حاد عرفت فيه صوت ليوتين ، صرخ يقول :
- هو من أصحابنا • انه السيد « ج • • • ف » ، شاب تثقف ثقافة
كلاسيكية ، واستقبل في أرقى مجتمع •

- آ • • • هذا ما يعجبني • • • اذن تثقف ثقافة كلاسيكية • • • أنا
الكاتب المتقاعد اجناس ليادكين ، في خدمة الناس جميعا والاصدقاء • • •
اذا كانوا أوفياء • • • اذا كانوا أوفياء ، هؤلاء الأوغاد !

كان الكاتب ليادكين ، وهو رجل طويل القامة بدين الجسم سمين ،
أجمع الشعر ، أحمر الوجه ، كان قد بلغ غاية السكر ، حتى انه لا يكاد
يستطيع الوقوف ، ولا يكاد يستطيع النطق الا في كبر من الغباء • وقد
سبق أن أتاحت لي فرصة رؤيته من بعيد •

وحين التفت الكاتب فلمح كيريلوف الذي كان لا يزال واقفا هناك
وبيده الفانوس ، أعول يقول من جديد :

- آ • • • وهذا هو الآخر • • •

ورفع قبضة يده على المهندس ، لكنه لم يلبث أن أنزلها قائلا :

- انتى أعفو عنك ، لأنك عالم • اجناس ليادكين ، أتقف رجل

بين • • •

في صدر اجناس
توقد الحب ، تحطم القلب
وكان يتطوع الذراع ، من حرب سياستوبول
فعاد يبكي ذراعه

وددم يقول لي وهو يقرّب مني وجهه المتورد من السكر : « أنا لم
أكن في سياستوبول * ، لا قُطعت ذراعي • ولكن ما أجملها أشعاراً !
وتدخل ليوتين يقول له :

— لا يتسع وقته ، لا يتسع وقته • انه عائد الى بيته • سيقص غدا
كل شيء على ليزافتا نيقولايفنا :

فصاح السكران من جديد قائلاً :

— ليزافتا ...

ثم قال لي :

— اسرع • لا تتحرك . هذه أبيات أخرى من الشعر :

تلو على حصانها كنجة
بين صويحاتها الفارسات
ومن على فرسها الجميل
تبعث لي البسمة تلو البسمة
فتاتي الفاتنة النبيلة

وتابع كلامه :

— عنوان القصيدة « الى الفارسة النجبة ! » . أليس هذا نشيدا
جميلاً ؟ هو نشيد جميل ، الا أن تكون أنت حماراً . ان هؤلاء الأغبياء
لا يفهمون شيئاً .

ثم صاح يقول وهو يتمسك بمعطفي رغم جميع ما أبذل من جهود
لأقلت منه :

- قف ! قل لها اننى فارس الشرف ، أما دأشا ... أما تلك
« الدأشا » فسوف أمسكها بين أصبعين ... ما هذه الأعدة ، وما ينبغى أن
تسمح لنفسها بأن ...

قال هذه الكلمات وسقط ، لأننى استطعت أن أترع نفسى من بين
يديه • وهربت يتبعنى ليوطين •

- سوف ينهضه ألكسى نيلتش • هل تدرى ماذا علمت منه الآن ؟
كذلك قال بصوت لاهت • وتابع كلامه :

- هل سمعت تلك الأبيات من الشعر ؟ فاعلم أنه قد وضعها فى ظرف
وأنه سيرسلها غدا موقعة باسمه الى ليزافنا نيقولايفنا ؟ ما رأيك ؟
- أراهن أنك أنت الذى دفعته الى هذا •

- سوف تخسر الرهان • انه مولّه حبا بها . وهل تعلم ؟ لقد بدأ
حبه هذا بكره . كان فى البداية يكرهها كرها شديدا بسبب نزعاتها على
الحصان ، حتى لقد أوشك أن يشتمها فى الشارع . بل انه قد أهانها أمس
الأول بينما كانت مارة • من حسن الحظ أنها لم تسمعه • وها هو ذا
اليوم يرسل اليها أشعارا • هل تعلم أنه يريد أن يجازف بنفسه فيعرض
عليها قلبه ويده ؟ فعلا ! فعلا !

صرخت أقول غاضبا :

- عجب أمرك يا ليوطين ! انك تدور دائما حول أوباش من هذا
النوع ، فتعرضهم وتوجههم •

- انك تبالغ يا سيد « ج • • • ف » ؟ أليس قلبك هو الذى يرتجف
خوفاً من تصور وجود منافس لك ؟ هه ؟

هتفت أقول وأنا أتوقف فجأة :

- ماذا ؟

- طيبُ . مادام الأمر كذلك ، فانتى سأعاقبك فلا أحكى لك بعد اليوم شيئاً . ومع ذلك ، لو عرفت ما قد أقصه عليك ، لاحترقت شوقاً الى سماعه ! اعلم مؤقتاً أن هذا النقي ليس الآن مجرد كاتب محال على التقاعد بل قد أصبح من مالكي الأطيان ، بل ومن كبارهم ، لأن نيقولاى فسيفولودوفتش باعه أرضه منذ قليل ، وهى تقدّر فى الحساب القديم بمائتى نفس . لست أكذب . شهد الله أننى صادق . لقد عرفت هذه الحقيقة من مصدر موثوق تماما . والآن حاول أن تدبّر أمرك بنفسك : لن أقول بعد اليوم شيئاً . الى اللقاء .

كان ستيفان تروفيموفتش ينتظرني وقد نفذ صبره على نحو يكاد يكون هسترياً . كان قد رجع الى البيت منذ ساعة . فوجدته في حالة غريبة حتى اننى ظلمت ، مدة خمس دقائق على الأقل ، أظن أنه سكران . مسكين ! ان زيارته لآل دروزدوف قد أجهزت عليه .

- « يا صديقي » (بالفرنسية) ... ماذا أقول لك ؟ لقد فقدت ترابط أفكارى تماماً ... ليزا ... ما زلت أحب وأقدر هذه الملاك كما كنت أحبها وأقدرها في الماضي ؛ نعم ، كما كنت أحبها وأقدرها في الماضي . ولكن يخيّل الى أنهم كانوا لا يتظروننى الا ليعلموا منى شيئاً ما ، أى - ببساطة - ليستدرجونى الى الكلام ، ثم ... بارك الله فيك ! ... مع السلامة ! نعم ، هذه حقيقة الأمر !

صحت أقول نافذ الصبر :

- كيف لا تستحى ؟

- يا صديقي ، أنا الآن وحيد تماماً . « الخلاصة .. أمر مضحك » (بالفرنسية) . تصوّر : هناك أيضاً كل شيء محشوّ أسراراً ! سرعان ما أخذن يمطرتنى بوابل من الأسئلة عن حكايات الأنوف والآذان تلك ، وكذلك عن أحداث سرية وقعت ببترسبرج . ذلك أنهن في الواقع ، لم يسمعن الا الآن عن الحوادث التى أنارها هنا نيقولاى منذ أربع سنين . قلن يسألننى : « كنت أنت حاضراً ، فرأيت كل شيء ، فهل صحيح أنه مجنون ؟ » . من أين جاءتهن هذه الفكرة ؟ حقاً اننى لا أفهم . لماذا تصرّ براسكوفيا هذه ، لماذا تصر هذا الاصرار كله على أن يكون نيقولاى

مجنونا ؟ انها تحرص على ذلك ، تحرص عليه حرصا مطلقا . وهذا المافريكى ... ما اسمه ؟ ... نعم ... مافريكى يقول لا يفش ... » انه رجل شهيم على كل حال ، (بالفرنسية) ... أياكون هذا من مصلحته ؟ ... ولكنها هى التى كانت البادئة فى الكتابة من باريس الى « هذه الصديقة المسكينة » (بالفرنسية) . الخلاصة : ان براسكوفيا ، كما تسميها « الصديقة المسكينة » ، هى نموذج غريب من البشر ، انها انها كوروبوتشكا * الخالدة التى صورها جوجول ، ولكنها كوروبوتشكا شريرة ، كوروبوتشكا مشاجرة مقاتلة قد تضخمت تضخما كبيرا .

- هى اذن صندوق حقيقى ؟ أهى مضخمة الى هذا الحد فعلا ؟

- طيب ... لنسلم بأنها أصغر من كوروبوتشكا أيضا . ما قيمة هذا ! ولكن لا تقاطعنى . ان رأسى يدور . الصلات بينهما سيئة جدا ، باستثناء ليزا : فهذه ما تزال تكرر : « عمتى ، عمتى ... » . ولكن ليزا مأكرة ، وان وراء ذلك لسرا خفيا . أسرار ! أما مع العجوز فالشقاق قائم . هذه « العممة » المسكينة تسوم الجميع سوء العذاب حقاً ... ثم هناك امرأة الحاكم أيضا ، والمجتمع المحلى الذى لا يسدى قدراً كبيراً من الاحترام ، وهناك « قلة أدب » كارمازينوف ؛ وهناك عدا ذلك أيضا ، تلك الآراء عن جنون نيقولاى ، وهناك هذا ال « ليوتين » ... « أمر لا أفهمه » (بالفرنسية) ... و ... ويقال انها تضع كمائدات خل على رأسها . ثم هناك نحن ، أنا وأنت ، وشكاياتنا ورسائلنا . أواه ! ما أكثر ما عذبتها ! وفى فترة كهذه الفترة ! « اننى عقوق » (بالفرنسية) . تصور : لقد عدت الى البيت فوجدت رسالةً منها ، اقرأها ، اقرأ ! آه ... ما كان أقل سماحتى وكرمى تجاهها !

مدّ الى الرسالة التى وصلته من فرفارا بتروفنا . يظهر أن فرفارا

بتروفا قد أحزنها أن قالت له : « ابق في بيتك » • فهامى ذى تبعث إليه رسالة مهذبة رقيقة ، وان تكن موجزة وقاطعة : انها تطلب من ستيفان تروفيموفتش أن يجيئها غداً غد ، يوم الاحد ، ظهراً ، وتنصحه بأن يصطحب أحد أصدقائه (وقد ذكرت اسمى بين قوسين) ؛ وتعد بأن تدعو من جهتها شاتوف بصفته أخا داريا بافلوفنا • « سوف يمكنك أن تحصل منها على جواب قطعى • هل يكفيك هذا ؟ أهذا هو الاجراء الشكى الذى كنت تحرص عليه ذلك الحرص كله ؟ » •

- لاحظ هذه الجملة الغاضبة التى ترد فى نهاية رسالتها عن « الاجراء الشكى » • مسكينة ، مسكينة ، صديقة عمى كله ! اننى أعترف بأن القرار المبالغ الذى يحدد مصيرى قد سحقنى سحقاً ان صح التعبير ... كنت ما أزال أحتفظ ببعض الأمل • أعترف لك بذلك • أما الآن فقد انتهى كل شئ • أنا أعلم أن قد انتهى كل شئ • « شئ فظيع ! » (بالفرنسية) • آه ... لبت يوم الاحد هذا لا يحين أبداً ، لبت فى الامكان أن تجرى الأمور كما كانت تجرى فى الماضى : تظل أنت تجيء الى هنا ، وأظل أنا ...

- ان الدناءات التى يرويها ليويتين والنمائ الكاذبة التى يلفقها هى ما أدخل الاضطراب والبلبله فى نفسك •

- يا صديقى ، لقد وضعت اصبعك الآن ، اصبعك الصديقة ، على نقطة أخرى موجعة أليمة • ان الأصابع الصديقة هى على وجه العموم قاسية لا ترحم ، بل قد تنقصها البقاة والكياسة فى بعض الاحيان • سامحنى • ولكن تصور أننى كنت قد نسيت هذا كله تقريباً ، كنت قد نسيت كل هذه الدناءات • أو قل اننى لم أنسها ، ولكننى لنساوتنى كنت أحاول طوال مدة بقائى عند ليزا أن أكون سعيداً ، وكنت أقنع نفسى بأننى

سعيد • والآن آه الآن أفكر فى تلك المرأة التى بلغت ذلك المبلغ كله من الكرم والتسامح والصبر تجاه عيوبى الكريهة ! الحق أنها ليست على قدر كبير من الصبر • ولكن هل يجوز لى أن أتشكى من ذلك أنا السىء الطبع ؟ أنا الذى أُنسب الطفل بكثرة التزوات وشدة الأنانية ولكن دون أن أملك ما يملك الطفل من براءة ! انها تغنى بأمرى وتسهر على شئونى منذ عشرين عاما كخادمة ، هذه « العمة المسكينة » (بالفرنسية) كما تطلق عليها ليزا هذا اللقب بكثير من الخفة والرشاقة وها هو ذا الطفل ، بعد عشرين عاما ، يريد أن يتزوج • انه يطالب بتزويجه • انه يكتب الرسالة تلو الرسالة ، بينما هى ترش رأسها بالخل وها هو ذا يبلغ هدفه : ففى يوم الأحد سأكون رجلاً متزوجاً • ما كان أغنانى عن الالاح ؟ لماذا كتبت تلك الرسائل كلها ؟ نعم ، نسيت أن أقول لك : ان ليزا تحب داريا ايفانوفنا حب العادة • أو هذا ما تقوله على الأقل • هى تقول عنها : « هذه ملاك (بالفرنسية) ولكنها ملاك منطوٍ على نفسه • • • • • لقد نصحتانى كلاهما ، حتى براسكوفيا نصحتنى لا ، لم تنصحنى براسكوفيا • • آه ! ما أكثر ما فى نفس الـ «كوروبوتشكا» من سم ! على كل حال ، اذا شئنا الدقة ، وجب أن نقول ان ليزا لم تنصحنى أيضاً ، وانما قالت لى : « ما حاجتك الى الزواج ؟ ان لديك متعاً عقلية كافية ! » ، وضحكت • • لقد غفرت لها هذا الضحك ، لأن قلبها هى ليس هادئاً كذلك • قالتا لى : ليس فى وسعك مع ذلك أن تستغنى عن امرأة • ان سن الأمراض والعجز قد اقتربت ، فسوف تُغنى بأمرى وتسهر على علاجك • هذا ما يحسن أن يُقال • يمينا انتى منذ اجتمعنا هنا نحن الاثنين ، لم أقطع عن أن أحدث نفسى بأن العناية الالهية هى التى ترسلها الىّ فى مغرب حياتى العاصفة ، وأنها ستسهر على العناية بى كما يقال

وسوف تنفعنى فى مسكنى على كل حال • انظر الى هذه الفوضى ! ما من شيء فى مكانه ! لقد أمرت فى هذا الصباح بترتيب الغرفة • فانظر الى هذا الكتاب الملقى على الارض ! لطالما استاءت « صديقتى المسكينة » (بالفرنسية) من الوساخة فى بيتى ••• واأسفاه ! بعد الآن لن يدوى صوتها هنا ! « عشرون عاما » (بالفرنسية) • و ••• هنّ أيضا قد تلقين ، فيما أعتقد ، رسائل لم يوقعها مرسلوها • تخيل هذا ! يؤكد الناس أن نيقولاى قد باع ليادكين أرضه • « هذا انسان شاذ عجيب ! » (بالفرنسية) • ثم ما ليادكين ؟ ان ليزا تصنى ، وتصنى ! آه ••• ما أكثر ما تصنى ! لقد غفرت لها ضحكها • رأيتُ بأى وجه كانت تصنى • ومافريكى ذاك ••• لست أتمنى الآن أن أكون فى مكانه •• « هو رجل طيب على كل حال » (بالفرنسية) ، لكنه خجول قليلا • مهما يكن من أمر ، فلياركة الله •••

وصمت • انه الآن متعب مرهق حائر ؛ وظل جالسا فى مكانه خافض الرأس مطرقاً بعينه الكليلتين الى الأرض • فانتهزت فرصة صمته لأخص عليه زيارتى لعامة فيليوف موجزاً ، وعبرت له باقتضاب وبخشونة عن رأيى فى أن أخت ليادكين (التى لم أرها على كل حال) من الجائز أن تكون سقطت ضحيةً بين يدى نيقولاى على نحو من الأنحاء فى فترة عجيبة خفية من فترات حياته ، كما قال ليوتين ، وان من الممكن جدا أن يكون ليادكين يتلقى مالا من نيقولاى لهذا السبب • ولا شيء غير هذا • أما الشائعات المنتشرة عن داريا بافلوفنا ، فما هى الا أقوال كاذبة ، ونمائم لفقها هذا الوغد الدنيء ليوتين ، فذلك ما يؤكدك ألكسى نيلش بحماسة وحرارة ، ولا داعى الى تكذيبه البتة •

كان ستيفان تروفيموفتش يصفى الى ذاهل الهيئة ، كأن أقوالى لا تمت اليه بصلة من الصلات ، وليس له بها علاقة • وذكرت أيضا حديثى

مع كيريلوف ، وأضفت قائلاً ان كيريلوف ربما كان مجنوناً • فقال
ستيفان تروفيموفتش برخاوة ، كأننا على مضض :

- ليس مجنوناً ، ولكنه من أولئك الناس الذين لهم آراء محدودة •
« يتصورون الطبيعة والمجتمع الانساني على غير ما خلقهما الله ، وعلى غير
ما هما في الواقع » (بالفرنسية) • ان بعض الناس يمدحونهم ويتملقونهم •
ولكن ستيفان فرخوفنسكى لن يفعل ذلك ! لقد رأيتهم بطرسبرج في
الماضي ، مع هذه « الصديقة العزيزة » (بالفرنسية) (آه ... لشد ما كنت
جارحاً في معاملتها !) ، فلم تخفني شتائمهم ، لا ولا مدائحهم • وسيبقى
الامر على هذا النحو دائماً • ولكن دعنا من هذا ولتتكلم في شيء آخر ...
أظن أنني ارتكبت حماقات فظيمة : تصوّر اننى بعثت أمس رسالة الى
داريا بافلوفنا • انى لألعن نفسى الآن لأننى بعثت اليها تلك الرسالة •

- ماذا قلت في تلك الرسالة ؟

- صدّق يا عزيزى أن نيتى كانت من أكرم النيات • أبلغتها اننى
كُتبت رسالة الى نيقولاى قبل خمسة أيام ، بنية نبيلة كل النبل كذلك •
صحت قائلاً فى غضب :

- الآن فهمت • كيف يجوز لك أن تقرن بين اسميهما هكذا ؟

- لا تحطمنى تحطيماً يا عزيزى ، لا تصرخ فى وجهى هذا
الصراخ • اننى بدون ذلك مهشّم منذ الآن كما يُهشّم ... صرصور !
ثم انى أعتقد أن تصرفى كان نبيلاً كل النبل • لتصور أن شيئاً بينهما قد
حدث فعلاً • فى سويسرا • بل وأنه لم يكن ثمة الا بداية • أفلا
يكون من واجبي أن أسأل قليهما قبل كل شيء • وذلك حتى لا أتعرض
لسدّ الطريق أمامهما اذا • لقد كانت نيتى نبيلة •

- يا الهى ! ما أغبى هذا التصرف !

أسرع ستيفان تروفيموفتش يوافقنى قائلاً :

- نعم ، هو تصرف غبى . لم تقل كلمةً أُصدق من هذه الكلمة .
« كان تصرفى غيباً ، ولكن ما العمل ؟ لقد فعلت وانهى الامر ! »
(بالفرنسية) . سأتزوج رغم كل شيء ، ولو كان علىَّ أن أُعطى « خطايا
الغير » . ما كانت حاجتى الى الكتابة ؟ أليس كذلك ؟

- أعود أيضاً الى هذه الفكرة ؟

- أوه ! لن يخيفنى صراخك . ان أمامك الآن ستيفان فرخوفنسكى
آخر . ان ستيفان فرخوفنسكى الذى كنت تعرفه قد دُفِن . « انتهى
الأمر » (بالفرنسية) . ولماذا تصرخ ؟ لا لسبب سوى أن الذى سيتزوج
وسيزدان رأسه بقرنين ليس أنت . هل ساءك هذا الكلام من جديد ؟
يا صديقى المسكين ، انك لا تعرف المرأة . أما أنا فلم أفعل شيئاً غير
دراسة المرأة . « اذا أردت أن تتصر على العالم بكامله ، فاتصر على
نفسك » . ذلك هو الشيء الوحيد الذى أحسن قوله شاتوف «أخو زوجتى،
وهو رومانسى آخر من نوعك » . يسرنى أن أستمع منه هذه القاعده
الحكيمة . فهأنذا مستعد لأن أتصر على نفسى فأتزوج . فما الذى سأصل
اليه بدلا من أن أغزو العالم ؟ يا عزيزى ، ان الزواج موت روحى لكل
نفس مستقلة ذات كبرياء . الزواج سوف يحللنى ويفسدنى ، سوف
يحرمنى من القدرة والطاقة ، سوف يحرمنى من الهمة اللازمة لتحقيق
مهمتى . سيكون لنا أولاد . وأكثر من ذلك أن هؤلاء الاولاد قد لا يكونون
منى أنا . ماذا أقول ؟ بل انهم لن يكونوا منى حتما . ان الرجل الحكيم
لا يخشى أن ينظر الى الحقيقة مواجهةً . لقد نصحنى ليوتين بأن أبني
سدوداً لأحمى نفسى من نيقولاى . ان ليوتين رجل أحقق . فالمرأة
قادرة على أن تخادع حتى عين الله التى ترى كل شيء . حين خلق الله

المرأة فقد كان يعرف حتما ما ينبغي له أن يتوقعه • ولكننى على يقين من أن المرأة قد تدخلت هى نفسها فى خلقها ، فأجبرت الله على أن يخلقها كما هى الآن ••• بكل صفاتها وخصائصها • والا فمن ذا الذى يقبل أن يهىء لنفسه متاعب كهذه المتاعب بغير ضرورة ؟ أنا أعلم أن ناستاسيا ستفضيها منى هذه الآراء الجريئة ••• ولكن « انتهى الامر » (بالفرنسية) •

ما كان لستيفان تروفيموفتش أن يكون ستيفان تروفيموفتش نفسه لو أنه استطاع أن يقاوم اغراء هذا النوع من الأمازيح والألاعيب اللفظية التى كانت شائعة شيوعا كبيرا بين أحرار التفكير فى زمانه • غير أن ذلك لم يدم مدة طويلة • فقد اكتفى من تلك الأمازيح والألاعيب اللفظية بما قال ، ثم اذا هو يصرخ قائلاً وقد بلغ ذروة الكرب فى هذه المرة :

— آه ••• ليت يوم الاحد لا يحين أبدا • لماذا يستحيل أن يوجد أسبوعٌ بغير يوم أحد ، ولو مرة واحدة ، « اذا كان ثمة معجزة » ؟ (بالفرنسية) • لن يصعب على العناية الالهية مع ذلك أن تلغى من التقويم يومَ أحدٍ لتبرهن على قوتها للملاحة ، و « ليتهى الأمر » ! آه ••• لكم أحييتها ! عشرون عاما ! خلال عشرين عاما ! ولم تفهمنى فى يوم من الأيام !

سأله مدهوشاً :

— ولكن عمّن تتكلم الآن ؟ أنا أيضا أصبحت لا أفهم عنك •

— « عشرون عاما » (بالفرنسية) • ولم تفهمنى مرة واحدة ! آه ••• ذلك قاس • أهى تصور حقا أنني أتزوج عن خوف ، حتى لا أكون فى عوز وفاقة ؟ آه ••• هذا عار ! عمتاه ! عمتاه ! أنا من أجلك انما ••• ألا فلتعلم هذه العمّة أنها المرأة الوحيدة التى أحييتها حب العبادة طوال حياتى ! عشرون عاما ! يجب أن تعلم ذلك ، والا فلن يتم شيء ، وسوف

يكون عليهم أن يستعملوا القوة ليجروني فيضعوا رأسي تحت «مايسمونه»
(بالفرنسية) اكليل الزواج •

تلك أول مرة أسمع فيها هذا الاعتراف ، وأسمعه بالفاظ فيها كل
هذه القوة القاطعة • لا أكتكم اننى قد استبدت بى رغبةً فى الضحك
لا تقاوم ولا تغالب • لكننى أخطأت •

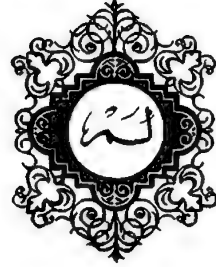
هتف يقول فجأة وهو يضم يديه احدهما الى الاخرى كمن فجأته
فكرة جديدة :

- لم يبق لى الآن أحد غيره ! هو أملى الوحيد • وحده يستطيع بعد
اليوم أن ينقذنى ، ابنى الصغير المسكين ! ولكن ... آه ... لماذا تأخر ؟
آه ، يابنى ! حييتى بتروشكا ! رغم اننى لا أستحق أن أسمى أباً
بل نمرأ ، فانتى ... « اتركنى يا صديقى » (بالفرنسية) • سوف أضطجع
قليلاً لأستجمع أفكارى • أنا مكدود جداً ، جداً ! ... ومن جهة أخرى
يخيل الى أن قد آن لك أنت أيضاً أن تمضى الى النوم • أترى ؟ لقد
اتصف الليل ...

الفصل الرابع

العرجاء

١



يكن شاتوف عنيدا في هذه المرة : لقد لبي الرجاء
الذي أعربت له عنه في رسالتي ، فجاء في ظهر
الغد الى عند ليزافتا نيقولايفنا . وصلنا في وقت
واحد تقريبا . هذه زيارتي الأولى للسيدة
دروزدوف وابنتها . كانت ليزافتا نيقولايفنا وابنتها ومافريكي نيقولايفتش
جالسين في الصالون الكبير يتناقشون . كانت السيدة دروزدوف قد طلبت
من ابنتها أن تعزف لها على البيانو لا أدري أى لحن من ألحان الفالس .
ولكن حين أخذت ليزايفنا تعزف أعلنت الأم أن هذا اللحن ليس هو اللحن
المطلوب . ولبساطه وسذاجته ، تحيّر مافريكي نيقولايفتش للفتاة ، فأكد
أن اللحن الذي عزفته هو بعينه الفالس الذي طلبته الأم . فاغتازت
براسكوفيا ايفانوفنا ، وأخذت تبكي من شدة الغضب : كانت ساقاها
متورمتين ، وهى منذ بضعة أيام كثيرة النزوات والأخيلة ، سريعة الى
المشاجرة ، تختصم مع الجميع وان تكن ليزا تخيفها دائما .
سُرّوا برؤيتنا سرورا عظيما . واحمرت ليزا غبطة وابتهاجا ،
وابتهاجا ، وقالت لى « شكرا » (من أجل شاتوف طبعا) ومضت نحوه
تنظر اليه مستطلعة .

وقف شاتوف على العتبة وقد بدا عليه الارتباك ، وظهرت في هيئته
الخرافة • وشكرت له ليزا مجيئه ، وقادته الى قرب أمها •

- هو السيد شاتوف الذى حدثتك عنه • وهذا هو السيد «جـ.ف»
الصديق الحميم لستيفان تروفيموفتش ، وصديقى أنا أيضا • لقد تعرف
مافريكى نيقولا يفتش اليه أمس •

- أيهما أستاذ ؟

- ما من أحد منهما أستاذ يا ماما •

- بلى • أنت نفسك قلت لى ان أستاذا سيأتى إلينا اليوم •

ثم أضافت تقول وهى تشير الى شاتوف مشمزة الهیئة :

- لا شك أن الاستاذ هو هذا •

- لم أقل لك أبدا ان أستاذا سيأتى إلينا اليوم • ان السيد «جـ.ف»

موظف ، والسيد شاتوف طالب سابق •

- طالب أو أستاذ ... المهم أنه من الجامعة • انك لا تسمعين الا

للمجادلة والناقشة • ان الذى رأيناه فى سويسرا كان له شارب ولحية

صغيرة •

قالت ليزا :

- ان ابن ستيفان تروفيموفتش هو الذى تسميه ماما دائما باسم

الاستاذ •

ثم اقتادت شاتوف الى الطرف الآخر من الصالون حيث جلسا على

كبة •

ودمدت تقول لشاتوف وهى ما تزال تنفرس فيه مستطلعةً ، وتنظر

خاصة الى شعره المتناثر خصلاً :

- حين تتورم ساقاها تصبح دائما على هذه الحال • انها مريضة •

سألتى المجوز التى تركنى لها ليزا بغير رحمة أو رأفة :

- أأنت عسكرى ؟

- لا ، اننى أعمل فى ...

فتدخلت ليزا على الفور قائلةً :

- ان السيد « ج ••• ف » صديق حميم لستيفان تروفيموفتش •

- أأنت تعمل فى خدمة ستيفان تروفيموفتش • هو أيضا أستاذ •

أليس كذلك ؟

صاحت ليزا تقول غاضبة :

- أوه ! ماما ! انك لا تحلمين ليلا ولا نهارا الا بأساتذة !

- يكفينى الذين أراهم وأنا يقضى فى النهار • انك لا تفكرين الا

فى معارضة أمك • هل كنت هنا ، منذ أربع سنين ، أثناء اقامة نيقولاى

فسيفولودوفتش ؟

فأجبت بأننى كنت هنا فعلاً •

- هل كان معك رجل انجليزى •

- لا ، لم يكن ثمة رجل انجليزى •

أخذت ليزا تضحك • فقالت الأم :

- هيه ! أرايت أنه لم يكن ثمة رجل انجليزى • لم يكن ذلك اذن

الا كذباً • ان فرافارا بتروفا وستيفان تروفيموفتش يكذبان • هم جميعا

يكذبون على كل حال •

- ان عمتى وستيفان تروفيموفتش قد وجدا شيئاً من التشابه بين

نيقولاى فسيفولودوفتش والأمير هارى فى مسرحية هنرى السرايع التى

ألفها شكسبير • وها هي ذى ماما تقول الآن ان حكاية وجود ذلك
الانجليزى كذب •

اذا لم يوجد هارى هنا ، فمعنى ذلك أنه لم يكن ثمة رجل انجليزى ،
وأن نيقولاى فسيفولودوفتش كان وحده يؤلف مهازل •

وجدت ليزا أن من الضروري أن تشرح لشاتوف فقالت له :

- أؤكد لك أن ماما تفعل هذا عامدة • انها تعرف من هو شكسبير •
وقد قرأت لها بنفسى الفصل الأول من مسرحية عطيل • ولكنها الآن
مريضة جدا • ماما ! اسمعى • دقت الساعة الثانية عشرة • هذا وقت
تجرعك الدواء •

ودخلت الخادمة تعلن :

- وصل الطيب •

فنهضت السيدة المجوز ، وجعلت تنادى كلبها : « زيميركا ، زيميركا ،
أنت على الأقل ستأتى معى ! » •

ولكن زيميركا ، وهو كلب هرم خبيث ، رفض أن يطيع ، واندس
تحت الكنبه حيث كانت ليزا جالسة •
قالت السيدة مخاطبة الكلب :

- ألا تريد أن تأتى ؟ طيب ! لست فى حاجة اليك •

ثم التفتت الى وقالت :

- الى اللقاء أيها السيد • اننى لا أعرف اسمك ولا اسم أهلك •

- أنظون لافرتيفتش •••

- لا قيمة لهذا عندى • ان ما يدخل من احدى الأذنين يخرج من
الأخرى • لا تراقبنى يا مافريكى نيقولايفتش • أنا لم أناد الا زيميركا •

الحمد لله على اننى ما زلت أستطيع أن أمشي وحيدة ، وغدا سوف أمضي
أتنزه •

وخرجت ساخطة أشد السخط •

قالت ليزا وهى تبسم لمافريكى نيقولايفتش ابتسامة فيها كثير من
الصدافة ، حتى لقد أشرق وجه الشاب سرورا بنظرة الفتاة اليه :

- يا أنطون لافرتيفتش ، تحدث قليلا مع مافريكى نيقولايفتش ،
بانتظار أن نفرغ نحن من حديثنا • أؤكد لكما أنكما كليكما ستجنيان خيرا
من مزيد من التعارف بينكما •

لم يبق لى من حيلة : بقيت أتحدث مع الضابط •

ما كان أشد دهشتي حين تأكدت من أن الغرض الذي استدعت الفتاة من أجله شاتوف إنما يتعلق بالأدب فعلا ! كنت قد تخيلت ، لا أدري لماذا ، أنها كانت تهدف الى غاية أخرى حين استدعته . فحين لاحظنا أنا ومافكريكي نيقولايفتش أنهما يتكلمان بصوت عال ، ولا يخطر ببالهما أن يتخاطبا في السر ، أخذنا نصغى إليهما ، وسرعان ما اتجها هما إلينا يسألاننا النصيح في أمر المشروع الذي تعرضه ليزافتا نيقولايفتا : كانت ليزافتا نيقولايفتا قد تخيلت اصدار كتاب ترى أنه مفيد جدا ، لكنها في حاجة الى معاون لافتقارها الى الخبرة . وقد أدهشتني اللهجة الجادة التي أخذت تشرح بها خطتها لشاتوف . فقلت لنفسي : « هذه فتاة متطورة . لم تذهب أقامتها بسويسرا هدرًا » . وكان شاتوف يصغى إليها بانتباه ، مطرقاً الى الأرض ، ليس يدهشه فيما يبدو أن يرى فتاة من المجتمع الراقى ، فتاة لاهية غير مكترثة ، تهتم بأمور يلوح للمرء في الوهلة الاولى أنها لاتناسبها كثيرا .

اليكم المشروع الأدبي * الذي تفكر فيه ليزا : ان عددا كبيرا من المجلات والجرائد يُطبع بروسيا ، في الاقاليم وفي العواصم على السواء ؛ وهذه المجلات والجرائد تطلع قراءها على جميع الاحداث بانتظام ؛ وتمضي السنة وتتكوم الجرائد في الخزائن ، أو تُرمى ، أو تُمزق ، أو تصنع منها أكياس ، أو تستخدم في تغليف أشياء شتى . ان بعض الاحداث التي روتها المجلات والجرائد يكون قد أثار اهتمام الناس اثاره شديدة ، فاحتفظ الناس بذكراه ، لكن السنين تمر فينسونه . وان كثيرا من الأفراد يجوبون

بعد ذلك أن يتذكروا تلك الأحداث ، ولكن ما أصعب العمل في البحث بين تلك الأكوام من الأوراق عن أمر معين في موضوع حادثة خاصة وقعت لا ندرى أين ولا ندرى متى ! ... فاذا استطعنا أن نكتف في كتاب واحد جميع الوقائع التي حدثت خلال سنة كاملة ، مرتين إياها على الأيام والأشهر وفقاً لحطة موضوعة وفكرة موجهة ، مضيفين إليها فهرساً ودليلاً أبجدياً ، فإن كتاباً من هذا النوع سوف يصور السمات الأساسية للحياة الروسية خلال السنة المنصرمة ، ومع ذلك لا تكون هذه المعلومات قد اشتملت الا على جزء يسير من الوقائع .

- بهذا تحلين محلّ الجرائد والمجلات الكثيرة عددا من الكتب الضخمة ! ذلك كل شيء .

لكن ليزافنا نيقولايفنا ، رغم أنها لا تجيد التعبير عن أفكارها ، دافعت عن مشروعها بحرارة على علمها بالمصاعب التي ستعرض تنفيذ هذا المشروع . قالت : ليس الامر الا أمر كتاب واحد في مجلد واحد ، ولن يكون ضخماً ضخامة كبيرة . وهبنا اضطررنا أن نجعله أسمك ، فإن من الواجب أن يكون واضحاً على كل حال : ان كل شيء متوقف على الخطّة المرسومة ، وعلى طريقة عرض الوقائع . لن نستطيع طبعا أن نجتمع وننشر كل الوقائع . فالقرارات والمراسيم التي تصدرها الحكومة ، والقوانين والأنظمة المتعلقة بالادارات المحلية ، هذه كلها هامة جداً ، ولكن لا يمكن أن يكون لها مكان في الكتاب الذي أريد اصداره . يجب علينا أن نقصر اختيارنا على أحداث تميّز الحياة الروحية للشعب الروسي وتميّز شخصيته ، في هذه المرحلة بعينها خاصة . لا شيء يجب اهماله : الطرائف ، الحرائق ، التبرعات العامة ، الاعمال البطولية والاجرامية ، الخطب ، الفيضانات ، النخ ، وربما بعض قرارات الحكومة ، على شرط أن

لا نختار الا الأحداث التي تصوّر العصر ، نجعلها على نية محددة ، ونخضعها لفكرة موجّهة . فهذه الفكرة الموجهة ستلقى نورا على المجموع ، وتجعل منها كلاً مترابطاً . ثم ان هذا الكتاب ، عدا قيمته الوثائقية ، يجب أن يستهوى محبى القراءات الخفيفة أيضا . سوف يكون نوعا من لوحة كاملة تصوّر الحياة الروحية والاخلاقية فى داخل روسيا خلال عام . « يجب أن يشتريه جميع الناس . يجب أن يوجد هذا الكتاب على كل مائدة . انتنى أدرك أن كل شىء متوقف على المخطط ، ومن أجل ذلك انما أتوجه اليك وأستعين بك . » . كذلك قالت ليزا بحرارة . ورغم أن شروحها كانت غامضة وناقصة فقد بدأ شاتوف يفهم . فقال مدمدا وهو ما يزال خافض الرأس :

- سيكون للكتاب اذن اتجاه وميل . سيتم اختيار الوقائع والاحداث على أساس ميل معين .

- لا ، أبدا . يجب أن لا ننظر الى الامور من خلال رأى معين . لا داعى الى اتباع اتجاه محدّد . سيكون اتجاهنا الوحيد هو عدم التحيز .

قال شاتوف وهو ينصب جسمه قليلاً :

- ولكن اتباع اتجاه معين ليس بالأمر السىء الى هذا الحد . وانه لمن المستحيل على كل حال أن يستغنى المرء عن ميل معين استثناء تاماً ما دام يختار . ان اختيار الوقائع نفسه سيشير للقراء الى الطريقة التي يجب عليهم أن يفهموها بها . ليست فكرتك رديئة .

قالت ليزا سعيدة كل السعادة :

- أعتقد اذن أن مثل هذا الكتاب ممكن ؟

- يجب أن أدرس المسألة وأن أفكر فيها . هذا عمل ضخم . يستحيل

على المرء أن يرى جميع جوانبه فوراً • اننا تعوزنا الخبرة • وحتى بعد
اصدار المجلد الاول ، لن نكون قد علمنا أشياء كثيرة ولن تكون خبرتنا
قد اكتملت • ربما بعد عدة تجارب من هذا النوع • • ولكن الفكرة شائقة
هامة ، وهي نافعة مفيدة •

ورفع عينيه أخيراً ، فكأنا تلمعان ، وكان مقتونا •

وسألها أخيراً بلهجة فيها خجل وحنان معا :

– أأنت ابتكرت هذه الفكرة وحدك من تلقاء نفسك ؟

أجابت ليزا مبتسمة تقول :

– ليس ابتكار الفكرة أمراً صعباً • وإنما الصعب وضع المخطط • ان
أمورا كثيرة تفوتني • أنا لست ذكية جداً ، ولكنني لا ألاحق الا ما أراه
رؤية واضحة •

– تقولين « لا ألاحق » ؟

– لا شك أنني استعملت كلمةً بدلاً من كلمة ؟ أليس كذلك ؟

هكذا أسرع تسأله ليزا بحرارة • فأجابها بقوله :

– لا • الكلمة مناسبة • لم أشأ أن أقول شيئاً •

– حين كنت ما أزال في الخارج ، أقنعت نفسي بأنني أستطيع أنا
أيضاً أن أكون نافعة • أنني أملك مالا ، ولا أصنع به شيئاً • فلماذا
لا أكون قادرة على أن أساهم أنا أيضاً في العمل العام ؟ على أن الفكرة قد
جاءتني من تلقاء نفسها • لم أبحث عنها ، لم أسع إليها • لكنني سعدت
باكتشافها • ومع ذلك سرعان ما رأيت أنني لا أستطيع الاستغناء عن معاون
لأنني لا أجد القيام بعمل وحدي • طبعاً سيكون هذا المعاون شريكاً في
اصدار الكتاب • اننا نقسم اصدار الكتاب : فمنك المخطط والعمل ، ومنى
الفكرة الأولى والمال • ألا تعتقد أن ريع الكتاب سيغطي نفقاته ؟

- اذا أحسنا الاهتداء الى مخطط جيد فسوف يباع الكتاب .
- لاحظ أنتى لا أفعل هذا بنية الحصول على فوائد • ولكنى أتمنى أن يروج الكتاب رواجاً كبيراً ، وأن يعود علينا ببعض الربح •
- وأنا ما شأنى فى الامر ؟
- أنت المعاون الذى أدعوه الى مشاركتى فى اصدار الكتاب مناصفةً •
- أنت تضع المخطط •
- كيف عرفت اننى قادر على تخيل هذا المخطط •
- حَدَّثْتُ عَنْكَ • وهنا سمعت ••• اننى أعرف أنك ذكى جداً ، و ••• أنك تعمل ، وأنت تفكر كثيراً • كلمنى عنك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى فى سويسرا •••
- كذلك أسرع تضيف هذه الجملة الاخيرة • وتابعت كلامها تقول :
- انه رجل ذكى جداً ، أليس كذلك ؟
- شملها شاتوف بنظرة عجل ، وسرعان ما عاد يخفض عينيه •
- قالت ليزا :
- نيقولاى فيسولودوفتش ، هو أيضاً ، حدثنى عنك كثيراً •
- فاحمر وجه شاتوف فجأة •
- قالت ليزا وهى تتناول من على الكرسى حزمة من الجرائد كانت قد أعدتها ووضعتها هناك :
- اليك الجرائد على كل حال • لقد حاولت أن أتخير من بين الوقائع بعضها ، فأشرت اليه ووضعت له أرقاما ••• سوف ترى •
- تناول شاتوف حزمة الجرائد •
- خذها معك ، وادرسها فى بيتك • أين تسكن ؟
- عمارة فيليوف ، شارع ايبفانيا ؟

- اعرف • وهنالك أيضا انما يسكن ، فيما أظن ، رجل يسمى
ليادكين •

كذلك قالت ليزا متعجلة •

لبث شاتوف جالسا ، خافض العينين ، ممسكا حزمة الجرائد بيده ،
صامتا لا يجب خلال دقيقة كاملة • ثم قال بصوت منخفض انخفاضا غريبا
حتى ليكاد يكون متممة :

- الأفضل أن تختارى لمثل هذه الأمور شخصا آخر • أنا لن
أنفعل •

فاحمرت ليزا احمرارا شديدا ، ثم هتفت تقول :

- أى أمور تقصد ؟ يا مافريكى نيقولايفتش ، جئى من فضلك
بالرسالة التى وصلت منذ مدة قصيرة •
وتبع الضابط الى المائدة •

قالت مضطربة أشد الاضطراب وهى تلتفت نحوى فجأة وتفرض
الرسالة :

- انظر ! هل رأيت فى حياتك شيئا كهذا ؟ اقرأ الرسالة بصوت
عالٍ ، أرجوك • اننى فى حاجة الى أن يسمعها السيد شاتوف أيضا •
فقرأت الرسالة التالية مندهشا أشد الاندهاش :

الى الأنسة توشين الكاملة اعظم الكمال ،
الى المحترمة جدا ليزافتا نيقولايفنا !

آه ما أروعها
ليزافتا توشين ،
حين تعدو مع قريبها
على صهوة جوادها الكريم

فتلاعب الريح صفائر شعرها •
أو حين تسجد في الكنيسة
فيتخضب وجهها بجمرة حلوة •
عندئذ أتطلع الى أفراح الزواج المشروعة
واتابع آثارها بآليا ••
« نظمها جاهل أثناء مناقشة »

« سيدتى ،

« أكثر من أى انسان آخر ، يؤسفنى ويحزنتى أنتى لم أفقد ذراعا
فى سياستوبول ، لأنتى لم أكن فى سياستوبول يوما من الايام ، وانما
قضيت مدة الحرب أعمل فى مصلحة التموين الخسيسة ، وذلك ما أعده
صّارا • أنت الهة من آلهة الأساطير القديمة ، أما أنا فلست شيئا ، ولكننى
أحس سلفاً باللانهاية • اعتبرى هذا قصيدة ، فما هو أكثر من ذلك • وما
الشعر فى النهاية الا حماقة ، لكنه يسوّغ ما لو قيل ثرا لعدّ وقاحة •
هل يمكن أن تفضب الشمس من دوية الماء اذا خاطبتها الدوية بقصيدة
من قرارة قطرة الماء التى يكتشف فيها المكرسكوب عددا كبيرا من هذه
الدويات ؟ حتى نادى حماية الحيوانات * الكبيرة الذى أنشئ بطرسبرج ،
فى المجتمع الراقى ، رغم ما يشعر به من عطف على كلب أو حصان ،
وهو عطف فى محله ، انما يحتقر دوية الماء الرقيقة ولا يشير اليها أية
اشارة ، لأنها غاية فى الصغر • أنا أيضا فى غاية الصغر • وفكرة الزواج
يمكن أن تبدو سخيفة مضحكة • لكننى سأملك بعد قليل أرضاً تُقدّر
فى الحساب القديم بمائتى نفس * ، وذلك بواسطة رجل كاره للبشر لا بد
أنك تحتقرينه • ان فى امكانى أن أطلعك على أشياء كثيرة ، بل اننى مستعد
لأن أواجه احتمال النفى الى سيبيريا ، لأنتى استند الى وثائق • لا تحتقرى
ما أعرضه عليك • اعتبرى رسالة دوية الماء شعرا ، •

هتفت أقول مستاء :

- هذه الرسالة قد كتبها وغد حقير سكين • اننى أعرفه •

قالت ليزا متدفقة في كلامها وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة :

- تلقيتها أمس • فسرعان ما أدركت أنها صادرة عن معنوه ! لم
أظهر عليها ماما حتى الآن ، حتى لا تضطرب مزيداً من الاضطراب •
ولكن اذا تمادى ، فأننى لا أدري ماذا أفعل • ان مافريكى نيقولايفتش
يريد أن يمضى اليه فيؤدبه ويرده الى الصواب •

ثم قالت لشاتوف :

- لما كنت أعدك معاونى ، وما دمت تقطن فى نفس العمارة ، فقد
أردت أن أسألك عما ينبغى أن أتوقع منه •

فدمدم شاتوف يقول كمن يتكلم على مضض :

- سكين ودنىء !

- أهو غبى الى هذا الحد ؟

- لا يكون غبيا اذا لم يشرب فيسكر •

قلت ضاحكا :

- أعرف جنرالاً كان ينظم أشعاراً كهذه تماما •

وانبرى مافريكى نيقولايفتش الصموت دائماً فقال على حين فجأة :

- هذه الرسالة وحدها تدل على أنه يبيّت فكرة •

سألت ليزا :

- سمعت أنه يعيش مع أخته ، أهذا صحيح ؟

- نعم •

- يظهر أنه يضطهدا ويسومها سوء العذاب • أهذا صحيح ؟

مرة أخرى رفع شاتوف عينيه نحو ليزا ، وقطب حاجبيه ، وتقدم خطوة نحو الباب وهو يدمدم قائلا :

- ذلك لا يعنيني !

صاحت ليزا تقول مضطربة كل الاضطراب :

- انتظر ! الى أين تذهب ؟ ما يزال علينا أن نتفق على أمور كثيرة !

- على ماذا يجب أن نتفق ؟ سأُبلغك غدا ...

- لم تتحدث حتى الآن عن الشيء الأساسي ، عن المطبعة . صدق

أن مشروعى ليس مزاحاً . اننى أريد أن أعمل فيه جادة .

كذلك ألحت ليزا وهى تضطرب مزيدا من الاضطراب . وتابعت

كلامها تقول :

- اذا قررنا اصدار هذا الكتاب ، فأين سنطبعه ؟ ذلك أهم شيء . لن

نمضى نقيم بموسكو خصيصا لهذا الغرض . ومن جهة أخرى لا نستطيع

أن نعتد على المطبعة الموجودة هنا لانجاز عمل من هذا النوع . لذلك

قررت منذ مدة طويلة أن تكون لى مطبعة خاصة بى ، تُسجّل باسمك

طبعا . أنا أعلم أن ماما لن تسمح لى بامتلاك المطبعة الا على شرط أن

تُسجّل باسمك ...

سألها شاتوف مربدًا الوجه :

- كيف عرفت أن فى وسعى أن أتولى أمر مطبعة ؟

- ان بطرس ستيفانوفتش هو الذى حدثنى عنك فى سويسرا ، فأكد

لى أنك قادر على ادارة مطبعة ، لمرفتك بالهنة . حتى لقد أراد أن يحمّلنى

رسالةً اليك ، لكننى نسيت .

تغير وجه شاتوف لدى سماع هذه الكلمات (أتذكر هذا الآن) .

ولبت صامتا لحظة ، ثم فتح الباب فجأة وخرج .

زعلت ليزا •

وسألتني :

- هل يتصرف دائما على هذا النحو ؟

وبينما كنت أرفع كفتيَّ جوابا على سؤالها ، اذا هو يعود بغتةً ، فيتوجه نحو المائدة رأساً ، فيضع عليها حزمة الجرائد التي كان قد حملها . وقال :

- لن أتعاون معك • لا يتسع وقتي •••

فهتفت ليزا تقول بصوت متألم متضرع :

- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ يبدو عليك أنك زعلان !

فظهر عليه أن نبرة صوتها قد فجأته ، فتأملها ملياً بضغ لحظات ، كأنه يريد أن ينفذ الى قرارة نفسها • ثم قال بصوت خافت :

- ليس هذا مهماً • لا أريد .

وخرج جازماً في هذه المرة .

بدا لي في تلك اللحظة أن ليزا قد تشوشت تشوشا كبيرا تجاوز الحدود المعقولة .

وقال ما فريكي نيقولا يفتش :

- انه غريب الأطوار حقا •

« غريب الأطوار ، فعلاً » . ولكن الامر كله ليس واضحاً ، ولا بد أن له دلالة خبيثة . رفضت ، بنى وبين نفسى ، أن آخذ مشروع نشر الكتاب مأخذ الجد . ثم ان هناك تلك الرسالة الحمقاء التى يعرض فيها كاتبها ، وذلك أمر واضح كل الوضوح ، أن يشى بشخص ما بالاستناد الى وثائق . ولم ينطق أحد بكلمة حول هذا الموضوع ، وجعلوا يتكلمون فى شىء آخر . وهناك أخيراً حكاية المطبعة ، وانصرف شاتوف على حين فجأة مدفوعاً الى ذلك بكلمات معينة قالتها ليزا بهذا الصدد . ذلك كله حملنى على التفكير فى أن أمراً أجهله كان قد حدث قبل وصولى ، وأن وجودى اذن كان زائداً ، وان ذلك كله لا يعينى على كل حال . ثم لقد آن أوان الانصراف . وما يجوز أن تمتد زيارة أولى وقتاً أطول . فاقتربت من ليزا نيقولايفنا لأودعها .

كانت كأنها نسيت وجودى ، وهى ما تزال واقفة أمام المائدة ، غارقة فى أفكارها ، خافضة الرأس ، محدقة بعينها الى السجادة .

دمدمت تقول بصوتها الذى ما يزال ودوداً :

— آه . . . أنتصرف أيضاً . انقل تحيتى الى ستيفان تروفيموفتش وقل له أن يجيئنى فى أقرب وقت ممكن . يا مافريكى نيقولايفتش ، ان أنظرون لافروتيفتش ذاهب . اعذر ماما ، فانها لا تستطيع أن تجي . لتودعك .

وخرجت . فلما وصلت الى أدنى السلم أدركنى خادم وقال لى :

— السيدة ترجوك أن تعود .

- أهى السيدة أم ليزافنا نيقولايفنا ؟

- ليزافنا نيقولايفنا •

فلما رجعت وجدت ليزا لا فى الصالون الكبير بل فى صالة الاستقبال
المجاورة • وكان الباب الذى يفصل هذه الصالة عن الصالون الذى بقى
فيه مافريكى نيقولايفتش مغلقاً •

ابتسمت لى ليزا وهى مصطبغة الوجه بصفرة شديدة • كانت واقفة
فى وسط الغرفة على وضع متردد ، وكان واضحاً أنها تعاني صراعا داخليا
عنيفا • وفجأة تناولت يدي دون أن تقول كلمة واحدة ، وقادتني نحو
النافذة • ودمدمت تقول لى وهى تصوبّ الى نظرة حارة آمرة نافذة
الصبر ، لا تقبل أى اعتراض :

- أريد أن أراها حالا • أريد أن أراها بعينى ، وأرجوك أن
تساعدنى فى هذا ؟
سألها مرتاعا :

- من هى التى تريد أن تريها يا ليزافنا نيقولايفنا ؟

- أخت ليادكين ، تلك المرجاء ••• أصبح أنها تعرج ؟
ذُهلّت وشُدّهت ، وأسرعت أجيها بصوت خافت أيضا :

- لم أرها فى حياتى ، ولكن قيل لى انها عرجاء ، قيل لى هذا
أمس •

- يجب أن أراها حتما • هل يمكن أن يتم هذا اللقاء اليوم ؟ هل
تستطيع أن تدبّر ذلك ؟

وشمرت نحوها بشفقة على حين فجأة • قلت :

- مستحيل • حتى اننى لا أعرف كيف أحتال على الامر • سارى
شاتوف •••

- اذا لم تتوصل الى تدبير هذا اللقاء حتى الغد ، فسأذهب أنا الى عندها ، سأذهب وحدي ، لأن مافريكى يقول لايفتش يرفض أن يصحبني .
أملى الوحيد فيك أنت . لا أستطيع أن أعتد على أحد غيرك . لقد كلمت شاتوف بكثير من الحماقة والغباوة منذ قليل . انتى على يقين من أنك رجل شريف كل الشرف ، وأنتك ربما كنت مخلصا لى . دبّر لى هذا اللقاء ، أرجوك !

أحسست فجأة برغبة قوية كل القوة فى مساعدتها . فقلت لها بعد لحظة من تأمل :

- اليك ما سوف أفعله : سأذهب بنفسى ، وسأظفر برؤيتها حتما ، حتما ؛ لك على عهد الشرف لأظفرنّ بذلك . ولكن اسمح لى بأن أكاشف فى الامر شاتوف .

- قل له ان هذه رغبتى ، وانتى أصبحت لا أطيق الانتظار ولكن قل له أيضا انتى لم أخدعه منذ قليل . فلعله انصرف لأنه صريح جدا ، ولأنه تخيل أنتى أردت أن أخدعه . لا ، لم أكذب . انتى عازمة فعلا على اصدار ذلك الكتاب وعلى انشاء مطبعة .

قلت ملحا بحرارة :

- نعم ، انه صريح وشريف .

- ولكن اذا لم يتم الامر غدا فسوف أذهب اليها بنفسى مهما يحدث من أمر ، سوف أذهب اليها ولو عرف بذلك جميع الناس .

قلت وقد استرددت هدوئى :

- لن أستطيع أن أجيئك غدا قبل الساعة الثالثة .

قالت وهى تبسم :

- طيب • انتظرك في الساعة الثالثة • لم يخطئ • ظني اذن بالأمس
حين حررت أنك مخلص لي •

وشدت على يدي بسرعة ، وجرت تدرك ما فيكي يقولانيفتش •
خرجت مرهقاً بثقل الوعد الذي قطعت على نفسي • لم أفهم ما حدث .
رأيت امرأة قد بلغت ذروة الكمد والحزن ، ولا تخشى أن تعرّض نفسها
لسوء باعتمادها على رجل لا تكاد تعرفه • ان ابتسامتها الملائكة ، في لحظة
تبلغ هذا المبلغ من الخطورة ، واعترافها هي ذاتها بأنها لاحظت عواطفى ،
ذلك كله قد هزّ قلبي هزةً قوية • ولكننى لم أشعر نحوها الا بالشفقة •
وأصبحت أسرارها في نظري مقدسةً ان صح التعبير ، فلو أراد أحد أن
يفضى بها الى الآن لسددت أذنى رافضاً سماعها فيما أعتقد • وكنت مع
ذلك أوجس شيئاً ما ... لكننى لا أدري حقاً كيف عسى أتصرف لأفنى
بوعدى • بل هناك ما هو أكثر من ذلك : كنت لا أعرف على وجه الدقة
ما هو المطلوب منى • ان على أن أهى لقاءً ، ولكن أى لقاء ؟ وكيف
أتصرف من أجل أن أجمعهما ؟ كان أملى كله فى شاتوف • ولكننى كنت
على ثقة مقدما بأنه لن يساعدنى البتة • ومع ذلك هرعت اليه •

لم أجده بالبيت الا فى نحو الساعة الثامنة من المساء • وما كان أشد دهشتى حين رأيت عنده ناساً ، هم ألكسى نيلتش وسيد لا أكاد أعرفه ، رجل يقال له شيجالوف ، هو أخو زوجة فرجنسكى •

ان شيجالوف هذا قد وفد الى مدينتنا منذ قرابة شهرين ، اذا لم يخطئ • تقديرى • لا أدرى من أى بلد جاء • كان يقال انه نشر مقالا فى مجلة تقدمية ببطرسبرج • وقد قام فرجنسكى بتعريف أحدنا بالآخر فى الشارع ذات يوم • لم أر فى حياتى وجهاً كوجه هذا الرجل عبوساً وتجهماً بل وحداداً • لكأنه يتوقع دمار العالم وخراب الكون لا فى وقت قريب أو بعيد ، وفقاً لنبوءات يمكن أن تتحقق ويمكن أن لا تتحقق ، بل فى وقت محدد معين ، بعد غد مثلاً ، فى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من المساء • لم نكد تبادل كلمتين فى ذلك اللقاء الأول ، وانما اكفينا بأن نتصافح كما يتصافحان شريكان فى مؤامرة • وقد لفتت نظرى فيه خاصة أذناه الضخمتان ضخمة غير عادية ، الطويلتان المريضتان السمكتان ، المتباعدتان عن رأسه تباعداً غريباً • وكانت حركاته بطيئة خرقاء • اذا كان ليوتين يتخيل أننا قد توصل يوما الى انشاء تعاونية على طريقة فورييه فى مقاطعتنا ، فان شيجالوف كان يحدد لك اليوم والساعة اللذين سيتحقق فيهما قيام هذه التعاونية • لقد أحدث شيجالوف فى نفسى احساساً يشتمل على شؤم • وفاجأنى أن ألقاه عند شاتوف ، لاسيما وأن شاتوف كان لا يحب الزيارات كثيراً •

لقد سمعته يتناقشون هم الثلاثة مناقشة حامية جداً منذ أن كنت

أصعد السلم • كان يبدو أنهم يتساجرون • ولكن ما ان دخلت حتى صبتوا • كانوا يشتجرون وهم واقفون • ولكنهم حين رأوني عادوا يجلسون • فكان عليّ أن أجلس أنا أيضا • وران على الفرفة صمت أبله امتد ثلاث دقائق كاملة • وتظاهر شيخالوف بأنه لا يعرفني رغم أنه قد تعرفني فعلا ؛ تظاهر بذلك لا بدافع عداوة ، بل بدون أى سبب حتما • أما ألكسى نيلتش فقد حياني وحيته من بعيد صامتين ، دون أن تتصافح ، لا أدري لماذا ! أخذ شيخالوف يرمقني بنظرة قاسية ، مستاءة ، مقتنعا بأنني سأنهض وأنصرف • وقام شاتوف أخيرا ، وقام بعده الآخران • وخرجوا دون أن يودّعا • ولكن شيخالوف قال عند العتبة لشاتوف الذي كان يشيّعهما الى الباب :

- تذكر أن عليك حسابا لنا ستؤديه •

- أنا لا أبالي بهذا كله ، وليس عليّ حساب أؤديه لأحد •

قال شاتوف ذلك وأغلق الباب وراءهما ، وأحكم شدة مزلاجيه • ثم قال وهو ينظر الىّ ويتسم ابتسامة تشبه أن تكون كشرة :

- يا للمعتوهين ! ...

كان يبدو غاضبا ، وأدهشني منه أن يكون هو الباديء بالكلام • لقد عودني ، حين كنت أجيء اليه (وذلك نادر جدا) أن أراه يجلس في ركن من الاركان عابسا ، وأن يجيب عن أسئلتى على مضض ، ثم لا ينتعش ويتحمس الا بعد وقت ، فاذا هو يتحدث عندئذ راضيا مسرورا • ولكنه حين يشيّعك مودّعا ويفتح الباب ، يسترد هيئة من ظفر أخيرا بالتخلص من عدو شخصي •

قلت :



شیخ جالوف

- لقد تناولت الشاي عند ألكسى نيليتش . أعتقد أن الالحاد قد جعله
مجنونا .

فددم شاتوف يقول وهو يضع شمعة جديدة محل شمعة ذائبة :
- ان الالحاد الرومى لم يتجاوز فى يوم من الايام حدود التلاعب
اللفظى .

- لا ، لا يبدو لى أن كيريلوف واحد من الذين يتلاعبون بالالفاظ .
انه عاجز حتى عن التعبير البسيط . فأنتى له أن يقدر على أمازيح قوامها
التلاعب بالالفاظ .
قال بهدوء :

- هؤلاء رجال من كرتون . تفكيرهم مستعبد . ذلك مصدر كل
شئ .

وجلس على كرسى فى ركن ، باسطاً يديه فوق ركبتيه .

ثم قال بعد لحظة صمت :

ثم ان فى ذلك كله كرهاً وبغضاً . ألا انهم ليصبحون تعساء تعاسة
رهية لو قُبِضَ لروسيا أن تبدل فجأة وفقاً لما تقتضيه آراؤهم ، فإذا هي
تصبح بلداً غنيا مزدهرا يرفرف عليه الرخاء دفعة واحدة . ذلك أنهم ،
إذا تحقق ذلك ، لا يبقى ثمة من يكرهونه وبغضونه ، لا يبقى ثمة من
يبصقون عليه ، لا يبقى ثمة من يسخرون منه ويستهزئون به . ان مرداً
ذلك كله الى كره وبغض يشعرون بهما نحو روسيا ، كره وبغض حيوانيين
ان صح التعبير ، يملآن شعاب نفوسهم ويشيعان فى خلايا أجسامهم ...
ليس الامر عندهم أمر اخفاء دموعهم وراء ابتسامة* .

وختم كلامه بقوله صائحاً فى حق شديد :

- ما من جملة أكذب من هذه الجملة قلت فى يوم من الايام !

قلت :

- الله يعلم ما هذا الذى تقول !

وأخذت أضحك .

قال شاتوف مبتسماً هو أيضا :

- أما أنت فلست الا « لبرالياً معتدلاً » .

ثم استأنف كلامه يقول :

- أظن أننى قد أفلتت منى كلمة سخيصة حين تكلمت عن « تفكيرهم

المستعبد » لملك ستقول لى : « أنت ابن عبد خادم ، أما أنا فلم أكن خادماً

فى يوم من الايام » .

- ما خطر ببالى أن أقول كلاماً كهذا الكلام فى لحظة من اللحظات

... ما هذا الذى تقول؟! ...

- لا تعتذر . لست خائفاً منك . أنا لم أكن فى الماضى الا ابن خادم

ولكننى اليوم خادم أنا أيضاً ، مثلك تماماً . ان اللبرالى الروسى خادم قبل

كل شئ ، خادم يبحث عن أحذية يلمعها .

- أية أحذية ؟ ما معنى هذا المجاز ؟

- مجاز ؟ ... أرى أنك تضحك ... لقد صدق ستيفان

تروفيموفتش حين قال اننى مهشم تحت صخرة ، ولكن لا الى حد الموت ،

واننى أحاول عبثاً أن أنهض . ان تشييه هذا صحيح .

قلت ضاحكاً :

- ستيفان تروفيموفتش يقول انك لا هم لك الا الألمان . لقد أخذنا

منهم شيئاً على كل حال .

- نعم ، أخذنا خمسين كوبكا ، ولكننا أعطيناهم مائة روبل من

أموالنا .

ولبنا صامتين دقيقة كاملة •
- فى أمريكا انما نشأ عنده هذا •
- من هو ؟ ماذا نشأ عنده ؟
- كيريلوف • لقد قضينا مما فى أمريكا أربعة أشهر ، رافدين جنباً الى جنب فى كوخ حقير •
- ماذا ؟ كتما فى أمريكا ؟ لم تذكر لى ذلك فى يوم من الايام •
- ما الداعى الى ذكره ؟ منذ سنتين ، جازفنا بآخر ما نملك من قروش ، فسافرنا ثلاثة أشخاص الى الولايات المتحدة على سفينة مهاجرين* « لتتدق حياة العامل الأمريكى ، ولتدرك بتجربة شخصية خاصة بنا حالة انسان يوجد فى ظروف اجتماعية شاقة قاسية » • تلك كانت الغاية من رحلتنا •

صحت أقول وأنا أضحك :

- يا سلام ! علام السفر الى أمريكا لمعانة تلك التجربة الشخصية ؟
كان الأفضل لكم أن تذهبوا الى ريفنا فى فترة الحصاد •
- دخلنا هنالك عمالاً لدى مستثمر • كان مجموع عدد الروس عنده ستة ، منهم الطالب ، ومنهم مالك الأيطان جاء من أراضيه ، بل ومنهم الضابط ، وكانت غاية الجميع هى تلك الغاية السامية نفسها • عملنا ، وعرفنا ، وتعبنا حتى كدنا نفطس ، وأخيراً انصرفنا أنا وكيريلوف مكدودين متعبين وقد عيل صبرنا وأصبحنا لا نستطيع احتمال المزيد • وقد خدعنا صاحب العمل حين دفع لنا أجرنا : فبدلاً من أن ينقدنا الثلاثين دولاراً المتفق عليها ، أعطانى أنا ثمانية ، وأعطى كيريلوف خمسة عشر • وقد حدث لنا أيضاً أن ضربنا غير مرة • هكذا أصبحنا بدون عمل ، أنا وكيريلوف ، فلبنا رافدين فى كوخ حقير جنباً الى جنب • كان هو يجتر أفكاره ، وكنت أنا أجتر أفكارى •

- هل يُعقل أن يكون صاحب العمل قد ضربكما ؟ فى أمريكا ؟
انتى أتحيل الحقن الذى كان يستمر عندئذ فى قلبكما ، وأتحيل كيف
كتبنا تلعبانه •

- لا ، أبداً ! بالعكس : لقد اتفق رأينا أنا وكيريلوف فوراً على أننا
« معشر الروس لسنا الا أطفالاً صغاراً بالقياس الى الأمريكان ، وان على
المرء أن يكون قد وُلد بأمريكا أو عاش فيها زمناً طويلاً حتى يرقى الى
مستوى الأمريكان • • • بل أقول لك أكثر من ذلك : حين كان يؤخذ
منا دولار كامل ثمناً لشيء لا يساوى قرشاً ، كنا ندفع الدولار راضين ،
بل وكنا ندفعه مسرورين مفتونين • كان كل شيء يفتتنا : تحضير الأرواح ،
قانون لنتش* ، المسدسات ، المشردون • وفى ذات يوم ، أثناء سفر ، دسَّ
أحدهم يده فى جيبي ، فاستل منه فرشاة شعرى ، وأخذ يصفف شعره •
فلم نزد أننا وكيريلوف على أن تبادلنا نظرة : واستقر رأينا على أن الرجل
قد أحسن صنعاً ، وأن هذا قد أعجبنا كثيراً •

قلت :

- الشيء الغريب أن مثل هذه الأفكار تنتقل عندنا من نطاق النظرية
الى حيز العمل •

عاد شاتوف يكرر :

- قلت لك : أناس من كرتون !

- ومع ذلك... أن يقطع المرء المحيط على سفينة مهاجرين ، مسافراً
الى بلد مجهول لا لشيء الا أن « يعانى بتجربة شخصية » ، الخ ، فان فى
ذلك لشيئاً عظيماً كريماً بالفعل ! ... ولكن كيف خرجتم بعد ذلك من
المأزق ؟

- كتبت الى صديق لى بأوروبا فأرسل الى مائة روبل •

كان شاتوف ، وهو يتكلم ، محدقاً الى الأرض فى عناد ، على عادته حتى حين يتحمس . ومع ذلك رفع رأسه فى تلك اللحظة قائلاً :

- هل تريد أن تعرف اسم ذلك الصديق ؟

- ما اسمه ؟

- نيقولاى ستافروجين .

ونهض بغتة ، واتجه نحو منضدة الكتابة المصنوعة من خشب الزيزفون ، وبدأ عليه أنه يبحث عن شيء ما . كان يُقال فى المدينة - دون الدخول فى تفاصيل واسعة - ان امرأة شاتوف قد كانت لها قبل سنتين علاقة بنيقولاى ستافروجين فى باريس . فهذه العلاقة انما قامت اذن أثناء الفترة التى أقامها شاتوف بأمريكا ، وبعد أن تركت المرأة زوجها بجنىف على كل حال . قلت لنفسى : « اذا كان الامر صحيحاً ، فما الذى دفعه الى ذكر اسم ستافروجين ، والى الافاضة فى سرد هذه القصة ؟ » .

قال وهو يلتف نحوى من جديد :

- وحتى الآن لم أردّ اليه دينه .

ونظر الى محدقاً ، ثم مضى يجلس ثانية فى ركبه ، وسألنى على حين بغتة بصوت قد تغير تغيراً كاملاً :

- انت انما جئت لأمر من الأمور حسماً ، فما الذى تريده ؟ فسرعت أفصّ عليه القصة كلها فوراً ، على حسب تسلسل الوقائع فى الزمان ، وأضفت الى ذلك قولى اننى وقد هداً الانفعال الاول قد أصبحت أشد ارتباكاً وحيرة : فأنا أدرك أن الامر يهم ليزافتا نيقولايفنا كثيراً ، وأنا عازم على مساعدتها عزماً أكيداً ، ولكن البلية هى أننى لا أعرف كيف أتدبر المسألة ، بل ولا أعنى ما وعدتها به وعياً تاماً . وأكدت له أخيراً أن ليزافتا نيقولايفنا لم تشأ أن تتخذه ، بل وأن فكرة الخديعة لم تخطر لها ببال

قط ، وأن كل ما فى الامر أن قد وقع سوء تفاهم ، وأنها آسفة أشد
الأسف لانصرافك المبالغتة •

كان يصغى الىّ باتتياه •

قال :

- ربما كنت قد ارتكبت غلطة بالفعل ، على عادتي ... واذا كانت
لم تفهم سبب انصرافى فلعل فى هذا خيراً لها ...

ونهض ، واقترب من الباب ، وفتحه ، وأخذ يصغى الى ما قد يسمعه
من أصوات فى السلم •

ثم سألتى :

- أأنت حريص على رؤية تلك الانسانة بنفسك ؟

فهتفت أجيبه مسرورا مقتونا :

- نعم ، ولكن كيف يمكن تدبير الأمر ؟

- مسألة بسيطة • فلنذهب اليها معاً مادامت وحيدة • حين يعود ،
فسيضربها اذا علم أننا جئنا اليها • انتى كثيراً ما ألقاها خفية • وفى هذا
الصباح كلمت ليادكين لأنه عاد يضربها •

- ماهذا الذى تقوله ؟

- نعم ، وشددته من شعره • وقد أراد أن يرتدى على ، لكنه
خاف ، فوقفنا عند ذلك الحد • أخشى اذا رجع ثملاً ، أن يتذكر ماوقع
فيأخذ يضربها انتقاما •

وأسرعنا ننزل •

كان باب بيت ليادكين مغلقاً ولكنه ليس مقفلاً بالمفتاح ، فدخلنا بغير مانع . ان المسكن يتألف من غرفتين صغيرتين حقيرتين قد اسودَّت حيطانهما بالدخان ، وبليت أوراق جدرانها حتى لترى الورق المتسخ البالى يتدلَّى مزقاً بالفعل . فى هذا المكان انما كان فيلييوف قد أقام حاته خلال سنين قبل أن ينقلها الى منزله الجديد . فلما انتقل أقفل جميع الغرف الا غرفتين اتنين هما اللتان يسكنهما الآن ليادكين وأخته . ان الأثاث يتألف من مقعد عتيق فقد مسنده ، ودكك وموائد من خشب أبيض ؛ وفى الغرفة الثانية مع ذلك سرير يغطيه غطاء من قطن ، فعلى ذلك السرير انما تنام الآسنة ليادكين . أما الكابتن فانه حين يرجع الى البيت فى المساء يسقط على الأرض كلة واحدة دون أن يخلع ثيابه فى أكثر الأحيان .

كل شىء هنا قدر رطب تغشيه نفايات . فى وسط الغرفة ترقد خرقة كبيرة مبللة ، والى جانبها فردة حذاء مهترئة مثنية تسبح فى تلك البركة نفسها من الماء . واضح أنه ما من أحد يُعنى هنا بنظافة المسكن ؛ والمدفأة لا تُشعل فى يوم من الأيام ، وطبخ الطعام غير معروف البتة ؛ حتى ان بيت ليادكين - فيما قال شاتوف - لا يضم سموراً للشاى .

حين وصل الكابتن الى مدينتنا كان فى حالة عوز شديد وبؤس رهيب ، فكان فى الآونة الأولى يقرع الأبواب مستجدياً هنا وهناك . ولكنه ما ان أخذ يتلقى مالاً حتى أخذ يشرب ، وفقد صوابه تماماً ، ولم يفكر فى مسكنه طبعاً .

ان الآسنة ليادكين التى حرصت على رؤيتها كل ذلك الحرص ،

هى الآن جالسة على دكة أمام مائدة فى ركن من الغرفة الثانية • انها هادئة ساكنة صامتة • لم توجه اليها الكلام حين دخلنا ، بل انها لم تقم بحركة واحدة • قال لى شاتوف ان باب المسكن لا يُفقل بالمفتاح فى يوم من الأيام ، حتى انه ظل فى احدى الليالى مفتوحاً على سعة كلها طول الوقت •

استطعت بفضل نورِ كاب تنشره شمعةٌ نحيلة مفروسةٌ فى شمعدان من حديد ، أن أرى الأنسة ليادكين • انها نحيلة نحولاً مرضياً ؛ ولعلها فى الثلاثين من عمرها • وهى ترتدى فستاناً عتيقاً من نسيج قطنى قاتم اللون ، يكشف عن رقبتها الطويلة • شعرها الأسمر القليل مقول عند قفا الرأس كبةً لا يزيد حجمها على حجم قبضة يد طفل فى السنة الثانية من عمره •

نظرتُ اليها مرحةً الهيئة • وكان أمامها على المائدة ، الى جانب الشمعدان ، مرآة صغيرة من المرايا التى يرى المرء مثيلاتها عند القرويين ، ومجموعة قديمة من ورق اللعب ، وكراसे أغان مهترئة ، ورغيف صغير من خبز أبيض كانت قد عضت منه لقمةً أو لقميتين •

كان واضحاً أن الأنسة ليادكين تستعمل المساحيق وتصنع شفيتها وتكحل حاجيها الدقيقين الطويلين القاتمين • وكانت ثلاثة أخاديد طويلة تفضن جبينها الضيق العالى تفضيئاً واضحاً رغم طلائه بالياض • وكنت أعلم أنها تعرج ، لكنها فى هذه المرة لم تنهض أثناء وجودنا • ولعل هذا الوجه الذى أصبح الآن ناحلاً هزيلاً قد كان فى أيام صباه الأول حلواً جميلاً • وما تزال عيناها الشهابوان العذبتان اللطيفتان محتفظتين بجمالهما • ان نظرتهما الوادعة ، التى تكاد تكون فرحة ، تشتمل على تعبير صادق حالم • وقد فاجأنى هذا الفرح الهادى الذى يشعُ أيضاً من ابتسامتها ،

بعد كل ما عرفته عن قسوة أخيها في معاملتها وعن ضربات السوط التي كان يهوى بها عليها • ولم أشعر تجاهها بما يشعر به المرء حين يلقي أمثال هذه المخلوقات التعيسة من اشتمزاز أليم وجل ، وإنما شعرت في الوهلة الأولى باحساس غريب ، يكاد يكون سرورا بالنظر اليها ، وهذا الاحساس قد حلت محله الشفقة بعد ذلك ، ولم يحل محله الاشتمزاز قط •

قال لي شاتوف وهو يوميء اليها من الباب :
- أترى ؟ انها تظل جالسة هذه الجلسة أيا ما يكاملها ، وحيدة ، لا تتحرك ؟ فاما أن تسحب ورقا من مجموعة أوراق اللعب التي أمامها ، واما أن تنظر الى وجهها في المرآة • ان أخاها لا يأتيها حتى بطعام • والمرأة المعجوز التي تخدم كيريلوف هي التي تحمل اليها بعض الغذاء بين الحين والحين من باب الشفقة والرحمة والاحسان • اننى لا أفهم كيف يتركها هكذا وحيدة مع شمعة •

قالت الأنسة ليادكين بصوت ودود :
- يومك سعيد يا شاتوشكا *
فقال لها شاتوف :
- لقد جئت بزائر يا ماريا تيموففنا !
- مرحبا بالزائر • بمن جئتني ؟ يخيل الى أننى لا أعرفه •
ونظرت الى طويلاً فى ضوء الشمعة ، ثم التفت نحو شاتوف ، ولم تنظر الى بعد ذلك البتة ، ولا اكرثت بى أى اكتراث ، فكأنتى غير موجود •

سألت شاتوف ضاحكة ، كاشفة عن صفين من الأسنان كأنها حبات اللؤلؤ جمالاً :
- لا شك أنك سئمت التجول وحيدا فى غرفتك طويلاً وعرضا ، أليس كذلك ؟

- نعم ، ولقد أردت كذلك أن أسلم عليك •
قال شاتوف ذلك وقرَّب دكة من المائدة وأجلسنى الى جانبه •
قالت الأنسة ليادكين :

- اننى ليسرنى الحديث كثيرا فى جميع الاحيان • ولكنك تضحكنى
ياشاتوشكا • لكأنك راهب حقاً • منذ متى لم تصفف شعرك ؟ اقرب منى ،
سأصف لك شعرك •

قالت ذلك وهى تستل من جيها مشطاً صغيراً • وأضافت :
- أنا واثقة بأنك لم تمشط شعرك منذ أن مشطته لك آخر مرة •
أجابها شاتوف ضاحكا :
- ليس عندى مشط •

- حقاً ؟ اذن سأعطيك مشطى • لا هذا ، بل مشط آخر • ذكرنى •
وأخذت تصفف شعره وقد لاح فى وجهها كل الجهد والاهتمام ،
حتى لقد فرقة من جانب ، وتقهقرت قليلا الى وراء لتنع النظر اليه وتحسن
الحكم عليه • ثم أعادت المشط الى جيها • وقالت لشاتوف :

- هل تعرف ماذا أريد أن أقول لك يا شاتوشكا ؟ انك قد تكون
رجلاً عاقلاً ولكنك تشعر بضجر • اننى أنظر اليكم جميعا فلا يسمنى
الا أن أدعس : كيف يمكن أن يشعر الناس بالضجر • وليس الحزن
هو الضجر • أما أنا فانتى مرحة •

- حتى حين يكون أخوك هنا ؟

- أتقصد ليادكين ؟ انه خادمى • ويستوى عندى وجوده وغيابه •
اننى أصرخ قائلة له : « ليادكين ، جئنى بماء ! » - « ليادكين ، انتى
بحذاءى ! » فيأتينى بهما • ولا أملك فى بعض الاحيان أن أنهى نفسى
عن الضحك ، رغم أن ذلك من جانبى شر •

قال لى شاتوف ، بصوت عالٍ أيضا وبدون تحرج :

- هذا ما يحدث فعلاً . انها تعامله كما يعامل خادم ، ولقد سمعتها بأذنى تصرخ قائلة له : « ليادكين ، جتى بماء ! » . وكانت تضحك . الفرق الوحيد هو أنه لا يجيئها بماء بل يضربها . ومع ذلك فهي لا تخاف منه البتة . وهى تُصاب بنوبات عصبية ، كل يوم تقريبا ؛ نوبات تشوش ذاكرتها ، فاذا هى تنسى ما حدث منذ قليل ، وتخلط بين الأيام وتخلط بين الساعات . هل تظن أنها تتذكر الآن كيف دخلنا عليها ؟ لعلها تتذكر ، ولكنها منذ الآن قد ربت جميع الأمور على طريقتها الخاصة ، ولا شك فى أنها تحسبنا أشخاصا آخرين ، رغم أنها تذكر أننى « شاتوشكا » . ولا يدهشنى أننى أكلمك بصوت عالٍ : انها تنقطع فورا عن الاصغاء الى من لا يخاطبونها مباشرة ، وتندفع عندئذ فى أحلامها اندفاعا مستميتا . نعم ، تندفع . هذه هى الكلمة . وتظل فى مكانها مسترسلة فى أحلامها ثمانى ساعات كاملة دون أن تتحرك . هل ترى هذا الرغيف الصغير من الخبز الابيض : لعلها لم تأكل منه الا لقمة واحدة منذ الصباح ، ولعلها لن تنهيه الا فى الغد . ها هى ذى الآن قد أخذت تسحب من أوراق اللعب ...

- نعم يا شاتوشكا ، اننى أسحب من أوراق اللعب طوال الوقت ، ولكن أوراق اللعب لا تنبئنى بأى خير ...

كذلك تدخلت فجأة ماريا تيموفنا التى التقطت كلمتى « أوراق اللعب » عرضاً . ولعلها أيضا قد سمعت كلاما عن الخبز ، فهذه هى ذى تمد يدها الى الرغيف ، فتناوله دون أن تنظر فيه ، وظلت ممسكة به فى يدها بضع لحظات ، ثم انصرفت باتيهاها الى الحديث فأعادته الى مكانه على المائدة بحرارة آية دون أن تذوقه . قالت :

- أوراق اللعب تقول لى شيئاً واحداً على الدوام : سفرة ، رجل شرير ، خيانة ، مرض مميت ، رسالة لا أدرى ممن ، نبأ غير متوقع . تلك كلها أكاذيب فيما أظن . ما رأيك أنت يا شاتوشكا ؟ اذا كان البشر يكذبون فلماذا لا تكذب أوراق اللعب أيضا ؟

قالت ذلك ، وخلطت أوراق اللعب . ثم تابعت كلامها :

- ذلك ما كنت أقوله للأم براسكوفيا ، وهى امرأة محترمة كانت تأتىنى للسحب من أوراق اللعب فى حجرتى مخبئة عن الأم الرئيسة . على أنها لم تكن الوحيدة فى هذا . فهن هناك جميعا يتنهذن ، ويهززن رؤوسهن ، وينافسن . وكنت أنا أضحك وأقول لها : « من أين تريدن أن تصلك رسالة أيتها الأم براسكوفيا ، أنت التى لم تتلقى رسالة واحدة منذ انتى عشرة سنة ؟ » . كان صهرها وابنتها قد سافرا الى تركيا ، ولم يصل عنهما أى نبأ منذ انتى عشر عاما . وفى مساء الغد ، كنت أنا أتناول الشاي عند الأم الرئيسة (وهى من أسرة أمراء) ، وكان هناك سيدة أخرى ، سيدة مفرطة فى الخيال كثيرا ؟ وكان هناك راهب صغير من جبل آتوس ، وهو فى رأى رجل طيب عييط . فهل تتصور يا شاتوشكا ، أن ذلك الراهب الصغير كان قد حمل من تركيا ، فى ذلك الصباح نفسه ، الى الأم براسكوفيا ، رسالة من ابنتها ؟ نعم ، هذا ما حدث ! صدق اذن ورق اللعب : لقد تنبأ نبأ غير متوقع . كنا هنالك نشرب الشاي حين قال راهب جبل آتوس للأم الرئيسة : « لا شك أن ديرك مبارك أيتها الأم الرئيسة المقدسة . لانه يضم بين جدرانہ كنزاً ثميناً جداً . سألته الرئيسة : « أى كنز ؟ » فأجابها الراهب : « الأم ليزافنا المباركة » . والأم ليزافنا هذه كانت تعيش فى قفص بالجدار طوله سبع أقدام وعلوه خمس . . . وهى هناك وراء القضبان الحديدية منذ ستة عشر عاما ، لا ترتدى فى الشتاء ولا فى

الصفيف الا قميصا من القنب كانت تخزّه أحيانا بابر من القش • وهى صامته دائما • وهى لم تمشط شعرها ولا غسلت نفسها مرة واحدة منذ ستة عشر عاما • كانوا فى الشتاء يغطونها جلد خروف • وفى كل يوم يمدون اليها من خلال القضبان كسرة خبز وجرة ماء • وكان الحجاج يتأملونها متعجبين ، ويضعون لها قرشا فى طاسة • أجابت الأم الرئيسة : « ياله من كنز ! » (لقد غضبت الأم الرئيسة ، لأنها كانت تكره ليزافتا) • وأضافت قولها : « ان ليزافتا لم تحبس نفسها الا بدافع الشر • ما ذلك منها الا عناد وتظاهر ! » • لم يعجبني هذا الكلام ، لأننى كنت أفكر فى أن أحبس نفسى أنا أيضا • قلت : « فى رأى أن الله والطبيعة وأحد فصاحوا جميعا يقولون : « اسمعوا الى هذا الكلام العجيب ! » • وأخذت الرئيسة تضحك ، وقالت للسيدة ما لا أدرى بصوت خافت ، ثم نادتنى اليها وكلمتنى بلطف • أما السيدة فقد أعطتنى شريطا وردى اللون • هل تريد أن أريك الشريط ؟ وطفق الراهب يعظنى بخطبة طويلة ، فكان رقيقا كل الرقة ، متواضعا كل التواضع ، ولا شك أنه كان ذكيا جدا ، فلبثت أصغى اليه طول الوقت • وسألنى : « هل فهمت ؟ » فأجبتة قائلة : « لم أفهم شيئا • ودعنى وشأنى » • ومنذ ذلك الحين تركونى وشأنى يا شاتوشكا • وفى ذلك الأوان تقريبا كانت هناك امرأة عجوز قد اعتكفت فى ديرنا مكفّرة عن نبوءات زعمتها ، فهمست تسألنى وهى تخرج من الكنيسة : « وأم الرب ، ما هى فى رأىك ؟ » • فأجبتها : ان أم الرب هى أمل النوع الانسانى • فقالت : « نعم ، هذه هى الحقيقة • ان أم الرب هى أمنا جميعا ، هى الارض المخضلة ، وهذه الحقيقة تشتمل على فرح عظيم للنوع الانسانى • وكل عذاب أرضى ، كل دمة أرضية هى لنا فرح • وحين تبلل الأرض بدموعك الى مسافة قدم فى التراب ، فلن يكون شئ بعدئذ الا فرحا لك ، ولن تعرف الألم بعدئذ

فى يوم من الايام • كذلك قالت النبوءة • • حفظ قلبى هذا الكلام • ومنذ ذلك الحين • أصبحت اذا صليت وسجدت أقبل الارض • أقبلها وأبكى • واليك ما سأقوله لك يا شاتوشكا : ليس فى هذه الدموع أى بأس ؛ حتى اذا كنت لا تتألم فانها تتساقط من عينيك فرحاً • فرحاً فقط • تتساقط من تلقاء نفسها • الحق أقول لك • كنت أذهب أحيانا الى ضفاف البحيرة : كان ديرنا فى جهة • وفى الجهة الاخرى كان يتصب جبلنا المدبب • كذلك كانوا يصفونه • كنت أصعد ذلك الجبل • وأتوجه نحو المشرق • وأنكب على الارض • فأظل أبكى وأبكى وأبكى • فاذا أنا لا أتذكر بعد ذلك شيئاً البتة • ولا أعرف شيئاً البتة • ثم أنهض • وألثفت الى وراء • فأرى الشمس وهى تغرب كبيرة رائعة جميلة • هل تحب أن تنظر الى الشمس يا شاتوشكا ؟ انه لمنظر جميل جدا • وحزين جدا ! • • • ثم ألثفت مرة أخرى نحو المشرق • فأرى ظل جبلنا يركض على البحيرة سريعا كسهم • ضيقا طويلا • الى أن يبلغ الجزيرة التى توجد فى البحيرة ؛ فتسطره هذه الجزيرة الحجرية شطرين اثنين • فما ان تشطره الجزيرة شطرين حتى تغيب الشمس وينطفئ كل شئ • فأشعر عندئذ بأنى حزينة كل الحزن • واذا بالذاكرة تعود الى على حين فجأة • فأخاف من الظلمة يا شاتوشكا • غير أن ما كنت أبكيه خاصة • انما هو ابنى • • •

سألها شاتوف وهو يلكنزنى بكوعه قليلا بعد أن لم ينقطع عن الاصغاء اليها بانتباه :

- ولكن هل كان لك ولد حقاً ؟

- كيف لا ؟ لقد كان صغيرا جدا • وكان بلون الورد • وكانت له أصابع صغيرة • وحسرتى كلها ناشئة عن أننى لا أستطيع أن أتذكر أكان صييا أم كان بنتاً • فتارة يبدو لى أنه كان صييا • وتارة يبدو لى أنه كان

بتآ • وأنا ما ان ولدته حتى لففته بالداتيللا والبائسته التى عقدتها بأشرطة
وردية اللون ، وغطيته بالأزهار • ثم صليت لله وحملته وسرت به فى
الغابة دون تعمد • وكنت خائفة من الغابة ، وكنت أرتعش رعباً • وكنت
أبكى خاصةً لأننى ولدته دون أن أعرف زوجى •

سألها شاتوف محاذرا :

– ربما كان لك زوج ، أليس كذلك ؟

– انك تضحكنى بتفكيرك يا شاتوشكا • جائز أنه كان لى زوج •
ولكن ما فائدتى من هذا اذا كنت كمن لم يكن لها زوج فى يوم من
الأيام ؟

ثم أردفت تقول وهى تبسم ابتسامة ساخرة :

– هذه أحجية • هلاًّ حزرت !

– الى أين أخذت ابنك ؟

– الى الغدير •

لكننى شاتوف بكوعه من جديد • ثم سألها :

– فماذا اذا لم يولد لك ولد يوما ، وكان هذا كله هديانا لا أكثر ،

هه ؟

قالت بلهجة تنم عن ذهول وتفكير ، ولكن ليس فيها دهشة

واستغراب :

– انك تلقى على سؤال صعبا • حقا ان من الجائز أن لا أكون قد

ولدت ولداً فى يوم من الايام • وأظن على كل حال أنك لا تلقى هذا

السؤال الا من باب حب الاطلاع • مهما يكن من أمر ، فلن أكف عن

البكاء عليه • أترانى رأيت حلماً ؟

والتمعت دموع سخية في عينيها • ثم هفت تسأل شاتوف فجأة وهي
تضع يديها على كتفيه وتأمله مشفقة عليه رحمة به :

- شاتوشكا ، شاتوشكا ؟ هل صحيح أن زوجتك تركتك ؟ لا تزعل !
أنا أيضا أحمل في قلبي حملاً ثقيلاً • هل تعلم يا شاتوشكا اننى رأيت
فى منامى حلمًا ؟ رأيته يعود الىّ ، ويومئ لى ، ويناديني بقوله : « قطتى
الصغيرة ، قطتى الصغيرة ، تعالى بسرعة ! » • وقد فتننى قوله « قطتى
الصغيرة » أكثر من أى شىء آخر • قلت فى نفسى : انه يحبني •
دمدم شاتوف يقول :

- قد يرجع فى يوم من الايام •
- لا ياشاتوشكا ، لم يكن ذلك الا حلما • انه لن يأتى أبدا • أنت
أنت تعرف الأغنية :

ما بى حاجة الى قصر*
حسبى هذه الحجرة
لاحيا وانقذ روحي ،
وادعو الله لك •

أه ياشاتوشكا ، يا عزيزى شاتوشكا ، لماذا لا تسألنى أبدا ؟
- أعرف أنك لن تقولى شيئا • لذلك لا أسألك •
قالت بحماسة وقوة :

- نعم ، لن أقول شيئا • لن أقول شيئا ولو هددونى بقطع عنقى ،
لن أقول شيئا ولو هددونى باحراق جسمى • ومهما أذق من ألوان
العذاب والألم ، فسأظل صامتا ، فما يعرفون من الامر شيئا !
قال شاتوف وهو يخفض صوته مزيدا من الخفض ، ويحنى رأسه
مزيدا من الحنى :

– أرايت ؟ ان لكل امرئ أسرارہ •
– ولكن لو ألححت في السؤال ، فقد أقول لك •
وكررت تقول بحمياً :

– نعم، قد أقول لك • لماذا لا تسألني أن أقول لك؟ ألح يا شاتوشكا،
اضرع الى ، فقد أقول لك • اعمل ما من شأنه أن يجعلني أوافق على
الكلام ... شاتوشكا ... شاتوشكا ! •

لكن شاتوشكا ظل صامتاً • ومضت دقيقة دون أن ينطق أحد بكلمة •
وكانت دموع بطيئة تجرى على خدّي العرجاء المبرّجين بالمساحيق
والأصباغ • وكانت يداها ما تزالان متكئتين على كفي شاتوف ، غير أنها
قد انقطعت عن النظر اليه •
قال شاتوف :

– فيم يهمني هذا كله على كل حال • ثم ان الالاحاح قد يكون
اثماً •

وقام فجأة • وقال لي :

– هياً انهض •

وسحب الدكة التي كنا جالسين عليها حتى ردها الى حيث كانت ،
قائلاً :

– حين يعود ، يجب أن لا تراوده شبهة فيعتقد أننا كنا هنا • وقد آن
لنا نحن أن نتصرف •

هتفت ماريا تيموفيتشنا تقول وهي تنفجر ضاحكة :

– آ ... تقصد خادمي • أنت خائف منه ؟ طيب ... وداعاً
يا صديقي الطيبين • ولكن اسمع ما سأقوله لكما • منذ قليل ، حضر
الرجل الذي يقال له نيلتش ، حضر مع فيليوف ، مالك البيت ، الذي له

لحية كبيرة حمراء ، وذلك فى اللحظة التى هجم فيها على خادمى • فما كان من مالك البيت الا أن قبض عليه وأخذ يجره فى الغرفة ، فكان الآخر يصرخ قائلاً : « أنا لا ذنب لى • أنا أتألم من ذنب غيرى » • فهل تصدق ؟ لقد طفقتا جميعاً نضحك حتى لنكاد تندحرج على الارض من شدة الضحك •

— ماريا تيموفيتنا ! ليس الاحمر الملتحى هو الذى انتزعه وأبعده عنك وجره من شعره منذ قليل • فأنما أنا الذى فعلت ذلك • أما مالك البيت ، فقد جاء الى هنا أمس الاول ليلفظ ويصخب • أرى أنك تخطئين بين الامور •

— انتظر قليلاً • نعم • لقد خلطت بين الأمور ••• ربما كنت أنت ، فعلاً ••• فيم المناقشة على كل حال ؟

ثم قالت ضاحكة :

— ما الفرق عنده بين أن تجره أنت من شعره وبين أن يجره الآخر ؟

قال شاتوف فجأة وهو يدفعنى :

— لننصرف • لقد صرَّ باب مدخل العمارة • سوف يضربها اذا وجدنا هنا •

وفعلاً ، ما ان صرنا فى أعلى السلم حتى سمعنا صراخ سكران ، وعاصفة من الشتائم •

أدخلنى شاتوف غرفته ، وأفلل بابها بالمفتاح •

— يجب أن تلبث هنا قليلاً ، اذا أردت أن تتحاشى جرسه • هل تسمعه يصرخ كصراخ خنزير يُذبح • لعله تشر بالغبية • هذه القصة تكرر كل مرة •

ولكن الجرسه حدثت رغم احتياطاتنا •

وقف شاتوف قرب الباب يصغى الى ما يجرى فى السلم • وانه
لكذلك اذا هو يقفز متراجعا الى وراء ، ويدمدم قائلا فى حق :
- ها هو ذا يصل • قد لا تتخلص منه الآن الا فى منتصف الليل •
وأخذت طرقات قوية تهوى بها على الباب قبضة شديدة • وزأر
الكابتن يقول :

- شاتوف ! شاتوف ! افتح الباب ! شاتوف ، صديقى !

انما جئت لأتمنى لك يوما سعيدا (*)

ولأقول لك ان الشمس قد طلعت

وان الغابات ترتعش ملتهبة

تحت اشعتها الحارة

واريد ان أقول لك أيضا اننى يقظان ...

واننى أتمنى أن ياخذك الشيطان ...

نعم يقظان ، يقظان يقظان

تحت الاغصان ...

كما لو كنت تحت السياط ، ها ها ...

كل طائر ظمآن

ظمآن ! ... وأنا حيران

لا أدري أى شراب احتسى ...

على كل حال ؟ لعن الله هذا الفضول النبى ! يا شاتوف ، هل تعرف
مدى ما فى الحياة من جمال ؟

قال لى شاتوف هامسا :

- لا تجب !

- أقول لك افتح ! هل تدرك أن فى العالم شيئاً أسمى من ضربات قبضة اليد ؟ ان فى حياة الانسان لحظات نبيلة • شاتوف ، أنا أغفر لك !
... شاتوف ، لتذهب المنشورات الى الجحيم ! ... هه !

وساد صمت سُمع صوت لبيادكين بعده يُعول فجأة وقد عاد يخطط الباب بقبضة يده :

- هل تدري ، يا حمار ، اننى مولّه حياً ؟ لقد اشتريت رداء فراك • انظر اليه • فراك الحب • خمسة عشر روبلاً • ان غرام كابتن يكلف غالياً •

قال شاتوف :

- اذهب الى الجحيم •

- عبد ! عبد ذليل ! وأختك أيضاً ما هى الا جارية ... ما هى الا لص ... لصة ! ...

- وأنت ، أنت قد بعت أختك !

- أنت كاذب • أنا أتألم ظلماً ، أنا أتألم نيابةً عن غيرى ، ويكفى أن أقول كلمة واحدة حتى ... هل تدرك من هى ؟

- هيه ، من هى ؟

كذلك سأله شاتوف وهو يقترب من الباب •

- أأنت قادر على أن تفهم هذا ؟

- قل أولاً ، ثم أفهم أنا بعد ذلك •

- لا أخاف أن أقول • أنا لا أخاف أبدا أن أتكلم أمام الناس •••
- قال شاتوف ساخراً ضاحكاً وهو يشير لى أن أصفى :
- لا بل انك لن تجربو حتما •
- أتقول اننى لا أجرو ؟
- وساد صمت دام نصف دقيقة فى أقل تقدير •
- وأخيراً صاح الكاتبن يقول وهو يتراجع نافخاً كفوّه سبور ،
- متعثراً على كل درجة من درجات السلم :
- سافل !
- قال شاتوف :
- انه ماكر جدا ، ولن يفضح نفسه رغم أنه سكران •
- سألته :
- ما معنى هذا كله ؟
- فهزّ شاتوف منكبيه ، وفتح الباب ، وأخذ يصيح بسمعه الى جهة
- السلم • ولبت يصغى مدة طويلة ، حتى لقد هبط بضع درجات •
- وأخيراً عاد •
- لا يسمع شىء • انه لم يضربها • لا بد أنه نام كتلة واحدة •
- آن لك أن تتصرف •
- اسمع يا شاتوف ! ما الذى يجب أستخلصه من هذا كله ؟
- فأجاب شاتوف بلهجة مكدودة مشمّرة :
- استخلص ما شئت •
- وجلس الى مكتبه •
- انصرفت • ان فكرة غير مقولة تستولى على فكرى مزيدا من
- الاستيلاء شيئاً بعد شىء • وفكرت فى الغد قلماً خائفاً •

ذلك « الغد » ، أعنى يوم الأحد الذى سيتقرر فيه مصير ستيفان تروفيموفتش قرارا محتوما لا رادَّ له ، هو من أهم الأيام التى يجب أن تسجلها قصتى . انه يوم مفاجآت أتاح لنا أن نحل بعض الألغاز ، ولكنه ألقى علينا ألغازاً جديدة ؛ انه يوم قدّم لنا ايضاحات تثير الدهشة والاستغراب ، ولكنه زاد البلبلة العامة وفاقم الاضطراب الشامل ...

يذكر القارىء أنه كان يجب علىّ فى الصباح ، تلبيةً لطلب فرفارا بتروفنا ، أن أصحب ستيفان تروفيموفتش فى زيارته لصديقه ، وأن أكون فى الساعة الثالثة بعد الظهر عند ليزافنا نيقولايفنا لأقول لها ... لا أدرى ماذا ، ولأساعدها لا أدرى كيف !

ولكن الأمور جرت مجرى ما كان لأحد أن يتنبأ به . الخلاصة أن ذلك اليوم كان حافلاً بالمصادفات الخارقة والاحداث العجيبة .

ولأبدأ من البداية : حين ذهبنا أنا وستيفان تروفيموفتش الى فرفارا بتروفنا فى الظهر تماما ، كما طلبت منا ذلك ، لم نجدتها فى بيتها : انها لم تكن قد رجعت من الصلاة بعد . كان صديقى المسكين فى حالة نفسية خاصة من شأنها أن تجعل غيابها هذا ينزل عليه نزول الصاعقة ، فإذا هو يضطرب أشد الاضطراب ، ويتهاوى على مقعد فى الصالون .. وقد جثته بكأس من الماء ، ولكنه رفض تناول الكأس باباء ، رغم أنه كان شديد شحوب الوجه ، وكانت يدها ترتعشان . يجب أن أشير ، عابرا ، الى أن ثيابه كانت فى هذه المرة أنيقة الى أبعد حدود الأناقة : قميص من الباتيسه البيضاء المطرزة (يكاد يكون قميص حفلة رقص) ، ورباط عنق أبيض ،

وقبعة جديدة من الكستور ، وقفازان جديدان بلون العاج ، وشيء من العطر الى ذلك كله .

وما كدنا نستقر في مكاننا حتى جاء الخادم يُدخل علينا شاتوف .
كان واضحا أنه هو أيضا قد تلقى دعوة رسمية . وقد همّ ستيفان تروفيموفتش أن ينهض ليصافحه ، ولكن شاتوف بعد أن تفرس فينا ملياً ، مضى يجلس في أحد الأركان حتى دون أن يحينا بانحناءة من رأسه .
فرشقتي ستيفان تروفيموفتش مرة أخرى بنظرة مروعة .

انقضت بضع دقائق على هذه الحال في صمت كامل . وأخذ ستيفان تروفيموفتش يكلمني بصوت خافت ، لكنني لم أستطع أن أفهم من كلامه شيئاً وكان على كل حال قد بلغ من الاضطراب أنه لم يتمكن من اتمام الكلام فصمت . وعاد الخادم وأخذ يرتب المائدة ، لكنني أظن أنه انما عاد ليرى ماذا كنا نفعل .

سأله شاتوف بصوت قوى :

– ألكسي ايجورتش ، هل خرجت داريا بافلوفا معها ؟

فأجاب الخادم يقول بلهجة فخمة وهو يشد على كل كلمة من كلماته :
– ان فرفارا بتروفا قد مضت بالعربة الى الكاتدرائية وحدها . أما داريا بافلوفا فقد بقيت في غرفتها ، لأنها مريضة قليلاً .

رشقتي صاحبي المسكين مرةً أخرى بنظرة فلكة ، حتى اضطرت أن أشيح وجهي عنه . وفجأةً سمعنا أصوات جرى عربة قرب بوابة المدخل ، ثم قامت في المنزل ضجة أدركنا منها أن فرفارا بتروفا قد عادت .
فنهضنا نحن الثلاثة بسرعة ، غير أن مفاجأة جديدة كانت تنتظرنا : ان ربة الدار لم تكن عائدة وحدها ، وانما كان يرافقها عدد من الاشخاص كما تدل على ذلك أصوات وقع الأقدام على الارض . ذلك كله كان أمرا

عجيباً ، لأنها هي التي حددت بنفسها ساعة لقائنا . وكانت الخطوات
مسرعة ، فكان القادمين يركضون ركضاً . لا يمكن أن تكون فرفاراً
بتروفنا هي القادمة ... وفجأة رأينا فرفاراً بتروفنا تقتحم الصالون
افتحاشاً ان صح التعبير ، وهي تلهث لهائاً شديداً ، وقد استبد بها انفعال
خارق . وكانت تتبعها ، على مسافة منها ، ليزافتا نيقولايفنا التي تتقدم
في سيرها هادئة ، وتمسك بيدها ماريّا تيموفيتفنا ليادكين . لو قد رأيت
هذا المشهد في حلم أثناء النوم ، لما صدقته لحظة واحدة .

ومن أجل أن أوضح هذا الظهور المثير للدهشة يجب أن أعود
قليلاً الى وراء ، وأن أروى المغامرة الخارقة التي وقعت لفرفاراً بتروفنا
عند خروجها من الكنيسة .

في ذلك اليوم ، كانت المدينة كلها تقريباً - أعني المجتمع الراقى -
قد ذهبت الى الكاتدرائية . فقد علم أن امرأة الحاكم ستحضر الصلاة في
ذلك اليوم ، لأول مرة منذ وصولها الى مدينتنا . وينبغي أن أذكر في هذه
المناسبة أن الشائعات التي جرت في المدينة كانت تنسب الى امرأة الحاكم
أنها لا تؤمن بالدين ، وأنها تتبنى الآراء الجديدة . وكانت سيداتنا جميعاً
من جهة أخرى تعلم أن امرأة الحاكم سترتدى أجمل ملابسها وأنها
ستظهر في أبهى حلة وأعظم أناقة . لذلك لبسن جميعاً في هذه المرة
أفخر الثياب ، وعُنين بهندامهن وزينتهن أشد العناية . فرفاراً بتروفنا
وحدها كانت ترتدى ملابس سوداء ، على عهدنا بها منذ أربع سنين . وقد
مضت تحتل مكانها المألوف المعتاد في الصف الاول ، على اليسار ؛ وجاء
خادم مرافق حسن الهندام فوضع أمامها وسادة من المخمل للسجود .
الخلاصة أن كل الأمور جرت كما تجرى في العادة . ومع ذلك لوحظ
أنها كانت طوال القداس تصلى بحرارة خارقة . وقد أكد فيما بعد ،

حين تم تذكر جميع التفاصيل ، أن عيناها كانت ملأى بالدموع • حتى اذا انتهت الصلاة أخذ أسقفنا ، الأب بولس ، يلقي موعظة فخمة • ودامت خطبته فى هذه المرة مدة طويلة •

ولم يكن قد أنهى خطبته حين نزلت سيدة* من عربة قرب الكاتدرائية • انها عربة من عربات الأجرة القديمة التى يقال لها درويكى ، والتى لا تستطيع النساء أن يجلسن فيها الا على جانب ، مشببات بحزام الحوذى ، مهتزات فى كل لحظة اهتزاز عشة فى مهب الريح • ان المرء ما يزال يرى عددا من عربات الدرويكي هذه فى مدينتنا • واذ كانت مركبات كثيرة وأعداد غفيرة من الدرك مرابطة أمام الباب ، فقد وقفت العربة فى ركن من الميدان • وحين نزلت السيدة من العربة ووضعت قدميها على الارض مدّت الى الحوذى أربعة كويكات من فضة • فلما رآته يصعّر وجهه قالت له :

- المبلغ قليل يا فانيا * ، أليس كذلك ؟

ثم أضافت تقول شاكية :

- هذا كل ما أملك •

فقال لها الحوذى وهو يرفع منكبيه ويتأملها تأملَ من يقول لها :
« انه لائم أن يؤمك الانسان » :

- طيب •• طيب •• عليك بركة الله ! ••

ثم دس كيسه الجلودى تحت نوبه ، وانصرف تشبّع مزحات الحوذيين الذين كانوا هناك • وشقت المرأة طريقا لها نحو أبواب الكنيسة بين العربات والخدم المرافقين الذين ينتظرون خروج أسيادهم ، شقت طريقها مشبّعة هى أيضا بالأمازيح ، مثيرةً بمرورها فضول الجميع • والحق أن الظهور المفاجيء لامرأة من هذا النوع فى الشارع وسط

الجمهور كان فيه غرابة تثير الدهشة • كانت نحيلة نحولا مرضيا ، وكانت
تخرج • وكانت مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ ، وكانت عارية العنق ،
لا ترتدى خمارا ولا معطفا ، ولا يسترها من الملابس الا ثوب عتيق قائم
اللون ، مع أن ذلك اليوم من شهر ايلول (سبتمبر) كان باردا رغم
الشمس ، وكانت رياحه شديدة • ولم يكن على رأسها قبة • وفي شعرها
المعقوف عند القفا كبة صغيرة ، قد غُرست وردة من ورق ، كالتى تزيّن
بها تماثيل الشمع التى تمثّل الكروبيين فى عيد الشعانين • وكنت قد
لاحظت بالأمس عند ماريا تيموفيئنا ، تحت الايقونات ، واحدا من تلك
التمائيل المتوّجة بالورود • وأغرب ما فى الأمر أن السيدة رغم أنها كانت
خافضة العينين تواضعا ، فانها لم تنقطع عن التبسم تبسماً مرحا ماكرا • ولو
أنها تأخرت قليلا لكان من الجائز أن لا يُسمح لها بالدخول ، ولكنها
استطاعت أن تلج الكاتدرائية وأفلحت فى أن تتسلل الى الامام شيئا بعد
شيء دون أن يشعر بها أحد •

ورغم أن الأب بولس واصل القاء خطبته ، وأن الجمهور الذى كان
يملاؤ الكنيسة كان يصغى اليه بانتباه وتركيز وصمت ، فان عددا من
الاشخاص قد ألقوا على المرأة المجهولة نظرات استطلاع مختلصة
مدهوشة • وجئت المرأة على ركبتيها وسجدت حتى لامس وجهها
المخضب الارض • ولبثت على هذا الوضع مدة طويلة تبكى بكاء غزيرا
فيما يظهر • ولكنها حين نهضت ، عادت الى حالها الاولى بسرعة ،
واستردت مرحها • وجالت بصرها على وجوه المحيطين بها وعلى جدران
الكاتدرائية ، مسرورة سرورا واضحا ، متفرسة بانتباه خاص فى بعض
تلك السيدات ، رافعة جسمها على ربوس أصابع قدميها فى بعض الأحيان
لترى رؤية أوضح ؟ وفى مرة أو مرتين انطلقت منها ضحكة صغيرة غريبة

حادثة • وانتهت الخطبة في أثناء ذلك ، وقدّم الأسقف الصليب للمصلين فتقدمت منه زوجة الحاكم أول المتقدمين ، لكنها توقفت حين أصبحت على مسافة خطوتين ، مُظهرةً بذلك أنها تريد أن تتنازل عن المكانة الأولى لفرافرا بتروفنا التي كانت من جهتها قد مشت نحو الصليب قدماً لانتلوى على شيء ، كأن ليس أمامها أحد • وكان واضحاً أن هذا الاحترام الشديد من جانب زوجة الحاكم كان يخفى وراءه نية السخرية • فهذا ما فهمه الجميع ، وهذا ما فهمته فرافرا بتروفنا مثل سائر الناس حتماً ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ أحداً ، فقبلت الصليب بوقار ثابت ومهابة رصينة ثم اتجهت بعد ذلك رأساً نحو باب الكنيسة لتخرج • وكان خادمها المرافق يفسح لها ممراً أمامها ، رغم أن جميع الناس كانوا يتقهقرون سلفاً من أجل أن تستطيع المرور في سهولة ويسر • ولكن جمعاً من الناس قد سدّوا طريقها لحظةً عند باب الخروج ، تحت سقفة المدخل • فتوقفت فإذا بانسانة عجبية هي المرأة المزدانة بوردة الورق تشق طريقاً بين الجمهور على حين فجأة ، وتجنّو على ركبتها أمام فرافرا بتروفنا • فنظرت إليها فرافرا بتروفنا التي يصعب أن تضطرب ، ولا سيما على مرأى من الناس ، نظرت إليها بهيئة وقورة رصينة مهية •

أسارع فأذكر هنا ، بأكبر إيجاز ممكن ، أن فرافرا بتروفنا ان تكن قد أصبحت في هذه السنين الأخيرة حريصة بل وبخيلة قليلاً ، فلقد كان يتفق لها في بعض الأحيان أن تكون مبسطة الكف ، ولا سيما في أعمال البر والاحسان • لقد كانت عضوةً في جمعيةٍ للبر والاحسان بالعاصمة • وفي ابان المجاعة الكبرى الأخيرة * ، أرسلت الى اللجنة المركزية لاغاثة الجياع خمسمائة روبل ، وذلك أمر تحدث عنه الناس كثيراً في مدينتنا • كما أنها في الآونة الأخيرة ، حتى قبل تعيين الحاكم الجديد ، قد فكرت

فى مشروع تأسيس لجنة من السيدات تتولى مساعدة الحوامل الفقيرات بالمدينة والأقاليم . ولقد كان يؤخذ عليها كثيراً أنها شديدة الطموح ، ولكن الحماسة التى اشتهرت بها فرفارا بتروفنا ، وكذلك دأبها وصبرها ومنابرتها قد أوشكت أن تذلل جميع المصاعب وأن تغلب على جميع العوائق . وكادت اللجنة أن تتشكل ، حتى أن المشروع قد اتسع مزيداً من الاتساع فى نفس صاحبة الزاخرة بالحماسة ، فكانت تحلم بأن يشمل روسيا كلها . ولكن تغير الحاكم أنهى جميع هذه المشروعات : فان زوجة الحاكم الجديد ، قد أبدت فى أوساط المجتمع الراقى ملاحظات لاذعة فيما يظهر ؛ والأنكى من ذلك أن تلك الملاحظات كانت صائبة سديدة ، اذ وضعت تشكيل لجنة من هذا النوع بأنه مشروع غير عملى ، وسرعان ما نقل الناس هذه الملاحظات لفرفارا بتروفنا موسعة مضخمة . ان الله وحده يعرف قرارة القلوب ، ولكنى أظن أن فرفارا بتروفنا قد سرها أن تقف تحت سقيفة مدخل الكاتدرائية ، فهى تعلم أن امرأة الحاكم التى تتبعها جميع السيدات ستمر فوراً فقالت لنفسها : « ألا فلتر بعينها انى لا أعبا بما قد تقوله عن برى واحسانى اللذين تزعم أنهما لا غناء فيهما وأنهما يشتملان على طموح كبير . وهذا درس لكم جميعاً ! » .

نظرت فرفارا بتروفنا بانتباه الى المرأة الراكمة أمامها وأسألتها :

— ماذا يا عزيزتى ؟ ماذا تريدين ؟

فتأملت المرأة الراكمة بنظرة فيها اضطراب وخشية وعبادة فى آن واحد ، ثم أخذت تضحك فجأة ضحكتها الصغيرة الحادة تلك نفسها .
ألحت فرفارا بتروفنا سائلة وهى تجيل من حولها نظرة صارمة مستفهمة :

— ماذا تريد ؟ من هى ؟

فلم يجيبها أحد •
- أأنت بائسة ؟ هل أنت في حاجة الى مساعدة ؟
- في حاجة ••• لقد جئت •••
كذلك دمدت « المسكينة » بصوت يقطع الانفعال • وتابعت تقول :
- لقد جئت لأقبل يدك •

وأخذت تضحك • وبنظرة ساذجة بريئة ، بنظرة من نظرات الاطفال
الذين يلاطفونك لينالوا حظوتك ، همست أن تتناول يد فرفارا بتروفنا ،
لكنها وقد اعترها ما يشبه الخوف تقهقرت فجأة الى وراء •
قالت فرفارا بتروفنا وهي تبسم ابتسامة شفقة :
- ألم تجيئي الا من أجل هذا ؟

ولكنها سرعان ما استلت من محفظة تقودها ورقة بعشرة روبلات
ومدتها الى المرأة المجهولة • فتناولت المرأة المجهولة الورقة • كان يبدو
على فرفارا بتروفنا اهتمام شديد بالمرأة الشابة ، وكان واضحاً أنها لاتعدها
متسولة عادية •

قال صوت في الجمهور :
- هل رأيت ؟ لقد أعطتها عشرة روبلات !
تمت « المسكينة » تقول وهي تشد بأصابع يدها اليسرى على طرف
ورقة العشرة روبلات التي كانت تهزها الريح :
- يدك ، أرجوك !

فقطبت فرفارا بتروفنا حاجبيها قليلاً ، ومدت يدها بوقار ورسالة
بل وبما يشبه القسوة في قسمات وجهها • فقبلت المرأة المجهولة اليد
باحترام واجلال • وسطع في نظرتها الملأى بالعرفان نوع من نشوة •

وفي تلك اللحظة نفسها انما ظهرت زوجة الحاكم تحت باب الكاتدرائية ،
تبعها جمهرة من السيدات وكبار الموظفين • فاضطرت أن تتوقف • وفعل
الآخرون مثلما فعلت •

— أترتجفين ؟ هل تشعرين ببرد ؟

كذلك سألت فرفارا بتروفنا فجأة ، ثم نضت عنها معطفها الذي تناوله
الخدام المرافق طائراً ، ونزعت عن كتفها شالاً أسود غالى الثمن ، وتولت
بنفسها خلعها على العنق العارى ، عنق المرأة المجهولة التي ما تزال راكبة •

— انهضى ، انهضى ، أرجوك !

نهضت المرأة الشابّة •

— أين تعيشين ؟ هل يُعقل أن لا يعرف أحد أين تعيش ؟

وأجالت فرفارا بتروفنا بصرها على من حولها مرة أخرى نافذة
الصبر • ولكن الوجوه التي رأتها الآن غير الوجوه التي رأتها منذ قليل :
انها محاطة الآن بأشخاص تعرفهم ، وأناس من المجتمع الراقى كانوا
يرقبون المشهد ، فبعضهم يرقبه باستغراب قاس ، وبعضهم يرقبه باستطلاع
خبيث وفضول مآكر ، ويأمل أن تقع فضيحة وجرسة ؛ حتى أن بعضهم
قد أخذ يضحك ساخراً منذ ذلك الحين •

وأخيراً وُجد رجل شهم يجيب عن سؤال فرفارا بتروفنا ؛ قال واحد
من تجارنا المعتبرين ، واسمه أندرييف •

— أظن أن اسمها ليادكين •

كان الرجل ذا نظارتين ، وكان أبيض اللحية ، وكان يرتدى ثياباً
على الطراز الروسى ، وله قبعة اسطوانية كان يمسكها فى تلك اللحظة
بيده •

وأضاف يقول :

- انها تسكن فى عمارة فيليوف ، شارع ايبفانيا •
- ليادكين ؟ فى عمارة فيليوف سمعت عن شئ من هذا فعلاً
.... شكرا يا نيكون سيموتش • ولكن من هو ليادكين هذا !
- رجل يسمى نفسه كابتن • هو امرؤ مريب ! أغلب الظن أن هذه
المرأة أخته •
وأضاف آندرييف يقول خافضا صوته ، ناظرا الى فرارا بتروفسا
بهيئة ذات دلالة :
- لعلها خادعت رقابته وخرجت •
قالت فرارا بتروفسا :
- فهمت • شكرا يا نيكون سيموتش •
ثم قالت تسأل المرأة المسكينة :
- أأنت السيدة ليادكين يا عزيزتى ؟
- لا ، لست السيدة ليادكين •
- اذن أخوك هو ليادكين ؟
- نعم ، أخى هو ليادكين •
- اليك ما سأفعله يا عزيزتى : سوف آخذك الى بيتى ، ومن هناك
يوصلونك الى مسكنك • هل تريدن أن تجيئى معى ؟
- نعم نعم ، أريد أريد !
كذلك هفت الأنسة ليادكين وهى تضم يديها احدهما الى الاخرى
ضارعة •
وفجأة دوى صوت ليزافنا نيقولايفنا يقول :
- عمتى ، عمتى ، خذينى معك !

كانت ليزافنا يقولايضا قد جاءت الى القداس مع زوجة الحاكم ،
بينما كانت براسكوفيا ايفانوفنا تقوم ، تنفيذاً لأمر الطبيب ، بنزهة في العربة
مصطحبة مافكريكي يقولايفتش لتسلي . تركت ليزا امرأة الحاكم بفتة
وهرعت نحو فرفاراً بتروفنا .

بدأت فرفاراً بتروفنا تكلمها فقالت وهي تصطنع غاية الأبهة
والجلال :

- انك لتعلمين يا عزيزتي اننى يسعدنى دائماً أن أراك ... ولكن
ما عسى أمك قائلة ...

ولكن فرفاراً بتروفنا توقفت عن الكلام مضطربة أشد الاضطراب
حين لاحظت ما تعانيه ليزا من بلبلة وتشوش وقلق . قالت ليزا ملحّة وهي
تقبل فرفاراً بتروفنا :

- عمتى ، عمتى ، يجب أن أذهب معك حتما .
وهنا تدخلت امرأة الحاكم فقالت باللغة الفرنسية فى دهشة
ملحوظة :

- ولكن ماذا دهالك يا ليزا ؟ (بالفرنسية) .
- معذرة يا ابنة العم العزيزة ، اننى ذاهبة مع عمتى .
كذلك قالت ليزا لابنة العم العزيزة المدهشة اندهاشا أليما ، وهي
تقبلها على عجل . وأضافت :

- وقولى لاما أيضا أن تدركنى فوراً فى بيت عمتى . وهي عازمة على
ذلك عزماً أكيدا على كل حال . ذكرت لى هذا هى نفسها منذ برهة ،
لكننى نسيت أن أبلغك . سامحيني . لا تزعلي « يا جوليا ، يا ابنة العم
العزيزة » (بالفرنسية) ... عمتى أنا مستعدة !

كذلك قالت ليزا متدفقة فى كلامها • ثم دمدت تقول هامسةً فى
أذن فرارا بتروفا وقد استبد بها حزن شديد :

- اذا لم تأخذينى معك ، فلأركضن وراء عربتك صاحبة !
من حسن الحظ أيضا أن أحدا لم يسمع ما قالت • وقد تهقرت
فرارا بتروفا خطوة الى وراء ، وألقت نظرة ثابتة نافذة قوية على الفتاة
التي طائس صوابها • وكان من شأن هذه النظرة أن قررت كل شيء : لقد
عزمت فرارا بتروفا على أن تصطحب ليزا •

وأقلت من لسانها قولها :

- يجب أن نضع حدا لهذا كله • طيب • سأخذك معى راضية
مسرورة يا ليزا ، على شرط أن توافق جوليا ميخائيلوفنا طبعاً •
وقد أضافت فرارا بتروفا هذه الجملة الاخيرة وهى تلتفت نحو
امرأة الحاكم بهيئة صريحة وقورة •
فتمت جوليا ميخائيلوفنا تقول وقد أصبحت متوددة لطيفة على
حين فجأة :

- آآآ طبعاً ، حتماً ، لا أريد أن أحرمها من هذه المسرة ؛ لاسيما
وأنتى أنا نفسى ••• انتى أعرف الرأس الصغير الخيالى المستبد الذى
تحملها فوق كفيها •

قالت امرأة الحاكم ذلك وابتسمت ابتسامة عذبة •
فأجابت فرارا بتروفا وهى تحيىها تحية فيها تودد وجلال :
- أشكرك كثيرا •

وتابعت جوليا ميخائيلوفنا كلامها تقول مفتحة حتى لقد احمر وجهها
سرورا وانفعالا :

- ومما يزيد مسرتي أن ما يحض ليزا على مصاحبتك هو أنها أولاً
تريد أن تسعد بلقائك وانها ثانياً مدفوعة بعاطفة رائعة كل الروعة ، سامية
كل السمو ان صح التعبير ، وهى عاطفة الشفقة ... و ... عند مدخل
الكنيسة ...

قالت جوليا ميخائيلوفنا ذلك ونظرت الى « المرأة المسكينة » .
فأجابت فرفاراً بتروفا مؤيدةً كلام جوليا ميخائيلوفنا بكرم وسخاء :
- هذه أقوال تشرف قائلها ...

فانبرت جوليا ميخائيلوفنا تمد اليها يدها بحماسة ، فسرّ فرفاراً
بتروفا أن تمس تلك اليد بأصابعها . وكان الأثر العام رائماً ، فالوجوه
تشرق بهجةً ؛ وكان بعضهم يتسممون ، لكن ابتسامتهم كاذبة تصطنع الرقة
والعدوبة اصطناعاً .

الخلاصة أن المدينة كلها قد أدركت ادراكاً واضحاً أن جوليا
ميخائيلوفنا ليست هى التى ازدردت فرفاراً بتروفا حتى الآن ، مهمة
زيارتها ؛ وأن الحقيقة هى نقيض ذلك ، فرفاراً بتروفا هى التى « جفت
جوليا ميخائيلوفنا ، فلولا ذلك لهرعت جوليا ميخائيلوفنا الى السيدة
ستافروجين سيراً على الأقدام اذا وثقت فقط بأنها ستستقبلها » . وسرعان
ما علت مكانة فرفاراً بتروفا علواً كبيراً ، وازدادت مهابتها وسطوتها .

قالت فرفاراً بتروفا وهى تشير للآنسة لبيادكين الى العربى التى
وقفت فى تلك اللحظة أمام الكاتدرائية :

- اركبى يا عزيزتى .

فههرعت المسكينة نحو المركبة فرحةً ، وساعدها الخادم المرافق على
الركوب .

هتفت فرفاراً بتروفا تقول وقد بدا عليها الذعر واصفر وجهها
اصفراراً شديداً :

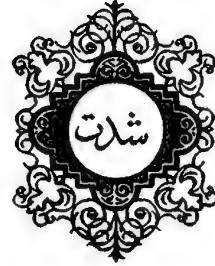
- ماذا ؟ أتمرجين ؟

(وقد لوحظ ارتباها ، غير أن أحدا لم يفهم سببه) •

وانطلقت المركبة • ان منزل فرفاراً بتروفا قريب جداً من
الكاتدرائية • وقد روت لى ليزا فيما بعد أن الأسسة ليادكين ، خلال
الدقائق الثلاث التى استغرقها قطع الطريق ، كانت تضحك ضحكها
الهستري بغير توقف ، بينما لبثت فرفاراً بتروفا ساكنة جامدة « كالفارقة
فى نوم مغناطيسى » على حد تعبير ليزا •

الفصل الخامس الدفعوان البارع

١



فر فارا بتروفا جبل جرس صغير وتهاوت على
كرسى قرب النافذة • وقالت لماريا تيموفيتنا وهي
تشير لها الى كرسى فى وسط الغرفة بقرب
مائدة كبيرة مستديرة :

- اجلسى هنا يا عزيزتى • ياستيفان تروفيموفتش ، ما معنى هذا ؟
انظر الى هذه المرأة ! نعم ، انظر اليها ، ما معنى هذا ؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول متلعثما :

- أنا أنا

ولكن خادما دخل فى تلك اللحظة •

- هات فنجان قهوة ، فوراً ، بأقصى سرعة ، ولا تفكوا الحبل •

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية بصوت محتضر :

- « ولكن ، يا صديقتى العظيمة العزيزة ، ما أشد هذا القلق !

(بالفرنسية) •

فصاحت ماريا تيموفيتنا تقول وهي تصفق يديها وتنها مفتونة

لشهود حديث باللغة الفرنسية :

– آ... تتكلمون بالفرنسية ! تتكلمون بالفرنسية !

فأملتها فر فارا بتروفا بما يشبه الرعب •

ولزمت الصمت تنتظر ما سيحدث • لم يرفع شاتوف رأسه • أما ستيفان تروفيموفتش فكان يبدو منقلب النفس رأساً على عقب كأنه يشعر أنه هو المذنب في هذا كله ، وأن الخطأ خطؤه • وكانت قطرات من عرق تتلألأ على صدغيه •

ألقيت نظرة على ليزا • كانت جالسة في ركن الى جانب شاتوف تقريباً • وكانت تتقل نظرتها الفاحصة المتفرسة من فر فارا بتروفا الى العرجاء ، ومن العرجاء الى فر فارا بتروفا • وكانت ابتسامة تقلص شفيتها ، لكنها ابتسامة خبيثة • لاحظت ذلك فر فارا بتروفا • وكانت ماريا تيموفيتشنا أثناء ذلك تبدو مفتونة : انها تنظر بمسرة واضحة ودون أى ارتباك الى صالون فر فارا بتروفا الجميل ، وأثاثه الفاخر ، وسجاده النفيس ، ولوحاته المعلقة بالجدران ، ونقوشه التي تزين السقف ، والتمثال البرونزي الذي يمثل المصلوب منتصباً في ركن من الأركان ، والمصباح الخرزى ، ودفانر الصور ، والبللوهات الموضوعة على المائدة •

وهتفت تقول فجأة :

– كيف ؟ أنت أيضاً هنا يا شاتوشكا ! تصور أنتى رأيتك منذ مدة ولكننى قلت لنفسى : لا ، ليس هو ، أنتى له أن يكون هنا ؟

وضحكت فى فرح •

قالت فر فارا بتروفا تسأل شاتوف وهى تلفت اليه بقوة :

– أتعرف هذه المرأة ؟

فجمجم شاتوف يقول وهو يتحرك مضطرباً على مقعده :

– نعم ، أعرفها •

- ماذا تعرف عنها ؟ أسرع فى الاجابة قليلا ، أرجوك •
- ماذا أقول لك ؟
- قال شاتوف ذلك وابتسم ابتسامة غامضة لا تناسب كثيرا مع الموقف •
وتابع كلامه فقال :
- انك لترين بنفسك •••
- ماذا أرى ؟ ولكن هلاّ قلت شيئا •••
- انها تقيم فى نفس العمارة التى أقيم فيها ••• مع أخيها •••
الضابط •••
- وماذا أيضا ؟
- تردد شاتوف • ثم دمدم يقول متلعثما :
- لا حاجة الى الكلام •
- وعاد الى صمته الكامل وقد احمر وجهه احمرارا شديدا من الجهد
الذى بذله • قالت فرفارا بتروفا مستاءة :
- طبعاً لا يمكن أن يتوقع المرء منك غير هذا •
- لقد كانت ترى رؤية واضحة أننا جميعا نعلم شيئا ما ، لكننا نوجس
خوفا ونحاول أن نتحاى أسئلتها ، أى أن نمة سرّاً •••
- ودخل الخادم وقدّم اليها ، على صينية صغيرة من فضة ، فنجان القهوة
الذى كانت قد أمرت به ، ولكنها أومأت اليه فاتجه نحو ماريا تيموفيتشنا •
- قالت فرفارا بتروفا لماريا تيموفيتشنا :
- منذ قليل كنت تشعرين ببرد يا عزيزتى ، فاشربى هذه القهوة
سرعة ، فتدفئى •
- فقلت ماريا تيموفيتشنا وهى تتناول القهوة ، قالت بالفرنسية :
- « شكرا » (بالفرنسية) •

وانفجرت تضحك فجأة ، اذ تصورت انها قالت للخادم «شكرا»
بالفرنسية . لكنها ، وقد التقت نظرتها بنظرة قاسية تسطع في عيني فرفارا
بتروفا ، خافت ووضعت الفئجان على المائدة .

ثم تمتعت تقول بشيء من المرح :

- أتراك زعلت يا عمتي ؟

فاذا بفرفارا بتروفا تصيح مستهجنة :

- ماذا ؟

واذا هي ترتعش وتقوم عن كرسيها متابعة كلامها فتقول :

- أنا لست عمتك ؟ ماذا تعنين بهذا الكلام ؟

ودُهِشت ماريا تيموفيتشنا من هذا الغضب المفاجيء ، فتقهقرت الى
وراء ، وأخذت ترتعش كأن بها حمى . وقالت متلعشة وهي تنظر الى
فرفارا بتروفا محملقة :

- كنت ... كنت أظن أن عليَّ أن أناديك هكذا . فهكذا تناديك

ليزا .

- ما هذا الذي تقولينه أيضا ؟ من هي ليزا هذه التي تتحدثين عنها ؟

فأشارت ماريا تيموفيتشنا الى ليزا باصبعها قائلة :

- هي هذه الآنسة ؟

- كيف ؟ أتسمينها ليزا أيضا ؟

- أنت نفسك سميتها هكذا منذ قليل .

كذلك قالت ماريا تيموفيتشنا متجترئة قليلاً ، وتابعت كلامها تقول
ضاحكة كأنها تفكر في شيء آخر :

- رأيت في منامي آنسة جميلة شبيهة بها كل الشبه .

فكّرت فرفارا بتروفا لحظةً ، وهدأت قليلاً ، حتى لقد تبسمت
تبسماً خفيفاً حين سمعت كلمات ماريّا تيموفيتنا الأخيرة • فحين لاحظت
ماريا هذه الابتسامة ، نهضت واقتربت منها خجلةً وجلةً وهي تمرّج •
وقالت وهي تنزع عن كفيها الشال الاسود الذي كانت فرفارا بتروفا قد
لفعتها به :

— خذيه ، نسيت أن أردّه اليك ، اغفري لى قلة أدبى •

— بل ردّيه الى كتفيك فوراً ، واحتفظى به لنفسك • هيّا اجلسى ،
واشربى قهوتك ؟ ورجائى اليك يا عزيزتى أن لا تخافى منى • هدى
روعك • لقد بدأت أفهمك •

سمح ستيفان تروفيوفتش لنفسه أن يتدخل فقال يخاطب فرفارا
بتروفا بالفرنسية :

— « صديقتى العزيزة » •••

فما كان من فرفارا بتروفا الا أن قالت متملّمة :

— آه ••• ستيفان تروفيوفتش ، ان الموقف معقد تعقيدا كافيا دون
أن تزيد بكلامك أنت تعقيداً •• شدّ جبل هذا الجرس الموجود بقربك ،
أرجوك •

وساد صمت •

كانت تجيل علينا جميعا نظـرة حائقة مرتابة • ودخلت آجائنا ،
خادمتها الأنيـرة • فقالت لها فرفارا بتروفا :

— هاتى لى الشال ذا المربعات ، الذى اشتريته من جنيف • ماذا تعمل
داريا بألفوفنا ؟

— انها متوعةكة الصحة يا سيدتى •

- اصعدى اليها واطلبى منها أن تجيء • وأضيفى الى ذلك أنتى أرجوها ملحةً أن تجيء ولو كانت مريضة •

وفى تلك اللحظة نفسها سمعنا أصوات وقع أقدام غير مألوفة ، فما هى الا هنيهة حتى ظهرت فى عتبة الباب ، على حين فجأة ، براسكوفيا ايفانوفنا لاهة الأنفاس زائغة الهيئة ، يسندها مافريكى نيقولايفتس •

صرخت براسكوفيا ايفانوفنا تقول بصوت حاد ، معبرة بهذا الصراخ ، على عادة الأشخاص الضعاف المحتاجين ، عن كل النضب الذى كان قد تراكم فيها :

- آه رباه ! لقد نفذ صبرى ! ليزا ، أنت مجنونة ! انظرى كيف تعاملين أمك ! يا فرفارا بتروفنا ، لقد جئت لأخذ ابنتى •

فألقت عليها فرفارا بتروفنا نظرة من تحت ، وأنهضت جسماً قليلاً ، وقالت وهى تحاول بجهد كبير أن تخفى امتعاضها :

- نهارك سعيد يا براسكوفيا ايفانوفنا • اجلسى ، أرجوك • كنت أعلم أنك لا بد آتية •

ليس في هذا الاستقبال شيء كان يمكن أن لا تتوقعه براسكوفيا
ايفانوفنا . ان فرفارا بتروفنا تعامل رفيقة مدرستها هذه معاملةً تشتمل
دائما على استبداد وطفيان يختفيان تحت ستار الصداقة ، بل لقد كانت
تعاملها بما يشبه أن يكون ازدياء . غير أن ذلك اليوم كان يبدو استثناءً
من القاعدة مع ذلك .

لقد سبق أن ذكرت عرضاً أن القطيعة بين السيدتين أصبحت شبه
تامة منذ بضعة أيام . ومع ذلك فإن أسباب هذه القطيعة كانت ما تزال سرّاً
خفياً في نظر فرفارا بتروفنا ، فكان ذلك يؤلم فرفارا بتروفنا ايلا ما خاصاً
غير أن الشيء الرئيسي هو أن براسكوفيا ايفانوفنا تتخذ الآن ازاءها وضعا
فيه تعالٍ عجيب وغطرسة . وكان طبعاً أن يصيب هذا فرفارا بتروفنا
بجراح بليغة عميقة . زد على ذلك أن شائعات غريبة كانت قد أخذت
تصل الى مسامعها ، وهي شائعات غامضة جداً ، كانت تحقنها لهذا السبب
الى أبعد حدود الحقن . ان من طبيعة فرفارا بتروفنا أنها مستقيمة ذات
كبرياء ، بل وأنها تميل الى النزال والقتال . وهي لا تكره شيئاً كما تكره
الانهزامات الملتوية والغمزات الخفية ، وتؤثر على ذلك أن تكون الحرب
سافرة صريحة . ومهما يكن من أمر ، فإن هاتين السيدتين لم تلتقيا منذ
خمسة أيام ، أي منذ آخر زيارة قامت بها فرفارا بتروفنا لهذه « السيدة
دروزدوف » ، وهي زيارة عادت منها فرفارا بتروفنا مضطربة أشد
الاضطراب ، حائرة أكبر الحقن . وفي وسمى أن أقول غير خائف من
الخطأ أن براسكوفيا ايفانوفنا حين دخلت الآن كانت مقتنعة بأن فرفارا

بتروفا لا بد أن تخاف منها : كان ذلك واضحاً في تعبير وجهها • ولكن فراراً بتروفا ما ان يحملها باعث من البواعث على افتراض أن من الممكن أن تُظن مُدَلَّة حتى يركبها عفريت العجب ويستولى عليها شيطان المعجزة •

وكانت براسكوفيا ايفانوفنا ، ككثير من الاشخاص الضعاف الذين يتحملون سوء المعاملة مدة طويلة دون أى احتجاج ، تعتمد الى الهجوم العنيف متى أتاحت لها فرصة الهجوم العنيف • هذا الى أنها مريضة ، وقد جعلها المرض أكثر احتياجاً وأشد تأذياً بطبيعة الحال • ويجب أن أضيف الى ذلك أخيراً أن وجودنا نحن فى الصالون لا يمكن أن يحرج هاتين الصديقتين اذا وجب أن تنشب بينهما مشاجرة : فهما تعدّأنا جزءاً من الأسرة ، وتعدّأنا كذلك أدنى مستوى وأهون شأن • وقد خطرت ببالي هذه الفكرة وأنا أشعر بغير قليل من القلق • وحين سمع ستيفان تروفيموفتش صوت براسكوفيا ايفانوفنا الحاد الصارخ ، ولم يكن قد جلس منذ وصول فراراً بتروفا ، تهاوى على كرسية خائر القوى ، وحاول أن يقع بصره على نظرتي وقد بدا في وجهه كمد شديد • وتحرك شاتوف مضطرباً على كرسية ، وجمعهم ينطق بضع كلمات من بين أسنانه • فخيَّل الى أنه يهمُّ أن ينهض وينصرف • وهمت ليزا أيضاً أن تنهض ، ولكنها سرعان ما عادت تجلس حتى دون أن تولى صرخات أمها ما توجهه الظروف من انتباه واهتمام • ولم يكن ذلك ثمرة من ثمرات « عناد رأسها » قط ، وانما كان نتيجة فكرة استولت على نفسها استيلاء كاملاً ، واستغرقت نفسها استغرافاً واضحاً • انها تنظر الى أمام كالذاهلة ، حتى لقد انقطعت عن الاهتمام بما رايّا تيموفيتشنا •

هتفت براسكوفيا ايفانوفنا تقول وهى تستقر بمعاونة مافريكى
يقولان يفتش على مقعد قرب المائدة :

- آه ... أخيرا أجلس !

ثم أضافت تقول بصوت محطّم :

- لولا آلام شديدة فى ساقىّ لما جلست عندك يا عزيزتى •

فرفعت فرفارا بتروفا رأسها قليلا ، وضغطت بأصابع يدها اليمنى على
صدغها الذى كان واضحا أنها تحس بأوجاع فيه ، وقالت :

- لماذا يا براسكوفيا ايفانوفنا ؟ لماذا عساك ترفضين الجلوس عندى ؟
لقد كان المرحوم زوجك يحمل لى دائما أكبر الصداقة ؟ ويا طالما لعبنا معاً ،
أنا وأنت ، لعبة العروسة ، أيام كنا صبيتين صغيرتين فى المدرسة الداخلية !
حركت براسكوفيا ايفانوفنا يدها بإشارة تملل وقالت :

- هذا ما كنت أتوقعه • كلما اتويت أن تأخذى علىّ المآخذ ،
استحضرت ذكرياتنا فى المدرسة الداخلية • هذا أسلوبك وهذه خطتك •
فى رأى أن ما تقولينه هنا ليس الا جملاً منمّقة • اعلمى اننى أكرهها
وأحتقرها ، هذه المدرسة الداخلية التى تجيئين على ذكرها !

- يبدو لى أنك معتكرة المزاج • كيف حال ساقيك ؟ ها ... اليك
القهوة • اشربها • أرجوك • وكفى عن الغضب !

- انك تعامليننى كما يعامل طفل صغير • لا أريد قهوتك •

قالت براسكوفيا ايفانوفنا ذلك ، وأبعدت بإشارة حاتقة ساخطة الخادم

الذى جاء يقدم لها فنجاناً من القهوة) وما من أحد شرب قهوة الا أنا
وما فريكي نيقولا يقتش • وقد أخذ ستيفان تروفيموفتش فنجانا ، ولكنه
تركه على المائدة دون أن يرشف منه رشفة واحدة • أما ماريا تيموفيتشنا
فقد ودّت لو تأخذ فنجانا ثانيا حتى لقد مدّت يدها الى الصينية ، لكنها
فكرت فى الأمر فأسرعت ترفض بوقار ، راضيةً عن حركتها هذه رضى
واضحا •

ابتسمت فرارا بتروفا ابتسامة مقهورة ، وقالت :

— لا بد أنك تخيلت شيئا من الأشياء يا عزيزتى براسكوفيا ايفانوفنا ،
وأنتك انما دخلت الى هنا ممثلة بما ذهب اليه خيالك • لقد عشت دائما
فى وسط أخيلتك وأوهامك • انك تنفضين اذا أنا جئت على ذكر مدرستنا
الداخلية ، ولكن هل تذكرين أنك حين عدت من اجازة الصيف قد
زعمت لتلميذات الصف كله أن الضابط فى سلاح الفرسان ، شابكيلىن ،
قد خطبك من أهلك ؟ ان السيدة ليفيور قد أقنعتك فورا بأنك تكذبين ،
والحق أنك لم تكذبى ، وانما أنت تخيلت هذه القصة تخيلا من باب
التسلية • فقولى لنا : ماذا هناك الآن ؟ ماذا تخيلت أيضا ؟ مم أنت مستاءة !
— وأنت أيضا وقعت فى غرام القس الذى كان يعلمنا الدين • ذلك
أنت ، ما دمت حقودة الى هذا الحد • ها ها ها ! ...

وانطلقت تضحك ضحكة مرة تحولت الى نوبة سعال شديد •

قالت فرارا بتروفا وهى تلقى عليها نظرة زاخرة بالبغض :

— آ ... اذن لم تنسى حكاية القس ...

وانكفأ لون وجهها حتى صار ضاربا الى خضرة • فاذا ببراسكوفيا
ايفانوفنا تنهض فجأة متجهمة الوجه وتقول :

— لست الآن فى حالة نفسية تساعدنى على الضحك يا عزيزتى •

لماذا أقحمت ابنتى فى فضائحك على مرأى ومسمع من المدينة كلها ؟ من أجل أن أعرف هذا انما جئت •

فما ان سمعت فر فارا بتروفا هذا الكلام حتى صاحت تقول بلهجة التهديد :

— فضائحي ؟

فاذا بليزافنا نيقولايفنا تتدخل فتقول مخاطبةً أمها :

— أنا أيضا أطلب منك أن تلتزمى الاعتدال والقصد يا أماه •

— ماذا تقولين ؟

كذلك سألت الأم وهى تستعد لأن تنفجر صائحة منتحبة ، لكنها وقد رأت ما يسطع فى عيني ابنتها من نظرات ملتبهة مستعرة ، أمسكت على حين فجأة :

قالت ليزا وقد احمرت احمرارا شديدا :

— كيف يمكنك أن تتحدثنى عن فضائح يا ماما ؟ لقد جئت بمحض ارادتى ، واستأذنت جوليا ميخائيلوفنا ، لأننى أردت أن أعرف قصة هذه المسكينة وأن أساعدها •

قالت براسكوفيا ايفانوفنا تكرر جملة ابنتها وهى تضحك ضحكة خبيثة :

— « قصة هذه المسكينة ! » ما شأنك أنت وهذه القصص يا عزيزتى ؟

والفتت نحو فر فارا بتروفا ساخطة سخطا شديدا ، وقالت لها :

— يا عزيزتى ! لقد ضقنا ذرعا بطميناك واستبدادك ! يقال هنا ، خطأ أو صوابا ، انك تسيّرين المدينة كلها باشارة من أصبعك أو غمزة

من عينك ، ولكن آن الأوان لأن ينتهى هذا كله • لن يحدث شئ من هذا بعد اليوم !

كانت فرارا بتروفا متصبية الجذع كسهم يهيم أن ينطلق من القوس • وألقت على براسكوفيا ايفانوفنا نظرة ثابتة طويلة قاسية ، ثم قالت لها أخيرا بهدوء مخيف :

— احمدى الله يا براسكوفيا على أنه ليس هنا الا أصدقاء • لقد نطقت بأقوال كثيرة لا داعى اليها •

— أنا لا أخشى رأى الناس • ولكنك أنت التى ترتعشين خوفا من الناس ، تحت ستار من الكبرياء الباطلة والزهو الكاذب • فاذا كان هؤلاء أصدقاء ، فذلك من حسن حظك •

— أتراك أصبحت أكثر ذكاء فى خلال هذه الايام الثمانية ؟

— لا ، ليس الامر هذا • كل ما هنالك أن الحقيقة قد تكشفت ساطعة باهرة فى هذا الاسبوع •

— أية حقيقة ؟ اسمعى يا براسكوفيا ايفانوفنا ، لا تحنقينى ، اشرحى ما بنفسك فورا • اننى أطلب منك هذا جادة : ما هى تلك الحقيقة ؟ ماذا قصدت من ذلك الكلام ؟

— الحقيقة هى هذه ! انها موجودة أمامك !

كذلك هتفت براسكوفيا ايفانوفنا، مشيرةً باصبعها الى ماريا تيموفيتشنا عازمةً ذلك العزم المستميت الذى لا يحفل بالعواقب ، راغبةً فى أمر واحد لا ثانى له ، هو أن تضرب ضربة قوية • وكانت ماريا تيموفيتشنا تنفرس فيها باهتمام يسليها ، فلما رأَت اصبع الزائرة تمتد نحوها مشيرةً اليها ، انطلقت ضحكة فرحة ، وطففت تتقلقل على كرسيها مرحة •

هتفت فرارا بتروفا تقول :

— يا يسوع المسيح ، لقد أصبحوا جميعا مجانين !

واصفر وجهها اصفرارا شديدا ، وتهاكت في مقعدها • حتى لقد بلغت من الأصفرار أننا خفنا خوفا كبيرا ، وكان ستيفان تروفيوموفتش أول من هرع نحوها • واقتربت أنا منها • ونهضت ليزا أيضا ، ولكنها سرعان ما توقفت • على أن براسكوفيا ايفانوفنا كانت أشد ارتياحا على الاطلاق ، فقد انطلقت من صدرها صرخة ، ونهضت من مكانها في مشقة وعناء ، وقالت بصوت داعم له أنين :

— فرارا بتروفا ، عزيزتي الغالية ، اغفري لي حماقتي وشرى • ولكن هاتوا لها قليلا من الماء •

— لا تشئي يا براسكوفيا ايفانوفنا ، أرجوك ! وابتعدوا أيها السادة ، رحماك ! لست في حاجة الى ماء يا براسكوفيا ايفانوفنا !

أضفت فرارا بتروفا هذه الجملة الأخيرة بصوت ثابت وان يكن أجس • وكانت شقتها قد ذهب عنهما لونهما تماما •

استأنفت براسكوفيا ايفانوفنا كلامها فقالت وقد هدأت قليلا :

— فرارا بتروفا ، صديقتي • لقد أفلتت مني كلمات حمقاء حقا ، لكنني قد أخرجتني عن طورى رسائل غير مذيلة بأسماء مرسلها ، قصفتني بها أوغاد لا أدرى من هم • كان عليهم أن يرسلوها اليك أنت ، فهي تتاولك ، أما أن يرسلوها اليّ فهذا ما أحقني ؛ ان لي بنتا يا فرارا بتروفا ، وأنا مسئولة عنها •

كان فرارا بتروفا تصغي اليها بانتباه محملقة • وفي تلك اللحظة فُتح باب صغير بغير ضجة ، ودخلت داريا بافلوفنا العرقة • ولكنها سرعان

ما توقفت ونظرت إلينا جميعا وقد فجأها مارأت في وجوهنا من اضطراب .
جائز أنها لم تلاحظ في الوهلة الأولى ماريا تيموفيتشنا التي لم ينهبها أحد
إلى حضورها . وكان ستيفان تروفيموفتش أول من رأى دخول داريا
الصامت . فقام بحركة من يده ، واحمر وجهه ، وقال معلنا لا يدري
أحد لماذا : « داريا بافلوفنا » ، فاذا بالأنظار جميعها تنجه إلى الفتاة دفعةً
واحدة .

هتفت ماريا تيموفيتشنا تقول :

– ماذا ؟ أهذه هي داريا بافلوفنا ؟ ان أختك لا تشبهك ياشاتوشكا .
كيف يجوز لخادمي أن يصف فتاة جميلة هذا الجمال بأنها عبدة ، وأن
يلقبها داشكا ؟

وفي أثناء ذلك كانت داريا بافلوفنا قد اقتربت من فرفارا بتروفنا .
لكنها وقد أدهشتها صيحة ماريا تيموفيتشنا التفتت فجأة ، وتوقفت ، وألقت
على العرجاء نظرة ثابتة طويلة .

قالت فرفارا بتروفنا بهدوء فيه تهديد :

– اجلسي . اقتربي مزيدا من الاقتراب . نعم هكذا . تستطيعين أن
ترى هذه المرأة وأنت جالسة . هل تعرفينها ؟

أجابت داشا بصوت رقيق عذب :

– لم أرها قبل اليوم .

ثم أضافت بعد لحظة صمت :

– لا بد انها الأخت العرجاء لرجل يسمى ليادكين .

هتفت ماريا تيموفيتشنا تقول وهي في ذروة الافتتان :

– أنا أيضا يا عزيزتى أراك اليوم أول مرة ، رغم شوقى الى معرفتك منذ مدة طويلة ، لأن كل حركة من حركاتك تدل على تربية ممتازة . أما عن خادمى وشتائمه ، فهل يُعقل أن تسرق منه مالاَ فتاةٌ لها ما لك من روعة الفتة وحسن النشأة والتربية ؟ ذلك أنك فاتنة ، نعم فاتنة . أنا أقول لك ذلك .

بهذا ختمت العرجاء كلامها بحماسة وهى تحرك يديها أمام داريا بافلوفنا .

قالت فر فارا بتروفنا لداريا تسألها بوقار وكبرياء :

– هل تفهمين شيئا من هذا الكلام كله ؟

– نعم ، أفهم كل شيء .

– فما حكاية المال المسروق ؟

– لعلها تقصد المال الذى تكفلت فى سويسرا ، تلبيةً لطلب نيقولاى فسيفولودوفتش ، أن أحمله الى السيد ليادكين ، أخيها .

ساد صمت .

– هل نيقولاى فسيفولودوفتش هو الذى كلفك بحمل ذلك المال ؟

– كان يرغب كثيرا فى ايصال مبلغ ثلاثمائة روبل الى السيد ليادكين . واذ كان لا يعرف عنوانه ، وكان كل ما يعرفه أنه سيجىء الى هنا ، فقد عهد الىَّ بالمبلغ لأسلمه ليادكين عند وصوله الى مدينتنا .

– وما ذلك المال المفقود ؟ ماذا تعنى تلك الكلمات التى قالتها هذه المرأة منذ برهة ؟

– لا أدرى . ولكن بلغتنى شائعة تقول ان السيد ليادكين أخذ يزعم

فى كل مكان أننى لم أوصول الىه المبلغ كاملاً ؛ ولم أفهم معنى أقواله •
لقد أعطيت ثلاثمائة روبل ، فأرسلتها اليه •

كانت داريا بافلوفنا قد استردت هدوءها كاملاً • ويجب أن أقول
من جهة أخرى انه كان صعباً على وجه العموم أن تباغت هذه الفتاة وأن
تُحمل على الاضطراب مهما تكن العاطفة التى تعتمل فى قرارة نفسها •
لقد أجابت عن جميع الأسئلة بدقة ووضوح ، دون تعجل ، بصوت رقيق
متساوٍ ، من غير أن يبقى أى أثر من انفعالها الأول ، وبدون أى ارتباك
يمكن أن يحمل أحداً على أن يظن فيها الاحساس بارتكاب ذنب •

ولم تحوّل فر فارا بتروفا بصرها لحظة واحدة عنها أثناء هذا
الاستجواب • وها هى ذى تفكر لحظةً ثم تعلن بלהجة جازمة ، موجهةً
كلامها إلينا جميعاً رغم أنها لم تنظر الا الى داشا :

— ما دام نيقولاى فسيفولودوفتش لم يستعن بى أنا ، وانما رأى من
الخير أن يعهد اليك أنت بهذه المهمة ، فلا شك أن هناك أسباباً تدعوه الى
ذلك • وعندى أننى لا يجوز لى أن أبحث عن هذه الأسباب ما دامت
تُخفى عنى • ولكن ثقى أن مجرد اشتراكك فى هذه المسألة يطمئنى عن
تلك الأسباب ، يا داريا • ولكنك يا بنيتى ، لجهلك بالناس ، ورغم كل
طهارة نياتك ، يمكن أن تقومى بعمل يعوزه التبصر بالعواقب ، ولقد قمت
بهذا العمل فعلاً اذ اتصلت بوغد دنى • والشائعات التى أذاعها فى الناس
تبرهن لك على ذلك برهاناً واضحاً • لكننى سأسأل عنه ، وما دام واجب
الدفاع عنك يقع على عاتقى أنا ، فسوف أعرف كيف أحميك • والآن
يجب أن نضع حداً لهذا كله •

تدخلت ماريا تيموفيفنا فقالت بحماسة وحرارة وهى تتحرك على
كرسيها :

- أفضل شيء نفعله حين يأتي هو أن نرسله الى المطبخ ، فليعب هناك بالورق مع الخدم بينما نشرب نحن هنا قهوتنا • فى وسعنا على كل حال أن نرسل اليه فنجانا ، ولكننى أكرهه كرهاً عميقا •

بهذا ختمت ماريا تيموفيتشنا كلامها وهى تهز رأسها بحركة ذات دلالة •

رددت فر فارا بتروفا بعد أن أصغت الى ماريا تيموفيتشنا بانتباه :

- نعم ، يجب أن تنتهى من هذا كله ! ستيفان تروفيموفتش ، افرع الجرس ، من فضلك •

قرع ستيفان تروفيموفتش الجرس ، ثم اذا هو يتقدم فجأة وقد احمر وجهه احمرارا شديدا ، ودمدم يقول متلعثما متأثرا ، بنوع من الحمى :

- لو أُنئى ... لو كنت ... لو قد سمعت هذه القصة الدينية ، بل هذه الوشاية الكاذبة ... لاستأنت استياء شديدا ف ... » الخلاصة هى أنه رجل ضائع يشبه أن يكون سجيناً هارباً ... » (بالفرنسية) •

وأمسك ستيفان تروفيموفتش عن الكلام فجأة • لقد نظرت اليه فر فارا بتروفا مفضنة جفنيها • ودخل ألكسى ايجورتش ، بأبهة على عادته • فقالت فر فارا بتروفا :

- فلتهاى العربى • وأنت يا ألكسى ايجورتش استعد لاىصال الآسنة لبيادكين الى بيتها • ستدلك هى على المكان الذى تسكنه •

- ان السيد لبيادكين ينتظرها منذ بعض الوقت تحت • وقد ألح على كثيراً أن أبلغ عن حضوره •

فتدخل مافريكى نيقولايفتش الذى كان حتى ذلك الحين يلتزم صمتاً كاملاً لا يتزعزع ، تدخل يقول متنبهاً الى سوء دخول ليادكين :

- مستحيل • اسمحى لى أن أقول لك يا فرارا بتروفا ان هذا الشخص ليس بمن يمكن استقباله فى مجتمع • هذا • • • هذا انسان غير معقول يافرارا بتروفا •

قالت فرارا بتروفا تأمر ألكسى ايجورتش :

- فلينتظر •

فسرعان ما خرج ألكسى ايجورتش •

تمتم ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية :

- « هذا رجل منحط • حتى اننى أعتقد أنه سجين هارب أو رجل من هذا القبيل » (بالفرنسية) •

ولكنه احمر وأمسك عن الكلام من جديد •

قالت براسكوفيا ايفانوفنا بلهجة مشمزة وهى تنهض عن مقعدها :

- ليزا ، آن لنا أن نتصرف •

كان يبدو عليها أنها نادمة على أن وصفت نفسها بالحماقة أثناء انفعالها منذ برهة • لقد استردت هيئة التعالى والاحتقار أثناء استجواب داريا • غير أن الشيء الذى خطف انتباهى أكثر من كل ما عداه هو ما كان يعبر عنه وجه ليزافنا نيقولايفنا : انها منذ دخول داريا بافلوفنا قد سطع فى عينيها لهيب كره واضح وازدراء صارخ يعلن عن نفسه سافراً •

قالت فرارا بتروفا بذلك الهدوء الشديد نفسه :

- انتظرى دقيقة ، من فضلك يا براسكوفيا ايفانوفنا • اجلسى • اننى

أريد أن أقول كل شيء ، وأنت تشعرين بالآلام في سافيك ، فاجلسي ، أرجوك . نعم ، هكذا ، شكرا . منذ قليل ، استبد بي الانفعال فاندفعت فأفلتت من لساني كلمات حائقة . فمعدرة . لقد تصرفت تصرفاً أحق ، وأنا أول من يعترف بذلك ، لأنني أحب العدل والانصاف في كل شيء . ولا بد أنك كنت أنت خارجة عن طورك حتماً ، منذ برهة ، حين أملت الى رسائل بعضها مرسلوها دون أن يذكروا أسماءهم . ان كل رسالة من هذا النوع لا تستحق الا الاحقار ، لمجرد أنها غير مزيلة بتوقيع صاحبها . فإذا كنت لا ترين هذا الرأي ، فهذا من سوء حظك ؛ ومهما يكن من أمر فأنني لو كنت في مكانك لما التفت الى هذه الدناءات ، ولأبيت أن أوسّخ بها نفسي . ولكن ما دمت قد بدأت ، فأنني مضطرة أن أذكر لك أنني أنا أيضا قد تلقيت منذ ستة أيام رسالة فظة مضحكة لا تحمل اسم مرسلها . لا أدري من هو ذلك الوغد الحقير الذي ينشئ في تلك الرسالة أن يقولاي فيسيفلودوفتش قد أصبح مجنوناً ، وأن عليّ أن أحذر امرأة عرجاء « ستلعب في حياتي دوراً خطيراً » . هذا هو التعبير الذي استعمله كاتب الرسالة أتذكره الآن كلمة كلمة . فلما فكّرت ، وكنت أعرف أن يقولاي فيسيفلودوفتش له أعداء كثيرون ، استدعيت شخصا من هنا هو واحد من أعدائه المستترين المتخفين الحاقدين الحقيرين ، فلم تنفض علي حديثي معه لحظة حتى أدركت من هو كاتب تلك الرسالة . فإذا كنت « بسبيي أنا » ، تطاردني أو تُقصفين ، على حد تعبيرك ، برسائل غفل من أسماء مرسلها ، فأنني ليؤسفني طبعاً أن أكون أنا سبب ذلك ، رغم براءتي . ذلك كل ما أردت أن أقوله لك شارحة معذرة . انني أرى بوضوح أنك متعبة مرهقة وأنت مضطربة أشد الاضطراب . ولكنني من جهة أخرى عازمة عزمياً قاطعاً على « ادخال » ذلك الرجل المشبوه المريب

الذى استعمل مافريكى نيقولايفتش فى حقه ألفاظا غير مناسبة ، اذ قال انه لا يمكن استقباله • ان ليزا خاصة لن يكون لها شأن هنا • تعالى الى يا ليزا ، يا بنتى ، لأقبلك مرة أخرى •

اجتازت ليزا الغرفة ، ووقفت أمام فرفارا بتروفنا صامتة • فقَبَلَتْها هذه ، وأمسكت يديها ، وردَّتْها قليلاً الى وراء لترأها رؤية أكمل ، وتأمَلَتْها بعاطفة وانفعال • ثم رست على الفتاة اشارة الصليب ، وقَبَلَتْها من جديد •

– هيا ، مع السلامة يا ليزا (وأوشكت أن تخالط صوتها دموع) • اعلمى اننى لن أكف عن حبك يوما ، مهما يخبىء لك القدر • كان الله معك • اننى أبارك ارادته دائما •••

وأرادت فرفارا بتروفنا أن تضيف شيئاً آخر ، لكنها ثابت الى نفسها وأمسكت عن الكلام • وسارت ليزا راجعة الى مكانها وهى ما تزال صامتة وكأنها فى حلم ، فلما وصلت الى أمام أمها توقفت فجأة وقالت لها بصوت رقيق لكنه يشف عن ارادة صلبة وعزم من حديد :

– لن أنصرف يا ماما ، سأبقى الآن عند عمتى •

فقال براسكوفيا ايفانوفنا فى أنين وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى بحركة خوف وقلق :

– ما هذا أيضا يا رب ؟

لكن ليزا لم تجبها • حتى لقد بدا عليها أنها لم تسمعها • وعادت تجلس فى ركنها وهى ما تزال تائهة النظرة فى الفراغ •

وأشرق فى وجه فرفارا بتروفنا تعبير عن العجب والانتصار • وقالت تخاطب مافريكى نيقولايفتش :

– مافريكى نيقولايفتش ، أريد أن أسألك خدمة هامة : أرجوك
أن تذهب الى تحت فتلقى نظرة على ذلك الرجل ، فان رأيت أن هناك
أى امكان « لادخاله » ، فجيء به الى هنا •
فأطاع مافريكى نيقولايفتش وخرج • وما هى الا دقيقة حتى رجع
مع السيد ليادكين •

سبق أن تكلمت عن مظهر هذا الشخص : رجل طويل القامة ضخم الجسم ، فى نحو الأربعين من العمر ، مجعد الشعر ، أحمر الوجه متورّمه ، ترتجف خداه الرخوتان عند كل حركة من رأسه ؛ وعيناه الصغيرتان المحققتان لا تخجلوان من معنى الدهاء والمكر . وله شاربان ولحيتان فى العارضين . وتبرز تفاحة آدم فى عنقه سمينة بشعة المنظر . والشئ الذى خطف انتباهى فيه أكثر من كل ما عداه هو أنه كان فى هذه المرة يرتدى رداء « فراك » ، وقميصا نظيفا . « ان هناك أناسا يكاد يكون القميص النظيف فى نظرهم خروجاً على اللباقة والحشمة » ، كذلك أجاب ليوتين ذات مرة ، حين لامه ستيفان تروفيموفتش على اهماله هندامه . وكان للكابتن كذلك قفازان أسودان ، يحمل أحدهما بيده اليمنى ، بينما الثانى الذى لم يفلح فى أن يعقد زره ، يشد يسراه الضخمة شداً قويا دون أن يغطيها تغطية كاملة مع ذلك ، وبهذه اليد اليسرى كان يمسك قبعة مدوّرة جديدة كل الجدة ، لامعة . اذن فلقد كان « فراك الحب » الذى تحدث عنه الكابتن الى شاتوف أمس موجودا بالفعل . وهذا اللباس كله ، أى الفراك والقميص النظيف ، انما حصل عليهما الكابتن تنفيذا لنصيحة ليوتين (كما عرفت ذلك فيما بعد) لأغراض خفية . وما لا شك فيه أيضا أنه جاء الى منزل فرفارا بتروفا (راكبا عربة أجرة) بتحريض ومساعدة أحد الناس . فهذه الفكرة ما كان لها أن تخطر بباله قط ؛ وما كان له بمفرده أن يعزم أمره وأن ينفق ثلاثة أرباع الساعة فى العناية بزيته وهندامه ، حتى ولو افترضنا أنه علم فورا بالمشهد الذى حدث تحت مدخل

الكاتدرائية • ولم يكن الكابتين سكران ، لكنه كان متبلدا متبلهاً ، كما يحدث ذلك لأناس صحوا فجأة من سكر دام عدة أيام دون انقطاع • فلو هزرته من كفيه هزاً خفيفاً ، مرةً أو مرتين ، لعاد يهوى الى حالة السكر فوراً •

دخل الكابتين الى الصالون شبه راكض ، لكنه تعثر بالسجادة منذ صار في العتبة • فأخذت ماريا تيموفيتنا تتلوى ضحكا • فألقى عليها نظرة وحشية كاسرة ، واتجه نحو فرفارا بتروفا بخطى سريعة •

قال بصوت رنان :

- جئت يا سيدتى !

فالت فرفارا بتروفا وهي تنتصب بجذعها في مقعدها :

- يا سيد ، تفضل فاجلس هناك على ذلك الكرسي • ان فى وسعك أن تسمعنا صوتك من هناك ، وأنا يناسبني أن أنظر اليك من هنا •

فتوقف الكابتين فوراً وهو ينظر الى أمام ، أبله الهیة • ولكنه استدار مع ذلك ، وجلس على الكرسي الذى حددته له فرفارا بتروفا قرب الباب تماماً • ان تعبير وجهه يكشف عن فقدان الثقة بنفسه فقداناً كاملاً ، ولكنه يكشف فى الوقت نفسه عن نوع من الوقاحة ونوع من الغيظ المكظوم • كان خائفاً خوفاً رهيباً • ذلك واضح كل الوضوح • ولكنه كان يعانى من جرح فى كرامته ، فمن السهل على المرء أن يتبأ أن كرامته الجريحة يمكن عند الاقتضاء أن تدفعه الى الاقدام على اهانة أحد الناس رغم جنبه • كان واضحاً أنه يخشى أن يتحرك ، لشعوره بخراقة • انكم تعلمون أن أكبر عذاب يشعر به أشخاص من هذا النوع حين يدخلون الى المجتمع الراقى بمصادقة تشبه أن تكون معجزة ، انما مصدره انهم لا يعرفون ماذا

يصنعون بأيديهم ، وأنهم لا ينفكون يفكرون فى هذا الامر • لبث الكابتن جالسا على كرسيه كالمتجمد ، حاملا قبعته وقفازيه بيده ، مثبتا نظرتة البلهاء على وجه فرفارا بتروفنا القاسى • لعله كان يود أن يرى ماذا يجرى حوله ، ولكنه لم يجرؤ أن يعزم أمره على ذلك • ولعل ماريا تيموفينسا قد رأت أن وضع الكابتن مضحك جدا ، فاذا هى تطفق ضاحكة من جديد • ولكن الكابتن لم يتحرك • وتركه فرفارا بتروفنا التى لا ترحم ، تركه على هذه الحال برهة طويلة ، دقيقة كاملة ، تحت نظرتها الفاحصة ، وقالت له أخيرا بلهجة وقورة ذات دلالة :

- قبل كل شىء ، أريد أن أعرف اسمك منك أنت •

فصاح الكابتن يقول :

- الكابتن ليادكين ، لقد جئت يا سيدتى •••

وتحرك على كرسيه مضطربا •

قاطعتة فرفارا بتروفنا تقول :

- اسمح لى • هذه الانسانة المسكينة التى هممتى أمرها كثيرا ، أمى

أختك حقا ؟

- نعم يا سيدتى ، هى أختى ، وقد هربت من حراستى ، فهى فى

حالة •••

وأمسك عن اتمام جملته ، واحمر وجهه احمرارا شديدا •

ثم جمجم يقول متلعثما :

- لا تسيئى فهمى ياسيدتى ، فأنا لا يخطر ببالى أن ألتخ سمعة

أختى ••• فحين أقول انها فى حالة ••• لا أقصد أنها فى حالة •• فى

حالة تسيء الى السمعة ••• انها فى هذه الآونة الاخيرة •••

وانقطع عن الكلام فجأة •

قالت فر فارا بتروفا وهى ترفع رأسها مزيدا من الرفع :

- ياسيد •••

- اليك ما أريد أن أقوله •••

ولطم جبينه بأصبعه • وساد صمت •

- سأله فر فارا بتروفا بصوت بطيء :

- أهى مصابة بهذا منذ مدة طويلة ؟

- سيدتى ، لقد جئت لأشكر لك ما أظهرته نحوها تحت مدخل

الكنيسة ، من كرم ، من كرم روسى ، أخوى •••

- أخوى ؟

- لا ، لا أقصد ذلك ••• وانما أقصد أننى أنا أخوها ياسيدتى •

ثم استأنف كلامه يقول متعجلاً وقد احمر احمراراً شديداً

من جديد :

- صدقى يا سيدتى اننى لست قليل الأدب الى الحد الذى يمكن أن

يظهر على من الوهلة الأولى فى صالونك • اتنا ، أنا وأختى ، لا نعد

شيئاً ياسيدتى بالقياس الى ما نرى هنا من صنوف الروعة • يضاف الى ذلك

أن لنا أعداء ، أن هناك وشاة يتقولون علينا كاذبين • أما عن السمعة

ياسيدتى فان ليادكين يمكنه أن يعتز ••• وان له كبرياءه ••• و •••

و ••• ولقد جئت لأزجى لك الشكر ••• اليك المال ياسيدتى !

وفيما كان يقول هذا الكلام أخرج محفظة نقوده واستل منها حزمة

أوراق مالية وأخذ يعدها بأصابعه المرتجفة نافذ الصبر حانقاً • كان واضحا

أنه يريد أن يشرح شيئاً ما بأقصى سرعة ممكنة ، والحق أن الناظر اليه

كان يشعر بضرورة ذلك • لكن ليادكين ، وقد أدرك في أغلب الظن أن وضعه في تلك اللحظة جملة مضحكا ، أضاع صوابه تماما ، فكانت الأوراق ترفض أن تُعدّ ، وكانت أصابعه لا تطاوعه ، وزاده خزيًا أن ورقة بثلاثة روبلات انسلت من محفظته وسقطت على السجادة •

– اليك عشرين روبلا يا سيدتى !

كذلك هتف وهو ينهض على حين فجأة ، حاملاً حزمة الأوراق بيده ، والعرق يتصبب منه خجلاً واضحاً طراباً • وفي تلك اللحظة لمح الورقة التي كانت قد سقطت على الأرض ، فطأها ليتناولها ، لكنه شعر بخزي من هذه الحركة لا أدري لماذا ، فقال وهو يجرى يده بإشارة ازدراء :

– بل أتركها لخدمك يا سيدتى ، للخدام الذى سيئيلها من الأرض حتى يتذكر أختى •
فسرعان ما قالت فرفارا بتروفا محتجةً وهي تشعر فى الوقت نفسه بشيء من الرعب :

– لا يمكننى أن أرضى بهذا •

عندئذ طأطأ الكابتن من جديد ، فتناول الورقة النقدية ، واحمر وجهه احمراراً شديداً جداً ، وسار بضع خطوات نحو فرفارا بتروفا ومدَّ إليها المال الذى عدّه قائلاً :

– ففى هذه الحالة اذن •••

صرخت فرفارا بتروفا تقول مرتاعة فى هذه المرة •

– ما هذا ؟

حتى لقد تدهقرت قليلاً فى كرسيها • وهرعنا نتقدم إليها أنا ومافريكى نيقولايفتش وستيفان تروفيموفتش •

صات الكابتن يقول وهو يلتفت يمنة ويسرة :

— هدتوا روعكم ، هدتوا روعكم ، ما أنا بمجنون ، أقسم لكم اننى
لست مجنوناً •

— بلى ياسيد • أنت قد فقدت عقلك •

— سيدتى ، ليس الامر ما تفترضين • ما أنا طبعاً الا حلقة تافهة
لا قيمة لها • آه ... سيدتى ! غنى مسكنك ، وفقير مسكن « ماريا
المجهولة » ، أختى التى ولدت باسم ليادكين ، ولكننا سنسميها مؤقتاً باسم
« ماريا المجهولة » ، مؤقتاً ياسيدتى ، مؤقتاً فقط ، لأن الله نفسه لا يرضى
أن يستمر الأمر على هذه الحال • سيدتى ، لقد أعطيتها عشرة روبلات ،
فقبلتها ، ولكنها لم تقبلها الا لأنك « أنت » التى أعطيتها اياها • هل تسمعين
يا سيدتى ؟ ان « ماريا المجهولة » ما كان لها أن تقبل مالاً من أحد فى
هذا العالم ، ولو فعلت ذلك لاهتز من العار فى قبره جدُّها ، الضابط
أركان حرب ، الذى قُتل فى القوقاز على مرأى من بارمولوف •
ايرمولوف * • أما منك أنت يا سيدتى ، منك أنت ، فانها تقبل كل شيء •
لكنها بيدٍ تقبل ، وبيدٍ أخرى تقدم هذه العشرين روبلاً تبرعاً لاحدى
لجان البر والاحسان التى تشرّف فيها بمضويتك فى العاصمة ... لقد أعلنت
أنت نفسك فى « جريدة موسكو » أن عندك هنا سجلاً للتبرعات ، وأن أى
انسان يستطيع أن يتبرع •

وتوقف الكابتن عن الكلام • كان يزفر زفيراً مسموعاً كأنه قام بعمل
مجهود • لعل هذا الحديث الطويل كله عن لجنة البر والاحسان انما كان
مهياً من قبل • حتى ان من الممكن أن يكون قد كبه ليوتين • وكان
الكابتن يتصبب عرقه بمزيد من الغزارة : ان قطرات العرق تسيل على
صدغيه سيلاناً بالفعل • وكانت فرفاراً بتروفا تتأمل به باتباه •

قالت بلهجة جافة :

- ما يزال السجل موجودا تحت ، عند بواب منزلى • فهناك انما
تستطيع أن تسجل تبرعك اذا شئت • أرجوك اذن أن ترتب أوراقك
التقديية وأن لا تلوّح بها أمامى • يؤسفنى كثيرا يا سيد أننى أخطأت الظن
فى أختك فأعطيتها صدقة ، بينما هى غنية هذا الغنى كله • ليس هناك الا
شئ واحد لا أفهمه : لماذا لن تقبل فى يوم من الأيام أن تأخذ شيئا من
أحد غيرى • لقد بلغت من الالحاح على هذه النقطة اننى أريد أن تشرح
لى ما بنفسك •

أجاب الكاتبن يقول :

- سيدتى ، هذا سر سأحمله معى الى القبر •
فسألته فرفارا بتروفا بصوت أقل ثقة فى هذه المرة :
- لماذا ؟

- سيدتى ! سيدتى !

وصمت مظلم الوجه ، وخفض عينيه ، ووضع يده اليمنى على قلبه •
فكانت فرفارا بتروفا تنتظر دون أن تحوّل عنه نظرها •
صاح يقول :

- سيدتى ، هل تسمحين لى بأن ألقى عليك سؤالاً ، سؤالاً لا أكثر ،
ولكن بصراحة ، بصراحة تامة ، صراحة روسية ، من أعماق القلب ؟
- قل ما تريد •

- هل تأملت فى هذه الحياة يا سيدتى ؟

- هذا يعنى أنك تأملت أو ما تزال تتسألم بسبب ذنب اقترفته
غيرك •

- سيدتى ، سيدتى !
 ونهض مرة أخرى بحركة مباغته ، ربما دون أن يشعر بذلك ،
 ولطم صدره • وأضاف يقول :
 - هنا ، فى هذا القلب ، تراكت أشياء كثيرة سيدهش منها الاله
 نفسه حين سينكشف كل شيء فى يوم الحساب •
 - هم ••• انك تستعمل تعابير قوية •
 - سيدتى ، ربما كنت أتكلم بلهجة تشتمل على اسراف فى الغضب
 والحق •
 - لا تهتم • سأعرف كيف أوقفك عن الكلام حين يجب أن أوقفك
 عنه •
 - هل يمكننى أن ألقى عليك سؤالاً آخر يا سيدتى ؟
 - افعل !
 - هل يمكن أن يتعذب المرء لا لسبب غير نبل نفسه ؟
 - لا أدري • لم ألق على نفسى هذا السؤال يوما !
 فهتف الكابتن يقول بلهجة فيها سخرية وتأثر :
 - لا تدرين ! ولم تلقى على نفسك هذا السؤال يوما ! طيب ، فإذا
 كان الامر كذلك ،

فاصمت يا قلبى اليائس*

- قال ذلك ولطم صدره بقوة وعنف •
 كان يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً • ان السمة المميزة لهؤلاء الناس
 هى انهم عاجزون عجزاً مطلقاً عن اخفاء رغباتهم ، وان بهم حاجة لا تقاوم

الى التعبير عنها فوراً بكل ما فيها من بشاعة • فاذا وجدوا فى مجتمع غير مجتمعهم شعروا فى أول الامر بضيق و حرج ، ولكنهم ما ان يُسمح لهم بثبت أقدامهم حتى يصبحوا وقحين •

كان الكاتب قد أخذ يندفع • انه يسير بخطى كبيرة ، محرراً ذراعيه ، وقد أصبح لا يصفى الى الأسئلة التى تلقى عليه ، ويتكلم من تلقاء نفسه بتدفق يبلغ من القوة فى بعض الأحيان أن لسانه يمضيه ، فاذا هو يترك الجملة قبل أن ينهيها ويشرع فى جملة أخرى • يجب أن نذكر أيضاً أنه ربما كان قد شرب كأساً فى ذلك الصباح • أضف الى ذلك وجود ليزا فتاة نقولاً • انه لم ينظر الى جهتها مرة واحدة ، ولكن لاشك أن وجود الفتاة كان قد أدار رأسه • على أن هذا ليس الا افتراضاً منى • ومهما يكن من أمر ، فلا شك أن فر فاراً بتروفا كانت تملك من الاسباب ما يجعلها تغلب على تقززها ، وتصفى الى انسان كهذا الانسان • وكانت براسكوفيا إيفانوفنا ، من جهتها ، ترتعش خوفاً ، رغم أنها كانت لا تفهم كثيراً ما هو الامر الذى يدور عليه الكلام ، فيما يبدو • أما ستيفان تروفيموفتش فكان يرتجف هو أيضاً ، ولكن لأنه ، على عكسها ، كان مؤهلاً لأن يدرك أشياء كثيرة مسرفة فى الكثرة • وكان مافريكى نيقولايفتش يلتزم وضع امرئ مستعد لأن يتدخل من أجل أن يحمى الجميع • وكانت ليزا شاحبة الوجه جداً ، لا تحوّل عينها المحملتين عن الكاتب لحظة واحدة • وظل شاتوف جالسا على وضعه نفسه لم يغيره • وأغرب ما فى الامر أن ماريا تيموفيتشنا لم تنقطع عن الضحك فحسب ، بل أصبحت كذلك حزينة حزناً رهيباً • كانت واضعة كوعها على المائدة ، تابع بنظرتها الحالة الأسبانية أخاها الذى كان يتدفق فى الكلام • وكانت داريا بافلوفنا الشخص الوحيد الذى بدا لى هادئاً كل الهدوء •

فالت فر فارا بتروفا وقد أخذ صبرها ينفد :

- ما هذه الرموز كلها الا سخافات ! انك لم تجب عن سؤالى ،
« لماذا ؟ » • وأنا أصرُّ على أن أنال جوابا •
- لم أجب عن سؤالك « لماذا » ؟ تنتظرين جوابا عن سؤالك
« لماذا » ؟

كذلك رد د الكابتن كلامها غامزاً بطرفه • وتابع كلامه يقول :
- ان هذه الكلمة الصغيرة « لماذا » ، منتشرة فى الكون كله منذ أول
يوم وجدت فيه الخليفة يا سيدتى ، والطبيعة كلها تصيح فى كل لحظة
سائلةً خالقها « لماذا ؟ » • والناس ينتظرون الجواب منذ سبعة آلاف سنة •
فهل على الكابتن ليادكين وحده أن يتحمل التبعة نيابةً عن جميع البشر •
أهذا عدل وانصاف يا سيدتى ؟

هتفت فر فارا بتروفا تقول وقد أخذ غضبها يزداد :

- هذه كلها سخافات لا شأن لها بالسؤال • هذه كلها رموز • ثم
انك تسمح لنفسك بأن تتكلم لغةً متنفخةً كثيراً ، وذلك أمر أعدُّه أنا
وقاحة •

استأنف الكابتن كلامه دون أن يصفى إليها فقال :

- سيدتى ، وددت لو يكون اسمى « ارنست » ، ولكن هأنذا أسمى
بهذا الاسم الغليظ ، اسم « اجناس » • فلماذا ، فى رأيك ؟ وددت لو
أكون الأمير موتبارد ، ولكننى لست الا ليادكين ، المشتق اسمه من كلمة
« البجعة » ، فلماذا ؟ أنا شاعر يا سيدتى ، شاعر فى أعماق روحي ، وكان
يمكن أن أقبض مالاً من ناشر شعرى ؟ ومع ذلك فانتى مضطر أن أعيش
فى اسطنبول ، فلماذا ؟ لماذا يا سيدتى ؟ سيدتى ، ليست روسيا فى رأبى الا
ألعوبة فى يد الطبيعة ، لا أكثر !

- ألا تستطيع حقا أن تعبر عما في نفسك تعبيرا أدق وأوضح ؟
- أستطيع أن أنشدك مقطوعة شعرية عنوانها « الخنفسة » ،
يا سيدتى •

- هيه ! •••

- سيدتى ، لم أصبح مجنوناً بعد ، سأصبح مجنوناً فى المستقبل ،
سأصبح مجنوناً ليس فى ذلك ريب ، لكننى لم أصبح كذلك حتى الآن •
سيدتى ، ان واحداً من أصدقائى ، وهو رجل محب ••• ر ••• م جداً ،
قد كتب حكاية من حكايات كريلوف ، عنوانها « الخنفسة » ، فهل
تسمحين لى بأن أتلوها عليك ؟

- تريد أن تنشدا قصيدة من قصائد كريلوف عن الحيوانات ؟

- لا ، لست هى حكاية من حكايات كريلوف ياسيدتى ، بل هى
حكاية من نظمى ، من نظمى أنا • صدقتى يا سيدتى - ولا يسوءك
هذا - اتنى لست عديم الثقافة ولا منحط العقل الى الحد الذى يجعلنى
أجهل أن روسيا تملك شاعراً كبيراً نظم حكايات عن الحيوانات هو
كريلوف الذى شاد له وزير التعليم العام نصباً تذكاريّاً فى حديقة الصيف
حتى يلعب الأطفال حوله * • انك ياسيدتى تسأليننى « لماذا » • والجواب
عن هذا السؤال مدوّن فى هذه القصيدة بأحرف من نار •

- اقرأ القصيدة !

أخذ الكاتب يتلو القصيدة :

كانت خنفسة تعيش وادعة فى هذا العالم ،
هى خنفسة منذ ولدت •
فيوما سقطت فى كاس
ملىء بذبذب يموت

قالت فر فارا بترفنا :

– ما هذا الكلام يا رب !

فأسرع الكاتبن يشرح لها محركاً ذراعيه ، حائناً متململاً كأي مؤلف قوطع فى الموضع المؤثر من كلامه :

– معنى هذا أن الذباب حين يسقط صيفاً فى كأس فإنه يهلك • أن أغبى الأغبياء يدرك ذلك • لا تقاطعيني ، لا تقاطعيني ، سترين ••• قال ذلك وهو ما يزال يحرك ذراعيه • وتابع ينشد القصيدة :

احتلت الخنفسة مكاناً صغيراً
لكن الذباب ثار منادياً جويتر :
كاسنا ملأى كثيراً •
ولكن بينما كان الذباب يحتج
مر هناك نيكيفور
الشيخ المحترم جداً •••

هنا اضطرت أن أتوقف عن النظم ، ولكن لا خير ، فسوف أقص عليك القصة ثراً •

كذلك قال الكاتبن متوقفاً ، وتابع يسرد القصة فقال :

– تناول نيكيفور الكأس ؛ ورغم احتجاجات الذبابات ، رمى الجمع كله فى سلة الزبالة ، الذبابات والخنفسة على حد سواء ، وذلك أمر كان ينبغي أن يفعل منذ مدة طويلة • ولكن لاحظى يا سيدتى ، لاحظى أن الخنفسة لا تشكى ولا تتذمر • هذا هو جوابى عن سؤالك « لماذا؟ » : الخنفسة لا تشكى ولا تتذمر •

بهذا صاح الكاتبن منتصراً • ثم أسرع يضيف قوله :
– وان نيكيفور يمثل الطبيعة •

وعاد يسير فى الغرفة راضياً مسروراً •

اغتاظت فر فارا بتروفا واستبد بها حق شديد • وقالت تسأله :

- اسمح لى أن أسألك : ما قصة ذلك المسال الذى كان يجب أن
تلقاه من ابنى نيقولاى سيفولودوفتش ، ثم لم يصلك كاملاً ؟ لقد
تجرات فاتهمت شخصا يتسمى الى أسرته •

فزأر الكابتن يقول وهو يرفع يده بحركة من يمثل دورا فى مأساة :
- وشاية !

- لا ليس هذا وشاية !

- سيدتى ، رب ظروف تجبر المرء على أن يتحمل تلطخ سمعة
أسرته بالعار ، مؤثراً ذلك على أن يجهر بالحقيقة • ان ليادكين لن يقول
كلمة واحدة ، زيادةً على ما قال ، يا سيدتى •

كان ليادكين كمن عمى بصره من النشوة • كان يحس بخطورة
شأنه • كان واضحاً أنه يحسب كل شىء مباحاً له • انه يريد أن يهين
أحدًا ما ، انه يريد أن يرتكب سفالة ما ، ليظهر للجميع قوته وسطوته •
قالت فر فارا بتروفا تخاطب ستيفان تروفيموفتش :

- اقرع الجرس ، من فضلك يا ستيفان تروفيموفتش ، أرجوك •
قال ليادكين وهو يتسم ابتسامة خبيثة ويغمز بعينه :

- ان ليادكين ماكر يا سيدتى • انه ماكر • لكنه هو أيضا فيه
ضعف • انه هو أيضا له هوى • وهذا الهوى هو ... هو الزجاجة المعتقة
التي يشربها الفرسان والتي تقنى بها دافيدوف* • فحين تكون هذه
الزجاجة فى يده ياسيدتى ، يمكنه أن يبعث رسالةً من شعر ، رسالة
رائعة ، لكنه سرعان ما يتمنى أن يدفع جميع دموع مآقيه نمناً لاسترداد

هذه الرسالة ، لأنها تدمر شعوره بالجمال • لكن العصفور يكون قد طار
فلا سبيل الى اللحاق به • فمن الممكن ياسيدتى أن يكون ليادكين ، فى
هذه الحالة ، قد تكلم عن فتاة محترمة ، منقادا لاستياء نبيل نشب فى نفسه
ثورةً على الظلم ، فاستفاد الوشاة النمامون من ذلك • لكن ليادكين ماكر
ياسيدتى • عبثاً يتربص به ذئب كاسر لا ينفك يصب له شرابا ، متوقفاً أن
يكشف عن نفسه أخيراً : ان ليادكين لن يتكلم • وفى قرارة الرغبة لن
يجد الذئب الا مكر ليادكين بدلا من أن يعثر على السر الذى ينتظر أن
يعثر عليه • ولكن كفى ! أوه ! كفى ياسيدتى ! ان منزلك الرائع كان
يمكن أن يكون ملكاً لأنبل الكائنات ، ولكن الخنفسة لا تدمر ولا تحتاج •
لاحظى هذا ، لاحظيه جيدا ! ان الخنفسة لا تشكى ! فاعترفى بعظمه
نفسها !

فى تلك اللحظة سُمع صوت جرس تحت ، ثم لم نلبث أن رأينا
دخول ألكسى ايجورتش الذى كان قد تأخر عن الظهور استجابة لنداء
ستيفان تروفيموفتش • وكان الخادم العجوز المهيب يبدو منفعلاً انفعالا
غريبا •

واذ ألقت عليه فرارا بتروفا نظرة سائلة مستهمة ، قال :

— وصل نيقولاى فيسولودوفتش •

اننى ما أزال أتذكر حالة فرارا بتروفا فى تلك اللحظة : لقد
شحب لونها شحوبا شديدا ، والتمعت عيناها ، ثم انتصبت فى مقعدها وقد
بانت فى هيئتها قوة المزيمة • أما نحن فقد ذهنا جميعا • ان وصول
نيقولاى فيسولودوفتش على حين بغتة ، بينما كان لا يُنتظر وصوله قبل
شهر آخر ، قد فجأنا لا بمباغتته فحسب ، بل أيضا بكونه قد تم فى هذه

الدقيقة • وظل الكابتن نفسه متجمدا في وسط الغرفة ، فاجر الفم ، مثبتا نظرتة البلهاء على الباب •

وهذه أصوات خطي صغيرة متعجلة تدوئى في الغرفة المجاورة : ان شخصا يصل راكضا • وداهم هذا الشخص الصالون ، ولكنه لم يكن نيقولاى فيسبولودوفتش ، بل كان شابا لا نعرفه •



ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى

أتوقف هنا لحظة لأرسم بعض ملامح هذه الشخصية التي ظهرت على
حين فجأة •

انه شاب فى نحو السابعة والعشرين من عمره ، أطول قليلا من
متوسط طول الرجال ، شعره أشقر قليل لكنه طويل ، له شاربان مشعثان
ولحية ضئيلة ، لائق الهندام ، حتى انه يرتدى ثياباً على الموضة ، ولكن
بغير أناقة • يبدو من النظرة الأولى أخرق ، محدب الظهر قليلاً ، غير
أنه فى حقيقة الامر ليس محدب الظهر ، وانما هو يقف منطلقا بغير
تكلف • يمكن أن يعد شاذاً بعض الشذوذ ، لكن جميع الناس قد وجدوا
بعد ذلك أنه حسن الآداب عاقل اللسان •

لا يمكن أن يقال انه دميم ، ومع ذلك لا يرضى وجهه أحداً • ان
رأسه المسطح فى الجانبين ، المتطاوّل الى خلف ، يُظهر وجهه مستدقاً
كثيراً • وجبينه عال ضيق • وقسماته صغيرة • وعينه حادتان • وأنفه
صغير مدبب • وشفتاه طويلتان رقيقتان •

اذا رأيت تعبير وجهه حسبه ضعيفا مريضاً • وليس الامر كذلك
بتاتا • ان خديه تغضنهما تحت الوجنتين غصون جافة تضفى عليه مظهر
رجل خرج من مرض خطير ، ومع ذلك كان صحيح البنية قوى الجسم ،
حتى انه لم يمرض فى يوم من الايام •

خطواته وحركاته سريعة دائماً ، ومع ذلك فهو لا يتعجل شيئاً •
لا شئ فيما يبدو يمكن أن يربكه ويشوشه • فمهما تكن الظروف ومهما

يكن المكان ، يظل شيئاً نفسه على الدوام • وهو راض عن ذاته ، لكنه لا يشعر بذلك •

انه يتكلم متدفقاً بفزارة ، ولكنه يتكلم بثقة كبيرة ، دون أن يبحث عن الألفاظ • أفكاره واضحة رغم سرعته ، واضحة دقيقة محدّدة ، وقد خطفت هذه الصفة انتباه مستمعيه • نقطة بين جلي ، كلماته تتساقط كحبات كبيرة متساوية ، قد أحسن اختيارها دائماً وهياًها سلفاً لجميع المناسبات • ذلك يعجبك في البداية ، لكنك تشعر بعدئذ بانزعاج ، ولا سيما من ذلك النطق المسرف في الوضوح ، ومن ذلك التدفق الغزير السريع المطرد على وتيرة واحدة • حتى ليخيّل اليك في النهاية أن هذا الرجل لا بد أن لسانه له شكل خاص جداً ، فهو طويل طويلاً خارقاً ، نحيل نحولاً هائلاً ، مزوّد برأس ذي أهداب ، أحمر قاني الحمرة ، متحركٌ أبداً •

ذلكم هو الشاب الذي سقط في وسط الصالون سقوط الصاعقة • ويخيّل الى الآن أنه كان قد بدأ الكلام وهو في الحجرة المجاورة ، فلما دخل علينا كان في منتصف جملة يقولها • وسرعان ما انغرس أمام فرفارا بتروفنا ، وقال لها مسرعاً :

- تخيلي يا فرفارا بتروفنا : لقد دخلت وأنا أتصور أن أجده • كان ينبغي أن يكون هنا منذ ربع ساعة • لقد وصل منذ ساعة ونصف • كنا معا عند كيريلوف • وانصرف منذ نصف ساعة ليأتي الى هنا رأساً ، وطلب مني أن أجيء أنا أيضاً بعد ربع ساعة •
سألته فرفارا بتروفنا :

- ولكن من هو ؟ من هو الذي طلب لك أن تجيء الى هنا ؟
- نيقولاى فسيفولودوفتش ! كيف ؟ ألا تعرفين ، بعد ، أنه وصل ؟

لا بد أن حقائبه قد أصبحت هنا مع ذلك منذ مدة ! لماذا لم ينبشوك ؟ أنا
الذى أحمل إليك هذا الخبر ؟ من الممكن أن يُرسَل أحدٌ ليحجى به .
على كل حال ، سيصل بين لحظة وأخرى ، وأظن أنه سيسرُّ كثيراً بهذا
الاجتماع الذى يطابق رغباته ، كما يطابق - فيما أعلم - بعض مشاريعه .
(قال ذلك ونظر حواليه وتفرس فى الكابتين ليادكين بانتباه خاص)
آ . . . ليزافتا يقولاننا ! ما أسعدنى بأن ألقاك منذ وصولي ! اننى مسرور
حقاً بمصافحة يدك (قال ذلك راكضاً نحو ليزا ليتناول يدها التى مدهسا
اليه ليزا مبتسمةً فى مرح) . وهأنا ذا أرى أن المحترمة جدا ، براسكوفيا
ايفانوفنا ، لم تنس ، هى أيضا ، صاحبها « الأستاذ » ، ولا هى غاضبة منه
الآن كما كانت غاضبة منه بسويسرا ! كيف حال ساقيك يا براسكوفيا
ايفانوفنا ؟ هل كان الأطباء السويسريون على حق حين وصفوا لك هواء
بلادك ؟ . . . كيف ؟ تقولين انك تستعملين كمادات ؟ لا بد أن هذا يفيدك
كثيراً . ولكن لشد ما أسفت يا فرفارا بتروفنا (هنا التفت نحو ربة المنزل
من جديد) لشد ما أسفت لأننى لم أستطع أن أراك فى الخارج وأن أقدم
إليك احتراماتى بنفسى ! لا سيما وأن هناك أشياء كثيرة كان ينبغى أن أنقلها
إليك . . . صحيح أننى أبلغت أبى المعجوز ، ولكننى أعتقد أنه ، على
عادته . . .

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد عاد من ذهوله وشدهه فجأة :

- بتروشا !

وضمَّ يديه ووثب نحو ابنه . وتابع يقول :

- « بطرس ، ابنى » (بالفرنسية) ! هل تصدق أننى لم أتعرفك ؟

واحتضنه بذراعيه ، وسالت على خديه دموع .

جمعهم بتروشا يقول وهو يحاول أن يتخلص من عناق أبيه :

- هيا ! لا تضطرب ! لا تضطرب ! كفى ! أرجوك !
- أنا أذنب دائماً فى حقك ، دائماً ، دائماً !
- كفى ! سنتكلم عن هذا فيما بعد • كنت أعلم أنك ستردد هذه
الحكاية كفى ! عليك بمزيد من الوقار ، أرجوك !
- ولكننى لم أرك منذ عشر سنين •
- هذا أدعى الى أن لا تسترسل فى الكلام
- ابنى !

- نعم ، أنت تحبنى ، صدقتك ولكن انزع يديك • ألا ترى
أنك تزعج الآخرين ؟ آ هذا يقولاي فيسفلودوفتش ! هيا
هدىء نفسك ، أرجوك !

كان يقولاي فيسفلودوفتش قد وصل فعلاً بصمت ، فلبث على عتبة
الصالون لحظةً ، وراح يتأملنا جميعاً بنظرة هادئة •

وكما حدث لى قبل ذلك بأربع سنين ، حين رأيته أول مرة ، خطف
منظره اهتمامى فوراً • لم أكن قد نسيت محياه • غير أن هنالك وجوها
لا تراها مرةً أخرى الا وتكشف لك فيها سمة جديدة لم تكن قد لاحظتها
قبل ذلك ، رغم أنك تعرف هذه الوجوه منذ زمن طويل • لم يكن يبدو
عليه أنه تغير خلال تلك السنين الأربع : ما يزال أنيقاً كما كان، رصيناً كما
كان ؛ ما تزال مشيته وحركاته موسومة بالوقار ، وما يزال على غصارة
شبابه نفسها تقريباً ؛ ما تزال ابتسامته الخفيفة ودوداً فاترة على عهدك بها،
وما تزال تتم عن تلك الثقة ذاتها التى كانت تتم عنها • ما تزال نظرتة على
ما عرفت فيها من قسوة ، وتفكير ، وشيء من ذهول • الخلاصة : كان فى
امكانى أن أعتقد أننا لم نفترق الا بالأمس • غير أن هناك أمراً فجأئى مع
ذلك : كان المرء يراه فى الماضى جميلاً ، ولكن وجهه كان فى تلك الايام

« أشبه بقناع » فى الواقع ، على حد تعبير بعض سيداتنا . أما الآن فهو جميل
جمالا كاملا ، جمالا لا سبيل الى الجدل فيه . لا شك أن أحداً لا يستطيع
أن يقول الآن ان وجهه يشبه قناعا . أياكون مرد ذلك الى أنه شحج قليلاً
ونحل قليلاً ؟ أم أن فكراً جديدا قد أصبح يضىء نظرتة ؟

صاحت فرارا بتروفا تقول وقد انتصبت فى مقعدها دون أن تبارحه ،
وأوقفت ابنها بأشارة آمرة صارمة :

— نيقولاى فيسولودوفتش ! نيقولاى فيسولودوفتش ! قف !

ولكن لكى نفسر السؤال الرهيب الذى أعقب هذه الاشارة وهذه
الصيحة ، وهو سؤال ما كان لى أن أتخيل أن تلقيه فرارا بتروفا ، أرى
من القارىء أن يتذكر طبع هذه السيدة ، وأن يتذكر مدى ما تصف به من
اندفاع فى بعض الظروف . انها رغم قوة نفسها ورغم ما تملكه من حسن
عملى واضح ، قد اتفق لها فى بعض لحظات حياتها أن انقادت لعنف
مزاجها انقيادا تاما ، ولم تعرف كيف تكبح جماح نفسها وكيف تقف
عند حد . ويجب أن ندخل فى حسابنا أيضا أن هذه الدقيقة التى كنا
فيها يمكن أن تكون واحدة من تلك اللحظات الحرجة الدقيقة التى
يركز فيها ، كتركز الأشعة بواسطة عدسة ، كلُّ الماضى وكل الحاضر
وربما كل المستقبل من حياة بكاملها . وينبغى أن أشير عابراً كذلك الى
تلك الرسالة الخالية من اسم كاتبها ، التى تحدثت عنها فرارا بتروفا
منذ برهة الى براسكوفيا ايفانوفنا ، كاتمة العنصر الأساسى من مضمونها
فيما يبدو لى . فلعل تلك الرسالة أن تكون هى السبب الحقيقى الذى دفع
فرارا بتروفا الى القاء ذلك السؤال بغتة على ابنها .

قالت تسأله مفصلة كل كلمة من كلماتها بصوت قوى متقل
بالتهديدات :



نیکولای ستافروچین

- يقولاي فيسيفولودوفتش ، أرجوك أن تقول لى فوراً ، دون أن تترك مكانك ، هل صحيح أن هذه العرجاء - انظر إليها ، هذه هى !... هل صحيح أن هذه العرجاء هى زوجتك الشرعية ؟

اننى أتذكر تلك اللحظة تذكراً واضحاً مسرفاً فى الوضوح . ان يقولاي فيسيفولودوفتش لم ترفّ عيناه ، وحدّق الى أمه بنظرة ثابتة . لم يظهر على وجهه شيء . وأخيراً ابتسم ابتسامة متسامحة ، واتجه نحو أمه بخطى هادئة دون أن يقول كلمة واحدة ، فتناول يدها وحملها الى شقيقه باحترام ، ولثمها . ولقد كانت سيطرته على أمه ما تزال تبلغ من القوة أنها فى هذه المرة أيضاً لم تجرؤ أن تسحب يدها ، واكتفت بأن راحت تنظر اليه سائلة مستفهمة ، ولكن وضعها كله كان يقول ان هذا انك اذا لم يقطعه اليقين فى لحظة ، فلن تستطيع له احتمالاً .

ولكن ابنها صمت . وبعد أن لثم يد أمه أجال بصره علينا مرة أخرى ، وتقدم نحو ماريا تيموفيفنا بتلك الخطى الهادئة نفسها . انه لمن الصعب جداً وصف وجه الناس فى بعض اللحظات . فيما أتذكره مثلاً أن ماريا تيموفيفنا قد نهضت تستقبله وهى ترتعش خوفاً ، وضمت يديها احدهما الى الاخرى كأنما لتضرع اليه . وأتذكر فى الوقت نفسه الافتتان الذى سطع فى نظرتها ، وهو افتتان مجنون شوّها تشويهاً بمعنى من المعانى ، افتتان ربما كان أقوى من أن يحتمله كائن انساني . لعل صراعا قد نشب فى نفسها بين عاطفتين ، الخوف والافتتان . لكننى أذكر أننى أسرعرت اقتراب منها (ولم أكن بعيداً عنها) : اذ تراءى لى أنها ستسقط مغشياً عليها .

قال لها بصوت مؤثر رخم ، وكان فى عينيه التماع خان رائع :
- يجب أن لا تبقى هنا .

كان واقفا أمامها على وضع يفيض احتراما ، وكانت كل حركة من حركاته تتم عمّا يحمل لها من اعتبار صادق •

قالت المسكينة متأثرة بصوت متقطع :

- هل يمكنى .. هنا .. الآن .. أن أركع أمامك ؟

فأجابها يقول :

- لا ... مستحيل •

وابتسم ابتسامة بلغت من الروعة أن انطلقت من صدر العرجاء ضحكة صغيرة فرحة •

وأضاف يقول بذلك الصوت المؤثر الرخيم المنع نفسه ، أضاف يقول بجدر كمن يخاطب طفلاً :

- تذكرى أنك فتاة ، وأنتى مهما أكن لك صديقا مخلصا ، فلست بالنسبة اليك الا رجلا أجنبيا ، فما أنا زوجك ، ولا أبوك ، ولا خطيبك •
هاتى يدك ولنصرف • سأشيعك الى العربة ، وان شئت أوصلتك الى بيتك •

أصفت اليه بانتباه ، وأحنت رأسها شاردة الفكر حاملة الهيئة •

وقالت أخيرا وهى تتهد وتمد اليه يدها :

- لنصرف !

غير أن مصيبة صغيرة قد وقعت فى تلك اللحظة • لعل الفتاة قد قامت بحركة خطأ ، فاستندت الى ساقها المريضة • المهم أنها سقطت الى جانب على مقعد • فلولا أن كان ذلك المقعد هناك ، لتدحرجت على الأرض • وقد سندها نيقولاى فسيفولودوفتش ، ووضع ذراعه تحت ذراعها ، ثم أمسكها بقوة ، وقادها نحو الباب بكثير من العناية والاحتياط •

كان واضحا أنها خجلت من سقوطها ، لأن وجهها احمر ، وظهر عليها
الاضطراب . مهما يكن من أمر فقد تبعته خافضة عينيها ، صامتة لا تقول
شيئا ، عارجة عرجاً قوياً حتى لكانها معلقة بذراعه . وهكذا غابا عن
أعيننا . وقد رأيت ليزا التي نهضت عن اكرسيها فجأة لحظة سارا
ليخرجا ، رأيتها تتابعها بنظرة ثابتة الى أن اجتازا عتبة الباب . حتى اذا
غابا عادت تجلس صامتة ، غير أن وجهها كان قد تقبض تقبض
الاستمزاز ، كأنما هي قد لست حية أو ما أشبه الحية من الزواحف .
ولقد لبثنا جميعا ، طوال المدة التي استغرقها هذا المشهد ،
كالخُرُس صمتاً من فرط الدهول . فلو طارت في الغرفة ذبابة لسمع
صوت طيرانها . ولكن ما ان خرجت ماريا تيموفيتشنا مع نيقولاى
فسيولودوفتش حتى أخذ الجميع يتكلمون معا فى آن واحد .

والحق أن الكلام لم يكن كلاماً بقدر ما كان صيحات تعجب . لقد نسيت قليلاً كيف تسلسلت الأحداث ، لأن ذلك كله كان مضطرباً مشوشاً . صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية لا أدري ماذا ، ضاماً يديه أحدهما الى الأخرى . ولكن فرفاراً بتروفا كانت تملأ رأسها همومٌ أخرى . حتى مافريكي يقول لا يفتش نطق بضع كلمات بصوت لاهت . ولكن أكثر الحضور اضطراباً وتحركاً إنما كان بطرس ستيفانوفتش . كان يحرك يديه بإشارات عريضة محاولاً أن يقنع فرفاراً بتروفا . ولم أستطع أن أدرك مدار حديثه إلا بعد برهة طويلة . وكان يلتفت أيضاً نحو براسكوفيا ايفانوفنا ونحو ليزا ، حتى لقد خاطب والده أثناء حركته واضطرابه بضع كلمات . الخلاصة : كان يسمى هنا وهناك متخبطاً أكبر التخبط . وها هي ذى فرفاراً بتروفا تنهض من مقعدها وقد احمرت احمراراً شديداً ، وتصرخ سائلةً براسكوفيا ايفانوفنا : « هل سمعت ؟ هل سمعت ماذا قال ؟ » . لكن براسكوفيا ايفانوفنا كانت قد نفذ صبرها وخارت عزيمتها فلم تزدد على أن دمدمت بضع كلمات وهي تحرك يدها بإشارة تمليل . لقد كان للمسكينة هموم خاصة بها : فهي تلتفت نحو ابنتها في كل لحظة ، وتنظر اليها مرتاعة . ومع ذلك لا يخطر بالبال أن تنهض وتنصرف قبل أن توميء لها ابتها بإشارة الانصراف . أما الكاتبة فكان يتمنى لو يفر دون أن يراه أحد ، لاحظت ذلك واضحاً . انه منذ وصول نيقولاى فيسيفولودوفتش يبدو فريسة رعب شديد وذعر هائل . لكن بطرس ستيفانوفتش قد أمسكه من ذراعه ومنعه من الهروب .

كان بطرس سيفانوفتش ما ينفك يكرر على مسامع فرفارا بتروفنا
محاولاً اقناعها :

- لا بد من هذا ، لا غنى عن هذا .

كان واقفاً أمامهما ، وكانت هي قد عادت فجلست في مقعدها ،
وراحت تصفى إليه في شراهة ونهم . أتذكر هذا . لقد بلغ غاياته
وتمكن من جذب انتباهها .

- هذا لا بد منه ، هذا لا غنى له . انك لترين بنفسك يا فرفارا
بتروفنا أن في الأمر سوء فهم . ان الموقف يبدو غريباً ، لكنه في الواقع
واضح وضوح ماء الصخر ، بسيط بساطة تحية الصباح . اننى أعلم حق
العلم أن أحداً لم يكلفنى بأن أقصَّ هذه القصة ، وأننى قد أبدو مضحكا
حين أقوم بهذه المبادرة من تلقاء نفسى . ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش
لا يولى هذه القضية أى اهتمام ، ذلك من جهة أولى ، ومن جهة أخرى
هناك حالات يصعب فيها على صاحب الشأن نفسه أن يشرح سلوكه .
فلا بد أن يتولى عنه ذلك شخص ثالث يستطيع أن يعرض بعض
الوقائع الحرجة بسهولة أكبر . صدقنى يا فرفارا بتروفنا أننا لا نستطيع
أن نأخذ على نيقولاى فسيفولودوفتش أنه لم يجب عن سؤالك بشروح
وافية . ومع ذلك فان هذه القضية لا تكاد تستحق أن يتكلم المرء عنها .
اننى أعرفها منذ كنت ببطرسبرج . وهى تشرّف نيقولاى فسيفولودوفتش
إذا كان لابد من استعمال هذه الكلمة القامضة : « الشرف ... » ،
سألته فرفارا بتروفنا :

- هل تقصد أنك كنت شاهداً على حادث هو السبب فى سوء الفهم
ذاك ؟

- بل كنت شاهداً وفاعلاً فى آن واحد .

بهذا أسرع بطرس سيفانوفتش يصحح سؤال فرفارا بتروفنا .

- اذا كنت تعاهدني على أن قصتك لن تخدش عواطف نيقولاى
فسيفولودوفتش الذى لم يكتف عني شيئاً فى يوم من الأيام ... واذا كنت
على يقين من أنك اذ تفعل ذلك تسرته ...

- لا شك عندى فى هذا ، وذلك بعينه هو السبب فى اننى يسعدنى
أن أقدم لك هذه الشروح . اننى مقتنع بأنه يمكن أن يصرف هو نفسه
على أن أتكلم .

ان الحاح هذا السيد الذى هبط من السماء على أن يروى لنا شئون
غيره كان أمراً غريباً لا يطابق العادات المألوفة . ولكنه قد اصطاد فرفارا
بتروفنا بصنارته اذ لمس منها موضعاً حساساً على نحو خاص . ولقد
كنت فى ذلك الحين ، أجهل طبع هذا الشخص ، وأجهل مرايه .

قالت فرفارا بتروفنا بلهجة رصينة متحفظة ، وقد ضايقها تسامحها
قليلاً :

- اننى أصغى اليك .

- ليست القصة طويلة . حتى انها ليست حكاية . ولكن رب كاتب
من كتاب الروايات لا يجد شيئاً يفعله خيراً من أن يلفق منها رواية ،
فهى حالة شائعة . انى على ثقة بأن براسكوفيا ايفانوفنا وليزافنا نيقولايفنا
ستصغيان الى باهتمام ، لأن فى هذه القضية أشياء كثيرة ان لم تكن خارقة
فهى على الأقل عجيبة . منذ خمس سنين عرف نيقولاى فسيفولودوفتش
هذا السيد ببطرسبرج ، نعم هذا السيد لبادكين الذى يقف فاغر الفم ،
والذى يتمنى فى هذه اللحظة أن يكون بعيداً اذا لم يخطئ ظنى . معذرة
يا فرفارا بتروفنا . على اننى لا أنصحك بالهروب يا عزيزى السيد
الموظف المحال على التقاعد من مصلحة التموين (هأت ذا ترى اننى

أعرفك جيداً) • أنا ونيقولاي فسيفولودوفتش ، على علم كامل بجميع أفعالك هنا ، وهى أفعال ستُحاسب عليها حساباً عسيراً ، لا تنسَ هذا • مرةً أخرى أستغفرك يا فرفارا بتروفا • فى ذلك الأوان كان نيقولاي فسيفولودوفتش يطلق على هذا الشخص اسم فالستاف ، أى يعدُّه انساناً مضحكاً جداً يسخر منه جميع الناس ويستهزئون به ولا يحتاج هو على ذلك شريطة أن يجنى منه بعض المال (كذلك اعتقد بطرس ستيفانوفتش أن من واجبه أن يشرح) • وفى ذلك الأوان كان نيقولاي فسيفولودوفتش يعيش فى بطرسبرج حياة « ساخرة » ان صح التعبير • اننى لا أجد كلمةً غير هذه الكلمة لوصف الحياة التى كان يعيشها فى ذلك الأوان ، فهو انسان لا يستسلم لليأس وهو من جهة أخرى يحتقر أن يشغل نفسه بأى شئ • اننى لا أتكلم عن ذلك العهد فقط يا فرفارا بتروفا • وكان لليادكين هذا أخت ، هى تلك نفسها التى كانت هنا منذ هنيهة • والاخ والأخت لم يكن لهما ركن يأويان اليه ، فكانا يسكنان تارةً عند هؤلاء وتارةً عند أولئك • كان ، هو ، يظل يطوّف ببرزته الرسمية تحت أروقة الدكاكين ويستوقف المارة ، أحسن المارة طبعاً ، ثم يمضى بكل ما يتصدقون به عليه الى الخمارة • أما الأخت فكانت تعيش كما تعيش عصفير السماء • كانت تساعد الفقراء فيطعمونها • اغفروا لى أننى أصف لكم هذه الحياة التى كان نيقولاي فسيفولودوفتش قد استحلها من باب « التفرد والشنوذ » • اننى لا أتكلم الا عن تلك الفترة يا فرفارا بتروفا • أما تعبير « الشنوذ والتفرد » هذا فهو من عنده : انه تعبّره هو • لقد كان لا يخفى عنى أشياء كثيرة • والآسة ليادكين التى أتيح لها كثيراً أن تراه فى ذلك الأوان قد خطف بصرها وفتن لبّها مظهره • لقد كان بمثابة قطعة من الماس تتلألأ على صفحة حياتها الوسخة



ماريا ليلياڊاڪين (المرحاء)

المقززة • ولكن وصف المواطن ليس هو ما أبرع فيه وأجلى فيه ،
لذلك أصرف النظر عن هذا الأمر • ومع ذلك فقد وُجد أناس خبثاء
أشرار أخذوا يسخرون منها ، فجعلها ذلك حزينة كل الحزن • كانوا
يستهزئون بها ويضحكون عليها بغير انقطاع ، ولكنها كانت فى أول
الأمر لا تلاحظ ذلك ولا تدركه • انها منذ ذلك الحين لم تكن مالكة
عقلها كاملاً ، ولكن اختلال عقلها لم يكن قد بلغ الحد الذى بلغه الآن •
وعلى أن نفترض أنها ، بفضل عناية ورعاية محسنة ما ، قد نُشئت فى
فى طفولتها تنشئة مكنتها من الالام بشئ من ثقافة • كان نيقسولاى
فسيفولودوفتش لا يولها أى اهتمام فى يوم من الايام ، وكان يقضى وقته
فى لعب « الويست » بورق عتيق متسخ على ربع كوبك للنقطة الواحدة
مع أشخاص من صفار الموظفين • لكنه ، فى ذات مرة ، وقد سخر
أحدهم من المسكينة ، أمسك الرجل من تلايبه دون أى شرح ورماء من
النافذة من الطابق الاول • ولم يكن ذلك منه تعبيراً عن غضب فروسى
أثارته فيه رؤية الفتاة البريئة مهانة • فقد جرى المشهد كله بين ضحكات
الحضور وصيحاتهم ، حتى ان نيقولاى فسيفولودوفتش ضحك أكثر مما
ضحك الآخرون • وحين تبيّن أن الحادث لم يسفر عن عواقب أليمة ،
تمت المصالحة حول زجاجة من الحمرة • ولكن « البريئة المهانة » لم
تس ما فعله الفارس من أجلها • وكان طبعاً أن ينتهى هذا بتشويش
ملكاتها العقلية تشويشاً حاسماً • أكرر أنتى لا أجيد وصف المواطن •
ولكن كل شئ هنا كان يتم فى نطاق خيالها • وكان نيقسولاى
فسيفولودوفتش ما ينفك يزيد هذا الخيال اضطراباً بما يشبه التعمد •
فبدلاً من أن يضحك على الأنسة ليادكين كما يفعل الآخرون ، أخذ
يعاملها باحترام ، مثيراً بذلك دهشة الجميع • حتى أن كيريلوف الذى

شهد ذلك (وهو شخص على جانب كبير من الأصالة والصراحة الخارقة
يا فر فارا بتروفا ، وقد ترينه لأنه الآن هنا) أقول ان كيريلوف هذا ،
الذى لا يتكلم أبدا ، قد غضب مرة وقال لنيقولاى فسيفولودوفتش
- أتذكر هذا جيدا - انه يرتكب خطأ كبيرا اذ يعامل الأنسة ليادكين كما
نعامل مركزة ، لأن ذلك يفقدها عقلها تماما . يجب أن أقول لك ان
نيقولاى فسيفولودوفتش كان يقدر كيريلوف . فهل تعرفين بماذا أجابه ؟
لقد أجابه بقوله : « أظن يا سيد كيريلوف اننى أسخر منها ؟ انك اذن
لواهم : اننى أحترمها فعلاً ، لأنها خير منا جميعا » . وقد قال ذلك بلمهجة
جادة . ومع ذلك فانه خلال الشهرين أو الأشهر الثلاثة التى عرفها
خلالها لم يقل لها كلمة واحدة عدا « يومك سعيد » و « الى اللقاء » .
وانى لأذكر بوضوح كامل أنها انتهت من ذلك الى أن عدته خطيئها
تقريبا ، ولكنه خطيب لا يجرؤ أن يختطفها لأن له أعداء كثيرين ، ولأنه
يخشى أن تجيئته متاعب من جهة أسرته ، أو شيء من هذا القيل .
ما أكثر ما كنا نضحك من ذلك ! وفى النهاية حين غادر نيقولاى
فسيفولودوفتش مدينة بطرسبرج ليجىء الى هنا ، اتخذ تدابير من
أجل أن يكفل للفتاة المسكينة معاشا سنويا ، معاشا كبيرا فيما أعتقد ،
يساوى نحو ثلاثمائة روبل ان لم يكن أكثر . لنفرض أن ذلك لم يكن
منه الا نزوة عارضة ، الا بدوة جامحة ، كما يمكن أن يحدث هذا
لرجل سئم الحياة قبل الأوان . بل فلنفرض أن كيريلوف كان على
حق ، وأن الامر لا يعدو أن يكون تجربة يقوم بها امرؤ قليل المروءة
يريد أن يرى الى أين يمكن المضي بامرأة شوهاء نصف مجنونة . لقد
قال له كيريلوف : « انك تعمدت أن تختار أبشع مخلوقة ، أن تختار
امرأة عرجاء يسخر منها الناس ويسئون معاملتها ، وهى الى ذلك تموت

بك حباً مضحكاً ؟ وأخذت تدبر لها رأسها عامداً قاصداً لا لشيء إلا أن ترى ما عسى ينتج من ذلك . . . ولكن هل ينبغي أن نعدّ رجلاً من الرجال مسئولاً عن جميع الأفكار المجنونة التي يمكن أن تساور ذهن امرأة لم يبادلها هذا الرجل جملتين . لاحظوا أنه لم يبادلها جملتين حقاً . هناك يا فرفارا بتروفاً أشياء لا يعجز المرء عن أن يقول فيها كلاماً معقولاً فحسب ، بل يعجز كذلك حتى عن محاولة معالجتها معالجة جادة . لنفرض أن ذلك كان « تفرداً وشذوذاً » من جانب نيقولاى فسيفولودوفتش . ان هذا كل ما يمكن أن يقال عن هذه القصة . فانظري ماذا جعلوا منها ! انتى على علم ، الى حد ما ، بما يجرى هنا يا فرفارا بتروفاً .

هنا قطع القاصُّ حديثه فجأة ، وهمّ أن يلتفت نحو لبيادكين ، لكن فرفارا بتروفاً أوقفته . لقد كانت فرفارا بتروفاً تعاني انفعالات قوية شديدة .

سألته :

- هل أنهيت كلامك ؟

- لا ، ما أنهيته . فلكى أخرج القضية الى النور يجب على أيضاً أن ألقى عدداً من الأسئلة على هذا السيد ، اذا أذنت لى بذلك . فلسوف ترين حقيقة الأمر يا فرفارا بتروفاً .

- كفى . أرجىء هذا الى ما بعد . توقف عن الكلام لحظة ، أرجوك . آه ... لكم أحسنت صنعاً اذ تركت لك أن تتكلم ! استأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه يقول بحرارة :

- ولاحظى يا فرفارا بتروفاً أنه كان يستحيل استحالةً مطلقةً على نيقولاى فسيفولودوفتش أن يذكر لك جميع هذه الايضاحات جواباً عن سؤالك الذى لعله كان يشتمل على اسراف فى الجزم والقطع .

- آ ... نعم ... كان يشتمل على اسراف كبير فى الجزم
والقطع !

- أفلم يكن من حقى أن أقول ان ثمة ظروفًا يكون فيها تقديم
الايضاحات اللازمة أسهل على شخص آخر منه على صاحب الشأن
نفسه ؟

- نعم ، نعم ... ولكن هناك نقطة أخطأت فيها وما تزال تخطئ ..
انتى ألاحظ ذلك آسفة .

- حقا ؟ ما هو الخطأ الذى وقعت فيه ؟

- اسمع ... ولكن اجلس أولاً يا بطرس ستيفانوفتش .

- لك ما تشائين ... اعترف بأننى منهوك القوى . شكرا .

وسرعان ما قرَّب مقعدا فجلس عليه بحيث يكون بين فرفارا بتروفنا
بتروفنا من جهة وبراسكوفيا ايفانوفنا من جهة أخرى ، مع بقائه قبالة
الكابتن ليادكين حتى لا يحوّل عنه بصره .
قالت فرفارا بتروفنا :

- لقد أخطأت حين عددت ذلك « تفرداً وشذوذاً » .

- أوه ... اذا لم يكن خطئى الا هذا ...

فقاطعت فرفارا بتروفنا تقول :

- لا ، لا ، لا ، انتظر قليلا ...

وكان واضحا أنها تتأهب للاسترسال فى حديث طويل جداً ،
مؤثر جدا . فما ان لاحظ بطرس ستيفانوفتش ذلك حتى أصبح كله
آذانا مصغية .

قالت فرفارا بتروفنا :

- لا ، لم يكن ذلك تفرداً وشذوذاً ، بل كان شيئاً أرفع كثيراً من ذلك ، كان شيئاً مقدساً ان صح التعبير ، أؤكد لك . ان نيقولاى فيسولودوفتش رجل ذو كبرياء ، جرحته الحياة فى سن مبكرة ، فانهى من ذلك الى أن ينظر اليها نظرة « سخرية » ، على حد تعبيرك الموفق فى شرحك الممتاز . انه الامير هارى كما أحسن ستيفان تروفيموفتش خلع هذا اللقب الرائع عليه ، وكان يمكن أن يكون هذا اللقب صادقا لولا أن هذا الرجل يشبه هاملت أكثر مما يشبه الامير هارى ، فى رأى أنا على الأقل .

تدخل ستيفان تروفيموفتش قائلاً بلهجة نافذة :

- « وانك لعلى حق » (بالفرنسية) .

- أشكرك يا ستيفان تروفيموفتش ، أشكرك شكرا خاصا على هذه الثقة التى لا تترزعزع ، هذه الثقة بنيقولا ، وبعظمة نفسه ، وعظمة قدره . لقد أحييت فى نفسى هذه الثقة حين فقدت أنا الشجاعة .

- « عزيزتى ، عزيزتى *** »

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش وهو يتقدم نحو فرفارا بتروفنا ، ولكنه سرعان ما توقف اذ قدّر أن مقاطعتها ربما كانت خطيرة . وتابع فرفارا بتروفنا كلامها فقالت بصوت كأنه الغناء :

- لو وجد بقرب نيقولاى انسان عطوف مثل هوراسيو * ، العظيم جدا فى تواضعه ومثلته - وهذا تعبير آخر من تمايرك الجميلة يا ستيفان تروفيموفتش - فلربما كان منذ زمن طويل قد أُنقذ « من شيطان السخرية الحزين المشؤم » الذى لم ينقطع عن تمزيقه (وتعير « شيطان السخرية » هو من اكتشافتك أيضا يا ستيفان تروفيموفتش) . ولكن

يقولاي لم يوجد الى جانبه شخص مثل هوراسيو فى يوم من الايام ، ولا انسانة مثل أوفيليا • انه لم يكن له أحد الا أمه • ولكن ما عسى تستطيع أن تفعله أم وحدها ، وفى ظروف كذلك الظروف ؟ الآن بدأت أفهم يا بطرس ستيفانوفتش كيف أمكن شخصا مثل يقولاي أن يعيش فى مثل تلك الغيطان التى وصفتها لنا منذ برهة • اننى أتصور بوضوح كامل باهر « سخرية » تلك الحياة (ما كان أصدق تعبيرك هذا !) ، وأتصور الظمأ المحرق ، الناشئ عما يحمله فى نفسه من تناقضات ، وأتصور الصفحة الكالحة الحزينة من تلك اللوحة التى يبرز عليها يقولاي بروز قطعة من الماس على حد تشبيهاك يا بطرس ستيفانوفتش ؛ وأتصوره يلقي فى هذه البيئة تلك المخلوقة المثقلة بالاهانات ، تلك الشوهاء نصف المجنونة ، التى لعلها تزخر مع ذلك بأبلى المواطف !...•

— هم ••• لنسلم بهذا •••

— أفتستقرب بعد هذا أن لا يسخر منها كما يسخر سائر الناس ؟ ••• آه من الرجال ! انكم لا تفهمون لماذا يدافع عنها ويحيطها باحترام « كما لو كانت مركيزة » (ان كيريلوف هذا لا بد أنه يعرف البشر معرفة رائعة ، رغم أنه لم يفهم يقولاي !) • ان الشر كله قد نشأ عن هذا التضاد ، ان شئت • فلو أن المسكين قد وُجدت فى بيئة مختلفة ، فلعلها ما كانت لتسترسل فى أحلام مجنونة الى ذلك الحد ! لا يستطيع أحد أن يفهم هذه الأمور الا امرأة • نعم المرأة وحدها قادرة على أن تفهم هذه الأمور يا بطرس ستيفانوفتش ! ومما يؤسف له كثيرا أنك لست امرأة ، وأنتك لا تستطيع أن تصبح امرأة خلال لحظة من الزمان ، من أجل أن تفهم •••

— تريدين أن تقولى على وجه الاجمال ان المرء كلما ساءت حاله

كان أشد توفاً الى شيء آخر • انتى أفهم يا فرفارا بتروفنا ، أفهم • مثل ذلك كمثل الدين : فكلمنا كانت حياة الانسان شاقة أليمة ، وكلما كان الشعب مضطهدا بائسا ، كان أكثر استرسالا فى أحلام المكافآت التى سيلقاها فى الجنة • فإذا جاء بالاضافة الى هذا مائة ألف كاهن يتدخلون فى الأمر ويضرمون نار هذه الاحلام مزيدا من الاضرار ، ويزيدون عليها أفكارا وتأملات ، فعندئذ ••• انتى أفهمك يا فرفارا بتروفنا ، اطمئنى •••

- ليس هذا هو الامر تماما • ولكن قل لى يا بطرس ستيفانوفتش : هل كان يجب على نيقولاى ، من أجل أن يهدى نار الاحلام التى استرسلت فيها تلك العضوية المسكينة (لم أستطع أن أفهم لماذا استعملت فرفارا بتروفنا كلمة « العضوية ») هل كان يجب عليه أن يسخر منها أيضا ، وأن يعاملها كما كان يعاملها أولئك الموظفون الصغار ؟ هل يُعقل حقاً أن ترفض أنت قبول ذلك العطف العميق وتلك الرحمة البالغة وذلك الارتعاش النبيل فى جسم نيقولاى كله ، حين أجاب كيريلوف بقسوة : « انتى لا أسخر منها » ؟ ألا ما كان أعظمه وأقدس من جواب ! •••

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية :

- « رائع » (بالفرنسية) •

- ولاحظ أنه ليس غنيا الى الحد الذى تفترضه • ليس هو الغنى بل أنا الغنى • ولقد كان فى ذلك الأوان لا يطلب منى شيئاً •

قال بطرس ستيفانوفتش بشيء من نفاد الصبر :

- أفهم ، أفهم هذا كله يا فرفارا بتروفنا •

- انه أنا تماما • انتى أتعرف نفسى فى نيقولاى • أتعرف عهد الصبا ، وتلك الاندفاعات العنيفة ، وتلك الانفجارات ••• واذا أتيج لنا

أن تعارف مزيدا من التعارف يا بطرس ستيفانوفتش - وذلك ما أتمناه
من جهتي صادقة ، لا سيما واننى مدينة لك بأشياء كثيرة - فلعلك ستفهم
عندئذ ...

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة مقطّعة :

- تقى اننى أنا أيضا من جهتي ...

- ستفهم عندئذ تلك الاندفاعة التى تجرك بمعاوتك السمحة
الكريمة نحو انسان لا يستحقك ، انسان غير جدير بك من أية ناحية ،
انسان لا يفهمك ولا يننى يسومك سوء العذاب ، والتى تجعل من هذا
الانسان فى نظرك ، بالقياس الى جميع الناس وعلى خلاف رأى جميع
الناس ، تجسدا للمثل الأعلى الذى تصبو اليه نفسك، وتهفو اليه أحلامك،
فيه تركز جميع آمالك ، فاذا أنت تحبه وتعبده دون أن تدري لماذا ،
وربما كنت لا تحبه ولا تعبده الا لأنه غير جدير بذلك ... لئيك تعلم
كم تأملت أنا يا بطرس ستيفانوفتش !

حاول ستيفان تروفيموفتش ، وكان قلق الهيئة ، أن يقع بصره على
بصرى ، ولكننى أشحت وجهى فى الوقت المناسب .

- وحتى فى الآونة الأخيرة ، نعم ، فى الآونة الأخيرة ...
آه ... ما أكبر ذنبى فى حق نيقولاى ! ... انك لا تستطيع أن تتصور
كم عذّبونى جميعا ، جميعا ... الأعداء والأوغاد والاصدقاء . حتى ان
الأصدقاء عذّبونى أكثر من الأعداء . حين تلقيت آخر رسالة خالية
من اسم كاتبها ، لعلك لا تصدقنى يا بطرس ستيفانوفتش ، ولكن الحقيقة
هى اننى لم أجرو أن أعامل بالاحترار جميع تلك الدناعات ... آه ...
لن أغفر لنفسى هذا الضعف ما حييت ، لن أغفره لنفسى ما حييت ...

قال بطرس ستيفانوفتش وقد اتعش فجأة :

- سمعت عن تلك الرسائل الخالية من أسماء كاتبها • ولسوف
أكتشفهم ••• اطمئنى •••

- لا تستطيع أن تتخيل المكائد التي حاكوها حولنا هنا • حتى
صاحبتنا المسكينة براسكوفيا ايفانوفنا قد عانت منها أيضا • وماذا كان هدفهم
من تعذيبها هي ؟

وأضافت فرارا بتروفنا تقول مخاطبةً براسكوفيا ايفانوفنا منفعةً
انفعالا لا يخلو مع ذلك من بعض الارتياح الساخر :

- لعلنى أذنب اليوم فى حقك يا عزيزتى براسكوفيا ايفانوفنا •
فجمجمت براسكوفيا ايفانوفنا تقول كأنما على أسف :
- لندع هذا الآن • فى رأى أن الأفضل أن تنتهى من هذه المسألة
كلها • لقد أسرفنا فى الحديث عنها •

قالت براسكوفيا ايفانوفنا ذلك وعادت ترشق ليزافنا يقولايضا بنظرة
وجللى • ولكن ليزافنا يقولايضا كانت تنظر الى بطرس ستيفانوفتش •
وهتفت فرارا بتروفنا تقول :

- أما تلك المخلوقة المسكينة ، تلك المجنونة التى فقدت كل شئ • ولم
تحفظ الا بقلبها ، فانى أنتوى الآن أن أحتضنها • ذلك واجبى وسأقوم
به • هى منذ الآن فى حمايتى •

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول من جديد :

- وسيكون هذا من جهتك خيرا عظيما بمعنى من المعانى • معذرة،
اننى لم أته من كلامى منذ قليل ؟ وعن هذه « الحماية » انما كنت أنتوى
أن أحدثك • تصوّر أن هذا السيد ، هذا السيد لبيادكين الذى ترينه،
ما ان سافر يقوى فسيقولودوفتش (اننى أستاذف سرد القصة من حيث
وقفت) حتى تصور أن من حقه أن يتصرف فى معاش أخته كاملا • وقد

تصرف فيه فعلا بحيث لم تر منه قرشا • لا أدري على وجه الدقة • كيف
رتب نيقولاى فيسيفلودوفتش الأمور في البداية ، ولكنه بعد ذلك بسنة ،
وقد عرف بما حدث ، اضطر أن يتخذ اجراءات أخرى • أعود فأقول
اننى غير مطلع على التفاصيل ، وسيروى لك هو هذه التفاصيل • كل
ما أعلمه هو أن الانسانة التى همّه أمرها قد وُضعت فى دير بعيد ،
مريح جداً على كل حال ، ولكن تحت رقابة حنون • هل تفهمين عنى ؟
فهل تتصورين ما تخيله السيد ليادكين ؟ لقد جهد بجميع الوسائل أن
يكشف أين خبيء مصدر وارداته ، أعنى أين خبئت أخته • حتى اذا
توصل الى معرفة ذلك - منذ مدة غير طويلة - استردها من الدير ،
مستندا الى حقوق له عليها ، وجاء بها الى هنا رأسا • وهو هنا لا يطعمها ،
وهو هنا يضربها ، ويضربها بجميع الأساليب • فلما تلقى مبلغا كبيرا من
المال من نيقولاى فيسيفلودوفتش أخذ يدمن على الشراب ، وأخذ يسيء
الى المحسن اليه ، وأخذ يطارده بمطالب جنونية ، ويهدده بمقاضاته أمام
المحاكم اذا لم يوضع الماعش بين يديه رأسا • فهو يرى اذن أن الهبة التى
وهبها له نيقولاى فيسيفلودوفتش بمحض ارادته ، انما هى ضريبة واجبة
الدفع • هل تتخيلين هذا ؟ يا سيد ليادكين ، هل « كل » ما قلته أنا الآن
صحيح ؟

ما ان سمع الكاتب هذا السؤال ، وكان حتى ذلك الحين يقف
صامتا خافض العينين ، حتى تقدم خطوتين الى أمام ، واصطبغ وجهه
بحمرة شديدة ، وقال بصوت متقطع :

- لقد عاملتنى بقسوة يا بطرس ستيفانوفتش !

- بقسوة ؟ ما معنى هذا ؟ ولكن اسمح لى • لترجىء مسألة القسوة
هذه الى بعد • أما الآن فانتى لا أطلب منك الا أن تجينينى عن سؤالى

الأول : هل « كل » ما قلته أنا الآن صحيح ، أم هو غير صحيح ؟ إذا كنت ترى أنه كذب فلا شيء يمنعك من أن تعلن ذلك في هذه اللحظة نفسها .
بدأ الكاتبين يغمغم متلعثما فيقول :

- أنا ... انك تعلم أنت نفسك ... يا بطرس ستيفانوفتش ...
ولكنه أمسك عن الكلام فجأة ..

يجب أن نقول ان بطرس ستيفانوفتش كان جالسا في مقعد ، واضعاً ساقاً على ساق ، بينما كان الكاتبين ليادكين واقفا أمامه ، على وضع الاحترام والتعظيم .

وكان يبدو أن ترددات الكاتبين تزعج بطرس ستيفانوفتش كثيرا ، فاذا بالغضب يقبض قسما وجهه فجأة . وها هو ذا يسأله قائلا وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة :

- هل تريد أن تصرّح بشيء حقا ؟ إذا كنت تريد ، فهلمّ افعل .
انا ننتظر .

- انك تعلم أنت نفسك يا بطرس ستيفانوفتش اننى لا أستطيع أن أقول شيئا .

- لا ، لا أعلم . حتى ان هذه هي المرة الاولى التى أسمع فيها كلاما عن مانع من هذا النوع . لماذا لا تستطيع أن تقول شيئا ؟

ظل الكاتبين صامتا خافض العينين .

وقال أخيرا بلهجة جازمة :

- اسمح لى أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش .

- لا أسمع لك بالانصراف قبل أن تجيب عن سؤالى الأول : هل «كل» ما قلته أنا الآن صحيح ؟

أجاب الكاتبن بصوت أجش ، وهو يرفع عينيه نحو جلاده :

- نعم •

وكان جبينه مغطى بالعرق •

- «كل» شيء صحيح ؟

- نعم ، كل شيء •

- أليس لديك أى شيء تضيفه ؟ أليس هناك أى شيء تصححه ؟ اذا

كنت ترى أننا نظلمك فقل ذلك • احتج • عبّر جهاراً عن كل استيائك •

- لا ، ليس عندى شيء أضيفه •

- هل هدّدت نيقولاى فيسيفولودوفتش فى الآونة الأخيرة ؟

- كان ذلك ... كان ذلك من تأثير الخمرة يابطرس ستيفانوفتش •

ورفع الكاتبن رأسه ، وأضاف يقول ناسيا نفسه من جديد :

- بطرس ستيفانوفتش ، اذ أخذ شرف الأسرة والعار الذى يجلل

المرء ظلماً ، اذا أخذنا يصرخان بين الناس ، فهل يكون المرء آنماً مذنباً ؟

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يرشقه بنظرة حادة :

- ألسن الآن سكران يا سيد ليادكين ؟

- أنا ... لا ... لست سكران ... لم أشرب شيئاً •

- اذن فما معنى هذه العبارات التى تتكلم عن شرف الأسرة والعار

الذى يجلل المرء ظلماً ؟

- أنا لا ألع الى أى انسان • أنا لم أشأ أن أسىء الى أحد • أنا لم

أفصد الا نفسى ...

كذلك تتم الكاتبن وهو ينهار من جديد •

- يخيّل الى أنّك تضايقت من التعابير التي استعملتها في الكلام عنك وعن سلوكك • انك سريع التأذى شديد الحساسية يا سيد ليادكين • ولكن انتظر قليلا • انتي لم أبدأ الكلام عن سلوكك بالمعنى الحق للكلمة • سأتكلم عنه بعد قليل • نعم ، من الجائز أن أبدأ الكلام عن سلوكك ، ولكنني لم أقل شيئا على وجه الاجمال حتى الآن •

ارتعش ليادكين ، ونظر الى بطرس ستيفانوفتش منقلب الهیة •

- بطرس ستيفانوفتش ، الآن فقط انما استيقظ !

هم ••• وهل أنا الذي أيقظتك ؟

- نعم يا بطرس ستيفانوفتش ••• ولقد نمت خلال أربع سنين تحت سماء مشحونة بالصاعقة • هل يمكنني أخيرا أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش ؟

- نعم ، اللهم الا أن يكون رأى فرفارا بتروفنا أن •••

لكن فرفارا بتروفنا أسرع تحرك يدها بإشارة النفی •

فسلّم الكابتن ، وخطا خطوتين ، وتوقف ، ووضع يده على قلبه ، وأراد أن يقول شيئا ، لكنه لم يقله ، وهرع نحو الباب ، فاذا هو يجد نفسه امام نيقولاى فيسولودوفتش • فتجى له هذا ليفسح له مجال المرور • فصنّر الكابتن جسمه تصفيرا شديدا ، ولبت وافقا كالمجمد ، محدقا الى الشاب بعينين ساكنتين ، كأرنب أمام أفعوان ضخم • انتظر نيقولاى فيسولودوفتش لحظة ، ثم أبعد يده بحركة خفيفة من يده ، ودخل الصالون •

كان مرحاً وهادئاً كل الهدوء • لعل شيئاً ممتعاً جداً كان قد حدث
له ولم يدر في خلدنا نحن • مهما يكن من أمر ، فلقد كان يبدو مرتاحاً
كل الارتياح ، راضياً أشد الرضى •

قالت فرارا بتروفا تسأله نافذة الصبر :

- هل ستغفر لى يا نيقولاى ؟

ونهمضت تلقاه بحركة نشيطة •

لكن نيقولاى انفجر ضاحكاً • وهتف يقول ببساطة وطيبة :

- قدّرت هذا • توقعته • ولقد كنت أقول لنفسي وأنا فى العربة :
كان ينبغي لى أن أروى لهم قصة قصيرة ، فليس حسناً أننى انصرفت على
ذلك النحو ... ولكننى حين تذكرت أن بطرس ستيفانوفتش قد بقى
عندكم ، لم أهتم بعد ذلك •

وكان وهو يتكلم يتفحص وجوهنا بسرعة •

هتفت فرارا بتروفا تقول بحماسة :

- لقد قصّ علينا بطرس ستيفانوفتش قصة بطرسبرجية قديمة عن
فترة من حياة شاب جامع الخيال عجيب الطبع طائش النزوات ، لكنه يظل
نييل العواطف ذا مشاعر فروسية ...

- فروسية ؟ هل وصلتكم الى هذا الحد ؟ على كل حال ، أنا أشكر
للسيد بطرس ستيفانوفتش تعجله وتسرع هذه المرة •

قال ذلك وبادل بطرس نظرة سريعة ، ثم تابع كلامه يقول :

- يجب أن تعلمي يا ماما أن بطرس ستيفانوفتش يصلح دائما بين جميع الناس : ذلك دوره ، ذلك مرضه ، ذلك جنونه ، وأنا أنصحك به نصحا خاصا في هذا المجال • اني أتخيل ما لا بد أن يكون قد رواء لكم وقصه عليكم مسهباً مطناً ! ذلك أنه يسهب ويطنب حين يروي أمراً من الأمور • ان رأسه أرسيف زاخر • لاحظي أنه ، بصفته واقعياء ، لا يستطيع أن يكذب ، وأن الحقيقة أغلى عنده من النجاح ••• باستثناء بعض الحالات الخاصة طبعا ، ففي تلك الحالات الخاصة يكون النجاح عنده أضمن من الحقيقة •

كان نيقولاى فسيفلودوفتش وهو يقول هذا الكلام لا ينفك ينظر حوالبه • وتابع حديثه يقول :

- فهأنت ذى ترين بوضوح يا ماما أنك لست أنت التى يجب تستغفرينى ، وأن التبعة تقع على عاتقى أنا اذا كان قد ارتكب عمل جنونى ما • وهذا يدل فى آخر حساب على اننى مجنون فعلا ••• يجب علىّ حقا أن أؤيد السمعة التى شاعت عنى هنا •••

قال ذلك وقبّل أمه برقة وحنان • ثم أضاف يقول بصوت ترن فيه نغمة جديدة ، قاسية ، خشنة :

- على كل حال ، انتهت القضية الآن • لقد رُويت القصة ، فأصبح لا يمكننا أن نعود اليها •

وقد سمعت فر فارا بتروفا تلك النغمة الجديدة فى صوت ابنها ، لكن حماسها لم تهبط • بالعكس •
قالت :

- ما كنت أنتظر وصولك قبل شهر آخر •
- سأشرح لك كل شىء يا ماما طبعا • أما الآن •••

واتجه نحو براسكوفيا ايفانوفنا •

لكن براسكوفيا ايفانوفنا لم تكذب تلفت رأسها نحو نيقولاى
فسيفولودوفتش • ومع ذلك كان ظهوره قبل نصف ساعة قد صعقها
صعقا كاملا • غير أن هناك أسبابا أخرى لاضطرابها الآن • ففي اللحظة
التي وجد فيها الكابتن نفسه أمام نيقولاى فسيفولودوفتش وجهاً لوجه ،
كانت ليزا قد أخذت تضحك ، ضحكا بدأ صامتا ثم ما انفك يشتد شيئاً
بعد شيء ، وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة • ان التضاد بين هذا المرح
وبين تهجم وجهها منذ حين كان تضادا يخطف البصر ويفجأ الاتباء •
وبينما كان نيقولاى فسيفولودوفتش يتحدث مع فرفارا بتروفنا ، أهابت
ليزا مرتين بصاحبها مافريكى نيقولايفتش أن يدنو منها كأنها تريد أن
تقول له شيئاً بصوت خافت • ولكن ما يكاد مافريكى نيقولايفتش يميل
نحوها حتى تطلق فى ضحك صاخب مجلجل ، حتى ليتمكن أن يظن أنها
انما تضحك من المسكين مافريكى نيقولايفتش • وكان واضحاً من جهة
أخرى أنها تبذل جهوداً فى سبيل أن تخنق ضحكها ، وما تفك تحصل
منديلها الى شفيتها •

وحينما نيقولاى فسيفولودوفتش بهيئة بريئة صريحة • فأسرعت
تجيبه متعجلة :

- اغفر لى • أرجسوك • انك ••• انك قد رأيت مافريكى
نيقولايفتش ولا شك • آه ••• انه ليس مباحاً للمرء أن يكون طويلاً
هذا الطول كله يا مافريكى نيقولايفتش !

وطفقت تضحك • ولقد كان مافريكى نيقولايفتش طويل القامة
فعلاً ، لكن طوله ليس مفرطاً البتة •

وادمتم تقول وهى تحاول أن تسيطر على نفسها :

- هل وصلت منذ مدة طويلة ؟

كانت تبدو خجل مشوشة ، لكن عينيها تسطعان •

أجابها نيقولاى فسيفولودوفتش وهو ينظر اليها بانتباه :

- منذ ساعتين تقريبا •

يجب أن أذكر أن وضعه كان يتسم بأقصى التهذيب والتحفظ ،
ولكن اذا غضضنا النظر عن هذا التهذيب ، وجب أن نلاحظ أن وجهه
كان يعبر عن عدم الاكتراث بل وعن عدم الشعور •

- أين ستسكن ؟

- هنا •

وكانت فرفارا بتروفا هي أيضا تنظر الى ليزا بانتباه ، غير أن فكرة
قد راودتها بفتة • فسألت ابنها :

- فأين كنت اذن يا نيقولاى ؟ أين قضيت هاتين الساعتين ؟ ان
القطار يصل فى الساعة العاشرة •

- أولا أوصلت بطرس ستيفانوفتش الى عند كيريلوفى • كنت قد
التقيت به فى ماتفايفو (على مسافة ثلاث محطات من هنا) ، فترافقنا فى
عربة واحدة من القطار •

تدخل بطرس ستيفانوفتش فورا يقول :

- كنت أنتظر فى ماتفايفو منذ الفجر • كانت العربات الاخيرة من
القطار قد خرجت عن السكة الحديدية ليلا ، ولولا قليل لتكسرت
سيقاننا •

هتفت ليزا صائحة :

- لتكسرت سيقانكم ؟ ماما ، ماما ، ألم نكن نريد أن نذهب نحن الى
ماتفايفو فى الاسبوع الاخير ؟ لو ذهبنا لتكسرت سيقانا ! ...
قالت براسكوفيا ايفانوفنا وهى ترسم اشارة الصليب :
- يا لطيف !

- ماما ، ماما ، ماما العزيزة ! لا ترتاعى اذا تكسرت ساقاى . قد
يحدث لى هذا بسهولة ، مادمت تقولين أنت نفسك اننى أعدو بحصانى
عدواً سريعاً كمجنونة . يامافريكى نيقولايفتش ، هل سنظل تصحبنى
حين تكسر ساقاى ؟

وعادت تضحك من جديد . ثم تابعت كلامها تقول :
- اذا حدث لى هذا ، فلن أسمح لأحد غيرك أن يصحببنى ، نى
بذلك . لتصور أن ساقا واحدة من ساقى كُسرت .. هيا ، كن لطيفاً ،
قل لى انك ستعد ذلك سعادة .

قال مافريكى نيقولايفتش بهيئة جادة :
- يا لها من سعادة أن تكسر ساق المرء !
- فى مقابل ذلك ، ستقودنى دائماً ، أنت وحدك ، ولا أحد
سواك !

- حتى فى هذه الحالة ستظلين أنت التى تقودينى يا ليزافنا
نيقولايفنا .

هتفت ليزا تقول مرتاعة :

- يا الهى ! أراد أن يلعب بالألفاظ ! مافريكى نيقولايفتش ، اننى
أحظر عليك أن تدفع فى هذا الطريق . ما أشد أنايتك ! ومع ذلك فأنا
مقتنعة ، وهذا يشرّفك ، بأنك تدم نفسك عامداً . بالعكس : حين أفقد أنا

احدى ساقىّ فلن تكف أنت عن أن تؤكد لى أنتى أصبحت بذلك أحلى وألذ • ولست أجد ثمة الا صعوبة واحدة هى أنك مسرف فى الطول ، وأنا حين سأفقد احدى ساقىّ سأكون قصيرة جدا • فكيف يمكنك والحال هذه أن تقودنى من ذراعى ؟ ستكون صحبتنا مضحكة •

قالت ذلك وهزتها ضحكة عصبية • لقد كانت مزحاتها وتلميحاتها باهتة ، ولكن كان واضحا أنها لا يخطر ببالها أن تحدث فيمن يسمونها أثرا كبيرا •

همس بطرس ستيفانوفتش يقول لى :

— هذه نوبة عصبية • الى بكأس ماء • بسرعة •

ولقد صدق تقديره • فما هى الا دقيقة واحدة حتى اضطرب الجميع • وجيء بالماء • وشدت ليزا أمها الى حضنها ، وغمرت وجهها بالقبل ، وطفقت تبكى على كفنها ، ثم ارتدت الى وراء وتأملت من أمام ، وعادت تضحك • وأخذت براسكوفيا ايفانوفنا تبكى قليلا هى أيضا • وأسرت فرارا بتروفنا تقتادهما كلتيهما الى شقتها الخاصة من الباب الصغير الذى دخلت منه داريا بافلوفنا • ولكن غيابهن لم يدم طويلا ، فقد عدن الينا بعد بضع دقائق •••

أحاول أن أستحضر الآن جميع تفاصيل نهاية ذلك الصباح الذى لا يُنسى • فأذكر أننا حين صرنا وحدنا بغير سيدات (الا داريا بافلوفنا التى لم تترك مكانها) ، طاف نيقولاى فسيفولودوفتش على جمعنا ، وصافح كل واحد منا ، باستثناء شاتوف الذى ظل جالسا فى ركنه يطرُق الى الارض مزيدا من الاطراق شيئا بعد شيء • وشرع ستيفان تروفيموفتش فى حديث فكه جدا مع نيقولاى فسيفولودوفتش ، ولكن نيقولاى أسرع بتركه ليتجه نحو داريا بافلوفنا • لكنه ما ان صار فى منتصف الطريق

حتى استوقفه بطرس ستيّفانوفتش ، وجرّه نحو النافذة بالقوة تقريبا ، وأخذ يكلمه بصوت خافت • لعل الحديث كان يدور على شيء هام جدا ، اذا صدق ما عبّر عنه وجه بطرس ستيّفانوفتش وعبّرت عنه حركاته وإشاراتِه • وكان نيقولاى فسيفولودوفتش يصغى اليه ذاهل الهيّة عديم الشعور ، مبتسما ابتسامةً مصنوعة • ثم حرك يده بإشارة تملّمل ، وظهر عليه أنّه يريد التخلص من محدّثه • حتى اذا عادت السيدات ابتعد عن النافذة • جلست ليزا فى مكانها من جديد ، وأصرّت فرّارا بتروفنا على البقاء نحو عشر دقائق قبل الخروج ، لأنّ الهواء فى الخارج أقوى من أن تحتمله أعصابها المريضة • وكانت فرّارا بتروفنا تسعى حول الفتاة بمداواة ظاهرة ورعاية واضحة ، ثم جلست الى جانبها • وسرعان ما هرع بطرس ستيّفانوفتش قرب فرّارا بتروفنا وجعل يحدثها حديثاً زاخرا بالحرارة • وعندئذ انما اتجه نيقولاى فسيفولودوفتش أخيرا نحو داريا بأفلوفنا بخطى هادئة ، فلما رآته داريا يقترب منها اضطربت فى كرسيها ثم نهضت وقد استولى عليها ارتباك واضح واشتعل خذاها احمرارا •

قال وقد طاف بوجهه تعبير غريب :

– أظن أن فى الامكان تهشك ... أم أن الألوان لم يحن بعد ؟

فأجابته داشا ببضع كلمات لم أستطع أن أسيّرَها •

وتابع نيقولاى كلامه فقال وهو يرفع صوته :

– اغفرى لى قلة تكتمى • ولكننى قد أبلغت بالأمر صراحة • هل

تعلمين ذلك ؟

قالت :

– نعم أعلم •

قال ضاحكا :

- أرجو مع ذلك أن لا تفسد عليك تهنئتي شيئاً ، وإذا كان ستيفان تروفيموفتش ...

فقاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً على حين فجأة :

- لماذا هذه التهنئات ؟ بأي شيء يهتك يا داريا بافلوفنا ؟ هه ...
أتراها تهنئات بخطبتك ؟ ان حرية وجهك تدل على انني حزرت . وفعلًا ،
بماذا عسى يهنئ المرء آسأتنا الجميلات الفاضلات ان لم يهنئن بالخطبة ؟
طيب ... اقبل اذن تهنئتي أنا أيضًا ، اذا كنت قد حزرت ، وادفعي
الرهان : تذكرى أنك راهنتى حين كنت في سويسرا على أنك لن
تزوجى أبداً ... آ ... نعم ... بمناسبة سويسرا ... ماذا خطر ببالي ؟
أوه ... هاأناذا كدت أنسى الامر مع أنه أحد أسباب رحلتى ...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك والتفت نحو أبيه بحركة سريعة وقال
يسأله :

- وأنت ، متى تسافر الى سويسرا ؟

- أنا ... الى سويسرا ؟

كذلك صاح ستيفان تروفيموفتش مدهوشاً مرتبكاً .
فقال له ابنه :

- كيف ؟ ألا تسافر ؟ ولكنك تتزوج ... ألم تكتب لى ذلك ؟

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول :

- بطرس ! ...

- ماذا ؟ ماذا تريد من بطرس ؟ لقد جئت خصيصاً لأعلن لك أنني
لا أعارض هذا الزواج ، مادمت حريصاً ذلك الحرص كله على أن تعرف
رأىي بأقصى سرعة ممكنة . وإذا كان يجب «انقاذك» (كذلك تابع كلامه

متعجلاً) كما كتبت الى ذلك متوسلاً أن أسارع لاغاثتك ونجدتك ،
فانتى فى خدمتك . هل صحيح أنه سيتزوج يا فرفارا بتروفا ؟ (كذلك
سأل فرفارا بتروفا وهو يلتفت اليها بسرعة) . أرجو أن لا أكون قليل
الكتمان فاشياً للأسرار . لقد كتب يقول لى هو نفسه ان المدينة كلها على
علم بالامر ، وان الناس يهشونه من كل حدب وصوب ، حتى انه من
أجل أن يتحاشى التهتات أصبح لا يخرج من البيت الا فى الليل . ان
رسالته فى جيبى . ولكن هل تصديق يا فرفارا بتروفا ؟ انتى من جهتى
لم أفهم من الامر شيئاً . قل لى نقطة واحدة يا ستيفان تروفيموفتش :
أيجب على أن أهتاك أم أن « أنفذك » ؟ لن تصدقى يا فرفارا بتروفا !
فهو تارة يبدو مفتونا ، ثم اذا هو بعد سطرين يهوى الى قاع الكمد
والأس . فى البداية يأخذ يستغفرنى . صحيح أنهم جميعا هكذا . . .
ومع ذلك يجب أن أقول هذه الحقيقة : انه طوال حياته - تصورى ! -
لم يرنى الا مرتين ، وبالمصادفة ! وها هو ذا يرانى الآن مرة ثالثة عشية
زواجه . انه يخاف أن يقصّر فيما لا أدري من واجبات تقع على عاتقه ،
فيضرع الى من على بعد ألف فرسخ أن لا أزعل وأن أمنّ عليه
بموافقتى . لا تنزعج يا ستيفان تروفيموفتش ، أرجوك . انك تنتمى الى
عصرك ، وان لى فكراً واسعا ، فلست أحكم عليك ، حتى ان هذا يشرفك ،
الخ . ولكن الامر الأساسى هو انتى لا أفهم جوهر القضية : انك تلمّح
فى رسالتك الى ما لا أدري من « خطايا وآثام ارتكبت فى سويسرا » .
لقد كتبت الى تقول : « سوف أتزوج بسبب خطايا أو من أجل خطايا
غيرى » . . . لا أتذكر العبارة تماما . المهم أن هناك كلاما عن خطايا .
انه يقول : « ان الفتاة جوهرة ، لؤلؤة » ، وانه « لا يستحقها » طبعاً .
ذلك هو أسلوب جيله . ولكنه بسبب ما لا أدري من آثام أو ظروف

مضطر أن « يضع على رأسه الكليل الزواج وأن يسافر الى سويسرا » . . .
فهلهم « اترك كل شيء وأسرع الى انقاذى » . هل تفهمون شيئاً من هذا
كله ؟ ولكن . . . ولكننى أرى وأنا أنظر الى ما تعبّر عنه وجوهكم (قال
ذلك وكان ينظر الى من حوله مبتسماً ابتسامة بريئة ، والرسالة فى يده)
. . . انتى على عادتى قد ارتكبت غلطة . . . بسبب صراحتى الحمقاء أو
بسبب تسرعى كما يقول نيقولاى فسيفولودوفتش . لقد كنت أحسب أننا
هنا بين أصدقاء ، أقصد بين أصدقائك ياستيفان تروفيموفتش ، بين
أصدقائك . . . ذلك أنتى أنا غريب عنكم . . . وانى لأرى . . . انى
لأرى أنكم تعرفون شيئاً ، وأنتى لا أعرف أنا هذا الشيء . . .
وظل ينظر حواله .

سأله فرفاراً بتروفا وهى تتقدم نحوه :

- هل كتب اليك ستيفان تروفيموفتش بالنص أنه يتزوج ليغطفى
خطايا غيره ، خطايا ارتكبت فى سويسرا ، ، وان عليك أن « تقذه » ؟
كان وجه فرفاراً بتروفاً أصفر ، وكان وجهها متشوها ، وكانت
شفهاها تحتلجان .

قال بطرس ستيفانوفتش بسرعة ما تنفك تشدد ، متظاهراً بأنه قد
تنبّه الى خطورة الموقف :

- أقصد . . . اذا كان هناك شيء لم أفهمه حق فهمه ، فالذنب ذنبه
هو طبعاً . لماذا يكتب بهذه الطريقة ؟ اليك الرسالة . ان رسائله طويلة
طولاً لا ينتهى يا فرفاراً بتروفاً ، وهو لا يكل من الكتابة ولا يقطع
عنها . انتى منذ شهرين أو ثلاثة أشهر أتلقى منه الرسالة تلو الرسالة ،
وأعترف بأننى كان يتفق لى أحيانا أن لا أقرأها حتى نهايتها . اغفر لى
هذا الاعتراف ياستيفان تروفيموفتش ، ولكن يجب أن تسلّم لى بأن هذه

الرسائل رغم أنها موجهة الىّ انما أنت كتبتها للأجيال المقبلة ، بحيث لا بد أن تستوى عندك الأمور ... هيا ، هيا ، لا ترعل ، لا داعى الى أن يكون بيننا حرج . ولكن تلك الرسالة يا فرفارا بتروفنا ، تلك الرسالة انما قرأتها الى آخرها . فهذه « الخطايا » ، « خطايا الغير » هذه ، لا شك أنها خطايانا الصغيرة نحن ، وهى خطايا صغيرة جدا . أراهن على ذلك . لكننا بنينا منها قصة كاملة أتاحت لنا أن نستغيث بأبل العواطف ، بل ان هذا بعينه هو الذى حضنا على بنائها ، على بناء تلك القصة . ذلك أن هناك فى حساباتنا شيئا لا يستقيم ، شيئا غير سليم . يجب أن نعترف بذلك . اننا نحب ورق اللعب كثيرا ، كما تعلمين ... ولكن هذا الكلام زائد لا محل له ، نعم زائد لا محل له ، معذرة ، انتى ثرثار مكثر ، ولكنى أحلف لك أنه أخافنى يا فرفارا بتروفنا ، واننى تأهبت « لانتقاده » . حتى لقد شعرت فى النهاية بأننى مذنب . ولكن أنا أضجع له السكين على العنق ؟ أنا دائن لا يرحم ؟ وهو يتكلم فى رسالته أيضا عن مهر ما . ولكن ... عجب ! ... هل ستزوج حقا ياستيفان تروفيموفتش ؟ جائر أيضا أن لا يكون هذا كله الا جملا منمقة . وذلك من طبيعته أيضا ... آه ... فرفارا بتروفنا ، أنا واثق بأنك ترين فى الآن رأيا سيئا ، بسبب طريقتى فى الكلام خاصة ...

فقلت فرفارا بتروفنا بلهجة حائرة :

- بالعكس ، بالعكس ، انتى أرى أنك انما تتكلم لأن صبرك قد نفذ ، ولا شك أن هناك أسبابا تدعوك الى الكلام .

كانت فرفارا بتروفنا قد أصغت بفرح خيى الى الثرثرة « الساذجة » التى استرسل فيها بطرس ستيفانوفتش الذى كان واضحا أنه يمثل دورا . (أما ما هو ذلك الدور ، فانتى لم أكن قد عرفته بعد ، ولكن كان واضحا أنه يمثل ، تمثيلا فيه كثير من المبالغة) .

وتابعت فرارا بتروفا كلامها فقالت :

- بالعكس ، انتى ممتنة كثيرا لأنك تكلمت . فلولاك لما عرفت
شيئاً . لقد تفتحت عيناى لأول مرة منذ عشرين سنة . يا نيقولاى
فسيفولودوفتش ، لقد قلت منذ برهة انك قد اُبلغت أنت أيضا نبأ عن
الزواج صراحة . فهل كتب اليه ستيفان تروفيموفتش بهذا الاسلوب
نفسه ؟

- تلقيت منه رسالة بريئة . . . و . . . و . . . هي رسالة نسيلة
جداً .

- أرى أنك تردد ، وأنتك تتخير تعابيرك . هذا كافٍ .

والتفت فرارا بتروفا نحو ستيفان تروفيموفتش فجأة وقد أخذت
عيناها تقدح شررا ، وقالت له :

- يا ستيفان تروفيموفتش ، انتى أسألك خدمة كبيرة جدا . أرجو
أن تتركنا حالاً ، وأن لا تضع قدميك فى عتبة هذا الباب يوما بعد الآن .
أرجو من القارىء أن يتذكر « حميّاتها » الأخيرة التى لم تكن قد
تبددت بعد . ويجب أن نقول أيضا ان ستيفان تروفيموفتش كان مذنباً
بالفعل . غير أن الشيء الذى أذهلنى أكثر من كل ما عداه هو وقار وضعه
ورصانة موقفه سواء تجاه ما كشف عنه بتروشا الذى لم يحاول حتى أن
يقاطعه ، أو اتجاه « اللعنة » التى صبّتها عليه فرارا بتروفا . من أين أتى
بقوه النفس هذه ؟ لكننى أدركت أنه قد جرح جرحا بالغا عميقا منذ
اللحظة الاولى التى استقبل فيها بتروشا ، ولا سيما من طريقة بتروشا فى
التخلص من عناقه . كان الألم فى قلبه هذه المرة عميقا « حقيقيا » ، فى
نظره هو على الأقل ؛ غير أن ذلك الألم قد انضاف اليه ألم آخر : هو
شعوره بأنه تصرف تصرفا فيه جبن وحقارة . لقد اعترف لى بذلك فيما

بعد بصراحة تامة • والألم « الحقيقي » ، المؤكد ، يمكن أن يثبت الشجاعة
فى أكثر الناس خفة وطيشا ، ولو الى حين • بل أكثر من ذلك أن الألم
الحقيقى يمكن أن يهب ذكاءً لغبى ، الى حين طبعا • تلك واحدة من
مميزات الألم • فاذا صدق هذا ففى وسعكم أن تتخلوا التبدلات التى
لا بد أنها حدثت فى نفس انسان مثل ستيفان تروفيموفتش • ان التبدل
يكون عندئذ تحولاً كاملاً ، لكنه مؤقت بطبيعة الحال •

انحنى ستيفان تروفيموفتش أمام فرفارا بتروفنا بوقار دون أن ينطق
بكلمة واحدة ، (وهل كان يمكنه أن يفعل غير هذا على كل حال ؟) ،
واتجه نحو الباب ، لكنه لم يملك أن يمنع نفسه من التوقف أمام داريا
بافلوفنا • ويظهر أن داريا بافلوفنا كانت تتوقع ذلك ، فها هى ذى ترتاع
أشد الارتجاع ، وتقول له مادةً اليه يدها كأنها تريد الاسراع فى تحذيره :
- أرجوك يا ستيفان تروفيموفتش ، لا تقل شيئاً (وكان وجهها
يعبر عن الألم) ••• كن على ثقة بأننى ما زلت أضمر لك نفس الاحترام
••• واننى أقدرك كما كنت أقدرك من قبل ••• واحتفظ برأى حسنٍ
فىً ياستيفان تروفيموفتش ، فاننى أحرص على هذا كثيرا •

فانحنى ستيفان تروفيموفتش يحييها تحيةً عميقة •
قالت فرفارا بتروفنا تختم الحديث بلهجة فيها أبهة :

- أنت حرة يا داشا • انك تعلمين أن اتخاذ القرار فى هذا الامر
هو من شأنك أنت • لقد كنت دائماً حرة ، وما تزالين حرة ، وستبقين
الى الأبد حرة •

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يلطم جبينه :

- أف ••• الآن فهمت كل شيء • ما أسوأ وضعى اذن ! معسذرةً
يا داريا بافلوفنا • أرجو أن تغفرى لى •••

وأضاف يقول وهو يلتفت نحو أبيه ستيفان تروفيموفتش :

- انظر الى أى وضع دفعتى ، وعلى أى فعل حملتى !

قال ستيفان تروفيموفتش بألم كبير :

- بطرس ، فى إمكانك أن تكلمنى بغير هذه الطريقة • ألا ترى
معى هذا رأى يا صديقى ؟

قال بطرس وهو يحرك ذراعيه :

- لا تصرخ ، أرجوك • صدّق أن مردّ ذلك الى أعصابك الهرمة
المريضة ، وليس يجديك الصراخ شيئاً • كان عليك أن تدرك اننى
سأتكلم فى هذا الموضوع فوراً ، فلماذا لم تنبهنى ؟ لماذا لم تحذرنى ؟

فألقي عليه ستيفان تروفيموفتش نظرة حادة نافذة ، وقال له :

- بطرس ، هل يُعقل ، وأنت المطلع هذا الاطلاع كله على مايجرى
هنا ، أن لا تكون قد علمت شيئاً ولا سمعت شيئاً عن هذه القضية ؟

- انظروا الى هؤلاء البشر ! لست اذن ابنه فحسب ، بل أنا أيضاً
ابنه السئ الحيث ! هل تسمعين ما يقوله يا فرفارا بتروفا ؟

وأخذ الجميع يتكلمون فى آن واحد معا • ولكن فى تلك اللحظة
انما حدث حادث لا شك فى أن أحدا لا يمكن أن يكون قد توقعه •

يجب أن أقول قبل كل شيء أن ليزافنا نيقولايفنا قد بدا عليها منذ دقيقتين أو ثلاث دقائق أن اضطرابها عاد إليها واستبد بها • فهي تبادل أمها ومافريكى نيقولايفتش كلمات سريعة بصوت خافت • أن وجهها ينم عن قلق وحزم في آن واحد • وها هي ذى أخيراً تنهض متعجلاً الانصراف ، وتومئ • بإشارة تدل على نفاذ الصبر ، لأمها التى هبّ مافريكى نيقولايفتش يساعدها على ترك مقعدها • ولكن كان مقرراً أن لا تنصرفاً قبل أن تريا كل شيء حتى النهاية •

ان شاتوف الذى كان قد نسي نسياناً تاماً فى ركنه (قرب ليزافنا نيقولايفنا جدّاً) ، والذى لعله كان هو نفسه لا يعرف لماذا بقى هناك ولماذا لا ينصرف ، قد نهض على حين فجأة ، فاجتاز الغرفة كلها بخطى بطيئة لكنها ثابتة ، واتجه نحو نيقولاى فسيفولودوفتش وهو ينظر اليه وجهاً لوجه •

رأه نيقولاى ستيفانوفتش يدنو منه من بعيد فابتسم ابتسامة خفيفة • ولكن حين وصل شاتوف الى قربه كفّ عن الابتسام •

حتى اذا وقف شاتوف أمامه وهو ما يزال صامتا دون أن يحوّل عنه عينيه ، أدرك الجميع أن شيئاً يحدث ، وصمتوا ، حتى بطرس ستيفانوفتش •

وتوقفت ليزا وأمها فى وسط الصالون جامدتين • وانقضت على هذه الحال بضع ثوان • وها هي ذى الدهشة المزدرية التى يعبر عنها وجهه نيقولاى فسيفولودوفتش يحل محلها غضب ، وها هو ذا يقطب حاجبيه ، ثم فجأة ...

ثم فجأةً يرفع شاتوف يده الطويلة الثقيلة ويهوى بها على وجه نيقولاى فيسفلودوفتش بكل ما أوتى من قوة ، فيترنج ستافروجين من قوة الضربة •

ولقد هوى شاتوف بضربته على نحو خاص ، لا كما يصفع أحد أحداً على وجهه (إذا جاز استعمال هذا التعبير) : أى لم يضربه براحة اليد بل باليد مقبوضة مشدودة • وكانت يده ضخمة ثقيلة قوية العظام مغطاة بشعر أحمر وبقع حمراء • فلو سقطت هذه الضربة على الأنف لهشمته حتماً ، لكن شاتوف أنزل ضربته على الخد ، وانزلت الضربة على الطرف الأيسر من الشفتين وعلى الأسنان العليا فسرعان ما نزف الفم دمًا •

دوت صرخة أطلققتها فراراً بتروفا ، إذا لم يخطيء ظنى • لست أتذكر على وجه الدقة ، إذ لم يلبث الصمت أن ساد الجو من جديد : لقد أصبحنا كالتجمدين من الدهشة • والمشهد كله لم يدم الا نحو عشر ثوان على كل حال •

غير أن أشياء كثيرة جداً قد حدثت خلال هذه الثواني •

يجب أن أذكر القارىء بأن نيقولاى فيسفلودوفتش له طبيعة من تلك الطباع التى لا تعرف الخوف • انه قادر ، فى مبارزة مثلاً ، على أن يواجه رصاص خصمه بهدوء كامل ليسدد اليه بعد ذلك فيقتله بهدوء وحشى ضار • ولو صفعه أحد فما أظن أنه يطلب المعتدى الى المبارزة ، وانما يقتله على الفور • نعم ان له طبيعة من تلك الطباع التى ترتكب القتل مدركةً فعلتها ، لا منقادةً لهماوة الغضب • بل اننى لأعتقد أنه لم يعرف فى حياته اندفاعات الحق الشديد تلك التى تحرمننا من امكان أى تفكير أو تأمل • ففى نوبات السخط التى كانت تستولى عليه أحياناً كان

يستطيع دائماً أن يبقى مسيطراً على ارادته ، وكان يدرك اذن أنه حين يقتل رجلاً في غير مبارزة فهو لا يستطيع أن يفلت من عقوبة السجن . غير أن هذه الفكرة ما كان لها بأية حال من الاحوال أن تمنعه من قتل الرجل الذي يكون قد أهانه ، بغير أى تردد .

لقد درست طبع نيقولاى فسيفولودوفتش فى هذه الآونة الأخيرة كثيراً ؛ فأصبحت بفضل تضايف ظروف خاصة أعرف عنه وقائع كثيرة فى هذه الساعة التى أكتب فيها عنه . اننى أشبهه ببعض شخصيات الزمان الماضى التى ما تزال ذكرها الأسطورية باقية بيننا حتى الآن . يحكى مثلاً أن الديسمبرى « ١٠٠٠ ن » * كان طوال حياته يبحث عن الخطر ، وأنه كان يتلذذ بهذا الاحساس الذى أصبح لديه احتياجاً حقيقياً . فحين كان شاباً كان يقتل فى مبارزة لكلمة نعم أو كلمة لا . وفى سببها كان يصطاد الدب بغير سلاح الا سكيناً ، وكان يتسلل بأن يطارد فى الغابات السجناء الهارين الذين يجب أن نصفهم - عابرين - بأنهم أشد خطراً على الحياة من الدبة . مما لا شك فيه أن أولئك الأشخاص الأسطوريين كانوا يعرفون الخوف ، بل ولعلمهم كانوا يحسونه بقوة خاصة ، والا لعاشوا حياة أكثر مسألة وهذوا وموادة ، ولما قلبوا الاحساس بالخطر الى حاجة طبيعية فيهم . وواضح أن الشيء الذى كان يثير حماسهم وحميتهم انما هو الانتصار على ذلك الخوف . ان فرحهم بالظفر والاحساس بقوتهم ليس لهما حدود . ذلكم ما كان يفتنهم ويخلب ألبابهم . ان « ١٠٠٠ ن » ، ذاك نفسه ، قد عرف الجوع قبل نفيه الى سيبيريا ، وعرف الحاجة الى جنى خبزه بعرق جبينه ، لا لشيء الا لأنه رفض الخضوع للمطالب التى كان يريد أبوه الغنى أن يفرضها عليه وكان هو بعدها ظالمة غير عادلة . كان اذن قد تصور كفاح الحياة فى صور شتى ، وكان قد عرف قوة مقاومته وقوة شكيمته لا فى صيد الدب وفى المبارزات فحسب .

لكن ذلك كله كان يجرى فى زمان بعيد جدا ؛ والطبيعة العvisية ،
المعذبة المختلفة ، التى يتصف بها رجال اليوم ، لا تشعر حتى بالحاجة الى
هذه الاحساسات البسيطة القوية التى كان يبحث عنها ويسعى اليها الرجال
المتحركون الفعّالون الذين عرفهم الزمان القديم . لعل نيقولاى
فسيفولودوفتش أن ينظر الى « ا . . . ن » ، ذاك نظرة متعالية ، بل لعله
يمده رجلاً متفخاً وديكاً مشاكساً يحب القتال ، لكنه لا يقول هذا الا بينه
وبين نفسه دون أن يعلن هذا الحكم جهاراً . ان نيقولاى فسيفولودوفتش
قد يقتل خصماً فى مبارزة ، وقد يجابه دُباً عند الحاجة ، وقد يقاتل قاطع
طريق اذا تعرض له ، وهو يحقق فى هذا كله انتصارات لا تقل عن
انتصارات « ا . . . ن » ، ويبرهن على شجاعة لا تقل عن شجاعة « ا . . . ن » ،
ولكن دون أن يجنى من ذلك أية لذة ، وانما يقوم بهذه الاعمال كلها
برخاوة وتوان وكسل بل وضجر ، كمن يمثل لضرورة مزعجة لا بد
منها . ومع ذلك فقد كان نيقولاى فسيفولودوفتش أشد قسوة وأعظم شراً
من « ا . . . ن » . لكن شره فاطر بارد هادى . بل هو شر «عاقِل» ان صح
التعبير ، وهو اذن شر أدعى الى الاشتزاز وأبعث على الشعور بالهول من
أى شر آخر . أكرر مرة أخرى : لقد عددته حينذاك ، وما زلت أعده
الآن (بعد أن انتهى كل شىء على وجه الاجمال) رجلاً قادراً ، اذا هو
تلقى صفةً أو اهانة مماثلة ، أن يقتل المعتدى عليه فى الحال دون أن
يطلبه الى مبارزة .

ومع ذلك فقد تصرف عندئذ تصرفاً مختلفاً كل الاختلاف ، جمدنا
من الدهشة جميعاً .

فما ان نصب قامته بعد أن انحنى انحناء مخجلاً بتأثير الضربة ، ما ان
انقطع صوت اللكمة الفظيعة الرهيبة - ان صح التعبير - عن التراجع فى

آذاننا ، حتى أمسك نيقولاى سيفولودوفتش صاحبنا شاتوف من كتفيه
بيديه . ولكنه سرعان ما عاد يسحب يديه فى نفس اللحظة تقريبا ،
ويضعهما وراء ظهره . كان صامتا ينظر الى شاتوف وقد شحب لونه حتى
صارت صفرتة أشبه بياض . ولكن ما أعجب ما لاحظناه : لكأن نظرتة
أخذت تنطفئ ، حدثها شيئا بعد شيء ، فما انقضت عشر ثوان حتى كانت
عيناه باردتين ، هادئتين . لست أكذب . اننى متأكد مما أقول . كل ما هنالك
أن لون وجهه أصبح شاحبا شحوبا رهيبا . اننى أجهل ما حدث فى نفسه
طبعا : فأننا لم أر منه الا الظاهر . يخيل الى أنه اذا أوتى انسان أن يقبض
على قضيب من حديد محمر من النار وأن يظل ممسكا به ليمتحن قدرته
على الاحتمال ، واذا تمكن هذا الانسان أن يحقق النصر بعد أن قاوم الألم
الرهيب خلال عشر ثوان ، فان ما يعاينه يكون شيئا بما تحمله نيقولاى
سيفولودوفتش أثناء تلك التواني العشر .

وكان شاتوف أول من خفض بصره . وكان واضحا انه انما خفض
بصره لأنه اضطر الى ذلك اضطرارا . ثم استدار بهدوء ، واتجه نحو
الباب ، ولكن بخطوة مختلفة عن خطواته التى سار بها من قبل . انصرف
بغير جلبة ، مقوَّس الظهر ، داساً رأسه فى كتفيه ، كأنه يفكر تفكيرا
عميقا . حتى اننى أعتقد أنه دمدم يقول بضع كلمات . كان يتقدم محاذرا ،
محاولاً أن لا يصدم شيئا ، وأن لا يقلب شيئا . حتى اذا وصل الى الباب
شقَّ شقاً صغيرا بحيث اضطر أن يخرج مواربا حتى يستطيع أن ينسل
منه . وفيما كان يخرج لاحظت كثة الشعر التى كانت منفوشة على
جمجمته ، لاحظتها خاصة .

وعندئذ دوت صرخة رهيبية سبقت جميع الصرخات . رأيت ليزافنا
نيقولايفنا تمسك أمها من كفها ، وتمسك مافريكى نيقولايفتش من ذراعه

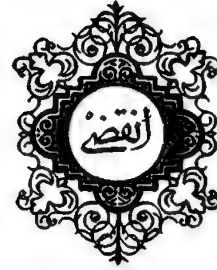
وتبذل جهودا كبيرة عنيفة لتجرهما وراهما الى خارج الغرفة ، ولكنها
أطلقت من صدرها صرخة قوية على حين فجأة ، وسقطت على الارض
مستلقية مفشيا عليها • يبدو لى اننى ما أزال أسمع اصطدام قفا رأسها
بالسجادة •

الجزء الثاني

الفصل الأول

الليل

١



أسبوع • الآن وقد انتهى كل شيء ، فى الساعة
التي أكتب فيها هذه القصة، أصبحنا نعرف الحقيقة •
أما فى ذلك الحين فقد كنا نجلهله • لذلك كانت
أشياء كثيرة تبدو لنا عجيبة جدا • فى الآونة الأولى

لزمنا البيت أنا وستيفان تروفيموفتش ، مكتفين بملاحظة الأحداث من بعد ،
بشيء من الخشية • ومع ذلك كنت أخرج من حين الى حين ، وأنتقل الى
صديقى كما كنت أفعل فى الماضى ، ما أستطيع أن أصل الى جمعه من
معلومات ما كان له أن يستغنى عنها •

من نافل القول أن أذكر أن أغرب الشائعات قد سرت فى المدينة
بشأن الصفعة ، واغماء ليزا ، والأحداث الاخرى التي وقعت فى ذلك اليوم
الذى لا يُنسى ، يوم الأحد • وقد أدهشنا ذلك كثيرا : فكيف أمكن أن
تُعرف هذه الوقائع بمثل تلك السرعة ، حتى فى أيسر تفاصيلها ؟ لا أحد
من الذين شهدوا تلك الاحداث يمكن أن يجنى فائدة من اشاعتها واذاعتها
بين الناس فيما يبدو • أما الخدم فانهم لم يروا شيئا • لبيادكين وحده كان

يمكن أن يتكلم ، لا عن خبث وشر (فقد كان مرتاعا ، والارتياح يقتل الكره) بل تلذذاً بالثرثرة فحسب . ولكن ليادكين وأخته كانا قد اختفيا منذ الغد دون أن يتركا أثرا يدل على المكان الذي رحلا إليه : لقد تركا منزل فيليوف ولا يعرف أحد أين هما . لقد حاولت أن أسأل شاتوف عن ماريا تيموفيتشنا ، لكن شاتوف كان قد سجن نفسه في بيته . وأظن أنه لم يخرج من مسكنه مرة واحدة خلال ذلك الأسبوع ، متنازلاً عن كل مشاغله بالمدينة . وهو على كل حال لم يشأ أن يستقبلني . لقد صعدت الى بيته يوم الثلاثاء ، وقرعت بابه ، فلما لم أحصل على جواب ، واذ تأكدت أنه موجود في البيت ، قرعت الباب مرة أخرى . فسمعت عندئذ صوت حركة هي حركة من يشب عن سريره الى الأرض ؛ وها هو ذا يقترب من الباب بخطى ثقيلة ويصرخ : « شاتوف ليس بالبيت » . فلم يبق عليّ إلا أن أمضي .

وقد انتهينا أنا وستيفان تروفيموفتش أخيرا الى التسليم بأن مروّج الشائعات التي كانت تسرى في المدينة (وذلك افتراض روّعا ما فيه من جرأة وتهور ، ولكن كلاً منا شجّع صاحبه على قبوله) لا يمكن أن يكون أحدا غير بطرس ستيفانوفتش . ومع ذلك فقد أكّد بطرس ستيفانوفتش لأبيه بعد مدة قصيرة أنه مدهوش جداً من أن الحكاية كلّها قد انتقلت من فم الى فم على الفور في المدينة كلها ، وخاصة في النادي ، وأن الحاكم وامرأته يعرفانها بكل تفاصيلها . ولكن الأغرب من ذلك انني علمت حين لقيت ليوين مساء يوم الاثنين أنه كان منذ ذلك الحين على علم كامل بكل ما جرى . فمعنى هذا أنه كان من أوائل من اطلعوا على الامر .

ان كثيرا من السيدات (وبينهن سيدات من أبرز أعضاء المجتمع الراقي) قد حيرهن أشدّ الحيرة أمر تلك « العرجاء اللغز » . كذلك

كنّ يلقبها • حتى ان بعضهن قد تمنين أن يعرفنها • معنى ذلك أن الذين أسرعوا يخفون لياديين وأخته قد فعلوا ما يجب فعله فى الوقت المناسب جدا • على أن اغماء ليزافتا نيقولايفنا هو الذى كان يشغل الأذهان خاصة • ألم يكن هذا الحادث يخص جوليا ميخائيلوفنا ، امرأة الحاكم ، وقريبة الفتاة وحاميتها ؟ ما أكثر ما قالوا ! ثم ان هذه الثروات كان يسهلها ويشجعها ما يحيط بشخص الدراما من سر : لقد بقى المنزلان مغلقين • كان يقال على وجه التأكيد ان ليزافتا نيقولايفنا مصابة بحصى حارة ، ومثل هذا كان يُقال عن نيقولاى فيسولودوفتش ، بالإضافة الى اختراع تفاصيل أخرى كثيرة منفرة ، منها أن أسنانه تكسرت ، وأن وجهه تشوه ، وهلم جرا • وكانوا يرددون ، تحت طابع السر ، أن الأمور لن تقف عند هذا الحد ، فليس ستافروجين رجلاً يمكن أن يغفر اهانة كهذه الاهانة ، وأنه سيقول شاتوف حتما ، ولكن بطريقة خفية سرية ، كما يحدث فى أعمال الثأر المعروفة فى جزيرة كورسيكا • وكانت هذه الفكرة تخلب الألباب • ولكن أكثر شبائنا الأتقيين كانوا يصفون الى هذه الأقاويل بازدراء خالٍ من الاهتمام والاكتراث ، وذلك أمر كانوا يصطنعونه اصطناعا بطبيعة الحال • وعلى وجه العموم ، فان العداوة القديمة التى حملها مجتمعنا فى الماضى لنيقولاى فيسولودوفتش قد ظهرت الآن من جديد عيفة كل العنف ، قوية كل القوة ؛ فحتى الأفراد الجادون قد أخذوا يهتمونه ، دون أن يعرفوا لماذا على وجه الدقة • كان الناس يتهايمسون بأنه لطخ شرف ليزافتا نيقولايفنا بالعار ، وأن هناك مغامرة قد وقعت بينهما فى سويسرا • صحيح أن الحكماء من الأفراد كانوا يتحفظون ، ولكنهم كانوا يصفون الى هؤلاء الثرثارين متلذذين • وقد راجت شائعات أخرى أيضا • غير أن الشائعات الاخرى كان الناس لا يرددونها الا فى خلوة وعلى حذر • ولست أذكر هذه الشائعات الا لأنبه القارىء ، حتى أهيشه

للإطلاع على الاحداث التى أعقبت ذلك كله . كان بعضهم يؤكدون وهم
يصطنعون هيئة الجد والوقار (الله وحده يعلم من أين استمدوا هذه
الأنباء !) أن نيقولاى فسيفولودوفتش مكلف بمهمة خاصة ، وأنه بواسطة
الكونت ك . . . قد أصبح على صلة بشخصيات هامة جدا فى بطرسبرج ،
بل وأنه يشغل منصبا عاليا . فكان الأفراد الجادون المتحفظون يتسممون حين
يسمعون هذه الاحاديث ، مشيرين بحق الى أن رجلاً يثير فضائح ويتلقى
صفعة منذ بداية اقامته عندنا ، لا يشبه موظفا كبيرا فى شيء ، فكان
الآخرون يجيبونهم قائلين ان ستافروجين لا يشغل مركزا رسميا ، بل
منصبا سريا بمعنى من المعانى ، وان مهمته تقتضى منه والحالة هذه أن
لا يشبه موظفا من الموظفين الا أقل شبه ممكن . وقد أحدثت هذه الملاحظة
أثرا ما : كان الناس لا يجهلون أن زمزتوف* مقاطعتا كان قد لفت انتباه
العاصمة مرارا وتكرارا . على أن هذه الشائعات لم تستمر . بل تبددت منذ
عاد نيقولاى فسيفولودوفتش الى الظهور بيننا . لكننى أحرص على أن أذكر
أن هذه الأقاويل كلها إنما يرجع أصلها الى بضع جملٍ كارهة مبغضة ،
لكنها غير صريحة جدا ، قذفها ذات يوم فى النسادى آرتمىى بافلوفتش
جاجانوف ، الكابتن المتقاعد من ضباط الحرس . ان جاجانوف هذا ،
قد وصل من بطرسبرج منذ مدة قصيرة ، وهو من كبار ملاكى الاطيان
بمقاطعتنا ، كما أنه رجل من رجال المجتمع الراقى ؛ انه ابن المرحوم بافل
بافلوفتش جاجانوف الذى كان نيقولاى فسيفولودوفتش قد عامله منذ أربع
سنين تلك المعاملة الفظة الغليظة ، كما رويت ذلك فى بداية قصتى .

عرفت المدينة كلها أن جوليا ميخائيلوفنا قد ذهبت الى منزل فرفارا
بتروفا ، فأرسلت اليها فرفارا من يبلغها أنها لا تستطيع استقبالها لتوعد
صحتها . وقد علم أيضا أن جوليا ميخائيلوفنا قد بعث بعد ذلك بسومين

رسولا يسأل عن أبناء السيدة ستافروجين ، وأنها كانت من جهة أخرى تأخذ على عاتقها عبء « الدفاع » عنها . ويجب أن نفهم كلمة « الدفاع » هذه بأرفع معانيها طبعاً ، أى بأعمض معانيها . لقد استقبلت بمبوس وفتور التلميحات الأولى التى أسرع الناس يسوقونها لها عن أحداث يوم الاحد . لذلك أصبح لا يجرؤ أحد أن يدير الحديث حول هذا الموضوع بعد ذلك بحضورها . وانهت الناس الى أن يسلّموا بأن جوليا ميخائيلوفنا ليست على علم بالقصة كلها فحسب ، بل وأنها تصرف معناها الحفى وسرها المكتوم وتعرف أصغر تفاصيلها ، بل هى مشاركة فيها بعض المشاركة . يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد أخذت تسمع بيننا منذ ذلك الحين بذلك النفوذ الذى تتوق اليه ، وكانت ترى نفسها منذ ذلك الحين « محاطة » كثيراً . ان قسماً كبيراً من المجتمع قد أصبح يعترف لها بذلك عملي وكياسة وحسن تصرف وسنرجع الى الكلام عن هذا فيما بعد . والى حمايتها ورعايتها انما يرجع أكبر الفضل فيما حققه بطرس ستيفانوفتش من نجاح سريع ، وهو نجاح أدهش ستيفان تروفيموفتش ادهاشاً قوياً .

جائز أننا ، أنا وستيفان تروفيموفتش ، قد ضحنا فى خيالنا ذلك النجاح . مهما يكن من أمر ، فان بطرس ستيفانوفتش قد تعرف على جميع الناس فى الايام الاربعة الاولى التى أعقبت وصوله . كان قد وصل الى مدينتنا يوم الاحد ، فلما جاء يوم الثلاثاء رأيته يمر راكباً العربى الفخمة التى يملكها آرتمى بافلوفتش جاجانوف ، وهو رجل متعجرف مزهو بنفسه حاد الطبع شرس مغرور ، رغم ما يصطنعه من آداب راقية ، فهو اذن امرؤ ليس التفاهم معه بالأمر السهل . وكذلك استقبل بطرس ستيفانوفتش عند الحاكم وامرأته استقبالا حسناً جداً ، حتى انه سرعان

ما أصبح من أصدقائهما الحميمين ، وسرعان ما أصبح الولد المدلل في منزلها ، ان صح التعبير . لقد أصبح يتغذى كل يوم تقريبا عند جوليا ميخائيلوفنا ، التي سبق أن عرفها في سويسرا على كل حال .

ومع ذلك فان الدور الذي يلعبه في ذلك المنزل كان يبدو دورا غريبا . فلقد كان هذا الشاب يوصف في الماضي بأنه ثوري . لا أدري أهذا صحيح أم لا ، ولكن كان يُقال على وجه التأكيد انه في الخارج قد اشترك في عدة مؤتمرات وساهم في اصدار بعض النشرات الهدامة ، « حتى يمكن البرهان على ذلك بالرجوع الى صحف ذلك الزمان » ، كما قال لي ذلك ، في غيظ وحنق ، أليوشا تلياتنيكوف الذي هو اليوم - واأسفاه ! - موظف صغير محال على التقاعد ، لكنه كان قبل ذلك أمير الحاكم السابق . ومع ذلك فهناك واقع قائم : هو أن هذا الثوري السابق لم يلق عند عودته الى البلاد أية عقبة . حتى لقد استقبل فيها استقبالا يشتمل على كثير من اللطف والمودة . ألا يمكن أن نستخلص من ذلك أن الشائعات التي راجت في حقه كانت باطلة ؟ لقد همس ليوتين في أذني يوما أن بطرس ستيفانوفتش قد أدلى باعترافات كاملة ، فيما يقال ، ونال عفواً بعد أن وثى بأسماء شتى ؟ واذ كفر بذلك عن ذنوبه وعد بأن يستمر على السير في الطريق القويم . وقد نقلت هذه الجملة المسموعة الى ستيفان تروفيموفتش ، فاذا هو يصبح شارد الذهن ، مع أنه كان في تلك الآونة عاجزا عن استجماع أفكاره . وقد علم فيما بعد أن بطرس ستيفانوفتش كان مزودا عند وصوله اليها برسائل توصية وتزكية ، مهيورة بأسماء محترمة ذات شأن كبير ؟ وأن إحدى هذه الرسائل كانت موجهة الى جوليا ميخائيلوفنا من عرّابتها ، وهي سيدة عجوز يُعد زوجها من أعلى شخصيات العاصمة مقاماً واسماهم منزلة . لقد كتبت هذه السيدة الى جوليا ميخائيلوفنا أن الكونت ك . . . ، وقد تعرف الى بطرس ستيفانوفتش

بواسطة ستافروجين ، قد استقبله بترحيب ، وأنه يعدّه « شاباً مليئاً
بالسجاياء الممتازة رغم أخطائه السابقة » . وكانت جوليا ميخائيلوفنا تحرص
حرصاً عظيماً على العلاقات النادرة التي عقدتها مع أصحاب الشأن الرفيع
بجهود كثيرة . لذلك سرّتها رسالة السيدة العجوز سروراً كبيراً . ومع
ذلك كان موقفها من بطرس ستيفانوفتش يبدو لنا على جانب كبير من
الغربة . ألم تكن تسمح له بأن يعامل زوجها معاملة خالية من الكلفة ،
وذلك أمر كان فون لمبكه يشكو منه مرّة الشكوى ؟... على اننى سأعود
الى هذه النقطة فيما بعد . ويجب أن أضيف أيضاً ، من باب الذكرى ، أن
كارمازينوف الشهير قد رحّب أكبر الترحيب ، هو أيضاً ، ببطرس
ستيفانوفتش ، ودعا أن يزوره . ان هذه الحفاوة من جانب رجل يتصف
بما يتصف به كارمازينوف من زهو وغرور قد جرح ستيفان تروفيموفتش
أكثر مما جرحه أى شىء آخر . ولكننى فسّرت هذا الأمر لنفسى بسهولة:
لقد تودد كارمازينوف الى هذا الرجل الذى يدين بالمذهب العدمى ، لما له
من صلات بالشيبة الثورية فى العاصمتين . لقد كان هذا الكاتب الشهير
يخاف من هذه الشيبة خوفاً مرضياً ، ويتخيل من جهله أنها قابضة بأيديها
على مستقبل روسيا . لذلك كان يتملقها فى كثير من الهوان والصغار ،
لا سيما وأنها كانت لا تحفل به ولا توليه أى اهتمام .

جاء بطرس ستيفانوفتش الى أبيه مرتين • ومما أسفت له أسفا كبيرا أنه جاء اليه أثناء غيابه عنه • فأما المرة الاولى فبعد لقائهما عند فرفارا بتروفنا بأربعة أيام ، ولم يكن لزيارته هذه من هدف الا تصفية الحسابات المتعلقة بأرض بطرس ستيفانوفتش • وقد انتهت هذه القضية بغير ضجة أو جلبة : تكفلت فرفارا بتروفنا بكل شيء • دفعت المال للشاب ، لكنها تملك الأرض طبعاً ، واكتفت بأن أبلغت ستيفان تروفيموفتش أن المسألة قد سُوِّيت تسوية نهائية • لقد حمل اليه خادمها الذى تنق به ، وهو الكسى ايجوروفتش ، حمل اليه ورقة عليه أن يمهرها بتوقيعه ، فوقعها ستيفان تروفيموفتش صامتا ، بوقار شديد • يجب أن أقول بصدد الوقار أو الرصانة أو الكرامة اننى أصبحت لا أتعرف صاحبى القديم ستيفان تروفيموفتش : ان وضعه الآن يختلف عن وضعه السابق اختلافا كبيرا • لقد أصبح شديد الصمت ؛ وهو منذ يوم الاحد لم يكتب الى فرفارا بتروفنا رسالة واحدة ، وذلك أمر لو حدث فى الماضى لعدده معجزة من المعجزات • غير أن الشيء الذى أدهشنى أكثر من كل ما عداه ، انما هو هدوءه • كان ستيفان تروفيموفتش قد اتخذ قرارا حاسما وثبت عليه ثباتا عنيدا • وهذا هو مصدر هدوئه • انه الآن يضرر فكرة ، ويتنظر الاحداث • على أنه قد شعر فى البداية بأنه مريض • ففى يوم الاثنين اعترته نوبة اسهال يشبه أن يكون اسهال الكوليرا • ويجب أن أقول أيضا انه ظل لا يستطيع الاستغناء عن الانباء التى كنت أنقلها اليه • ولكنه ما ان أترك الوقائع وأواجه جوهر المسألة وأجازف فأصور بعض الاقتراضات ، حتى يومى مهيا بى أن أسكت •

ومع ذلك فان اللقاء بين اللذين تمّا بينه وبين ابنه قد تركا فيه أثرا
أليما موجعا ، لكنهما لم يشّياه عن عزمه • فما يكاد بطرس ستيغانوفتش
يتركه حتى يستلقى على ديوانه ملفعا رأسه بمنشفة مبلولة بالخل ، محتفظا
مع ذلك بوضع هادىء وقور كريم •

وكان مع هذا يسمح لى أن أتكلم فى بعض الاحيان • حتى لقد كان
يبدو لى عندئذ أن القرار السرى الذى عقد عليه عزمه قد أخذ يضعف ،
وأن أفكارا أخرى أخذت تفتته وتقويه • وكان هذا التردد لا يدوم الا
لحظة ، ولكننى أحرص على الاشارة اليه • أظن أنه كان فى تلك اللحظات
يشتهى أن يخرج من عزلته وأن يتحدى وأن يخوض معركة أخيرة •

أقلت من لسانه فى مساء يوم الخميس ، بعد زيارة بطرس
ستيغانوفتش الثانية :

- يا عزيزى ، اننى أستطيع أن أبذلّهم جميعا ! ...

كان ممتددا على ديوانه ، ملفعا رأسه بمنشفة ، ولم يكن قد وجّه
الى كلمة واحدة طوال النهار • وتابع يقول :

- « ابنى ، ابنى العزيز » ، وهلم جراً ... أوافق على أن جميع هذه
التعابير سخيفة غيبة تليق بطباخة • أعترف بهذا أنا نفسى الآن • اننى لم
أعطه شرابا ولا طعاما • ولم يكن الا طفلا رضيعا حين شحنته من برلين
بالبريد الى ولاية ف ... وهكذا ! اننى أسلّم بذلك • لقد قال لى : « أنت
لم تُعن بها ولم تهتم بأمرى ، وشحنتنى بالبريد كما تُشحن صرة ؟ وزدت
على ذلك فنهبتنى هنا » • صرخت أقول له : « ولكننى أيها الشقى ، رغم
اننى شحنتك بالبريد ، لم ينقطع قلبى عن أن ينزف دما من الألم لك
والحسرة عليك ! » • فضحك ! ... لكننى أسلّم ، أسلّم ... نعم ...
بالبريد شحنته •

بهذا ختم كلامه كمن يهذى •

وعاد يتكلم بعد خمس دقائق فقال :

- « دعنا » (بالفرنسية) • اننى لا أفهم تورجنيف • ان بازاروف*
فى روايته شخصية وهمية لم توجد فى يوم من الايام • ألم يكونوا أول
من نبذوه معلنين أنه يشبه شيئاً ؟ ان بازاروف هذا خليط غير مفهوم من
نوزدريوف* ومن بايرون • « هذه هى الكلمة ! » (بالفرنسية) • انظر
اليهم كيف يتدحرجون على الارض مطلقين زعقات فرح ، ككلاب صغيرة
فى الشمس ! انهم سعداء • انهم يتصرفون • ما شأنهم وبايرون ؟ وبالحالها من
تفاهة لا مذاق لها فوق ذلك ! وباله من غرور عامى سريع الاحتياج ! وبالحالها
من حطة تزخر بها حاجة المرء هذه الى « احداث ضجة كبيرة حول اسمه •
(بالفرنسية) دون أن يلاحظ أن « اسمه » (بالفرنسية) • • • • • رباه ! يا لها
من رسوم كاريكاتورية ! لقد صرخت أقول له : « هل يُعقل أن تطمع ،
وأنت ما أنت ، فى أن تقدم نفسك للناس بديلاً للمسيح ؟ » • « فضحك •
انه يضحك كثيراً • « انه يسرف فى الضحك » (بالفرنسية) ان له ابتسامة
غريبة • لم تكن أمه تبسم تلك الابتسامة • « انه يضحك دائماً »
(بالفرنسية) •

وساد الصمت من جديد •

ثم عاد يتكلم فقال :

- انهم ماكرون • لقد تواطؤوا يوم الاحد •

فهمت أقول متلقفا الكرة بوثة :

- حتما ! لا شك فى ذلك ! لقد كانوا على اتفاق وتواطؤ • لقد

نسجوا مسرحيتهم نسجاً ثم أساءوا تمثيلها جدا •

- لا أقصد هذا • هل تعلم أنهم تعمدوا أن لا يجيدوا تمثيلها بغية أن يراها أولئك الذين يجب أن يروها ؟ هل تفهم ؟

- لا ، لا أفهم !

- « أفضل • دعنا • » (بالفرنسية) •

- فلماذا ناقشته يا ستيفان تروفيموفتش ؟

- « أردت أن أغير عقيدتي » (بالفرنسية) • اضحك مني !
« لسوف تسمع هذه العمة أشياء كثيرة جميلة ! » (بالفرنسية) • آه
يا صديقي • هل تصدّق اننى شعرت منذ قليل بأننى وطنى ؟ على كل حال ،
لقد كنت أحس دائما أننى روسى ! ••• ان الروسى الحقيقى هو أنت ،
هو أنا • « ان ههنا شيئاً فيه عماوة ، شيئاً مريباً » (بالفرنسية) •

- قطعاً •

- يا صديقى ، ان الحقيقة الصادقة تكون دائما غير قابلة لأن
تصدّق • هل تعلم ذلك ؟ فان شئت أن تجعل الحقيقة قابلة لان تصدق
فيجب عليك أن تضيف اليها شيئاً من كذب حتما • وذلك ما فعله الناس
دائماً • ربما كان فى ذلك كله شيء لا نفهمه • ما رأيك ؟ ألا يمكن أن
يكون فى زعقات الانتصار هذه شيء لا نفهمه ؟ أتمنى أن يكون الامر
كذلك • نعم أتمنى كثيراً •

لم أجبه • ولزم الصمت مدةً طويلة •

ثم دمدم يقول كأن به حمى :

- يقال ان المستول هو الفكر الفرنسى • كذبٌ ذلك • لقد كنا دائما
هكذا • لماذا تتجنّى على الفكر الفرنسى ؟ انه كسلنا الروسى وحده ، انه
عجزنا المهين المشين عن أن نخلق فكرة ، انها طفيليتنا الكريهة المنفرة !

« هؤلاء كسالى لا أكثر » (بالفرنسية) • لا شأن للفكر الفرنسى بهذا •
آه يجب أن يُبادَ الروس لتحقيق خير الانسانية لأنهم طفيليات
ضادة • ليس هذا ما كنا نضبو اليه نحن ، لا ليس هذا البتة ! اتنى لا أفهم
شيئا على الاطلاق • أصبحت لا أفهم • قلت له : هل تعلم أنك اذا جعلت
القول الفصل للمقصلة ، وبهذه الحماسة كلها أيضا ، فلا يكون ذلك الا
لأن قطع الرقاب أسهل شيء ، ولأنه لا شيء أصعب من أن يكون للمرء
أفكار « أتم كسالى ! رايتكم خرق بالية ، شعاركم عجز »
(بالفرنسية) • تلك العربات أو ماذا يقولون ؟ « جريان
العربات التى تنقل الخبز الضرورى للانسانية » أنفع من مادونا كنيسة
سكستين « سخافة من هذا النوع » (بالفرنسية) • صرخت أقول
له : ألا تفهم ، ألا تفهم ان الانسان لا يحتاج الى السعادة فحسب ، بل
يحتاج كذلك الى الشقاء ، ويحتاج الى الشقاء كاحتياجه الى السعادة سواء
بسواء ؟ « فضحك » (بالفرنسية) • وقال : « أنت راقد هنا على ديوان من
مخمل تلذذ بقول كلام منمَّق » (حتى لقد استعمل تماير أشد فظاظة)
لاحظ أيضا هذا التخاطب بصيغة المفرد بين أب وابنه • لقد كان يمكن
التسامح فى هذا لو كان ثمة وفاق ، ولكن كيف يمكن التسامح فيه والامر
أمر شجار ؟

لزمنا الصمت لحظة •

ثم قال لى وهو يتصب على حين بقة :

- هل تعلم يا عزيزى أن هذا الامر سينتهى حتما بطريقة أو
بأخرى ؟

- لا شك فى ذلك !

- « انك لا تفهم • دعنا » (بالفرنسية) • العادة أن لا ينتهى شيء فى

هذا العالم • ولكن فى هذه الحالة سيكون نمة نهاية ، هذا مؤكد ،
مؤكد قطعا •

ونهض ، ومشى فى الغرفة بضع خطوات مضطربا أشد الاضطراب ،
ثم عاد الى قرب الديوان فتهالك عليه مهدود القوى منهكا •

فى صباح يوم السبت ذهب بطرس ستيفانوفتش الى مكان فى المقاطعة
لا أدرى أين يقع • ثم لم يعد الا يوم الاثنين التالى • ان ليوتين هو الذى
أنبأنى بذلك • وروى لى أيضا أن ليادكين وأخته قد أقاما فى مكان ما على
الضفة الاخرى بضاحية مصانع الفخار • وأضاف يقول : أنا الذى توليت
نقلهما الى هناك • وترك هذا الموضوع بعد ذلك فأبلغنى أن ليزافتا نيقولايفنا
ستزوج مافريكى نيقولايفتش : ليس الامر رسيا بعد ، ولكن الخطوبة
حدثت وتمّ الامر • وقد قابلت الأنسة فى الغداة راكبة حصانها ، يصحبها
مافريكى نيقولايفتش • هذه أول مرة تخرج فيها بعد مرضها • التمت
عيناها حين رأتنى ، وابتسمت لى ، وأومأت الى برأسها محيية تحية ودية
لطيفة • نقلت هذا كله الى ستيفان تروفيموفتش ، فلم يكثرث بالأنباء
المتعلقة بليادكين وأخته أى اكتراث ولم ينتبه اليها أى انتباه •

والآن وقد وصفت الوضع المضطرب المشوش الذى تخبطنا فيه خلال
ذلك الاسبوع ، حين كنا لا نعرف بعد شيئا ، استأنف سرد قصتى عالمًا
بحقائقها ، فأعرض الاحداث كما تبدو لنا اليوم ، بعد أن اتضح كل شىء ،
وبعد أن عرفنا أخيرا بواطن الامور • سأبدأ باليوم الثامن الذى تلا ذلك
الأحد المحتوم ، أى بمساء يوم الاثنين ، لأن ذلك المساء هو فى الواقع بداية
« القصة الجديدة » •

هى الساعة السابعة من المساء • ان نيقولاى فيسولودوفتش معتزل
 فى حجرة مكتبه ، الحجرة الأثيرة عنده • هى حجرة عالية السقف ، تغطى
 أرضها سجادة ، ويزينها أثاث ثقيل قليلاً ، قديم الطراز • انه جالس على
 ديوان ، مرتد ثيابه كأنما ليخرج ، ولكن لا شئ فى وضعه يدل على أن
 فى نيته أن يغادر الغرفة • وعلى المائدة الموجودة أمامه ، مصباحٌ يتوجه
 طربوش يسقط النور الى تحت • أما أركان الغرفة الواسعة وجدرانها فهى
 غارقة فى الظل • كانت نظرة الشاب مركزة مهمومة • وكان وجهه الذى
 نحل قليلاً ينم عن تعب • وكانت خده متورمة بالفعل ، لكن الناس قد
 بالغوا حين زعموا أن شاتوف كسر له أحد أسنانه : ان السن لم ترد على
 أن تخلعت قليلاً ، ثم ثبتت وعادت اليها صلابتها • وكذلك الشفة العليا التى
 شقتها لكمة قبضة اليد ، فقد كانت تبدو ملتزمة التاماً كاملاً • أما التورم
 المقترح فقد استمر أسبوعاً كاملاً ، لأن المريض رفض أن يعود الطبيب
 الذى كان يمكن أن يفصد القرحة ، وآثر أن ينتظر انفتاحها من تلقاء
 ذاتها • وكان لا يكاد يقبل أن تزوره أمه مرةً فى اليوم الا بكثير من العناد ،
 على شرط أن لا تطول زيارتها أكثر من بضع دقائق ، عند هبوط المساء
 قبل اشغال الصباح • ورفض أيضاً أن يستقبل بطرس ستيفانوفتش الذى
 جاء مع ذلك الى فرفاراً بتروفنا مرتين أو ثلاث مرات قبل سفره الى الريف •
 وحين عاد بطرس ستيفانوفتش من سفرته قام بزيارات كثيرة ، وتعشى عند
 جوليا ميخائيلوفنا ، وذهب فى المساء الى فرفاراً بتروفنا التى كانت تنتظره
 نافذة الصبر : لقد رفع الحظر أخيراً ، وأصبح نيقولاى فيسولودوفتش
 يستقبل الزائرين •

تولت فرارا بتروفا بنفسها اصطحاب الزائر الى باب حجرة مكتب
ابنها . لقد كانت تحرص على لقائهما حرصا شديدا ، واستقطعت بطرس
ستيفانوفتش عهدا على نفسه أن يمرّ بها حين خروجه من عند نيقولاى
فسيفولودوفتش ليقصّ عليها ما جرى بينهما . نقرت الباب فى خجل
ووجل ، واذ لم تسمع جوابا سمحت لنفسها بأن تشق الباب شقّا خفيفا ،
وقالت تسأل ابنها بصوت خافت وهى تحاول أن تتبين تعبير وجهه وراء
المصباح :

– نيقولاى ، هل يمكننى أن أدخل عليك بطرس ستيفانوفتش ؟
فهتف بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلا فى مرح :
– طبعا ، طبعا ...
وفتح الباب ودخل .

ان النقرات الخفيفة على الباب لم تكن قد لفتت انتباه نيقولاى
فسيفولودوفتش . وهو لم يسمع الا السؤال الذى ألغته عليه أمه فرارا
بتروفا . ولكن بطرس ستيفانوفتش دخل قبل أن يتاح لصاحبنا نيقولاى
أن يجيب عن ذلك السؤال . وكان فى تلك اللحظة يمسك رسالةً أنهى
قراءتها منذ هنيهة ، فأغرقه فى تأملات عميقة . فلما سمع كلمات بطرس
ستيفانوفتش ارتعش ، وأسرع يخبئ الرسالة تحت مكبس أوراق ، ولكنه
لم يفلح فى اخفائها تماما ، فان طرفا من الرسالة ظل ظاهرا مرئيا مع
ظرفها .

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول مسرعا بسداجة مدهشة :
– لقد تعمدت أن أصرخ بصوت عالٍ هذا العلو كله لأهب لك فرصة
الاستعداد والتهؤ .
وهرع نحو المائدة ونظر فى طرف الرسالة بانتباه .

قال نيقولاى فسي فولودوفتشس بهدوء دون أن يتحرك من مكانه :
- وقد اتسع وقتك طبعاً لأن ترى أنني أخفيت رسالة تحت مكبس الأوراق .

فصاح الزائر يقول :
- رسالة ؟ ما شأنى أنا بالرسالة ؟
ثم أضاف يقول خافضاً صوته ملتفتاً نحو الباب الذى كانت فرافرا بتروفا قد أغلقته :

- ولكن ... ولكن الشيء الرئيسى ...
فقاطعه نيقولاى فسي فولودوفتشس يقول له مطمئناً فى برود :
- انها لا تنصت وراء الأبواب أبداً .
- هبها تنصت ... ليس لى أى اعتراض على هذا ...
كذلك أسرع يجيب بطرس ستيفانوفتشس فى مرح ، وهو يجلس على مقعد . ثم أضاف يقول :

على اننى هُرعت اليك فى هذه المرة لأكلمك على انفراد ... أخيراً أراك ! ولكن قل لى قبل كل شيء : كيف حالك الآن ؟ حسنة جداً فيما أرى . ولعلك تخرج غداً ، هه ؟
- ربما .

هتف بطرس ستيفانوفتشس يقول بلهجة مضحكة وهو يحرك يديه
- هدّئهم أخيراً وخلصنى ! ليتك تعرف كل ما اضطررت أن أقوله لهم ! على أنك تعرف ...
وانفجر ضاحكاً .

قال نيقولاى فسي فولودوفتشس :

- لا ، لا أعرف شيئاً كثيراً • لكننى علمت من أمى أنك سيعت
وتحركت كثيراً

فأجاب بطرس ستيفانوفتش محتجاً بقوة كأننا ليدفع عن نفسه اتهاماً
رهيباً :

- لا ، أنا لم أذكر أى شيء معين واضح • لقد تكلمت عن امرأة
شاتوف ، أعنى عن الشائعات التى راجت عن علاقاتكما بباريس ، وذلك
أمر يمكن أن يفسر الحادث الذى وقع يوم الاحد • • • أأنت غاضب ؟
- أنا واثق بأنك أرهقت نفسك •

- ذلك ما كنت أخشاه • ولكن ماذا تعنى هذه الجملة : « أرهقت
نفسك كثيراً » ؟ هذا لوم وتقريع • على كل حال فأنت تمضى الى الموضوع
رأساً • ان ما كنت أخشاه وأنا آت الى هنا ، هو أن ترفض المضى الى
الموضوع مباشرة •

أجاب نيقولاى فسيفولودوفتش بشيء من السخط :

- لا يخطر ببالى قط أن أمضى الى الموضوع رأساً •

ولكنه سرعان ما ابتسم ابتسامة خفيفة •

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يهز ذراعيه :

- لست أقصد هذا ، لست أقصد هذا البتة • لا يخطئ ظنك !

وكان يتكلم بسرعة ما تنفك تزداد ويبدو كأنه سعيد جداً بحسب
محدثته ؟ وتابع كلامه :

- لن أضايقك بقضيتنا « نحن » ، خاصة فى ظرفك الراهن • وأنا
أنا هُرعت اليك لأكلمك عن حادث يوم الاحد ، وبالقدر الضرورى فقط ،
ذلك أنه يستحيل ترك الأمور على هذه الحال • لقد جئت لأقدم اليك

ايضاحات صريحة • لست أنت المحتاج الى هذه الايضاحات بل أنا المحتاج اليها • أقول هذا ارضاء لك ، ولكنه هو الحقيقة على كل حال • لقد جئت لأكون بعد اليوم صادقا معك كل الصدق ، صريحا كل الصراحة •

– هل معنى هذا أنك لم تكن صريحا من قبل ؟

– تعرف ذلك أنت نفسك • كم مرة مكرت بك ! ... لكنني أراك تنبسم ، وهذا يسعدني كثيرا ، لأنه يتيح لي ذريعة للايضاح • لقد تعمدت أن أستعمل كلمة « المكر » لأغضبك : كيف أبحت لنفسى أن أظن أن فى امكانى أن أمكر معك ! ان هذا يهب لى على الفور امكان تقديم ايضاح • انظر كم أصبحت صادقا ! هل تريد أن تصنى الى ؟

رغم ما كان واضحا من أن الزائر يريد اثاره خنق ستافروجين بوقاحته وبسذاجاته المصنوعة المهيئة المحضرة ، فان وجهه نيق—ولاي فيسيفولودوفتش ظل هادئا هدوء الاحترار والازدراء بل والسخرية • ولكنه حين سمع الكلمات الاخيرة من أقوال بطرس ستيفانوفتش ظهر عليه شيء من حب الاطلاع بل وشيء من القلق •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك مزيدا من التحرك :

– اصغ اذن الى • حين وصلتُ الى هنا ، أقصد حين وصلت الى هذه المدينة ، منذ نحو عشرة أيام ، كنت قد عزمت أمرى طبعا على أن أمثل دور شخصية ما • ولعله كان من الأفضل أن لا أمثل أى دور ، وأن أكون أنا نفسى ، ألا ترى هذا الرأى ؟ لا شيء يساوى وجهك الخاص لأن أحدا لا يصدقه • اعترف لك بأننى كنت أنوى أن أمثل دور الأبهل ، لأن تمثيل دور الأبهل أسهل على المرء من اظهار وجهه الخاص • ولكن لما كان الهبل مبالغة سرعان ما تثير حب الاطلاع ، فقد قررت أخيرا أن أظهر بوجهى الخاص • فماذا أنا على وجه الاجمال ؟ أنا شخص عادى

لست بالفني ولا بالذكي ، ولا أملك موهبة من المواهب ، أى رجل
من القمر كما يقول عقلاء الناس هنا ، أليس هذا صحيحاً ؟
أجاب ستافروجين وهو يتسم ابتسامة خفيفة :
- ربما !

- آ ... هانت ذا توافقنى على رأيى ! انتى سعيد بذلك سعادة عظيمة .
كنت أعلم سلفاً أنك تفكر هذا التفكير وترى هذا الرأي ... لا تقلق ،
لا تقلق ، لست زعلان . ولئن قلت هذا الكلام فى حق نفسى ، فانتى لم
أفعل ذلك لأحملك على الإنكار والاحتجاج ولتقول لى : « بل أنت رجل
ذو موهبة ، وأنت رجل ذكى » . آ ... هانت ذا تبسم من جديد ! ...
هأنا ذا أضبط مرةً أخرى ! ... انك لم يخطر ببالك أن تقول لى « بل
أنت ذكى » . انتى أقبل هذا ، أقبله . « دعنا » (بالفرنسية) ، على حد
تعبير أبى . وانى لأضيف الى هذا مستطرداً بين قوسين : « لا يسوءك
هذى . وفى هذه المناسبة ، اليك مثلاً ممتازاً : انتى أكثر من الكلام
دائماً ، ورغم اكترارى هذا لا أصل الى قول ما أريد قوله . ولماذا استعمل
كلمات كثيرة ثم لا أصل الى أهدافى ؟ لأننى لا أجيد الكلام . ان الذين
يجيدون الكلام يتكلمون بايجاز . ذلك يبرهن على انتى لست بذى موهبة ،
أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن لما كان فقدان الموهبة عندى هبةً طبيعية
فلماذا يكون على أن لا أستعملها ؟ ان الأفضل أن أستعملها .
وذلك بعينه هو ما أفعله . صحيح انتى اذ وصلت الى هنا كنت قد قررت فى
أول الامر أن أصمت . ولكن الصمت يحتاج الى موهبة كبيرة . فذلك
اذن لا يناسبنى . ثم ان الصمت خطر على كل حال . لهذا قررت أن
الأفضل أن أتكلم ، ولكن أن أتكلم بحماقة ، أى أن أتكلم كثيراً ، كثيراً ،
وأن أراكم جميع أدلتى وبراهينى وحججى بأقصى سرعة ممكنة فإذا أنا فى
آخر الامر أخلط الحابل بالنابل بغية أن يتركنى محدثى دون أن يصنى

الى النهاية ، رافما منكبيه من الحيرة ، أو حتى باصقا على الارض من الغضب . وهكذا تكون أولاً قد توصلت الى اقناعه بصدقك ، وتكون ثانياً قد أملتته منك ، وتكون ثالثاً قد أعجزته عن فهمك . جميع الزايات في آن واحد . فمن ذا الذى يستطيع بعد هذا أن يظن فيك اخفاء أهداف سرية وأغراض خبيثة ؟ لسوف يشعر كل انسان بأنه أٌهين شخصياً اذا قيل له ان لى نيات خفية ومرامي مستسرة . زد على ذلك اتنى أضحكهم من حين الى حين ، وذلك أمر له قيمة ثمينة . فاذا لاحظوا بذلك أن الرجل الخطر الذى كان يصدر فى الخارج لا أدرى أى نشرات ثورية ، هو أغبى منهم ، غفروا له كل شئ ، لهذا السبب وحده . أليس ذلك صحيحاً ؟ أقدر من ابتسامتك أنك توافقنى على رأىى .

ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش لم يكن يتسم البتة ، بل كان على تقيض ذلك متجههم الوجه لا يخلو من تملل ونفاد صبر .
- هيه ؟ ماذا ؟ أتقول « هذا لا يهم » !

كذلك استأنف بطرس ستيفانوفتش سائلاً بحرارة ، مع أن نيقولاى فسيفولودوفتش لم يكن قد فتح فمه بكلمة واحدة . وتابع بطرس ستيفانوفتش يقول :

- أؤكد لك ، نعم أؤكد لك أنتى لا أقول هذا كله بغية تعريضك للاساءة الى سمعتك بمصاحبتى . ولكن هل تعلم أنك اليوم شديد الاحتياج الى حد رهيب ؟ ما كان أغبانى حين هرعت اليك سعيد النفس مفتوح القلب ! ثم اذا أنت تشبه فى كل كلمة من كلماتى . أؤكد لك أنتى لن الأمس اليوم أى موضوع حساس خرج . لك على عهد الشرف أن لا أفعل ، واننى أذعن سلفاً لجميع شروطك .

ظل نيقولاى فسيفولودوفتش ملتزماً الصمت فى عناد .

— هيه ؟ ماذا ؟ هل قلت شيئا ؟ أرى اننى ارتكبت غلطة من جديد :
انك لم تفرض علىّ أى شرط • أصدّقك ! اطمئن بالآ أنا نفسى أعرف
أنه لا حاجة الى فرض شروط • أليس كذلك ؟ هانت ذا ترى اننى أجيب
عن كل أسئلتى نيابةً عنك • وأنا أتصرف هذا التصرف لأننى غير ذى
موهبة طبعاً • ان الموهبة تعوزنى تماما ••• أتضحك ؟ كيف ؟

قال نيقولاى فسيفولودوفتش أخيراً وهو يتسّم :
— لا قيمة لهذا ! لقد تذكرت اننى وصفتك فعلاً فى ذات يوم بأنك
غير ذى موهبة • لكن ذلك كان فى غيابك • أنقلوا اليك اذن هذا الكلام ؟
••• أرجوك أن تنتقل الى الموضوع بأقصى سرعة •
— ولكننى فى قلب الموضوع • اننى أنكلم عما حدث يوم الاحد •••
هكذا استأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه بمزيد من النشاط • وتابع
كلامه فقال :

— كيف كان تصرفى يوم الاحد فى رأيك ؟ لا شك أنه كان تصرف
شخص رجل غيبى عاجز ، وذلك ما أتاح لى أن أستولى على الحديث •
لكنهم غفروا لى كل شيء ، أولاً لأننى هابط من القمر ، فهذا شيء يجمع
الناس عليه هنا فيما أعتقد • وثانياً لأننى رويت قصة صغيرة جميلة ،
فأخرجتكم جميعاً من الارتباك والخرج • أليس هذا ما حدث ؟
— نعم ، لكنك رويتها على نحو يدع لبعض الشكوك أن تبقى ،
ويوهم بأن ثمة اتفاقاً وتواطؤاً بيننا ، مع أنه لم يكن بيننا أى اتفاق أو تواطؤ ،
وأننى لم أكلّفك بأن تتدخل أبدا •

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول مفتناً كل الافتان :
— تماماً ، تماماً • لقد تصرفت على نحو يكتّمكم من أن تروا جميع
الحيثوس • ومن أجلك أنت خاصة انما أخذت أمثلاً ، لأننى أردت أن

أضبطك وأن أربكك • وأردت على وجه الخصوص ن أدرك مدى ما كان
يعمل فى نفسك من خوف •

— وددت لو أعرف أسباب صراحتك الآن !

— لا تنضب ، لا تنضب ، لا تنظر الى بعينين ساطعتين (على أنهما
لا تسطعان) ! تود لو تعرف لماذا أصبحت صريحا هذه الصراحة كلها ؟
ألا فاعلم اذن اننى انما أصبحت كذلك لأن كل شىء قد تغير الآن ، فالماضى
قد انتهى ، الماضى قد دُفن • اننى غيَّرت رأيى فىك فجأة • قطعت الصلة
بمناهجى القديمة • لن أعرضك للارتباك بعد اليوم بطرائقى القديمة •
اننى أسير فى طريق جديدة •

— هل غيرت أسلوبك ؟

— ليس الامر أمر أسلوب • أنت الآن حر فى أن تتصرف التصرف
الذى يروق لك ، أن تقول « نعم » أو أن تقول « لا » • ذلك هو أسلوبى
الجديد • أما « قضيتنا » ، فأننى لن أتكلم عنها الا حين تأمرنى بذلك •
أتضحك ؟ على رسلك ! أنا أيضاً أضحك • لكننى أتكلم الآن جاداً ،
جاداً ، جاداً ، وان يكن الرجل الذى يتسرع يوصف دائما بأنه خال من
كل موهبة ! ولكن ليس يعينى أن أكون ذا موهبة أو أن لا أكون ذا
موهبة • اننى أتكلم جاداً ، جاداً كل الجد •

ولقد كان يتكلم جادا بالفعل ، كان يتكلم بلهجة مختلفة كل
الاختلاف ، وكان يبدو فريسة لانفعال غريب عجيب ، حتى ان يقولوا
فسيفولودوفش ألقي عليه نظرة فيها كثير من الاستطلاع والدهشة •
— تقول انك غيَّرت رأيك فى ؟

— نعم لقد تغيرت آرائى لحظة عقدت يديك وراء ظهرك بعد صفقة
شاتوف • ولكن كفى كفى ، أرجوك • لا تسألنى ، فلن أقول شيئاً •

ونهب وهو يحرك ذراعيه كأنما يدفع عنه أسئلة محدّته ، ولكن
لا يُلقي عليه محدّته أى سؤال ، ولما كان بطرس ستيبانوفتش لا يريد
الانصراف بعد ، فقد عاد يتهالك على مقعده هادئاً بمض الهدوء .

وسرعان ما عاد يتكلم فقال :

— بالنسبة : يزعم بعضهم أنك سوف تقتله . حتى لقد قامت مراهنات
حول هذا الموضوع . فخطر ببال السيدة لبكه أن تبلغ الشرطة للتدخل
فى الامر ، غير أن جوليا ميخائيلوفنا منعتها من ذلك ولكن كفى ،
كفى كلاماً عن هذا ! . . . ان ما قلته الآن ليس الا من باب المعلومات .
هناك فى هذه المناسبة شىء آخر : لقد رحلت ليادكين وأخته فى ذلك
اليوم نفسه . هل تعلم ذلك ؟ هل تلقيت رسالتى مع عنوانها الجديد ؟
— نعم .

— وذلك شىء لم أفعله الا من باب « حماقة » . غير اننى فعلته
لأسرك ، أقول هذا صادقاً كل الصدق . فلئن ارتكبت حماقة ، لقد كانت
نتى مخلصه صادقة .

قال نيقولاى فسيفولودوفتش شارد الذهن :

— لعل ذلك كان ضرورياً . . . ولكن لا تبعث الىّ بعد الآن رسائل ،
أرجوك .

— كان يستحيل أن لا أفعل ما فعلت . وهذه آخر مرة .

— هل ليوتين على علم بالأمر اذن ؟

— كان لا بد أن أطلعهم . ولكنك تعلم أنت نفسك حق العلم أن ليوتين
لا يجرؤ بالنسبة : يجب أن نذهب الى « جماعتنا » ، أقصد « اليهم » ،
لا الى « جماعتنا » ، فلو قلتُ الى « جماعتنا » لعدت تشاكسنى وتناكدنى .
ولكن اطمئن بالآ . لا اليوم . بل فيما بعد . فى يوم من الايام . السماء

تمطر الآن • سوف أتبعهم ، فيجتمعون فنمضي نراهم فى ذات مساء • انهم هناك ينتظروننا فاتحين منايرهم كأفراخ غربان فى أعشاشها ، ليروا ما عسى نجيشهم به أو نحمله اليهم من عجائب المفاجآت • ما أشد حماسهم ! انهم يهثون كتبهم ، ويستعدون للمناقشة • ان فرجنسكى من أشياع المذهب الانسانى • وان ليوتين من أنصار فورييه مع ميلل قوى الى الاساليب البوليسية • يجب أن أقول انه رجل ثمين من بعض النواحي ، ولكن يجب أن يراقب • ثم هناك الرجل الطويل الأذنين : ان هذا يعد نفسه لأن يشرح لنا مذهبه الخاص • وهم متضايقون من اننى أعاملهم معاملة طلبة بغير تحرج ، وأننى أصب على حماسهم ماءً بارداً • هـى هـى ! ولكن سيكون علينا أن نذهب اليهم قطعا •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش باهمال وقلة الكرات :

— لا شك أنك حدثتهم عنى حديثك عن زعيم !

فألقى عليه بطرس ستيفانوفتش نظرة سريعة ، ثم قال متظاهرا بأنه لم يسمع السؤال ، منتقلا الى موضوع آخر على الفور :

— بالنسبة ، لعلك تعلم اننى ذهبت ألقى فرقارا بترفنا مرتين أو ثلاث مرات ، واننى اضطررت أن أحكى لها أمورا كثيرة •
— أتخيل هذا •

— لا ، لا تخيل شيئا • كل ما قلته هو أنك لن تقتل شاتوف ، وقلت لها أشياء أخرى من هذا النوع • ولكن هل تتصور أنها منذ الغداة كانت تعلم أننى أسكنت ماريا تيموفيتشنا وراء النهر • أأنت الذى ذكرت لها هذا ؟

— لم يخطر ببالى أن أفعل •

— قد رت ذلك • ولكن من عساه قال لها هذا الامر ؟

- ليوتين طبعاً •

- لا ، ليس ليوتين •

كذلك دمدم يقول بطرس ستيفانوفتش وقد ظهرت فى وجهه علام
انشغال الفكر على حين فجأة • وتابع يقول :

- ولكننى سأعرف من الذى قال لها ذلك • لعله شاتوف ! ••• على
كل حال ، دعنا من هذه السخافات ••• ولكن الامر خطير الى أبعد حدود
الخطورة مع ذلك ! ••• بالمناسبة : كنت أنتظر طول الوقت أن تلقى عليك
أملك السؤال الرئيسى فجأة ••• نعم ! ••• لقد كانت تبدو فى جميع
هذه الأيام الأخيرة مهمومة البال مظلمة الوجه ، فماذا وجدت حين وصلت
اليها اليوم ؟ رأيته مشرقة المحيا منبسطة الأسارير • ما معنى هذا ؟

- مرد ذلك الى اننى وعدتها اليوم بأن أخطب ليزافنا نيقولايفنا فى
بعد خمسة أيام •

هذا ما أفلت من لسان نيقولاى فسيفولودوفتش بصراحة لم تكن
متوقعة •

تمتم بطرس ستيفانوفتش يقول متلعثما كالمرتبك :

- آ ••• نعم ••• فى هذه الحالة ••• حتما ••• هل تعلم أن الناس
يتحدثون اليوم عن خطوبتها ؟ ولكنك على حق • لسوف تترك الآخر عند
أول نداء منك ، حتى ولو كانت فى تلك اللحظة بالكنيسة أمام الكاهن الذى
يعقد قرانها على الآخر • ألسنت مستاء منى لأنتى أقول هذا الكلام ؟

- لا •

- ألاحظ ان اغضابك اليوم أمر صعب جدا ؛ لقد بدأت أخاف منك •
لشد ما يشوقنى أن أعرف ما هو الوضع الذى ستخذه غدا حين تظهر •

لا بد أنك هأت منذ الآن حيلآ كثيرة • هل تزعل من كلامى بهذه
الطريقة ؟

لم يجب نيقولاى فسيفولودوفتش ، فكان من شأن ذلك أن رفع حنق
بطرس ستيفانوفتش الى ذروته • قال :

ـ بالمناسبة : هل جدٌ ما قلته لأملك فى موضوع ليزافتا نيقولايفنا ؟

فحدقَ اليه نيقولاى فسيفولودوفتش بنظرة باردة •

ـ آآآ • فهمت • أنت لم تقل لها ذلك الا لتهدئها •

ـ فماذا لو كان ما قلته جدآ لا هزلاً ؟

كذلك سأله نيقولاى فسيفولودوفتش بلهجة قاطعة •

قال بطرس :

ـ طيب • سأقول لك : كان الله فى عونك ، على حد التعبير الشائع •

ان هذا لن يلحق ضررا بالقضية (هأت ذا ترى أئننى لا أقول «بقضيتنا» ،

فأنت لا تحب هذا الضمير «نا») • أما أنا • • • فائنى • • • فائنى • • • فى

خدمتك • • • تحت أمرك • • • كما تعلم • • •

ـ أظن ؟

ـ لا أظن شيئاً ، لا أظن شيئاً على الإطلاق • • •

كذلك أسرع يقول بطرس ستيفانوفتش ضاحكا • وتابع كلامه

يقول :

ـ لأننى أعلم أنك تتبأ بجميع تفاصيل شئونك الشخصية ، وأن كل

شئ عندك معينٌ محدد • لكننى أريد أن أقول لك اننى تحت أمرك ،

صادقا مخلصا ، فى كل وقت وفى كل مكان ، وفى جميع الظروف

والمناسبات ، نعم ، جميع الظروف والمناسبات ، هل تفهم ؟

تثاءب نيقولاى فسيفلودوفتش *

قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض بغتة :

- ضجرت منى *

وتناول قبعة المدورة ، الجديدة كل الجدة ، كأنما لينصرف • لكنه لم ينصرف وظل يتكلم بغير توقف • وكان من حين الى حين يمشى فى الغرفة بضع خطوات ، لاطماً ركبته بقبعته •

وهنف يقول مرحاً :

- كنت أنوى أيضا أن أروى لك بعض النوادر المضحكة عن أسرة لمبكه •

- لا ، أرجىء هذا الى مرة أخرى • ولكن بالمناسبة : كيف صحة جوليا ميخائيلوفنا ؟

- ما أغرب العادات الاجتماعية الراقية ؟ فيم تهتمك صحة جوليا ميخائيلوفنا ؟ وهأنت ذا مع ذلك تسأل عنها • يعجبني هذا • ان صحتها حسنة ؟ وهى تحمل لك احتراماً يمضى الى حد الايمان بالخرافات • انها تنتظر منك أمورا عظيمة جلية ! أما عمّا حدث يوم الاحد ، فهى لا تقول كلمة واحدة ، لاقتاعها بأنه يكفيك أن تظهر للناس حتى تنتصر على جميع أعدائك • يمينا انها لتخيل قدرتك غير ذات حدود • ثم ان شخصيتك أصبحت الآن أكثر ايغالا فى السر وأقرب الى عالم الخيال والروايات مما كانت فى الماضى أيضا • ظرف ملائم جدا • جميع الناس ينتظرون ظهورك وقد نفد صبرهم الى حد الجنون • كانت أذهانهم ملتهبة متأججة حين تركتهم • وهى الآن أكثر التهابا وتأججا • بالمناسبة : شكرا على الرسالة، مرة أخرى • انهم جميعا يرهبون الكونت ك ••• رهبة عظيمة • هل تعلم

أنهم ينظرون اليك ، فيما أظن ، نظرتهم الى جاسوس ؟ وأنا أشجعهم على هذا الظن . هل يسوءك هذا منى ؟
- لا .

- هذا هام جدا للمستقبل . ان لهم هنا أفكارهم . وأنا أشجعهم عليها طبعاً . في طليعتهم جوليا ميخائيلوفنا . ثم جاجانوف . . . أنتضحك ؟ ان لى خطتى وأسلوبى ، ان الى « تكتيكى » : أتكلم ، وأتكلم ، ثم أفندف بفكرة ذكية فجأة ، فى اللحظة التى يتوقعونها جميعاً . فيحتشدون حولى ، وأستأنف ثرثرتى وهذرى . لذلك لا يكرهنى أحد الآن . هم يقولون : « هذا شاب موهوب ، لكنه هابط من القمر » . لمبكه يقترح على أن أتوظف ، ليصلح حالى . ليتك تعلم كيف أعامله ! اننى أعرضه للمشاكل فيُسده شديداً حتى ليصمق صمقا . أما جوليا ميخائيلوفنا فانها تشجنى . بالمناسبة : جاجانوف حاقد عليك جداً . أمس ، فى دوخوفو ، قال لى عنك كلاماً سيئاً جداً . فشرحت له الحقيقة كلها فوراً ، أقصد : جزءاً من الحقيقة طبعاً . قضيت عنده يوماً كاملاً . أطيان رائعة ، منزل جميل !

- كيف ؟ أما يزال اذن فى دوخوفو ؟

كذلك سأل نيقولاى فسيفولودوفتش وهو ينتصب على ديوانه فجأة بحركة قوية .

أجاب بطرس ستيفانوفتش باهمال ، متظاهراً بأنه لم يلاحظ الانفعال المفاجئ الذى اعترى ستافروجين :

- لا ، عاد بى هذا الصباح . رجماً معاً . هه . أسقطت كتاباً .

وانحنى على الارض ليتناول الكتاب . وأردف :

- كتاب « النساء » ، تأليف بالزاك ، مع صور .

وفتح الكتاب قائلا :

- لم أقرأ هذا الكتاب • ان لمبكه يكتب روايات أيضا •
سأله نيقوى فسيفولودوفتشس كأن الامر يهمه :
- حقا ؟

- بالروسية ؛ وخفية طبعاً • ثم ان جوليا ميخائيلوفنا تعرف ذلك
وتسمح له به • يا للرجل العاجز ! غير أن له مظهرا قويا : انها عادة
السلطة • ما أشد حرص هؤلاء الناس على مهابة التقاليد • ما أقوى تقيدهم
بالقواعد ومراعاتهم للأشكال ! ذلك ما ينقصنا نحن •

- أتتغنى بمدح رجال الحكم ؟

- هذا هو الشيء الوحيد المتقن فى روسيا •

وأسرع يهتف :

- لكننى لن أضيف كلمة أخرى ، لن أضيف كلمة أخرى ، لن
أقول كلمة واحدة فى هذه الامور الحرجة الشائكة ! ... وأنا منصرف
على كل حال • ما هذا التجهم فى هيئتك ؟

- بى حمى •

- ظاهر هذا عليك • يجب أن ترقد • بالمناسبة : يوجد فى المقاطعة
أناس من « ملة الخصيان » * ان أمرهم لمجيب جداً • سوف أحدثك عنهم
فيما بعد • ولكن هناك حكاية أخرى صغيرة • غير بعيد من هنا ، يوجد
لواء مدفعية • ويوم الجمعة ، فى ب • • • ، سكرنا مع الضباط ، ان بينهم
ثلاثة من أصدقائنا ، هل تفهم ؟ تكلمنا فى الالحداد ، فأجهزنا على الله طبعاً •
بالمناسبة : يؤكد شاتوف أننا اذا أردنا أن نقوم ثورة فى روسيا ، فيجب أن
نبدأ حتماً بالالحداد • ربما كان هذا صحيحاً • كان هناك كاتبين أشيب
الشعر ، جندى قديم عجوز ، لم يكن يقول شيئاً • فيها هو ذا ينهض فجأة ،

ويقف في وسط الغرفة كعمود ، ويأخذ يقول كمن يخاطب نفسه : « اذا كان الله غير موجود ، فما معنى رتبة الكاتبين التي أحملها ؟ » • وها هو ذا بعد ذلك يأخذ قبعته ، ويرفع منكبيه متحيرا ، ويخرج •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش وهو يتأهب للمرة الثالثة :

— لقد عبّر بذلك عن فكرة صحيحة •

— حقا ؟ انتى لم أفهم وقد أردت أن أسألك • ماذا أحكى لك أيضا ؟

آ ••• نعم ••• ان مصنع آل شيبجولين هام جدا • ان فيه كما تعلم خمسمائة عامل • هو بؤرة كوليرا • انه لم ينظف منذ خمسة عشر عاما ؛ وان أصحابه ، وهم من ذوى الملايين ، يسرقون من أجور العمال • أوكد لك أن بعض هؤلاء العمال عندهم فكرة عن « الأمية » * • لماذا تبسم ؟ سوف ترى • أمهلنى بعض الوقت فقط ، بعض الوقت • سبق أن طلبت منك مهلة • وانى لأطلب منك مهلة ثانية ، وعندئذ ••• معذرة على كل حال • هأنذا أصمت • هأنذا أصمت ، لا تقطّب حاجيك • وهأنذا أنصرف أيضا • ولكن •••

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو يعود أدراجه ، وتابع كلامه :

— نسيت الشيء الأساسى : لقد أبلغت منذ قليل أن صندوقنا وصل

من بطرسبرج •

سأله نيقولاى فسيفولودوفتش مدهوشا :

— صندوقنا ؟

— أقصد صندوقك مع أمتعتك وثيابك وسراويلك وملابسك الداخلية •

— هل وصل ؟

— نعم ، قيل لى ذلك منذ قليل •

— ألا يمكننا والحالة هذه •••

– اسأل ألكسى •

– اذن فى الغد ، أليس كذلك ؟ ان بين أمتعتك سترة ورداء وثلاثة بنطلونات صنعها لى شارموف وفقا لطلبك • هل تذكر ذلك ؟

قال نيقولاى فسيفولودوفتش مبتسما :

– سمعت أنك تتألق هنا وتتبع الموضة • هل صحيح أنك تريد أن تأخذ دروسا فى ركوب الخيل ؟

فتقلصت شفتا بطرس ستيفانوفتش ابتسامة • ودمدم يقول بصوت متقطع مختلج :

– اسمع يا نيقولاى فسيفولودوفتش ، لا نصطنعُ هنا أوضاع شخصيات • لتتفق على هذا مرة واحدة الى الأبد ، هه ؟ فى وسعك أن تحقرنى ما شئت أن تحقرنى ما ظل ذلك يسرك ويسلّيك ، ولكن من الأفضل أن ندع هنا أدوار الشخصيات ، ولو الى حين على الأقل ، أليس كذلك ؟

أجابه نيقولاى فسيفولودوفتش بقوله :

– طيب • لن أفعل هذا بعد الآن •

فابتسم بطرس ستيفانوفتش ابتسامة صغيرة • ولطم ركبته بقبضته ، ومشى بضع خطوات ، واسترد هيئته المعهودة •

– يذهب بعضهم حتى الى اعتبارى منافسا لك على ليزافا نيقولايفنا • فكيف تريد منى أن لا أعنى بحسن هندامى ؟

كذلك قال بطرس ضاحكا ثم أضاف يسأل :

– ولكن من ذا الذى يأتيك بهذه الاخبار ؟ هم ••• ان الساعة قد بلغت الثامنة تماما • هيا ! أنا ذاهب • لقد وعدت فرفارا بتروفنا بأن ألقاها • ولكننى أعدل الآن عن ذلك • وأنت ، يجب عليك أن ترقد • ستحسن

صحتك غدا • الجو مظلم فى الخارج ، والسماء تمطر • ولكن عندى
عربة • الطرقات فى الليل غير مأمونة • آ • • • • • بالمناسبة : يحوم ههنا حول
المدينة رجل يقال له فدكا ، هو سجين محكوم عليه بالاشغال الشاقة ، هرب
من سبيريا • انه أحد أقنانى القدماء • تصوّر أن أبى احتاج يوما الى مال
فباعه جنديا منذ خمس عشرة سنة • شخص نادر حقا •

سأل نيقولاى فيسيفولودوفتش زائره وهو يرفع نحو عينيه :

— هل • • • • • هل كلمته ؟

— نعم • انه لا يختبئ • غنى • وهو مستعد لكل شئ • ، لكل شئ • ، فى
سيل المال طبعاً • غير أن له اقتناعاته كذلك ، على طريقته الخاصة بطبيعة
الحال ! • • • • • آ • • • • • نعم • • • • • بالمناسبة : اذا كان ما قلته منذ قليل ، عن
مشاريعك المتعلقة بليزافنا نيقولايفنا جداً لا هزلاً ، فاننى أذكرك مرة
أخرى بأننى أيضاً مستعد لكل شئ • فى سيبك ، فى جميع الظروف
والمناسبات ، على النحو الذى تتصوره وتريده • أنا فى خدمتك • • • • • ماذا
بك ؟ أتبحث عن عصاك ؟ آ • • • • • لا • • • • • تصوّر اننى ظننت أنك تبحث
عن عصاك •

لم يكن نيقولاى فيسيفولودوفتش يبحث عن شئ ولا كان يقسول
كلمة واحدة ، لكنه قد انتصب فجأة ، وظهر فى وجهه تعبير غريب •
قال بطرس ستيفانوفتش وهو يشير بغير تحرج الى الرسالة والظرف
اللذين كانا تحت مكبس الورق :

— واذا احتجت أيضاً الى مساعدتى فى مسألة جاجانوف ، فأنا أنبئك
بأننى أستطيع أن أرتب الأمور ؛ وفى تقديرى أنك ستستعين بى •

قال هذه الكلمات وخرج دون أن ينتظر جواب ستافروجين ، ولكنه لم يلبث أطل برأسه من الباب المشقوق وصرخ يقول متمجلاً :

- أقول لك هذا لأن شاتوف لم يكن من حقه كذلك أن يجازف بحياته يوم الاحد حين اقترب منك ، أليس كذلك ؟ أحب أن تحفظ هذا جيداً ♦

وغاب ♦

لعل فرخوفنسكى كان يتخيل حين خرج أن يقول لى فيسيفولودوفتش متى خلا الى نفسه ، سيدمر كل شيء من حوله • ولعله تمنى أن يشهد نوبة الحق المسمور هذه • لكن ظنه قد خاب : فان يقول لى فيسيفولودوفتش ظل هادئاً • وقد لبث واقفا قرب المائدة دقيقة أو دقيقتين ، على وضعه نفسه لم يغيره ، شارد اللب ذاهل الهيئة • ثم تقلصت شفتاه بإسامة جهمة باردة • وجلس على الديوان بهدوء ، فى ذلك المكان نفسه من ركن الغرفة وأغمض عينيه كأنه يشعر بتعب • وكانت الرسالة ما تزال تظهر من تحت مكبس الورق ، لكنه لم يقم بأية حركة لاختفائها • ولم يلبث أن غفا •

لم تستطع فرفاراً بتروفا التى كان يرهقها القلق منذ عدة أيام ، لم تستطع أن تقاوم الرغبة فى رؤية ابنها ، فلما علمت أن بطرس ستيفانوفتش قد انصرف رغم الوعد الذى قطعه لها بأن يجيء ، قررت أن تأتى لرؤية ابنها ، رغم أن الوقت غير مناسب ، فلعله يكلمها أخيراً بوضوح وحسم • فقرت على بابه وجلى ، كما فعلت من قبل ، فلما تفرز بجواب ، دخلت ، فرأت ابنها جامداً جموداً غريباً ، فاقتربت منه واجفة القلب بخطى خفيفة • ان الشيء الذى أدهشها هو أنه نام بمثل هذه السرعة بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش ، وأنه استطاع أن ينام على وضع غير مريح ، منتصب الجذع ، ساكناً سكناً تاماً ؛ ان انفاسه لا تكاد تُسمع ، وان وجهه شاحب قاس كأنه متجمد ، وان حاجبيه مقطبان تقطياً خفيفاً • لقد كان فى تلك اللحظة يشبه وجهاً من السمع لا حياة فيه حقاً •

لبث الأم مائلة على ابنها هكذا بضع لحظات ، حابسة أنفاسها ، ثم

اذا هي تشعر فجأة بخوف • فابتعدت سائرة على رموس الأصابع ، لكنها توقفت عند العتبة ، والتفتت صوبه ، ورسمت على النائم اشارة الصليب بسرعة ، وتركت الغرفة مثقلة القلب بغم جديد •

ظل نيقولاى فسيبولودوفتش غارقاً فى هذا الغفو أكر من ساعة • ما من عضلة فى وجهه ارتجفت ، مامن خلجة فى جسمه ظهرت • وحافظ وجهه على عبوسه وقسوته • فلو بقيت فراراً بتروفا بضع دقائق أخرى لما استطاعت حتماً أن تحتل هذا الشعور الساحق بأن ابنها جامد جموداً الاغماء ، ولأيقظته حتماً •

وها هو ذا يفتح عينيه من تلقاء نفسه ، ولكنه يظل جامداً نحو عشر دقائق أخرى ، محدقاً ببصره ، فى عناد واصرار ، الى ركن من الغرفة كأنه يتبين فيه شيئاً غريباً ما ، مع أنه ليس فى ذلك المكان أى شيء يلفت النظر •

وأخيراً انطلقت ساعة الحائط الضخمة تدق بصوتها الرقيق العميق • فلفت نيقولاى فسيبولودوفتش رأسه اليها بشيء من القلق ، ولكن الباب الذى يفضى الى الدهليز انفتح فى تلك اللحظة نفسها ودخل منه رئيس الخدم ألكسى ايجورتش • كان يحمل على ذراعه اليسرى معطفاً وشالاً وقبعة ، ويسك باليد اليمنى صينية من الفضة عليها رسالة •

قال ألكسى ايجورتش بصوت خافت وهو يضع الملابس على كرسى:

– الساعة هى التاسعة والنصف •

وقدّم لمولاه رسالة غير مغلفة ، لا تضم الا سطرين مكتوبين بالقلم الرصاص •

فلما قرأ نيقولاى فسيبولودوفتش الرسالة ، تناول من على المائدة قلم

رصاص ، وخطَّ بضع كلمات فى أسفل الرسالة ووضع الرسالة على الصينية ، وقال لحامه وهو ينهض عن ديوانه :

- سلّمها بعد خروجى فوراً • والآن ساعدنى فى ارتداء ملابسى •
واذ لاحظ أنه يرتدى سترة خفيفة من مخمل ، فكّر لحظة ، ثم أمر
أن يؤتى بردنجوت من جوخ كان يرتديه ليخرج الى المدينة فى المساء •
حتى اذا انتهى من العناية بزينة وهندامه ، وضع على رأسه قبعته ، وأغلق
بالمفتاح الباب الذى كانت قد دخلت منه أمه ، واستلّ الرسالة التى كان قد
خبأها تحت مكبس الورق ، وخرج الى الدهليز صامتاً ، يتبعه الكسى
ايجورتش • وعن طريق سلّم حجرى ضيق ، وصلا الى مخرج يفضى
رأساً الى الحديقة وقد أُعدّ فيه مصباح ومظلة كبيرة •

قال الكسى ايجورتش محاولاً بذلك ، مرةً أخيرة ، أن يشنى عزم
مولاه عن القيام بالرحلة التى كان يزعم القيام بها :

- لقد هطلت الأمطار غزيرة حتى ليكاد يستحيل المرور فى الشوارع •
ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش نشر مظله دون أن يجيب ، ومشى
فى الحديقة العتيقة المظلمة كأنها كهف • وكانت الريح تصفر ، وتهز
رموس الأشجار التى كادت تمرى من أوراقها منذ ذلك الحين • والممرات
الضيقة المفروشة بالرمل متزلقة لزجة •

وتبع الكسى ايجورتش مولاه ينير له الطريق ، سائراً وراءه بثلاث
خطوات ، لابساً رداء الفراك ، عارى الرأس ، كما دخل عليه منذ برهة •
قال نيقولاى فسيفولودوفتش يسأل :

- لا يمكن أن نرى ؟

- يستحيل أن يرى من النوافذ شئ • ثم ان جميع الاحتياطات
قد اتخذت •

كذلك أجاب الخادم بصوت هادىء ولهجة موزونة •

قال نيقولاى :

— هل نامت أُمى ؟

فأجاب الخادم :

— اعتصمت بغرفتها فى الساعة التاسعة تماماً ، على عادتها منذ بضعة

أيام •

ثم أضاف يسأل مولاه متجرباً :

— فى أى ساعة يجب أن انتظر عودتك ؟

— الواحدة ، الواحدة والنصف ، الثانية فى أكثر تقدير ...

— أُمرك مطاع •

فبعد أن قطعاً الحديقة كلها تقريباً بطرق متعرجة يعرفانها كلاهما معرفة جيدة ، وصلا الى السور الحجرى ، ووجدا الباب الذى يفضى الى شارع صغير مظلم ضيق ، وهو باب يظل مقفلاً بالفتاح فى جميع الأحيان ، ولكن هذا المفتاح موجود الآن فى يدى ألكسى ايجورتش •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش :

— آمل أن لا يُسمع للباب صرير •

فأجابه ألكسى ايجورتش بأنه قد زِيَّته أمس ، وه زِيَّته اليوم أيضاً ، فهو مبتل بالزيت ابتلاً تاماً ، فلا يمكن أن يكون له صرير • حتى اذا فتح ألكسى الباب ، مدَّه الى نيقولاى فسيفولودوفتش الذى أخذه منه •

— اذا كان مولاي يتنوى الذهاب الى مكان بعيد ، فانى أسمع لنفسى بأن ألفت نظر مولاي الى الناس هنا لا يؤمن شرهم كثيراً ، ولا سيما أولئك

الذين يحومون فى الشوارع الصغيرة النائية ، وعلى الشاطئ الآخر من النهر خاصة •

كذلك قال الخادم وقد عجز عن الامتناع عن ابداء هذه الملاحظة • انه خادم عجوز كان قد حمل نيقولاى فسيفولودوفتش على ذراعيه ، وهو انسان كثير الجذ ، بل هو أميل الى الصرامة ، ولا ينفك يقرأ الكتب المقدسة •

أجابه نيقولاى فسيفولودوفتش قائلاً :

– لا تقلق يا ألكسى ايجورتش !

– باركك الله يا سيدى ، على شرط أن تفعل خيراً •

– كيف ؟

كذلك قال نيقولاى فسيفولودوفتش متوقفاً على حين فجأة بعد أن اجتاز العتبة •

فكرر ألكسى ايجورتش كلامه بصوت ثابت ، متمنياً له أن يباركه الله على شرط أن يفعل خيراً • لم يجرو ألكسى ايجورتش فى يوم من الأيام قبل الآن أن يتمنى لمولاه أن يباركه الله ، بعبارة كهذه العبارة •

أغلق نيقولاى فسيفولودوفتش الباب ، ودس المفتاح فى جيبه ، وسار متعراً بالوحل فى شارع صغير أفضى به الى شارع طويل خال مقفر لكنه مرصوف • كان ستافروجين يعرف المدينة معرفة جيدة ، غير أن شارع ايفانيا بعيد عن منزله كثيراً ، لذلك كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين وقف أخيراً أمام بوابة منزل فيلييوف ، المغلقة فى تلك الساعة من الوقت • ان الطابق الأرضى غير مسكون منذ رحيل ليادكين وأخته ، ولقد سُدَّتْ نوافذه بألواح من خشب • غير أن المسكن الذى يقع تحت السقف ، وهو المسكن الذى يقيم فيه شاتوف ، كان مضاءً • واذ لم يكن

ثمة جرس فقد قرع نيقولاى فسيفولودوفتش الباب بقبضة يده عدة
قرعات ، ففتحت طاقة صغيرة أطل منها شاتوف محاولاً أن يتعرف الزائر .
ولكن الظلمات كانت اكثف من أن يستطيع شاتوف رؤية شيء . فقال بعد
دقيقة يسأل :

– أهذا أنت ؟

فأجابه الزائر غير المنتظر :

– نعم ، أنا !

فأغلق شاتوف الطاقة ، ونزل ، وفتح الباب .

اجتاز نيقولاى فسيفولودوفتش العتبة ، ومرَّ صامتاً أمام شاتوف ،
واتجه رأساً نحو الجناح الصغير الذى كان يشغله كيريلوف .

كل الأبواب هنا مفتوحة على آخر مداها • حجرة المدخل والغرفتان الأوليان مظلمتان ، لكن الغرفة الأخيرة التي يسكنها كيريلوف ، والتي يحتسب فيها الشاي الآن ، كانت مضأة الآن ، وكانت تخرج منها ضحكات وصيحات عجيبة • مضى نيقولاى فسيفولودوفتش نحو النور ، ولكنه توقف على العتبة • كان الشاي مصبوحاً فى الفناجين • وفى وسط الغرفة كانت تقف امرأة عجوز هى قريبة فيليوف • انها حاسرة الرأس ، عارية القدمين فى حذاءيها ، لا ترتدى الا تنورة وصديرة من جلد الأرنب ، وعلى ذراعيها طفل فى نحو الشهر الثامن عشر من عمره ، يلبس قميصاً لكنه عارى الساقين • خداه حمراوان قرمزيان ، وشعره الأشقر منفوش مشعث فكانه رُفِعَ الآن من مهده • لا بد أنه بكى كثيراً ، فان دموعاً صغيرة ما تزال تتلألأ على أهدابه • ولكنه فى هذه اللحظة يحرك يديه الصغيرتين ويضحك ضحك الأطفال الصغار حتى ليكاد يخفق من شدة الضحك • ذلك أن كيريلوف كان واقفاً أمام الطفل يرمى على أرض الغرفة كرة كبيرة حمراء ، فتط الكرة الى السقف ، وتعود فتسقط على الأرض ، فيصيح الطفل « بَهْ • بَهْ • بَهْ ! » • فيلتقط كيريلوف الـ « بَهْ » ، ويناولها الطفل فيرميها الطفل بيديه الصغيرتين الحرقاوين ، فيركض كيريلوف وراءها ، ويلتقطها ، حتى اذا تسلت الكرة مرة تحت الحزانة ، أخذ الطفل يصيح « بَهْ • بَهْ • بَهْ • بَهْ » ، فانبطح كيريلوف على بطنه ومطاً جسمه محاولاً التقاط الكرة ؛ وعندئذ دخل نيقولاى فسيفولودوفتش الى الغرفة ، فاذا الطفل يطلق منتحباً حين رآه ، واذا هو يلطو على صدر المعجوز التى أسرع تنصرف به •

قال كيريلوف وهو ينهض عن الأرض والكرة بيده ، دون أن يبدو عليه أى دهشٍ لهذه الزيارة غير المتوقعة :
- ستافروجين ؟ هل تريد شايًا ؟
- لا أرفض ، ولا سيما إذا لم يكن باردًا • انتنى مبتل بالماء كل الابتلال •

قال كيريلوف بسعادة واضحة لا تخفى على الناظر :
- الشاي ساخن ، بل هو محرق • اجلس • لقد حملت الينا وحلاً •
ولكن لا خير • سأنظفه غدًا بخارقة مبلولة •
جلس نيقولاى فسيفولودوفتش • وشرب الشاي الذى صبّه له كيريلوف ، شربه جرعةً واحدة تقريباً •
سأله كيريلوف :
- هل لك بمزيد ؟
- شكرًا •

كان كيريلوف قد ظل حتى ذلك الحين واقفًا ، فجلس عندئذ أمام الزائر وسأله :
- ماذا جاء بك ؟
- جئت لشأن • اقرأ هذه الرسالة • لقد بعثها الى جاجانوف • هل تذكر ؟ لقد سبق أن حدثتك عن هذا فى بطرسبرج •
تناول كيريلوف الرسالة وقرأها ثم وضعها على المائدة ونظّر الى ستافروجين نظرة استفهام •

بدأ نيقولاى فسيفولودوفتش يتكلم فقال :
- تعلم أننى رأيت هذا الرجل أول مرة فى بطرسبرج منذ شهر تقريباً • ثم التقينا فى المجتمع مرتين أو ثلاث مرات • ولم تتعارف ، ولم

يوجه الى كلمة واحدة فى يوم من الأيام ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون وقحاً معى . ذكرت لك هذا فى حينه . لكنك لا تعرف التهمة . فحين بارح بطرسبرج قبلى بمدة قصيرة بعث الى رسالة ان كانت أقل فظاظه من هذه فانها شرسة جداً على كل حال ، وقد أدهشتى كثيراً ، لا سيما وأنتى حاولت أن أعثر فيها على الأسباب التى دفعته الى كتابتها الى فلم أظفر بباطل . وسرعان ما أجبت فأكّدت له صادقاً كل الصدق أنه اذا كان الأمر أمر ذلك الحادث الذى وقع بينى وبين أبيه فى النادى منذ أربع سنين ، كما افترض ذلك ، فأننى مستعد لأن أقدم اليه جميع اعتذارارتى ، خاصة وأن فعلى لم يكن مقصوداً وأنتى كنت فى ذلك العهد مريضاً ؛ وطلبت منه أن يدخل فى حسابه هذه الظروف . ولم يجبنى وسافروا ثم هأنا ذا أجده الآن هنا وقد جُنَّ جنونه حقداً على وكرهاً لى . وقد نُقل الى أنه قدنفى مراراً بشتائم مقذعة على مسمع من الناس ، واتهمنى بأمور لا يصدقها العقل . وأخيراً 'حملت الى اليوم هذه الرسالة . ما أظن أن أحداً تلقى فى حياته رسالة كهذه الرسالة . انها رسالة ملأى بالشتائم والاهانات ، كقوله مثلاً : « يا صاحب البوز الذى لا يصلح لغير الصفع واللكم » . وقد جئت اليك آملاً أن لا ترفض أن تكون شاهدى فى المبارزة التى سأطلبه اليها .

قال كيريلوف :

— تقول انه ما من أحد تلقى فى حياته رسالة كهذه الرسالة ؟ أنت مخطئ . ذلك يحدث فى نوبة من نوبات غضب شديد . ذلك يحدث كثيراً . ان بوشكين قد كتب الى هكرن * . طيب . سأذهب اليه . ماذا يجب أن أقول له ؟

طلب نيقولاى فسيفولودوفتش من كيريلوف أن يمضى غداً الى

جاجانوف ، فيبدأ كلامه معه بأن يكرر اعتذارات ستافروجين ، وأن يقول له ان ستافروجين مستعد حتى لأن يكتب اليه رسالة ثانية زاخرة بالاعتذارات ، ولكن على شرط أن يقطع جاجانوف على نفسه عهداً من جهته بأن لا يبعث اليه بعد الآن رسائل سب وشتم . أما الرسالة الأخيرة التي بعثها جاجانوف فتعتبر في هذه الحالة كأنها لم تكن ، وتمد ملغاة .

قال كيريلوف :

- هذه تنازلات كثيرة . لن يقبل .
- أريد أن أعرف أولاً أأنت مستعد لأن تنقل اليه هذه الشروط ؟
- سأنقلها اليه . هذا شأنك أنت . لكنه لن يقبل .
- أعرف .

- انه يريد أن ينتهي كل شيء غداً . هذا هو الأمر الأساسي . ستكون عنده في الساعة التاسعة . وسيصفي الى كلامك ، وسيرفض اقتراحاتك ، ولكنه سيجعلك على صلة بشاهده ، في الساعة الحادية عشرة مثلاً . فاتفق مع شاهده على أن نكون جميعاً في مكان المبارزة في نحو الساعة الواحدة أو الثانية . حاول ، أرجوك ، أن ترتب الأمور على النحو الذي أطلبه منك . سيكون السلاح هو المسدس (الفرد) طبعاً . وأما أحرص على الشروط التالية : تكون المسافة بين الحاجزين عشر أقدام ، وتوليان أتما وقف كل منا على مسافة عشر أقدام من حاجزه . فإذا انطلقت الاشارة المتفق عليها ، مضى كل منا نحو الآخر ؛ وكان عليه أن يسير الى الحاجز ، ولكن يحق له أن يطلق النار قبل أن يبلغه مشياً . ذلك كل شيء فيما أظن .

قال كيريلوف :

- عشر أقدام بين الحاجزين ؟ هذا قليل .

- فلتكن المسافة بين الحاجزين اثنتى عشر قدماً ، ولكن لا أكثر •
أنت تدرك أنه يريد ما مبارزة جدي لا هزل • هل تعرف كيف تحشو
المسدسات •

- نعم • عندي مسدسات • وسوف أحلف يمين الشرف على أنك
لم تستعملها في يوم من الأيام • وسيحلف شاهده هذه اليمين أيضاً بالنسبة
الى مسدساته • سيكون هناك أربعة مسدسات ، اثنان لكل واحد •
وسيعين مسدسا كل مقاتل بالقرعة •
- عظيم •

- هل تريد أن ترى مسدساتي ؟

- أتمنى •

جنا كيريلوف أمام حقيته التي لم يكن قد فضّها بعد ، وانما كان
يُخرج منها ما هو في حاجة اليه ، متاعاً بعد متاع • فما هي الا برهة حتى
أخرج منها علبة من خشب النخيل مزدانة في الداخل بنسيج من المخمل •
كانت العلبة تضم مسدسين (فردين) ممتازين لا بد أنهما غاليا الثمن •

- عندي كل ما يجب : بارود ، رصاصات ، خرطوشات • ثم ان
عندي كذلك مسدساً يحمل عدة رصاصات • انتظر ! وأخذ ينش في
حقيقته من جديد ، الى أن أخرج منها مسدساً أمريكياً ذا ستّ طلقات
في ظرفه •

- عندك أسلحة كثيرة ، أسلحة غالية الثمن •

- نعم ، غالية الثمن جداً ، باهظة الثمن كثيراً •

كان واضحاً أن كيريلوف الفقير ، المعدم ، الذي كان لا يلاحظ
فقره على كل حال ، يعتز اعتزازاً كبيراً بأسلحته الجميلة التي لا شك أنه
اشترها بتضحيات ثقيلة •

سأله ستافروجين بعد صمت قصير ، وشيء من تردد :

- ألا تزال على رأيك ؟

- نعم •

كذلك أجاب كيريلوف وقد أدرك فوراً ، من لهجة الزائر ، ماذا كان يقصد • وجعل يرتب أسلحته •

فسأله ستافروجين بعد صمت آخر بمزيد من التردد والحذر :

- ومتى ؟•••

كان كيريلوف قد أرجع العلبة والصندوق الى الحقيبة ، وعاد الى مكانه • فقال :

- ذلك لا يتعلق بى أنا كما تعلم • عندما يُطلب منى •

كذلك تمتم يقول كأن السؤال يخرجه قليلاً وكان واضحاً مع هذا أنه مستعد للإجابة عن جميع الأسئلة التى قد تتلو ذلك السؤال • وحدّق الى ستافروجين بعينه السوداوين اللتين ليس فيهما بريق ، وكانت نظرتيه هادئة ، ولكنها رقيقة لطيفة بشوش •

وساد صمت طويل ، ثم استأنف ستافروجين كلامه فقال حالمَ الهيئة :

- اننى أفهم هذا جيداً ••• الانتحار •••

كان وجهه قد تجهم واكفهر ، وتابع كلامه يقول :

- كثيراً ما فكرت فى هذا الأمر • ولكن كانت توافينى عندئذ فكرة جديدة : لو ارتكب المرء جريمة أو قل عملاً مشيناً أو دناءة حقيرة أو سفالة جبانة سخيفة ، أى شيئاً يظلل الناس يذكرونه خلال قرون ويظل يثر اشمئزازهم ألف عام ••• حتى اذا فرغ من ارتكاب ذلك العمل

« أطلق رصاصة على رأسه ، فزال كل شيء ولم يبق شيء » . ما قيمة أقوال البشر عندئذ وما قيمة بصقاتهم ؟ أليس هذا صحيحاً ؟
- وأنت تسمى هذا فكرة جديدة ؟

كذلك سأله كيريلوف بعد لحظة تأمل وتفكير .
- أنا ... أنا لا أقول انها فكرة جديدة ، ولكنى أحسستها جديدة حين بدت لى .

ألحَّ كيريلوف يسأله :
- « أحسست » الفكرة ؟ طيب . ما أكثر الأفكار التى وُجدت دائماً ، ثم اذا هى تبدو جديدة على حين فجأة ! ذلك صحيح . أشياء كثيرة أراها الآن كما لو كنت أراها أول مرة .

قال ستافروجين دون أن يصفى اليه ، مستمراً فى شرح فكرته :
- لنفرض أنك عشت فى القمر ، فارتكبت هنالك عملاً من تلك الأعمال الحقيرة الحسيسة المضحكة . انك وأنت تعيش الآن هنا تعلم حق العلم أن الناس سيضحكون عليك هنالك وأنهم سيلطخونك بالوحل خلال قرون ، الى الأبد ، ما بقى القمر . ولكنك على الأرض ، ومن الأرض انما تنظر الى القمر : فهل تمنيك عندئذ جميع القذارات التى اقترفتها هناك على القمر وهل يهملك أن يبصق عليك سكان القمر خلال قرون ؟ أليس ما أقوله صحيحاً ؟

أجاب كيريلوف :
- لا أدرى .
ثم أضاف يقول دون أية نية ساخرة ، بل لاثبات واقع لا أكثر :
- أنا لم أعش فى القمر .
- لمن هذا الطفل ؟

– لحماة المعجوز ... بل أقصد لامرأة ابنها ... سيّان ! لقد وصلت أمه منذ ثلاثة أيام • وهى مريضة • فى السرير • الطفل يصرخ كثيراً فى الليل • آلام فى البطن • أمه نائمة • جاءتنى به المعجوز • أخذت أرمى أمامه الكرة • انها كرة من هامبورج • اشتريتها من هامبورج لأرميها وأتلقفها : هذا يقوى الظهر • والطفل بنت لا صبي •

سأل ستافروجين :

– هل تحب الأطفال ؟

فأجاب كيريلوف ، ولكن بلهجة ليس فيها إكترات كثير :

– نعم •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين :

– فأنت اذن تحت الحياة أيضاً ؟

– نعم • أحب الحياة • • لماذا ؟

– ولكك عازم على الانتحار •

– وما العلاقة بين الأمرين ؟ الحياة شئ • والموت شئ آخر • الحياة

موجودة والموت غير موجود •

– أأنت تؤمن اذن بالحياة الآخرة الأبدية ؟

– لا ، لا بالحياة الآخرة الأبدية ، بل بالحياة الأبدية هنا على هذه

الأرض • هناك لحظات ... ان المرء يصل الى لحظات يتوقف فيها الزمان

فجأة ، فيصبح الحاضر أبدية •

– هل تأمل أن تتوصل الى هذه اللحظة ؟

قال نيقولاى فسيفولودوفتش ، بدون سخرية من جهته هو أيضاً :

– لا أظن أن هذا ممكن فى زماننا • فى رؤيا يوحنا يحلف الملاك أن

الزمان لن يوجد بعدئذ* •

كان يتكلم ببطء ، مستغرق الفكر •

قال كيريلوف :

- أعلم ذلك • وهذا صحيح • قيل بوضوح ودقة • حين يكون
الانسان بكامله قد بلغ السعادة ، فان الزمان لن يوجد بعدئذ ، لأنه لن
يكون ضرورياً بعد ذلك •

- أين عساء يختفى ؟

- لن يختفى في أى مكان ، ليس الزمان شيئاً له حيزٌ ، بل هو
فكرة ستطفيء •

- ما هذه الا أقوال فلسفية مبتذلة معادة مكرورة ، تتردد هي نفسها
منذ بداية القرون •

كذلك دمدم يقول ستافروجين بنوع من أسف يمازجه ازدراء •
فهتف كيريلوف يقول وقد التمت عيناه فجأة ، كأن هذه الفكرة
وحدها ضمانه للنصر :

- نعم ، تتردد هي نفسها منذ بداية القرون ، ولكن لن يكون هناك
غيرها ...

- انك تبدو سعيداً جداً يا كيريلوف ، هه ؟

أجاب كيريلوف ، وكأنه ينطق بكلمات عادية جداً :

- نعم ، سعيد جداً •

- لكنك كنت معتكر المزاج منذ قليل ، وكنت حانقاً على ليوتين •
- هم ... الآن لست كذلك • لم أكن أعرف عندئذ أنني سعيد •
هل رأيت ورقة ، ورقة شجرة ؟

- طبعاً •

- رأيت ورقة شجرة فى الآونة الأخيرة ، ورقة مصفرة ، ما يزال

فيها شيء من اخضرار ، وكانت حواشيها قد تفسخت . وكانت الريح تطردها . في العاشرة من عمرى ، أثناء الشتاء ، كنت أغمض عينيَّ عامداً ، وأتخيل ورقة خضراء ، متألفة بعروقها الملتمة تحت أشعة الشمس . حتى اذا فتحت عيني لم أصدق الواقع . ان ما رأيته كان جميلاً جداً . وكنت أعود أغمض عينيَّ ...

- أهذا رمز ؟

- لا ... لماذا ؟ ليس هذا رمزاً . انها ورقة لا أكثر . ورقة . شيء حسن . كل شيء حسن .
- كل شيء ؟

- كل شيء . الانسان شقى لأنه لا يعرف أنه سعيد . لا شيء غير هذا . ذلك سر الأمر كله ، كله على الاطلاق . فمن عرفه لم يلبث أن يصبح سعيداً ، على الفور . امرأة الابن ستموت . والطفلة ستعيش . كل شيء حسن . كل شيء بديع . اكتشفت هذه الحقيقة فجأة .

- واذا مات المرء من الجوع ، واذا أوذيت بنت صغيرة ، اذا لطح شرفها بالعار ، فهل هذا حسن أيضاً ، هل هذا بديع أيضاً ؟

- نعم . واذا كسر أحدٌ جمجمة الشخص الذى ألحق أذى بالبنت الصغيرة فهذا حسن أيضاً . واذا لم يكسر أحد جمجمته ، فهذا حسن كذلك . كل شيء حسن ، كل شيء بديع ، كل شيء . وهم سعداء أولئك الذين يعرفون أن كل شيء حسن بديع . فاذا عرفوا أنهم سعداء ، كانوا سعداء . لكنهم لا يكونون سعداء ما ظلوا يجهلون أنهم سعداء . تلك هي الفكرة كلها ، الفكرة كاملة ، وليس هناك فكرة غيرها .

- متى اكتشفت أنك سعيد ؟

- فى هذا الأسبوع ، يومَ الثلاثاء ، لا بل يوم الأربعاء ، لأن الوقت كان فى الهزيع الاخير من الليل •

- بأية مناسبة ؟

- لا أذكر • كنت أمشى فى الغرفة طولاً وعرضا ... لا قيمة لهذا ... المهم اننى وقفت ساعتى • كانت تشير الى الثانية وخمس وثلاثين دقيقة •

- فعلت هذا اشارةً الى أن الزمان سيتوقف •

لم يجب كيريلوف •

ثم استأنف كلامه فجأة فقال :

- هم ليسوا طيبين لأنهم لا يعرفون أنهم طيبون • فمتى عرفوا ذلك فى المستقبل ، فسيصبحون طيبين ، ولن يفتصبوا عفاف البنت الصغيرة • يجب أن يعرفوا أنهم طيبون ، فاذا هم يصبحون طيبين على الفور ، جميعاً ، الى آخر واحد منهم •

- طيب • أنت الآن تعرف أنك طيب ، فهل أنت اذن طيب ؟

- نعم أنا طيب •

فقدم ستافروجين يقول مكفهر الوجه :

- على هذا أوافقك •

قال كيريلوف :

- والذى سيعلم الناس أنهم جميعاً طيبون أخيراً ، فذلك سوف

يختم تاريخ العالم •

- ان الذى علم الناس ذلك قد صُلب •

- سوف يجيء ، وسيكون اسمه الاله الانسان •

- الانسان الاله ؟

- بل الاله الانسان • ذلك هو الفرق كله •
- أنراك أنت الذى أشعلت السراج أمام الايقونة ؟
- نعم ، أنا •
- أتؤمن الآن ؟
- العجوز تحب السراج ••• ولم يتسع وقتها اليوم •
كذلك دمدم كيريلوف •
- أنت ، ألا تصلى بعد ؟
- أصلّى دائما • انظر الى هذا العنكبوت الذى يتسلق الجدار ! اننى
أنظر اليه فأشكر له أنه هنا •
وسقطت عيناه من جديد ، وحدّق الى ستافروجين بنظرة فيها عزة
وشمم ، نظرة لا تنصاع أو تشئى • فكان ستافروجين يتأمل به بنوع من
الاستمزاز ، ولكن دون أية سخرية •
ثم قال وهو ينهض ويتناول قبعته :
- أراهن على أنك ستكون قد آمنت بالله حين أجيئك زائرا فى مرة
قادمة •
سأله كيريلوف :
- لماذا ؟
فأجاب ستافروجين وهو يضحك ساخرا :
- اذا كنت تعرف أنك مؤمن بالله ، فسوف تؤمن به • ولكنك
لا تؤمن الآن لأنك لمّا تعرف بعدُ أنك مؤمن •
أجاب كيريلوف بعد لحظة تفكير :
- ليس هذا هو الامر البتة • أنت قلبت فكرتى • ما كلامك هذا
الا مزاح رجل من المجتمع الراقى • تذكر ، يا ستافروجين ، المنزلة التى

لك فى نفسى ، تذكر ماذا كنت الى •

– استودعك الله يا كيريلوف •

– ارجع الى لىلا • متى ؟

– أترك نسيت قضيتنا غدا ؟

– آ ••• نعم ••• نسيت • اطمئن بالآ ، لن أتاخر عن الموعد •
فى الساعة التاسعة • اننى أستطيع أن أستيقظ فى الوقت الذى أشاء • أناام
قائلا لنفسى : سوف أستيقظ فى الساعة السابعة ، فاذا أنا استيقظ فى الساعة
السابعة • واذا قلت اننى سأستيقظ فى الساعة العاشرة ، استيقظت فى الساعة
العاشرة •

قال نيقولاى فيفولودوفتش ستافروجين وهو ينظر الى وجه
كيريلوف الشاحب :

– تلك موهبة ثمينة جدا •

– سأفتح لك البوابة •

– لا تزعج نفسك • سوف يفتحها لى شاتوف •

– آ ••• شاتوف ••• طيب ••• استودعك الله •

ان المنزل المقفر الذى يسكنه شاتوف لم يكن مغلقا • ولكن حين دخل ستافروجين ، وجد نفسه فى ظلام حالك ، واضطر أن يتلمس السلم الذى يقضى الى مسكن شاتوف تلمساً • وفجأة فُتح باب هذا المسكن الذى يقع تحت سطح المنزل ، فُتح على مصراعيه ، وأُضيء السلم • ولكن شاتوف لم يخرج من غرفته • فلما بلغ ستافروجين الفسحة الاخيرة من فسحات السلم رأى شاتوف واقفا فى ركن من الغرفة قرب المائدة ينتظره •

فسأله وهو يقف على عتبة الباب :

— هل ترضى أن تستقبلنى لعمل ؟

فاجابه شاتوف :

— ادخل واجلس • اغلق الباب • لا بل انتظر • سأغلقه أنا •

وأقبل شاتوف الباب بالمفتاح وجلس قبالة نيقولاى فيسيفولودوفتش ، وراء المائدة • كان قد نحل خلال هذا الاسبوع ، وكان يبدو أنه يعانى من حمى •

قال بصوت أجش وهو يخفض عينيه :

— لشد ما عذبتنى ! لماذا لم تجىء الى ؟

— أكنت واثقا هذه الثقة كلها بأننا سأجىء ؟

— انتظر ... لقد أصابتنى حمى فكنت أهذى ... ولعلنى ما زلت

أهذى ... انتظر •

ونهب ، وتناول شيئاً كان موجوداً على حافة الرف الثالث من خزانة
كتبه • انه مسدس •

قال :

- حلمت ذات ليلة أنك ستجئ ، تقتلني ، حتى اذا استيقظت في الغد
أعطيت ذلك الوغد ليامشين آخر ما كنت أملك من قروش ، ثمنا لهذا
المسدس • لقد أردت أن أدافع عن نفسي • وبقي المسدس على هذا الرف
منذ ذلك الحين •

وفتح طاقة النافذة •

فقال نيقولاى فسيفولودوفتش :

- لا ترمه • علام ترميه ؟ انه باهظ الثمن ، وغدا يقول الناس انهم
وجدوا مسدسات تحت نوافذ شاتوف • أعدّه الى مكانه • نعم ، هكذا •
اجلس الآن • قل لى : لماذا يبدو عليك أنك تعتذر عن أنه خطر ببالك أنتى
سأجئ • أقتلك ؟ لا يذهبن بك الظن الى أنتى جئت أصالحك • ولكن قل لى
أولا : أليست علاقتى بزوجتك هى التى دفعتك الى صفعى ؟

أجاب شاتوف وهو يخفض عينيه من جديد :

- أنت تعلم حق العلم أن السبب ليس هذا !

- ولا كانت الشائعات القبيحة التى راجت عن داريا ايفانوفنا هى
السبب ؟

- لا ، لا ، لا ، حتما لا ••• يا لها من شائعات سخيفة ! لقد قالت لى أختى
فورا •••

كذلك صاح شاتوف بلهجة جافية تدل على نفاد الصبر ، حتى لقد
ضرب الارض بقدمه •

فتابع ستافروجين كلامه يقول بلهجة هادئة :

- اذن حشرت 'أنا وحشرت أنت : نعم ، ان ماريا تيموفيثفنا هي زوجتى الشرعية • لقد تزوجنا ببطرسبرج منذ أربع سنين • وبسببها قتت تضربنى ، أليس كذلك ؟

فدمدم شاتوف يقول أخيرا وهو يتأمل ستافروجين بهيئة غريبة :
- كنت قد حشرت ذلك ، ولكننى كنت لا أريد أن أصدق الامر •
- ومع هذا ضربتني •••

احمر وجه شاتوف ، وغنم يقول متلعثما بصوت متقطع :
- بسبب ••• صفارك وتدنيك ••• بسبب كذبك • ثم اننى لم أقرب منك لأعاقبك ••• حين اتجهت اليك ••• ولم أكن أعرف أننى سأضربك ••• ولئن ضربتك ، فلأنك لعبت دورا كبيرا جدا فى حياتى •
- فهمت ، فهمت • يكفى هذا • من المؤسف أن بك حمى • ان هناك أمورا هامة يجب أن أبلغك اياها •

فهتف شاتوف وهو ينهض عن مكانه مرتعشا كل الارتعاش من نفاد الصبر :

- اننى انتظرك منذ مدة طويلة • قل قضيتك ••• وسوف أتكلم أنا أيضا ••• بعدك •••
وعاد يجلس •

بدأ نيقوى فسيفولودوفتش يتكلم فقال وهو يتوسمه مستطلعا :
- هذه القضية من نوع آخر تماما • لقد اضطرت بسبب بعض الظروف أن أجيئك هذه الساعة لأبلغك أن من الممكن أن تقتل •

نظر اليه شاتوف بوحشية • ثم قال ببطء :
- أنا أعلم أن حياتى ربما كانت فى خطر ، ولكن كيف تستطيع أنت أن تعرف هذا ؟

- لأننى واحد من الجماعة ، مثلك تماما ؛ لأننى عضو فى جمعيتهم ،
مثلك تماما •

- أنت ... أنت عضو فى جمعيتهم ؟

قال نيقولاى فسيفولودوفتش وهو يتسم ابتسامة خفيفة :

- أرى من عينيك أنك كنت تتوقع منى كل شيء الا هذا • ولكن
اسمح لى : أأنت تعرف اذن أنهم ضاقوا بك وأنهم يعتمرون قتلك ؟

- لم يخطر ببالى هذا فى يوم من الأيام ، لا ولا أظن أن أصدقته
حتى فى هذه اللحظة بعد أقوالك ... رغم أن المرء لا يمكن أن يكون
واقفا بشيء أو متأكدا من شيء فى تعامله مع هؤلاء الأغبياء ! ...

كذلك صاح شاتوف فى سورة مفاجئة من غضب شديد وهو يضرب
المائدة بقبضة يده • وتابع كلامه يقول :

- لقد قطعت الصلة بهم • وجاءنى واحد منهم أربع مرات فقال ان
فى امكانى أن ...

لكن شاتوف أمسك عن الكلام فجأة ونظر الى ستافروجين وسأله :

- ولكن ما الذى تعلمه أنت على وجه الدقة ؟

استأنف ستافروجين كلامه فقال ببرود كبرود امرئ يكتفى بالقيام
بواجب :

- اطمئن • لاتخف • اننى لا أخدعك • هل تريد أن تعرف ماذا
أعلم ؟ اننى أعلم أنك دخلت فى هذه الجمعية فى الخارج منذ ستين ،
حتى قبل اعادة تنظيمها ، وذلك قبيل سفرك الى أمريكا ، وبُعِيد حديثنا
الذى كُتِبَ الىَّ فيه من أمريكا بافاضة واسهاب ، فيما أظن • بالمناسبة :
اغفر لى اننى لم أجبك برسالة ، واقتصرت على ...

- ... ان ترسل الىَّ المال • انتظر ...

قال شاتوف ذلك ، وأسرع يفتح دُرْجاً فى مائدته ، فاستلَّ من تحت أوراق فيه ، ورقةً نقدية بمائة روبل • وقال لستافروجين :

– اليك المال الذى أرسلته الىَّ حينذاك • خذه • لولاك لهلكت هناك • وما كان لى أن أستطيع رده اليك الا بعد مدة طويلة لولا تدخل أمك : فمنذ تسعة أشهر ، بعد مرضى ، علمت بما أنا فيه من شقاء وعوز وبؤس ، فأهدت الىَّ هذه المائة روبل • ولكن أكمل كلامك ، أرجوك •

كان شاتوف كمن يختنق •

– وفى أمريكا تغيرت آراؤك ، حتى اذا عدت الى سويسرا أردت أن تترك الجمعية • ولم يجيبوك ، ولكنهم كلفوك بأن تستلم فى روسيا آلة طابعة وأن تحتفظ بها هنا الى أن يأتبك شخص موفد منهم فيطلب منك أخذها • لست على علم بجميع التفاصيل ، ولكننى أظن أن الامر كان كذلك على وجه الاجمال • أهذا صحيح ؟ أما أنت ، فقد قلت هذا مؤملاً أو مشروطاً أن تكون هذه المهمة آخر مطلب لهم عندك ، وأن يدعوك بعد ذلك وشأنك • هذا كله لم أعرفه منهم هم ، وانما عرفته بمصادفة محض • هناك شئ لا أظن أنك تعرفه بعد : هو أن هؤلاء السادة لا يترون الانفصال عنك أبدا •

أعول شاتوف يقول :

– مستحيل • لقد أعلنت لهم صادقاً أننا مختلفون من جميع النواحي ؛ وهذا حقى • هذا حق ضميرى وفكرى ! ... لن أقبل ... ما من قوة سوف تستطيع أن ...

قاطعه ستافروجين يقول بهيئة رصينة :

– لا تصرخ • من الممكن أن يكون فرخوفنسكى ذاك متجسسا علينا الآن فى المر بنفسه أو بموفدٍ منه • حتى ذلك السكير ليادكين قد كلفوه

بمراقبتك كما كلفوك أنت بمراقبته ، أليس صحيحاً ما أقول ؟ قل لى أولاً هل سلّم فرخوفنسكى بأدلتك وحججك أم هو لم يسلم بها ؟

- سلّم بها . وقال لى ان فى وسعى أن أتركهم ، فهذا من حقى . . .
- فاعلم اذن انه يخدعك ويضللك . انى أعلم أن كيريلوف نفسه ، وهو الذى لا يكاد يجمع بينهم وبينه أى شبه ، قد أمدهم بمعلومات عنك . ان لهم عملاء كثيرين . حتى ان بعض هؤلاء العملاء يجهلون أنهم يعملون للجمعية . انهم لم يكفوا عن مراقبتك فى يوم من الأيام . ولقد جاء بطرس فرخوفنسكى الى هنا بقصد البت فى أمور كثيرة منها تقرير مصيرك تقريراً حاسماً . لقد خوّل سلطات تامة لازالتك فى اللحظة التى يراها مناسبة ، لأنك تعرف أشياء كثيرة ، فمن الممكن أن تشي بالجمعية . أكرر لك أن هذه هى الحقيقة . واسمح لى أن أضيف أنهم مقتنعون اقتناعاً مطلقاً - لا أدرى لماذا - بأنك جاسوس ، وبأنك ان لم تكن قد خنتهم حتى الآن فسوف تخونهم فى المستقبل . أليس هذا صحيحاً ؟

فحين سمع شاتوف هذا السؤال يطرحه نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين بهذه اللهجة العادية ، ابتسم ابتسامة مصنوعة ، وقال غاضباً دون أن يجيب اجابة مباشرة :

- هبنى جاسوساً ، فلمن أثنى بهم ؟

ثم صاح عائداً الى جملة من الجمل التى قالها محدثه فشدهته شدهاً أكبر كثيراً من شدهه النبأ القائل بأن حياته معرضة للخطر ، صاح يقول :
- ولكن دعنا من الكلام غنى أنا . فلأذهب أنا الى جهنم . وانما أريد ان أعرف : كيف أمكنت أنت ، أنت ستافروجين ، أن تحشر نفسك فى هذه الزمرة من الخدم الأغبياء الحقيرين ؟ أأنت تدخل عضواً فى جمعيتهم ؟ أهذا عمل لامع يليق بنيقولاى ستافروجين ؟
كذلك هتف شاتوف وقد استولى عليه كمد شديد وحزن هائل .

حتى لقد صفق يديه احداهما بالأخسرى ، كأنه ليس هناك شيء أدعى الى المرادة وأبعث على الأسف من هذا الاكتشاف .

قال ستافروجين بدهشة غير مقتعلة :

- معذرة . ولكن يخيّل الى أنك تعدني كوكباً مثاقلاً ما أنت بجانبه الا حشرة مسكينة . لقد سبق أن لاحظت ذلك عند قراءتي الرسالة التي بعثتها الى من أمريكا .

- انك ... انك تعلم ... ولكن كفى حديثاً عني ... كفى !

كذلك قال شاتوف يقطع كلامه حاسماً . وأضاف :

- اذا كنت تستطيع أن تمدني بايضاحات ... عن سؤالي ، فافعل .

- بسرور . تسألني كيف أمكنتني أن أزج نفسي في مثل هذه القضية الوسخة ؟ انني بعد أن أبلغتك ما أبلغتك أجد نفسي مضطراً أن أكون صريحاً معك ، الى حد من الحدود . الحق أنني لا أتمنى الى هذه الجمعية ، ولا اتميت اليها في يوم من الأيام . فأننا اذن أحق منك بأن أتركها لأنني لم أدخل فيها على وجه الاجمال . حتى لقد أعلنت لهم منذ البداية انني لا أعمل معهم في قضية مشتركة ، ولئن اتفق أن ساعدتهم في بعض المناسبات ، فان ذلك لم يكن مني الا هواية ، اذ لم أجد هواية أفضل . ومع ذلك فقد شاركت في اعادة تنظيم الجمعية على أسس جديدة . ذلك كل شيء . لكنهم غير راضين الآن ، وقرروا فيما بينهم أن من الخطر أن يتركوني : وأعتقد أنهم حكموا على بالاعدام أنا أيضاً . - أوه ! انهم لا يعرفون الا هذا : عقوبة الاعدام ... مع حكم مطابق للأصول ، على ورق ممهور بأختام رسمية وثلاثة تواقع . وهل تظن أنهم قادرون على أن ينفذوا ؟

تابع ستافروجين كلامه يقول بتلك اللهجة نفسها التي تشتمل على قلة الاكترات ولا يكاد يكون فيها انفعال :

- انك على بعض الحق ، ولكن على بعض الحق فقط . مما لا شك فيه أن هذا كله يتضمن اسرافاً في الخيال : انهم يضعمون قوتهم وخطورة شأنهم . واذا أردت أن تعرف رأيي ، فإن الزمرة كلها تتجمع في شخص بطرس فرخوفنسكى ، وبطرس فرخوفنسكى هذا يكون متواضعاً جداً حين لا يعد نفسه الا عميلاً للجمعية . على أن مبدأ تنظيمهم ليس أسخف من مبدأ تنظيمات أخرى من هذا النوع . انهم على صلات بـ « الأمية » . ان لهم عملاء في روسيا . حتى لقد ابتدعوا أساليب جديدة أصيلة على الصعيد النظرى طبعاً . أما عن نياتهم هنا ، فإن عمل التنظيمات الروسية التي من هذا النوع تبلغ من الفموض وتبلغ من البعد عن التوقع أن كل شيء ممكن عندنا . لاحظ أن فرخوفنسكى يملك ارادة .

- هذه القيلة ، هذا الجاهل ، هذا الحيوان الذى لا يفهم من روسيا شيئاً ؟

كذلك صرخ ناتوف حائقاً أشد الحنق . فقال له نيقولاى فيسولودوفتش :

- انك لا تعرفه حق معرفته . صحيح أنهم لا يفهمون من روسيا شيئاً كثيراً على وجه العموم ، ولكنهم ليسوا أجهل منا بها الا قليلاً . ثم ان فرخوفنسكى ذو حماسة .
- فرخوفنسكى ذو حماسة ؟

- نعم ، انه فيما وراء بعض الحدود يكف عن التمثيل والتهريج ويصبح نصف مجنون . تذكر أحد تعابيرك نفسها : « هل تعلم مدى ما يمكن أن يملكه انسان وحيد من قوة ؟ » لا تضحك ، أرجوك . انك قادر كل القدرة على اطلاق رصاصة . وهم مقتنعون بأننى أنا أيضاً جاسوس . انهم اذ يعجزون عن تعريف قضيتهم مستعدون لأن يتهموا الآخرين بالجاسوسية .

- ومع ذلك فلست خائفاً أنت منهم ، أليس صحيحاً ؟
- لا ، لست خائفاً كثيراً . ولكن وضعك مختلف تماماً . وانما
نبهتك من أجل أن تحتاط . فى رأيى أنه ليس أمراً مزعجاً كثيراً أن
يهددَ المرءَ أناسٌ سخفاء أغبياء . ولكن الأمر ليس أمر ذكائهم ، وقد
اتفق أن رفعوا أيديهم على آخرين غيرى وغيرك . ولكن الساعة قد بلغت
الحادية عشرة والرابع

قال ستافروجين ذلك وهو ينظر فى ساعته . ونهض . ثم قال :
-أريد أن ألقى عليك سؤالاً عن موضوع غير هذا تماماً .
فصاح شاتوف يقول وهو ينهض فجأة :
- ناشدتك الله !

فسأله ستافروجين مدهوشاً :
- ماذا تعنى ؟

- اسأل ! القى سؤالك ، ناشدتك الله !
كذلك كرر شاتوف وهو فريسة انفعال لا سبيل الى مغالبته . وتابع
يقول :

- ولكن على شرط أن أستطيع أنا أيضاً أن ألقى عليك سؤالاً .
أتوسل اليك ... اذا سمحت ... أصبحت لا أطيق صبراً ...
اسأل ...

انتظر ستافروجين لحظة . ثم بدأ يتكلم فقال :
- سمعت أن لك بعض التأثير فى ماريا تيموفيتنا ، وأنها تحب أن
تراك ، وأن تسمع كلامك . هل هذا صحيح ؟
- نعم انها تصفى الى أحياناً ...
وظهر الاضطراب على شاتوف .

قال ستافرجين :

- أنوى أن أعلن زواجنا على الناس فى الأيام القليلة القادمة •

فدمدم شاتوف يقول مرتاعاً :

- ولكن ... مستحيل !

- بأى معنى هو مستحيل ؟ لا يمكن أن يكون هناك أية صعوبة •

شهود الزواج هنا • لقد تمَّ كل شيء فى بطرسبرج ، على نحو شرعى جداً ، بهدوء كامل وسلام تام • ولئن ظل الأمر سرّاً مكتوماً حتى هذا اليوم ، فلأن شهود الزواج ، وهم كيريلوف وبطرس فرخوفنسكى وكذلك ليادكين (الذى يسرنى أن يكون الآن قريبى) قد قطعوا على أنفسهم عهداً ، هم الثلاثة ، بأن يصمتوا •

- لست أقصد هذا ... انك تتكلم بهدوء ... ولكن أكمل

حديثك • قل لى : لم يجبرك أحد على هذا الزواج فيما تقول ، هه ؟
أجاب نيقولا فيسولودوفتش يقول مبتسماً من حرارة شاتوف
المندفعة النافذة الصبر :

- لا ، لم يجبرنى أحد •

فتابع شاتوف كلامه يقول بما يشبه الحمى :

- وما ذلك الطفل الذى تتكلم هى عنه ؟

- الطفل ؟ أى طفل ؟ عجيب ! هذه أول مرة أسمع فيها كلاماً عن
طفل ! انها لم تلد أبداً ، ولم يكن ممكناً أن تلد : ان ماريا تيموفيتشنا قد
ظلت عذراء •

- آ ... ذلك ما كنت أقدره ... اسمع !

- ما بك يا شاتوف ؟

لقد غطى شاتوف وجهه بيديه وأشاح رأسه ثم أمسك ستافروجين من كفيه فجأة ، وقال له صارخا :

- هل تعرف على الأقل ، نعم ، هل تعرف على الأقل لماذا فعلت هذا الأمر ، ولماذا ترتضى هذا القصص الآن ؟

- هذا سؤال ذكى بل وغادر • لكنى سوف أدهشك : نعم ، اننى أعلم تقريبا لماذا تزوجت ، ولماذا قررت الآن أن أرتضى هذا « القصص » على حد تعبيرك •

- لترك هذا ... سنتكلم عنه فيما بعد • انتظر ! لننتقل الى الشيء الجوهري ، الى الشيء الجوهري : اننى أنتظرك منذ سنتين !
- حقا ؟

- أنتظرك منذ مدة طويلة جدا • لم أقطع عن التفكير فيك يوما • انك الانسان الذى تستطيع أن ... لقد سبق أن كتبت اليك فى هذا الموضوع من أمريكا •
- أتذكر رسالتك الطويلة تذكرأ كاملاً •

- لعلها كانت أطول من أن تُقرأ ، هه ؟ صحيح ! ست صفحات كاملة • اسكت • اسكت • قل لى : هل تستطيع أن تهب لى من وقتك عشر دقائق أخرى ، الآن ، فورا ؟ ... اننى انتظرك منذ مدة طويلة ...
- أهب لك نصف ساعة ، ولكن لا أكثر من ذلك • أمل أن يكفيك هذا •

قال شاتوف خارجاً عن طوره :

- ولكن على شرط ... أن تغير لهجتك • هل سمعت ؟ اننى أطالبك مطالبةً بأن تغيرَ لهجتك ، بينما كان يجب على أن أضرع اليك ... هل

تعرف ما معنى أن يطالب المرء مطالبة ، بينما كان ينبغي له أن يتوسل ويتضرع ؟ ...

- أفهم أنك بهذه الطريقة تتحلل من القواعد والأصول ، وتضع نفسك في خارجها ، في سبيل هدف أعلى وغاية أسمى .

بهذا اجابة ستافروجين وهو يتسم ابتسامة خفيفة . وأردف :

- لكننى ألاحظ مثلاً أن بك حمى .

- اننى أطلب الاحترام ، بل أقضيه ، لا لشخصى - فليس لشخصى من قيمة - ليذهب شخصى الى الشيطان - ولكننى أقضى الاحترام باسمى شئ آخر ، وفى هذه اللحظة فقط ، لهذه الكلمات القليلة . نحن هنا شخصان يلتقيان وجهاً لوجه فى اللانهاية ... ربما لآخر مرة . اترك لهجتك ، تكلم بلهجة انسانية . تكلم انسانياً ، ولو مرة واحدة فى حياتك . لا أقول هذا من أجل نفسى ، بل من أجلك . هل تدرك أن عليك أن تغفر لى تلك الصفة التى هويت بها عليك لا لشيء الا لأننى هأت لك فرصة معرفة قوتك الكبيرة ؟ ... هأت ذا تبسم مرة أخرى ابتسامة الازدراء تلك التى تعودتها ، ابتسامة الازدراء تلك التى يتسم بها أبناء المجتمع الراقى . آه ... متى تستطيع أن تفهمنى أخيراً ؟ تباً لملك الأطيان العظيم ! تباً للسيد الكبير ! افهم اننى أطلب بالاحترام ، نعم ، أطلب به وأقضيه ، والا فلن أتكلم بحال من الاحوال !

كاد اندفاعه أن يبلغ حد الهذيان . فقطب نيقولاى فسيفولودوفتش حاجبيه ، وأصبح أكثر تحفظاً . ثم قال بلهجة رصينة وهو يزن كل كلمة من كلماته :

- اذا بقيت نصف ساعة أيضاً مع أن وقتى ثمين جداً ، فبق اننى انما

أفعل ذلك لأننى أتوى أن أصغى الى كلامك باهتمام على الاقل • وأنا
واقى بأنك ستعلمنى أشياء كثيرة جديدة على •

صاح شاتوف يقول :

– اجلس •

وتهالك هو على كرسىه •

واستأنف ستافروجين كلامه فقال :

– اسمح لى أن أذكرك مع ذلك بأننى بدأت أكلمك عن ماريا
تيموفيتشنا واتنى كنت أريد أن أتوجه اليك برجاء هام جدا فى شأنها ، من
أجلها هى على الاقل ...

– هيه ؟

كذلك قال شاتوف نافذ الصبر كانسان قاطعتَه فى منتصف حديثه ،
ولم يدرك السؤال الذى ألقته عليه مع استمراره فى النظر اليك •

أضاف نيقولاى فسيفولودوفتش يقول مبتسما :

– ولكنك لم تدع لى فرصة اتمام الكلام الذى شرعت فيه ...

فصاح شاتوف يقول وهو يهز منكبيه بعد أن فهم المقصود :

– هذه سخافات • سنتكلم عنها فيما بعد •

وسرعان ما رجع الى فكرته •

قال بلهجة تكاد تكون تهديدا وهو يميل على ستافروجين ملتصع
العنين رافعا سبابة يده (انه لم يلاحظ ذلك حتما) ، قال :

- هل تعرف من هو الآن على وجه الارض الشعب « الحامل للرب »
الوحيد ، الشعب الذى سيجدد العالم وينقذه باسم اله جديد ، الشعب
الوحيد الذى بيده مفاتيح الحياة والكلمة الجديدة ؟؟؟ هل تعرف من هو
هذا الشعب وما اسمه ؟

استنح من وضعك ، بغير تأخر ، أنه هو الشعب الروسى

هتف شاتوف يقول وهو يضطرب فى كرسيه :

- هانت ذا تضحك منذ الآن ! آه من هذا الصنف من البشر !

- هدىء نفسك ، أرجوك • لقد كنت أتوقع شيئا من هذا القيل •

- كنت تتوقع شيئا من هذا القيل ؟ ولكن ألا تذكرك هذه الأقوال

بشيء ؟

- بلى • وانى لأرى رؤية واضحة ما الذى تقصده ، والى أين تريد

أن تصل من هذا • ان عبارتك الطويلة ، وحتى هذا التعبير : الشعب

« الحامل للرب » ، ليسا الا النتيجة التى تُستخرج من الحديث الذى

جرى بيننا منذ أكثر من سنتين فى الخارج قيل سفرك الى أمريكا على

الأقل اذا صدقت ذاكرتى الآن •

- ان تلك الجملة هى لك ، لك أنت • أنت الذى قلتها • هذه

أقوالك ذاتها ، وليست النتيجة التى تستخرج من « الحديث » الذى جرى

بيتنا : كان هناك معلم ينادى بأفكار كبيرة ، وكان هناك تلميذ ينبعث من بين الموتى . فأما التلميذ فأنا ، وأما المعلم فأنت .

- ولكن اذا صدقت ذاكرتي ، فانك بعد أقوالى تلك انما دخلت فى جمعيتهم ثم سافرت الى أمريكا .

- نعم ، وقد كتبت اليك عن هذا من أمريكا . لقد حدثت فى تلك الرسالة عن كل شيء . نعم ، لم أستطع أن أنتزع نفسى دفعة واحدة من كل ما كان قوام حياتى منذ طفولتى ، من كل ما كان معقداً وآمالى وموضوع حماساتى ، من كل ما جعلنى أسكب دموعاً تفيض بالكراهة والبغض ... انه لمن الصعب على المرء أن يغير آلهته . لم أصدق أقوالك حينذاك ، لأننى كنت لا أريد أن أصدقها ، فرميت نفسى فى تلك الهوة الملائى بالقدارات . غير أن البذرة فى نفسى بقيت ثم نبتت . قل لى ، ولكن بصدق : هل قرأت رسالتى التى بعثتها اليك من أمريكا ، الى نهايتها ؟ لعلك لم تقرأها البتة ؟ - قرأت منها ثلاث صفحات ، الصفحتين الأوليين والصفحة الأخيرة ، وتصفححت الباقي تصفحاً ... ولكننى كنت أنوى دائماً أن ...

قال شاتوف يقاطعه وهو يجرى يده بإشارة ازدياء :

- غير مهم ، غير مهم ! ولكن اذا كنت تعدل عن أقوالك التى قلتها فى الماضى عن الشعب الروسى ، فكيف أمكنك أن تقولها حينذاك ؟ ذلك ما يعذبنى اليوم ويسحقنى سحقاً .

قال ستافروجين :

- لم أكن مازحاً يومئذ . وحين حاولت أن أفتك فى ذلك الأوان فلعلنى كنت أفكر فى نفسى أكثر مما أفكر فىك .

كلام يشبه أن يكون لغزاً أو أحجية .

فأجابه شاتوف :

- لم تكن مازحاً ؟ لقد بقيت في أمريكا ثلاثة أشهر رافداً على القش بجانب اسنان شقى ، فعلمت منه أنك بينما كنت تفرس في نفسى فكرة الله والوطن ، كنت في الوقت نفسه تسمم قلب ذلك الشقى ، ذلك المهووس كيريلوف ... لقد سكبت فيه الكذب والنفى ، وألقيت بعقله الى الجنون سريعاً . انظر اليه الآن ، تأمل ماذا صنعت به ! لقد رأيته على كل حال .

- أحب أن ألفت نظرك أولاً الى أن كيريلوف قد قال لي هو نفسه منذ برهة انه سعيد وانه طيب الحال تماماً . ان افترضك أن الأحاديث التي أجريتها معه قد تمت في ذلك الوقت نفسه الذى قام فيه الحديث بينى وبينك ، هذا الافتراض صحيح تقريباً . ولكن على أى شيء يدل ذلك ؟ أعود فأقول لك : اننى لم أخدعكما ، لا أنت ولا هو .

- أنت الآن ملحد ، أليس كذلك ؟

- نعم .

- وفي ذلك الوقت ؟

- كما أنا ! الآن تماماً .

دمدم شاتوف يقول مستاءً :

- لئن طالبتك بالاحترام في بداية محادثتنا هذه ، فانى لم أفعل ذلك من أجل نفسى . ولقد كان ينبغي لك ، وأنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء ، أن تدرك ذلك .

- اننى لم أنهض حين بدأت تتكلم ، ولا قطعت حديثنا ، ولا انصرفت ، بل بقيت جالساً أمامك أجب عن أسئلتك وعن صرخاتك وزعقاتك طيماً ... فمعنى ذلك اننى لم أغضض من قدرك ولا قصرت في احترامك ...

قاطعه شاتوف بحركة من يده . وقال يسأله :

- هل تتذكر أقوالك : « ما من ملحدٍ يمكن أن يكون روسياً » ،
هل تتذكر هذا ؟

قال ستافروجين بلهجة فيها شيء من الشك :
- قلتُ هذا ؟

- أَسْأَلْنِي هل قلتَ هذا ؟ أُنْسِيتَ أَنَّكَ قُلْتَهُ ؟ أَلَا إِنَّكَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ
أَدْرَكْتَ عِنْدَئِذٍ سَمَةً مِنْ سِمَاتِ الْفِكْرِ الرَّوسِيِّ وَالرُّوحِ الرَّوسِيَّةِ • يَسْتَحِيلُ
أَنْ تَكُونَ قَدْ نَسِيتَ أَنَّكَ قُلْتَ هَذَا • حَتَّى لَقَدْ أَضَفْتُ يَوْمَئِذٍ قَوْلَكَ : « مِمَّنْ
أَحَدٌ غَيْرِ أَرْتُوذُكْسِي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ رُوسِيًّا • • »

- افترض أن هذه الفكرة هي من أفكار دعاة السلافية •

- لا ، ان دعاة السلافية المعاصرين يبنونها • لقد أصبحوا أذكى •
ولكنك مضيت الى أبعد من ذلك ، فقلت ان الكاثوليكية الرومانية لم تعد
هي الديانة المسيحية • لقد أكدت أن المسيح الذي تنادى به روما قد وقع
في الغواية الثالثة من غوايات ابليس * ، وان الكاثوليكية اذ أعلنت للعالم
كله أن المسيح لا يمكن أن يتصر في هذه الأرض ما لم يملك مملكة
الأرض انما نادى بما يخالف روح المسيح ؛ وهي بذلك تقود العالم الغربى
كله الى الهلاك • وقد أشرت الى أن فرنسا اذا كانت تتألم وتتعذب ، فانما
مردُّ ذلك الى الكاثوليكية ، لأنها اذ كفرت بالاله الرومانى المتعفن ، لم
تظفر بالاهتداء الى اله آخر • ذلك ما كنت لا تتحرج من قوله حينذاك •
اننى أتذكر أحاديثنا تذكراً كاملاً •

قال ستافروجين جاداً كل الجِد :

- لو كنت أملك الايمان لكررت هذه الاقوال نفسها حتما • اننى
لم أكن أكذب حينذاك حين تكلمت كما يتكلم مؤمن • ولكننى أؤكد لك

أنه يزعمني جدا أن أسمع ترديد أفكارى القديمة • ألا تطيق أن تمسك
عن الكلام ؟

صاح شاتوف يسأله دون أن ينتبه أى انتباه الى ما طلب منه :

- لو كنت تملك الايمان ؟ ولكن أأست أنت الذى قلتَ لى انك اذا
برهنوا لك برهاناً رياضياً على أن المسيح ضلال وأن الحقيقة شئ والمسيح
شئ آخر ، لآثرت المسيح على الحقيقة ؟ * ألم تقل لى ذلك ؟ أجب !

قال ستافروجين رافعا صوته :

- ولكن اسمح لى أن أسألك بدورى : ما الداعى الى هذا الامتحان
الكاره المفض ، والى ماذا يؤدى هذا الاستجواب الغاضب الخيى ؟
- سينتهى هذا الامتحان ، وسينفضى الى الأبد ، فلن تُذكر به بعد
الآن •

- أما زلت عند رأيك من أننا فى خارج المكان والزمان ؟ ...

قال شاتوف غاضبا على حين فجأة •

- اسكت • اتى غبى أخرق • ولكن فيم يهمنى أن يصبح اسمى
مثاراً للضحك والسخرية ! هل تسمح لى أن أذكرك بفكرتك الأساسية ؟
... أوه ... عشرة أسطر فقط ! النتيجة وحدها لا أكر ...

- أتمنى أن تقتصر على النتيجة •

قال ستافروجين ذلك ، وهمّ أن ينظر فى ساعته ، ولكنه أمسك فى
الوقت المناسب •

ومال شاتوف الى أمام مرة أخرى ، ورفع سبابة يده ، ولكن لحظة
قصيرة فحسب ، وقال كمن يقرأ فى كتاب وهو يحدّق الى ستافروجين
بنظرة تهديد :

- ما من شعب ، ما من شعب استطاع يوما أن ينظم نفسه فى الارض

على أسس علمية وعقلية ؛ ما من شعب أفلح في ذلك ، أو لعل شعبا من الشعوب قد أفلح في ذلك مدة قصيرة عن حماقة . ان الاشتراكية في جوهرها نفسه ملحدة ، لأنها نادت منذ البداية بأنها تستهدف بناء المجتمع على أساس العلم والعقل فحسب . في كل مكان وفي كل زمان ، منذ بدء العصر ، لم يمثل العلم والعقل في حياة الشعوب الا دورا ثانويا لخدمة الحياة . وسيظل الامر كذلك الى نهاية العصور . فانما تتكون الشعوب وتتمو بدافع قوة مختلفة عن هذا كل الاختلاف ، بدافع قوة عليا مهيمنة يظل أصلها مجهولا ولا يمكن تفسيره . هذه القوة هي الرغبة المتأججة في الوصول الى نهاية ، وانكار هذه النهاية في الوقت نفسه ؛ هي تأكيد الحياة تأكيدا مستمرا لا يتعب ، وانكار الموت . هي روح الحياة ، كما يقول الكتاب المقدس ، هي « ينابيع المياه الدافقة » التي تهددنا رؤيا القديس يوحنا بأنها ستفيض ذات يوم * ؛ هي مبدأ الجمال ، على حد تعبير الفلاسفة ، أو هي مبدأ الاخلاق على حد تعبيرهم أيضا . أما أنا فأسميها ببساطة أكبر : البحث عن الله . ان هدف كل شعب ، في كل حقبة من تاريخه ، هي البحث عن الله فقط ، عن الله ، عن الله هو الذي يؤمن به على أنه هو الاله الوحيد الحق . ان الاله هو الحقيقة المركبة من الشعب كله ، منذ وجوده الى نهايته . في كل زمان وفي كل مكان ، كان لكل شعب الاله الخاص ، ولم يحدث حتى الآن أبدا أن كان لجميع الشعوب أو لعدة شعوب الاله واحد ، مشترك بينها جميعا . وحين تأخذ الشعوب بأن يصبح لها آلهة مشتركة ، فذلك علامة موت لهذه الشعوب . وحين تصبح الآلهة مشتركة بين عدة شعوب ، فان الآلهة تموت ، كما تموت الشعوب ويموت ايمانها . ولم يحدث حتى الآن أبدا أن وجد شعب بغير دين ، أي بغير فكرة عن الخير والشر . ان لكل شعب تصوره الخاص للخير

والشر ، ان لكل شعب خيره الخاص به ، وشره الخاص به • حتى اذا تشاركت عدة شعوب فى تصوراتها للخير والشر ، فان هذه الشعوب تنحدر عندئذ ، حتى ان التفريق بين الخير والشر يمتحى حينذاك ويزول • لم يقدر العقل يوما ، ولن يقدر العقل يوما على أن يحدد الخير والشر ، بل ولا على أن يفصل الشر عن الخير ولو فصلاً تقريبياً • بالعكس : كان العقل على الدوام مشوشاً تشويشاً مخجلاً يدعو الى الاسف • أما العلم فانه لم يمدنا الا بحلول مبنية على القوة الوحشية ؛ ولا سيما « نصف العلم » الذى كان أفظع الأوبئة التى أصابت الانسانية ، وكان أسوأ من الطاعون والمجاعات والحروب ، والذى لم يظهر الا فى هذا القرن من الزمان • ان « نصف العلم » طاغية لم نَرَ له مثيلاً من أقدم العصور الى هذه الايام ؛ طاغية له كهنته وعبيده ، يسجد أمامه الناس بحب غامر وايمان خرافى ، ويرتجف أمامه العلم نفسه ، ولكنه يهين هو العلم اهانة مخجلة • هذا الكلام كله هو أقوالك ياستافروجين ، الا جملتى الاخيرة عن « نصف العلم » : فهذه الجملة لى أنا ، لأننى من أهل « نصف العلم » ، ولذلك أكرهه كرهاً خاصاً • أما أفكارك أنت ، أما تعابيرك أنت ، فانتى لم أغير فيها شيئاً ، لم أبدل منها حرفاً •

قال ستافروجين متروياً :

- ما أظن أنك لم تغير شيئاً • لقد التقطت أفكارى بهوى مشتعل فسوّتها هذا الهوى المتأجج ، دون أن تشعر أنت بذلك • يكفى للبرهان على هذا التشويه أنك أنزلت الله الى حيث جعلته صفة للشعب لا أكثر • ان ستافروجين يتابع الآن شاتوف باتباه خاص ، ولكنه لا يتابع أقواله بقدر ما يتابع وضعه وحر كاته وإشاراتة •

صاح شاتوف يقول :

- أنا أنزل الله الى حيث أجعله صفة للشعب ، لا بل انى ارفع الشعب الى حيث أصل به الى الله . وهل كان الامر غير هذا فى يوم من الايام على كل حال ؟ ان الشعب هو جسم الله . كل شعب لا يكون شعبا ما لم يكن له الهه الخاص ، الهه الخاص به هو ، وما لم يكفر دون أى استعداد للتنازل أو التشويه ، بجميع الآلهة الاخرى ، وما لم يؤمن أنه بفضل الهه سينتصر على جميع الآلهة الاخرى وسيطردها . ذلك كان ايمان جميع الشعوب الكبيرة ، أو على الأقل جميع الشعوب التى كان لها دور فى التاريخ ، والتى سارت فى طليعة الانسانية . يستحيل على المرء أن يغالب الوقائع . ان اليهود لم يعيشوا الا لينظروا الاله الحق ولقد أورثوا العالم فكرة الاله الحق . والاغريق قد ألّهُوا الطبيعة ، وأورثوا العالم دياتهم ، أى الفلسفة والعلم . وروما ألّهُت الشعب متجسدا فى «الدولة» وأورثت الانسانية فكرة «الدولة» . وفرنسا ، التى تجسد الاله الرومانى ، لم تزد طوال تاريخها على أن تنمى فكرة الاله الرومانى ، واذا كانت قد أسقطته أخيرا وانحدرت هى نفسها الى هوة الالحاد الذى يطلق عليه هناك ، موقفاً ، اسم الاشتراكية ، فما ذلك الا لأن الالحاد هو رغم كل شيء أسلم من الكاثوليكية الرومانية . ومتى انقطع شعب كبير عن الاعتقاد بأنه الوحيد الذى يقدر بفضل حقيقته أن يجدد الانسانية وأن ينقذ الشعوب الاخرى ، فانه سرعان ما ينقطع عن أن يكون شعبا كبيرا ، ثم اذا هو يصبح مادة بشرية لا أكثر . ان الشعب ، اذا كان عظيما بالفعل ، لن يقتصر أبدا على أن يقوم بدور ثانوى فى حياة الانسانية ، ولا بد أن يقوم بدور من الطبقة الاولى ، فاسا هو يريد أن يكون له المكان الاول تساما ، وأن يقوم بالدور الوحيد . ان الشعب الذى يفقد هذا الايمان لا يبقى شعبا . ومع ذلك فان الحقيقة واحدة ، ومعنى هذا أن شعبا واحدا بين جميع

الشعوب هو صاحب الاله الحق ، مهما تكن آلهة الشعوب الاخرى قوية .
ان الشعب الوحيد « الحامل للرب » انما هو الشعب الروسى ...
وأعول شاتوف يقول محموما على حين فجأة :

- و ... و ... هل يمكن يا ستافروجين أن تعدنى غيبا لا أدرك
هل هذه الآراء هى ثمرات نساء عجائز عجنتهن فى موسكو ، خلال سنين ،
مماجن دعاة السلافية ، أم هى أقوال جديدة كل الجدة ، أقوال فريدة ،
أقوال هى كلمة الخلاص والبعث الوحيدة ؟ ... و ... فىم يهمنى
ضحكك الآن ! ... فىم يهمنى أن لا تفهم شيئا مما قلت ، أن لا تفهم
كلمة واحدة ، أن لا تفهم حرفا واحدا ! ... آه ... لشد ما أكره
ضحكك المتفطرس ونظرتك فى هذه اللحظة .

قال شاتوف ذلك ونهض بوثبة واحدة ، حتى لقد كان فمه مزبداً .
قال ستافروجين بجدة غريب ، دون أن يتحرك من مكانه :

- بالعكس يا شاتوف ، بالعكس . ان أقوالك الحارة أيقظت فى نفسى
ذكريات كثيرة . اتنى أغتر فى أقوالك هذه على الحالة الروحية التى كنت
أنا فيها منذ سنتين . وفى هذه المرة ، لن أقول كما قلت منذ قليل انك قد
ضحمت الأفكار التى عبّرت أنا عنها فى الماضى . حتى ليدو لى أن أفكرى
تلك كانت تتصف بقطع أكبر وجزم أشد واندفاع أعظم . وانى لأؤكد
لك مرة ثالثة أننى أتمنى كثيرا لو أكرر اليوم ما قلته أنت كلمة كلمة
ولكن ...

- ولكن يعوزك الأرنب ؟

- ماذا ؟

قال شاتوف وهو يضحك ضحكا خبيثا
- هذا التعبير المنحط هو من تعابيرك أنت . « من أجل أن يطبخ المرء

طاجن أرنب ، يحتاج الى وجود أرنب ؛ ومن أجل أن يؤمن بالله يحتاج الى وجود اله ... يقال انك أنت الذى كررت هذه الجملة فى بطرسبرج، كما فعل نوزدريوف الذى أراد أن يقبض على الارنب من خلف •

– كان نوزدريوف ، على خلاف ذلك ، يتباهى بأنه قبض على الأرنب •
بالمناسبة : اسمح لى أن ألقى عليك سؤالاً ، لا سيما وأن هذا من حقى الآن فيما يبدو لى • قل لى : هل أرنبك صار فى قبضة يدك أم هو ما يزال يجرى •

فأقول شاتوف يقول :

– أمتنك من القاء هذا السؤال بهذه الألفاظ • أسألنى بأسلوب آخر، بأسلوب آخر !

فقال نيقولاى فيسبولودوفتش ستافروجين وهو ينظر اليه مربدًا الهیة :

– مستعد • كل ما أردته هو أن أعرف أأنت مؤمن بالله أم لا ؟
– أنا مؤمن بروسيا ، أنا مؤمن بالارتوذكسية ... مؤمن بجسم المسيح ... مؤمن بأن ظهور المسيح ثانية سيتم فى روسيا ... مؤمن ... بذلك تتم شاتوف خارجا عن طوره •
قال ستافروجين ملحاً :

– وبالله ؟ بالله ؟

– بالله ... سوف ... سوف أوؤمن •

لم تختلج عضلة واحدة فى وجه ستافروجين • وكان شاتوف يتحداه بنظرته الحارة العنيفة • وهتف أخيراً يقول :

– أنا لم أزعم لك على كل حال أننى لا أوؤمن بالله • ولكننى أريد أن أفهمك اننى لست الا كتاباً حزينا مملاً ، لا أكثر من ذلك ، ولكن

مؤقتا فقط ، مؤقتا ! على كل حال ، فليهلك اسمي ! انما الامر أمرك أنت لا أمري أنا . أنا لا أملك أية موهبة ، ولا أستطيع أن أقدم الا دمي ، لا شيء غير ذلك ، كأي شخص عادى تافه . أنا أهب دمي . غير أنني أتكلم عنك أنت . لقد انتظرتك سنتين . ومن أجلك انما أرقص هنا منذ نصف ساعة عاريا كل العري . انك الانسان الوحيد ، نعم ، الوحيد الذي يستطيع أن يرفع هذه الراية

واقطع عن الكلام ، وأسند كوعيه الى المائدة ، وأخفى رأسه في يديه كمن اعتراه يأس شديد .

- انني ألاحظ ، وهذا أمر عجيب حقا ، أن الجميع يريدون أن يضعوا بين يدي لا أدري أية راية . بطرس فرخوفنسكي ، هو أيضا ، مقتنع بأنني أستطيع أن « أرفع رايته » . هذا ما نُمى الى على الاقل . في ذهنه أنني أستطيع أن أقوم بدور كدور ستجنكا رازين * ، بفضل ما أتمتع به من « قدرة خارقة على الجريمة » . تلك أقواله بنصها .
- كيف ؟ بفضل قدرتك الخارقة على الجريمة ؟

- نعم .

- هم ؟

كذلك همهم شاتوف . ثم سأل وهو يتسم ابتسامة خيثة :

- هل صحيح أنك انتسبت في بطرسبرج الى جمعية سرية كانت تسترسل في دعاة حيوانية ؟ هل صحيح أنك ربما كنت تتفوق على المركز دى ساد ؟ هل صحيح أنك كنت تجتذب الى بيتك الاطفال لتدسهم ؟
تكلم ! لا تكذب !

كذلك صاح شاتوف مهتاجا . وأردف يقول :

- ان يقولاي فيسيفلودوفتش ستافروجين لا يمكن أن يكذب أمام

شاتوف الذى صفعه على وجهه • قل كل شيء ، فاذا صدق هذا كله ، قتلتك على الفور ، فى الحال •

نطق ستافروجين بعد صمت طويل فقال :

- تكلمت عن هذه الاشياء • لكننى لم أدنّس أطفالاً •

واصفر وجهه ، والتمعت عيناه •

فتابع شاتوف كلامه ولكن دون أن يحوّل عنه نظرتة المشتعلة :

- لكنك تكلمت عن هذا ، أليس كذلك ؟ أفصحح أنك زعمت أنك

لا ترى أى فرق بين ذنابة شهوانية حيوانية وبين عمل عظيم كنضحية المراء بنفسه فى سبيل الانسانية ؟ أفصحح أنك تجد فى هذين الضدين لذة واحدة وأنتك تكتشف فيهما جمالا واحدا ؟

دمدم ستافروجين يقول ، وكان يمكنه أن ينهض وينصرف ، لكنه ظل جالسا ولم يميض ، دمدم يقول :

- تستحيل الاجابة عن أسئلة كهذه الاسئلة لا أريد أن أجيب •

تابع شاتوف كلامه يقول مرتعشاً ارتعاشا شديدا •

- أنا أيضا لا أدري لماذا أرى الشر دميما ، ولماذا أرى الخير جميلا ،

ولكننى أعلم كيف يمتّحى الاحساس بهذا الفرق ويزول لدى أمثال ستافروجين • هل تعرف لماذا تزوجت هذا الزوج السخيف الحقيير ؟ انك انما فعلت ذلك لان العار والسخافة تمضيان هنا الى حد البقرية ! لا ، انك لا تحوم حول ضفاف الهوة ، بل تلقى نفسك فيها بجسارة منكّس الرأس • انك قد تزوجت حباً بالألم ، وميلاً الى عذاب الضمير ، واحتياجا الى مباحج روحية • ان فى عملك هذا نوعا من القبط العصبى • ان تحديث هذا للحس العام قد أغراك اغراء لم تستطع مغالبته ومقاومته • ستافروجين والمتسولة العرجاء المسكينة التى هى نصف بلهاء ! حين عضضت أذن

الحاكم ، ألم تشعر باحساس لذيد ؟ ألم تعان ذلك الاحساس ، أيها
الارستقراطي العاطل الخالي ؟

قال ستافروجين وقد ازداد اصفرار وجهه شيئاً بعد شيء :
- انك عالم بالنفس الانسانية • ومع ذلك فقد أخطأت قليلا في شرح
أسباب زواجي

ثم أضاف يقول وهو يتسهم ابتسامة يُكره عليها نفسه اكراها :
- ولكن من ذا أمدك بهذه المعلومات ؟ أنراه كيريلوف ؟ غير
أنه لم يشارك

قال شاتوف :

- أبيض لونك ؟

فاذا بستاافروجين يرفع صوته فجأة فيقول :

- ولكن ماذا تريد أخيرا ؟ اننى هنا احتمل ضربات سوطك منذ
نصف ساعة ان فى وسعك على الاقل أن تدعنى أنصرف ، بلطف
وأدب ، اللهم الا أن يكون هناك دافع معقول يحضك على أن تعمد الى هذا
الاسلوب فى المعاملة •
- دافع معقول ؟

- حتما • ان من واجبك أن تشرح لى هدفك على الاقل • لقد
انتظرت أن تشرح لى هذا الهدف • لكننى لم أجد فيك الا غيظا مسعورا
وكرها شديدا • أرجوك ، افتح لى بوابة المنزل •
ونهض • فهجم عليه شاتوف بوحشية ، وصاح يقول له وهو يمسكه
من كتفه :

- قبّل الأرض * • روّها بدموعك • استغفرها •
قال ستافروجين خافض العينين ، بلهجة توشك أن يخالطها ألم :

- أنا لم أقتلك مع هذا ، فى ذلك اليوم ... بل عقدت ذراعى وراء
ظهري •

- أكمل كلامك ، قل ما يعجول فى خاطرك ويعتمل فى نفسك •
لقد جئت تنهينى الى خطر يحدق بى ، وتركتنى أتكلم ... وغدا تملن
زواجك ! ... ألا أرى فى وجهك أنك فريسة فكرة جديدة ، فكرة
رهية تقاومها ! ستافروجين ، لماذا حكم على أن أؤمن بك دائما ؟ هل
كان يمكننى أن أتكلم بهذه الطريقة مع انسان آخر ؟ اننى أشعر بجياه
من عواطفى ، ومع ذلك لم أخجل من عريى أمامك ، لأننى كنت أكلّم
ستافروجين • لم أخش أن أخجل فكرة عظيمة الى فكرة سخيّة بلمسها ،
وذلك لأن ستافروجين هو الذى كان يصفى الى ! ... ألن أقبل موطىء
أقدامك حين ستخرج ؟ اننى لا أستطيع أن أتزعك من قلبى يا نيقولاى
ستافروجين !

قال نيقولاى فيسبولودوفتش ببرود :

- أما أنا فيؤسفنى أننى لا أستطيع أن أحبك يا شاتوف •

- أعلم ذلك • أعلم أنك لا تكذب فى هذا الذى تقوله • اسمع :
ما يزال فى وسعى أن أدبّر كل شىء : سأمدك بالارنب •

لزم ستافروجين الصمت •

قال شاتوف :

- أنت ملحد ، لأنك ارستقراطى ، لأنك سيد • لقد أصبحت
لا تستطيع أن تميز الخير من الشر ، لأنك أصبحت لا تفهم شعبك ...
لكن جيلا جديدا يسير ، يخرج من قلب الشعب ، ولن تعرفه أبدا ،
لا أنت ولا أمثال فرخوفنسكى ، الأب أو ابنه ، ولا أنا ، لأننى أنا أيضا
سيد ، نعم أنا ، ابن قنك ، ابن خادمك باشكا * • اسمع ! توصل الى الله

بالعمل : هذا سر الامر كله • فان لم تفعل زلت كما تزول الطفليات •
توصل الى الله بالعمل • احصل على الله بالعمل !
- بالعمل ؟ أى عمل ؟

- بعمل الفلاح • امض • اترك ثرواتك ••• آه ••• انك تضحك ،
انك تخشى أن يستسخفك الناس ؟

ولكن ستافروجين لم يكن يضحك • وعاد يقول بعد لحظة تفكير
كأنما هو قد سمع قولاً جديداً هاما يستحق الدرس :

- أعتقد أن الحصول على الله ممكن بعمل الفلاح ؟

ثم أضاف يقول منتقلا الى موضوع آخر على حين فجأة :

- بالمناسبة : هل تعلم اننى لم أعد غنيا ، وأننى لا أملك ثروة كبيرة
فأهجرها ؟ اننى لا أكاد أملك ما يمكننى من تأمين مستقبل ماريا تيموفيتشنا
••• ولكن هأنذا أوشكت أن أسى ما جئت اليك من أجله : لقد جئت
إليك لأغراض منها أن أوصيك خيرا بماريا تيموفيتشنا وأن أسألك الاستمرار
فى العناية بها واليقظة عليها اذا أمكنك ذلك ، لأنك الشخص الوحيد الذى
له شيء من تأثير فى عقلها المسكين ••• أقول هذا احتياطا لكل طارئ •
قال شاتوف بلهجة من نفد صبره ، وهو ممسك شمعة :

- طيب طيب • سأفعل • طبعاً • اسمع • حاول أن تزور تيخون •
- من ؟

- تيخون • أسقف قديم أحيل الى التقاعد بسبب اعتلال صحته •
انه يقيم هنا فى دير القديس أوتيم •

- وعلام أزوره ؟

- هكذا • انه يستقبل كثيرا من الناس • اذهب اليه • ماذا يكلفك
الذهاب اليه ؟ اذهب اليه •

– لم أسمع عنه أبداً ، ولا رأيت في حياتي شخصا من هذا النوع من
الناس • أشكرك • سأذهب •

قال شاتوف وهو يضيء السلم :

– من هنا •

حتى اذا وصل الى تحت ، فتح بوابة المنزل •

دمدم ستافروجين يقول وهو يجتاز العتبة :

– لن أجيء اليك بعد الآن يا شاتوف •

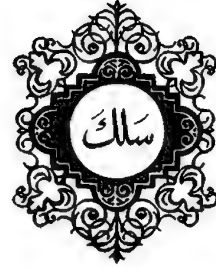
وكان الليل ما يزال حالكا ، وكانت السماء ما تزال ممطرة •

الفصل الثاني

الليل

تمه

١



شارع ايفانيا كله ، ثم هبط منحدرًا قويًا ،
فكانت قدماء تغوصان في الوحل • وفجأة لمح
أمامه مكانًا فسيحًا خاليًا لونه أشهب : انه النهر •
هنا لا عمارات بل أكواخ حقيرة تتعرج بينها

شوارع صغيرة وطرق مسدودة •

سار نيقولاى فيسيفولودوفتش بمحاذاة الأسيجة ولكن دون أن يتعد
عن الضفة • كان يبدو واثقًا من الطريق ، بل كان لا يلوح عليه أنه
يتنبه اليه أى انتباه • ان أفكاراً أخرى وهموماً أخرى تملأ رأسه وتشغل
باله • فما كان أشد دهشته حين نظر حواليه فرأى ، وقد خرج من تأمله
فجأة ، أنه فى وسط جسرنا الطويل المبتل المكوّن من مراكب • ما من
انسان فى ذلك المكان • ولذلك شدّه أكبر الشده حين سمع صوتاً يناديه
من قرب ، صوتاً أليفاً لطيفاً من تلك الأصوات المتعاذبة المترققة التى يصطنعها
الشبان الذين يعملون فى محالّ تجارية وقد جملّوا شعرهم بتجعيده •

- ألا تسمح لى يا سيدى أن أتتفع بمظلتك ؟

قال الشخص ذلك واندس فعلاً أو همَّ أن يندس تحت المظلة ،
وسار الى جانبه ملاصقاً بكوعه كوعه تقريباً . فأبطأ يقولاي فسيفولودوفتش
فى خطوه ومال على الرجل لينعم النظر اليه والتفرس فيه ، بقدر ما يسمح
له الظلام بذلك . انه متوسط طول القامة ، رث الثياب فيما يبدو ، أشبه
بعامل ثمل قليلاً . ان قبعة من الجوخ ، مزروعة الحافة الى النصف تقريباً ،
تغطى شعره القصير الأجعد الذى لا بد أنه أكحل اللون . وهو نحيل
أسمر الوجه ، ولا شك أن عينيه سوداوان جداً ، ساطعتان جداً ،
مصطبقتان بصفرة كأعين العجبر . ان المرء يحزر ذلك رغم الظلام الدامس .
ولعله فى الأربعين من العمر . ولم يكن سكران .

سأله يقولاي فسيفولودوفتش :

- أتعرفنى ؟

فأجاب الرجل :

- السيد ستافروجين ، يقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين . لقد
دُللت عليك ، يوم الأحد الأخير ، منذ وقف القطار . ثم اتنا قد سبق أن
سمعنا عنك .

- دَلَّكَ على بطرس ستيفانوفتش ؟ أأنت ... أأنت فدكا السجين ؟
- اسمنا الذى سمُّونا به فى التعميد هو فيدور فيدوروفتش* وما تزال
أمنّا حية ، تقيم فى هذه المنطقة . عجوز طيبة من خلق الله ، لن تلبث أن
توارى التراب ، وهى ما تنفك تصلى لله من أجلنا فى الليل والنهار ، حتى
تكون شيخوختها نافعة .

- وقد فررت من السجن ؟

- أى ... غيرت مهنتى فى الحياة ... فتخلصت من انقاهم كلها .
ذلك اننى كنت محكوماً على بالسجن الى آخر الحياة . رأيت المدة طويلة
مسرقة فى الطول .

- ماذا تصنع هنا ؟

- لا شيء يستحق الذكر • الأيام تنقضي سريعة • مات عمنا هنا في الأسبوع الأخير بالسجن • للأمر علاقة بتزييف نقود • فأحييت ذكراه بأن رميت الكلاب ببضع عشرات من الحجارة • ذلك كل ما فعلناه حتى الآن • لكن بطرس ستيفانوفتش قد وعدني بأن أحصل على جواز سفر ، بل على جواز سفر تاجر ، كيما أستطيع أن أتجول في روسيا كلها • فأنا انتظر أن يمنَّ عليَّ بتحقيق وعده • هو يقول : « ان أبى قد ضاع منك ثلاثة روبلات أثناء لعبك بالورق بالنادى الانجليزى ، وأنا أرى هذا عملاً ظالماً ، عملاً غير انساني » * هلاً تفضلت يا سيدى فأعطينى ثلاثة روبلات فأشرب كأساً فأتدفاً •

- اذن كنت تترقب مرورى ! أنا لا أحب هذا من أمرك به ؟

- لم يأمرنى أحد • لكننى أعرف عواطفك الطيبة • جميع الناس يتكلمون عن ذلك • أنت نفسك تعرف ما مواردنا نحن : حزمة علف أو ضربة شوكة في الكتيتين • يوم الجمعة أكلت فطائر حتى أتخمت ، وبعد ذلك بقيت يوماً بغير طعام ، وفي اليوم التالى انتظرت ، وفي اليوم الثالث شددت على بطنى الحزام • غير أن النهر فيه ماء كثير ، لذلك أربسى أسماكاً هذا كل شيء ! أملئ كله معقود اذن عليك • عرابتى تنتظرنى هنا • ولكن لا فائدة من المثل أمامها بغير شيء من المال •

- بماذا وعدك بطرس ستيفانوفتش منى ؟

- الحق أنه لم يعدنى بشيء ، لكنه قال لى مصادفة اننى قد أستطيع أن أنفع سيادتك ، اذا واثت الظروف • أما عن هذه الظروف فانه لم يتحدث حديثاً واضحاً • ان بطرس ستيفانوفتش يريد أن يستحق صبرى • انه لا يولبنى أية ثقة •



فدكا (السجين الهارب)

— لماذا ؟

— بطرس ستيفانوفتش منجم • يعرف جميع كواكب ربنا • ومع ذلك فانه هو أيضاً غير خالٍ من العيوب • أنا هنا أمامك كأننى أمام العلى الأعلى ، لأن سمعتك تجرى فى السوارع • ان بطرس ستيفانوفتش هو بطرس ستيفانوفتش ، أما أنت يا سيدى ففى رأى أنك شئ آخر • هو ، اذا قال عن شخص انه وعد ، فقد قال كل شئ ، ولا يجب أن يعرف شيئاً آخر عنه • واذا قال عن شخص انه أبله فقد انتهى الأمر ، فليس هذا الشخص فى نظره الا أبله • على حين ان من الممكن ، فيما يتعلق بى أنا ، أن أكون فى أيام الثلاثاء وأيام الأربعاء أبله ، ثم أكون فى أيام الخميس ذكياً ، بل أن أكون أذكى منه • هو يعلم الآن اننى أحترق رغبةً فى الحصول على جواز سفر — لأن المرء فى روسيا لا يستطيع أن يسير خطوة بغير جواز سفر — لذلك فهو يتخيل أنه وضع يده على روحى • أقول لك يا سيدى انه من السهل عليه جداً أن يعيش فى هذا العالم ، لأنه يرى الناس على نحو ما يتخيلهم ، فين أولئك الناس الذين تخيلهم تخيلاً انما يعيش • ثم انه يخيل بخللاً فاحشاً هو يتصور أننى لن أجرو أن أتعرض لك فأزعجك هذا الازعاج الا باذن منه • ولكننى أقول لك صادقاً كمن يقول لله نفسه : هذه هى الليلة الرابعة التى انتظر فى هذا الجسر ، لأبرهن على أننى أستطيع الاستغناء عنه ، وأن أجد طريقى وحدى • قلت لنفسى : لأن أنحنى أمام الحذاء الجديد خير من أن أنحنى أمام الخف المهترى •

— فمن قال لك اننى سأعبر الجسر ليلاً ؟

— اعترف اننى عرفت هذا مصادفةً ، أو قل بفضل غباوة الكابتن ليادكين ، ذلك أنه عاجز اطلاقاً عن كتمان سر • والروبلاات الثلاثة التى أطلبها انما هى أجر انتظارى هنا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ، انما هى ثواب

ما تحملت من غناء • أما ثيابي المبتلة فلن تتكلم عنها حتى لا أسيء اليك •
- أنتجه أنا يسرةً ، وتتجه أنت يمنة • هنا نحن قد بلغنا آخر
الجسر • اسمع يا فيدور ، اننى أحب أن أفهم منذ الكلمة الأولى مرةً الى
الأبد : لن تتال منى كوبكاً واحداً • ولست فى حاجة اليك ، ولن أكون
فى حاجة اليك يوماً ؟ ولا تعترض طريقى ، لا على هذا الجسر ولا فى أى
مكان آخر • فإذا عصيت أمرى هذا أو ثقتك ، وقدتك الى الشرطة •
- ولكن عليك أن تعطينى شيئاً ، على الأقل لأتنى رافقتك • ان
صحبة الطريق أمتع رغم كل شئ •••

- امض !

- ولكن هل تعرف الطريق ؟ هنا شوارع صغيرة !••• فى وسمى
أن أكون دليلاً لك • ذلك أن هذه المدينة تشبه أن يكون الشيطان قد
حملها فى سلة مثقوبة ، فتناثرت على الدرب تناثراً هنا وهناك •••
- حذار !

- لاحظ يا سيدى اننى يتيم لا يملك ما يدافع به عن نفسه •
- بل أنت واثق بنفسك ثقة كبيرة •
- لا ياسيدى ، لست واثقاً بنفسى الى هذه الدرجة • انما أنا واثق
بك أنت •

- قلت لك اننى لست فى حاجة اليك •
- ولكننى أنا فى حاجة اليك • هذه هى المسألة • سأنتظرك فى
عودتك ، مهما يحدث !•••

- يميناً لأوثقتك اذا وجدتتك هنا •
- اذن سأمضى أهىء لك حبلاً توثقنى به • أتمنى لك رحلة موفقة
يا سيدى ، فقد ارتضيت على الأقل أن تحمى من المطر بمظلتك يتيماً

مسكيناً • وحسبى هذا حتى أظل شاكراً لك صنيعك الى أن أوارى
فى القبر •

قال الرجل هذا وغاب فى الظلام • وتابع نيقولاى فسيفولودوفتش
طريقه مهموماً أشد الهم • ان هذا المخلوق الذى هبط عليه من السماء
مقتنع اقتناعاً تاماً بأن نيقولاى محتاج اليه ، وأنه لن يستطيع الاستغناء
عنه ، حتى لقد أعلن له ذلك بغير حياء • ولكن من الجائز أيضاً أن يكون
هذا المتشرد كاذب ، وأنه عرض عليه خدماته بمبادرة منه هو ، بدون علم
بطرس ستيفانوفتش • فاذا صحَّ هذا فان وضعه يكون أدعى الى مزيد
من الاستغراب •

ان البيت الذى كان نيقولاى فسيفولودوفتشس ذاهباً اليه يقع فى آخر طرف المدينة ، فى طريق مسدودة مقفلة بين سياجين تمتد وراءهما بساتين خضار • انه بيت صغير منعزل خشبى قد بُنى منذ برهة وجيزة ، فجدرانها المكوّنة من حطبات مدوّرة لم تُكسّ بعدُ بالواح •

لقد ترك مصراعا احدى النوافذ مفتوحاً عن عمد ، وأشعلت فى الداخل شمعة قُصد منها أن تكون منارة يستهديها الزائر المتأخر المنتظر قدومه فى تلك الليلة •

وكان ستافروجين ما يزال على مسافة نحو ثلاثين خطوة من المسكن الصغير حين لاح له على درجات المدخل رجل طويل القامة ، لعله رب البيت يرتقب وصول الزائر •

قال الرجل بصوت يدل على نفاد الصبر وعلى الحشية معاً :
- أهذا أنت ؟

فأجابه نيقولاى فسيفولودوفتشس حين وصل الى درجات المدخل وطوى مظلته :

- نعم ، أنا !

فقال الكابتن ليادكين (فهو الذى كان ينتظر على الباب) :
- أخيراً !

ثم أضاف يقول بصوت فرح متعجل :

- هات المظلة ، من فضلك ! يا له من جو فظيع ! سأفتح المظلة هنا
في ركن • ادخل ، أرجوك ، ادخل ! • • • • •

وكان باب الغرفة التي تضيئها شمعتان مفتوحاً على مداه كله •
قال ليادكين :

- لولا أنك وعدتني وعداً قاطعاً بأن تزورنا اليوم لكففت عن
انتظارك •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش وهو ينظر فى ساعته :
- هى الساعة الواحدة الا ربماً •

ودخل الغرفة • قال ليادكين :

- وفوق ذلك ، هذا المطر الفزير ! والمسافة بعيدة جداً • ليس
عندى ساعة • ولستأ نرى من نوافذنا الا مزارع الخضار هذه • • • • • فلا نعلم
بما يحدث ولا نعرف ماذا يجرى • لا أقول هذا من باب التشكى ، فأنا
لا أبيع لنفسى ، لا أبيع لنفسى • • • • • ولكننى أقوله لسبب واحد هو أن نفاد
الصبر يأكلنى أكلاً منذ أسبوع كامل • • • • • أريد أخيراً أن أعرف • • • • •
- ماذا تريد أن تعرف ؟

- أريد أن أعرف مصرى يا نيقولاى فسيفولودوفتش ، اجلس ،
أرجوك •

قال ليادكين ذلك وانحنى أمام زائره مشيراً له الى مكان على الديوان
وراء المائدة •

نظر نيقولاى فسيفولودوفتش حوالبه • الغرفة صغيرة واطىء
سقفها ، لا تضم من الأثاث الا ما لاغنى عنه : ديواناً وكراسى من خشب
عارى بغير وسائد ، ومائدتين من خشب الزيزفون قد وُضعت احدهما أمام
الكنبة ووُضعت الأخرى فى ركن • وهذه المائدة الأخيرة تتراكم فوقها

أشياء شتى قد غُطِّيت بمنشفة نظيفة • ثم ان الغرفة كلها تبدو معتنى بها •
ان الكابتن ليادكين لم يسكر منذ ثمانية أيام • وقد اصطبغ وجهه المحققن
بلون ضارب الى الصفرة • وهو يلقي على ستافروجين نظرات مستطلعة
قلقة حيرى ، وكان واضحاً أنه لا يدري باى لهجة يتكلم ولا يعرف
ما هو الوضع الذى يمكن أن يفيد أكثر من غيره •

قال وهو يشير الى الأشياء التى تحيط به :

— هكذا أعيش كما يعيش زوسيماس* • زهد ، وعزلة ، وفقر ، وفق
الأمنيات الثلاث التى كان يتغنى بها الفرسان القدامى •

— هل تعتقد أن الفرسان القدامى كانوا يتغنون بأمنيات من هذا
النوع ؟

— لعل الأمور قد اختلطت على • واحزنناه ! انتى امرؤ تموزة
الثقافة • لقد أفسدت على نفسى كل شئ • هل تصدق يا نيقولاى
فسيفولودوفتش ؟ هنا انما تخلصت لأول مرة من أهوائى المشينة وعيوبى
المخجلة ! لا كأس ، بل ولا قطرة ! أخيراً صار لى ركن ، وأصبحت منذ
سنة أيام أحس بالأفراح والمباهج التى يحس بها قلب نقى طاهر • الجدران
نفسها يفوح منها شذى أشجار الصنوبر وتذكرنى بالطبيعة • ماذا كنت
حتى الآن ؟ ماذا كان وضعى ؟

فى الليل بلا ماوى أعدو

ولسانى متدل طول النهار*

على حد التعبير العبرى الذى جرى به لسان الشاعر •• ولكن
ولكنك مبتل تماماً ••• ألا تريد فنجاناً من الشاى ؟
— لا تزعج نفسك •

.. كان السماور يغلى ماؤه منذ ثمانى ساعات ••• ولكنه انطفأ •••

كجميع الأشياء فى هذا العالم • يقال ان الشمس ستطفىء هى أيضاً ذات يوم •• على كل حال ، سأدبّر الأمر اذا لزم • ان آجافيا لم تم •

- قل لى : هل ماريا تيموفيتشنا •••

فأسرع ليادكين يحييه بصوت خافت :

- هى هنا • هى هنا • هل تريد أن تلقى نظرة ؟

وأشار الى الباب المغلق الذى يؤدى الى الغرفة المجاورة •

- أهى نائمة ؟

- لا ، لا ، ما هذا الذى تقول ؟ انها تنتظر منذ غروب الشمس •

وهى منذ علمت بالنبا عُنيت بزيرتها واهتمت بمظهرها •

وهمّ ليادكين أن يتسم ، ولكنه أمسك •

سأله ستافروجين مقطّباً حاجبيه :

- كيف حالها على وجه الاجمال ؟

- على وجه الاجمال ؟ تعرف أنت نفسك •••

ورفع منكبيه واصطنع مظهر من اعترته شفقة ، وأضاف :

- هى الآن تسحب أوراقاً من أوراق اللعب •••

- طيب سوف نرى هذا فيما بعد • يجب أولاً أن نفرغ منك أنت •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش ذلك وجلس على كرسى •

ولم يجرؤ الكابتن أن يجلس على الديوان فجلس على كرسى آخر وانحنى الى أمام ليحسن الاصغاء ، قلقاً مهتماً أشد الاهتمام بما سيقوله به نيقولاى فسيفولودوفتش ••

قال نيقولاى فسيفولودوفتش وهو يلقي نظرة على المائدة :

- ماذا يوجد هناك تحت المنشفة ؟

فالتفت ليادكين الى وراء بحركة قوية وقال :

- هذا ؟ هذا كله من خيراتك وهباتك • للاحتفال باقامتنا هنا • ثم
اننى قدّرت أن الطريق طويل وأنتك ستصل منهك القوة حتماً ...
قال ذلك وهو يتسّم متحنّناً مترفقاً • ثم نهض واتجه نحو المائدة
سائراً على رموس الأصابع ورفع المنشفة باحترام واحتياط • كان على المائدة
عشاء بارد كامل : شرائح من لحم الخنزير ، ومن لحم العجل ، وأسماك
سردين ، وجبن ، وابريق أخضر ، وقينة طويلة العنق لا شك أنها من
خمرة بوردو • وكان ذلك كله حسن التنسيق يدل على أن يدأ صناعاً
خبرة قد أعدّته •

- أأنت الذى هيات هذا كله ؟

- بنفسى • كان كل شيء جاهزاً منذ أمس • أردت أن أحتفى بك •
أنت تعلم أن ماريا تيموفيتشنا لا تكثر بهذه الأمور • ولكن الشيء الرئيسى
هو أنتى نلت ذلك كله من فضلك وكرمك • ذلك كله منك أنت • أنت
هنا رب الدار ، أما أنا فليست على وجه الاجمال الا أجيأ لك بمعنى من
المعاني ، ذلك أنتى نيقولاى فسيفولودوفتشس احتفظ باستقلالى الروحى
رغم كل شيء ، رغم كل شيء • فلا تحرمنى من هذه النعمة الأخيرة !
كذلك ختم الكابتن ليادكين كلامه متحسناً •
قال ستافروجين :

- هم ... ولكن هلاًّ عدت تجلس ! ..

- اننى أحمل لك أعظم الامتان ، ولكننى احتفظ باستقلالى !

وعاد يجلس متابعاً كلامه بقوله :

- آه يا نيقولاى فسيفولودوفتشس ! ما أكثر الأشياء التى تراكت
فى هذا القلب ! ... لقد أُرهِقت من انتظارك • سوف تقرر الآن مصيرى
ومصير ... هذه المسكينة الشقية ، ثم بعد ذلك ... بعد ذلك ... كما

كنت أفعل فى الماضى ، سأسكب أمامك كل ما يفيض به قلبى ، كما كنت أفعل منذ أربع سنين • ذلك أنتى كنت تتنازل فترضى أن تصنى الى حينذاك ، وكنت تقرأ أشعارى ماذا يهمنى أنتى لُقِّبت بلقب فالستاف ! لقد لعبت فى حياتى دوراً كبيراً ! وأنا أشعر اليوم بمخاوف كبيرة ، ومنك وحدك انما أنتظر الغوث والنجدة ، لأنك أنت ضيائى • ان بطرس ستيفانوفتش يعاملنى بقسوة بالغة •

كان نيقولاى فسيفولودوفتش يصفى اليه باهتمام ، محدقاً اليه بنظرة ثابتة منتبهة ورغم أن الكابتن كان قد انقطع عن السكر ، فانه لم يكن قد استرد استجمامه النفسى وتوازنه الروحى • ان المدمنين على الشراب ينتهى بهم الأمر فى العادة الى أن يصبحوا لا يستطيعون الخروج من حالة الاضطراب والتشوش التى تتأخم الجنون ، ولكنها لا تمنعهم من أن يخذعوا ويفشوا ويضللوا ويمكروا كغيرهم سواء بسواء ، اذا اقتضى الحال •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش بلهجة أصبحت أرق :

– أرى يا كابتن أنك لم تتغير أى تغير منذ أربع سنين • صدق الذين زعموا اذن أن النصف الثانى من عمر الانسان انما تحدده العادات التى يكون قد اكتسبها خلال النصف الأول •

هتف الكابتن يقول بحماسة كلها تظاهر ، لأنه كان من المولعين بالعبارات الجميلة :

– أقوال رائعة ! حلّ لغزُ الحياة ! من أحاديثك كلها يا نيقولاى فسيفولودوفتش ما أزال أحتفظ خاصةً بتلك الجملة التى نطقت بها فى بطرسبرج : « لا بد أن يكون الانسان عظيماً كل العظمة حقاً حتى يستطيع أن يقاوم العقل » •

– أو أن يكون أحمق كل الحماقة •

- ممكن ، اذا شئت • انك لم تتقطع يوماً عن ثر مثل هذه
الومضات الفكرية الحلوة ، أما هم ••• فليحاول ليوتين أو بطرس
ستيفانوفتش معي !

- ولكن كيف كان سلوكك أنت يا كابتن ؟
- كان الذنب فى ذلك ذنب السكر وكثرة الأعداء • أما الآن فقد
اتهى هذا كله ، وسوف أُغَيَّر نفسى كما تغير الحية جلدها • هل تعلم
يا نيقولاى فسيفلودوفتش أنتى أكذب وصيتى ، بل انتى كبتها ؟

- هذا شائق جداً • ماذا تورث ، ومن تورث ؟
- أورث وطنى ، أورث الانسانية ، أورث الطلبة • نيقولاى
فسيفلودوفتش ، لقد قرأت فى الصحف قصة حياة أمريكى • لقد أوصى
بثروته لطلبة الأكاديمية بالمنطقة ، وأوصى بأن يجعل جلده طبعاً يُقرع
عليه النشيد الأمريكى ليلاً نهاراً • وا أسفاه ! ما نحن الا أقزام معتوهون
بالقياس الى الأمريكىين ، وبالقياس الى جسادة تفكيرهم • ان روسيا طيبة
لا فكر • فلو حاولت أن أوصى بجلدى ليُصنع منه طبلٌ يُهدى الى جيش
أخمولنسك*الذى شرفت بالخدمة فيه أول أمرى، من أجل أن يُعرف عليه
النشيد الوطنى الروسى أمام الجنود مجتمعين ، لاثُهمت بالبرالية ، ولصودر
جلدى ••• لذلك اكتفيت بأن أورث الطلبة • أريد أن أوصى
بعظامى لأكاديمية العلوم ، ولكن على شرط أن يلصق فوق جمجمتى ورقة
تكتب عليها هذه العبارة : « جمجمة ملحد تاب وأناب » •

كان الكابتن قد اتعش وتحمس • ان فكرة المليونير الأمريكى قد
بثت فيه حماسة صادقة • ولكن لما كان من جهة أخرى ماكرأ فقد أراد
كذلك أن يضحك ستافروجين الذى طالما قام لديه بدور المهرج • غير أن

يقولاي فسيفولودوفتش لم يتسسم • بالعكس : ها هو ذا يسأل مشتبهاً
مرتاباً :

- أتتوى اذن أن تنشر وصيتك أثناء حياتك فتتال مكافأة ؟

- هب هذا يا يقولاي فسيفولودوفتش ! ماذا لو كانت هذه هي
نتي فعلاً ؟

كذلك سأل لبيادكين متروياً محاذراً ، وأضاف يقول :

- انظر الى أين وصلت الآن ! لقد انقطعت حتى عن نظم الشعر •
وكنت أنت مع ذلك تجد متعة في قراءة قصائدي الصغيرة يا يقولاي
فسيفولودوفتش بينما أنت تُفرغ زجاجة من خمرة طيبة ••• هل تتذكر ؟
لكنني هجرت قلمي • لم أكتب بعد ذلك الا قصيدة واحدة ، شيئاً من
نوع « القصة الأخيرة » التي كتبها جوجول وفيها يعلن لروسيا أنه قد انتزع
هذا العمل من صدره * أنا أيضاً نظمت أغنيتي الأخيرة • انتهى !

- ما هذه القصيدة ؟

- عنوانها : « اذا كُسرت ساقها » •

- كيف ؟

لم يكن الكاتب ينتظر الا أن يلقي عليه هذا السؤال • كان يقدر
أشعاره قدراً كبيراً • لكنه بحكم ازدواج نفسه كان يسعدده كذلك أن
يُضحك ستافروجين الذي كان في الماضي يضحك الى حد التلوى
والتعقف أثناء الاستماع اليه • فبذلك كان الشاعر والمهرج يجدان كلاهما
ضالتهما • على أن الكاتب كان في هذه المرة يرمى الى هدف آخر أيضاً ،
هدف دقيق حرج : كان يريد من انشاد أشعاره أن يبرىء نفسه في أمر
كان يخشاه كثيراً ، وكان يشعر فيه بأنه مذنب آثم •

- « اذا كُسرت ساقها » ، أى أثناء ركوبها الحبل • ما هذا الا نزوة

خيال يا نيقولاى فسيفولودوفتشى ، ما هو الا حلم ، لكنه حلم شاعر : فى ذات يوم ، صادفت فى الشارع سيدة تلبس ثوب الآمازون الذى تلبسه الفارسات ، فخطف منظرها بصرى ، فألقيت على نفسى عندئذ هذا السؤال : « ماذا يحدث اذا . . . » أى اذا . . . ان الجواب واضح . ستراجع جميع المجنين ، جميع المولَّهين بها ، الطامحين اليها . . . صباح الخير ، مساء الخير . ولا يبقى الا الشاعر المحطم قلبه ، . يا نيقولاى فسيفولودوفتشى ، ان الحب مباح ، حتى لأحقر حقير ، حتى لقمل . . . ما من قانون يستطيع أن يمنع ذكر القمل أن يحب . ومع ذلك انزعجت السيدة من رسالتى وأشعارى ؟ ويظهر أنك أنت أيضا قد غضبت . فاذا صدق هذا فهو أمر مؤسف جدا . حتى لقد رفضتُ أن أصدقه . من ذا الذى يمكن أن تلحق به أخيلتى أذى ؟ ثم اننى أحلف لك أن الذنب فى هذا ذنب ليوتين : لقد ظل يلح على قائل : « أكتب اليها ، اكتب اليها ؟ كل انسان يحق له أن يكتب رسائل . . » وهكذا أرسلت اليها أشعارى .

— بل أعتقد أنك طمحت الى تزوجها ، أليس هذا صحيحا ؟

— هذه تخرصات أعدائى . اننى محاط بأعداء لا حصر لهم .

قاطعته ستافروجين قائلاً بخشونة :

— اقرأ أشعارك .

فقال ليادكين :

— ما هى الا حلم ، الا نزوة خيال ، لا أكثر من ذلك . . .

ومع ذلك نصب جذعه ، ورفع يده ، وأخذ ينشد :

حلوۃ الحلوات فقلت ساقا

فاذا هى أحلى مرتين

واذا الكلى كان يحبها كثيرا

أصبح مولها بها ضعفين .

قال ستافروجين وهو يحرك يده بإشارة نفاد الصبر :

— كفى !

فاذا بالكاتبين ليادكين يقفز فوراً الى موضوع آخر ، كأن الحديث لم يكن عن أشعاره أبداً ، فيقول :

— اننى لا أنقطع عن الحلم بطرسبرج • اننى أتطلع الى بعث نفسى •
أيها المحسن الىّ ، هل يمكننى أن أؤمل أن لا تضن علىّ بما أحتاج اليه
للقيام بهذه الرحلة الى بطرسبرج ؟ لقد انتظرتك طوال هذا الاسبوع ، كما
تُنتظر الشمس •

— لا ، لا ، لا تعوّل على هذا • لم يكد يبقّى معى شيء من مال ؟ ثم
علام أعطيك مالا ؟

كذلك قال ستافروجين وقد ثار حنقه فجأة •

وأخذ يعدّد جميع الأخطاء التى ارتكبها الكاتبين : أكاذيبه ، ادمانه
على السكر ، تبديده المال الموقوف على ماريّا تيموفيتنا التى أُخرجت من
الدير ، الرسائل الوقحة ، التهديدات بالكشف عن أمر الزواج ، الشائعات
الكاذبة عن داريا بافلوفنا ، الخ • فكان الكاتبين يضطرب على كرسيه ،
ويجربى حركات واشارات عريضة ، ويحاول أن يحتج ، ولكن نيقولاى
فسيفلودوفتش ستافروجين كان يوقفه بشدة وصرامة • وقال له أخيراً :
— انك تتكلم طول الوقت عن « عار لحق بأسرتك » • فأى عار
يلحق بك اذا كانت أختك هى زوجة ستافروجين الشرعية ؟

قال ليادكين :

— ولكن الزواج بقى مكتوماً يا نيقولاى فسيفلودوفتش ، بقى
مكتوماً • هذا سر محتوم • اننى أتلقى منك مالا فأسأل : « لماذا يبعث
اليك هذا المال ؟ » • وأنا متقيد بما عاهدت عليه ، فلا أستطيع أن أجيب ،
وبذلك أسىء الى أختى ، وأسىء الى شرف الأسرة •

كان الكاتب قد أعلى صوته • ذلك موضوع كان يؤثر فيه تأثيرا
خاصا ، وكان هو يموّل على استغلاله لتحقيق مصلحته • لم يوجس
المسكين ما كان ينتظره • وها هو ذا يقولاي فيفولودوفتش ينشه بلهجة
هادئة ، كأنه يسوّى مسألة منزلية ، بأنه سوف يذيع على الملأ فى خلال
الايام القليلة القادمة ، وربما غداً أو بعد غد ، بأ زواجه ، وأنه • سيُعلم
به الشرطة والمجتمع • ، وأن قصة « العار الذى لحق بالأسرة » ستسوّى
حينذاك ، وكذلك مسألة المساعدات •

حملك الكاتب بعينه • حتى انه لم يفهم ، فاضطر ستافروجين أن
يمده بايضاحات دقيقة •

قال ليادكين :

- ولكنها ••• نصف مجنونة •••
- سأدبر أمورى وأتخذ اجراءاتى •
- ولكن ••• ما عسى تقول أملك ؟
- تقول ما تشاء !
- ولكن سيكون عليك أن تدخل زوجتك الى منزلك •••
- ربما • على كل حال ، هذا ليس شأنك ، ولا علاقة لك به البتة !
- صاح الكاتب يقول :
- كيف ؟ وأنا ماذا أصير فى هذه الحالة ؟
- لن تدخل بيتى طبعاً •
- لكننى أخوها •
- الاخوة الذين يكونون مثلك يُبعدون • اقض فى الامر أنت
نفسك : لماذا ينبغى لى أن أعطيك مالاّ اذا أذعت زواجى فى الملأ ؟
- يقولاي فيفولودوفتش ، يقولاي فيفولودوفتش ! هذا غير

ممکن ! فکر مزیداً من التفكير ! انك لن تريد أن تضيع نفسك ...
ما عسى يظن الناس فيك ؟ ما عسى يقولون عنك ؟

- يستوى عندي كل شيء . لقد تزوجت حين استبدت بي هذه
النزوة من نزوات الخيال بعد عشاء كثرت خموره ، من أجل أن أربح
بضع زجاجات من الخمرة راهنوا عليها ضدى ... والآن سوف أعلن
هذا الزواج اذا كان ذلك يسلينى ويضحكنى .

قدف ستافروجين هذه الجملة الأخيرة بلهجة حائقة حقاً شديداً
روّع الكابتن فجعل يأخذ كلامه مأخذ الجد .

- ولكن أنا ؟ ماذا أصير أنا فى هذه الحالة ؟ ... ذلك هو السؤال
الأساسى ! ... أتركك تمزح يا نيقولاى فسيفولودوفتش ؟
- لا ، لا أمزح .

- قل ما تشاء يا نيقولاى فسيفولودوفتش . اننى لا أصدقك ...
سأتجه الى المحاكم .

قال ستافروجين :

- أنت غبى غباءً خارقاً يا كابتن .

فدمدم لياديين يقول :

- جائز . ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذى بقى لى أن أفعله . فى
الماضى ، حين كانت تعمل للناس ببطرسبرج ، كنت ما أزال أستطيع أن
أجد لى مأوى هنا أو هناك . ولكن ما الذى أصير اليه اذا أنت تركتنى ؟

- كنت أظن أنك ذاهب الى بطرسبرج لتغير طراز حياتك .
بالمناسبة : لقد سمعت أنك تستعد للوشاية بجميع الآخرين ، أملاً فى
الحصول على عفوى عنك . هل هذا صحيح ؟

لبث الكاتبين فاغر الفم محملق العينين •
فبدأ ستافروجين يتكلم بجذ ورصانة ووقار ، مائلاً على ضيفه ،
قائلاً له :

— اسمعنى يا كاتبين •••

كان ستافروجين قد تكلم حتى ذلك الحين بطريقة ملتبسة بحيث أن
ليادكين الذى اعتاد أن يمثل دور المهرج كان ما يزال يراوده شيء قليل
من شك ، فكان يتساءل : ترى هل مولاه غاضب منه حقاً أم هو يضحك
عليه ؟ أهو يفكر فى اذاعة نبأ زواجه على الملأ فعلاً أم أنه يسخر منه
ويتسلى به ؟ غير أن ما اتخذه وجه نيقولاى فيسيفولودوفتش من قسوة
وجهاة قد ذهب بآخر شك عند ليادكين فيما يظهر ، فسرت فى ظهر
الكاتبين قشعريرة باردة •

تابع ستافروجين كلامه يقول :

— اسمعنى يا كاتبين جيداً وقل لى الحقيقة كلها : هل وشيت بالآخرين
أم أنت لم تش بهم ؟ أشرعت فى شيء أم لا ؟ ألم ترتكب حماقة فترسل
رسالة ما ؟

— لا ، لم أفعل بعد ••• بل اننى لم يخطر هذا ببالى أبدا •

بذلك أجاب ليادكين ثابت النظرة •

قال له ستافروجين :

— أنت تكذب • ان ذلك يخطر ببالك • انك تفكر فيه • بل ان
الغاية الوحيدة التى تستهدفها من السفر الى بطرسبرج هى هذا الامر •
اذا كنت لم تكتب بعد ، أفلم تثرثر على الاقل ؟ قل الحقيقة : لقد سمعت
أشياء عن هذا !

تتم الكاتبين المسكين يقول :

- قلت بضع كلمات لليوتين وأنا سكران • ان ليوتين خائن • لقد فتحت له قلبي •

- ليست المسألة مسألة قلبك ، وانما المسألة أن لا يكون المرء غيباً أحق • اذا كانت هذه الفكرة قد خطرت ببالك فلقد كان ينبغي لك على الأقل أن تحتفظ بها لنفسك سرّاً مكتوما لا تفضي به الى أحد • الأذكيا يعلمون اليوم أن الصمت خير من الكلام •

صاح الكابتن يقول مرتعشاً :

- نيقولاى فيسغولودوفتش ، ولكنك أنت لم تشارك فى شيء ، ولست أنت من وشيت به

- طبعاً ، لم يخطر ببالك فى يوم من الأيام أن تشي بقرتك الحلوب!

- نيقولا فيسغولودوفتش ، أترك لك أن تقضى فى الأمر بنفسك ، أن تقضى فى الامر بنفسك !

قال ليادكين ذلك وهو يبكى يائساً ، وطفق يروى بصوت لاهت قصة حياته خلال هذه السنين الأربع الاخيرة • انها قصة بلهاء لرجل أحق ، أقحم نفسه فى قضية لا شأن له بها البتة ، وظل الى آخر لحظة لا يفهم خطورة هذه القضية ، لانشفاله بالسكر والقصف واللهو •

روى ليادكين أنه حين كان لا يزال ببطرسبرج قد انجرف فى بداية الامر من باب الصداقة ، « من حيث هو طالب مع أنه لم يكن طالباً » ، فأخذ - وهو لا يدري ماذا يفعل - يرمى نشرات تحريضية فى سلالم المنازل ، ويدس منها عشرات تحت الابواب وفى صناديق البريد ، ويحمل منها الى المسرح فيضعها فى قبعات المشاهدين وجيوبهم • وصار فى النهاية يقبل أن يتقاضى مالا « فأنت تعرف مواردى ، تعرفها ، أليس كذلك ؟ » • ثم وزّع أنواعا شتى من المنشورات فى ولايتين • « آه يا نيقولاى

فسيفولودوفتش ، ان ما كان يثيرنى أكثر من كل ما عداه هو أن ذلك
جميعه كان مخالفا للقوانين المدنية مخالفة مطلقة ، ولا سيما لقوانين
الوطن ! ، كذلك صاح يقول الكاتب ، وأضاف شارحا : « من ذلك مثلاً
قولهم ان على الفلاحين أن يتسلحوا بفتوسهم ، فاذا الذين يخرجون فى
الصباح فقراء ، يمودون فى المساء أغنياء . فكّر فى هذا الكلام ! لقد
كنت أرتعش هولاً ، ومع ذلك استمرت فى توزيع هذه الاوراق ! أو
ربما كان المشور* نداءً يتألف من خمسة أسطر أو ستة ، موجهاً الى
روسيا كلها : « أغلقوا الكنائس بأقصى سرعة ، أعدموا الله ، الفوا الزواج ،
أزيلوا الارث ، تسلحوا بسكاكين ! » وأشياء من هذا النوع لا يعلم بها الا
الشیطان ! ... وحين كنت أوزّع هذه الورقة انما أوشكت ذات مرة أن
أُعتقل . ولكن ضربنى الضباط فى الكتفة ضرباً مبرحاً ، ثم أطلقوا سراحي
... بارك الله فى كرمهم وسماحتهم ! ثم ، فى السنة الاخيرة ، كدت أن
يُقبض علىّ حين أعطيت كارافايف ورقة بخمسين روبلاً من صنع فرنسا .
ولكن أحمد الله على أن كارافايف الذى كان سكران قد غرق فى غدير
فخرجت أنا من المأزق . وهنا ، عند فرجنسكى ، ناديت بحق المرأة فى
الحب . وفى شهر حزيران (يونيه) طفقت أوزع نشرات فى مقاطعة س
... من جديد . ويبدو أنهم يريدون اجبارى على الاستمرار فى القيام
بهذا العمل . لقد أبلغنى بطرس ستيفانوفتش أن علىّ أن أطيع : انه
يهددنى منذ مدة طويلة . آه ... ليتك تعلم كيف عاملنى يوم الاحد
الماضى ! يقولاي سيفولودوفتش ، انتى عبد ، انتى دودة من دود الارض ،
ولكننى لست الهأ ، وبهذا انما أختلف عن دريافين* . غير أنك تعرف
مواردى !

كان يقولاي سيفولودوفتش يصغى اليه باهتمام . فقال :

- علمت أشياء لم أكن أعرفها البتة • طبعا لا شيء مستحيل على رجل
مثلك •

ثم أضاف بعد لحظة تفكير يقول :

- اسمع ، ان شئت قل له ، قل للذى تعرفه منهم ان ليوتين قد
كذب ، وانك لم تشأ الا أن تخيفني مهددا بالوشاية بي ، لافتراضك أنني
أنا أيضاً معرض للخطر ، وذلك بغية أن تطلب مني مزيدا من المال
هل فهمت ؟

- يقولاي فسيفولودوفتش ، هل تعتقد حقا أنني مهدد بخطر ؟ لقد
انتظرتك مدة طويلة لأسألك النصيح •

ابتسم يقولاي فسيفولودوفتش ابتسامة ساخرة • وقال له :

- هبني أعطيتك مالا فأنهم لن يدعوك تسافر ولكن آن لي أن
أذهب الى ماريا تيموفيتنا •
ونهض •

قال ليادكين :

- يقولاي فسيفولودوفتش ؟ وما مصير ماريا تيموفيتنا ؟
- قلت لك •

- هل يُعقل أنك كنت تتكلم جادا ؟

- أما زلت لا تصدقني ؟

- هل يُعقل أن ترميني كما يرمى حذاء مهترى ؟

قال يقولاي فسيفولودوفتش ضاحكا :

- سوف أرى • هيا • دع لي أن أمر !

- ألا تريد أن أبقى على درجات المدخل حتى لا أتعرض لأن

أسمع ، رغم ارادتي ؟ ... ان الغرف صغيرة جدا •
- فكرة حسنة • اخرج الى درجات الباب • ولكن خذ مظلتى •
- مظلة ... مظلتك ؟ أنا أستحق هذا الشرف ؟
بذلك تتم الكابتن وهو يبالغ فى المذلة •
قال ستافروجين :
- كل انسان جدير بمظلة •
فأجاب ليادكين :
- بهذه الجملة عيّنت « الحد الأدنى » للحقوق الانسانية دفعة
واحدة ...

لكن ليادكين كان يتكلم آلياً • لقد صمقته الانباء التى سمعها فهو
لا يستطيع أن يثوب الى رشده وأن يسيطر على نفسه •
ومع ذلك فانه ما ان أصبح على درجات المدخل ونشر المظلة ، حتى
أخذت ترسم فى ذهنه الطائش الماكر فكرة مهدئة ومألوفة • قال لنفسه :
لا شك أنه قد أريدَ خداعه ، وتخويله ، فليس عليه هو أن يخاف •
وقال يحدث نفسه : « اذا كان يمكر ويكذب ، فذلك دليل على أن
ثمة شيئاً يريد اخفائه • • • لم يستطع ليادكين أن يصدّق ما قاله له
ستافروجين من أنه سيذيع نبأ الزواج على الملأ : هذا مستحيل • » صحيح
أن فى وسع المرء أن يتوقع من مثل هذا الرجل كل شيء • فهو لا يحيا
الا ليسيء الى البشر • ولكن لعله خائف منى منذ فضيحة يوم الاحد ، لعله
خائف منى الآن أكثر مما كان خائفاً فى أى يوم من الأيام ... لعله انما
أسرع يؤكد لى أنه سيذيع نبأ الزواج على الملأ خشية أن أسبقه أنا الى
ذلك • دك من السخافات يا ليادكين ! اذا لم يكن خائفاً من رأى الناس
فلماذا جاء فى الليل ، مختبئاً كاختباء لص ؟ واذا كان خائفاً ، فهو اذن

خائف مما سيحدث الآن ، فى غضون الايام التالية كن على حذر
يا ليادكين ! كن يقظا !

« انه يريد أن يخيفنى ببطرس ستيفانوفتش . وهذا مخيف حقا
ما كان أغبانى حين تحدثت الى ليوبتين . الشيطان وحده يعرف ماذا يهوى .
هؤلاء الأبالسة . اننى لم أفهم من أمرهم شيئاً فى يوم الايام . ها هم أولاء
يتحركون ويسمعون هنا وهناك كما كانوا يفعلون منذ خمسة أعوام . ولكن
لن كان يمكن أن أشئ بهم ؟ » ألم ترتكب حماقة فكتب الى أحد ؟ .
هم معنى هذا أن من الممكن أن يكتب المرء متظاهراً بالحماقة
والبلادة . « من أجل هذا انما تريد أن تسافر الى بيطرسبرج » .
يا للوغد ! أنا انما راودنى هذا حلما من الاحلام ، فكيف أمكنه يضبطنى
متلبساً بالحلم نفسه . لكأنه يريد أن يدفعنى هو نفسه الى القيام بهذه
الرحلة . هناك حالتان يجب النظر فيهما . حالتان لا ثالث لهما . فاما انه
خائف لأنه ارتكب عملاً طائشاً ما ، واما انه ليس خائفاً من شئ فهو يريد
أن يدفعنى الى الوشاية بالآخرين ! آه ليادكين اياك أن
تقع فى الفخ ! »

وبلغ ليادكين من الاسترسال فى خواطره هذه أنه نسى حتى أن
يصيح بسمعه الى ما كان يجرى فى الغرفة الثانية . ولكن كان يصعب
أن يسمع شيئاً ما ، فالباب سميك ، والحديث يجرى بصوت خافت .

واذ لم يستطع الكابتن ليادكين ان يسمع الا بضعة أصوات غير
متميزة ، بصق من شدة الغضب ، وعاد يصفر على درجات المدخل شارد
الذهن .

ان غرفة ماريا تيموفيفنا ، المزدانة بسجادة رائعة ، أوسع من غرفة الكابتن مرتين . ولكن الأثاث الذى فيها أثاث بسيط كل البساطة أيضا ، مصنوع صناعة غليظة كذلك . على أن غطاء زاهى الألوان كان يغطى المائدة الموضوعة أمام الديوان وفوقها مصباح مُشعل . وهناك ستارة منشورة على طول الغرفة ، تخفى السرير عن الأنظار . وعلى مقربة من المائدة يوجد أيضا مقعد منجد ظهره ، غير أن ماريا تيموفيفنا لا تجلس عليه أبدا . وثمة قنديل صغير كان يشتعل أمام أيقونة فى أحد الأركان . وعلى مائدة ماريا تيموفيفنا قد صُفّت جميع الأشياء التى هى فى حاجة إليها : ورق لعب ، مرآة صغيرة ، كتاب أغان ، ورغيف خبز باللبن ، وكذلك كتابان مصوران أحدهما يضم قصص رحلات مما يقرؤه الشباب ، والثانى يضم أساطير من القرون الوسطى .

كانت ماريا تيموفيفنا تنتظر الزائر ، كما قال الكابتن . ولكن حين دخل نيقولاى فسيفولودوفتش وجدها نائمة وقد اضطجعت نصف اضطجاع على الديوان مسندة رأسها الى وسادة . فأغلق ستافروجين الباب بغير ضوضاء وأخذ يتأمل النائمة دون أن يتحرك من مكانه .

كذب ليادكين : لم تكن ماريا تيموفيفنا قد أبدلت هندامها وعُنت بزيئتها . انها ترتدى ذلك الثوب القاتم نفسه الذى كانت ترتديه يوم الاحد الماضى عند فرفارا بتروفنا . وما يزال شعرها معقودا عند عنقها كبة صغيرة . وكانت عنقها الطويلة الجافة عارية . أما الشال الاسود الذى كانت فرفارا بتروفنا قد أهدها اليها فقد كان الى جانبها مطويا بعناية

كبيرة على الديوان • وكان وجهها مثقلاً بالمساحيق والأصباغ على عاداتها •

وما كادت تنتفضي على دخول نيقولاى فسيفولودوفتش دقيقة واحدة حتى استيقظت ماريّا تيموفيفنا بغتةً ، كأنما هي قد أحسّت نظرتة ، ففتحت عينيها واتصب جذعها بحركة قوية • ولكن كأن شيئاً غريباً كان يجرى فى ذهن الزائر : فظل جامداً قرب الباب يحدّق الى وجه العرجاء تحديقاً عنيداً بنظرة نافذة • ولعل هذه النظرة قد بدت للمرأة قاسية ، أو لعل المرأة قرأت فيها الاشمزاز ، أو لعل المرأة توهمت توهماً لا أكثر ، ولكن مهما يكن من أمر ، فان تعبيراً عن الارتياح الشديد والذعر القوى يشنّج وجه الفتاة المسكينة بعد انتظار بضع لحظات ، ثم اذا هي ترفع ذراعيها فجأةً كأنما لتحمى نفسها ، واذا هي تجهش باكية متحبة ، تماماً كما يفعل طفل خاف • فلو انقضت لحظة أخرى ، لأخذت تصرخ مستغيثة • ولكن الزائر صحا من شروده وثاب الى نفسه ، فتبدلت هيئته حالاً ، واقترب من المائدة وهو يتبسّم ابتسامة لطيفة ودودا • وقال للفتاة وهو يمد اليها يده :

— سامحينى يا ماريّا تيموفيفنا ! لقد روّعتك اذ دخلت عليك فجأةً بغير استئذان •

فسرعان ما فعلت هذه الكلمات اللطيفة فملها فى نفس الفتاة • فزال رعبها ، لكنها ما برحت تتفرس فى ستافروجين بشيء من القلق ، وكان واضحاً أنها تبذل جهداً من أجل أن تفهم ما يحدث • ومدّت اليه يدها خجلى وجلى ، ثم ظهرت على شفيتها فى آخر الامر ابتسامة •

دمدمت تقول وهي تلقى عليه نظرة غريبة :

— نعمت صباحاً يا أمير •

فقال الامير مبتسماً بمزيد من المودة والبشاشة :

- أغلب الظن أنك كنت ترين حلمًا ثقيلًا •
- ولكن كيف عرفت أنني حلمت « بهذا » •
ثم عادت ترتجف فجأة ، وارتدت الى وراء ، رافعة ذراعيها كأنما
لتحمي نفسها ؛ وبدا عليها أنها توشك أن تعود الى البكاء • فقال لها
ستافروجين ملحاً :
- هلاً رجعت الى رشذك ! مم أنت خائفة ؟ هل يُعقل أن لا تكوني
قد عرفتني ؟
ولكنها لم تهدأ في هذه المرة الا بعد برهة طويلة • كانت تنظر اليه
صامتة ، وقد استبد بها قلق أليم • كان واضحاً انها تحاول أن تستجلي
فكرة تعذبها فلا تستطيع الى ذلك سيلاً • فهي تارة تخفض عينيها وتارة
تلقى على ستافروجين نظرة سريعة • وفجأة بدا عليها أنها اتخذت قراراً
رغم أنها لما تسترد هدوءها بعد كاملاً •
قالت له بصوت ثابت جازم :
- اجلس الى جانبي ، أرجوك ، حتى أستطيع أن أراك من قرب
فيما بعد •
واضح أنها اهدت الآن الى الفكرة التي كانت تبحث عنها •
وتابعت كلامها تقول :
- لن أنظر اليك حالاً ، بل سأخفض عيني • وأنت أيضاً لا تنظر
الي ، الى أن أرجوك أن تفعل •
ثم ألحت قائلة بشيء من التمليل :
- ما بالك لا تجلس ! هلاً جلست !
كان واضحاً أن هناك فكرة جديدة تتضح لها شيئاً بعد شيء •

فجلس ستافروجين وانتظر • وساد صمت طويل • ثم دمدمت تقول
أخيرا بما يشبه الاشمئزاز :

- هم ••• ذلك كله يبدو لى غريبا جدا • ان أحلاما سيئة تطاردنى ،
ولكن لماذا رأيتك انت فى الحلم منذ هنيهة ، كما أنت الآن تماما ؟

قال ستافروجين متدمرا وهو يلتفت اليها رغم حظرها عليه ذلك :

- لتترك الأحلام •

وظهر فى وجهه ذلك التعبير نفسه الذى ألمَّ بقسماته سريعا منذ
قليل • وكان يرى أن ماريا تيموفيتشنا ترغب رغبة قوية فى أن ترفع بصرها
نحوه ، ولكنها تحجم عن ذلك ، مستمرة على النظر الى أرض الغرفة
بعناد •

قالت وهى ترفع صوتها فجأة :

- اسمع يا أمير ، اسمع يا أمير •••

فهتف ستافروجين يسألها فاقدا صبره :

- لماذا تشيحين ؟ لماذا لا تنظرين الى ؟ ما هذه المسرحية ؟

ولكن بدا كأنها لم تسمعه • وكررت تقول للمرة الثالثة بلهجة
جازمة وقد اتخذ وجهها تعبيراً عن الهمّ والعداء :

- اسمع يا أمير • حين قلت لى فى العربية انك ستذيع بأ الزواج على الملأ
أخافنى أن أعلم أن السر سينكشف • لا أدري ماذا أصنع ! لقد فكّرت
طويلاً ، وانى لأرى الآن رؤية واضحة أنتى لا أناسك البتة • صحيح
أنتى سأعرف كيف أتزين ، وقد أحسن أيضا استقبال الناس : ان تقديم
فنجان من الشاي ليس بالامر الصعب كثيرا ، لا سيما حين يكون للمرء
خدم • ولكن ، رغم كل شيء ، ما عسى يقول الغرباء ؟ ••• لقد أدركت
يومَ الأحد كثيرا من الأمور فى ذلك المنزل • كانت الآتسة الجميلة

لا تنفك تنظر الىّ ، ولا سيما بعد دخولك • أنت الذى دخلت عندئذ ؟
ألسنت أنت الذى دخلت ؟ أما أمها فما هى الا امرأة مضحكة من نساء
المجتمع • وكذلك كان لبيادكين مضحكا • حتى لقد أخذتُ أنظر الى
السقف طول الوقت من أجل أن لا أضحك • كان دهانه جميلا ، ذلك
السقف • وأما أمه « هو » ، فقد خلقت لتكون رئيسة دير • اننى أخاف
منها • لقد أعطتني مع ذلك شالاً أسود • لا شك أنهم جميعا قد قالوا فى
حقى سوا • ولكننى لا أحقد عليهم • قلت لنفسى فى ذلك اليوم : أنا
لا أصلح أن أكون قريبة لهؤلاء الناس • صحيح أن الكوتيسية لا تطلب
منها الا مزايا نفسية ، لأن لديها خدماً كثيرين يقومون بأعمال المنزل •
وانما ينبغى لها فى أكثر تقدير أن تكون على شئ من « الغندرة » ، حتى
تستطيع أن تحسن وفادة المسافرين الاجانب • ومع ذلك فانهن جميعا كن
ينظرن الىّ يومَ الاحد ذاك وقد لاح فى وجوههن كرب ويأس • داشا
وحدها ملاك • اننى أخشى كثيرا أن يؤلوه « هو » بابداء ملاحظة متسرعة
فى حقى •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش غاضبا :

— لا تخشى شيئا ، ولا تقلقى !

— وهبه أحسن شئ من العار ، فلن يفضبنى ذلك ، لأن الشعور
بالشفقة يغلب على الشعور بالعار ، وان كان ذلك يختلف باختلاف الناس
طبعاً • وانى لأعلم أنهم أحق بشفتى منى بشفتهم •

— أظن أنهم جرحوك جرحاً عميقاً يا ماريا ، أليس كذلك ؟

قالت وهى تبسم ابتسامة بريئة :

— جرحونى ؟ أنا ؟ لا • أبدا ! كنت أنظر اليكم جميعاً : فأراكم
تغضبون وتشتجرون • انكم لا تعرفون حتى كيف تضحكون ضحكا

صادرا عن القلب حين تجتمعون • ثروات كبيرة ، وفرح ضئيل ! ...
ذلك كله يبعث على الاشتزاز • مهما يكن من أمر ، فانتى الآن لا أحس
بشفقة على أحد • وانما أنا أشعر بشفقة على نفسى •

– سمعت أن أخاك قد جعل حياتك قاسية فى غيتى ، فهل هذا
صحيح ؟

– من قال لك ذلك ؟ ترهات ! بالمكس : الامر الآن أسوأ • الآن
أرى أحلاما سيئة ، أرى أحلاما سيئة لأنك جئت • انى أتساءل : لماذا
جئت ؟ لماذا ؟ قل لى : لماذا جئت ؟

– ألا تريد أن تعودى الى الدير ؟
– تنأت بهذا ! هاهم أولاء يعرضون على أن أرجع الى الدير ! لقد
شبع من رؤيته ، ديرك هذا ! ما عسانى فاعلة هناك ؟ أنا الآن وحيدة
وحدة تامة • فات أوان استئناف حياة نائلة •
– يبدو عليك النىظ والحنق • أتراك خائفة أن يكون حبى لك
قد زال ؟

ضحكت ماريا تيموفيتشنا ضحكة احتقار وقالت :
– أنا لا أهتم بك البتة • وانما انا خائفة على نفسى ، خائفة أن يزول
حبى لشخص ما فى يوم قريب • لعلنى قد أذنب فى حقه بارتكاب خطيئة
كبيرة جدا •
أضافت ماريا هذه الجملة الاخيرة فجأة كأنها تكلم نفسها • وتابع
تقول :

– ... لكننى أجهل الذنب الذى اقترفته • وهذا هو شقائى كله •
دائما ، دائما ، فى الليل وفى النهار ، منذ خمس سنين ، لم تنقطع هذه
الفكرة عن تعذيبى ، وهى انتى مذنبه فى حقه ... ما هو ذنبى ؟ انتى

أصلى لله ، وأفكر بنير انقطاع فى الخطيئة الكبرى التى ارتكبتها والآن
يتضح أن ذلك كان صحيحا .

– ما الذى كان صحيحا ؟

كذلك سألها ستافروجين ، غير انها تابعت كلامها تقول دون أن تجيب
عن سؤاله وربما دون أن تسمع سؤاله :

– وانى لأتساءل مع ذلك ألم يكن له «هو» دخل فى الامر . ولكن
كيف أمكنه أن يرتبط بمثل هؤلاء الأشرار ؟ ان الكوتيسة يطيب لها طبعاً
أن تلتهمنى كوحش كاسر ، وان تكن قد أركبتى عربتها . الجميع
اشتركوا فى المؤامرة ؟ هل يُعقل أن يكون قد اشترك فيها هو أيضا ؟ هل
يُعقل أن يكون قد خانتى ؟ (هنا أخذت ذقنها وشفقتها ترتمش) . اسمع ،
انت : هل تعرف قصة جريشكا أوتريف الذى أعلنت الكنيسة
طرده ؟ *

لم يجب نيقولاى فسيفولودوفتش .

قالت وقد عزمت أمرها فجأة :

– على كل حال ، سألتفت الآن وأنظر اليك . فالتفت أنت الى جهتي
وانظر الى ، ولكن أنعم النظر باتباه . أريد أن أراك لآخر مرة ...
أننى أنظر اليك منذ مدة طويلة .

قالت ماريا تيموفيتنا وهى تتأمله منتبهة :

– هم ... لقد سمعت كثيراً .

وأرادت أن تضيف شيئاً آخر ، ولكن الرعب شج وجهها فجأة
من جديد ، وارتدت الى وراء رافعة ذراعيها كأنها لتحمل نفسها .

فصاح نيقولاى فسيفولودوفتش يسألها بما يشبه الحنق :

– ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟

لكن رعبها لم يدم الا لحظة واحدة ، وها هي ذى ابتسامه غريبه
تعقف وجهها ، ابتسامه ربابه شكاكه ، منفرة مزعجة • وقالت فجأة
بصوت جازم ملح :

- أرجوك يا أمير ، انهض وادخل !

- أدخل ؟ أدخل الى أين ؟

- لبتُ خمس سنين أتخيل دائما كيف سيدخل عليّ • انهض ،
واذهب الى الغرفة الاخرى • وسأبقى أنا جالسة هنا كأننى أنتظر أحدا ،
وسأتناول كتابا • ثم تدخل أنت كأنك عائد بعد غيبة خمس سنين • أريد
أن أرى كيف سيتم هذا •

صرف نيقولاى فيسبولودوفتش بأسنانه ، وجمجم ببضعة أقوال غير
مفهومة ، ثم ضرب المائدة براحه يده صائحا :

- كفى ! أرجوك أن تسمعني يا ماريا تيموفيتنا • أرجوك أن
تستجيبى كل انتباهك اذا استطعت • ما أنت مجنونة تماما على كل حال •
كذلك أفلتت من لسانه هذه الجملة • ولكنه تابع كلامه فقال :

- غدا سوف أذيع زواجنا فى الملأ • لن تسكنى قصرا منيفا فى يوم
من الايام • اطردى هذه الفكرة من ذهنك • هل تريدان أن تقضى حياتك
كلها معي ، ولكن فى مكان بعيد عن هنا ؟ فى الجبال ، بسويسرا ••• اننى
أعرف مكانا هناك ••• لا تقلقى : لن أهجرك ولن أضعك فى مستشفى
للمجانين • عندى من المال ما يكفى لأن نعيش دون أن نسأل أحدا شيئا •
سيكون لك خادمة ، فلن نضطرى الى القيام بأى عمل فى البيت • وكل
ما تشتهيئه سأهيئه لك وأزودك به فى حدود الامكان • سيكون فى امكانك
أن تصلى ، وأن تذهبى الى حيث تريدان ، وأن تفعلنى ما تشائين • ولن
ألمسك • وأنا أيضا لن أتحرك من ذلك المكان • واذا شئت ، فلن أخاطبك

بكلمة واحدة ؟ واذا أردت ، فسوف تقصّين على حكاياتك الصغيرة كما كنت تفعلين فى الماضى ببطرسبرج • وسوف أقرأ لك اذا كان ذلك يسرك • ولكننا ، فى مقابل هذا ، سنقضى حياتنا كلها فى ذلك المكان • وذلك المكان جهنم مقفر • هل تريدین ؟ أتغزین أمرک على هذا ؟ ألا تندمين فى المستقبل ؟ ألن ترهقینى بدموعک ولعناتک ؟

أصفت إليه باستطلاع شديد • فلما أنهى كلامه ، فكرت ملياً ، ثم قالت أخيراً بلهجة فيها سخرية واحتقار :

— ذلك كله يبدو غير ممكن • فلربما وجب علىّ أن أعيش هكذا أربعين سنة فى الجبال •

وانفجرت تضحك مقهقهة •

أجاب نيقولاى ستافروجين :

— نعم ، سنعيش هنالك أربعين سنة اذا وجب الامر •

وقطب حاجبيه •

— هم ... لن أقبل هذا بحال من الاحوال •

— ولكن معى أنا ؟

— ومن أنت حتى أسافر معك هكذا ؟ انظروا يا ناس ! يريد أن

أبقى أربعين سنة معلقة فى جبل ! ان أهل هذا الزمان أصبحوا على جانب عظيم من الصبر ! لا ، لن يستطيع يوم أن يكون صقراً ! ان أميرى ليس هكذا •

هكذا صاحت بلهجة الانتصار وهى ترفع رأسها معترّة مفتخرة •

فرأى ستافروجين الامر بوضوح فجأة • فأسرع يسألها :

— لماذا تلقيننى أميراً ... و ... من تظنيننى ؟

— كيف ؟ ألسنت أميراً اذن ؟

- لم أكن أميرا فى يوم من الايام •
- كيف ؟ أأنت نفسك تعترف لى بهذا وجها لوجه ؟
- أكرر أنتى لم أكن أميرا فى يوم من الايام •
فصاحت وهى تضم يديها احدهما الى الاخرى :
- يا الهى ! كنت أتوقع من أعدائه كل شىء ، الا هذه الوقاحة ...
هذه الوقاحة لم أتوقعها منهم يوما !
ثم صرخت تقول خارجة عن طورها وهى تهرع نحو ستافروجين :
- ولكن أهو حى على الأقل ؟ هل قتلته ؟ اعترف ...
قال وهو ينهض فجأة وقد انقلبت سحنته :
- من تظنيتى ؟
ولكنها أصبحت الآن غير خائفة ، بل مزهوة منتصرة ؛ قالت :
- من ذا الذى يعرف من أنت ، ومن أين خرجت ؟ لقد أوجس
قلبى ذلك دائما منذ خمس سنين • لقد حزر قلبى كل مكيدتهم ! وتساءلت
أنا : من ترى تكون هذه البومة العمياء التى دخلت الى غرفتى ؟ لا يا صاحبى ،
أنت ممثل لا يجيد التمثيل ، أنت أسوأ حتى من ليادكين • سلم لى على
الاميرة ، وقل لها ان تبعث الى شخص أمهر منك قليلا • هل دفعت لك
مالا كثيرا فى سبيل قيامك بهذه المهمة ؟ أهل تعولك فى مطبخها من باب
البر والاحسان ؟ لقد اكتشفت جميع أكاذيبكم • انتى أعرفكم جميعا ، من
أولكم الى آخركم !
فأمسك ستافروجين ذراعيها بقوة ، فوق الكوع قليلا ، لكنها انفجرت
تضحك فى وجهه ضحكا مجلجلا • ثم قالت له :
- أما أنك تشبهه كثيرا فهذا صحيح • لكن صاحبى أمير • انه صقر
نبيل * • ولا كذلك أنت ، فما أنت الا بومة ، ما أنت الا بائع فى دكان !

صاحبى يسجد لله اذا شاء ، ولا يسجد اذا أرادت له نزوة من النزوات
أن لا يسجد . وأنت قد صفعت شاتوشكا (عزيزى الطيب شاتوشكا) .
لقد حكى لى ليادكين ذلك . ممّ كنت خائفا حين دخلت ؟ من ذا الذى
روّعك ؟ انتى منذ رأيت وجهك الكريه حين وقعت 'فأنهضتى ، أحسست
كأن دودة قد نفذت فى قلبى . وسرعان ما قلت لنفسى : لا ، ليس «هو» ،
ما هذا «هو» ! ما كان لصقري أبدا أن يشعر بالعار منى أمام آنسة من
آنسات المجتمع الراقى ! يا الهى ! ان تلك الصورة التى كانت تملأ خيالى ،
وهى أن فارسى يطير محلّقاً هناك ، وراء الجبال ، يتأمل الشمس ، كانت
هذه الصورة كافية لتغمرنى بالسعادة خلال هذه السنين الخمس ! ...
تكلم أيها الفشاش الدجّال . هل دفع لك أجر كبير ؟ هل قبضت مبلغا
ضخما من أجل أن تكذب ؟ أما أنا فما كان لى أن أعطيك قرشا واحدا !
... ها ها ها ! ...

دمدم نيقولاى فسيفولودوفتش يقول من بين أسنانه وهو ما يزال
يمسكها من ذراعها فوق الكوع :

- آه ... معنوهة !

فصاحت تقول بكبرياء وزهو :

- أنزل يديك أيها الفشاش الدجال . أنا امرأة أميرى ، ولست
أخشى سكينك !

- سكينى ؟

- نعم ، سكينك . انك تخفى سكيناً فى جييك . كنت تظن انتى
نائمة ، لكننى رأيت كل شئ : فحين دخلت كنت قد استلكت سكينك .

- ما هذا الذى تقولين أيتها الشقية ؟ أية أحلام ترين ؟

هكذا قال نيقولاى فسيفولودوفتش ، ودفعها عنه بعنف بلغ من القوة

أنها صدمت الديوان برأسها وكتفها • وأسرع يخرج من الغرفة • ولكنها
لم تلبث أن قامت ، وطاردته متواثبة عارجة •

وعلى درجات المدخل قبض عليها ليأدكين بكل ما أوتى من قوة ،
ولكنها أعولت ترسل الى يقولاي هذه الكلمات وهى تضحك ضحك امرأة
معتوهة :

- جريشكا أوترييف ! مطرود من الكنيسة ! ...

مشى ستافروجين فى برك الماء والوحل دون أن ينتبه الى الطريق ، وهو يردد : « سكين ... سكين ! » . صحيح أنه فى بعض اللحظات رغب رغبة رهية فى أن يضحك ، أن يضحك ضحكا عاليا مدويا ، كمجنون ، لكنه أمسك عن الضحك وسيطر على نفسه دون أن يدري هو نفسه لماذا . ولم يثب الى وعيه الا حين صار على الجسر ، فى ذلك المكان نفسه الذى لقي فيه فدكا . وكان فدكا هناك ينتظره مرة أخرى . فلما رأى فدكا صاحبنا يقولاي فيسيفولودوفتش خلع قبعته ، وابتسم ابتسامة فرحة كاشفا عن جميع أسنانه ، ثم سرعان ما أخذ يثرثر . مرَّ ستافروجين أمامه دون أن يتوقف ، وحتى دون أن ينتبه أى انتباه الى أقوال هذا المتشرد الذى أخذ يتبعه من جديد . فما كان أشد دهشته حين لاحظ انه نسي وجود فدكا نسيانا تاما ، وان يكن قد ظل يردد فى سره بغير انقطاع : « سكين ... سكين ! » . والتفت فجأة ، فقبض على المتشرد من ياقته وجندله على الارض بكل القوة التى كانت قد تجمعت فى نفسه من شدة العنف . وخطر ببال فدكا لحظة أن يدافع عن نفسه ، ولكنه أدرك فورا أنه أمام خصم كهذا الخصم لا تُعدُّ قوته شيئا مذكورا ، لذلك أذعن ولم يُبدِ أية مقاومة ، وظل راكعا على ركبتيه متجها بوجهه الى الارض ، ينتظر ختام هذه المغامرة ، مقتنعا بأنه غير معرض لأى خطر .

ولم يخطئ ظنه . كان يقولاي فيسيفولودوفتش قد حل عن عنقه المندبل الذى كان يحيط به وأخذ يوثق به يدي سجينه ، ولكنه سرعان ما عدل عن رأيه ودفع فدكا عنه فسرعان ما انتصب فدكا على قدميه ، واذا بسكين عريضة قصيرة تلمع بيده ، لا يدري أحد من أين أخرجها ! ...

فما كان من نيقولاى فسيفولودوفتش الا أن « أمره » بحركة تدل على نفاذ الصبر :

- اخفض السكين ! واخفها !

فاذا بالسكين تختفى بسرعة مثلما ظهرت بسرعة •

واستأنف نيقولاى فسيفولودوفتش سيره صامتا دون أن يلتفت بعد ذلك الى وراء • ولكن الشخص العنيد ظل يتبعه ، ولكنه يتبعه الآن باحترام ، على مسافة خطوة منه ، دون أن يكلمه البتة • وهكذا عبرا الجسر ، ثم نزلا الى ضفة النهر المنحدرة ، ولكنهما دارا فى هذه المرة يسرةً ، وسارا فى شارع ضيق طويل مقفر أفضى بهما الى وسط المدينة بسرعة ، فلو أنهما سلكا شارع ايفانيا الذى سلكه ستافروجين فى الذهاب لا وصلا الى وسط المدينة بمثل هذه السرعة •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش يسأل فدكا :

- يقال انك سطوت فى هذه الأيام الأخيرة على كنيسة بمقاطعتنا • فهل هذا صحيح ؟

فأجابه المتشرد برصانة وأدب وتهذيب ، كأن شيئا لم يحدث ، بل أجابه لا برصانة فحسب ، وانما بوقار أيضا :

- الحق اننى دخلت الكنيسة أولا لأصلّى •••

لم يُبد فدكا شيئا من رفع الكلفة واصطناع « الصداقة » كما فعل من قبل ، وانما هو يتكلم الآن كلام انسان جاد ، انسان عملى ان كان قد أسىء اليه فانه سرعان ما ينسى الاساءات • وتابع كلامه يقول :

- ••• فحين دخلت قلت لنفسى : ان نعمة الله هى التى قادت خطاى الى هنا ••• وقد فعلت فعلتى ياسيدى لأننا فى مثل وضعنا ندبّر أمرنا كما

نستطيع انا لا نطبق الاستغناء عن معونة الآخرين . ولكن صدق
يا سيدى انتى لم أجن من ذلك أى فائدة . لقد عاقبنى الله على آثامى .
فالبخرة وحلة الشماس لم أستطع أن أبيعهما بأكثر من اثنى عشر روبلا .
أما طوق القديس نيقولا وهو من فضة فقد زعموا أنه ليس من فضة فلم
أفرض ثمنه الا مبلغا زهيدا لا يُذكر .

— وذهبت الحارس ؟

— لقد نظفنا الكنيسة مشتركين ، ولكننا تشاجرنا فى الصباح قرب
النهر ، لأننا اختلفنا حول هذه المسألة : من الذى يحمل الكيس ؟ وعندئذ
ارتكبت ذلك الذنب ، اذ أرحت رفيقى !

— استمر فى القتل ، استمر فى السرقة .

— ذلك ما يقوله لى أيضا بطرس ستيفانوفتش ، كلمة كلمة ،
تماما ! ذلك أنه فيما يتعلق باغاثة الناس ومساعدتهم رجل قاسى القلب
بخيل . وهو لا يكتفى بأن لا يؤمن بالخالق الذى أخرجنا من طين الارض
وبأن يقول ان الطبيعة صنعت كل شيء ، بل هو أيضا لا يريد أن يدرك أننا
معشر الفقراء لا يمكننا أن نعيش دون أن يكون لنا أحد يحسن إلينا وينعم
علينا وينجدنا . فاذا أخذت تشرح له هذا نظر اليك نظرة خروف ، فلا
تملك الا أن تُشده . هل تصدق يا سيدى ؟ فى مسكن ذلك الكاتبين
ليادكين الذى زرته أنت هذه الليلة ، فى مسكنه أيام كان يقيم بممارسة
فلييوف ، كان الباب يظل طوال الليل مفتوحا على سعته كلها . وكان هو ،
عدا ذلك ، ينام نوم الموتى من فرط السكر ، وكان المال يخرج من جميع
جيوبه . رأيت ذلك بعينى رأسى . ذلك أننا فى وضعنا يستحيل علينا
اطلاقا أن نستغنى عن مساعدة الآخرين

— رأيت به بعينى رأسك ؟ اذن دخلت عليه ليلا ؟

— ربما ، لكن أحدا لا يعرف ذلك •

— فلماذا لم تذبحه ؟

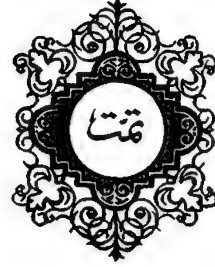
— وزنت ما للأمر وما عليه فرأيت أن أعدل عن ذبحه • كنت أعلم أن في امكاني دائما أن أجنى منه مائة وخمسين روبلا ، ولكن علام التسرع ما دمت أستطيع أن أجنى ألفا وخمسمائة روبل على الأقل ، اذا أنا انتظرت قليلا ؟ ذلك أن الكابتن ليادكين يعتمد عليك أعظم الاعتماد دائما في حالة السكر (سمعته بأذني) ؛ ما من حانة هنا ولا من خمارة الا سمع فيها يتكلم عن هذا الامر أثناء سكره • فلما سمعت هذا من جهات مختلفة ، عقدت أنا أيضا كل آمالي على « معاليك » يا سيدى • فأنا أتوجه اليك يا سيدى كما يتوجه ابن الى أبيه أو أخ الى أخيه • ولن يعرف بطرس ستيفانوفتش عن ذلك شيئا ، ولن يعرف أحد شيئا • هل يريد صاحب السعادة أن يعطيني ثلاثة روبلات • اننى أريد أن أعرف الحقيقة ، وأن أعرف ما الذى يجب على أن أفعله ، ذلك أننا فى وضعنا ياسيدى ، يستحيل علينا أن نعيش مستغنين عن مساعدة الآخرين •

انفجر نيقولاى فسيفولودوفتش ضاحكا ، واستل من جيبه محفظة نقوده التى تضم خمسين روبلا ، أوراقا صغيرة ، فرمى اليه من هذه الاوراق واحدة فثانية فثالثة فرابعة • فكانت الاوراق تسقط فى الوحل • وكان فدكا يركض وراءها ويحاول امساكها طائرة وهو يطلق صرخات قصيرة : « أه • أه • أه • » • وأخيرا رمى اليه نيقولاى فسيفولودوفتش حزمة الاوراق كلها ، وهو ما يزال يضحك ضحكا مجلجلا ، واستأنف سيره ، ولكنه استأنفه فى هذه المرة وحيدا • كان المتشرد جائيا على ركبيه فى الوحل ، ما يزال يبحث عن الاوراق التى بعثرتها الرياح فسقطت فى البرك • وظلت صرخاته الصغيرة : « أه • أه • أه • » ترجع فى الظلمات مدة طويلة •

الفصل الثالث

المبارزة

١



المبارزة في الغد ، في الساعة الثانية بعد الظهر •
ان رغبة القتال العنيفة التي كانت تتأجج نارها في
قلب آرتمى بافلوفتش وتدفعه الى المبارزة مهما
كلف الامر قد عجّلت الاحداث • وهو لم
يستطع أن يفهم سلوك خصمه فكان خارجا عن طوره وكان الغضب يستعر
في كل نفسه • انه يهين خصمه بغير داعٍ منذ شهر ، ثم لا يتوصل الى
افقاده صبره • فكان لا بد له حتما من أن يطلبه نيقولاى فيسيفلودوفتش
الى المبارزة ، لأنه كان لا يملك أى حجة أو ذريعة لأن يطلبه هو الى
المبارزة • وكان من جهة أخرى يستحى أن يعترف بالبواعث الخفية التي
تحضه على هذا السلوك ، أعنى الكره الفظيع الرهيب الذي كان يحمله
لستافروجين بسبب ما ألحقه ستافروجين بشرف الأسرة من اهانة • كان
يدرك هو نفسه أنه لا يستطيع أن يذكر هذا الباعث ، لا سيما منذ أن قدّم
اليه ستافروجين اعتذارات بلغت غاية المذلة ، مرتين • وكان جاجانوف قد
اعتقد في قرارة نفسه أن نيقولاى فيسيفلودوفتش ليس الا جانا • انه لم
يستطع أن يدرك لماذا لم يثار نيقولاى فيسيفلودوفتش ستافروجين للصفعة

التي تلقاها من شاتوف • وفي ذلك الحين انما عزم أمره أخيرا على أن يكتب اليه تلك الرسالة التي اشتملت على فظاظة لا مثيل لها ، فاضطرب ستافروجين عندئذ أن يطلبه الى المبارزة • كان جاجانوف ، بعد أن بعث رسالته ، ينتظر الجواب محموما من شدة نفاذ صبره ، معددا احتمالات النجاح كالمريض ، منتقلا من الامل الى اليأس ومن اليأس الى الامل بغير انقطاع • ومن أجل أن يتهيا لكل احتمال رجا مافريكي نيقولا يقتس سلفا أن يكون شاهده : ان مافريكي رفيق طفولته ، وهو يقدره قدرا عظيما • وهكذا ، فان كيريلوف حين ذهب في صباح الغد الى جاجانوف ، وجد الارض مسهدة ان صح التعبير •

رفض جاجانوف جميع الاعتذارات والتنازلات الكثيرة التي حملها اليه كيريلوف من عند ستافروجين ، رفضها منذ أول كلمة ، رفضا قويا قاطعا • وقد شده مافريكي نيقولا يقتس الذي لم يكن يعرف تفاصيل الامر الا أمس ، شده كثيرا حين سمع تلك العروض التي يعرضها ستافروجين وأراد أن يلح من أجل حل المسألة حالا وديا ، لكنه لم يسمعه الا أن يصمت حين رأى وضع جاجانوف الذي حزر ما كان يتتويه مافريكي فكان يضطرب على كرسيه اضطرابا عصيبا قويا • لولا أن مافريكي كان قد وعد جاجانوف بمساعدته في هذا الامر ، لانصرف فورا ، لكنه بقي آملا أن يتدخل فيما بعد ، بطريقة أو بأخرى ، لتحاشى وقوع كارثة •

نقل كيريلوف الشروط التي يعرضها ستافروجين للمبارزة ، فقبلها جاجانوف جميعها دون أى اعتراض ؛ ولكن اتفق على اضافة بند آخر اليها ، بند قاس من جهة أخرى ، وهو أنه اذا انطلقت الرصاصتان الأوليان فلم تقع اصابة حاسمة ، كان على المتبارزين أن يطلقا مرة ثانية ،

فاذا لم تفلح المرة الثانية ، أُطلقت النار مرة ثالثة • والحق أن كيريلوف قد استاء من هذه المرة الثالثة ، وأصرّ في أول الأمر على أن تعدّ المباراة منتهية بعد الاطلاق الثاني لكنه اضطر أن يرضح أخيراً ، ملحاً مع ذلك على أنه لا مجال لاطلاق رابع حتماً • فتم الاتفاق على هذه النقطة •

هكذا أمكن أن تتم المباراة في الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم نفسه ، في قرية بريكوفو ، عند غابة تقع بين أملاك سكفورشنيكي ومصنع شيجولين • كان المطر قد انقطع عن الهطول تماماً ، ولكن الجو رطب ، والأرض مبتلة ، وكانت رياح قوية تطرد السحب الواطئة الشهباء المتقطعة التي تتلاحق سريعة في السماء الباردة • وكانت الأشجار تحنى هاماتها للرياح وكان لأوراقها حفيف قوى وصريف صاحب • انه نهّار حزين كئيب •

وصل جاجانوف ومافريكي نيقولايفتش الى المكان في عربة أنيقة ذات مقاعد طويلة ، وكانت العربّة يجرها حصانان يقودهما جاجانوف بنفسه • وكان يصحب الرجلين خادم • ولحق بهما ستافروجين وكيريلوف على مسافة قريبة ، متطين صهوتى حصانين ، وكان يصحبهما خادم هما أيضا • ولم يكن كيريلوف قد ركب حصانا قبل الآن ، فكان جالسا على السرج كأنه الوتد جمودا وتصلبا ، ولكن على جسارة وشجاعة • انه يمسك بيده اليمنى الصندوق الثقيل الذى يضم المسدسين ولم يشأ أن يمهّد به الى الخادم ؛ ويشد بيده اليسرى على لجام الحصان من قلة الخبرة ، لذلك كان حصانه يهز رأسه ، ويهم أن يشبّ في كل لحظة ، لكن ذلك لم يكن يروّع الفارس فيما يظهر •

ان جاجانوف رجل سريع التأذى حاد المزاج عارم الغضب ، لذلك عدّ ركوب الحصان للوصول الى مكان المباراة اهانة جديدة له : فكان

خصمه واثق اذن من انتصاره ثقة تامة ما دام لم ير ضرورة لاعداد
عربة ثقّله اذا جرح • فنزل جاجانوف من عربته أصفر اللون من شدة
الحق • وكانت يدها ترتعشان ، وسرعان ما أطلع مافريكى نيقولايفتش
على ذلك • وحيّاه ستافروجين من بعيد فأشاح وجهه ولم يردّ على التحية •
وتولّى الشاهدان سحب القرعة لتوزيع المسدسات ، فكان مسدسا كيريلوف
من نصيب ستافروجين • وعُدّت الخطوات ، وحدّد الموضعان اللذان
يجب أن يقف فيهما الخصمان •

يُؤسّنى أن ضرورات القصة تضطرنى أن أغفل كثيرا من التفاصيل
مع أن بعضها خليق بأن يذكر • كان مافريكى نيقولايفتش يبدو حزينا
مهموماً • ولا كذلك كيريلوف ، فقد كان يبدو هادئا كل الهدوء ، غير
مكثرث البتة • انه ينفّذ الواجبات التي أخذها على عاتقه تنفيذا دقيقا ، ولكن
دون أى اضطراب ، حتى لكأنه لا يبالي كثيرا بالنتيجة التي سيسفر عنها هذا
اللقاء • وكان نيقولاى فسيفولودوفتش أكثر شجوبا مما يكون شاحبا فى
العادة • وهو يرتدى معطفا خفيفا ويضع على رأسه قبة بيضاء من قماش
الكستور • كان يبدو عليه التعب والارهاق ، وكان يقطب حاجبيه بين الفينة
والفينة لأنه لا يرى أن من الضرورى أن يخفى اعتكار مزاجه • غير أن
منظر آرتسمى بافلوفتش كان هو المنظر الغريب فى تلك اللحظة • هل
يُعقل أن لا أقول بضع كلمات عن هذا الشخص ؟

لم تتح لى حتى الآن فرصة وصف مظهره الخارجى • انه رجل طويل القامة ، بدين ، قد أحسنت تغذيته ، على حد التعبير الشعبى ، أبيض اللون ، أشقر الشعر قليله ، أميل الى ملاحظة الوجه ، فى نحو الثالثة والثلاثين من العمر • كان هذا الرجل قد طلب إحالته على التقاعد وهو برتبة كولونيل ، فلو أنه بلغ رتبة جنرال لاكتست هيئته مزيدا من المهابة أيضا • ولعله يكون عندئذ جنرالا ممتازا •

وتجدر الإشارة هنا ، من أجل إبراز الصفات التى تميّز آرتمى بفلوفتش ، الى أن السبب الأساسى الذى حضّه على الاستقالة انما هو تلك الفكرة الأليمة ، المائلة فى ذهنه دائما ، وهى فكرة العار الذى لحق باسمه فى أعقاب الاهانة التى أنزلها ستافروجين بأبيه • فلقد اعتقد صادقا أنه ليس من الشرف فى شئ أن يستمر فى عمله بالجيش ، وأعتقد أن وجوده يلوّث شرف فرقته ورفاقه ، مع أن أحدا من هؤلاء لم يكن قد سمع شيئا عن ذلك الحادث الذى وقع لأبيه • على أن آرتمى بافلوفتش كان قد أوشك أن يستقيل حتى قبل الاهانة التى ألحقها ستافروجين بأبيه ، قبلها بمدة طويلة ، ولكنه عدل عن ذلك فى آخر لحظة • ومهما يدُ لكم الامر غريبا ، فالواقع أن بيان ١٩ شباط (فبراير) القاضى بالغاء الرق هو الذى حضه يومئذ على ترك الجيش • ان آرتمى بافلوفتش ، وهو من أثرى أثرياء السادة فى مقاطعتنا ، لا يدمّر بيان ١٩ شباط ثراه ؛ حتى ان آرتمى بافلوفتش قادر على أن يقدّر الطابع الانسانى الذى يتسم به ذلك الاجراء ، وعلى أن يفهم منافعه الاقتصادية تقريبا ، ولكن آرتمى بافلوفتش أحس فجأة بأن صدور هذا القرار يكاد يكون شتماً له هو • لم يكن هذا

الا نوعا من عاطفة لا شعورية ، ولكن كون العاطفة لاشعورية هو الذى يهب لها القوة والشدة . ولم يعزم أمره ولا خطأ خطوة حاسمة ما ظل أبوه حياً . لكن « نبالة » آرائه قد احترمها وقدّر لها عدد من الشخصيات ذات الشأن ، التى كانت له بها علاقات وثيقة . كان رجلاً منطوياً على نفسه مغلقاً . يجب أن نذكر أيضاً هذا : لقد كان ينتمى الى ذلك الصنف من السادة الذين ما نزال نلقاهم فى روسيا ، والذين يقيمون وزناً كبيراً لمراقبة محتدهم ونقاء سلالتهم ، ويهتمون بذلك اهتماماً فيه غلو . وكان فى الوقت نفسه يكره التاريخ الروسى ، ويرى العادات الروسية على وجه العموم مثيرة للاشمئزاز بعض الشيء . وهو منذ طفولته ، فى تلك المدرسة العسكرية الخاصة* الموقوفة على التلاميذ النبلاء الأثرياء ، التى شرف ببدء وانهاء دراسته فيها ، قد تعلق ببعض الأفكار التى كانت تبدو له شعرية : فكان يحب القلاع والقصور وحياة القرون الوسطى ، وجانبها الزخرفى ، والفروسية . كان منذ ذلك الحين يكاد يبكى من شدة الشعور بالعار حين يتصور أن القياصرة الموسكويين القدماء كانوا ينزلون فى النبلاء الروس عقوبات جسدية ؟ وكانت المقارنات التى تفرض نفسها عليه بهذه الصدد تجعله يحمر خجلاً وحياء . ان هذا الرجل الصلب القاسى الذى كان يعرف مهام وظيفته معرفة رائعة ، ويقوم بواجباته على أكمل نحو ، كانت نفسه نفس انسان حالم على وجه العموم . ويقال انه كان يمكنه ان يلعب دوراً فى المجالس ، لأنه كان يملك موهبة الخطابة ، ومع ذلك كان صوتاً طوال حياته ، وكان فى مظهره تكبر واستعلاء حتى فى المجتمع البطرسبرجى العالى الذى أخذ يتردد عليه فى هذه السنين الأخيرة . ولقد كاد التقاؤه ، فى بطرسبرج ، بتيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين ، أن يجعله مجنوناً . وهو الآن ، اذ يجد نفسه فى مواجهته على الجانب الآخر من الحاجز ،

يشعر بقلق فطيع • كان يخيّل اليه طوال الوقت أن حادثاً سيحدث فيحول دون قيام المبارزة ، فكان أيسر إبطاء يجعله يرتجف ارتجافاً من شدة نفاذ صبره • لذلك تقبّض وجهه تقبضاً أليماً حين أخذ كيريلوف فجأةً يتكلم ، بدلاً من اطلاق اشارة بدء القتال ، فيقول من باب التقيد بالشكل ، كما أعلن ذلك هو نفسه :

... الآن وقد تسلحتما ولم يبق علىّ الا أن أطلق اشارة القتال ، فانتى أعرض عليكما لآخر مرة أن تتصالحا • انتى لا أتكلم الا من باب التقيد بالشكل • فهذا واجبى بصقتى شاهداً .

وهذا هو ما فريكي نيقولايفتش الذى لزم الصمت حتى ذلك الحين ، ولكنه لم يكف عن لوم نفسه على ضعفه منذ أمس ، يتدخل فوراً ، بمصادفة تشبه العمد ، فيقول مؤيداً اقتراح كيريلوف :

... انتى أنتى على أقوال السيد كيريلوف ، وأضم صوتى الى صوته • وليست الفكرة القائلة بأن المصالحة لا تتم على أرض القتال الا وهماً من الأوهام الاجتماعية الباطلة التى تصلح للفرنسيين فى أكثر تقدير ! • على كل حال ، لكما ما تشاءان ، غير انتى لا أرى أن هناك اساءة قد وقعت ، أو أن هناك اهانة قد لحقت أحداً ! • • • لقد وددت لو أقول هذا الكلام منذ مدة طويلة • • • ما دام ثمة استعداد لتقديم كل الاعتذارات الممكنة • • أليس هذا صحيحاً ؟

قال ما فريكي ذلك واحمر احمراراً شديداً • انه قلما اتفق له أن قال كلاماً طويلاً هذا الطول كله ، وبمثل الاندفاع كله !

وهنا أسرع نيقولاى فيسقولودوفتش ستافروجين يتدخل قائلاً :

... انتى أوكد مرةً أخرى ما سبق أن عرضته من تقديم كل الاعتذارات الممكنة •

فصاح جاجانوف يقول خارجاً عن طوره ، ملتفتاً نحو مافريكى
يقولايقتش ، حتى لقد ضرب الأرض بقدمه من شدة غضبه :

- مستحيل ! قل لهذا السيد يا مافريكى يقولايقتش ، ما دمت
شاهدى لا عدوى ، قل لهذا السيد (وأوماً بطرف مسدسه الى
ستافروجين) أن ما يعرضه من تنازلات لا يزيد على أن يفاقم الاهانة .
فهو يرى ان الاهانات التى تصدر عنى أنا لا تناله هو بأذى ولا تلحق به
خزياً ! انه يرى أنه لا عار عليه اذا هو تهرّب منى ! ... فماذا يظنى
اذن ؟ ثم انه قد قال كلامه أمامك ، فلم تغضب لكرامتى التى تهان ، فكيف
تكون شاهدى ؟ انك لا تزيد على أن تثير غيظى حتى لا أصيبه .
قال ذلك وضرب الأرض بقدمه مرة أخرى ، وكان الزبد يخرج
من فمه .

صرخ كيريلوف قائلاً بكل ما أوتى من قوة :

- انتهى التفاوض . واحد ! اثنين ! ثلاثة !

فلما قال « ثلاثة » ، اتجه الخصمان أحدهما نحو الآخر . وسرعان
ما رفع جاجانوف مسدسه بعد خمس أو ست خطوات ، وأطلق . ووقف
لحظة ، فلما لاحظ أنه لم يصب ستافروجين أسرع نحو الحاجز . فسار
ستافروجين الى لقائه ورفع مسدسه ، لكنه تعمد أن يرفعه أكثر مما يجب ،
بحيث لا تصيب الرصاصة هدفها ، وأطلق دون يصوب تقريباً . فعل
ذلك ثم أخرج منديله ولف به اصبع يده اليمنى . وعندئذ فقط انما
رأى آرتمى بافلوقتش أنه لم يخطئ . خصمه تماماً ، ولكن رصاصته
انزلت على طول اصبعه دون أن تبلغ منها العظم ، فلم تزد الاصابة على
أن تكون خدشاً . وأسرع كيريلوف يقول ان المباراة ستستمر اذا لم
يكف الخصمان بهذا اللقاء الأول .

قال جاجانوف بصوت مختنق (وكان حلقه جافاً) ، قال وهو يلتفت نحو مافريكى نيقولايفتش من جديد :

- انتنى أعلن أن هذا الرجل (وأوماً الى ستافروجين مرةً أخرى) قد تعمد ان يطلق رصاصة فى الهواء ... نعم ، تعمد ذلك بارادته . فهذه اهانة جديدة ، هذه مسبة أخرى يوجهها الى ... انه يريد أن يجعل المبارزة مستحيلة .

قال نيقولاى فسيفولودوفتش جازماً :
- من حقى أن أطلق كما أريد ، شريطة أن لا أخلّ بالقواعد المقررة .

فأجاب جاجانوف صارخاً :
- لا ، ليس من حقه . قل له هذا ! ما بالك لا تقول له !
تدخل كيريلوف فقال :
- انتنى أشارك نيقولاى فسيفولودوفتش رأيه كل المشاركة .
وتابع جاجانوف صراخه يقول دون أن يصغى الى أحد :
- لماذا يتجنب أن يصينى . انتنى أحتقر سماحته هذه ... انتنى أبصق على ... انتنى ...

فأجابه ستافروجين وقد نفذ صبره :
- أقسم لك بشرفى انتنى لم أشأ اهانتك البتة . وانما انا أطلقت فى الهواء لأننى أصبحت لا أريد أن أقتل أحداً ، لا أنت ولا شخصاً آخر . الأمر لا يتناولك . صحيح انتنى لا أرى أنتنى أهان ، ويوسفنى كثيراً أن هذا قد أغضبك . ولكننى لن أسمح لأحد بأن يحرمنى من استعمال حقى .
أعول جاجانوف يقول متوجهاً بكلامه الى مافريكى نيقولايفتش أيضاً:

- اذا كان يخشى سفح الدم الى هذه الدرجة من الخشية ، فاسأله
لماذا طلبني الى المبارزة ؟
قال كيريلوف :

- كيف كان يمكنه أن لا يطلبك الى المبارزة ؟ انك لم تشأ أن تسمع
شيئاً . فلم يكن هناك وسيلة للتخلص منك غير هذه الوسيلة !
قال مافريكى نيقولايفتش بجهد ظاهر ، وقد آله مجرى هذه
القضية كثيراً :

- أحب أن ألفت النظر الى أن المبارزة لا يمكن أن تستمر بالفعل
اذا أعلن أحد الخصمين أنه سيطلق فى الهواء وذلك لأسباب دقيقة . . .
وواضحة . . .

فصاح ستافروجين يقول وقد ذهب عنه كل صبره :

- أنا لم أعلن بتاتاً اننى سأطلق فى الهواء كل مرة . انك لا تعرف
ما هى نيائى التى أضمرها ، ولا تعرف كيف سأطلق النار فى المرة
التالية اننى لا أضع أى عائق يحول دون اتمام المبارزة .

قال مافريكى نيقولايفتش لجاجانوف :

- اذا كان الأمر كذلك فالمبارزة تستمر .

وهنف كيريلوف آمراً :

- ليقف كل منكما فى مكانه أيها السيدان !

وعاد الخصمان يتجه كل منهما نحو الآخر من جديد . ومرة أخرى
أخطأ جاجانوف خصمه نيقولاى فسيفولودوفتش الذى أطلق النار فى الهواء
هذه المرة . غير أن طلقتى نيقولاى فسيفولودوفتش يمكن أن تكونا محل
مناقشة ؛ ولولا أنه اعترف هو نفسه بأنه أطلق فى الهواء عامداً لكان فى

امكانه أن يدعى أنه صوّب فأحسن التصويب ، لأنه في الواقع لم يكن يسدّد سلاحه نحو السماء أو نحو قمة شجرة ، وإنما كان يسدّده الى ما فوق قبة خصمه قليلاً . حتى أن تسديده في المرة الثانية كان أخفض من تسديده المرة الأولى ، كأنما ليبرهن على صدق ارادته . ولكن تهدئة جاجانوف أصبحت الآن مستحيلة .

قال جاجانوف وقد كزّت أسنانه :

- أيضاً . ولكن لا فرق عندي ! لقد دُعيت الى المبارزة فلي أن استعمل حقى . أريد أن أطلق مرةً ثالثة ... مهما كلف الأمر !

قال كيريلوف موافقاً على كلامه بلهجة جافة :

- هذا حقك .

ولزم مافريكي نيقولايفتش الصمت . وعاد الحصان الى موقعيهما مرة ثالثة أخيرة ، وسارا أحدهما نحو الآخر بأمر من كيريلوف . فقدم جاجانوف حتى وصل الى الحاجز ، فلما صار هناك ، على مسافة اثنتي عشرة خطوة ، صوّب الى ستافروجين . ولكن يديه كانتا ترتعشان ارتعاشاً يبلغ من القوة أنه كان يستحيل عليه أن يحسن التسديد . ووقف نيقولاى فيسبولودوفتش جامداً خافضاً مسدسه ينتظر طلقة عدوه .

صرخ كيريلوف بصرامة وعنف :

- أطلقت ... أطلقت التسديد كثيراً ! أطلق ، أطلق بسرعة !

وانطلقت الرصاصة ، فاذا بقبة الكستور الأبيض التي كانت على رأس نيقولاى فيسبولودوفتش ، تندرج على الأرض . لقد نُقبت القبة في موضع منخفض ، فلو جاءت الطلقة أخفض بمقدار سنتيمتر واحد ، لانهى كل شيء .

تناول كيريلوف القبعة من الأرض ، ومدّها الى نيقولاى
فسيفولودوفتش .

صرخ مافريكى نيقولايفتش يقول وقد رأى ستافروجين كمن نسى
جاجانوف ، وأخذ يدقق النظر فى القبعة مع كيريلوف ، صرخ يقول
ستافروجين بانفعال شديد :

– أطلق ! لا تجعل خصمك ينتظر طويلاً !

فارتعش ستافروجين ، ونظر الى جاجانوف ، ثم أشاح بوجهه عنه .
ودون أن يكلف نفسه هذه المرة حتى غناء التظاهر ، أفرغ مسدسه فى
اتجاه الغابة . وانتهت المبارزة .

لبث جاجانوف واقفاً كالمتجمد . واقترب منه مافريكى نيقولايفتش ،
فقال له بضع كلمات . ولكن لم يبد على جاجانوف أنه سمعها . وحين
انصرف كيريلوف رفع قبعته محيياً مافريكى نيقولايفتش . أما ستافروجين،
المهذب فى العادة ، فإنه لم يلتفت نحو خصمه بعد أن أطلق رصاصته فى
اتجاه الغابة ، وانما مد مسدسه الى كيريلوف بحركة مفاجئة ، واتجه
مسرعاً الى المكان الذى رُبعت فيه الحبول . كان وجهه قد اكسى تعبيراً
خبيثاً . وكان صامتاً . وكان كيريلوف صامتاً كذلك . وركبا حصانيهما ،
ومضيا خبيثاً .

- صاح ستافروجين يسأل كيريلوف نافد الصبر :
- ما بالك تصمت ولا تتكلم ؟
- وكانا قد أصبحا غير بعيدين عن البيت • فأجابه كيريلوف :
- ماذا تريد أن أقول لك ؟
- وشبَّ حصان كيريلوف فأوشك كيريلوف أن يسقط •
- سيطر ستافروجين على نفسه • وقال بصوت خافت :
- كنت لا أريد أن أهين ذلك •• الغبي ، ومع ذلك أراني قد أهنته مرة أخرى •
- فقال كيريلوف بلهجة قاطعة :
- نعم أهنته مرةً أخرى • ثم انه ليس غيباً •
- فعلت مع ذلك كل ما استطعت أن أفعله •
- لا •
- ماذا كان يجب عليَّ أن أفعل ؟
- كان يجب أن لا تدعوه الى المبارزة •
- أأسمح أذن بأن أصفع مرةً أخرى ؟
- نعم •
- أصبحت لا أفهم شيئاً •
- كذلك قال ستافروجين غاضباً واستطرد يقول :
- لماذا ينتظر منى جميع الناس مالا ينتظرونه من أحد غيرى ؟ لماذا

يجب علىَّ أن أحتمل ما لا يحتمله أحد ، وأن أقبل من الأثقال ما لا يطيق
أحد حمله ؟

- كنت أظن أنك أنت نفسك تبحث عن هذه الأثقال •

- أنا ؟ أبحث عن أثقال ؟

- نعم •

- أهو ظاهر ملحوظ الى هذا الحد ؟

- نعم •

ولبنا صامتين بضع لحظات • كان ستافروجين يبدو مهموماً ، بل
مضطرباً أشد الاضطراب • واستأنف كلامه فقال قلقاً ، كأنما هو يحاول
أن يبرر سلوكه :

- لم أسدّد اليه لأنني لم أشأ أن أقتل أحداً • هذا هو السبب
الوحيد • أؤكد لك •

- ما كان ينبغي لك أن تهينه •

- فماذا كان يجب أن أفعل إذن ؟

- كان يجب أن تقتله •

- أيؤسفك أنني لم أفعله ؟

- لست آسفاً على شيء • لقد ظننت أنك كنت تريد حقاً أن تقتله •

انك لا تعرف أنت نفسك ما الذي تسعى اليه وتبحث عنه •

قال ستافروجين ضاحكاً :

- أبحث عن أثقال •

فسأله كيريلوف :

- اذا كنت لا تريد سفح الدم ، فلماذا أتحت له فرصة القتل ؟

- لو لم أطلبه للمبارزة ، لقتلني بغير مبارزة •

- هذا ليس شأنك • لعله ما كان يقتلك •
- كان يمكن أن يكتفى بصنمى مثلاً ؟
- هذا ليس شأنك • احمل أثقالك • والا فلا ميزة ولا فضل ، ولا جدارة ولا استحقاق !
- اننى أبصق على هذا كله ، ولا أسعى الى الحصول على أى ميزة أو فضل أو جدارة أو استحقاق •
- كنت أظن أنك تبحث عن ذلك وتسمى اليه •
- هكذا ختم كيريلوف الحديث بهدوء يثير الفيط •
- واقترح عليه ستافروجين أن يدخل معه ، قائلاً له :
- هل لك أن تحيى معى الى البيت ؟
- فردّ عليه كيريلوف :
- بل أنا عائد الى مسكنى • استودعك الله •
- ونزل عن الحصان ، وتأبط صندوق المسدسات •
- سأله ستافروجين وهو يمد اليه يده ليصافحه :
- ولكن أرجو أن تكون أنت على الأقل غير حاقد علىّ ، هه ؟
- فأجابه كيريلوف عائداً اليه ليصافحه :
- لا ، بتاتاً ! ان أثقالى خفيفة ، لأن هذا من طبيعتى ، أما أثقالك أنت فهي أكبر ، وذلك يتعلق بطبيعتك • ما يجب أن يستحي المرء من هذا كثيراً بل قليلاً •
- أنا أعلم أن لى طبيعة ضعيفة ، لذلك ليس لى أى مطمع فى القوة •
- تحسن صنماً • ما أنت بالقوى • تعال زرني ، فشرب الشاي ودخل نيقولاى فيسيفولودوفتش بيته مضطرباً اضطراباً شديداً •

وسرعان ما أبلغه ألكسى ايجورتش أن فرارا بتروفا ، وقد
أسمدها كثيراً أن يخرج ابنها فى نزهة على الحصان - هذه أول نزهة له
بعد ثمانية أيام قضاها مريضاً - قد أمرت باعداد عربتها وخرجت ، كما
كانت تفعل فى الماضى ، لتستشق قليلاً من الهواء الطرى ، لأنها بعد هذه
الأيام الثمانية قد نسيت ما هو الهواء الطارى .

قاطعها ستافروجين فجأة يسأله :

- أخرجت وحدها أم مع داريا بافلوفنا ؟

واكفهر وجهه حين علم أن داريا بافلوفنا ، لشعورها بتوعك صحتها،
قد رفضت أن تصحب فرارا بتروفا ، وأنها الآن فى شقتها .

قال له ستافروجين وكأنه اتخذ قراراً حاسماً على حين فجأة :

- اسمع . راقبها اليوم طول النهار ، فاذا لاحظت أنها آتية الى
عندى ، فأوقفها فوراً وقل لها اننى لا أستطيع استقبالها ، على الأقل خلال
بضعة واننى أنا الذى أرجوها هذا الرجاء واننى سأستدعيها متى
آن الأوان . هل تسمع ؟

أجابه ايجورتش بصوت مضطرب وهو يخفض عينيه :

- سأقول لها ذلك .

- ولكن لا تقله لها الا اذا رأيت أنها تريد المجيء الى .

- اطمئن بالآ ، لن يحدث خطأ . فبواسطتى أنا انما تمت المقابلات
حتى الآن . انها تتجه دائماً الى .

- أعلم . ومع هذا ، لا تتدخل أنت الا فى آخر لحظة .

ولكن ما كاد يخرج الخادم المعجوز حتى فُتح الباب الذى كان قد أغلقه ، فاذا داريا بافلوفنا تظهر فى العتبة • كانت نظرتها هادئة ، ولكن وجهها كان أكثر شحوباً مما عهد فيه من شحوب •

هتف ستافروجين يسألها :

— من أين جئت ؟

— كنت وراء الباب انتظر أن يخرج حتى أدخل • وسمعت ما قلته له ، فلما خرج اختبأت فى زاوية على اليمين فلم يبصرنى •

— اننى أريد ، منذ مدة طويلة ، يا داشا ، أن أقطع علاقاتنا ••• الى حين • لم أستطع أن استقبلك هذه الليلة رغم رسالتك • وقد أردت أن أكتب اليك أنا نفسى ، لكننى لا أعرف ماذا اكتب •••

أضاف هذه الجملة الأخيرة بغضب يكاد يمازجه اشمزاز •

قالت داريا بافلوفنا :

— أنا أيضاً كنت أرى أن نقطع علاقاتنا • ان شبهاً قوية تقوم فى نفس فرارا بتروفنا •

— فلنظن ما يشاء لها هواها أن تظن •

— ما ينبغي لها أن تقلق • واذن لم يبق علينا الا أن نتظر النهاية •

— أما تزالين واثقة بأن سيكون ثمة نهاية حتماً ؟

— نعم ، أنا واثقة •

— لا شئ ينتهى فى هذا العالم •

— ولكن فى هذا الأمر سيكون ثمة نهاية • نادنى عندئذ فأجىء •
والآن استودعك الله •

سألها وهو يتسم ابتسامة ساخرة :

- وما عسى تكون تلك النهاية ؟
- فسأله دون أن تجيب عن سؤاله :
- ألم تُجرح ؟... و ... ألم تسفح دماً ؟
- جرى كل شيء مجرى غياً أحرق • لم أقتل أحداً ، لا تخافى •
- على كل حال ، ستعرفين التفاصيل فى هذا اليوم نفسه • سيتكلم عنها جميع الناس • لا أشعر بأن صحتى حسنة •
- أنا ذاهبة •
- ثم أضافت تسأله بتردد :
- هل اليوم تعلن الزواج ؟
- لا ، لا اليوم ، ولا غداً • بعد غد •... لست أدرى • قد نموت جميعاً • وهذا أفضل • دعينى ، دعينى أخيراً !
- هل تكون سيباً فى ضياع الأخرى •... اللئانة العقل ؟
- لن أهلك المجنونات •... لا هذه المجنونة ولا تلك •... ولكننى أعتقد أننى سأضيق العقالة الحكيمة : أنا أبلغ من الحقايرة والدناءة والحسة يا دانا أننى ربما ناديتك أنت « فى آخر الأمر » ، كما تقولين ، فإذا بك تهرعين مليئة النداء ، رغم كل ما تصفين به من عقل وحكمة • لماذا تضعين نفسك ؟
- أنا أعلم أننى فى النهاية سأبقى وحدى معك • و ... أنا انتظر تلك اللحظة !
- وإذا لم أنادك فى النهاية ، بل هربت ؟
- هذا لن يكون • ستادينى •
- ان ما تقولينه يشتمل على كثير من الاحتقار •

- أنت تعلم أن الأمر ليس أمر احتقار فحسب •
- معنى هذا أن فيه شيئاً من الاحتقار على كل حال ؟
- أسأتُ أنا التعبير • يشهد الله أنني أتمنى أن لا تحتاج الىّ في يوم
من الأيام •
- أبدلت جملةً بجملة تعادلها • أنا أيضاً أتمنى أن لا أكون سبباً
في ضياعك •
- لن تستطيع يوماً ، بحال من الأحوال ، أن تضيّعنى • وانك لتعرف
ذلك خيراً مما أعرفه •
كذلك أجابت داريا بألفولونا بحرارة ولهجة قاطعة • واستطردت
تقول :

- اذا لم أجيء الى قربك ، سأصير راهبةً من راهبات المحبة ، أعتى
بالمرضى ، أو أصبح بائعة متجولة أبيع الأناجيل فى القرى • لقد عزمت
أمرى واتخذت قرارى • لا أستطيع أن أتزوج ، ولا أستطيع أن أعيش
فى منازل كهذه • ما أريده شئ آخر ... انك تعرف كل شئ •
- لا ، لم أستطع فى يوم من الأيام أن أعرف ما تريدين • يبدو لى
أنك تهتمين بى قليلاً كبعض الممرضات المجائز اللواتى يعتنين بواحدة من
مريضاتهن أكثر من سائر المريضات - لا يدرى أحد لماذا - أو كبعض
تلك المجائز اللواتى يحبين دفن الموتى ويرين أن هذه الجثة أجمل من
تلك الأخرى • ما بالك تنظرين الىّ بهيئة غريبة عجيبة الى هذا الحد ؟
سألته بلهجة فيها كثير من الشفقة وهى تنظر اليه بانتباه خاص :
- أأنت مريض جداً ؟ رباه كيف يريد هذا الرجل أن يستغنى عني ؟
- اسمعى يا داشا ، اننى الآن تظهر لى أشباح دائماً • فبالأمس مثلاً
ظهر لى شيطان صغير على الجسر ، وعرض علىّ أن يقطع عنق ليادكين

وماريا تيموفيتشنا ، فأنتهى من زواجى الشرعى ، ولا يتحدث عنه أحد بعد ذلك أبداً . وسألنى الشيطان الصغير أن أدفع له عربوناً قدره ثلاثة روبلات ، لكنه أفهمنى بوضوح أن العملية كلها لن تكلفنى أقل من ألف وخمسمائة روبل . هذا شيطان يجيد الحساب . انه حيسوب ! ها ها ها !

– أأنت واثق بأن ذلك لم يكن الا شبحاً ؟

– لا ، لم يكن شبحاً ، وانما هو فدكا قاطع الطريق ، الهارب من سجن الأشغال الشاقة . ولكن ليس الأمر هذا . هل تعرفين ماذا فعلت ؟ لقد أعطيته كل ما كان فى محفظتى من مال ، وهو الآن مقتنع بأننى دفعت له عربوناً .

– لقيته ليلاً ، وعرض عليك ذلك المرض ؟ ولكن أأنت ترى اذن أنك قد وقعت فى شباكهم وانتهى الأمر ؟

– ليكن ما يكون !

ثم أضاف يقول وهو يتسم ابتسامة خبيثة :

– ولكننى أرى هناك على طرف لسانك سؤالاً تريدان أن تلقيه !
خافت داشا .

– أى سؤال ؟ ليس ثمة سؤال البتة . ليس عندى أيسر شك .
اسكت .

كذلك صاحت مضطربة أشد الاضطراب ، كأنها أرادت أن تدفع عن نفسها ذلك السؤال .

– أأنت واثقة بأننى لن أستعين بفدكا ، ولن أذهب الى دكانه .

قالت داريا بافلوفنا وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

– رباه ! لماذا يعذبنى هذا التعذيب ؟

- اغفرى لى هذه المزحة السخيفة ! لعلنى سَرَتُ الىَّ عدوى
عاداتهم السيئة ! هل تعلمين أنتى ، منذ الليلة البارحة ، تستبد بى رغبة
رهية فى الضحك ، فى الضحك بلا توقف ، مدةً طويلة ، دائماً ...
لكأنتى مصاب بمرض الضحك • انتهى ! هذه أُمى تصل • عرفت ضجة
مركبها واقفةً أمام درجات المدخل •

أمسكت داشا يده •

- أسأل الله أن يحبك من شيطانك ! و ... نادنى ... نادنى
بأقصى سرعة •

- شيطانى ؟ ما هو الا شيطان صغير مصدور ، مزكوم ، فاشل •
ولكن هأت ذى مرةً أخرى لا تجسرين أن تعبرى عن فكرتك
يا داشا !

ألفت عليه داشا نظرة مثقلة بالألم والعب ، واتجهت نحو الباب •
فهتف يقول لها ، وهو يتسم ابتسامة متشنجة ، ابتسامة خيئة :

- اسمعى يا داشا ! اذا ... الخلاصة ... « اذا » ... هل فهمت ؟
« اذا » أنا استعنت بفدكا وذهبت الى دكانه ، ثم ناديتك بعد ذلك ، فهل
تجيئين ، هل تجيئين حتى بعد ذهابى الى دكانه ؟
خرجت داريا بافلوفنا دون أن تلتفت ، ودون أن تجيب ، مخفيةً
وجهها بين يديها •

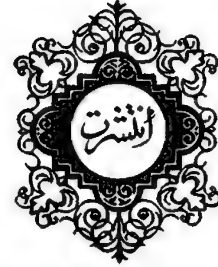
ودمدن نيقولاى سيفولودوفتش يقول بعد لحظة من تفكير ، وقد ألمَّ
بوجهه تعبير عن احتقار واشمئزاز :

- نعم ، ستهرع الىَّ ، حتى بعد ذهابى الى دكان فدكا • مبرضة !
هم ! ... على كل حال ، ربما كان هذا بعينه هو ما أنا فى حاجة اليه •

الفصل الرابع

الجميع ينظرون

١



حكاية المباراة بسرعة ، وأحدثت في النفوس تأثيراً قوياً وأسرع جميع الناس ينحازون الى صف نيقولاى فسيفولودوفتش . ان عدداً كبيراً ممن كانوا أعداءه حتى ذلك الحين قد أصبحوا الآن أصدقاء له . وكان مردٌ هذا الانقلاب في رأى العام ، هذا الانقلاب غير المتوقع ، كان مردٌه في جلته الى تدخل شخصية ظلت متحفظة خلال مدة طويلة ، ولكنها قالت في الوقت المناسب كلمات محكمة اجتذبت اطباق رأى جميع الناس ، اذ أضفت على الحادث معنى جديداً شائقاً . اليكم كيف حدث هذا :

في غداة يوم المباراة ، كان المجتمع كله محتشداً عند زوجة عميد النبالة التي كانت تحتفل بعيد ميلادها . وقد حضرت جوليا ميخائيلوفنا هذا الاجتماع ، بل قد ترأسته . وقد وصلت الى الحفلة مع ليزافنا نيقولايفنا التي كانت مشرقة الجمال مرحلة الزواج خاصة ، وذلك أمر بدا لكثير من سيداتنا منذ الوهلة الأولى محل شبهة وريب . يجب أن أقول في هذه المناسبة ان خطوبتها مع مافريكى نيقولايفتش أصبحت لا تحتمل الشك .

فلقد قالت جوليا ميخائيلوفنا ، معجبةً عن سؤال ألقاه عليها جنرال محال على التقاعد ، وهو شخص خطير الشأن سأتكلم عنه بعد قليل ، قالت ان ليزافتا نيقولايفنا مخطوبة . ومع ذلك لم تقبل واحدة من هاته السيدات أن تصدق النبأ . فهن جميعاً مصرات اصراراً عنيداً على تخيل لا أدري أية قصة ، لا أدري أية حكاية عجبية ملفزة يقال انها حدثت في سويسرا ويقال ان جوليا ميخائيلوفنا داخله فيها لا أدري كيف ! انه يصعب على المرء أن يقول كيف صدق الناس هذه الشائعات بل هذه التخيلات الى هذا الحد من التصديق ، ولماذا يحرصون هذا الحرص المطلق على اقحام اسم جوليا ميخائيلوفنا فيها . فما ان دخلت حتى التفت نحوها جميع الناس بنظرات مثقلة استطلاعاً . ويحسن أن نشير الى أن الناس كانوا في تلك السهرة لا يتحدثون عن المباراة الا محاذرين ، بصوت خافت ، وذلك بسبب حداتها وبسبب ظروف خاصة صاحبها . يُضاف الى ذلك أنهم يجهلون ما عسى يكون موقف السلطات . على أنهم كانوا يعرفون أن الخصمين المتبارزين لم تتعرض لهم الشرطة بأى اطلاق ، وأن جاجانوف قد استطاع أن يرجع صباحاً الى منزله في دوخوفو . وكان جميع الناس ينتظرون بفارغ الصبر طبعاً أن ينبرى أحد للكلام عن الحادث بصوت عال ، فيفتح الباب بذلك لحب الاطلاع الذي كان يغلي في جميع الصدور . وكانت آمال الحشد معقودةً بخاصة على الجنرال الذي أشرت اليه منذ برهة . ولم يخب ظنهم .

كان هذا الجنرال ، وهو واحد من أبرز أعضاء نادينا ، كان رجلاً من مالكي الأراضي ليس على جانب كبير من الفنى والثراء ، لكنه متوقد الذهن محكم الآراء ، يحب التودد الى الآنسات والتلطف معهن ، ويهوى خاصة أن يتكلم في المجتمع جهاراً بكل ما تهبه له رتبة الجنرال من سلطة وسطوة ، أن يتكلم عن أمور لا يسمح الناس لأنفسهم أن يتكلموا فيها الا

همساً بعد ، فى الأركان والزوايا النائية • وذلك كان دوره بينما ان صح التعبير • ثم انه يتكلم بصوت يتصنع العذوبة ، ماطاً كلماته ؛ ولعله اكتسب هذه العادة من معاشرة الروس الذين يسافرون الى الخارج أو من معاشرة السراة القدامى الذين دمرّ ثرواتهم تحرير الفلاحين • حتى ان ستيفان تروفيموفتش قد ذكر ذات يوم أن المالك من مالكي الأراضى يكون صوته أقرب الى اصطناع العذوبة ويكون فى كلامه أميل الى مط الألفاظ ، على قدر ما تكون قوانين الاصلاح الزراعى قد نالت ثراءه بأذى أكبر • على أن ستيفان تروفيموفتش كان هو نفسه يجعل صوته حلواً ممطوطاً ، ولكن دون أن يلاحظ ذلك بتاتاً •

ولقد تكلم الجنرال كلام رجل مختص خبير : انه وهو يمت الى جاجانوف بقربى بعيدة ، كانت علاقاته به سيئة ، بل لقد كان بينهما دعاوى تنظر فيها المحاكم • يضاف الى ذلك أنه قام فى الماضى بمبارزتين حتى ان احدى هاتين المبارزتين قد كلفته ثمناً باهظاً ، هو أنه أُرسل الى القوقاز جندياً بسيطاً * •

أشار أحد الحضور الى فرفارا بتروفنا التى بدأت تخرج بعد مرضها ، بل انه لم يشر الى فرفارا بتروفنا نفسها وانما أشار الى مركبتها الفخمة التى تجرها أربعة أفراس شهباء أتت بها من حظيرة التهجين التى يملكها آل ستافروجين • فاذا بالجنرال يقول فجأة انه قد التقى هذا الصباح « بالفتى ستافروجين » راكباً حصاناً • فسرعان ما صمت الجميع • وحرّك الجنرال شففيه مغنمياً ، ثم قال وهو يقلّب بين يديه علبة ذهبية للتبغ هى هدية امبراطورية :

— يؤسفنى أننى لم أكن هنا ، منذ بضع سنين خلت • كنت أيامئذ فى كارلسباد ••• هم ••• ان هذا الشاب الذى يسرى بين الناس كلام

كثير عنه يشوقنى أمره جداً ٠٠٠ هم ٠٠٠ أصحيح أنه مجنون ؟ لقد قيل ذلك فى الماضى ٠ وهأنذا أعلم أنه وقد أهين أمام قريباته ذات يوم قد مضى يختبئ تحت مائدة ٠ وأمس قال لى ستيفان فرخوفنسكى ان ستافروجين قد اقتتل فى مبارزة مع ذلك ٠٠٠ الذى يسمى جاجانوف ، لا لشيء الا تحقيق غاية من غايات الفروسية هى أن يقدم جبينه هدفاً يرميه بالرصاص رجل حائق مسعور ، تخلصاً منه لا أكثر ٠ هم ٠٠٠ ألا ان هذا هو نوع ضباط حرس سنة ١٨٢٠ من ذا يعاشر هنا ؟

وصمت الجنرال كأنه ينتظر جواباً ٠ وبذلك فتح الباب لما كان يضطرم فى نفوس أفراد مجتمعنا من نفاذ الصبر ٠

فإذا بصوت جوليا ميخائيلوفنا التى أحققها أن تشعر فجأة أنها محل أنظار الجميع ، اذا بصوتها يعلو قائلاً على حين بفته :

— أى شيء أبسط من هذا ؟ لماذا يدهشنا أن يقتل ستافروجين فى مبارزة مع جاجانوف ، وأن يزدري اهانة طالب ؟ ما كان له على كل حال أن يقاتل رجلاً كان فى الماضى قناً من أقاتنه !

كلمات من سحر ! ان هذه الفكرة البسيطة لم تكن قد دارت فى خلد أحد بعد ٠ وكان لهذه الجملة التى قالتها جوليا ميخائيلوفنا نتائج خارقة ٠ زال جو الفضيحة ٠ جميع التقولات والنمائم والأفاميص التى كان يتناقلها الناس غابت فى الظل ٠ اكتسبت القضية كلها معنى جديداً ٠ ان شخصية جديدة قد انكشفت لنا ، شخصية كنا قد أخطأنا فى معرفتها ، شخصية هى شخصية بطل صلب يمثل أرفع التقاليد ٠ انه وقد نالته اهانة قاتلة من طالب ، أى من شاب متعلم ليس الآن قناً ، قد ازدري الاهانة لأن الشخص الذى أهانه كان فى الماضى عبداً له ٠ ويضطرب الناس وتجري النمائم والتخرصات فى طريقها ، ويلطخ الناس بالوحل ذلك الرجل الذى

صُفّع • ولكن الرجل لا يكثر برأى هؤلاء الناس الذين لم يرتفعوا بعد
الى مستوى فهم الأمور فهماً صحيحاً صادقا ، ويخطون فى آرائهم خط
عشواء •

هتف عضو عجوز من أعضاء النادى يخاطب جاره بحرارة نيّلة
قائلاً :

– ما كان أغبانا ، أنا وأنت ، يا ايفان الكسندروفتش ، حين رحنا
تتناقش فى المبادئ الصادقة الصحيحة !

فأجابه صاحبه موافقا فى فرح :

– نعم يا بطرس ميخائيلوفتش • ما رأيك فى جيل الشباب ؟

وتدخل ثالث فقال :

– ليس الامر أمر جيل الشباب يا ايفان الكسندروفتش • يجب أن
لا تخلط بين الأمور : ان ستافروجين هذا نجم ، انه حالة فذة فريدة ،
وليس يمثل جيل الشباب • هكذا يجب أن تنظر الى الأمور •

– والى رجال من هذا المعدن انما نحن فى حاجة • يعوزنا رجال من
هذا النوع •

على أن الشئ الأساسى هو أن « الرجل الجديد » الذى انكشف
« سيداً حقيقياً » قد كان عدا ذلك أغنى مالك فى مقاطعتنا ، فكان يمكن اذن
أن يقوم بدور كبير فى الشؤون العامة ، وأن يكون نافعا كل النفع • لقد
سبق لى أن قلت كلمة عن الحالة النفسية التى كان عليها مالكو الأراضى
عندنا •

وأخذت الرموس تزداد حرارة وحماسة •
قال أحدهم :

— انه لم يحتقر اهانة الطالب فحسب ، بل عقد يديه وراء ظهره ،
لاحظوا هذا ، اتبها الى هذه البادرة •

فأصاف آخر :

— ولم يجز الطالب الى المحاكم الجديدة •
وتدخل ثالث فقال :

— رغم أن هذه المحاكم الجديدة كان يمكن أن تحكم له بخمسة
عشر روبلاً ، تعويضاً عما نال شرفه من اهانة وهو سيد من السادة ! ...
هى ، هى ، هى ! ...

وصرخ صوت غاضب يقول :

— بل سأكشف لكم أنا عن سر المحاكم الجديدة * • اذا كان أحد
مقتنعاً بأنه ارتكب جريمة سرقة أو احتيال ، فان خير ما يفعله هو أن
يركض الى بيته قبل فوات الأوان وأن يقتل أمه ، فذلك يضمن لنفسه
البراءة فوراً ، وتأخذ سيدات المحاكم بتحريك مناديلها • هذه هى الحقيقة
صافية •

— نعم ، هذا صحيح كل الصحة •

وجرت الأحاديث فى طريقها • تذكر الناس العلاقات التى كانت
قائمة بين نيقولاى فسيفولودوفتش والكونت « ك » • • • • • لقد كان معروفاً
أن الكونت « ك » مستقل الرأى وأنه يعادى الإصلاحات الأخيرة •
وكان معروفاً كذلك أن له نشاطاً فى الحياة العامة ، وان يكن هذا النشاط
قد تباطأ قليلاً فى الآونة الأخيرة • وها هم أولاء يذكرون على حين فجأة
تقلاً عن مصدر مطلع جدير بالثقة والتصديق ، رغم أنه ما من واقعة تؤكد
هذه الشائعة ، أن نيقولاى فسيفولودوفتش قد خطب احدى بنات الكونت •
أما ما لعله قد حدث فى سويسرا بين ليزافنا نيقولايفنا وستافروجين ، فلم

يتحدث أحد عنه بعد ذلك . يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن أسرة دروزدوف كانت قد فرغت من اتمام جولة زياراتها التي أتمتها حتى ذلك الحين . وأجمعت السيدات على أن ليزافنا نيقولايفنا فتاة كسائر الفتيات ، باستثناء أنها تتكلف الظهور بمظهر شخص مريض الأعصاب ، وتستمد من ذلك زهواً بنفسها . وقالوا ان الاغماء الذي أصابها يوم وصول نيقولاى فسيفولودوفتش لم يكن له من سبب غير ذعرها من السلوك المشين الذي صدر عن الطالب . حتى لقد أصبحوا الآن يبالغون في التطفيف من قيمة الأمور التي كانوا يسبقون عليها من خيالهم قبل ذلك ألوانا هائلة فإذا هي أشبه بالفأز يحار في فهمها العقل . أما العرجاء فقد نُسيّت تماما . حتى لقد أصبح الناس ينزعجون من الاتيان على ذكرها . « هبّ أن قد كان في حياته مائة عرجاء ! من منا لم يكن شابا ؟ » . وأخذوا يشيدون بموقف الاحترام الذي يقفه نيقولاى فسيفولودوفتش من أمه ، ويرعون في وصفه بأنواع الفضائل ، ويمتدحون ما حصل من معارف واسعة وثقافة غزيرة خلال السنين الأربع التي قضاها طالبا في الجامعات الألمانية . أما سلوك جاجانوف فقد أجمعوا على نعته بأنه قد أعوزته اللياقة والكياسة ، فما كان لجاجانوف أن يتهجم على رجل من طبقته . وأما جوليا ميخائيلوفنا فقد اعترفوا لها بنفاذ البصيرة وسداد الحكم وحصافة الرأي .

لذلك فان الناس ، حين ظهر نيقولاى فسيفولودوفتش أخيرا ، قد استقبلوه استقبالا فيه جدٌ يبلغ غاية السذاجة ، محدّقين اليه بنظرات تفيض حباً استطلاع ونفاد صبر . وسرعان ما حبس نفسه في صمت كامل مطلق ، فأرضى صمته الناس أكثر مما كان يرضيهم أن يلقي خطاباً طويلة . الخلاصة : أصبح كل شيء فيه محيا مناسبة ، وجرى سلوكه مجرى « الموضة » . والمرء في الريف متى ظهر في المجتمع أصبح

يستحيل عليه أن يختبئ . وعاد نيقولاى فسي فولودوفتش يراعى جميع آداب الريف مراعاة دقيقة تمضى الى حد الاتقان المرهف . وكان الناس يرون أنه غير مرح فيقولون : « لقد تألم كثيراً » انه انسان غير عادى . من حقه أن يكون مهموماً . حتى زهوه وحتى تعاليه اللذان استاء منهما الناس استياءً كبيراً قبل أربع سنين ، أصبحت الآن يثيران الاحترام والاعجاب . وكانت فرارا بتروفا هي المنتصرة أكثر من أى شخص آخر . لا أدري هل أسفت كثيراً على انهيار آمالها المتعلقة بليزافنا نيقولايفنا . لكنها على كل حال قد وجدت فى زهوها قوة تشد أزرها . والأمر الغريب أنها بين عشية وضحاها اقتنعت اقتناعاً جازماً بأن ابنها نيقولاى قد اختار عروساً لنفسه احدى بنات الكونت « ك . . . » . والأغرب من ذلك أن هذا الاقتناع كان لا يقوم ، عندها هي أيضا ، الا على شائعات تسرى فى المدينة . ولقد كانت تمنى أن تسأل ابنها عن هذا الامر ، ولكنها لم تجرؤ . ومع ذلك عجزت عن السيطرة على نفسها مرتين أو ثلاث مرات فلامت ابنها ، وهي تصطنع المرح ، على أنه أصبح لا يصارحها بشئونه كما كان يفعل من قبل . فكان نيقولاى فسي فولودوفتش يتسم ، ولكنه يلتزم الصمت ، فكانت هي ترى فى هذا علامة موافقة . ورغم ذلك ، رغم ذلك كله ، لم تفلح فى نسيان العرجاء . كانت ذكرى العرجاء تثقل على قلبها كصخرة . انها كابوس رهيب يعذبها ويوقظ فى نفسها احساسات تنبؤ غريبة ، بينما كانت مؤمنة ايماناً قاطعاً بأن ابنها خطب احدى بنات الكونت « ك . . . » . لكننا سنتكلم عن هذا كله مرة أخرى فيما بعد . وحسبنا أن نذكر الآن أن فرارا بتروفا قد وجدت نفسها طبعاً ، من جديد ، محل احترام وتقدير ، وحفاوة وترحيب ، فى المجتمع كله ؛ غير أنها لم تستفد من هذا كثيراً ، لانها لا تخرج الا نادراً .

ومع ذلك فقد زارت جوليا ميخائيلوفنا زيارة فخمة • يجب أن نشير الى أن أحدا لم تؤثر في نفسه الكلمات البليغة التي نطقت بها جوليا ميخائيلوفنا في حفلة عيد ميلاد عميدة النبالة كما أثرت في نفس فرفارو بتروفنا : لقد أزعجت تلك الكلمات عن قلبها حملاً ثقيلاً ، وبددت من نفسها شيئاً من الشكوك التي ظلت تعذبها منذ يوم الاحد ذاك • حتى لقد قالت صراحةً : « انتى لم أكن أفهم تلك المرأة » • وباندفاعها المعهود فيها ، المألوف عندها ، قالت لجوليا ميخائيلوفنا حين زارتها : انتى آتية «لأشكرك» • فسرّت زوجة الحاكم سرورا عظيما ، ولكنها حافظت على وضع الرصانة والاستقلال ، وأخذت ترى في خطورة شأنها وعلو قدرها رأياً عظيما ، حتى لقد غالت في هذا بعض المغالاة في أغلب الظن • من ذلك أنها أعلنت أثناء الحديث أنها لم تسمع أبدا عن الاعمال العلمية التي قام بها ستيفان تروفيموفتش •

– انتى أستقبل طبعاً الشاب فرخوفنسكى ، وأعامله معاملة لطيفة •
صحيح أنه طائش ، ولكنه ما يزال فتى • ثم انه على جانب من الثقافة •
هو على كل حال ليس كناقذ قديم فات أوانه وولّى زمانه •

فأسرعت فرفارو بتروفنا تعلن لجوليا ميخائيلوفنا أن ستيفان تروفيموفتش لم يكن ناقدا في يوم من الايام ، وأنه قد عاش عندها دائما ، وانه اشتهر « بأحداث يعرفها الناس كافة » وقمت له في بداية حياته العلمية ، كما اشتهر في الآونة الاخيرة بأعماله التي تتناول تاريخ اسبانيا • وهو يهىء الآن كتابا عن وضع الجامعات الألمانية ، كما يهىء دراسة عن « مادونا » درسدن فيما تتقدم الخلاصة : لقد رفضت فرفارو بتروفنا أن تترك صديقها للسان جوليا ميخائيلوفنا •

– عن « مادونا » درسدن ؟ عن مادونا سكستين ؟ * يا عزيزتى

فرفارا بتروفنا ، لقد وقفت ساعتين أتأمل هذه اللوحة ، ثم انصرفت عنها خائبة الأمل . ما كان أشد دهشتي حين لم أفهم منها شيئاً . كارمازينوف يقول هو أيضا ان فهمها عسير . ما من أحد يرى فيها اليوم شيئا خارقا ، لا الروس ولا الانجليز . ان الشيوخ هم الذين خلقوا مجدها .

— أهذه موضة جديدة ؟

— أنا من جهتي أرى أن لا تنظر الى شبابنا نظرة تعال . الناس في كل مكان يصيحبون قائلين : هؤلاء شيوعيون ؛ ولكن في رأيي أن علينا أن نجذبهم وأن نحبيهم من أنفسهم . اننى أقرأ كل ما يُنشر الآن : المجلات ، المؤلفات التى تتكلم عن الشيوعية ، كتب العلوم الطبيعية . اننى أتلقى جميع المطبوعات الجديدة ، لأن على المرء أن يعرف زمانه ، وأن يعرف الناس الذين يعيشون فى عصره . لا يستطيع المرء على كل حال أن يقضى حياته كلها فوق ذرى الخيال . والنتيجة التى أخلص اليها هى أن علينا أن نستميل الشباب وأن ننعمهم من السقوط فى الهوة . تلك قاعدتى فى السلوك . وصدقتى يا فرفارا بتروفنا أننا وحدنا ، أبناء المجتمع ، نستطيع بتأثيرنا الحسن وموقفنا الودود خاصة أن نمسكهم على حافة الهوة التى يدفعهم اليها ما يتصف بهم جميع هؤلاء الشيوخ الطيبون من تعصب وتزمت وعدم تسامح . ثم اننى سعيدة جدا بما قلته لى عن ستيبان تروفيموفتش . لقد أوحيت الى بفكرة : انه قد يفيدنا كثيرا فى الصيحة الأدبية . تعلمين اننى أنظم حفلة كبرى لمعونة المعلمات الفقيرات اللواتى يرجع أصلهن الى اقليتنا . ان ستاً منهن قد ولدن فى مقاطعتنا ، وتبعثرن فى أنحاء روسيا ؛ وبينهن اثنتان مستخدمتان فى مصلحة التلغراف ، واثنتان طالبتان . ومنهن أيضا من يرون دخول الجامعة ، لكنهن لا يملكن من المال ما يمكنهن من ذلك . ان حظ المرأة الروسية فظيع يا فرفارا بتروفنا .

ان مسألة الدراسة العليا هي مشكلتهن الان . حتى لقد اضطر « مجلس
الامبراطورية » * نفسه أن يعالج هذه المشكلة في الآونة الأخيرة . يستطيع
المرء في بلادنا العجيبة هذه روسيا أن يفعل ما يريد . لكننى أعود فأكرر
أن المجتمع لن يتوصل الى توجيه هذا العمل الجليل فى الطريق القويم
الا اذا التزم فى معاملة الجيل الجديد موقفا يفيض بشاشة وترحيا وحفاوة
وتعاطفا نشيطا . ان الصفوة من الناس ليست كبيرة العدد وا أسفاه !
صحيح أن هناك أناسا يُعدُّون صفوة ، لكنهم مبغثون . فلتتحد اذن ،
فكنون أقوياء . الخلاصة : ستقام عندى صبيحة أدبية ، يعقبها غداء
خفيف ؛ ثم تتبع الغداء فترة استراحة ، وفى المساء تُقام حفلة راقصة .
ولقد كنا نتوى تدشين الحفلة بلوحات حية ، لكننى أعتقد أن النفقات تكون
عندئذ باهظة ، لذلك سنكتفى بأن نقدم للجمهور رقصتين أو ثلاثا من
رقصات الكادريل المقنعة التكرية ، ممثلة الاتجاهات الادبية الرئيسية . ان
هذه الفكرة التى تشتمل على فكاهة انما اقترحها كارمازينوف الذى
يساعدنى كثيرا من جهة أخرى . وسوف يقرأ علينا فى الصبيحة الادبية
آخر عمل أدبى له ، وهو عمل لم يطلع عليه أحد بعد . ان كارمازينوف
يهجر القلم ، ولن يكتب بعد اليوم . وفى هذه الصفحات يودّع الجمهور؛
عمل رائع عنوانه: « شكرا » . وقد جعل العنوان بالفرنسية . هو يرى أن
ذلك أحلى وألطف وأرهف . وأنا أشاطره هذا الرأى . بل أنا الذى
اقترحته عليه هذا الاقتراح . أظن أن ستيفان تروفيموفتشى يستطيع ، هو
أيضا ، أن يقرأ لنا شيئا ، شريطة أن لا يكون طويلا وأن لا يكون
فيه تعالم كبير ! . . . أعتقد أن بطرس ستيفانوفتشى سيجيء اليك ، ويطلعك
على البرنامج ، أو اسمحى لى أن أحمله اليك بنفسى .

- واسمحي لى من جهتك بأن أضع اسمى فى قائمة المتبرعين .

وسوف أنقل اقتراحك الى ستيفان تروفيموفتش ، وسوف ألحُ عليه أن
يقبل .

عادت فرفارا بتروفنا مفتنةً بجوليا ميخائيلوفنا أشد الاقتان . وقد
سندتها بعد ذلك ودعمتها بكل ما تملك من قوة . ولكن حنقها على ستيفان
تروفيموفتش قد اشتد مزيدا من الاشتداد في الوقت نفسه ، لا ندري
لماذا ! وكان المسكين لا يخطر بباله شيء من ذلك بتاتا .

قالت فرفارا بتروفنا لنيقولاي فسيفولودوفتش وبطرس ستيفانوفتش
وقد جاءا إليها في السهرة .

- انني هائمة بحبها حقا . ولست أدري كيف أمكن أن أخطيء في
معرفة هذه المرأة .

قال بطرس ستيفانوفتش :

- عليك مع ذلك أن تصالحي المعجوز . انه يأس . انك تعاملينه
معاملة مسرفة في الشدة . أمس التقى بمركبك فحيالك ، ولكنك أشحت
وجهك عنه . نريد أن ندفعه الى أمام . ان لي أملاً فيه . وما يزال في
وسعه أن يفيدنا .

- آآآ أنا واثقة بأنه سيقراً .

- ليس الامر هو هذا فحسب . كنت أريد أن أذهب اليه اليوم ،
فهل أبلغه شيئاً من جهتك .

قالت فرفارا بتروفنا بشيء من التردد :

- اذا شئت . ولكنني لا أدري كيف ستدبر الامر . كنت أتوى
أن أتولى بنفسى شرح ما أريد شرحه ، فأحدد له موعداً . . .

وقطبت حاجبيها . قال بطرس ستيفانوفتش :

– موعدا ؟ لا يستحق الامر هذا • يكفي أن أنقل اليه ما تريدين أن أنقله اليه ...

فقلت فر فارا بتروفا :

– ولكن قل له اننى سأبلغه موعد لقائنا ، باليوم والساعة • لا تنس هذا •

خرج بطرس ستيفانوفتش وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة • يمكننى أن أقول – اذا صدقت ذاكرتى – انه كان فى ذلك الأوان كثير الغضب ، وانه كان يعامل جميع الناس تقريبا معاملة فيها شيء من حدة المزاج • والغريب فى الامر أن الناس كانوا يغفرون له هذا • لقد سلموا بأن من حقه أن ينعم بحظوة خاصة • وينبغى أن أذكر أن مبارزة نيقولاى فسيفولودوفتش قد أثارت حنقه كثيرا • لقد فوجئ بنبأ الحادث • فحين رُويت له القصة اخضرَّ لونه من شدة الغضب • هل جرح ذلك كبرياه ؟ انه لم يعلم بالأمر الا فى الغد ، أى بعد أن أصبحت المدينة كلها على علم به • فلما لقي ستافروجين مصادفة فى النادي بعد ذلك بخمسة أيام ، قال له :

– لم يكن من حقك أن تبارز •

يجب أن نلاحظ أنهما لم يكونا قد التقيا بعد المباراة ، رغم أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتى الى فر فارا بتروفا كل يوم •

نظر اليه نيقولاى فسيفولودوفتش صامتا ، ذاهل الهيئة ، حتى لكأنه لم يفهم ماذا كان يريد منه الآخر ، ومضى دون أن يتوقف ، واجتاز الصالة الكبرى متجهاً نحو البوفيه • فما كان من بطرس الا أن ركض وراءه ، حتى اذا وصل اليه أضاف يقول له :

– وقد ذهبت أيضا الى شاتوف ... وتريد أن تعلن على الملأ زواجك
بماريا تيموفيئنا ...

وأمسكه من كفه عن ذهول •

فاتزع نيقولاى فسيبولودوفتش نفسه منه بحركة مفاجئة ، والتفت
اليه بوجه يعبر عن التهديد بغتة • فنظر اليه بطرس ستيفانوفتش ،
وتقبضت شفاهه بابتسامة صفراء • ولم يدم ذلك كله الا لحظة • ومضى
نيقولاى فسيبولودوفتش •

ترك بطرس ستيفانوفتش بيت فرافارا بتروفنا وذهب الى عند أبيه رأساً . كان يفذ الخطو من شدة شوقه الى افراغ غضبه والى النار لنفسه من اهانة كبت ما أزال أجهلها . يجب أن أقول ان ستيفان تروفيموفتش ، أثناء آخر لقاء تم بينه وبين ابنه يوم الخميس من الاسبوع الماضى ، قد انتهى الى طرد ابنه طرداً الى الباب مهدداً اياه بمصاه . وكان الأب هو الذى بادر الى المشاجرة فى الواقع . وقد كتم عنى وقوع هذا الحادث بينه وبين ابنه . ولكن حين وصل بطرس ستيفانوفتش راكضاً وهو يتسم ابتسامته المستمرة التى تتكلف تواضعا ساذجا ، وينظر نظمرته المتفحصة المستكشفة التى تثير فى النفس انزعاجا كريها ، فقد أسرع ستيفان يومئذ مهيباً بى أن لا أترك الغرفة . فكذلك أمكنتى أن أعرف علاقتهما ، لأننى شهدت حديثهما كله فى هذه المرة .

كان ستيفان تروفيموفتش مضطجعا على ديوانه . وكان قد نحل جسمه واصفر لونه بعد يوم الخميس الماضى . جلس بطرس ستيفانوفتش الى جانبه بدون كلفة ، وجعل ساقيه تحته بغير أى تحرج ، فاحتل من الديوان مكانا أكبر مما يجيزه احترام الابن لأبيه . فابتعد ستيفان تروفيموفتش بوقار ، ملتزماً الصمت .

كان على المائدة كتاب مفتوح هو رواية عنوانها : « ما العمل ؟ » * . يؤسفنى أن على أن أكشف الآن عن الضعف الغريب فى صديقى : ان فكرة الخروج من العزلة وخوض معركة أخيرة كانت لا تنفك تتجسد فى خياله الذى تفتنه الأحلام . فحزرت أنه كان « يدرس » هذه الرواية لا لشيء الا أن يهى نفسه لتلك المعركة المحتومة مع أولئك « الزاعقين » :

يعرف أسلحتهم وأدلتهم وحججهم من عقيدتهم نفسها ، ثم يربكهم ويحرجهم ويفتحهم على مرأى منها « هي » ذاتها • ولكن لكم كان يمدّ به ذلك الكتاب ! كان في بعض الأحيان يرميه على الأرض ، ويأخذ يسير في الغرفة كالخارج عن طوره •

وكان يقول لي بصوت محموم رهيب :

- اننى أسلم بأن الفكرة الاساسية التى يقول بها الكاتب صحيحة صادقة • انها فكرتنا ، فكرتنا بعينها • نحن الذين زرعناها ، ونحن الذين تمهدها بالشرح ! وما عساهم يقولون بعد الذى قلناه نحن على كل حال ؟ ولكن رباه ! لكم شوّهوها ، وبتروها ، وأساءوا التعبير عنها • أهذه هي الاهداف التى سعينا الى بلوغها ؟ من ذا الذى يستطيع أن يتعرف هنا فكرتنا الاصلية نحن ؟

كذلك كان يقول هذه الجمل الاخيرة وهو ينقر على الكتاب باصبعه •

سأله بطرس ستيفانوفتش وقد قرأ عنوان الكتاب بعد أن تناوله من على المائدة ، سأله وهو يضحك ضحكا ساخراً :

- أتتقف نفسك ؟ آن الأوان حقا • ان شئت جئتكم بما هو خير من هذا أيضا •

ظل ستيفان تروفيموفتش صامتاً وقوراً لا يتكلم • وكنت جالسا على الديوان •

شرح بطرس ستيفانوفتش الغرض من زيارته بكلمات قليلة • فكان طبعيا أن شُده ستيفان تروفيموفتش شدها كبراً • وكان يصفى الى ابنه بقلقى يمازجه استياء واستكثار •

– هكذا اذن • ان جوليا ميخائيلوفنا تأمل أن أجيء أقرأ عندها !

– ليس الدافع الى دعوتك أنها فى حاجة اليك حقا • لكنها أرادت من ذلك أن تسر فرفارا بتروفنا وأن تداريها لا أكثر • وطبعى أنك لن تجرؤ أن ترفض •

ثم أضاف يقول وهو يتسم ابتسامة ساخرة :

– وأنا واثق من جهة أخرى بأنك تمنى أن تقرأ ... انكم جميعا ، معشر المجائز ، مغرورون بأنفسكم ، محبون للظهور • ولكن اسمع : يجب أن لا يكون ما ستقرؤه مملاً املاً شديداً • ماذا تكتب فى هذه الأيام ؟ أما زلت مشغولاً بكتابة تاريخ اسبانيا ؟ أعطنى ورقتك قبل موعد الصيحة الادبية بثلاثة أيام ، لألقى عليها نظرة ، لأن من المجائز أن تبينا جميعا من فرط الضجر •

كان واضحاً أن الفظاظه الصريحة فى هذه الأقوال المهينة ، بل وكذلك تعجل بطرس ستيفانوفتش فى كلامه ، انما كانا مقصودين متعمدين ؛ حتى ليفهم المرء من طريقة حديثه أن مخاطبة ستيفان تروفيموفتش بلغة ألطف ، أمر مستحيل فى رأى بطرس ستيفانوفتش • ومع ذلك أصراً صديقى على تجاهل الالهات • لكن الأنباء التى سمعها قد بثت فى نفسه اضطراباً شديداً •

سأله وقد اصفر لونه :

– ولكن هل « هى » ، هى نفسها ، تبلغنى هذا الكلام بواسطتك « أنت » ؟

– أقصد ... انها تريد أن تضرب لك موعداً لتمكنا من التصارع : ذلك أثرٌ أخير من آثار تكلفكما العاطفى • لقد تفنجت عليها خلال عشرين عاماً ، فعودتها على هذه الاساليب المضحكة السخيفة • ولكن لا تقلق :

انتهى الامر الآن • هى نفسها لا تنفك تكرر أنها الآن فقط انما أخذت
« ترى رؤية واضحة » • لقد قلت لها بصراحة تامة ان صداقتكما تقوم
عند كل منكما على أن يفرغ أحكما أمام الآخر مياهه الوسخة • ما أكثر
ما قالته لى يا صاحبي ! هه ! ما كان أحلاه من دور ، ذلك الدور الذى
قمت به تجاهها خلال هذا الوقت كله ، وهو دور خادم ! لقد احمر وجهى
خجلاً وحياءً عنك ! ...

— أنا قمت بدور خادم ، أنا ؟

كذلك صاح يقول ستيفان تروفيموفتش ، عاجزاً عن السيطرة على
نفسه • فأجابه ابنه قائلاً :

— بل كنت أسوأ من ذلك ، كنت طفيلياً ، أى خادماً لا يعمل • نحن
أكسل من أن نعمل ، لكن لنا أسناناً طويلة • هى نفسها تدرك هذا الآن •
ولكن ما أظلم ما روته لى عنك ! لشد ما ضحكت يا صاحبي من الرسائل
التي كنت تكتبها وتبعثها إليها ! هذا مخجل ، هذا مقرّر • ألا انك لمنحط
انحطاطاً عميقاً ! ان فى البر والاحسان شيئاً يفسد الشخص الذى يقبلهما
افساداً يبقى الى الأبد ولا يزول : انك مثال على ذلك واضح •
— أطلعتك على رسائلى ؟

— كلها • يستحيل على المرء طبعاً أن يقرأ هذا كله ! ما أكثر
الصفحات التى سوّدت ! يخيل الى أن هناك أكثر من ألفى رسالة •
ولكن هل تعلم يا صاحبي أنها فى لحظة من اللحظات كانت مستعدة لأن
تزوجك فيما أظن ؟ لقد ضيّعت على نفسك بالقباء فرصة عظيمة ! أنا
أتكلم هنا من وجهة نظرك أنت طبعاً ! ومهما يكن من أمر ، فلو تزوجتها
لكان ذلك أفضل من أن تقبل الزواج « لتغذية آثام الغير طمعا فى المال »
فكون مهر جاً تضحك عليك المدينة كلها •

— طمعا في المال ؟ أهي التي قالت هذا ؟

كذلك هتف يقول ستيفان تروفيموفتش متألماً • فأجابه ابنه قائلاً :
— ما عسى يكون الباعث اذن ؟ لماذا تتخط هذا التخط ؟ لقد دافعت

أنا عنك بهذه الحجة نفسها • وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تملكها لتبرر سلوكك • هي نفسها أدركت أنك كنت في حاجة الى مال ، كسائر الناس ، وأنت من هذه الناحية ربما كنت على حق • لقد برهنت لها برهاناً رياضياً على أن كلاً منكما يستفيد من هذه العلاقات التي بينكما : هي رأسمالية ، وأنت مهرّج عاطفي ! ثم انها لا تأخذ عليك شيئاً من ناحية المال هذه ، وان تكن قد اتخذتها بقرةً حلوباً • ولكن ما يحقّقها هو أنها وثقت بك خلال عشرين عاماً ، وأنها خُدت بمواطفتك الجميلة التي كانت تضطرها الى الكذب بمعنى من المعاني • انها لن ترضى أن تعترف بأكاذيبها هي طبعاً ولكنها ستجعلك تدفع ثمن أكاذيبك أنت غالياً • لا أدري حقاً كيف لم تتبأ بأنك ستدفع الثمن باهظاً في يوم من الايام ، مع أنك تملك شيئاً من الحس السليم • لقد نصحتها بأن تضعك في ملجأ ، في ملجأ مناسب ، فاطمئن • لن يكون في هذا اذلال لك • وهذا ما ستفعله فيما أظن • هل تذكر آخر رسالة بعثتها الىّ وأنا في س . . . ، منذ ثلاثة أسابيع ؟

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل ابنه :

— هل يُعقل أن تكون قد أطلعتها على تلك الرسالة ؟

فأجابه ابنه :

— كيف لا ؟ فوراً ! انها تلك الرسالة التي ذكرت لي فيها أنها

تستغلك وأنها غيرة من مواهبك • ثم حدثني فيها عن « خطايا الغير » • بالنسبة يا صاحبي ، ان لك غرورا وأثانية لا مثل لهما ! لشد ما ضحككت ! ان رسائلك مزعجة مرهقة على وجه العموم ، فأسلوبك فظيع كريه • كان يتفق لي أحياناً أن لا أقرأ الرسائل التي تصلني منك • منها واحدة ملقاة

فى مكان ، لم أفضضها قط • فى امكانى أن أردّها اليك غدا اذا شئت •
ولكن تلك الرسالة الاخيرة كانت هى الذروة • لشدما ضحكت • يا الهى !
لشدما ضحكت !

قال ستيفان تروفيموفتش :

- ما انت بانسان ، ما انت بانسان ! أنت وحش ، أنت غول !
- لا سبيل الى التحدث معك • هأنت ذا تغضب من جديد ، مثلما
غضبت يوم الخميس الاخير •

نهض ستيفان تروفيموفتش مهدّدا يسأل ابنه :

- كيف تسمح لنفسك بأن تكلمنى هكذا ؟
- ماذا ؟ انتى أكلك بوضوح وبساطة •
- أأنت ابنى أم لا ، أيها الوحش ؟
- لا بد أنك تعرف هذا خيرا مما أعرفه أنا • والآباء ميّالون طبعا
الى تصديق الاوهام فى هذا الشأن •••
- اسكت ، اسكت !

كذلك قاطعه ستيفان تروفيموفتش وهو يرتعش من قمة رأسه الى
أخمص قدميه !

قال الابن :

- انك تصرخ وتشتمنى ، كما فعلت فى المرة الاخيرة حين أردت أن
تضربنى • فاعلم اننى وضعت يدى على الوثيقة بعد أن قضيت الليل كله
فى نبش صندوقى • ولكن دع المعزاء سبيلا الى نفسك • لا شيء واضح
دقيق • ما هى الا رسالة صغيرة أرسلتها أُمى الى ذلك البولندى الصغير •
فاذا حكمتنا على الامر من خلال اللهجة •••

- اذا قلت كلمة واحدة أخرى ، فلأصفنك !

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت الى فجأة :

- كذلك هم الناس • ان الامر مستمر بيننا على هذا النحو منذ يوم الخميس الماضى • يسعدنى أنك اليوم هنا ، ففى امكانك أن تكون قاضيا لنا • أحب قبل كل شىء أن أسجل هذه الواقعة : هو يأخذ على أتنى أقول عن أمى هذا الكلام ، ولكن أليس هو الذى دفعنى الى ذلك دفعا ؟ حين كنت طفلا فى بطرسبرج ، ألم يكن يوقظنى مرتين فى الليل ليقبّلنى ويبكى فوقى كما تبكى امرأة عجوز ؟ وهل تعلم ماذا كان يروى لى فى ذلك الحين ؟ لقد كان يقصُّ على هذه الحكايات نفسها عن أمى . فمنه هو انما عرفت هذه الحكايات •

- أوه ! لقد كان لأقوالى معنى آخر تماما ، معنى رفيع ! انك لم

تفهم • انك لم تفهم شيئا ، لم تفهم شيئا البتة !

- اعترف مع ذلك أن هذه الحكايات كانت فى فمك أدنا وأحط • على كل حال ، هذا كله لا أكرث به ! وانما أضع نفسى فى الموضع الذى تنظر منه أنت الى الأشياء • أما عن الموضع الذى أنظر أنا منه الى الأمور ، فلا تقلق • اتنى لا ألوم أمى • فيم يهمنى أن تكون أبى أو أن لا تكون ؟ سيان عندى • أنا لست مسئولا عما جرى بينكما فى برلين • وهل كان فى وسعكما أن تتصرفا تصرفا يتصف بالتعقل والحكمة ؟ ألا تدرك الى أى حد كنتما سخيئين مضحكين ؟ ومهما يكن من أمر ، فيم يهملك أن أكون ابنك أو ابن ذلك البولندى ؟

والتفت بطرس ستيفانوفتش نحوى من جديد وقال :

- اسمع ! انه لم ينفق على قرشا واحدا فى يوم من الايام ، ولم يرني الا حين بلغت السادسة عشرة من عمري • وبعد ذلك ، أثناء وجوده

هنا ، نهني نهياً • ثم ها هو ذا الآن يصرخ قائلاً انه ظل طوال حياته يتألم
فى سبيلى ، وها هو ذا يمثل أمامى تمثيلاً لا يخفى كذبه • أنا لست فر فاراً
بتروفا ، فاعفنى من هذا التمثيل ! ...
ونفض وتناول قبعته •

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة
وجه الأموات ، ومدّ يده نحو ابنه :
- انتى ألعنك ، ألعنك !

قال بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً :

- هل يُعقل أن ينطق امرؤ بسخافات كهذه السخافات • هيا •
استودعك الله يا صاحبى • لن أعود بعد اليوم • لا تنس أن ترسل الى
مقاتلك ، وأن لا تكثر فيها من الحماقات اذا أمكن ، هه ؟ وقائع ، ووقائع ،
ووقائع ، لا أكثر • وعليك بالايجاز خاصة •

كان هناك أسباب تدعو بطرس ستيفانوفتش الى أن يتصرف مع أبيه كما تصرف : فى رأى أنه يريد أن يفرق المجوز فى اليأس ويضطره بذلك الى ارتكاب عمل من الاعمال الفاضحة الصاخبة التى ستفيد الابن فى تحقيق أهداف بعيدة سوف تتكلم عنها فيما بعد . ان طائفة كبيرة من المشاريع والخطط ، وهى كلها تقريبا مشاريع رهيبة ، كانت تشغل فى ذلك الأوان ذهن الشاب الذى كان يستهدف كذلك ضحايا أخرى غير ستيفان تروفيموفتش . غير أن هناك واحدة من هذه الضحايا كان يعول عليها تعويلاً خاصاً : هى السيد فون لمبكه نفسه .

ان آندره أنطونوفتش فون لمبكه ينتمى الى ذلك الشعب الذى أنهم عليه الحظ * ، ويُعدُّ ممثلوه فى روسيا ببضعة مئات من الآلاف ، ويؤلفون - ربما على غير علم منهم - عصبة منظمة أكمل تنظيم . ليست هذه العصبة مخلوقاً اصطناعياً . وانما هى نشأت من تلقاء نفسها على نحو طبيعى ، فهى لم تقم على عقد مبرم ، بل على التزام أدبى . ان هدف هذه العصبة هو دعم ومساعدة جميع ممثلى هذا الشعب ، فى كل وقت ، وفى كل مكان ، وفى جميع الظروف . وقد نال آندره أنطونوفتش شرف الدراسة فى واحدة من تلك المدارس العليا التى لا يتردد اليها الا أولاد أسر غنية أو ذات نفوذ . حتى اذا أتمَّ تلاميذ هذه المدارس دراستهم ، أسندت اليهم على الفور تقريبا وظائف هامة فى ادارات الدولة . لقد كان أحد عمى آندره أنطونوفتش ليوتان كولونيل فى سلاح الهندسة ، وكان عمه الآخر صاحب مخبز . غير أن آندره أنطونوفتش ، اذ ظفر بدخول تلك المدرسة الارستقراطية ، قد وجد هنالك عددا كبيرا من ممثلى

الشعب الذى يرجع أصله اليه . وكان مرح الطبع خفيف الظل فكان رفاقه يحبونه كثيراً ؛ ولكنه لم يكن مجتهداً فى دراسته . وبينما كان أكثر الشبان فى الصفوف العليا ، ولا سيما الروس ، يناقشون منذ ذلك الحين مشكلات كبرى من مشكلات الساعة ، حتى لكأن حلَّ هذه المشكلات لا يُنتظر الا منهم ، كان فون لمبكه ما يزال يسترسل فى أُمَازيحه البريئة كما يفعل تلميذ صغير . وكانت تهريجاته البسيطة ، الساخرة أحياناً ، تضحك الجميع ، وذلك ما كان يريده . فتارة يلقي عليه الاستاذ سؤالاً فى الصف فاذا هو يتمخط تمخطا يبلغ من الغلظة أن الجميع ينفجرون ضاحكين ومهمم الاستاذ نفسه ؛ وتارة يمثّل فى المهجع لوحة حية ذات طابع مستهتر ، فيصفق له رفاقه فرحين ؛ وتارة يعزف بمجرد قرص أنفه افتتاحية « فرا ديافولو » * . وكان يتميز كذلك بنوع من الإهمال المقصود كان يعمده فكهاً باعثاً على الضحك . وفى أواخر أيام إقامته بالمدرسة ، أخذ ينظم شعراً باللغة الروسية ، ذلك أنه ، على غرار كثير من أبناء جنسه ، كان لا يعرف لفته الأم الا معرفة ناقصة جداً . فكان أن قرّبه هذا الميل الى الشعر من رفيق له هو ابن جنرال روسى أُلِمت به مصائب . ان هذا الفتى المكتئب النفس الحادّ المزاج كان رفاقه فى المدرسة يرون أنه سيكون فى المستقبل أحد أمجاد أدبنا . وقد أنعم هذا الفتى على آندره أنطونوفتش بحمايته . وبعد ثلاث سنين كان ذلك الفتى المكتئب قد ترك الوظيفة وفرغ للأدب ، فكان اذن ينتعل حذاء مهترئاً ، وكان يرتجف من شدة البرد تحت معطف صيف . وانه كذلك فى ذات يوم من أيام الخريف اذ هو يرى على جسر آتشكوف رفيقه القديم الذى كان قد شمله هو بحمايته ، « لمبكا » ، كما كانوا يسمونه فى المدرسة ؛ فلم يتعرفه فى أول وهلة ، ووقف مبهوراً . لقد وجد نفسه أمام شاب يرتدى أحسن حلة ، له فى

العارضين لحيتان "حسن قصهما ، ضاربة" شقريهما الى حمرة ، وعلى احدى
عينيه نظارة • حذاءاه ملمعان ، قفازاه زاهيان نضران ، معطفه على آخر
موضة ، يمسك تحت ذراعه محفظة أوراق •

أظهر لمبكه كثيرا من اللطف والموودة ، وذكر لصاحبه عنوانه ، ودعا
أن يزوره • ان اسمه الآن ليس « لمبكه » فقط ، بل فون لمبكه • ومع ذلك
زاره رفيقه القديم ، ربما لا يدفعه الى هذا الا الفيظ والا الحرص على أن
يسخر منه ويضحك عليه • استقبله على السلم - وما هو بالسلم الفخم
بتاتا لكنه مفروش بسجادة حمراء - استقبله سويسرى شد حبل جرس
يدق فى الطابق الأعلى • وكان الزائر ينتظر أن يدخل شقة رائعة ، فاذا
هو يرى صاحبه « لمبكه » مقيما فى غرفة صغيرة مظلمة مخرّبة ، مشطورة
شطرين بستارة لونها أخضر قاتم • والأثاث مريع مناسب بعض الشيء ،
لكنه عتيق جدا • والنوافذ العالية الضيقة مزودة بستائر خضر داكنة •
ان فون لمبكه يقطن عند شخص يمت اليه بقرابة بعيدة ، هو جنرال شمله
برعايته ومنّ عليه بحمايته •

استقبل فون لمبكه الزائر بمودة ، مع احتفاظه بمظهر وقوره. وتحدث
عن الادب فيما تحدث ، ولكن دون أن يتعرض لأية مشكلة حادة .
وجاء خادم له رباط عنق أبيض ، فقدّم للضيف شاياً أصفر وبسكويتا
جافا • ولكن الرفيق سارع يطلب كأسا من ماء سلتس لا لشيء الا أن يزعج
صاحب البيت • فجىء اليه بالماء بعد شيء من الانتظار ، وبدا على فون لمبكه
شيء من الارتباك لازعاج الخادم مرة أخرى • ومع ذلك اقترح على الزائر
أن يبقى للعشاء ، فما كان أوضح سروره حين رفض الزائر هذا الاقتراح
وانصرف •

فى ذلك الأوان كان آندره أنطونوفتش موثّها بحب البنت الخامسة

من بنات الجنرال ، ويبدو أنها كانت تبادله عاطفة بعاطفة • لكن ذلك لم يمنع أن تزوجت آماليا ، بعد ذلك بمدة قصيرة ، ألمانيا من رجال الصناعة كان رفيق الجنرال المعجوز فى الماضى •

لم يشعر آندره أنطونوفتش من ذلك بحزن مسرف فى الشدة ، وأخذ يعمل فى صنع مسرح من الكرتون : ترفع الستارة ، فيخرج الممثلون الى المسرح يلوحون بأيديهم ويجرون اشارات شتى ؛ والشرفات مملأى بالمشاهدين ؛ وموسيقو الأوركسترا يحركهم جهاز فيزلقون أقواس آلات الكمان على أوتارها ، بينما قائد الأوركسترا يضبط الإيقاع بحركات عصاه بين تصفيق الضباط والشبان الأتقيان الذين يجلسون على كراسى أرض الصالة • ان هذا كله ، حتى أدق تفاصيله ، قد صنعه فون لمبكه نفسه ، واقفا على انجاز هذا العمل ستة أشهر كاملة • حتى اذا فرغ منه أقام الجنرال المعجوز حفلة ضمت خاصته : البنات الخمس وبنهن العروس وزوجها ، وسيدات وآنسات كثيرات يصحبهن أزواجهن وآباؤهن • رأى المشاهدون المسرح وأنعموا النظر فيه فأعجبوا به أيما اعجاب • ثم قاموا الى الرقص • وكان لمبكه راضيا أعظم الرضى ، فسرعان ما تعزى •

السنون تنقضى وفون لمبكه ينجح فى عمله : ينال مناصب مرموقة على الدوام ، مع رؤساء أصلهم ألماني فى جميع الأحيان • فكذلك وصل الى رتبة تعد عالية جدا بالقياس الى سنه • وكان منذ مدة طويلة يتمنى أن يتزوج ، فهو يترصد فرصة مواتية مناسبة • وعلى غير علم من رؤسائه ، أرسل الى تحرير احدى الصحف قصة كتبها فلم يقبض لها أن تنشر • لكنه ، فى مقابل ذلك ، أخذ يصنع بالكرتون محطة سكة حديدية ، فكان هذا العمل الذى أنجزه عملاً ناجحاً كل النجاح مرة أخرى : المسافرين يخرجون الى رصيف المحطة مثقلين بحقائبهم وأكياسهم ومعهم كلابهم

وأولادهم ، فيركبون عربات القطار التي يضطرب من حولها سائقون وحمالون ؛ ثم تفرع إشارة فيتحرك القطار . لقد اقتضاء انجاز هذا العمل البارع سنةً من شغل دائم . ومع ذلك كان ينبغي له أن يتزوج . ان حلقة معارفه واسعة . وهو يخالط أبناء جنسه خاصة . ولكنه يتردد الى الأوساط الروسية أيضا بطبيعة الحال . وأخيرا بنا هو يدخل السنة التاسعة والثلاثين من عمره ، نزل عليه ميراث : ان عمه صاحب المخبز قد أوصى له في وصيته بمبلغ قدره ثلاثة عشر ألف روبل . فلم يبق عليه الا أن ينال منصبا ممتازا . ان السيد فون لمبكه ، رغم رتبته الكبيرة ، كان رجلاً متواضعا . كان يمكن أن يرضيه كل الارضاء أن يحظى بمركز مستقل مريح يضمن له بعض الموارد الاضافية ؛ كان هذا يمكن أن يكفيه الى آخر أيام حياته . لكنه بدلا من مينا أو ارنستين التي كان ينتظر أن يتزوجها ، وقع على جوليا ميخائيلوفنا . فاذا بحياته في العمل تبلغ على الفور مدى آخر وتوسع اتساعا ليس في الحسابان . لقد أحس فون لمبكه المتواضع الذي يتقيد بالمواعيد ويواظب على العمل أن من حقه هو أيضا أن يكون طموحا .

كانت جوليا ميخائيلوفنا تملك أرضا تُقدَّر في المقاييس القديمة بمائتي نفس ؛ وعدا ذلك جاءت الى آندره أنطونوفتش بصلات لها نفوذ وسلطان . ومن جهة أخرى كان لمبكه فتى جميلا ، بينما تجاوزت هي الأربعين من العمر . شيء غريب : كان لمبكه يزداد ولها بها كلما ازداد شعورا بوضعه كخطيب لها . حتى لقد أرسل اليها في صباح يوم الزواج أشعارا . وذلك كله ، مع الأشعار ، كان يعجب جوليا ميخائيلوفنا كثيرا . أربعون عاما ! ما هذا بقليل ! . . . وبعد الزواج بمدة قصيرة ، منح الرجل وساما ونال رتبة أعلى ، ثم سُمِّي حاكما لأقليمنا .

وقد عنت جوليا ميخائيلوفنا منذ البداية بترويض زوجها أشد العناية : هو فى رأيها رجل لا تعوزه الكفاءات . فهو يحسن تمثيل وظيفته ، يعرف كيف يجلس وكيف يصغى مهيباً ، وكيف يلتزم الصمت اذا وجب الصمت ، ولكنه قادر أيضا على أن يلقي خطابا ، حتى انه يملك شذرات أفكار ، وقد اكتسب طلاء من اللبرالية لا غنى عنه فى هذا الزمان . غير أن الشيء الذى كان يقلق جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك هو أن زوجها بعد أن قضى عمره كله ساعيا وراء الوظائف يبدو الآن قليل الطموح ، ويميل الى الراحة . انه ، بينما كانت تحاول أن تبث فيه نشاطها ، قد شرع فى صنع معبد بروتستانتى : القس يصعد الى المنبر ويلقى موعظة ؛ المؤمنون يصغون اليه بتقى وخشوع ضامين أيديهم ؛ سيدة تجفف دموعها بمسحيتها ، رجل عجوز يتمخط ؛ ثم يُسمع صوت أرغن صغير طلبه فون لمبكه من سويسرا خصيصا رغم أنه كلف ثمناً غالياً . رُوِّعت جوليا ميخائيلوفنا ، فما كان منها الا أن صادرت هذا العمل الجميل منذ علمت بوجوده ، وسجته فى خزانة من أثاث المنزل . ومن أجل أن يتغذى عن ذلك ، استأذن فون لمبكه امرأته فى أن يكتب رواية ، فأذنت له بذلك ، ولكن على غير علمٍ من أحد . ومنذ ذلك الحين أصبحت جوليا ميخائيلوفنا لا تعتمد الا على نفسها . ومن سوء الحظ أنها امرأة يعوزها القصد والاعتدال ، وأنها تنقاد كثيرا للخيال . فليس من باب الصدفة أنها ظلت عانساً خلال مدة طويلة ذلك الطول كله . ان الأفكار يطارد بعضها بعضا فى ذهنها الطموح ، المهتاج . واذ كانت تغذى فى نفسها بعض الاهداف وتريد أن تحكم الاقليم ، فقد اختارت نوعا من اتجاه سياسى ، مقتنعة بأنها ستفلسخ فى الجمع بين الناس وقيادة العقول . حتى لقد قلق فون لمبكه من ذلك بعض القلق فى أول الامر ، ولكنه بما يملك من حس الموظف سرعان ما أدرك أن وظيفة حاكم فى

اقليم ليست بالامر الرهيب على وجه الاجمال • وفعلًا ، سارت الامور في الشهرين الأولين أو في الاشهر الثلاثة الاولى سيرا مرضيا جدا • ولكن بطرس ستيفانوفتش خرج له من جوف الارض بعد ذلك ، فجسرت الاحوال مجرى غريبا •

يجب أن نقول ان الشاب فرخوفنسكي قد أخذ يعامل آندره أنطونوفتش ، منذ أول لحظة ، معاملة خالية من أى تخرج ، ووهب لنفسه حقوقا عليه خاصة • ولم تشأ جوليا ميخائيلوفنا ، رغم حرصها الشديد على مهابة زوجها ، أن تلاحظ وضع بطرس ستيفانوفتش ، أو قل على الأقل انها لم توله أى اهتمام ولم تقم له أى وزن • لقد جعلت من الشاب صديقها الأثير • فكان يتناول وجبات طعامه عندها ، حتى ليكاد ينام في منزلها • وقد حاول فون لمبكه أن يدافع عن نفسه ، فكان يخاطبه أمام الناس بقوله : « يا فتى » ، وكان يربت على كتفه مصطنعاً وضع من يرعاه ويحميه ، ولكنه لم يظفر بشئ • فان بطرس ستيفانوفتش ما يزال يبدو عليه أنه يتواقع معه ، حتى حين كان يخاطبه بلهجة فيها كثير من الجد ، وكان يوجه اليه أمام الناس أقوالاً غريبة بحضور آخرين • وفي ذات يوم دخل فون لمبكه حجرة عمله فوجد بطرس ستيفانوفتش بسبيل أن ينام على الديوان • فقال الفتى للحاكم انه لم يجد في البيت أحدا ، فانتهاز الفرصة ليففسو « غفوة قصيرة » • فشعر الحاكم بأنه أهين اهانة كبيرة ، وشكا أمره الى امرأته مرة أخرى ، لكن امرأته سخرت من فرط تأذيه ، وأخذت عليه أنه لا يعرف كيف يجعل الناس على مسافة منه : فان « هذا الفتى » لا يسمح لنفسه بأن يرفع الكلفة بينه وبينها على هذا النحو ، « ثم انه ساذج بسيط ، وانما تموزه الخبرة في مخالطة المجتمع » • فزعل فون لمبكه قليلاً ، ثم أذعن للاحاح زوجته فانتهى الى مصالحة بطرس ستيفانوفتش • ولم يعتذر

بطرس عن فعلته مع ذلك ، حتى لقد تخلص من الموقف بمزحة ثقيلة أخرى كان يمكن أن تُعدَّ إهانةً جديدةً ، ولكنها قُبِلت على أنها علامة ندم . ومن سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه كان قد كشف للشباب عن نقطة ضعفه ، وأطلعه على أنه يكتب رواية . واذ ظنَّ فيه طبيعةً حارة شعرية ، واذ كان يبحث منذ مدة عن مستمع يقرأ له ما يكتب ، فقد قرأ له فصلين من مخطوطة الرواية في ذات مساء ، فكان بطرس ستيفانوفتش يصفى إليه دون أن يخفى ضجره ، حتى لقد تئأب صراحة ، ولم يثن على المؤلف أى ثناء . ولكنه حين همَّ بالانصراف طلب منه المخطوطة ليعيد قراءتها في البيت ، كما قال ، فيرى فيها رأيا أوضح ، ويحكم عليها حكما أصح ، فأعطاه آندره أنطونوفتش المخطوطة . ومنذ ذلك اليوم لم يفلح آندره أنطونوفتش في استردادها . كان بطرس ستيفانوفتش يجيء كل يوم ، ولكنه كلما طُلِبَ منه المخطوطة اكتفى بأن يضحك ، ثم أعلن أخيرا أنه أضاعها في ذلك المساء نفسه الذي حملها فيه . فلما علمت جوليا ميخائيلوفنا بالنبا ، وجَّهت الى زوجها لوماً شديداً ، وهتفت تقول له قلقة أشد القلق :

- آمل على الأقل أن لا تكون قد كلمته عن المعبد البروتستانتى الذى أخذت تصنعه من الكرتون !

أصبح آندره أنطونوفتش مهموم البال ، وذلك أمر رأى الأطباء أنه يسىء كثيرا الى صحته . فالى جانب الهموم التى تسببها له المصاعب الادارية، والتى سنعود الى الكلام عنها فيما بعد ، أصبح يشعر بعذاب فى قلبه، لا من حيث هو حاكم ، بل حيث هو فسررد فحسب . ان آندره أنطونوفتش لم يتصور حين تزوج ان الشقاق يمكن أن يحدث فى بيته . حتى ان هذه الفكرة لم تكن تدور فى خلدّه لحظةً حين كان يحلم أن يتزوج مينا أو

ارنستين • لقد أدرك أنه عاجز عجزاً مطلقاً عن مغالبة الزوابع المنزلية •
وأخيراً صارحته جوليا ميخائيلوفنا فقالت له :

- لا يجوز لك أن تزعل لأمر تافه هذه التفاهة ، أولاً لأنك أعقل
منه كثيراً ، وثانياً لأنك أعلى منه مقاماً في السلم الاجتماعي • ان هذا الفتى
لم يتخلص بعد تخلصاً تاماً من عقلية الثورية • وفي رأبي أن تصرفاته
لا تعدو أن تكون تصرفات صبيان • لكننا لا نملك أن نبدله دفعةً واحدة ،
وانما ينبغي أن نسير الى هذا الهدف خطوة خطوة • ان علينا أن نفهم الجيل
الجديد • أنا مثلاً أؤثر فيهم باللين والرفق وأعاملهم بالحسنى ، فأمسكهم
على حافة الهاوية قبل أن يتردوا فيها •

أجابها فون لمبكه قائلاً :

- لكنه يقول أشياء فظيعة • اننى لا أطيق أن يزعم بحضورى على
مسمع من الناس ان الحكومة تشجّع الاذمان على السكر لتجبل الشعب
وتمنع من التمرد • تخيلى موقفى حين يكون على أن اسمع أقوالاً كهذه
الأقوال !

قال الحاكم هذا الكلام متأثراً بالحديث الذى جرى فى الآونة
الأخيرة بينه وبين بطرس ستيفانوفتش • انه وقد أراد أن يقل سلاح
خصمه بميله اللبرالى قد أطلعه على مجموعته من المنشورات الثورية التى
ظهرت فى روسيا وفى الخارج منذ سنة ١٨٥٩ ، والتى كان قد جمعها
لا بدافع حب الاطلاع وحده ، بل بدافع المنفعة أيضاً • واذ أدرك الشاب
نيته أعلن له بفظاظة أن سطرأ واحداً من بعض هذه المنشورات أزخر
بالمعاني من جميع قراطيس أى دائرة من دوائر الحكومة ، « بما فى ذلك
دائرتك حتماً » •

فصعّر لمبكه وجهه ، ثم قال بصوت يكاد يكون ضارعا وهو يشير الى
المنشورات :

– ولكن هذا سابق لأوانه •

فأجابه بطرس ستيفانوفتش :

– لا ، ليس سابقا لأوانه • انكم تخافون منه وهذا دليل على أنه ليس
سابقا لأوانه •

– ولكنهم يدعون الشعب الى تهديم الكنائس •••

– ولمَ لا ؟ أنت رجل ذكي ، وأنت اذن غير مؤمن ، وأنت تدرك
حق الادراك أن الدين انما يفيدكم في تخيل عقول الشعب • ان الحقيقة
أشرف من الكذب •

– طيب طيب ، لتسلّم بأن ما تقوله صحيح • ولكن هذا سابق
لأوانه •

كذلك قال فون لمبكه ملحا • فأجابه الشاب :

– اذا كنت موافقا على تدمير الكنائس ، وعلى الزحف الى بطرسبرج
بهرافات ، اذا كانت المسألة في نظرك مسألة توقيت ، فكيف يمكنك أن
تكون موظفا في الدولة ؟

هتف فون لمبكه يقول بلهجة حائقة ، منزعجا أشد الانزعاج من أنه
انقاد للوقوع في فخ يبلغ هذا المبلغ من الغلظة :

– ليس الامر هذا ، ليس الامر هذا بتاتا • أنت مخطيء لأنك ماتزال
شابا تجهل أهدافك ومراميك • تقول اننا موظفون في الحكومة ؟ موظفون
مستقلون ؟ هذا صحيح • ولكن اسمح لي : ما هو عملنا الذي نقوم به ؟
ان علينا مسئوليات ، ولكننا في الحساب الاخير انما نخدم القضية العامة

مثلكم • نحن لا نريد عن أن نُبقى ما تزعزعونه أنتم ، وهو ما سينهار في يوم من الايام • نحن لسنا أعداءكم ، أبدا • نحن نقول لكم : « امضوا الى أمام ، تقدموا ، بل وزعزعوا ؛ أعني زعزعوا كل ما هو عتيق بال ، كل ما يجب أن يتغير • ولكننا سنبيحكم في الحدود المعقولة متى لزم ذلك ، فنحيكم بهذا من أنفسكم ، لأنكم اذا لم توجد نحن ، لن تزيدوا على أن تقلبوا روسيا عاليها سافلها ، فلا يبقى لها وجه انساني • ان هدفنا انما هو هو الإبقاء على هذا الوجه الانساني • الا فافهموا أنكم في حاجة إلينا ، كما أننا في حاجة إليكم • في انجلترا أيضا ، لا غنى لحزب الاحرار عن حزب المحافظين ، ولا غنى لحزب المحافظين عن حزب الاحرار فنحن المحافظون وأنتم الاحرار • هكذا أرى أنا الوضع •

أصبح آندره أنطونوفتش فصيحاً بليغاً • انه منذ كان في بطرسبرج ، كان يجب أن يعبر عن أفكار ذات طابع لبرالي • وهو في هذه المرة قد استرسل مزيدا من الاسترسال في هذا لأن أحداً لا يتجسس عليه • وكان بطرس ستيفانوس صامتا ، وكان يلتزم موقفا أقرب الى الجدم مما عهد فيه ، فكان ذلك يحرض الخطيب مزيدا من التحريض على الكلام •

استأنف كلامه قائلاً وهو ييشى في حجرة مكتبه طويلاً وعرضا :

– هل تعلم أننى وأنا « رئيس » هذا الاقليم ان صبح التعبير تقع على عاتقى واجبات تبلغ من الكثرة أننى أعجز عن أداء واحد منها ، ولستكنى من جهة أخرى أستطيع أن أقول أيضا أننى ليس لى عمل أقوم به • والسر في هذا هو أن كل شئ مرهون فى حقيقة الأمر بما تستهدفه الحكومة • لنفرض أن الحكومة ، فى سبيل تهدئة الخواطر والنفوس ، أو لأسباب سياسية معينة ، أقامت نظاما جمهوريا ، ولكنها فى الوقت نفسه عززت سلطات حكام الأقاليم • أؤكد أننا معشر حكام الأقاليم سنرتضى الجمهورية

عندئذ ، بل سنرضى ماشئت ؟ أنا شخصيا ، على كل حال ، أشعر بأننى أستطيع ذلك ... الخلاصة : لنفرض أن الحكومة أرسلت البرقية التالية : « عليكم بنشاط جبار » ، اننى سأندفع عندئذ فى القيام « بنشاط جبار » . أعلنت ذلك هنا أمام جميع الناس : « أيها السادة ، من أجل تحقيق التوازن والازدهار للمؤسسات الاقليمية ، لا بد حتما من تعزيز سلطات حاكم الاقليم » . يجب على هذه المؤسسات أن تعيش حياة مزدوجة ان صح التعبير ، فهى من جهة أولى ينبغى أن تبقى وتستمر (أنا أسلم بأن هذا ضرورى لا غنى عنه) ، ولكن يجب أن من جهة أخرى أن لا توجد ، وذلك وفقا لما تستهدفه الحكومة . فاذا بدا لها فجأة أن هذه المؤسسات ضرورية ، كانت هذه المؤسسات تحت تصرفى . واذا أصبحت غير ضرورية لم يعثر أحد على أثر لها . هكذا أفهم « النشاط الجبار » ، ولكن يستحيل تحقيق ذلك بدون تعزيز سلطات حاكم الاقليم . نحن نتكلم هنا أنا وأنت على انفراد . ولقد أبلغت بطرسبرج أن من الواجب حتما أن يوضع على باب الحاكم خفير . وما زلت انتظر الجواب .

قال بطرس ستيفانوفتش :

ـ بل أنت تحتاج الى خفيرين اثنين .

سأله فون لمبكه متحيراً :

ـ لماذا احتاج الى اثنين ؟

ـ قد لا يكفىك واحد ليفرض الاحترام . انك تحتاج الى اثنين .

ـ آه منك يا بطرس ستيفانوفتش ! انك تجيز لنفسك معنى ما لا يعلم

الا الله ! ... تستغل طبييتى فتلكزنى لكزات قوية !

جمجم بطرس ستيفانوفتش قائلاً :

- لك ما تشاء ! مهما يكن من أمر ، فانك تشق لنا الطريق ، وتهدى لنا النجاح .

- ماذا تريد أن تقول ؟ أى نجاح تقصد ؟ من أتم الذين أشق لكم ، الطريق ؟

حين علمت جوليا ميخائيلوفنا بأمر هذه المحادثة ، استاءت استياء شديدا .

فقال آندره أنطونوفتش محاولا تبرير سلوكه :

- ما كان لى على كل حال أن أعامل آتيرك كما أعامل شخصا هو دونى مقاماً ، ولا سيما حين نتحدث على انفراد . لقد انقذت للرغبة فى الكلام ... وهذا ذنب قلبى الطيب .

- بل قل قلبك الطيب أكثر مما يجب . ما كنت أعرف أنك تجمع منشورات . أرني هذه المنشورات ، من فضلك !

- لكنه ... طلب أن يستعيرها يوما واحدا .

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله :

- وأعطيته اياها ؟ ما أقل براعتك .

- سوف أطلبه بردها الى حالا .

- لن يردها .

- سأصر على استردادها . من هو حتى نخشاه ، ومن انا حتى لا أجرؤ أن أفعل شيئا ؟

كذلك صاح فون لمبكه غاضبا ونهض . فقالت له جوليا ميخائيلوفنا وهى توقفه بإشارة :

- بل اجلس وهدى نفسك • سوف أجيبك الآن عن سؤالك الأول:
هذا شاب زكّى لى تركية حارة ، وأوصيت به خيرا ؛ ان له مواهب طبيعية ،
وكثيرا ما يقول أشياء تبلغ غاية الذكاء • ويؤكد لى كارمازينوف أن له
صلات بجميع الأوساط ، وان له تأثيرا كبيرا ونفوذا قويا على الشيعة
بالعاصمة • فاذا استطعت أن أجتذب هؤلاء الشبان ، وأن أجمعهم حولي ،
أمكننى أن أجنبهم الكارثة بتحديد هدف لطموحهم • انه مخلص لى
اخلاصا صادرا من كل نفسه ، وهو يطيننى فى كل شىء •

- ولكن ... • بينما نحن تملقهم ... • يستطيعون هم أن يفعلوا
ما الله به أعلم ! ... هذه فكرة طيما •

- لكن ... • لكن سمعت منذ برهة أن هناك منشورات توزّع فى
أقليم « ف ... » ،

كذلك تتم فون لمبكه وهو ما يزال يحاول الدفاع عن نفسه
بغموض • ثم أردف :

- سبق أن سرت هذه الشائعات فى الصيف الماضى ، فتحدث الناس
عن نداءات وأوراق نقدية مزيفة ، وأشياء من هذا القبيل • ومع ذلك لم
يُعثر على شىء حتى الآن • من قال لك هذا ؟

- فون بلومر •

- ناشدتك الله دغنى من صاحبك فون بلومر هذا ، ولا تكلمنى عنه
قط !

واضطرت جوليا ميخائيلوفنا أن تصمت لحظة لتسترد هدوءها • لقد
كانت تكره فون بلومر ، الموظف فى ديوان الحاكم • وسنمود الى هذا
الامر فيما بعد •

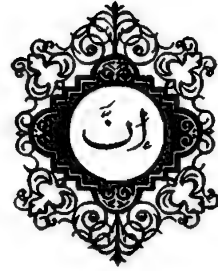
- أرجوك أن لا تصدّع رأسك بمسألة فرخوفنسكى • فلو كان
يشارك فى أعمال صبيانية كهذه ، لما تكلم كما يتكلم معك ومع غيرك • ان
الذين يكثرون من الكلام لا يكونون خطرين • بل اتنى لأقول لك : اذا
حدث شيء من ذلك فسأكون أول من يطلع عليه منه • انه مخلص لى
اخلاصا متعصبا ، نعم متعصبا •••

يجب أن أذكر فى هذه المناسبة ، مستبقاً الأحداث ، أنه لولا طموح
جوليا ميخائيلوفنا ونقتها بنفسها ، لكان من الممكن أن لا يستطيع أولئك
الاشخاص الأدياء الصغار أن يفعلوا عندنا من الشر ما فعلوا ، وهكذا يقع
على عاتق جوليا ميخائيلوفنا جزء كبير من تبعه هذا الشر •

الفصل الخامس

قبل الحفلة

١



الحفلة التي كانت تُعدها جوليا ميخائيلوفنا لصالح معلمات اقليمنا ، قد أرجئت عدة مرات ، فمن بين الذين كانوا يسعون ويتحركون حول امرأة الحاكم ويساعدونها فيما تهيشه وتحضره نستطيع أن نذكر ، عدا بطرس ستيفانوفتش ، هؤلاء الأشخاص : ليامشين ، الموظف الصغير الذي كان في الماضي يتردد على ستيفان تروفيموفتش ثم استطاع الآن بموهبته في العزف على البيانو أن ينال حظوة لدى جوليا ميخائيلوفنا ؛ وليوتين الذي كانت جوليا ميخائيلوفنا تنوي أن تجعله رئيسا للجريدة المستقلة التي أرادت أن تنشئها في اقليمنا ، وأخيرا كارمازينوف نفسه الذي لم يكن شديد الحمس كالآخرين ، ولكنه أعلن مع ذلك راضيا مرتاحا أنه يهيء مفاجأة ممتعة ، وأن « رقصة الأدب » ستكون مشهدا خلايا . وقد تكاثرت التبرعات والهبات . فان جميع أفراد الصفوة المختارة في مجتمعنا أرادت أن تشارك في الحفلة . هذا عدا أن أشخاصا من عامة الناس قد قبلوا أيضا على شرط أن تكون مساهماتهم كبيرة . لقد صرّحت جوليا ميخائيلوفنا أن التقريب بين الطبقات وخلط بعضها ببعض من الامور

اللازمة أحيانا : « اذا لم نَقم نحن بتثيف هؤلاء المساكين وتزوير عقولهم ، فمن ذا الذى يجب أن يفعل ذلك ؟ » • وقد شكلت جوليا ميخائيلوفنا من خلصاتها نوعا من لجنة ادارية قررت أن تتخذ الحفلة طابعا ديموقراطيا • وكانت ضخامة التبرعات تحض على الاتفاق : لقد أُريد أن تكون الحفلة شيئا خارقا لا عهد بمثله من قبل • فذلك هو السبب فى أن موعد الحفلة قد أرجىء مرارا • وكانوا لا يعرفون بعد أين تقام حفلة الرقص : أتقام فى منزل عميدة النبالة وهو منزل واسع ، أم تقام عند فرفارا بتروفنا فى سكفورشنيكى ؟ ان سكفورشنيكى بعيدة قليلا ، غير أن عددا من أعضاء اللجنة قالوا ان المرء يحس هناك « بحرية أكبر » • وكانت فرفارا بتروفنا نفسها تود أن تُقام الحفلة عندها • انه ليصعب علينا أن نفهم لماذا كانت هذه المرأة تسعى ذلك السعى كله الى نيل الحظوة لدى جوليا ميخائيلوفنا ! لعلها قد سرّها أن ترى أن جوليا ميخائيلوفنا كانت من جهتها تقف من نيقولاى فيسولودوفتشس موقف العبادة ، وتعامله كما لا تعامل أحدا قط • أعود فأكرر مرة أخرى : ان بطرس ستيفانوفتشس كان لا ينفك يهمس فى أذنها أن لنيقولاى فيسولودوفتشس صلات قوية بجهة سرية ، وأنه مكلف بمهمة خاصة حتما •

وما كان أغرب حالة النفوس فى ذلك الأوان ! كانت حالة غريبة عجيبة حقا ! بين السيدات خاصة كان يسيطر نوع من قلة المبالاة ، ومن الخفة ، لا يدرى المرء من أين انبجستا فجأة • ان أشدّ الأفكار أصبحت تُقبل بحماسة • لكنّ ريحا من جنون ومرح قد عصفت بالناس جميعا • غير أن مشهد هذا المرح لم يكن بالمشهد الممتع دائما • أصبحت الفوضى هى الموضة ...

فيما بعد ، حين انتهى كل شيء ، أُلقيت تبعة ذلك على جوليا

ميخائيلوفنا ، والمحيطين بها ، وتأثيرها • ولكن لا شك أن جوليا ميخائيلوفنا لم تكن المسئول الوحيد • لقد كان كثير من الناس في البداية يتقنون بمدح امرأة الحاكم الجديد التي استطاعت أن تجمع الناس وأن تجعل الحياة في الريف أمتع • حتى لقد وقعت حوادث فاضحة لا يمكن أن تُعدَّ جوليا ميخائيلوفنا مسئولة عنها بحال من الاحوال ، حوادث لم يزد الناس على أن ضحكوا منها ، ولم يوجد من يضع لها حداً ، ويضع الامور في نصابها • على أن بعض الناس قد قاوموا هذا التيار ، وظلّوا مبتعدين ، محتفظين برأيهم • لكنهم لم يحتجوا واكتفوا بالتبسم •

أذكر أن قد تكونت في تلك الايام جماعة يجب أن نعترف بأنها اتخذت صالون جوليا ميخائيلوفنا مركزاً لها • فكان من المسلّم به في داخل هذه الحلقة أن الشبان يحق لهم بل ويجب عليهم أن يسترسلوا في مهازل شتى منها ما كان يبلغ حداً كبيراً من الجرأة والمجون • وكانت هذه الحلقة تضم بين أعضائها عدة سيدات منهن من كن بارعات الجمال • كان هؤلاء الشباب يقومون برحلات ، وينظمون سهرات ، حتى لقد كانوا في بعض الاحيان يتجولون على ظهور الخيل أو في العربات موكباً في الشوارع ، ويبحثون عن المغامرات ويسعون اليها ، أو يستشيرونها أو يلفقونها عند اللزوم ، لا لشيء الا أن يستطيعوا بعد ذلك قصّ حكايات مضحكة ونوادر مسلية • فكانت مدينتنا تُعامل معامل مدينة محتلة تقريباً • كان هؤلاء « الهازلون » ، كما سمّاهم الناس عندنا ، لا يتخرجون من شيء ولا يصدّهم شيء •

من ذلك أن امرأة ضابط برتبة ملازم ، وهي امرأة سمراء ما تزال شابة لكن حياتها الصعبة مع زوجها قد أهرمتها قبل الأوان ، قد ارتكبت حماقة الجلوس الى مائدة القمار في سهرة من السهرات آملة أن تربح

ما تشتري به لنفسها خمارا ، ولكنها بدلا من أن تبيع ثمن الخمار خسرت خمسة عشر روبلا . واذ لم تكن تملك ما يمكنها من دفع هذه الخسارة ، واذ خافت أن يلومها زوجها ، فقد استجمعت كل شجاعتها وقررت أن تقترض المبلغ من ابن عمدة ، وهو صبي داعر لم يكتف بأن رفض اقراضها المال ، بل أسرع يحكى القصة لزوجها وهو يضحك فى قهقهة مجلجلة . وكان الملازم المسكين لا يملك لمعيشته الا راتبه الضئيل ، فما ان عاد بامرأته الى البيت حتى انهال عليها يضربها ضربا موجعا رغم صرخاتها ودموعها ورغم أنها جنت على ركبتيها تستغفره عن ذنبها . ان هذه القصة الأليمة لم تثر عندنا الا الضحك والمزاح . ولم تكن المرأة الشقية تنتمى الى مجتمع جوليا ميخائيلوفنا ، لكن احدى سيدات هذه الحلقة وهى امرأة شاذة الأطوار جريئة وقحة ، كانت تعرف امرأة الملازم ، فمرت بها وأخذتها الى بيتها ، فسرعان ما اجتمع عليها فتياننا التحللون الفاسدون ، فدللوها وأغرقوها بالهدايا وتسلموا بها أربعة أيام قضتها كلها عند السيدة الجريئة ، فكانت تنزل معها الى المدينة ، وتشارك فى السررات وتشهد حفلات الرقص . وكانوا يحضونها على ملاحقة زوجها أمام المحاكم ، فتثير بذلك فضيحة ، باذلين لها الوعود بمساعدتها والشهادة لها على زوجها . ولبت الزوج ساكناً صابماً ، يخشى دخول المعركة . وارتأت المرأة الشابة أخيراً أنها قد أخطأت الطريق ، فلما جاء مساء اليوم الرابع تركت حاميتها ورجعت الى بيتها شبه ميتة من شدة الخوف . لا يدري أحد ماذا جرى بين الزوجين . ولكن نوافذ الجناح الخشبي الصغير الذى يسكنه الملازم قد ظلت مغلقة مدة خمسة عشر يوما لم تفتح مرة واحدة . فلما علمت جوليا ميخائيلوفنا بالامر أظهرت استياءً شديداً من تدخل السيدة الشاذة الأطوار التى كانت مع ذلك قد عرفت بها امرأة الملازم منذ الايام الاولى . ومهما يكن من أمر ، فان هذا كله سرعان ما طواه النسيان .

وبعد ذلك بزمن قصير وقعت فضيحة أخرى • ان موظفا صغيرا يتمتع بسمعة حسنة كانت له ابنةٌ تبلغ من العمر سبعة عشر عاما مشتهرةٌ في المدينة كلها بأنها بارعة الحسن الجمال ، فزوّجها شاباً هو موظف صغير أيضاً. وما لبث الناس أن علموا أن الزوج الشاب قد تصرف مع عروسه تصرفاً سيئاً جدا في ليلة الزفاف نفسها ، انتقاما لشرفه المملوخ • وقد شهد ليامشين الحادث تقريبا ، ذلك لانه وقد سكر في الوليمة قد قضى الليلة في بيت العروسين • لذلك ما ان طلع النهار حتى ركض ينشر القصة الطريفة في كل مكان • فسرعان ما تكونت جماعة من نحو عشرة أشخاص انضم اليها بطرس ستيفانوفتش وليبوتين الذي كان رغم شعره الأشيب يشارك في جميع المهازل التي ينظمها فتاتنا المتحللون هؤلاء • ركب الجميع أفراساً ، حتى اذا مضى العروسان في عربة يقومان بجولة الزيارات التي توجهها التقاليد على العروسين غداة زفافهما ، أحاط فرساننا بالعربة يضحكون ضحكا مرعاء وظلوا يرافقون الزوجين طوال النهار في المدينة • وكانوا لا يدخلون البيوت في اثرهما بل ينتظرون على الباب في كل مرة منتظرين صهوات خيولهم • يجب أن نقول أيضا انهم قد امتنعوا عن اهانة الزوجين صراحةً ، لكن هذا لا ينفي أنهم أثاروا جرسه تحدثت عنها المدينة كلها • غير أن فون لمبكه غضب في هذه المرة ، وقامت بينه وبين امرأته مناقشة حامية • وقد استاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديدا كذلك، فقررت أن توصل باب منزلها في وجه هؤلاء الفاسدين • ولكنها لم تلبث أن غفرت لهم منذ الغد استجابةً لالحاح بطرس ستيفانوفتش الذي دعمه وأيده كارمازينوف • لقد رأى كارمازينوف أن « المزحة » فكهة لطيفة • قال :

— هذا من تقاليد البلاد • ومهما يكن من أمر فللقصة لون جميل ••

وفيهما جرأة محببة • ثم ان جميع الناس يضحكون منها ويتفكهون بها
وأنت وحدك غاضبة •

غير أن هناك مهازل أخرى ، مهازل لا تطلق فعلاً ، مهازل لها طابع
خاص جدا •

وفدت الى مدينتنا بائعة متجولة تبيع الاناجيل • انها امرأة فقيرة
الحال ، لكنها فى الوقت نفسه محترمة جدا • وقد اهتم الناس بها لأن
الجرائد كانت فى تلك الآونة قد خصت البائعين المتجولين بعدد من
المقالات • فهذا هو الوغد ليامشين يتظاهر بأنه يريد شراء كتب من المرأة
الطيبة ، فيدس لها ، بمساعدة طالب عاطل كان يضرب فى الشوارع
بانظار أن يُعَيِّن معلماً ، يدس لها فى رزمة كتبها حزمة صور خليعة كان
قد زوَّده بها (كما علمنا ذلك فيما بعد) رجل عجوز محترم كان يحمل
وساما (لكننى سأكتب اسمه) ، وكان يحب « الضحك البريء » والمزاح
الطيب • فلما وصلت بائعة الكتب الى السوق وأخذت تفك رزمتها تبشرت
الصور الفوتوغرافية الخليعة على الارض ، فأخذ الناس يضحكون ، ثم
أخذوا يدمدمون ويهمهمون ، ثم تحلق حول المرأة المسكينة حشد راج
يكيل لها الشتائم جزافاً ، وكان يمكن أن يلحقوا بها أذى لولا أن تدخلت
الشرطة فاقطعت بائعة الكتب الى القسم ، ثم لم تفرج عنها الا فى المساء
بفضل الحاج مافريكى يقولايشتس الذى علم بتفاصيل هذه القصة الدنيئة
كلها فاستاء أشد الاستياء • وقد غضبت جوليا ميخائيلوفنا غضباً شديداً
وقررت أن تطرد ليامشين • ولكن أصحابنا « الهازلين » أخذوه اليها فى
ذلك المساء نفسه فما زالوا يضرعون اليها أن تسمع مرة واحدة ، لا أكثر ،
المرحة الموسيقية الجديدة التى فرغ ليامشين من تأليفها منذ قليل ، حتى
أذعنت وخضعت • واتفق أن كانت هذه الفانتازيا الموسيقية التى عنوانها :
« الحرب الفرنسية الألمانية » * ، مضحكة بالفعل •

تبدأ القطعة الموسيقية بنوع من نشيد « المارسييز » البطولي الذي يضم قول الشاعر :

بدم الأعداء الفاسد فلنسق اخاديد ارضنا

ان المطلع كله زاخر بالكبرياء ونشوة الانتصارات المقبلة • ولكن
ها نحن أولاء على حين فجأة • أثناء توسع لحن النشيد المجيد ، ها نحن
أولاء نسمع فى موضع ما ، فى ركن ما يزال غير متميز ، لكنه قريب غير
بعيد ، اللازمة الصغيرة البذيئة من أغنية « حيبى أوغسطين » (الألمانية) •
ان نشيد المارسييز لا يحفل بهذه اللازمة ، وانما يسترسل فى الحماسة
لاتتصاره المقبل • ولكن أغنية « أوغسطين » تكبر ، وتقوى ، وما تنفك
تغدو أكثر جرأة ووقاحة ، وها هو ذا لحنها يدخل فى نشيد المارسييز نفسه
دخولاً ليس بالتوقع • ويأخذ نشيد المارسييز بالفضب ، ويلاحظ أخيراً
تسلل أغنية أوغسطين ، فريد أن يتخلص منها وأن يطردها كما تطرد
ذبابه مزعجة ، ولكن أغنية « حيبى أوغسطين » تقاوم وتثبت • انها مرحلة
ملأى بالثقة ، زاخرة بالوقاحة • ويطيش صواب نشيد المارسييز : فلا
يُخفى بعدئذ حنقه وسخطه • وها هى ذى صرخات الاستياء والاستنكار ،
وها هى ذى الدموع الغزار ، وها هى ذى الأيمان المغلظة ترقى مع الأذرع
المرفوعة الى السماء منادية :

لا شمير من ارضنا ، لا حجر من قلاعنا

ولكن نشيد المارسييز كان قد اضطر أن يساير أغنية « حيبى
أوغسطين » ، وأن يجارى ايقاعها ، حتى ليختلط لحنه بلحنها اختلاطاً أبله ،
ثم اذا هو يرضخ وينطفئ • ومع ذلك نظل نسمع من هنا ومن هناك :
« بدم الأعداء الفاسد ••• بدم الأعداء الفاسد ••• » ، ولكن الجملة
سرعان ما تنتهى لتساير أغنية الفالس البذيئة الخلية • لقد خضع نشيد

المارسييز : انه جول فافر يبكى فى صديرة بسمارك ، ويترك كل شىء ، كل شىء ولكن أغنية أوغسطين تنتفخ عندئذ وتصبح حانقة معربة : انها براميل البيرة التى شربت ، انه النصر يزدهى بنفسه متغطرسا ، انها المطالبة بتعويضات تبلغ مليارات ، انها الأوامر باحضار فاخر السيجار ومعقئ النيذ ، انه أخذ الرهائن . لسنا الآن أمام أغنية « حيبى أوغسطين » بل نحن ازاء زئير ينطلق وحشياً . انتهت الحرب الفرنسية الألمانية . صفق المستمعون . وقالت جوليا ميخائيلوفنا مبتسمة : « يستحيل طرده ! » . وتمّ الصلح . لقد كان الوغد ينعم بشىء من الموهبة حقاً . لقد أكّد لى ستيفان تروفيموفتش ذات يوم أن أكبر الفنانين يمكن أن يكونوا أوغادا فطيعين ، فهذا لا ينفى ذاك . وسرت اشاعة بعد ذلك بقليل تقول ان ليامشين انما سرق هذه الفاتازيا الموسيقية من فتى موهوب لكنه متواضع ، عرفه مصادفةً ولم يسمع عنه أحد شيئاً بعد ذلك . أقول ذلك عابراً . وانما يجب الآن أن أذكر أن ليامشين الذى كان فى الماضى يسعى حول ستيفان تروفيموفتش فيمثل، متى طُلب منه ذلك، يهوديين يتشاجران* أو اعتراف امرأة صماء ، أو صرخات أم تلد ، أصبح الآن عند جوليا ميخائيلوفنا يقلد ستيفان تروفيموفتش نفسه فى بعض الأحيان تقليداً كاريكاتورياً ، تحت عنوان : « لبرالى من سنوات الاربعينات » . لقد بلغ من النجاح أن أحداً لا يخطر بباله أن يطرده : لقد عرف كيف يجعل من نفسه انساناً لا غنى عنه . ثم انه بما يجيده من التملق قد نال حظوةً لدى بطرس ستيفانوفتش الذى كان قد أصبح له فى ذلك الأوان سلطان كبير على جوليا ميخائيلوفنا .

ما كان لى أن أفيض فى الكلام على هذا الشقى الذى لا يستحق أن أتكلم عنه لولا أن وقع حادث منير يؤكد الناس أنه قد شارك فيه ولا يمكنى أن أصمت عنه .

فى ذات صباح ، انتشر فى المدينة كلها نبأ حدوث حادث يخرق
المقدسات •

عند مدخل الميدان الواسع الذى يقوم فيه السوق ، ترتفع الكنيسة
القديمة ، كنيسة « ولادة العذراء » ، وهى من أجمل المباني التاريخية فى
مدينتنا العريقة • وتحت الباب الذى فى جدار صحن الكنيسة توجد منذ
زمان قديم أيقونة موضوعة فى واجهة مصنوعة من قضبان حديدية وزجاج ،
هى أيقونة كبيرة تمثل العذراء • فى ذات صباح من الأصباح وُجدت
الأيقونة منهوبة : فالزجاج قد حُطّم ، والقضبان الحديدية قد فُكّت ،
ولآلىء كثيرة وأحجار كريمة (لا أعرف قيمتها) قد انتزعت من الأكليل
والاطار • غير أن الأخطر من ذلك ، أن الجناة لم يكتفوا بارتكاب فعل
السرقه بل زادوا عليه فافترقوا عملاً ينافى الشعور الدينى ، عملاً حقيراً
دينياً : فوراء الزجاج المحطّم وُجدت فأرة حية فيما يقال •

اليوم ، بعد انقضاء أربعة أشهر على وقوع هذا الحادث ، لا يشك
أحد من الناس فى أن هذه الجريمة انما ارتكبها فدكا الهارب من سجن
الأشغال الشاقة ، ولكن الناس يضيفون الى ذلك أن لياشين ساعده فى
ارتكابها • لم يتكلم أحد عن لياشين حينذاك ، ولم يشتبه فيه أحد • لكن
الجميع يؤكدون اليوم أنه هو الذى أدخل الفأرة وراء الزجاج • أذكر
أن السلطات فقدت صوابها قليلاً يومذاك • ومنذ الصباح أصبح الوقوف
أمام مكان الجريمة لا ينقطع • على أن الجمهور لم يكن ضخماً • لعله
نحو مائة شخص • فبعض يأتى وبعض ينصرف • والآتون يرسمون على
أنفسهم إشارة الصليب ويقبلون الأيقونة • وظهر راهب يحمل صينية
وجعل يجمع العطايا • وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ارتأت السلطات
أخيراً أن تمنع التجمع وأصدرت أمراً الى الذين انتهوا من تقبيل الأيقونة

ووضع عطاياهم بأن ينصرفوا • ويظهر أن هذا الحادث المؤسف قد أحدث في نفس فون لمبكه أثراً سيئاً ، وجعله في حالة اكتئاب شديد • حتى لقد صرّحت جوليا ميخائيلوفنا ، اذا صدق ما سمعته عنها ، أنها في ذلك اليوم بعينه انما أخذت تلاحظ على زوجها ذلك الانهيار الغريب الذي لم يبارحه الى حين مغادرته مدينتنا ، والذي ما يزال يلزمه ، فيما يقال ، حتى الآن ، بسويسرا ، حيث يرتاح بعد اقامته القصيرة في اقلينا •

أذكر أنني مررت بميدان السوق في نحو الساعة الواحدة • كان الجمهور صامتا ، وكانت الوجوه مكفهرة مظلمة • رأيت عربة من عربات الدرويكي يصل عليها تاجر بدين أصفر ، فيسجد أمام الأيقونة ، ويقبلها ويضع رويلاً في الصينية ، ثم يركب عربة ثانية وهو يزفر زفرات قوية ، وينصرف • ثم وصلت مركبة سيدتين يصحبهما اثنان من شبانا المستهترين • نزل الشابان من المركبة (وكان أحدهما قد تقدم في السن قليلا على كل حال) واقتربا من الأيقونة وهما يشقان لهما طريقا بين الجمهور بقسوة ووحشية • لم ينزع أحد منهما قبعته احتراماً ، حتى ان أحدهما وضع على عينيه نظارة • وانطلقت من الناس دمدمات وهمهمات ان تكن خافته فقد كان واضحا أنها مستنكرة ساخطة • وهذا هو الذي يضع على عينيه نظارة ، هذا هو يخرج محفظة نقود محشوة بالاوراق المالية ، فيتناول منها كوبكاً ويلقيه في الصينية • ثم يضحك الاثنان كلاهما ، ويتكلمان بصوت عال ، ويعودان الى السيدتين • وفي تلك البرهة ظهرت ليزافنا نيقولايفنا على صهوة حصانها ، يخفرها مافريكي نيقولايفتش كما جرت بذلك العادة دائما • قفزت الفتاة عن فرسها ، ورمت اللجام الى رفيقها الذي بقي على حصانه تنفيذاً لأمرها ، واقتربت من الأيقونة لحظة كان الشاب يلقي الكوبك في الصينية • احمر خذا الفتاة استياءً • ونزعت قبعتها المدوّرة ،

وخلعت قفازيها وانحنت على الارض ثلاث مرات فى تقى وخشوع ، ثم
أخرجت محفظة نقودها ، ولكنها حين لم تجد فى المحفظة الا نقودا فضية
صغيرة ، أسرع تترك قرطى أذنيها المزدانين بالماس ووضعتهما فى الصينية
سائلةً الراهب وهى منفعلة أشد الانفعال :

– هل يمكننى ؟ يمكننى ، أليس كذلك ؟ هذا لزينة الأيقونة •

فأجابها الراهب قائلاً :

– نعم ، هذا مباح • كل هبة فهى حسنة •

وكان الناس صامتين لا يظهرون لا لوماً ولا تحيذا • وعادت ليزافتا
تقولايقتا تركب حصانها ملطخة بالوحل ، وانصرفت عدواً •

بعد ذلك الحادث بيومين ، لقيتها مع صحب كثير يركب ثلاث عربات محاطة بعدد من الفرسان . فدعنتى بإشارة من يديها ، وأوقفت العربات وألحّت أن أنضم اليهم . فوجدوا لى مكانا صغيرا فى مركبتها ؛ وقدمتى ، ضاحكةً ، الى السيدات الأنيقات جدا اللواتى كن يصحبنها ، وذكرت لى أنهم ماضون فى رحلة شائقة جدا . كانت تضحك طول الوقت ، حتى لقد كانت تبدو مريحةً مرحا عجيبا . ان فيض نشاطها يكاد يتجاوز حدود القصد والاعتدال فى هذه الآونة الأخيرة . وكانت الرحلة التى يقومون بها شائقة بالفعل : انهم ذاهبون الى الجهة الاخرى من النهر ، الى منزل التاجر سيفاستيانوف . ان هذا الرجل يؤوى عنده منذ عشر سنين ، فى جناح خشبى بصحن الدار، رجلاً يقال له سيميون ياكوفلفتش*، وهو «مجنوب» يحكى عنه أنه أوتى القدرة على التنبؤ بالمستقبل ، فهو يعيش عند صاحب البيت حياة فراغ وهدوء وبحبوبة . كانت شهرة هذا الشخص القديس قد انتشرت وذاعت حتى فى الأقاليم المجاورة ، بل لقد وصلت هذه الشهرة الى العاصمتين . فكان الناس يؤمنونه من أقاصى البلاد ، يرونه ويسمعونه ، ويحمل اليه كل منهم عطية . وكانت هذه العطايا أو الهبات ، وهى ضخمة فى بعض الأحيان ، تُنقل الى الكنائس المحلية (الا أن يأمر سيميون ياكوفلفتش بغير ذلك) أو تُرسل خاصة الى دير «ولادة العذراء» الذى أوفد الى « المجنوب » مندوبا مقيما يستلم العطايا والهبات .

كانت الجماعة كلها تتوقع من هذه الرحلة تسلية كثيرة ؛ لا سيما وأن أحداً منا لم يكن قد رأى ، بعدُ ، سيميون ياكوفلفتش ، باستثناء ليامشين الذى كان قد جاء اليه مرةً والذى كان يؤكد لنا الآن أن الرجل

القديس قد أمر بطرده بضربات مكسنة وأنه رماه هو نفسه ببطاطستين
ضخمتين مسلوقتين ساختين • وبين الفرسان الذى يحيطون بالعربات ،
رأيت بطرس ستبافوقش الذى استأجر لهذه المناسبة حصانا قوزاقياً كان
لا يحسن ركوبه ، ورأيت نيقولاى فسيفولودوفتش الذى كان يشارك
دائماً فى أمثال هذه الرحلات المرحية ، مع بقائه قليل الكلام • ولقد كان
وجهه ينم يومئذ عن ابتهاج وانتعاش •

فلما عبرنا الجسر فأصبحنا أمام فندق من أهم فنادق المدينة قال
أحدهم فجأة انه قد عُثر فى هذا الفندق منذ برهة على جثة مسافر أطلق
على نفسه رصاص مسدس ، فهل لكم فى رؤية المتحر ؟ فاستحسن الجميع
هذه الفكرة وحذوها : فانه لم يسبق لسيداتنا أن رأين متحرراً قبل اليوم •
وأذكر أن احدهن قالت بصوت عال : « لقد سئنا من التسليكات العادية
فلا داعى لأن نزعج أنفسنا بهذه التسليّة الجديدة ، اللهم الا أن تكون
شائقة » • ولم يمتنع عن الدخول الا بضعة أشخاص ظلوا ينتظرون عند
مدخل الفندق • أما الآخرون ومنهم ليزافتا نيقولايفنا - وهذا ما أدهشنى
كثيراً - فقد أسرعوا يلجون الدهليز القذر المغم • كانت غرفة المتحر
مفتوحة : كان يُنظر وصول الشرطة ، ولكن لم يجرؤ أحد أن يمنعا من
الدخول طبعاً • انه فتى يبلغ التاسعة عشرة من عمره فى أكثر تقدير ،
جميل الوجه ، أشقر الشعر غزيره كثيفه ، حلو القسمات ، صافى الجبين
جدا • كان الجسم قد تجمد • ان الوجه الشاحب يبدو كأنه من مرمر •
لقد ترك الفتى على المائدة بطاقة مكتوبة بخط يده يعلن فيها انه أطلق على
نفسه الرصاص لأنه « التهم » أربعائة روبل • وكانت كلمة « التهم » بارزة
فى الرسالة القصيرة التى ضمت ثلاثة أخطاء املائية فى أربعة أسطر •
كان واقفاً أمام الجثة رجل ضخم يزفر زفرات عميقة هو واحد من

مالكى الاراضى ينزل فى الفندق نفسه • فعلما منه أن الفتى قد أوفدته أمه الأرملة وخالاته ليتولى ، بأشراف قريبة لهن ، شراء جهاز أخت له أكبر منه ستزوج قريباً ؛ ومن أجل شراء هذا الجهاز عهد اليه بأربعمائة روبل جمعت خلال عشرات السنين بفضل أنواع من الحرمان القاسى • وقد سافر الفتى مودّعاً بالدموع ومشيعاً بإشارات الصليب ، وبتوصيات ملحة ونصائح كثيرة وأدعية متصلة • وكان سلوك الفتى الى ذلك الحين سلوكاً ممتازاً والحق يقال • فلما وصل الى المدينة منذ ثلاثة أيام لم يذهب الى قريته ، بل استأجر غرفةً فى الفندق ، ثم مضى الى النادى تَوّاً ، على أمل أن يربح مبلغاً ضخماً من المال فى ركن ناءٍ من مقامر عابر • لكنه لم يجد أحداً من هذا النوع • فلما عاد الى الفندق فى منتصف الليل أمر لنفسه بشمبانيا وسيجار فاخر وعشاء يتألف من ستة أطباق أو سبعة • لكن الشمبانيا أدارت رأسه ، والسيجار أورثه غثياناً ، فلم يستطع أن يمس أى طبق من أطباق الطعام ونام كالمغشى عليه • ثم استيقظ فى صباح اليوم التالى نضراً كفاحه ، وذهب فوراً الى نوع من كاباريه يقوم على ادارته غجر ، ويقع على الضفة الأخرى من النهر ، كان الفتى قد سمع عنه فى الليلة البارحة بالنادى • ولم يرجع الى الفندق الا فى اليوم الثالث ، فى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر ؛ وقد رجع سكران كل السكر ، فرقد فوراً ، ولبت نائماً حتى الساعة العاشرة من المساء • حتى اذا أفاق أمر بشريحة لحم ، وزجاجة خمر ، وغنب وورق وحبر ، وطلب فاتورة الحساب • لم يلاحظ أحد فى وضعه شيئاً خاصاً يلفت النظر : فلقد كان يبدو هادئاً لطيفاً • ولمله قد انتحر فى نحو منتصف الليل • لكن الشيء الغريب هو أن أحداً لم يسمع صوت طلقة المسدس ، لا من الجيران ولا من العاملين بالفندق • وفى الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر فقط انما قرع

بابه الخادم ، فلما لم يسمع جوابا اقتحم الغرفة • كانت قينة الخمر فارغاً تصفها ، وكان قد بقي من العنب بضعة عناقيد • وكانت الرصاصة قد أُطلقت على القلب رأساً ؛ وكان المسدس ، ذى الطلقات الثلاث ، الصغير الحجم ، قد سقط من يدي الفتى على السجادة • وكان الجسم الذى لم ينزف منه الا قليل جدا من الدم موجودا الآن على ديوان فى ركن من الغرفة • لا بد أن الموت قد تمَّ فوراً • فالوجه ليس فيه أثر من آثار ألم : انه يعبر عن الهدوء بل وعما يشبه السعادة • حتى لكأنه يوشك أن يُبعث حياً •

شاهد أصحابنا المنظر بفضول شره • ان كل مصيبة تنزل بأحد من البشر تشتمل دائماً على شيء يفرحنا • وقد نظرت سيداتنا الى الشاب المتحرج صامتات • أما الرجال وقد حافظوا على حضور بديهم فقد كانوا يحاولون أن يلمعوا بملاحظة لطيفة أو قولة فكهة • فقال أحدهم ان الفتى ما كان فى وسعه أن يتخيَّل حلاً أفضل ، وانه تصرف تصرفاً فيه كثير من الذكاء • وقال آخر : لئن كانت حياته قصيرة ، فقد كانت مملوءة زاخرة • وتساءل ثالث على حين فجأة : لماذا تكثر حوادث الانتحار ببلادنا هذه الكثرة كلها فى الآونة الأخيرة ، كأن الناس يحسون بأنهم لا جذور لهم تشدهم الى الحياة ، ولا أقدام لهم تقف على أرض • فلم يتلق المسائل أى جواب غير نظرات خالية من اللطافة • وفى مقابل ذلك رأيت ليامشين ، الذى يحرص على أن يكون له شرف تمثيل دور المهرَّج ، رأيته يأخذ من الطبق عنقود عنب ، فيقلده فى ذلك شخص آخر • حتى اذا مدَّ ثالث يده الى قينة الخمرة دخل مفوض الشرطة الى الغرفة ، وأخرج منها الجميع • واذ كانوا قد رأوا ما أرادوا أن يروه ، فقد انسحبوا دون أى اعتراض ، الا ليامشين الذى شاء أن يحتج ، فما كان من هذه الفكاهة الا أن زادت مرح الجماعة وأنعشت نشاطها ؛ وتابع الركب الفرح طريقه وسط سيل من الضحك والكلام •

وصلنا الى عند سيمون ياكوفلفتش فى الساعة الواحدة تماما . كانت
بوابة منزل التاجر الكبير مفتوحة على سعتها . وكان كل من يريد الدخول
الى جناح « المجنوب » يستطيع أن يدخل . وعلينا أن سيمون ياكوفلفتش
يتقذى ، ولكنه مع ذلك يستقبل . فدخلنا جميعنا دفعة واحدة . ان للفرقة
التي يأكل فيها « المجنوب » ويستقبل ، لها ثلاث نوافذ ، وهى واسعة
سعة كافية ، وثمة حاجز من قضبان خشبية ، علوه متر تقريبا ، يقسمها
الى جزأين يمتد من جدار الى آخر ، ويقسم الفرقة قسمين متساوين .
فأما الزوار العاديون فانهم يقعون وراء الحاجز ، وأما الزوار الذين
يخصهم الرجل القديس بامتياز خاص فانه يأمر بادخالهم الى الجهة التي
هو فيها ، من باب فى السور خاص به ؛ ويجلسهم ، اذا بدا له ذلك ، على
مقاعد عتيقة من جلد ، أو على ديوان . وأما هو فانه متربع فوق مقعد كبير
ذى مسند عال ، وهو مقعد مهترى . كل الاهتراء . الرجل فى نحو
الخمسين من العمر ، طويل القامة ، أصفر اللون ، متورم الوجه ، حليق
اللحية تماما ، قليل شعر الرأس . ان خده اليمنى منتفخة ، وان فمه
موارب قليلا ؛ وله ثؤلول ضخمة بقرب منخره الأيسر ، وله عيان صغيرتان
هادئتان . وهو يرتدى ثيابا على الزى الأوروبي ، ولكن لا صديرة ولا
ربطة عنق تحت رديجوته الاسود . قميصه من قماش خشن ، لكنه ناصع
البياض . وقدماه ، المريضتان فيما أظن ، يتعللان خفّين مما يُستعمل فى
البيت . يقال انه كان فى الماضى موظفا وكانت له رتبة . لقد فرغ الآن من
تناول حساء خفيف بالسّمك ، وشرع فى أكل الطبق الثانى وهو بطاطس
مسلوقة بغير تقشير ومرشوشة بملح . انه لا يأكل فى حياته شيئا آخر
قط ، ولكنه يكثر من شرب الشاي ، فهو يهوى الشاي كثيرا . ان خدماً
ثلاثة يقفون حوله ، والتاجر هو الذى يدفع لهم أجورهم . فأحدهم يرتدى

بزة رسمية ، والثاني يشبه أن يكون مستخدما في محل تجارى ، والثالث
شبه بخادم كنيسة . وهناك عدا هؤلاء فتى فى السادسة عشرة من عمره ،
كثير الحيوية والنشاط ، وراهب شائب الشعر ، مهيب المظهر ، وان يكن
سمينا بعض السمنة ، يحمل بيده علبة مغلقة للمطايا والهبات . وعلى مائدة
يفلى سماور توجد الى جانبه صينية عليها نحو دسيتين من الكئوس . وعلى
مائدة أخرى مقابلة قد صُفَّت الهدايا : أرغفة خبز ، وصرر سكر ،
ورطلان من الشاي ، وخفآن مطرّزان ، ومنديل تلف به العنق ، وقطعة
جوخ لصنع رداء ، وقطعة نسيج مما تخاط منه القمصان . . . أما العطايا
المالية فيذهب بها الراهب الى الكنيسة فى العلبة المغلقة ، دائما على وجه
التقريب . وكان عدد الزائرين نحو اثني عشر زائرا ، اثنان منهما كانا
جالسين قرب سيمون ياكوفلفتش : فأما أحدهما فهو حاج من « عامة
الناس » ، وأما الثانى فهو راهب قصير نحيل كان ماراً بمدينةنتا ، وقد جلس
متواضعا خافض العينين . وكان باقى الزوار وراء الحاجز . ان أكثرهم
أناس من الشعب ، باستثناء تاجر سمين ذى لحية وصل الى المدينة من
القرية المجاورة ، وهو يرتدى لباسا على الزى الروسى ، لكنه معروف بأنه
عظيم الثراء ؛ وباستثناء رجل آخر من مالكي الأراضي ، وامرأة عجوز
نييلة فقيرة .

كان الجميع ينتظرون ، لا يجبرون أن ينطقوا بكلمة واحدة قبل
أن يتجه اليهم الرجل القديس بالكلام . ان أربعة منهم راكعون . ومالك
الارض ، الرجل السمين ، الذى يبلغ من العمر نحو خمسة وأربعين عاما ،
هو الذى يلفت الانتباه خاصة : كان راكما أمام الحاجز ، يراه كل من
بالغرفة ، ينتظر بكثير من الحشوع أن يمن عليه سيمون ياكوفلفتش بنظرة
أو كلمة طيبة . انه هنا منذ ساعة ، ولكن الرجل القديس لا يوليه أى
انتباه .

تكدست سيداتنا على الحاجز وهن يُطلقن ضحكات صغيرة ويتبادلن همسات فرحة ، فيدفن الزوار الآخرين ويحجبهم ، الا المالك الذى حافظ على مكانه فى عناد ، متشبهاً بقضبان الحاجز بكلمات يديه • وسرعان ما أصبح سيميون ياكوفلفتش محط هذه الأنظار الضاحكة المستطلعة • وتسليح عدد منا بنظارات تُمسك باليد ، أو توضع على الأنف ، حتى أن لياشين أخذ يتأمل القديس مستعملاً نظارتين مقربتين من النظارات التى يُستعان بها فى المسرح • وألقى علينا سيميون ياكوفلفتش نظرة هادئة كسولة من نظرات عينيه الصغيرتين •

ثم قال بصوت خفيض أبح قليلاً :

- نظرات لطيفة !

فانفجرت جماعتنا كلها ضاحكة : مامعنى هذا القول : «نظرات لطيفة»؟ ولكن سيميون ياكوفلفتش عاد الى صمته الكامل • وأتى على طبق البطاطس الذى كان يأكله ، ومسح شفثيه بمنشفة ، ثم حُمِل اليه الشاي • انه فى العادة لا يشرب الشاي وحيداً ، وانما يقدم منه الى زواره ، أو قل الى عدد من زواره يصطحبهم فيعينهم • وكان هذا الاصطفاء من بين الزوار يفضاً الناس دائماً بما فيه من أمور غير متوقعة • فهو تارة يهمل الأغنياء والشخصيات الهامة فيأمر بالشاي لفلاح أو لامرأة عجوز من الشعب ، وهو تارة أخرى يحتقر الفقراء فيأمر بالشاي لتاجر سمين من التجار ملء الجيب بالمال • هذا عدا أنه لا يعامل جميع الذين يختارهم معاملة واحدة : فواحد يأمر له بشاي محلى بالسكر ، وآخر يأمر له بشاي مع قطعة من السكر عليه أن يمصها مصاً أثناء احتساء الشاي ، وثالث لا يأمر له مع الشاي بسكر بتاتا • ففى هذه المرة وقع اختيار سيميون ياكوفلفتش على الراهب الغريب القصير ، فأمر له بشاي محلى ، وعلى الحاج العجوز فأمر

له بشاي من غير سكر • أما الراهب السمين الآتي من ديرنا فانه لم يأمر
له بشي ، رغم أنه كان ينال كأسه دائما •
- سيميون ياكوفلفتش ، قل لي شيئا ما ! اننى منذ زمن طويل أحب
أن أعرفك •

بذلك صدح صوت مفرّد مقنّاج هو صوت تلك السيدة الأنيقة التي
قالت منذ برهة ان على المرء أن لا يكون متشددا في شئون التسليات شريطة
أن يكون الامر شائقا •

فلم يرض سيميون ياكوفلفتش حتى أن ينظر إليها • وزفر مالك
الأراضي ، الراكع أمام الحاجز ، زفرة صاخبة ، كأن أحداً قد نفخ في
صفارة قوية •

قال « الرجل التقى » ، وهو يشير باصبعه الى التاجر الفنى :

- هاتوه بشاي محلى بسكر •

فاقترب التاجر الفنى وركع الى جانب المالك •

وقال سيميون ياكوفلفتش حين صبّ الشاي :

- مزيدا من السكر •

فضاعفوا له مقدار السكر • فقال :

- مزيدا ، مزيدا !

فضاعف الخادم السكر مرة ثانية ، ثم ضاعفه مرة ثالثة ، فكان مقدار
السكر الذى وُضع في الشاي أربعة أضعاف المقدار العادى • فأخذ التاجر
يشرب شرا به طيِّعاً خاضعا • وهمس الناس وهم يرسومون على أنفسهم
اشارة الصليب :

- يا رب !

وزفر المالك من جديد •

وارتفع صوتُ سيدة فقيرة كانت جماعتنا قد دفعتها الى الحائط ، ارتفع على حين فجأة أليماً موجعاً ، لكنه يبلغ من الحدة أن جميع الحضور دُهِسوا ، ارتفع يقول :

- سيمون ياكوفلفتش ، أبتاه ! اننى هنا منذ ساعة أرتقب أن تلقى على نظرتك الحنون • كلّسنى • قل لى : ماذا يجب أن أفعل ، أنا اليتيمة المسكينة !

فقال سيمون ياكوفلفتش للخادم الذى يشبه خادم كنيسة :
- اسألها !

فدنا الخادم من الحاجز ، وسأل الأرملة بصوت رقيق بطيء :
- هل فعلت ما أمرك به سيمون ياكوفلفتش آخر مرة ؟
- أننى لى أن أستطيع فعل ما أمرنى به أيها الأب العزيز ! هؤلاء أناس من أكلة لحوم البشر حقاً ! لقد شكوى الى المحاكم ، وهم يهددونى بأن يجرونى الى أمام مجلس الشيوخ ، أنا أهمهم !

قال سيمون ياكوفلفتش للخادم وهو يشير الى كتلة سكر :
- أعطها هذا !

فأسرع الفتى نحو المائدة ، وتناول الكتلة ، ومدّها الى الأرملة •
فهتفت الأرملة تقول :

- أوه ! أبتاه ! عظيمة طيبتك ! ما عسانى فاعلة بهذا كله ؟

فأردف سيمون ياكوفلفتش يقول متابعا كلامه :
- مزيدا ! مزيدا !

فجيئت المرأة بكتلة أخرى • فألح سيمون ياكوفلفتش مكررا :

– مزيدا !

فجيئت بثالثة ، فرابعة ، فرأت نفسها محاطة بسكر من كل جهة •

– زفر الراهب السمين : ان هذا كله كان ينبغي أن يُرسل الى الدير كالعادة •

وتنهدت الأرملة قائلة بمذلة :

– ولكن ما عسانى صانعة بهذا كله ؟ انه يكاد يثير الغيان ... أم ترى هذا نبوءة ؟

دمدم أحد فى الجمهور يقول :

– هو نبوءة طبعاً •

– اعطوها رطلا آخر •

كذلك قال سيميون ياكوفلفتش •

كانت قد بقيت على المائدة حزمة كاملة • ولكن الرجل المقدس أمر بأن تعطى رطلا واحدا فأطيع •

قال الناس متنهدين وهم يرسمون على أنفسهم اشارة الصليب :

– يارب ! يا رب ! واضح أنها نبوءة •

وتصدى الراهب السمين الذى أغضبه أن يرى أنه نُسى ، وأن عليه أن يستغنى عن كأس الشاي الذى اعتاد أن يؤمر له به ، تصدى للتعليق على هذا فقال للمرأة برصانة :

– عليك أولاً أن تجعلى قلبك حلواً بالطيبة والغفران، فربما كان ذلك هو معنى هذا الرمز !

فهتفت المرأة تقول وقد غضبت فجأة :

— ما هذا الذى تقول يا أبت ! لقد أرادوا أن يلقوني فى النار حين
شب حريق فى منزل أسرة فرخيشيف • ووقد رموا فى صندوقى قطعة
فاطسة ، انهم لا يتورعون عن شيء •••

صاح سيميون ياكوفلفتش يقول محرّكاً ذراعيه :

— اطردها ! اطردها !

فوثب خادم الكنيسة والخادم الشاب الى الجهة الاخرى من الحاجز ،
فأمسك خادم الكنيسة بالأرملة تحت ذراعه ، فسرعان ما عادت ذليـلة
متواضعة وانقادت سائرة نحو الباب ، دون أن يفوتها أن تلقى نظرة على
كتل السكر التى حملها الصبي وراءها •

قال سيميون ياكوفلفتش يأمر الخادم الذى يشبه أن يكون مستخدماً
فى محل تجارى والذى كان يقف بقرب مقعده :

— استرد منها كتلة من السكر •

فركض الخادم وراء الأرملة ، فما هى الا لحظة حتى رجع الخدم
الثلاثة بكتلة السكر التى أُعطيت للأرملة ثم استردت منها ، لكن المرأة
انصرفت بثلاث كتل •

قال صوت قريب جداً من الباب :

— سيميون ياكوفلفتش ، رأيتُ فى الحلم طائراً • انه زاغ صعد
من الماء ومضى يرتدى فى النار • فما معنى هذا الحلم ؟

قال الرجل « التقى » :

— نذير برد •

وعادت السيدة الأنيقة تسأله :

- سيمون ياكوفلفتش ، لماذا لا تجيئني ؟ اننى منذ مدة طويلة أهتم
بك ويشوقنى أمرك •
- اسأله •

كذلك قال سيمون ياكوفلفتش لراهب ديرنا مشيراً الى مالك الأرض
الذى ما يزا لراكما ، دون أن يتبّه الى السيدة الأيقنة التى وجّهت اليه
ذلك السؤال •

- ماذا كان ذنبك ؟ هل سبق أن أمرت بشيء ؟
فأجاب الرجل بصوت أجش :
- أمرت بأن لا أقتل مع الناس ، أمرت بأن أسيطر على نفسى •
- فهل أطعت الأوامر ؟
- لا أستطيع ، يستحيل علىّ أن أتحكم بسلوكى وأسيطر على
نفسى •

- اطرده ! اطرده ! بالكنيسة !
كذلك صاح سيمون ياكوفلفتش محركاً ذراعيه من جديد • فإذا
بالمالك يلوذ بالفرار قبل أن يُنفذَ فيه هذا التهديد •
قال الراهب وهو يلتقط من الأرض قطعة ذهبية بمشرة روبلات :
- ترك قطعة ذهبية •
فقال سيمون ياكوفلفتش وهو يشير الى التاجر الثرى :
- أعطها هذا •

فلم يجزؤ التاجر الثرى أن يرفضها • ولم يملك الراهب الا أن
يعلق على ذلك بقوله :
- الذهب يجذب الذهب !

- وأعط هذا شاياً بالسكر •

قال سيميون ياكوفلفتش ذلك وهو يشير الى مافريكى نيقولايفتش •
فملاً خادم كأساً ، ولكنه أخطأ فقدمه الى الشاب الأنيق ذى النظارة • فصحيح
سيميون ياكوفلفتش خطأ قائلاً :

- بل لهذا ! الطويل ، الطويل !

فتناول مافريكى نيقولايفتش الكأس ، وقام بتحية عسكرية سريعة
وأخذ يشرب الشاي • فلا أدري لماذا أخذ جميع صحبنا يضحكون !

وقالت ليزا فجأة :

- مافريكى نيقولايفتش ، ان السيد الذى كان راكماً قد انصرف ،
فاركم أنت فى مكانه •

فنظر اليها مافريكى نيقولايفتش مبهوتا •

- أرجوك • ستسرنى بهذا سرورا عظيما •

ثم تابعت تقول مسرعةً بلهجة ضاغطة مندفعة :

- اسمع يا مافريكى نيقولايفتش ! يجب ، يجب حتماً أن أراك
راكماً • فاذا لم تركم فلن تجيئنى بعد اليوم • أريد ••• أريد •••

لا أدري ماذا كان معنى هذا • لكنها أصرّت على رأيها اصراراً
عنيداً ، وتكلمت بلهجة حاسمة قاطعة ، وكأنها تعاني نوبة عصبية • ولقد
كان مافريكى نيقولايفتش ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، يعزو هذه النزوات
الغريبة التى تزداد يوماً بعد يوم ، الى البغض الأعمى الذى تحمله له
الفتاة • ولكنها كانت تضمر له مع ذلك اعتباراً واحتراماً وعاطفة ، وكان
هو يعرف ذلك • على أن هذا لا ينفى أنها كانت تحمل له عداوة لا شعورية
لم تفلح الفتاة فى أن تنتصر عليها •



ليزا دروژدوف (في لباس الفارسات)

لم يقل مافريكى نيقولايفتش كلمة واحدة ، وانما التفت الى عجوز كانت وراءه فأعطاه الكأس ، وفتح باب الحاجز ودخل دون استئذان الى الجزء الموقوف على سيميون ياكوفلفتش من الفرقة ، وركع فى وسطه .
أظن أن رقة احساسه وبساطة قلبه قد روّعتهما هذه الالهانة الفظة التى أنزلتها فيه ليزا بحضور المجتمع كله . لعله قال لنفسه انها لا بد أن تخجل من سلوكها حين ترى هذا الذل الذى أكرهته عليه . نعم ، لا بد أن يكون مافريكى نيقولايفتش رجلاً من نوع مافريكى نيقولايفتش حتى يحاول أن يؤثر فى امرأة بوسائل تبلغ هذا المبلغ من السذاجة ، وتبلغ هذا المبلغ من قلة التبصر . وكان منظر هذا الرجل الطويل المتخلع الراكع الذى ظل وجهه رصينا لم يضطرب ، كان منظرًا مضحكًا كل الاضحاك .
غير أن أحداً لم يضحك حينذاك : ان هذا المشهد الغريب قد أثار شعورا بالضيق والانعراج . واتجهت الأنظار كلها الى ليزا .

غمغم سيميون ياكوفلفتش قائلاً :

– منتهى الرقة ! منتهى الرقة !

فاصفرت ليزا فجأة ، وأطلقت صرخة ، واندفعت الى الجهة الأخرى من الحاجز ، وأخذت تشد مافريكى نيقولايفتش لتنهضه وكأنها خرجت عن طورها ، وتصرخ زائفة الهيئة قائلة :

– قم ! قم فوراً ! كيف جرؤت على أن تفعل هذا ؟

فقال مافريكى نيقولايفتش . وأمسكت بذراعيه تحت كوعيه ، وحدّقت الى عينيه بنظرة مرتاعة .

وكرر سيميون ياكوفلفتش :

– نظرات لطيفة ، نظرات لطيفة ! ...

ورجعت إلينا بمافريكى نيقولايفتش أخيرا • كانت جماعتنا كلها مضطربة أشد الاضطراب • وأرادت السيدة الأنيقة أن تسرّى عنا فى أغلب الظن ، فاتجهت تخاطب سيميون ياكوفلقتش مرة ثالثة ، قائلة له بصوتها الحاد وهى تبسم ابتسامة غنج ودلال :

- هيه ••• سيميون ياكوفلقتش ، هلا تنازلت فقلت لى شيئا ؟ لطالما عوّلت عليك ! •••

- ابحنى لنفسك عمن ؛ ••• ابحنى لنفسك عمن ؛ ••• ! •••

كذلك صاح « ولى الله » غاضبا وهو يلتفت إليها • وقد نطق « القديس » بهذه العبارة البذيئة بوضوح مروّع • فما ان سمعته سيداتنا يقول هذا الكلام حتى لذن بالفرار وهنّ يطلقن صرخات صغيرة مرتاعة ، بينما انفجر مرافقوهن الفرسان يضحكون ضحكا هوميريا • هكذا انتهت زيارتنا لسيميون ياكوفلقتش •

غير أن حادثا غريبا قد وقع أيضا فيما قيل ؛ وانى لأعترف لكم بأننى من أجل الوصول الى هذا الحادث خاصةً انما سردت تلك التفاصيل كلها عن رحلتنا •

قيل ان ليزا التى كان يسندها مافريكى نيقولايفتش قد اصطدمت فجأة ، أثناء هروب الجميع الى خارج غرفة سيميون ياكوفلقتش ، قد اصطدمت قرب الباب بنيقولاى فسيفلودوفتش • يجب أن أقول انهما ، منذ مشهد يوم الاحد واغماء ليزا ، لم يتعرض أحد منهما لصاحبه ، ولا كلمه ، رغم أنهما يلتقيان فى المجتمع • لقد رأيتهما قريين أحدهما من الآخر عند الباب ، وبدا لى خلال لحظة انهما توقفا كلاهما وألقى كل منهما على الآخر نظرة غريبة • لكن الازدحام كان شديدا فمن الجائز أننى أخطأت • غير أن ما أكدته الآخرون هو أن ليزا رفعت يدها الى مستوى

وجه نيقولاى فيسبولودوفتش ، وأنها كانت ستصفه حتما لولا أنه تنجى
فى الوقت المناسب • فلعل ليزا أحست ، ولا سيما بعد المشهد الذى وقع
مع مافريكى نيقولايفتش ، أن نظرة ستافروجين أو ابتسامته تجرحان
شعورها • اعترف بأننى من جهتى لم ألاحظ شيئا • لكن الجميع قد
أكدوا أنهم رأوا هذه الحركة • ومهما يكن من أمر ، فإذا كان قد حدث
شيء فإن الذين استطاعوا من بيننا أن يروه قليل ، وذلك بسبب الازدحام
والفوضى • ولقد رفضت فى ذلك الوقت أن أصدق ما قالوه • ولكننى
أذكر أن وجه نيقولاى فيسبولودوفتش كان يبدو أثناء العودة شاحبا بعض
الشحوب •

فى ذلك اليوم نفسه ، وفى تلك الساعة نفسها تقريبا ، تمّ اللقاء الذى كانت فرارا بتروفا قد قررت منذ مدة طويلة أن تحدده لستيفان تروفيموفتش ، ولكنها أرجأته حتى ذلك الحين ، لا أدري لماذا ! ولقد تمّ هذا اللقاء فى سكفورشنىكى .

وصلت فرارا بتروفا الى منزلها الريفى مشغولة جدا : كان قد تقرر فى الليلة البارحة نهائيا أن تقام الحفلة فى منزل عميدة النبالة . ولكن فرارا بتروفا ، بما تتميز به من تعجل ، سرعان ما قررت أن لا يمنحها شيء بعد تلك الحفلة من اقامة حفلة أخرى بمنزلها فى سكفورشنىكى ، تدعو اليها المدينة كلها . فسوف يرى الناس حينذاك أن منزلها هو المنزل الأجل ، وسوف يرون أن الاستقبال فيه أليق ، وأن الحفلة فيه ستمتاز بدوق الطف . نستطيع أن نقول على وجه العموم ان فرارا بتروفا قد تغيرت حتى أصبحت لا تكاد تُعرف . لقد طرأ عليها تحول كامل ، فصارت « السيدة العظيمة » ذات الكبرياء (كما كان يلقبها ستيفان تروفيموفتش) امرأة عادية من نساء المجتمع التافه ، خفيفة ذات نزوات .

ما ان وصلت فرارا بتروفا الى منزلها الريفى الخالى حتى قامت بجولة سريعة فيه ، يصحبها المعجوز الأمين ألكسى ايجورتش فاموشكا * الاختصاصى الواسع الخبرة فى شؤون تزيين المنازل . ودارت المناقشة : ما هى الاشياء وما هى اللوحات التى يجب احضارها من المنزل الذى تقيم فيه فرارا بتروفا بالمدينة ؟ أين يجب وضع هذه الاشياء واللوحات هنا ؟ كيف تُرتب الأزهار ؟ كيف يمكن الاستفادة من بيت أشجار البرتقال ؟

أين توضع مجموعة الطنافس الجديدة ؟ والبوفيه ، أين يكون ؟ وهل
يقام بوفيه واحد أم اثنان ؟ الخ الخ ...

وبينما كانت فرارا بتروفا مشغولةً بمناقشة هذه الأمور ، اذ خطر
ببالها فجأة أن ترسل عربتها لتجيتها بستيفان تروفيوفتش .

وكان ستيفان تروفيوفتش متهيئاً . لقد أبلغ منذ مدة طويلة أن
فرارا بتروفا ستحدد له موعداً ، وكان ينتظر فعلاً أن تدعوه دعوة مفاجئة
من هذا النوع . فحين ركب العربّة رسم على نفسه إشارة الصليب : لأنه
كان يحس أن مصيره سيتقرر أخيراً .

وجد صديقه في الصالة الكبرى . انها جالسة على كبة صغيرة
أمام منضدة من مرمر تكتب : كان فاموشكا ، وهو يحمل بيده متراً ،
يقيس علو المنصات والنوافذ ، ويملي الأرقام على فرارا بتروفا فتسجلها .
لم تقطع فرارا بتروفا عملها حين وصل ستيفان تروفيوفتش وانما
أومات له بحركة من رأسها ، حتى اذا عبّر لها عن تحياته واحتراماته
متمتماً ، مدت اليه يدها بسرعة تصافحه دون أن تنظر اليه ، وعينت له
مكاناً الى جانبها يجلس عليه .

وقد حكى لى ما جرى ، فيما بعد ، فقال : « جلست وانتظرت خمس
دقائق أو ست دقائق كاملة ، ضاغطاً قلبي . ان المرأة التي أراها أمامي
ليست هي تلك التي أعرفها منذ عشرين عاماً . فكان من شأن اقتناعي
المطلق بأن كل شيء بيننا قد انتهى أن ملأني بقوة دُهِشت منها هي نفسها .
أحلف لك أنها بهتت من ثبات جنائي وصلابة ارادتي في تلك الساعة
الاخيرة . . . »

وفجأة وضعت فرارا بتروفا قلمها على المنضدة والتفت الى ستيفان
تروفيوفتش بحركة مفاجئة وقالت له :

- يا ستيفان تروفيموفتش ، هناك أمور يجب أن نصفها • أنا واثقة بأنك قد هيأت عبارات جميلة وألفاظا عاطفية وصيحات مؤثرة ، ولكن أليس الأفضل أن نمضى الى الوقائع رأساً ؟

انتفض ستيفان تروفيموفتش • قال لنفسه : اذا أسرعت الى اتخاذ هذه اللهجة منذ البداية فما عسى تكون التهمة والنهاية •

- انتظر ! اسكت ! دعنى أتكلم ! ستتكلم أنت بعد ذلك ، رغم اننى لا أعرف حقاً بماذا يمكن أن تجيئنى !

كانت تتدفق فى الكلام تدفقاً غزيراً ، وتابعت كلامها تقول :

- فيما يتعلق براتبك الذى يبلغ ألفاً ومائتى روبل ، فانى أرى أنه واجب مقدس على أن أستمّر فى تقديمه اليك حتى آخر حياتك • ولكن علام الكلام عن « واجب مقدس » ؟ هذا اتفاق لا أكثر ولا أقل • بذلك نكون أقرب الى الواقع ، أليس كذلك ؟ واذا شئت سجنّناه كتابةً • واذا اتفق أن مت قبلك ، فقد اتخذت اجراءات خاصة لهذه الحالة • وبالإضافة الى ذلك تقع على عاتقى أجرة المسكن ونفقات الخدمة والعيشة • فاذا ترجمنا هذه المصاريف الى مال ، كان المبلغ اللازم ألفاً وخمسمائة روبل ، أليس كذلك ؟ وانى لأضيف الى هذا ثلاثمائة روبل للنفقات الحارقة ، فيكون المجموع كله ثلاثة آلاف روبل فى السنة • ألا يكفيك هذا المبلغ؟ أظن أنه ليس بالمبلغ الضئيل • والآن خذ المال ، وردّ الى خدمى ، وعش كما يحلو لك أن تعيش ، فى المكان الذى تريد : بطرسبرج ، أو موسكو ، أو الخارج ، أو حتى هنا ؟ ولكن ليس عندى ، هل تفهم ؟

قال ستيفان تروفيموفتش ببطء وكآبة وأسى :

- منذ مدة غير طويلة سمعت من هذا الفم نفسه مطلباً آخر يبلغ هذا المبلغ نفسه من القطع والجزم والالحاح • وخضعت للمطلب ••••• رقصت

الرقصة القوزاقية لأسرك ... » نعم ، هذا التشبيه مباح . لقد كنت مثل قوزاقى صغير من الدون يرقص على قبره ... والآن ... » (بالفرنسية).

- قف ياستيغان تروفيموفتش . انت ثرثار الى درجة فظيعة . انك لم ترقص ، وانما جئت الى متريناً بربطة عنق جديدة ، لابساً قميصاً نضراً ناصع الياض ، داساً يديك فى قفازين جميلين ، متدهناً متعطراً . أؤكد لك أنك كنت راغباً فى الزواج أشد الرغبة . كان ذلك يُقرأ فى وجهك . وصدفتى اذا قلت لك انه لم يكن جميلاً منك . ولئن لم أُبد لك هذه الملاحظة حينذاك ، فلقد كان ذلك من جانبى ذوقاً وأدباً ولطفاً . لكنك كنت راغباً ، نعم كنت راغباً فى أن تتزوج ، رغم كل الأشياء الدنيئة التى كتبتها عنى وعن خطيبتك خفية . والأمر الآن يختلف عن ذلك تماماً . ما شأن « قوزاقى الدون والقبر » هنا ؟ ... اننى لا أفهم هذا التشبيه . بالعكس : لا تمت ، بل عش أطول عمر ممكن ، وسيسعدنى هذا كثيراً .

- أعيش فى ملجأ ؟

- فى ملجأ ؟ لا يذهب المرء الى ملجأ حين يكون له دخل قدره ثلاثة آلاف روبل . آ ... نعم ... تذكرت الآن . ان بطرس ستيفانوفتش قد قال ، فعلاً ، فى ذات مرة ، على سبيل المزاح ، انه سيضعك فى ملجأ . على أن الملجأ الذى كان يعنيه ملجأ من نوع خاص جداً . ينبغى أن نفكر فى هذا حقاً . انه ملجأ لا يُستقبل فيه الا أشخاص محترمون جداً ، رجال برتبة كولونيل مثلاً ، حتى ان بين المرشحين لدخوله شخصاً برتبة جنرال . فاذا دخلته بما تملك من مال وجدت فيه الراحة والرخاء وخدمة ممتازة . فتستطيع أن تنصرف فيه الى العلم وأن تلعب لعبة الورق التى تلعبها كل يوم ...

- « طيب ... دعينا من هذا الكلام » (بالفرنسية) •

- « دعينا من هذا الكلام » ؟ (بالفرنسية) •

قالت فر فارا بتروفا ذلك وهى تحرك يدها باشارة تتم عن التملل
ونفاد الصبر • وأضافت :

- اذا كان الامر كذلك فهذا كل شىء • هأنذا قد أبلغتك ما عقدت
عليه نيتى • بعد الآن ، سيعيش كل منا مستقلاً عن الآخر ؛ سيسير كل منا
فى طريقه ...

- هذا كل شىء ؟ هذا كل ما بقى لنا من السنين العشرين التى
انفقناها معا ؟ أهذا وداعنا الأخير ؟

- ان لك ولماً شديدا بالصيحات العاطفية المؤثرة يا ستيفان
تروفيوفتش ! لقد انقضت هذه الموضة وأصبحت بالية ! الناس يتكلمون
الآن بخشونة ولكن ببساطة • انك ما تنفك تتكلم عن هذه السنين
العشرين • نعم ، انها عشرون سنة من الأناية ! الرسائل التى بعثتها الى
انما كتبت للأجيال القادمة ، لا لى أنا • ما أنت بصديق • وانما أنت منشىء
ينمق أسلوبه ويزوّد كتابته • والصدقة على كل حال كلمة ضخمة
لا تعنى على وجه الاجمال الا أن يتساكب اثنان مياهاً وسخة ...

- رباه ! هذه كلها كلمات ليست لك ! انك تكررين درساً حفظته
على ظهر القلب • هل البسوك أنت أيضا زيتهم ؟ « عزيزتى ، عزيزتى »
(بالفرنسية) ... بأى طبق من عدس بعثهم حرّيتك ؟

قالت فر فارا بتروفا غاضبة :

- لست ببقاء أكرر أقوال الآخرين • نق أن قلبى مثقل بأشياء
تكفينى من أجل أن أجد الكلمات التى تناسبنى • ماذا فعلت فى سبيلى

أثناء هذه السنين العشرين ؟ منعتَ عني حتى الكتب التي كنت استقدمها لك والتي ما كان لها أن تُقصَّ لولا أنني كنت أمر بتجليدها . ماذا كنت تعطيني للقراءة حين كنتُ في السنين الأولى أطلب منك توجيه مطالعاتي ؟ كابفيج * ، ولا شيء الا كابفيج * ! كنت تغار من تطور فكري ونمو ثقافتى ، فكنت تتخذ اجراءاتك للحيلولة دونهما . ومع ذلك فمنك أنت انما يضحك الآن جميع الناس . اعترف بأننى لم أكن أرى فيك على الدوام الا ناقداً أدبياً لا أكثر . انك ناقد أدبى لا أكثر . وحين سافرت الى بطرسبرج وقلت لك ان فى نيتى أن أنشئ مجلةً وأن أفق عليها حياتى كلها أسرعرت تنظر الىّ ساخراً وتتخذ منى موقف استعلاء وغطرسة .

- لم يكن الامر هذا ... لم يكن هذا بتاتا ... وانما كنا يومئذ نخشى الملاحقات ...

- لا ، لم يكن الامر كذلك . أما عن الملاحقات فلم يكن لك أن تخشاها فى بطرسبرج . وبعد ذلك ، فى شهر شباط (فبراير) حين سرت بعض الشائعات ، هرعت الىّ مذعوراً ، وطلبت منى أن أعطيك شهادة فى صورة رسالة تثبت أن المجلة المزعم اصدارها لا شأن لك بها بتاتا ، وأن الشبان يترددون علىّ أنا لا عليك أنت ، وأنتك لست الا مريباً يعيش عندى لأننى ما أزال مدينةً له بمال . هل تتذكر ؟ لقد كان لك طوال حياتك موقف خاص يا ستيفان تروفيموفتش !

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول مكروباً يائساً :

- لم يكن ذلك الا لحظة ضعف ، لم يكن الا كلاما جسمى بينى وبينك على انفراد . ولكن هل يُعقل ، هل يُعقل قطع كل صلة بسبب حوادث طارئة صغيرة من هذا النوع ؟ هل يعقل أن لا يبقى بيننا شيء بعد هذه السنين كلها ؟

- انك حيسوب الى درجة رهية : تصرُّ بكل ما أوتيت من قوة على أن أبقي مدينةً لك • حين عدتَ من الخارج ، كنت تنظر الىَّ من عل ، ولا تدعني أقول كلمة واحدة • وحين سافرت أنا بدورى وأردت أن أقصَّ عليك انطباعاتي عن « مادونا سكستين » لم تتنازل حتى أن تستمع لحديثي الى نهايته ، واكتفيت بالتبسم متعاليا متكبرا كأنني عاجزة حتى عن الشعور بأي شيء •

- لم يكن الامر كذلك ••• لعل الامر كان يتعلق بشيء آخر •••
« نسيت » (بالفرنسية) •

- بل كان الامر كما وصفت • ولم يكن مع ذلك نمة داع الى اصطناع الاستعلاء والتكبر • كل ما كنت تحكيه لي عن تلك اللوحة لم يكن الا سخفاً وحماسة ومحض خيال من جهتك • ما من أحد يشعر الآن بنشوة تجله هذه المادونا ، أو يضيّع وقته في تأملها ، باستثناء شيوخ سدّج بسطاء • وذلك أمر مؤكد مبرهن عليه •
- مبرهن عليه ؟

- انها لا تفيد في شيء على الاطلاق • هذه الجرة مفيدة لأننا نستطيع أن نملأها ماءً ، وهذا القلم نافع لأنه يتيح لي أن أسجل ما أريد تسجيله • أما تلك اللوحة فما هي الا وجه امرأة أسوأ من الوجوه التي نلقاها في الشارع • اذا رسمتُ تفاحةً ووضعت الى جانبها تفاحة حقيقية ، فأيهما تختار ؟ * انك لن تخطيء الاختيار • أنا موقنة من هذا • ذلك ما يبقى اليوم من جميع نظرياتك متى سلطنا عليها أول شعاع من حرية النظر •
- طيب ••• طيب •••

- انك تبسم ساخرا • ماذا كنت تقول لي عن الصدقة ؟ والحقيقة أن اللذة التي يهبها لنا التصديق لذّة أنانية لا أخلاقية • انها تتيح للفني

أن يبتهج بغناه وسلطانه اذ يقارنهما بضعف الفقير • والصدقة تفسد المعطى
والآخذ كليهما • وهى فوق ذلك لا تبلغ غايتها ولا تحقق هدفها ، لأنها
تكاثر البؤس • فالكسالى الذين لا يريدون أن يعملوا يتزاحمون حول
أولئك الذين يعطون ، كالمقارمين الذين يتحلقون حول المائدة الخضراء
أملأ فى أن يربحوا • والدريهمات القليلة التى يرمونها اليهم لا تخفف
جزءاً من مائة جزء من آلامهم • كم من المال وزعت طوال حياتك ؟ ثمانين
كوبكا فى أكثر تقدير • تذكر هذا • حاول أن تتذكر متى تصدقت آخر
مرة • ربما منذ سنتين أو حتى منذ أربع سنين • انك لا تريد على أن تتكلم
فتعرق عمل الآخرين • ان من الواجب ، حتى فى المجتمع الحالى ،
اصدار قانون يحظر الصدقة • أما المجتمع الجديد فلن يكون فيه فقراء
قط •

- أوه ! سيل من الاقوال العجيبة ! المجتمع الجديد ! اذن قد وصلت
الى هنا ؟ مسكينة ! كان الله فى عونك !

- نعم ، وصلت الى هنا يا ستيفان تروفيموفتش • كنت تحرص على
أن تخفى عنى جميع الأفكار الجديدة التى يعرفها الناس كافة منذ الآن •
ولم تفعل ذلك الا بدافع الغيرة ، فقد كنت تريد أن تحتفظ بسلطانك على •
والآن أرى امرأة يقال لها جوليا تسبقنى مائة فرسخ ! لكننى أصبحت أرى
بوضوح أخيراً • لقد دافعت عنك ما وسعنى أن أدافع يا ستيفان
تروفيموفتش • ولكن جميع الناس يدينونك •

قال وهو ينهض فجأة :

- كفى ! لا أملك الا أن أتمنى لك الندامة وأدعو لك بالتوبة !

- عد الى الجلوس دقيقة أخرى يا ستيفان تروفيموفتش • لم أختم

كلامى بعد • لقد طُلب منك أن تقرأ شيئاً فى الصبيحة الأدبية • أنا ربت
ذلك • فماذا تنوى أن تقرأ ؟

- لأقرأنَّ بضع صفحات عن ملكة الملكات تلك ، عن المثل الأعلى
للإنسانية ، عن تلك « المادونا » التى لا تساوى فى رأيك كأساً أو قلماً !

صاحت فر فاراً بتروفا تسأله خائبة الآمال :

- اذن لن تقرأ قصةً تاريخية ! لن يصغى اليك أحد • أنصرفُ على
هذه « المادونا » ؟ اننى لا أرى ما هى اللذة التى تجنيها من انامة المستمعين •
ثق يا ستيفان تروفيموفتش أنتى لا أقول هذا الكلام الا فى سبيل
مصلحتك • خير لك كثيراً أن تختار قصة قصيرة أو حكاية خفيفة عن حياة
البلاط باسبانيا فى القرون مضيقاً اليها بضع تأملات فكهة من ابتكارك •
فخامة البلاط ، السيدات الجميلات ، حوادث القتل بالسسم ، ذلك كله
شائق ! كارمازينوف يقول انه ليكون أمراً غريباً جداً أن لا تجد فى تزيخ
اسبانيا موضوعاً شائقاً تتكلم عنه •

- كارمازينوف ، هذا الأحقق الأجوف ، يبحث عن موضوعات
لى أنا ؟

- ان كارمازينوف يكاد يملك ذكاء رجل دولة • لسانك وقع سليط
جدا يا ستيفان تروفيموفتش •

- صاحبك كارمازينوف أشبه بمجوز نمامة شريرة غبية ! عزيزتى ،
عزيزتى ! انك خاضعة لتأثيره كل الخضوع ! رباه !

- اننى أكره فيه اصطناعه علوَّ الشأن ، ولكننى أنصف ذكاءه •
أعود فأقول اننى دافعت عنك بكل ما أوتيت من قوة ، ما وسعنى أن أدافع •
علام يظهر المرء بمظهر سخيف مضحك مضجر ؟ بالعكس : اصعد الى

المنصة مبشما ، كرجل يمثل عصرًا مضى وانقضى ، واقصص عليهم
حكائتين أو ثلاثاً مما لا يستطيع أن يضارعك فيه أحياناً خفة ظل وروح
فكاهة . هل يضرك أن تكون شيخاً ، أن تمثل عصرًا آخر ، وأن تبقى
متخلفاً في وراء ! اعترف أنت نفسك بهذا ، مبشما في مستهل خطابك ،
فيرى الجميع عندئذ أنك بقية باقية من عصر تصرّم حقاً ، ولكنك بقية
لطيفة محببة حلوة فكهة ... رجل من الزمان القديم فعلاً ، ولكنه يملك
من الذكاء ما يمكنه من ادراك سخافة الآراء التي ظل متعلقاً بها حتى
الآن . هياً ، حقق لى هذه المسرّة ، أرجوك !

- « عزيزتى » (بالفرنسية) ! كفى ! لا تلحّى ! يستحيل على
هذا . سوف أتكلّم عن « المادونا » وسوف أتير زوبعة تسحقهم أو لا تنال
أحدًا غيرى .

- ستكون أنت الضحية حتماً يا ستيفان تروفيموفتش .

- ذلك قدرى . سأتكلم عن ذلك العبد الحقير الجبان ، عن ذلك
الخادم الشرير العفن الذى سيصعد أول الصاعدين على سلّم ، ممسكاً
بيديه مقصاً ، ويأخذ يمزق ذلك الوجه الالهى ، ذلك المثل الأعلى ، باسم
المساواة ، والحسد ... والهضم ! فلترجع أصداء لغتى أولاً ، ثم ،
ثم ...

- ثم مستشفى المجانين ؟

- ربما . ولكن سواء أخرجت غالباً أم خرجت مغلوباً ، فلأحملنّ
فى ذلك المساء نفسه كيس متسوّل ، تاركاً جميع أشيائى وأمتعتى ، جمع
عطايك وهباتك ، جميع مرتباتك ووعودك ، ماضياً على قدمىّ أختم حياتى
عند تاجر من التجار كمربٍ لأولاده ، أو أموت جوعاً تحت سياج .
« تقرر المصير فليكن ما يكون » (باللاتينية) .

• ونهض من جديد •

ونهضت فرّاراً بتروفاً أيضاً ، مشتعلة العينين من الغضب ! وصاحت

تقول :

- كنت من هذا على يقين ! كنت أعلم منذ سنين أنك لا تنتظر الا اللحظة التي تطلّخني فيها بالعار ، أنا وبيتي ، بما ستذيعه من افتراءات وتشره من تخرصات ! ما حكاية أن تصبح مرياً أو تموت تحت سياج ؟ ليس هذا الا شراً ونيةً اساءة وعزماً على النسيمة !

- لقد احتقرتني دائماً ، لكنني سأنهي حياتي كفارس ظل وقياً لسيدته • اذ لا شيء كان أغلى عندي من رأيك في يوم من الايام • منذ هذه اللحظة ، لن أقبل منك أية عطية ، بل أمجّدك تمجيداً مبرراً من كل منفعة !

- سخف !

- لم تحترمني يوماً • لعلني أتصف بأنواع كثيرة من الضعف • نعم ، لقد كنت طفيلياً عليك • انني أتكلّم الآن لغة المذهب العدمي • ولكن حياة الطفيلي لم تكن المبدأ الأعلى الذي أستمد منه أفعالي في يوم من الأيام • وانما حدث ذلك عرضاً من تلقاء نفسه ، لا أدري كيف ••• كنت أظن دائماً أن بيننا شيئاً يفوق الشراب والطعام ، ولم أكن حقيراً في يوم أبداً ، أبداً ••• والآن ، سرُّ يا ستيفان تروفيصوفتش في طريقك لتصلح أخطائك ! الوقت متأخر ، الحريف قد تقدم ، البرية غارقة في الضباب ، قطرات الماء المتجلدة تملأ طريق شيخوختي ، وفي زفير الرياح أسمع نداء الموت ••• ولكن هيئاً سر في الدرب ••• ان سكة جديدة تفتح أمامي

ملأى بحب نقى
وفية للأحلام * •

أوه ! وداعاً يا أحلامي ! يا عشرين عاماً ! « تقرر المصير ، فليكن ما يكون » (باللاتينية) •

كذلك ختم ستيفان تروفيموفتش كلامه ، وابتل وجهه بالدموع •
وتناول قبعته •

قالت فرفارا بتروفا مغالبةً انفعالها :

– لا أفهم اللغة اللاتينية !

من يدري ؟ لعلها أرادت هي أيضاً أن تبكى • ولكن الغضب والكبرياء غلبتاها مرةً أخرى • قالت :

– لا أعرف الا شيئاً واحداً ، هو أن هذا كله أمور صيانية منك •
لن تكون فى يوم من الأيام قادراً قدرة كافية على تنفيذ تهديداتك الأنانية •
لن تمضى الى مكان • لن تذهب الى أى تاجر من التجار ، وستظل بين ذراعى ، مستمراً على قبض مرتبك وعلى استقبال أصدقائك الذين لا يُطاقون ، كلّ ثلاثاء • استودعك الله يا ستيفان تروفيموفتش •

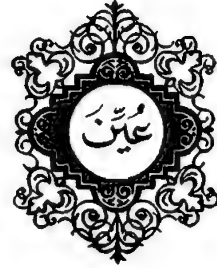
– « تقرر المصير ، فليكن ما يكون » (باللاتينية) •

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك ، وحيّاه بانحناء شديدة ، وعاد الى داره وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة •

الفصل السادس

بطرس سيفانوفتشيسكى

١



موعد الحفلة نهائياً ، ولكن فون لمبكه كان يزداد اكتئاباً وهماً . انه يوجس تنبؤات غريبة مشؤمة ، فكان ذلك يقلق جوليا ميخائيلوفنا كثيراً . والحق أن الأمور كانت لا تجرى على ما يُرام . ان الحاكم القديم ، وهو رجل حليم مفرط فى الحلم ، قد أدخل فى الادارة شيئاً من الفوضى . ومن جهة أخرى كانت الكوليرا تهدد اقليمنا الذى كانت بعض مناطقه قد اجتاحتها أوبئة ذهب بماشيتها عدا ذلك . وطوال الصيف كله عانت المدينة والأرياف كثيراً من حرائق قالت شائعة سخيفة لكنها شائعة كانت تزداد انتشاراً فى الشعب يوماً بعد يوم انها من صنع يد مجرمة . وقد تضاعف عدد السرقات فى الآونة الأخيرة . وكان ذلك كله يمكن أن لا يُعتبر خطيراً شديد الخطورة لولا أن هموماً ومشاكل أخرى قد أضيفت اليه فعكرت هدوء أندره أنطونوفتش الذى حالقسه الحظ والتوفيق الى ذلك الحين .

ان الشيء الذى فجأ جوليا ميخائيلوفنا أكثر من كل ما عدها هو أن زوجها قد ازداد صمته وتكتمه شيئاً بعد شيء . ذلك أمر غريب . هل هناك ما يوجب التكم حقاً ؟ صحيح أنه لا يناقشها ولا يعارضها الا نادراً ، وأنه فى أكثر الأحيان يطيعها طاعة مطلقة . وقد اتخذ فون لمبكه ، خضوعاً

لإلحاق زوجته ، اجراءين أو ثلاثة اجراءات تشتمل على مجازفة وتكاد تكون غير شرعية ، بغية تعزيز سلطة الحاكم . ولهذا الغرض نفسه ارتكبت مظالم صارخة : من ذلك أن أناساً يستحقون أن يُحالوا الى القضاء وأن يُنفوا الى سيبيريا قد أُعطوا جوائز لا لسبب غير تدخل جوليا ميخايلوفنا وشفاعتها ؟ ومن ذلك أن شكاوى ومطالب كثيرة قد تقرر أن لا يجاب عنها . هذا كله لم يظهر الا فيما بعد . ولم يكن فون لبكه يوقع على كل شيء فحسب ، بل كان لا يدهشه أيضاً تدخل امرأته في واجبات عمله وشئون وظيفته . وفي مقابل ذلك كان يتفق له أن يفتاظ ويحتد فجأةً لأُمور « تافهة » ، فكان هذا يدهش جوليا ميخايلوفنا أشد الدهشة . واضح أنه كان يشعر بالحاجة الى تدارك أيام الطاعة بدقائق تمرد . غير أن من المؤسف أن جوليا ميخايلوفنا رغم كل ما تتمتع به من ذكاء لم تستطع أن تدرك هذه الرهافة عند رجل مرهف بطبيعته . لقد كان لها ، واأسفاه ، هموم أخرى تملأ رأسها ! فنشأ عن ذلك كثير من سوء التفاهم !

على أن هذه الأمور ليست من شأني ، وليس في وسعي أن أجيد الحديث عنها ، ولو أردت ذلك . لست أنا من يجب أن يحكم على الأخطاء التي لعلها ارتكبت في الادارة . فلأدع الشئون الادارية اذن في جانب . لقد كان هدفي حين شرعت في سرد هذه الأحداث غير هذا الهدف تماماً . يُضاف الى ذلك أن التحقيق الذي يُجرى الآن في اقليمنا سيكشف عن وقائع أخرى أيضاً . يكفي أن تنتظر قليلاً . ومع ذلك يستحيل على أن أتجنب بعض الايضاحات .

فهاذا ذا أستمِر في الكلام عن جوليا ميخايلوفنا . لقد كان في وسع هذه السيدة المسكينة (انني أرثي لحالها كثيراً) أن تحصل على كل ماكانت ترغب في الحصول عليه وعلى كل ما كان يجتذبها (من مجدٍ وغيره) دون

أن تلجأ الى تلك المكائد المجازفة الغريبة التي عمدت اليها منذ خطواتها الأولى عندنا . غير أنها ، سواء أكان ذلك راجعاً الى فرط خيالها أم كان راجعاً الى ما لقيت في شبابها من خيبة الآمال ، ما ان ابتسم لها الحظ حتى اعتقدت أنها مدعوة الى تحقيق أمور عظيمة ، وحتى شعرت أنها هي السيدة « المختارة المصطفاة » بين جميع السيدات . وطبعاً أن أولئك الذين تملقوا أوهامها - وما أكثرهم ! - كانوا ينالون منها كل ما يريدون فاذا المرأة المسكينة التي كانت تظن في نفسها استقلال الرأي وأصالة الفكر ألعبوبة تتقاذفها شتى المكائد والمؤامرات . ان كبيراً من الناس البارعين قد استطاعوا باستغلال سذاجتها أن يدبّروا أمورهم الصغيرة في أيام حكمها القصير . ولقد كانت أفكار متعارضة أكبر التعارض متناقضة أشد التناقض تضطرب في رأسها فوضى ، مصطبغةً بصبغة الحرية . كانت تبدو ، في آن واحد ، من أشياع الملكية الكبيرة ، والمبادئ الارستقراطية ، وتعزيز السلطات الادارية ، والمثل العليا الديموقراطية ، والمؤسسات الجديدة ، والنظام ، وحرية التفكير ، والاشتراكية ، وشدة التقيد بأداب الصالونات الارستقراطية وفرط الاهمال العامى الذى يلاحظ في الشباب المحيطين بها . كانت تحلم بتحقيق سعادة الجميع ، والمصالحة بين من لا سبيل الى المصالحة بينهم ، أو قل كانت تحلم بأن تجمع الناس كافة على حب شخصها . وكان لها أثيرون تفضلهم على غيرهم ؛ وكان بطرس ستيفانوس الذى يؤثر فيها ويتسلط عليها بالتملق المفضوح والمصانعة الكاذبة وغير ذلك من أساليب ، يحظى باعجابها كثيراً . ولكنها كانت تحرص عليه لسبب آخر أيضاً ، سبب مضحك ، يبرز ملامح شخصية هذه المرأة المسكينة : لقد كان يلازمها أمل قوى هو أن هذا الشاب سيكشف لها عن مؤامرة هامة تدبّر للدولة . كذلك كانت تصور ، مهما

يبدُ لكم هذا غريباً . انها تتخيل ، لا أدري لماذا ، أن ثمة مؤامرة لا بد أنها تحاك ضد الدولة في اقليمنا ؟ وكان بطرس ستيفانوفتش يساهم في ترسيخ هذه الفكرة القريية في ذهنها ، تارةً بصمته المليء بالسِر ، وتارةً بتلميحات متحفظة متكئة . كانت تصور أن له علاقات بجميع الثوريين ، ولكنه من جهة أخرى مخلص لها اخلاصاً يبلغ حدَّ العبادة . فاكشاف المؤامرة ، وامتنان دوائر بطرسبرج العليا ، والمناصب العظيمة التي سيتسلمها زوجها ، وما سوف تحدثه هي نفسها من تأثير في الشيية لوقفها عند حافة الهاوية ، ذلك كله كان راسخ الجذور في رأسها المشوش المضطرب . فما دامت قد أفلحت في انقاذ بطرس ستيفانوفتش واخضاعه (لقد كانت مقتنعة بهذا اقتناعاً مطلقاً) ، فلتفلحن أيضاً في انقاذ الآخرين . لن يهلك أحد منهم . لسوف تعرف كيف تعرض الأمور بطرسبرج عرضاً من شأنه أن ينقذ الجميع . لن تنقاد الا للشعور السامي بالعدالة . وعندئذ سيبارك التاريخ اسمها أخيراً ، وقد تباركه اللبرالية الروسية نفسها . وتكون المؤامرة مع ذلك قد كُشفت . فتتحقق جميع الفوائد وتُجنَى جميع المنافع في آن واحد .

ولكن ينبغي حتماً ، في الحفلة على الأقل ، أن يبدى آندره أنطونوفتش وجهاً هادئاً مطمئناً . فلا بد اذن من تهدئته وتسليته . ومن أجل ذلك أسرع ترسل اليه بطرس ستيفانوفتش آملةً أن يُذهب عنه ما يحسه من ارهاق ، وذلك بأن يروي له ، على سبيل المثال ، أنباء جديدة عن المؤامرة . واعتمدت في هذا على الشاب اعتماداً كاملاً .

كان بطرس ستيفانوفتش قد كفَّ منذ مدة طويلة عن دخول مكتب فون لمبكه . وها هو ذا يدخل الآن على « المريض » وهو في أسوأ حالات اعتكار المزاج .

كانت قد وقعت أحداث لم يتوصل السيد فون لمبكه الى توضيحها
لنفسه . من ذلك أن ملازماً ثانياً (فى تلك الناحية نفسها التى أقام فيها
بطرس ستيفانوفتش حفلة منذ مدة قصيرة جداً) قد وجّه اليه رئيسه
نوعاً من اللوم بحضور جنود . والملازم شاب صغير نُقل من بطرسبرج الى
هنا منذ فترة وجيزة ، وهو صموت عابس متعاطف رغم أنه قصير سمين
أحمر الحدّين . فما كان منه حين لأمه رئيسه الا أن استشاط غيظاً فهجم
على رئيسه خافض الرأس وهو يصرخ صرخة حادة ذُهل لها جميع
أفراد الفصيلة ، ثم صفع الرئيس وعَضّه فى كتفه عَضّة بلغت من القوة
أنه لم يمكن تخليص كنف الرئيس من بين أسنانه الا بعد عناء كبير .
لقد فقد عقله : فذلك أمر لا سبيل الى الشك فيه . وكانت قد لوحظت
عليه فى الآونة الأخيرة أمور شاذة كثيرة فى الواقع ؛ من ذلك أنهرمى
من بيته أيقوتين تملكهما صاحبة الدار ، حتى لقد هشمّ احدهما بفأس .
ومن ذلك أنه رتّب على بعض المناضد مؤلفات فوجت ومولشوف وبوشنر* ،
فكان فى كل مساء يوقد شموعاً أمام هذه الأنواع من مناضد الكنائس التى
توضع عليها كتب الصلوات . ولا بد أنه كان رجلاً مثقفاً اذا قضينا
فى ذلك برأى على أساس عدد الكتب التى وُجدت عنده . ولو ملك
خمسین ألف فرنك اذن لربما أبحر مسافراً الى جزر ماركيز ، كما فعل
ذلك الفتى الذى يحدثنا عنه هرتسن فى أحد كتبه بكثير من الفكاهة* .
وحين اعتقل عُثر فى جيوبه وفى مسكنه على منشورات تدعو الى التمرد
والعصيان والثورة .

الحق أن هذه المنشورات ليس لها في ذاتها شأن ، وهي في رأيي لا تستحق أن تتوقف عندها وأن تتلبث عليها . فما أكرر ما رأيينا من منشورات تشبهها ! ثم ان المنشورات لم تكن جديدة . فهي نفسها ، كما علمنا فيما بعد ، كانت قد انتشرت في إقليم س . . . في الآونة الأخيرة . وقد أكد ليبوتين الذي كان قد سافر الى الاقليم المجاور قبل ذلك بستة أسابيع ، أن هذه الوريقات يتناقلها الناس هنالك . غير أن ما فجأ آندره أنطونوفتش خاصة هو أن مدير مصنع شيجولين كان منذ برهة حمل الى الشرطة حزمين أو ثلاث حزم من هذه المنشورات ، ضبطت في المصنع وهي مماثلة مطلقة للمنشورات التي عُثر عليها عند الملازم الثاني . وكانت الحزم ما تزال مربوطة لم تفض ، وما من أحد من العمال كان قد اتسع وقته للاطلاع على هذه الوريقات . والأمر ليس خطيرا على وجه الاجمال . غير أن آندره أنطونوفتش غرق في تأملات أليمة : لقد بدت له المسألة معقدة تعقيدا مزعجاً .

ذلك أن مصنع شيجولين * كان منذ برهة قصيرة مسرحا لما أُسمى « فضيحة شيجولين » التي أحدثت في اقليمنا ضجة كبيرة ، وأثارت صحف العاصمة جلباً شديدة حولها كذلك . فمنذ ثلاثة أسابيع مات أحد عمال المصنع بالكوليرا ، ثم أعقبت وفاته عدة وفيات أخرى . فانتشر الرعب بين الناس لا سيما وأن الكوليرا قد ظهرت في الولايات المجاورة . يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن السلطات كانت قد سارعت الى اتخاذ الاجراءات الصحية اللازمة . ومع ذلك فان مصنع آل شيجولين ، وهم أناس أغنياء لهم علاقات كبيرة ، لم يكن قد زاره أحد المفتشين . لهذا أسرع الناس في المدينة يصيحون أن المصنع موبوء ، وأن الأماكن التي يسكنها العمال خاصة تسودها منذ سنين قذارة تبلغ من الشدة أن الكوليرا حتى اذا لم

تكن قد وفدت من الأقاليم المجاورة فمن الجائز جدا أن تكون قد انطلقت من تلقاء ذاتها من مصنع شيجولين • وقد اتخذت السلطات طبعاً الإجراءات اللازمة ، وأشرف آندره أنطونوفتش بنفسه على تنفيذها فوراً • ونُظِّفَ المصنع فى غضون ثلاثة أسابيع • ولكن آل شيجولين لم يلبثوا أن أغلقوه لا ندرى لماذا ! كان أحد الأخوين شيجولين يعيش دائماً ببطرسبرج ، وسافر الأخ الثانى الى موسكو فور صدور الأمر بتنظيف المصنع وتطهيره • وقام مدير المصنع بدفع أجور العمال ، ولكنه بلغ من قلة الأمانة وكثرة الفس فى سداد حقوقهم أن العمال أخذوا يدمدمون متذمرين ، مطالبين بأن يحاسبوا حساباً أعدل • وقد ارتكبوا هذه الخرافة : وهى أنهم ذهبوا الى الشرطة متجمهرين ، دون صخب على كل حال ، لأنهم لم يكونوا فى حالة احتياج • وفى تلك الآونة انما نقل المدير الى آندره أنطونوفتش المنشورات التى عُثِرَ عليها فى المصنع •

دخل بطرس ستيفانوفتش الى حجرة عمل الحاكم دون استئذان ، بصفته صديقاً للمنزل ، ولأن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد حملته عدا ذلك رسالةً الى زوجها • فلما رأى فون لمبكه صاحبنا الشاب قطَّبَ حاجبيه ووقف أمام مكتبه عابس الوجه • انه حتى تلك اللحظة لم يزد على أن يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، متناقشاً مع سكرتيره فون بلومر وهو ألمانى أخرق متجههم ، كان فون لمبكه قد أتى به من بطرسبرج رغم ما أبدته جوليا ميخائيلوفنا من معارضة شديدة •

— آآآ...هأنا أقع عليك مع ذلك ، يارئيس المدينة الذى لا يراه أحد •
كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً ، وهو يضع يده على مشور مبسوط فوق المائدة • وأضاف يقول :

— هذا سبرى المجموعة التى تملكها ، هه ؟

احمر آندره أنطونوفتش • وتقلص وجهه فجأة • وصاح يقول
وهو يرتجف غضبا :

- اترك ! اترك هذا كله فورا • ولا تحسبنُ ياسيد ...

- ماذا دهاك ؟ أرى أنك غاضب ، هه ؟

- اسمح لي أن ألفت نظرك ، يا سيد ، اننى بعد الآن لن أسمح
بتاتا في هذا الذى تبيحه لنفسك من « رفع الكلفة » (بالفرنسية) ، وأرجوك
أن تتذكر ...

- ياسلام ! انه يتكلم جادا !

- اسكت ، اسكت ! ولا تحسبنُ ...

كذلك صرخ فون لمبكه وهو يقرع الارض بقدمه •

لا يدري الا الله الى أين كان يمكن أن يمضى هذا ! من المؤسف
أن هناك ، عدا كل ما مرَّ ذكره ، أمراً كان بطرس ستيفانوفتش يجهله
كل الجهل ، وكانت تجهله حتى جوليا ميخائيلوفنا • كان آندره أنطونوفتش
المسكين قد بلغ من الاضطراب والبلبله أنه فى الآونة الأخيرة قد تسرَّب
الى نفسه ، خفيةً ، شىء من الفيرة على امرأته من بطرس ستيفانوفتش •
فكان فى وحدته ، ولا سيما ليلاً ، يقضى ساعات شاقة الى أبعد الحدود •

قال بطرس ستيفانوفتش بشىء من الوقار والرصانة :

- ما كان أغباني حين ظننت أن رجلاً يقرأ لى روايته فى خلوة ،
خلال يومين متتالين ، الى ما بعد منتصف الليل ، ويسألنى رأى ، انما
يكون قد تنازل عن « الرسميات » معى ! ... ثم ان جوليا ميخائيلوفنا
تستقبلنى كما يُستقبل صديق حميم ... فكيف تريد منى أن لا أحتار ؟

ثم أضاف يقول وهو يضع على المائدة دفترًا كبيرًا ثقيلًا ملفوفًا على شكل اسطوانة ، ومغلّفًا تغليفًا كاملاً بورق أزرق :

- بالمناسبة ، إليك روايتك ...

احمر وجه فون لبكه • وسأله مثدًا ، بفيض من فرح كان عاجزا عن كظمه ولكنه حاول كظمه بكل ما أوتى من قوة :

- أين وجدته ؟

- تصور !... وجدته ملفوفًا كما هو وقد انزلق وراء منضدة • لا بد أنني حين وصلت الى البيت قد ألقيته على المنضدة بحركة خرقاء • ولم نجده الا أمس الأول ، أثناء غسل أرض الغرفة • وما أكثر ما شغلت به ...

خفض فون لبكه عينيه قاسى الهيئة • وتابع بطرس ستيغانوفتش كلامه فقال :

- لم يغمض لى جفن خلال ليلتين بسبك • لقد عثروا عليه أمس الأول ، لكننى لم أجشك به ، وذلك لأتمكن من قراءته كله • واذا اننى مشغول فى النهار ، فقد كنت أقرأ ليلاً • فهل تريد أن تعرف رأيي ؟ اننى غير راض عن الفكرة • على أن ذلك لا يهمنى ، فانا لم أكن ناقدًا فى يوم من الأيام • المهم اننى لم أستطع انتزاع نفسى من الكتاب ، رغم استيائى منه ! ... الفصل الرابع والفصل الخامس هما • • هما • • • لا أدري بماذا أصفهما ! شئ مدهش ... وما أكثر ما دسست فيهما من روح الفكاهة والسخرية ... لقد ضحكت ضحكًا مجلجلًا • ما أبرعك فى التهمك ، « دون أن يظهر ذلك » (بالفرنسية) !... أما الفصل التاسع والفصل العاشر ، فليس فيهما الا غرام ... وهذا لا شأن لى به ... غير

أن الكتابة مؤثرة ... رسالة اجرييف كادت تبكىنى ، رغم أنها صفتها بأسلوب مرهف غاية الرهافة !.. مؤثرة ... مؤثرة حقاً ! وكأنك مع ذلك قد أردت أن تظهرها بمظهر الزيف ، أليس كذلك ؟ أحزرت أم لا ؟ أما عن النهاية فلا أملك الا أن أقول انك تستحق عليها أن أضربك . فما الذى تنادى به وتدعو اليه فى الواقع ؟ انها لا تزيد على أن تكون ذلك التمجيد القديم للسعادة المائلة ، وكثرة العيال ، وسعة الرزق . انهم يعيشون سعاداء ويجمعون أموالاً . سوف تسحر القارىء بهذا الكلام ، فأنا نفسى أستطيع أن أبرأ من التأثير به ، ولم أستطع أن أترع نفسى من قراءته ، فكيف بغيرى !.. ذلك خطر ! ان القراء بسطاء أغبياء . وعلى الأذكاء أن يخرجوهم من حذرهم ... أما أنت ... ولكن دعنا من هذا الموضوع الآن . الى اللقاء . أكرر قولى : لا تنضب . لقد جئت لأقول لك كلمتين قد تهمنك ، ولكنك الآن مهتاج حانق ...

كان آندره أنطونوفتش ، فى أثناء ذلك ، قد أخذ روايته ، ووضعها فى مكتبة من خشب السنديان أحكم اغلاقها بالمفتاح ، وأشار لسكرتيه بلومر أن يخرج . فترك بلومر الغرفة حزين الهيئة مستطيل الوجه .

قال فون لمبكه مدمماً مظلم الوجه :

— لست حانقاً غير أن هناك مزعجات تنصب على من كل جهة ..

ولكن غضبه كان قد هبط .

وجلس أمام مكتبه . وأضاف يقول :

— اجلس ، وقل لى ما تريد أن تقوله لى . اننى لم أرك منذ مدة طويلة يا بطرس ستيفانوفتش . ولكن يجب عليك بعد الآن أن لا تدخل

الى هنا بهذه الطريقة ... تفتح الغرفة افتحاً وتدخلها كهبوب الريح .
حين يكون المرء بسيل القيام بعمل من الأعمال ، فانه أحياناً ...
- هذه آدابى لم تتغير ، وليس لى آداب غيرها ...
- أعرف . وأنا على يقين من أنك لا تفعل هذا بسوء نية ، ولكن
حين يكون للمرء هموم كثيرة ... اجلس ، اجلس .
تهالك بطرس ستيفانوفتش على الديوان ، وتربّع فوراً .

- قال بطرس ستيفانوفتش وهو يومئذ الى المنشور بحركة من رأسه :
- ما تلك الهموم ؟ أعلها هذه السفاسف ؟ اننى قادر على أن أحمل اليك من هذه الوريقات ما شئت . وقد اطلعت عليها أيضاً فى اقليم س... .
- أى أثناء اقامتك فى ذلك الاقليم ؟
- طبعاً . أأطلع عليها اذن أثناء غيابى ؟ هناك منشور رُسمت فى أعلاه كرمه وفأس . اسمع لى (وتناول المنشور) . نعم ، توجد هنا فأس أيضاً . هو ذلك المنشور نفسه ، تماماً .
- فماذا ؟ لماذا الفأس تخيفك ؟
- ليست هى الفأس . ولست خائفاً . ولكن هذه القضية ... ان لهذه القضية شأنًا ... هناك ظروف ...
- ما هى تلك الظروف ؟ الآن المناشير قد جئ بها من المصنع ؟ هى هى ! ... ولكن هل تعلم أن العمال فى هذا المصنع لن يلبثوا أن يكتبوا بأنفسهم منشورات ؟
- سأله فون لمبكه وهو يلقي عليه نظرة قاسية :
- كيف هذا ؟
- هكذا ! ما عليك الا أن تراقبهم . انك مسرف فى اللين يا آندره أنطونوفتش . أنت تكتب روايات ، بينما يوجب الأمر أن نعمل الى الطريقة القديمة .
- ما هى الطريقة القديمة ؟ ما هذه النصائح ؟ لقد نظفنا المصنع .
- أمرت بتنظيف المصنع فتمَّ تنظيفه .

- والعمال يتحركون ويمصون • يجب جلدكم بالسوط فينتهى كل شيء •

- يتحركون ويمصون ؟ مستحيل : لقد أمرت بتنظيف المصنع فتمّ تنظيفه وتطهيره •

- هيه يا آندره أنطونوفتش • انك رجل لّين !

قال فون لمبكه حانقاً من جديد :

- أولاً لست بالليّن الى الحد الذى تتصور ، وثانياً ...

كان فون لمبكه يتحدث الى الشاب فى غناء ، مستطعماً ، لعل الشاب أن يقول له شيئاً جديداً •

قاطعته بطرس ستيفانوفتش وهو يصوّب نظره الى ورقة أخرى تحت كباسة الورق ، وهى نوع من منشور أيضاً ، كان من الواضح أنه طُبع فى الخارج ، لكنه صيغ شعراً لا ثراً •

- ها ... هذا منشور آخر مما سبق لى أن اطلعت عليه بل حفظته على ظهر القلب : « بطل يثير الحمية » * • أرنى قليلاً • أليس هو ذلك المنشور نفسه « بطل يثير الحمية » ؟ اننى أعرف هذا المنشور مذ كنت فى الخارج • أين عثرت عليه ؟

سأله فون لمبكه مصيحاً بسمعه :

- تقول انك اطلعت عليه فى الخارج ؟

- طبعاً • منذ أربعة أشهر بل خمسة •

قال فون لمبكه وهو ينظر اليه نظرة مرهقة :

- ما أكثر الأشياء التى رأيتها فى الخارج !

لم يُصنع بطرس ستيفانوفتش الى كلام فون لمبكه ، بل فضَّ الورقة
وأخذ ينشد هذه الأبيات بصوت عال :

لم يكن نبيلًا ولا غنيا
بل كان ابنا من أبناء الشعب
طارده انتقام القيصر
واضطهاد اعوانه
لم يخش أن يتعرض للسجن والموت ،
ومضى ينادى في الشعب :
حرية ، مساواة ، أخوة •

بذلك هبَّ الثورة
ثم فر الى الخارج
مفلتا من زنانات القيصر
هاربا من سياط الجلاد
واستعد الشعب للثورة
لتحطيم القيد القاتل
من سموكسك الى طشقند
وأخذ ينتظر عودة الطالب ، نابضا بالحماسة •

انتظره نافذ الصبر
ليمضي بعد ذلك بغير تردد
يحطم أعوان السلطان
ويدمر الامبراطورية الروسية كلها
فيجعل الرزق مشاعا
ويلقى الى الأبد
الكنايس والزواج
وسائر هذه الشرور المعطلة •

سأل بطرس ستيفانوفتش :

- لا شك أنهم وقموا على هذا عند الضابط ، هه ؟

- غريب ! أتعرف أيضاً ذلك الضابط ؟

— أظن • لقد قصصنا ولهونا معاً خلال يومين • كان نصف مجنون
منذ ذلك الحين •

— من يدري ؟ قد لا يكون مجنوناً البتة !

— أتقول هذا لأنه يعضُ الناس ؟

— ولكن اسمح لي : اذا كنت قد رأيت أبيات الشعر هذه في الخارج ،
ثم اذا بنا نكتشفها هنا عند ذلك الضابط ...

— ماذا ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ أهذا استجواب يا آندره انطونوفتش ؟

وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه قائلاً بلهجة وقورة على فجأة :

— اسمع يا آندره أنطونوفتش : اننى منذ عودتى من الخارج قد
قدّمت ايضاحاتى الى من يجب تقديمها اليه ؛ وقد عدّدت تلك الايضاحات
كافية بطبيعة الحال ، ما دامت هذه المدينة قد سمعت بأن تعدّنى بين
سكانها • فأنا أرى اذن أن تلك الفترة من حياتى قد ختمت ، وأن أحداً
لا يملك أن يحاسبنى بعد اليوم • واذا كنت قد أنهيت ذلك كله ، فلأننى
لم يكن فى وسعى أن أفعل غير ذلك • ولكننى لست خائفاً • ان الذين
زوّدنى برسائل تزكية الى جوليا ميخائيلوفنا يعرفون ماضى • وقد
شهدوا لى بأننى رجل شريف • على كل حال ، فليذهب هذا كله الى
الشیطان ! فأنا انما جئت لأحدثك فى أمر هام ، ولقد أحسنت صنعاً اذ
صرفت صاحبك بلومر • هو أمر على جانب كبير من الخطورة عندى
يا آندره أنطونوفتش : لى مطلب عندك ، ورجاء لديك •

— مطلب عندى ، ورجاء الى ؟ تكلم • اننى أصغى اليك ، بل ثق
أننى أصغى اليك باهتمام • وعلى وجه العموم ، يجب أن أقول لك
يا بطرس ستيفانوفتش انك تدهشنى كثيراً •

ظهر على فون لمبكه شيء من الانفعال • واعتدل بطرس ستيفانوفتش
فى جلسته ، منزلاً ساقه من تحته ، وبدأ يتكلم فقال :

- فى بطرسبرج تكلمت بصراحة عن أشياء كثيرة • لكننى كنت
بعض الأمور • ومن الأمور التى كنتها هذه القصيدة (قال ذلك وهو
يشير باصبعه الى قصيدة « البطل ») • كنت أمر هذه القصيدة أولاً لأنها
لا تستحق الاهتمام بها والكلام عليها ، وثانياً لأننى اكتفيت بالاجابة عن
الأسئلة التى أُلقيت علىّ • اننى أكره فرط اظهار التحمس فى مثل هذه
الحالة : وذلك هو فى رأى الفرق بين الحائن وبين الانسان الشريف الذى
تجبره الظروف • على كل حال ، دعنا من هذا • • • المهم أنتى الآن • • •
الآن وقد افترض أمر هؤلاء الأغبياء ، وأصبح كل شيء واضحاً ، وصاروا
بين يديك ، وبنت أرى أنه لا يمكن اخفاء أمر من الأمور عنك - لأنك
رجل ذكى نافذ البصيرة رغم ما يبدو عليك من ذهول - وما داموا
مستترين فى • • • فانتى • • • فانتى • • • الخلاصة • • • اننى جئت لأتوسل
اليك أن تنقذ واحداً منهم • • • غيباً مثلهم • • • وربما كان مجنوناً • • • أن
تنقذه رحمةً بشبابه الغض ، ورأفةً بما لقي من صنوف الشقاء ، واستلهاماً
لأفكارك الانسانية • • • اننى آمل أن لا تكون انسانياً فى رواياتك
فحسب • • •

بهذه الجملة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه بلهجة أصبحت ساخرة
على حين فجأة ، وكأنه يتعجل الانتهاء من حديثه لفرط نفاد صبره •

كانت هيئته هيئة انسان صادق لكنه أخرق محروم من الحس العملى ،
انسان طيب مسرف فى الطيبة ، مرهف مسرف فى الرهافة ، انسان يمكن
أن يوصف خاصةً بأنه غير ذكى ، كما أسرع فون لمبكه يقول لنفسه ذلك
بما عهد فيه من نفاذ البصر وسداد الرأى ، وكما سبق له أن قدر هذا

منذ مدة طويلة ولا سيما فى الأسبوع الأخير، حين خلا الى نفسه فى الليل
فأخذ يكيل للشباب أنواع الشتائم متحيراً من ذلك النجاح الذى أصابه
الشباب مع زوجته جوليا ميخائيلوفنا .

سأله بفخامة وهو يحاول اخفاء استطلاعاه :

- من الذى تشفع له ، وما معنى هذا كله ؟

- هو ... هو ... أوه ! .. أهى خطيئتي اذا كنت أثق بك ؟ أهى
خطيئتي اذا كنت أعدك انساناً نبلاً أكمل النبى ، واذا كنت أعدك على
وجه الخصوص ذكياً ... قادراً ... قادراً على أن .. تفهم ! أوه ! ..

كان واضحاً أن الشاب المسكين مرتبك لا يعرف كيف يخرج من
المأزق الذى تورط فيه !

- انتى اذا سميتك لك فقد فضحته وخنته ، أليس كذلك ؟ هه ؟

- ولكن كيف يمكننى أن أعرفه اذا لم تذكر لى اسمه ؟

- صحيح ، صحيح . انك بمنطقك تفحم كل مجادل ، وترد دائماً
على كل سؤال . هوه ! طيب ... ان ذلك « البطل » ، ذلك « الطالب » ،
هو شاتوف . ها قد عرفت الآن كل شىء !

- شاتوف ؟ ماذا تقصد ؟

- ان الطالب الذى جاءت القصيدة على ذكره هو شاتوف . انه يقيم
هنا . انه قن قديم . هو ذلك الذى صفع ستافروجين .

قال لمبكه :

- أعرف ، أعرف . ولكن اسمح لى : ما تهمة ، وما هو رجاؤك
بشانه ؟

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول خارجاً عن طوره :

- أريد انقاده ، ألا تفهم ؟ اننى أعرفه منذ ثمانى سنين .. ولعلنى كنت صديقه !

وأضاف يقول :

- ليس علىَّ أن أقدم اليك تقريراً عن حياتى الماضية . كل ذلك لا قيمة له ، ولا شأن له ولا خطر له . كانوا ثلاثة لا أكثر . وإذا حسبت شركاءهم فى الخارج لم يتجاوز عددهم العشرة . ليس الامر هذا . وانما المهم أننى أثق بعواطفك الطيبة ، وأثق بذكائك المتوقد . فافهم الموقف كما هو ، وانقله الى من ينبغي نقله اليه على حقيقته ، ولا تخلق منه قصة ضخمة ، ذلك أن الأمر كله لا يبدو أن يكون حلم فتى فاقدر صوابه فتى شقى لاحقه سوء الحظ ، وحالفه الشقاء . ليست القضية قضية مؤامرة على أمن الدولة !

كان بطرس ستيفانوفتش كمن يختنق .

قال فون لمبكه بلهجة يكاد يكون فيها فخامة وجلال :

- هم ... أرى أن له علاقة بقضية المنشورات التحريضية ! ولكن اسمح لى : لو كان يعمل وحيداً لما استطاع أن ينشرها هنا ، وفى الضواحي وحتى فى اقليم س ... ! ... ثم ، وهذا هو الأمر الأساسى ، من أين أخذ هذه المنشورات ؟

- لكننى قلت لك ان عددهم لا يتجاوز خمسة أفراد أو ستة ، أو عشرة فى أكثر تقدير ... أين لى أن أعرف ؟ ...

- أحقا لا تعرف ؟

- كيف يمكننى أن أعرف ؟

- أنت تعرف مع ذلك أن شاتوف واحد من أفراد العصابة .

قال بطرس ستيغافوفتش وهو يُجرى بيده حركة تعبّر عن نفاذ الصبر كأنه يحاول الإفلات مما يتصف به محدثه من براعة وذكاء :

- هوه ! طيب ... اسمع ... سأقول لك الحقيقة كلها • اننى لا أعرف شيئاً عن المناشير التحريضية ، لا أعرف شيئاً البتة ... شيطان يأخذنى ... هل تفهم معنى هذه الجملة : لا أعرف شيئاً البتة ؟ طبعاً ... هناك ذلك الملازم الثانى ، وربما كان هناك شخص آخر ... ثم شخص ثالث هنا ... وهناك أخيراً شاتوف ، ربما ... وذلك كله غبار ... ذلك كله عدم ... لكننى جئت متشفعاً لشاتوف • يجب انقـاذه • لأن تلك الأشعار هو التى نظمها ، وبمعايته انما طُبعت فى الخارج • ذلك ما أنا موثق منه واثق به • أما المنشورات التحريضية ، فأننى أجهل كل شىء عنها •

- اذا كانت الأشعار له ، فالمنشورات له أيضاً • ولكن ما هى الاسباب التى تدعوك الى الاشتباه فى السيد شاتوف ؟

ما ان سمع بطرس ستيغافوفتش هذا السؤال حتى ظهر عليه ما يظهر على المرء من فقدان الصبر فقداناً كاملاً ، ثم اذا هو يخرج محفظة أوراقه من جيبه ، ويخرج من المحفظة ورقة مكتوبة ، ويصرخ قائلاً وهو يرمى الورقة على المائدة :

- اليك الأسباب !

فضّ فون لمبكه الورقة المكتوبة منذ ستة أشهر ، والمرسلة الى الخارج ، فلم تكن تضم الا سطرين :

« لا أستطيع أن أطبع هنا لا قصيدة « البطل » ولا أى شىء آخر • فاطبعوا فى الخارج • ، • »

رفع فون لمبكه عينه الى بطرس ستيفانوفتش وحدّث اليه بنظرة
ثابتة • صدقت فر فارا بتروفا : ان آندره أنطونوفتش له فى بعض الأحيان
نظرة كنظرة خروف •

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتكلم فقال :

- سأشرح لك • لقد نظم هذه الأبيات هنا منذ ستة أشهر ، ولكنه
لم يستطع أن يطبعها سرّاً • فأرسل يطلب طبعها فى الخارج • هذا واضح
فيما أظن ، هه ؟

- كل الوضوح • ولكن الى من كتب رسالته القصيرة هذه ؟ ذلك
ما ليس بواضح بعد •

كذلك سأل فون لمبكه بملاحظة مرهفة • فأجابه بطرس ستيفانوفتش :

- الى كيريلوف طبعاً • الرسالة بُعثت الى كيريلوف ، فى الخارج •
ألم تكن تعلم ذلك ؟ المزعج فى حقيقة الأمر أنك تبعث بى الآن عبثاً •
فأنت مطلع على هذه القصيدة منذ مدة ، وأنت عارف اذن بسائر الأمور
الأخرى • ماذا جاء بها هنا الى مكتبك ؟ لقد استطعت اذن أن تضع يدك
عليها • فاذا كان الامر كذلك ، فلماذا تعذبنى هذا التعذيب ؟

قال ذلك وجعل يحفف بمنديله عرق جبينه بحركة عصبية •

فقال له فون لمبكه موافقاً ، متحاشياً أن يجيب عن السؤال الذى ألقاه
عليه بطرس ستيفانوفتش :

- فعلاً ••• أعرف بعض الاشياء ••• ولكن من هو كيريلوف هذا ؟

- هو ذلك المهندس الذى وصل الى هنا فى الآونة الأخيرة ، وكان
شاهد ستافروجين فى المباراة • شخص مهووس ، مجنون ! لعل صاحبك
الملازم الثانى انما أصابته توبة حمى حارة لا أكثر ، أما الآخر ، كيريلوف ،

فهو مجنون حقاً ، مجنون تماماً • ذلك أمر أضـمـنه لك • آه يا آندره
أنطونوفتش ، لو عرفت الحكومة ما هؤلاء الناس فى الواقع لما رفعت يدها
عليهم • انهم جميعاً مؤهبون لدخول دار المجانين • لقد استطعت ، فى
سويسرا ، أثناء انعقاد مؤتمـرهم أن ألاحظهم على مهل •

– هل هناك يختبئ قادة الحركة ؟

– قادة الحركة ؟ ثلاثة أشخاص فى أكثر تقدير • منظر يهلك المرء
منه ضجراً وسأماً • وما هذه الحركة ؟ وما تلك المناشير التحريضية ؟ ومن
الشركاء ؟ لتكلم عنهم ! ملازمون أولون ، وطلاب ! انتنى أسألك وأنت
رجل ذكى : كيف لم يستطيعوا أن يضموا ولو شخصية هامة واحدة ؟
لماذا يضطرون دائماً الى الاكتفاء بطلاب وفتيان فى العشرين من أعمارهم ؟
ثم هل هم كثيرون ؟ لقد أرسلوا فى ملاحقتهم ألوف الكلاب ، فما عدد
الذين تم اكتشافهم ؟ سبعة أشخاص فقط ! قلت لك : منظر يهلك الانسان
منه ضجراً وسأماً !

كان لمبكه يصفى اليه بانتباه • ولكن هيئته كانت كأنها تقول :
« لا يمكنك أن تغذى بلبلًا بأقاصيص » * •

قال آندره أنطونوفتش :

– اسمح لى : انك تزعم ان الرسالة قد بُعثت الى الخارج • ولكننى
أرى أنها لا تحمل أى اسم • فكيف أمكنك أن تعرف أنها أُرسِلت الى
كيريلوف فى الخارج ، و ••• و ••• أن شاتوف هو كاتبها فعلاً ؟

– الأمر سهل • احصل على بضعة أسطر من شاتوف ، وقارن بين
ذلك الخط وخط هذه الرسالة • لا بد أن مكاتبك تضم توقيع شاتوف فى
ذيل ورقة ما • أما سؤالك عن كيريلوف ، فان كيريلوف هو الذى أطلعنى
على الرسالة بنفسه •

- واذن فأنت نفسك ...

- نعم ، أنا نفسي ، أنا نفسي ... كنت أطلع على أشياء كثيرة في الخارج . أما تلك الأشعار ، فيظهر أن المرحوم هرتسن* هو الذى نظمها لشاتوف ، بينما كان شاتوف يطوف في الخارج ؛ نظمها ذكرى للقائهما ، أو تكريما لشاتوف ، أو نوعا من الترقية له والتوصية به ... أين لى أن أعرف ! ... على كل حال ، فان شاتوف هو الذى نشرها فى الناس كأنما ليقول : « انظروا الى رأى هرتسن فى » .

قال لمبكه وقد تخيّل أخيرا أنه أخذ يرى الامر رؤية واضحة :

- هاه ! قلت لنفسي : المناشير ، يفهم المرء أمرها ... ولكن هذه الأشعار ، ما معناها ؟

- كيف يمكن أن لا تدرك هذا ؟ لا أدري لماذا ثرثرت هذه الثرثرة كلها . اسمع . اترك لى شاتوف ، وليأخذ الشيطان سائر الآخرين ، ومنهم كيريلوف الذى يختبئ عند فيليوف حيث يختفى شاتوف أيضا . انهم غاضبون علىّ ، لأننى رجعت ... ولكن اترك لى شاتوف ، وسأقدمهم اليك جميعا على طبق واحد . ان فى وسعى أن أفيدك يا آندره أنطونوفتش . رأى أن عصبتهم التعيسة الصغيرة لا يزيد عددها على تسعة أفراد أو عشرة . اننى أطاردهم لمصلحتى الشخصية . نحن نعرف منهم حتى الآن ثلاثة : شاتوف ، وكيريلوف ، وذلك الملازم الثانى . أما الباقيون فأننى « أفحصهم » من قرب . ولست حسير البصر تماما . الامر كما فى اقليم س ... لقد قبضوا هنالك أثناء توزيع المناشير على طالين ، وتلميذ فى مدرسة ثانوية ، وولدين لأسرة من الأسر ، ومعلم مدرسة ، وميجر محال على التقاعد كان الادمان على السكر قد أصابه بخبال فى عقله . ذلك كل شئ . صدقنى . حتى لقد دُهِشوا هنالك كثيرا . ولكننى أحتاج الى

سنة أيام • لقد أجريت حساباتي ، فاتتهيت الى اننى محتاج الى ستة أيام ،
لا تقلّ يوما واحدا • فاذا أردت أن تحصل على نتيجة فلا تمسّهم قبل
سنة أيام ، ولسوف أسلمك اياهم فى كيس واحد • أما اذا تدخلت قبل
ذلك ، طارت العصفير فوجدت العش خاليا • ولكن اترك لى شاتوف •
أنا أدافع عن شاتوف • ولعل الأفضل أن يُستدعى الى هنا سرّاً فيُستقبل
فى هذه الحجرة كما يُستقبل صديق ، ويستجوب ببراعة وحذق ، فترفع
أمام عينيه جميع الحجب ، فاذا هو يهوى على قدميك باكياً • أنا من هذا
على يقين • انه رجل عصبى ، بائس • امرأته تلهو مع ستافروجين •
استقبله استقبالا حسنا ، أكرم وفادته ، فيكشف لك عن كل شيء • ولكن
يجب عليك أن تنتظر ستة أيام • واياك خاصة أن تقول كلمة واحدة
لجوليا ميخائيلوفنا • التزم الكتمان الكامل • احفظ السر حفظاً تاماً • هل
تستطيع أن تكتم سرّاً ؟

ـ ماذا ؟ ألم تقل أنت شيئاً لجوليا ميخائيلوفنا ؟

كذلك صاح لمبكه متمجيا محملا • فأجابه بطرس ستيفانوفتش :

ـ لها هي ؟ وقانى الله شرّ هذا ! آه يا آندره أنطونوفتش ! اننى
أحرص كثيرا على صداقتها وأضمر لها احتراما عظيما ••• وما شئت •••
ولكننى سأعرف دائما كيف أصون نفسى من ارتكاب هذه الغلطة • اننى
لا أعارضها ، وأنت نفسك تعلم أن معارضتها خطر كبير • لعلنى قد
دستت فى حديثى لها اشارةً ما ، لأنها تحب ذلك كثيرا • أما أن أسمّى
لها أشخاصا بأعينهم ، كما أفعل معك أنت ، أو أن أنقاد لشيء من هذا
القييل ، فاللهم لا ! ••• لماذا اتجه اليك أنت الآن ؟ لأنك رجل رغم كل
شيء ، رجل جاد يملك خبرة واسعة أكسبته اياها المهنة • انك قد رأيت
فى حياتك كثيرا ! وأحسب أنك فى هذه الأنواع من الأمور تستطيع أن

تنبأ بكل خطوة من خطواتك على غرار الأمثلة التي وقعت تحت بصرك
فى بطرسبرج • أما اذا ذكرت هذين الاسمين لها هى ، أسرع تذيبهما
فى كل مكان قبل كل شئ ! ذلك أنها من هنا انما تريد أن تثير دهشة
بطرسبرج • لا ، لا ، انها مسرفة فى الانقياد لحرارة الحماسة !

دمدم آندره أنطونوفتش يقول بشئ من الرضى ، على استيائه من
أن يتجرأ هذا الشاب الطائش فيقول مثل هذا الكلام عن جوليا ميخائيلوفنا:
- نعم ، انها تتصف بشئ من هذا الاندفاع العارم ...

ولكن لعل بطرس ستيفانوفتش قد أحس أنه لم يقل ما فيه الكفاية
فأراد أن يزيد فى تملق لمبكه ليستولى عليه استيلاء أكمل ، فقال :

- نعم ، تماما ، انها تتصف بكثير من هذا الاندفاع العارم • قد
تكون امرأة عبقرية ، وامرأة مثقفة ، لكنها اذا تدخلت فى الامر أطارت
المصافير من عشاها • لن تستطيع أن تصمد لآغراء الكلام ستة أيام ولا ست
ساعات • آ • آ • يا آندره أنطونوفتش ، لا تفرض على امرأة من النساء
أن تنتظر ستة أيام • آمل أن تعترف بأن لى شيئاً من الخبرة ، فى مثل
هذه الأمور على الأقل • انتى أعرف بعض الاشياء ، وأنت لا تجهل أنتى
قادر على أن أعرف بعض الأشياء • واذا كنت استمهلك ستة أيام ،
فليس ذلك نزوة منى ، بل اجراء يقتضيه الموقف وتوجه الظروف •

بدأ فون لمبكه يتكلم فقال بغير تردد :

- سمعت أنك حين عدت من الخارج قد أعربت لمن يجب أن تعرب
له عن ذلك ، أقول أعربت له عن ... ندمك وتوبتك ان صح التعبير •

- ما شأن التصريحات التى أدليت بها حينذاك ؟

- أنا لا أحب التدخل طبعاً • ولكن كان يبدو لى دائماً أنك تتكلم

هنا بلهجة أخرى مختلفة كل الاختلاف ، عن الدين مثلاً ، وعن المؤسسات الاجتماعية ، وعن الحكومة أخيراً ...

- أى ضير فى هذا ؟ اننى ما زلت أفكر هذا التفكير نفسه . غير أن هذه الآراء يجب تطبيقها على غير النحو الذى يتصوره أصحابنا الأغبياء هؤلاء . تلك هى المسألة كلها . ما قيمة أن أعصّ رجلاً فى كتفه ؟ أنت نفسك قد وافقتنى على آرائى ، ولكنك قلت ان الألوان لم يجىء بعد .
- كان الموضوع عندئذ غير هذا تماماً .

قال بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً :

- هىء هىء ! ... أرى أنك رجل حذر مترويزن كل كلمة من كلماته . اسمع يا عزيزى . لقد كان على أن أعرفك معرفة أدق وأكمل ، ومن أجل ذلك كنت أكلّمك بتلك اللهجة . ولست الانسان الوحيد الذى تعلمت كيف أعرفه بهذه الطريقة . لعلنى أردت أن أعرف طبعك !
- ما حاجتك الى معرفة طبعى ؟
- أين لى أن أعرف !! ...

وعاد بطرس ستيفانوفتش يضحك . واستطرد يقول :

- اسمع يا عزيزى المحترم جداً آندره أنطونوفتش . انك رجل ماهر ، ولكن ليس هذا موضوع اهتمامى بعد ، وقد لا أصل اليه يوماً . هل تفهم ؟ لعلك قد فهمت عنى ! صحيح أننى حين عدت الى بطرسبرج قد قدمت معلومات وإيضاحات الى الجهة التى يجب أن تُقدّم اليها تلك المعلومات والإيضاحات . ولست أدري حقاً لماذا لا يجوز لاسان له اقتناعات صادقة أن يفعل ما فعلت ، خدمةً لاقتناعاته هذه . ومع ذلك فما من أحد « هناك » قد كلفنى بأن أدرس طبعك ؟ وأنا على وجه العموم لم أكلف

نفسى حتى الآن بمهام من هذا النوع • انظر فى الأمر بنفسك : ان هذين الاسمين اللذين كشفت لك عنهما ، كان فى وسعى أن لا أذكرهما لك أنت أولاً ، وانما أبعث بهما الى « هناك » رأساً ، أى الى الجهة التى قدمت اليها المعلومات والايضاحات الأولى • ولو كنت أسعى الى نيل مكافأة أو جنى نفع مادي لعمدت الى ذلك حتماً ، أما الآن فان بطرسبرج ستوجه شكرها وامتنانها اليك أنت • ولكننى انما أتدخل من أجل شاتوف (كذلك أضاف بطرس ستيفانوفتش بنبل) ، من أجل وحده ، وفاءً لذكرى صداقتنا القديمة ... على أنك اذا أمسكت بالقلم لتكتب الى « هناك » فلك أن تكيل لى المديح ان شئت ، فلا اعتراض لى على هذا • هـ هـ ! ... استودعك الله ! لقد استهلكك من وقتك مدة طويلة • ما كان ينبغى لى أن أثرثر هذه الثروة كلها ...

بذلك ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه وهو يتسم ابتسامة رضى ، وينهض عن الكبة • فأجابه فون لمبكه بمودة ، ناهضاً هو أيضاً :

- بالعكس • لقد سرّنى كثيراً أن الأمور اتضحّت •

كان واضحاً أن الكلمات الاخيرة التى قالها محدّثه قد أحدثت فى نفسه أثراً حسناً • وأردف يقول :

- انتى أقبل خدماتك شاكرًا ممتنًا • وثق أن كل ما يقع على عاتقى من اشارة الى همك ونشاطك وحماسك سوف ...

- ستة أيام فقط • أمهلنى ستة أيام • وحذار أن تتحرك فى أثناء هذه المدة • ذلك كل ما يجب •

- حسن جدا •

- انتى لا أكبّل يديك طبعاً ، وما كان لى أن أسمح لنفسى بهذا •

انك لا تستطيع العدول عن القيام بما تقوم به من بحث وتقصٍ . ولكن كل ما أطلبه منك هو أن لا تروّعهم قبل الموعد المناسب . اننى أعتمد فى هذا على ذكائك وخبرتك . آه ... لا بد أن عندك كلاباً من كل نوع ! هـى هـى ! ...

هكذا أنهى بطرس ستيفانوفتش كلامه بمرح ظاهر ولهجة هـى لهجة شاب قليل المبالاة . فأجابه فون لمبكه متحفظاً ولكن على لطف ومودة :
- ليس الأمر كذلك تماماً . ان للشئبة آراء مغالية فى هذا الموضوع ... ولكن بالنسبة ، هناك أمر آخر : اذا كان ستافروجين قد استعان بكيريلوف شاهداً فى المبارزة ، فمعنى ذلك أن ستافروجين ، هو أيضا ...
- ماذا ؟

- ماداما صديقين حميمين ؟

- أوه ! لا ، لا ، لا ! هنا ترتكب خطأ جسيماً ، رغم كل ما تتصف به من حذق ومكر ؛ بل انك لتدهشنى . كنت أظن أنك مطلع على ما يتعلق بهذا الامر ... هم ... ان ستافروجين هو النقيض ، تماماً . « تنبيه للقارىء » (بالفرنسية) .
قال لمبكه غير مصدق :

- أهذا ممكن ؟ أهذا ممكن ؟ لقد قالت لى جوليا ميخائيلوفنا ان المعلومات التى وصلت اليها من بطرسبرج تفيد أن ستافروجين قد يكون مكلفاً بنوع من مهمة ...

- لا أعرف شيئاً ! لا أعرف شيئاً البتة ! لا أعرف شيئاً على الاطلاق ! أستودعك الله ! « تنبيه للقارىء » (بالفرنسية) .

كذلك قطع بطرس ستيفانوفتش الحديث على حين فجأة ، راغباً رغبة واضحة فى الاكتفاء بهذا الحد . وركض نحو الباب .

فصرخ الحاكم يناديه قائلاً :

- لحظة يا بطرس ستيفانوفتش ، لحظة أخرى ! هناك مسألة صغيرة ،
ثم أدعك تنصرف .

فتح فون لمبكه درجاً ، وأخرج منه ظرفاً . ومدَّ الظرف الى بطرس
ستيفانوفتش قائلاً له :

- اليك عيّنة من هذا النوع نفسه . اننى اذ أطلعتك على ذلك أبرهن
لك على تقى بك . خذ . قل لى رأيك .

كان الظرف يضم رسالة ، غريبة جداً ، غير مذيبة بتوقيع ، موجهة الى
فون لمبكه الذى استلمها أمس .

فقرأ بطرس ستيفانوفتش الأسطر التالية متمصّاً أشد الامتعاض :

« صاحب المعالي ،

» مادام هذا لقبك . أنهى الى علمك فى رسالتى هذه أنه يتهاى الآن
تأمر على حياة شخصيات كبيرة وعلى الوطن . كل شىء يتجه الى هذه
الغاية . أنا نفسى وزعت منشورات تحرّض على الثورة خلال سنين ،
وتحض على الزندقة . هناك فتنة تُحضّر . ألوف المنشورات التحريضية
يكفى كل واحد منها لانهارة مئات من الأفراد الذين سيركضون لاهين
متدليةً ألسنتهم اذا لم تتدخل السلطات سلفاً . ذلك أن هناك مكافآت
ضخمة موعودا بها . والشعب غبى . وهناك الخمرة أيضاً . ولخوفى من
هؤلاء وأولئك على السواء ، فانتى نادم على أخطاء لست مسئولاً عنها فى
الواقع ، لأن الذنب ذنب الظروف . فاذا كنت تريد أن أثنى لك بالأمور
حفاظاً على الوطن ، وعلى الكنائس والأيقونات أيضاً ، فانتى الشخص
الوحيد القادر على ذلك ، بشرط أن ترسل الى الشعب الثالثة* برقية سريعة

تبلغنى فيها العفو عني ، ولكن عني وحدي . أما الآخرون فيجب أن يحالوا الى المحاكم . فاذا كنت موافقا على هذا فلتكن الاشارة المتفق عليها بيننا هي التالية : ضع في الساعة السابعة من كل مساء شمعة مشتعلة على نافذة البواب . فمتى اطمأنت نفسي لرؤيتها جئت أقبل اليه الرحمة التي ستمدها اليّ بطرسبرج . ولكن على شرط أن يُخصَّص لي راتب ، والا فكيف أعيش ؟ ولن تدم على هذا ، لأنك ستال وساما . ولكن عليك بالصمت والا دقوا عنقي ! انني أرتنى على قدمي معاليك .

« الزنديق اليأس النائب : مجهول »

وذكر فون لمبكه أن الرسالة وُجدت في شرفة البواب ، وكانت قد وضعت فيها أثناء غيابه .

فقال بطرس ستيفانوفتش يسأله بغلظة :

– فما رأيك ؟

– يخيل اليّ أن كاتب الرسالة رجل أراد أن يسخر مني .

– قد يكون الامر كذلك . أنت رجل لا تُخدع !

– ومما يقوى ظني هذا أن في الأمر غباء شديدا بالفعل .

– هل سبق أن تلقيت رسائل من هذا النوع ؟

– واحدة أو اثنتين ، بدون اسم المرسل أيضا .

– طبعاً . لا يذكر المرسل اسمه . وهل الأسلوب والخط واحدان

في هذه الرسائل جميعا !

– لا . انها تختلف أسلوباً وخطاً .

– وهل هي سخيفة كهذه ؟

– نعم ، سخيفة وحقيرة .

- اذا كانت من نوع واحد ، فمن الجائز أن تكون الأخيرة صادرة
عن نفس المصدر •

- لا سيما وان فيها غباءً مفرطاً • أولئك رجال أذكاء لا يمكن أن
يكتبوا ترهات كهذه حتما •

- طبعا •

- ولكن ماذا لو كان الامر أمر وشاية فعلا ؟

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة خشنة :

- هذا بعيد عن الاحتمال • والا فما تلك البرقية المطلوبة من الشعبة
الثالثة ؟ وما ذلك الراتب ؟ واضح أن الامر تهريج ! ...

قال لمبكه وهو يشعر بالخجل من هذه الشبهات التي راودته :

- انك على حق •

- اسمع • اعطني الرسالة فاكتشف لك كاتبها حتى قبل أن أسلمك
الآخرين •

قال فون لمبكه موافقا بشيء من تردد :

- خذها •

- هل أطلعت عليها أحداً ؟

- لا ، لا ، اطلاقاً !

- أقصد هل أطلعت عليها جوليا ميخائيلوفنا ؟

- وقاني الله شر هذا ! ثم اننى استحلفك أن لا تطلع عليها أحدا •

كذلك صاح الحاكم يقول مرتاعا • وأردف :

- لو أطلعته عليها لاضطربت اضطراباً شديداً ، ولفضيت منى غضبا رهيبا ...

- نعم ، لو اطلعت عليها لآخذتك أنت أولاً ، ولقالت ان الذنب ذنبك حين يتجرأ أحد فيسمح لنفسه أن يكتب اليك بهذه الطريقة . منطق النساء معروف . طيب . استودعك الله . قد أعلمك اسم كاتب هذه الرسالة في غضون ثلاثة أيام . تذكر ما اتفقنا عليه .

قد لا يكون بطرس ستيفانوفتش غيباً أحسق ، ولكن صدقَ
السجين فدكا حين قال عنه « انه يرى الناس فى الصورة التى يرسمها
عنهم خياله ، ومع هؤلاء الناس انما يعيش » •

ولقد ترك الآن فون لمبكه وهو مقتنع اقتناعا جازما بأن فون لمبكه قد
هدأ الى ستة أيام على الأقل ، وهى المهلة التى كان فى حاجة اليها •
والحق أن هذه الفكرة خطأ ، ولا تقوم الا على الصورة التى رسمها خيال
الشاب عن آندره أنطونوفتش والتى تصوّره بأنه رجل أهبل •

الواقع أن آندره أنطونوفتش ، كسائر الرجال الوجليين الريّابين ،
قد امتلأ فى أول الامر ثقةً بهذا الذى أخرجه من الشك ، وفرح فرحاً
كبيراً ؛ وبدا له الموقف ، بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش ، فى صورة
مُطمَئنة رغم التعقيدات والمتاعب التى قد تنشأ عنه فيما بعد • مهما يكن
من أمر ، فقد تبدّد ما كان يراوده من شكوك وما كان يساوره من أنواع
القلق والتردد • والى الراحة انما كانت تنوق نفسه خاصةً ، لأنه يشعر
منذ بضعة أيام بأنه متعب مرهق منهك القوى • ولكن طمأنينته لم تطل
وا أسفاه ! ان اقامته الطويلة ببطرسبرج قد تركت فى نفسه آثاراً
لا تمحى • لقد كان يعرف التاريخ الرسمى بل والسرى « للجيل
الجديد » ، لأنه كان رجلاً طُلعةً ، وكان يجمع المناشير التحريضية ،
غير أنه لم يفهم منها شيئاً فى يوم من الايام • وهو يحس الآن أنه ضائع
تماماً • ان غريزته توحى اليه أن ايضاحات بطرس ستيفانوفتش تشتمل
على شيء بعيد عن الاحتمال ، شيء مناقضٍ لجميع الاشكال والأعراف •
وكان يحدث نفسه قائلاً فى حيرة وارتابك : « مع ذلك فان الشيطان وحده

يعرف ما يمكن أن يحدث في هذا « الجيل الجديد » ، والشيطان وحده يعرف كيف تجرى الأمور ! » •

وانه لفارق في هذه التأملات والأحلام اذ أطل عليه رأس بلومر من شق الباب • ان بلومر لم يترك الغرفة المجاورة طوال مدة زيارة بطرس ستيفانوفتش • يجب أن نذكر أن بلومر هذا يمت بقراءة الى آندره أنطونوفتش ، قرابة بعيدة طبعاً حرص فون لمبكه طوال حياته على أن يكتسب أمرها ويسكت عنها وجلاً • واني لأستبشع القارىء عذراً اذا أنا قلت كلمات عن هذه الشخصية التافهة • ان بلومر واحد من تلك الفئة الغريبة من الألمان « العائري الحظ » ، لا بسبب عجزه الخارق ، بل بدون سبب ظاهر على وجه الاجمال •

ان الألمان « العائري الحظ » ليسوا خرافة : انهم يوجدون فعلاً حتى في روسيا ، ويؤلفون جنساً على حدة • ولقد عطف فون لمبكه دائماً على بلومر عطفاً كبيراً ، وكان يشد أزره ويدعمه ما استطاع الى ذلك سبيلاً أثناء ارتقائه على سلم المجتمع ، محاولاً أن يجد له وظيفة صغيرة في مكتب من مكاتبه • ولكن بلومر كان قليل الحظ • فتارةً تلقى وظيفته فجأةً ، وتارةً يتغير رؤساؤه ، حتى لقد أوشك ذات مرة أن يحال الى القضاء مع موظفين آخرين • وهو موظف مخلص لعمله دموّب مجتهد ، غير أن وجهه المتجهّم دائماً كان يسيء اليه أكبر الاساءة • انه طويل القامة محدودب الظهر أحمر اللون ، حزين النفس بل وعاطفي الطبع ؛ وهو رغم مدلته عنيدٌ عنادٌ بغل ، معارض دائماً • وكان هو وامراته وذريته الغفيرة يحملون لآندره أنطونوفتش شعوراً بالشكر يبلغ حدّ العبادة • وما من أحد أحبه في يوم من الأيام الا فون لمبكه • وقد كرهته جوليا ميخائيلوفنا منذ اللحظة الأولى ، لكنها لم تستطع أن تحطم مقاومة زوجها •

كانت تلك أول مشاجرة بين الزوجين • حدث هذا بعد الزواج على الفور تقريباً ، أثناء الأيام الأولى من شهر العسل • لقد اكتشفت جوليا ميخائيلوفنا وجود بلومر فجأةً ، وكان مختفياً حتى ذلك الحين ، واكتشفت في الوقت نفسه ذلك السر المخجل وهو أن بينه وبين زوجها صلة قرابة • وقد استغفرها آندره أنطونوفتش متوسلاً ضارِعاً ضاماً يديه احدهما الى الأخرى ، وقصَّ عليها بطريقة عاطفية مؤثرة قصة بلومر كلها وقصة صداقتهما التي ترجع الى عهد الطفولة ، لكن جوليا ميخائيلوفنا رأت أن شرفها قد تلتخ بالعار الى الأبد ، حتى عمدت الى الاغما مرةً بعد مرة • ومع ذلك ثبت فون لمبكه ولم يتزحزح عن موقفه ، وأعلن لزواجه أن لا شيء يمكن أن يحمله على هجر بلومر ، فلم تملك الزوجة رغم دهشتها الشديدة واستغرابها القوي الا أن ترضع للأمر الواقع وأن تقبل بلومر • ولكن تم الاتفاق بين الزوجين على أن تظل القرابة سرّاً مكتوماً وأن تُخفى اخفاءً أشد من اخفائها في أى وقت مضى ، وأن يُكفى من اسمه باسم بلومر ، وهو اسم أسرته ، أما اسمه واسم نسبته الى أبيه فلا يجيء أحد عليهما بذكر ، اذ شئت المصادفة أن يكون اسمه واسم نسبته الى أبيه هما آندره أنطونوفتش أيضاً • وحين وصل بلومر الى مدينتنا لم يزر أحداً ، ولم يعاشر الا صديقاً ألمانياً ، وعاش حياة ضيقة منزوية • وكان منذ مدة طويلة على علم بعيوب لمبكه المتعلقة بميله الى الأدب ، حتى لقد أضغى اليه وهو يقرأ عليه روايته في خلوة ، فكان بلومر أثناء تلك الجلسات التي ربما دامت في بعض الأحيان ست ساعات متتالية ، كان يبقى جالسا جامدا متصلياً كأنه وتد مغروز في الارض ، يتصب عرقه قطرات كبيرة ، وينذل جهودا مستميتة في سبيل أن لا ينام ، وفي سبيل أن يحافظ على هيئة اللطف والمودة • حتى اذا رجع الى البيت

أخذ بيكى مع زوجته ، وهى امرأة طويلة يابسة ، تألماً على هذا الانسان
المحسن اليهما كيف يُشغف بالأدب الروسى هذا الشغف المشؤم .

ألقى آندره أنطونوفتش على بلومر نظرة تفيض بالألم ، وقال له
متعجلاً رافضاً رفضاً واضحاً أن يستأنف الحديث الذى قطعه عليهما
وصول بطرس ستيفانوفتش منذ حين :

– دعنى هادئاً يا بلومر ، دعنى وشأنى ، أرجوك .

فقال بلومر مصرّاً بعناد فيه احترام :

– ان الأمر يمكن أن يتم على نحو خفى مرهف . ألسنت تتمتع
بسلطات كاملة ؟

– انك تبلغ من الاخلاص لى والاستعداد لخدمتى اننى لا يسعنى الا
أن أخاف منك كلما نظرت اليك .

– أنت دائماً تقول أشياء ذكية ثم تنام بعد ذلك هادئ البال راضياً
عن أقوالك ، ولكن هذا بعينه ما يلحق بك الضرر ويسىء اليك .

– لقد أدركت منذ هنيهة أن الأمر ليس ذاك ، ليس ذاك قط .

– أتكون شكوكك قد نشأت عن تصديقك هذا الشاب الكاذب
المنحط ؟ لقد استولى عليك بامتداح موهبتك الأدبية .

– انك لا تفهم شيئاً . مشروعك سخيف . أقول لك ان مشروعك
سخيف . لن نعر على شيء ، ولكن الفضيحة ستكون رهية . سيسخر منا
الناس وسيضحكون علينا . ثم ان جوليا ميخائيلوفنا ...

– سنعر حتماً على كل ما نبحت عنه وسنجد كل ما نسمي اليه .

كذلك أجاب بلومر وهو يضع يده اليمنى على قلبه ، ويقترب من
فون لمبكه مزيداً من الاقتراب . واستطرد يقول :

- سوف نقوم بالتفتيش فجأة ، فى ساعة مبكرة من الصباح ، ملتزمين أكبر لطف ورقة فى معاملة الشخص الذى أعنيه ، ولكننا نطبق القانون أيضاً أصرم تطبيق . ان هناك شباباً - مثل ليامشين وتلياتيكوف - يؤكدون أننا سنضع أيدينا على كل ما نحن باحثون عنه . لقد ذهبوا الى السيد فرخوفنسكى مراراً كثيرة . ما من أحد يقيم للسيد فرخوفنسكى أى وزن . ان السيدة ستافروجين قد حجبت عنه حمايتها ، وحرمة من أية خطوة لديها ؛ وان كل انسان شريف ، اذا كان بين سكان هذه المدينة الأفظاظ الغلاظ انسان شريف ، مقتنع اقتناعاً تاماً بأن الزندقة والاستراكية انما منبعهما هناك . ان السيد فرخوفنسكى يحتفظ فى بيته بجميع الكتب المحظورة ، مثل « أفكار » ريلايڤ * ، وهو يملك مؤلفات هرتسن الكاملة ... وقعت مصادفة على قائمة كاملة تقريباً ...

- هه ! هذه الكتب موجودة لدى جميع الناس ! ما أشد سذاجتك يا عزيزى المسكين بلومر !

تابع بلومر كلامه دون أن يتنبه أى انتباه الى هذه الملاحظة فقال :

- وعدداً كبيراً من المنشورات التحريضية . سوف نهتدى فى آخر الأمر حتماً الى المصدر الذى تصدر عنه هذه المنشورات المتداولة هنا . ان اشتباهى فى هذا الشاب فرخوفنسكى قد قوى واشتد !

- أنت تخلط بين الأب والابن . انهما على غير وفاق . العلاقات بينهما سيئة . الابن يتهمك على أبيه ويسخر منه علانية .
- ما هذا الا تمثيل !

- أتراك آليت على نفسك أن تميمتى ! هلاً فكرت قليلاً . ان فرخوفنسكى شخصية هامة هنا . ولقد كان أستاذاً . هو رجل معروف . سوف نثيرها فضيحة . سنكون بين الناس جرسه . ستهزأ بنا المدينة كلها .

وسوف يُفَلت منا الآخرون جميعاً ... ثم ، هلاًّ فكرت فيما سوف تقوله
جوليا ميخائيلوفنا !

غير أن بلومر ظل يصصر في عناد ، ولا يريد أن يسمع شيئاً وأن يفهم
شيئاً . قال وهو يلطم صدره يده :

— لم يكن أستاذاً ، وانما كان مكلفاً بالقاء دروس . لم يكن الا فى
رتبة معيد . ولم يظفر بأى لقب فخري . وقد طُرد من الوظيفة لأن
السلطات انتبعت فيه واتهمته بالتحريض على الثورة . وهو منذ ذلك الحين
تراقبه الشرطة سراً . ولما كانت تُهَيأ هنا اضطرابات فان من واجبك أن
تدخل . ولكنك تفوّت الفرصة السانحة فتحرم نفسك من التميز
باكتشاف المجرم الحق .

— هذه جوليا ميخائيلوفنا آتية ! امض يا بلومر ، امض !
كذلك صاح آندره أنطونوفتش حين سمع صوت امرأته فى الغرفة
المجاورة على حين فجأة .

ارتفع بلومر ، ولكنه لم يستسلم . قال ملحاً وهو يضغط على
صدره بكلتا يديه مزيداً من الضغط :

— دع لى أن أتصرف . دع لى أن أتصرف .

— امض ! امض ! افعل ما شئت ... فيما بعد ! هوه !

كذلك كرر فون لمبكه بصوت صافر .

وفُتِح الباب وظهرت جوليا ميخائيلوفنا فى القبة . فلما رأت بلومر
توقفت فى فخامة وجلال ، ورشقتة بنظرة فيها احتقار وفيها غضب ، كأن
مجرد وجود هذا الشخص اهانة لها . فحيّاها بلومر بصمت ، منحنيّاً

انحناء شديداً حتى كاد ينثنى نصفين من شدة الاحترام ، ثم اتجه نحو الباب سائراً على رموس الأصابع مباعداً ذراعيه قليلاً .

سواء أكان بلومر قد فهم من صيغة آندره أنطونوفتش الخائفة أنه أجاز له أن يتصرف كما يشاء ، أم كان قر قرر أن لا يحفل برأى صاحبه هذا المحسن اليه ، وذلك في سبيل مصلحة صاحبه نفسها ولاقتناعه بأن النجاح سوف يبرر الجرأة ، فالمهم أن هذه المصادفة بين الحاكم ومرعوسه قد كانت لها ، كما سنرى فيما بعد ، نتيجة لم تدر في خلد أحد ولا توقعها أحد ، نتيجة سلّت كثيراً من الناس ، وأحدثت ضجة كبيرة ، وأحنقت جوليا ميخائيلوفنا ، وبلبلت أفكار آندره أنطونوفتش إذ هوت به في أخرج لحظة الى شلل في الإرادة يرثى له .

كان ذلك اليوم من أيام بطرس ستيفانوفتش حافلاً بأعمال كثيرة يجب عليه أن يقوم بها . انه حين خرج من عند فون لمبكه أسرع يسير الى شارع ايفانيا راكضاً ، ولكنه حين مرَّ أمام المنزل الذي يقيم فيه كارمازينوف بشارع « الأبقار » ، توقف فجأة ، وابتسم ودخل ، فقال له الخادم ان « مولاه ينتظره » ، فدُهِش من ذلك دهشة كبيرة ، لأنه لم يكن قد أنبأ كارمازينوف بأنه سيزوره .

ولكن الكاتب الكبير كان ينتظره فعلاً منذ أمس ، بل منذ أمس الأول . لقد أعطى بطرس ستيفانوفتش ، قبل ثلاثة أيام ، مخطوطة قصيدته « شكرًا » (التي كان يتأهب لالقائها في الصبيحة الأدبية التي تحضّرُها جوليا ميخائيلوفنا) . وهو اذ اعطاه اياها قد اعتقد انه يتلطف معه ، لاقناعه بأنه اذ يتبحر لهذا الشاب أن يطلع قبل سائر الناس على عمل أدبي يبلغ هذا المبلغ من علو الشأن انما يرضى غرور الشاب . وكان بطرس ستيفانوفتش قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذه الشخصية الكبيرة المعجبة بنفسها ، المحبة للظهور ، التي أغرقها الناس بمدح وتمظيم لا يحلم بمثلها بشر عاديون ، أقول كان بطرس ستيفانوفتش قد لاحظ أن هذه الشخصية الكبيرة أو هذا « الفكر الجبار » انما كان يتودد اليه لا أكثر ، بل ويتودد اليه بكثير من السراعاة . وقد حزر الشاب أخيراً ، فيما يخيل اليّ ، أن كارمازينوف كان يتصور أن هذا الشاب ان لم يكن هو رئيس الحركة الثورية الروسية كلها ، فهو على الأقل واحد من أحسن الناس اطلاعاً على هذه الحركة ، وله على الشبيبة سلطان كبير ونفوذ لا سبيل الى جحوده .

ان الحالة النفسية والفكرية التي كان عليها هذا الكاتب الكبير الذي هو « أذكى رجل في روسيا » كانت تهم بطرس ستيفانوفتش كثيراً ، ولكنه لبعض الأسباب كان قد تحاشى حتى ذلك الحين أن يلتمس لها ايضاحاً .

كان الكاتب الكبير يقيم عند أخته المتزوجة ضابطاً في البلاط ، يملك أرضاً في اقليمنا . وكانت الأخت وزوجها يشعران نحو قريبهما الشهير بحب يبلغ درجة العبادة . ولكنهما الآن - وما كان أشد أسفهما لهذا ! - قد اضطرا الى البقاء بموسكو ، فوقع شرف استقبال الضيف العظيم على سيدة عجوز فقيرة تمت الى ضابط البلاط بقرابة بعيدة ، وهي تعيش في منزله منذ مدة طويلة ، وتتولى خدمة البيت . ان الجميع في هذا المنزل يمشون الآن على رؤوس الأصابع منذ وصول السيد كارمازينوف . وكانت السيدة العجوز تكتب الى موسكو كل يوم تقريباً لتقول لاصحاب المنزل كيف نام الضيف الشهير وماذا تنازل فأكل . حتى انها في احدى المرات قد أرسلت برقية لتذكر أنه بعد عشاء راقص في منزل رئيس البلدية قد اضطر أن يتجرع ملعقة دواء . وكانت لا تجرؤ أن تدخل عليه الا لماماً . ولكنه كان كيساً في معاملتها ، وان كان لا يكلمها الا عند الضرورة القصوى ، واذا كلمها فانه يكلمها بلهجة باردة .

حين دخل عليه بطرس ستيفانوفتش وجده يأكل ضلع اللحم الذي اعتاد أن يأكله ، ومعه نصف كأس من نبيذ أحمر . لقد سبق لبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى أن جاءه مراراً ، فكان في كل مرة يجده جالساً الى ضلع اللحم هذا يأكله ، ويستمر في أكله بحضوره دون أن يقدم له أى شئ في مرة من المرات ، حتى اذا فرغ من ضلع اللحم أتبعه بفنجان صغير من القهوة . وكان الخادم الذي يخدمه يلبس يديه قفازين دائماً ، ويرتدى رداء « فراك » ، ويتعلل خذامين مرتين ليس لوقمهما على الأرض صوت .

قال كارمازينوف وهو ينهض عن الكنبة :

— ها ...

ومسح فمه بمنشفته ، وتقدم نحو زائره مشرق الهيئة ليقبله وفقاً
لعادة الروس الذين أصبحت لهم شهرة كبيرة . ولكن بطرس ستيفانوفتش
كان يعلم بالتجربة أن كارمازينوف يتظاهر بتقيل الناس مع أنه لا يزيد
على أن يمد اليهم خدّة . وهذا ما فعله في هذه المرة فالتقت الخدان .
وعاد كارمازينوف يجلس على الكنبة دون أن يُظهر أنه لاحظ ذلك .
وبحركة ودود أوماً للشباب الى مقعد قبالة ليجلس عليه . فجلس بطرس
ستيفانوفتش على المقعد جلسة مريحة .

سأله الكاتب مغيّراً عاداته في هذه المرة :

— لا شك أنك .. ألا تريد أن تتغدى ؟

وكان واضحاً في هيئته أنه يطلب جواباً سلبياً . ولكن بطرس
ستيفانوفتش أسرع يقول انه يسره أن يتغدى . فإذا بالدهش والاستياء
يلقيان ظلها على كارمازينوف ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . ثم
قرع الجرس ينادى الخادم بمصيبة ، فلما جاء الخادم أمره بغداء ثان ، فكان
في صوته رغم حسن أدبه ولطف كياسته ، حنق لا يخفى . وقال يسأل
ضيفه :

— ماذا تريد ؟ أضلع لحم أم شيئاً من قهوة ؟

— ضلعاً وقهوة . وأمر لى أيضاً بنبيذ . فأنا جائع .

كذلك أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو يتأمل رداء الكاتب العظيم
باتباه شديد . كان السيد كارمازينوف يرتدى نوعاً من سترة مبطنه
بقطن ، لها أزرار لامعة كالصدف ، تشبه أن تكون جاكيتة ، ولكنها قصيرة

قليلاً ، فلا تناسب كرشه الثاني ، ولا تناسب ذلك الدور السمين في ذلك الجزء من الجسم الذي تبدأ عنده الفخذان • غير أن لكل انسان ذوقه الخاص به • ورغم أن جو الغرفة كان حاراً ، فقد غطى ركبتيه بغطاء صوفي ذي مربعات يتدلى على الأرض •

سأله بطرس ستيفانوفتش :

- أنت مريض ؟

فأجاب الكاتب الروائي بصوته الحاد ، مقطعاً كلماته برهافة ورقة ، منعماً لهجته على الطريقة الارستقراطية :

- لا ، ولكنني أخشى أن أصبح مريضاً في هذا الجو • لقد انتظرتك أمس •

- لماذا انتظرتني ؟ أنا لم أبلغك أنني آتٍ •

- صحيح ... ولكن مخطوطتي عندك • هل قرأتها ؟

- مخطوطتك ؟ أية مخطوطة ؟

قال له كارمازينوف مشدوهاً :

- آمل أن تكون المخطوطة معك !

وبلغ من القلق أنه أهمل قهوته ونظر الى بطرس ستيفانوفتش مرتاعاً مذعوراً •

قال بطرس ستيفانوفتش :

- آ ... تقصد « مرحباً » •

- بل « شكراً » •

- سيان • لقد نسيتها نسياناً تاماً ، ولم أقرأها • ليس في الوقت

متسع • لا أدري حقاً ماذا صنعت بها • ليست فى جيوبى ••• لا بد اننى تركتها على مائدتى • لا تقلق • سوف أجدها •
- بل أفضل أن نبعث أحداً يبحث عنها فى الحال • قد تضعى • قد تُسرق •

- ما عسى يصنع بها من يخطر بباله أن يسرقها ؟ ثم ، ما بالك تقلق ؟
ان جوليا ميخائيلوفنا تؤكد أنك تستنسخ دائماً عدة نسخ : نسخة تودعها عند الكاتب بالعدل فى الخارج ، وثانية تدعها فى بطرسبرج ، وثالثة تركها بموسكو ، ويظهر أنك ترسل نسخة رابعة الى صاحب البنك الذى تودع عنده أموالك •

- لكن موسكو قد تحرق ، فتحرق معها مخطوطتى • لا • اننى أفضل أن نرسل أحداً يبحث عنها فى الحال •
- انتظر • هى ذى مخطوطتك •

كذلك قال بطرس ستيفانوفتش وهو يخرج من احدى جيوبه الحلفية حزمة من أوراق الرسائل • انها مجمعة مهترئة قليلاً • واستطرد يقول :

- تصور اننى ، حين أعطيتنى اياها ، قد درستُها فى هذا الجيب الخلفى مع منديل ، ثم بقيت فيه • نسيتهام تماماً •
استولى كارمازينوف على مخطوطته بشراهة ، وفحصها بعناية ، وعدّ أوراقها ، ثم وضعها بكثير من الاحترام على منضدة صغيرة فى جانب ، بحيث لا تغيب عن بصره •

قال بصوت صافر ، عاجزاً عن كبح غيظه :

- لملك لا تقرأ كثيراً •

- نعم ، لا أقرأ كثيراً •

- ومن الأدب الروسى ، ألا تقرأ شيئاً ؟

- من الأدب الروسى ، لحظة ... لقد قرأت شيئاً ما ... « على الطريق » ... أو « فى الطريق » .. أو « عند تقاطع الطرق » ... لا أدرى على وجه الدقة . قرأت ذلك منذ مدة طويلة ... منذ خمس سنين تقريباً ... ليس فى وقتى متسع .

وخيم صمت .

قال كارمازينوف :

- حين وصلتُ الى هنا أكدت لجميع الناس أنك رجل تحظى بذكاء نادر ، ويخيل الى أنهم مفتونون بك الآن .

أجاب بطرس ستيفانوفتش ببساطة يقول :

- شكراً .

وجيء بالفداء . فهجم الشاب على ضلع اللحم هجمة نهمة ، وأتى عليه فى لحظة ، وشرب كأساً من نبيذ ، وابتلع قهوته .

حدث كارمازينوف نفسه قائلاً وهو يتفحص الشاب بطرف عينيه أثناء ابتلاعه آخر جرعة : « لعل هذا القليل الأدب قد لاحظت سخرية جملتى الأخيرة ... انى لعل ثقة بأنه ما من شيء كان أشد حاجةً والحاحاً عليه من قراءة مخطوطتى بسرعة . هو يكذب . انه يبيت فكرة . لعله لا يكذب مع ذلك ، وانما هو غبى لا أكثر ! اننى أحب لعبرى أن يكون على شيء من غباء . ألن يكون عبقرياً بينهم ؟ على كل حال ، فليذهب الى الشيطان ! ... » .

ونفض وأخذ يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، وذلك ما كان يفعله بعد كل وجبة تنشطاً لجسمه .

قال بطرس ستيفانوفتش يسأله جالساً وهو يشعل سيجارة :

- أنت مسافر قريباً ؟

- لقد جئت لأبيع أرضي ؛ وسفري مرهون بوكيلي .

- يظهر أنك عدت الى روسيا لأنك خشيت الأوبئة التي تهدد
بالانتشار في أعقاب الحرب ، هه ؟

- ل... لا ! ليس الأمر هذا تماماً !

كذلك أجاب السيد كارمازينوف مقطوعاً كلامه . وكان كلما وقف
واستدار ليستأنف مشيه في الغرفة يحرك ساقه اليمنى قليلاً . واستطرد
يقول وهو يتسم بشيء من السخرية :

- لكنني أتوى فعلاً أن أحيا أطول مدة ممكنة . ان النبالة الروسية
تنحل بسرعة خارقة من جميع النواحي . ومن جهتي أحب أن أؤخر
انحلالى أطول تأخير ممكن . لذلك أريد أن أستقر في الخارج الى الأبد:
المنامخ هنالك أصح ، والبنيان الاجتماعي أقوى ، وكل شيء متين مبنى
بحجر . ما رأيك ؟

- هم... اذا انهارت بابل أوروبا فستكون تلك كارثة كبرى
فعلاً (أنا أوافقك على رأيك في هذه النقطة ، وان كنت أفدّر أنها باقية
ما بقيت) أما عندنا في روسيا فلا يرى المرء ما الذي يمكن أن ينهار على
وجه الاجمال . لن نشهد حجارة تتساقط ، وانما سيتداعى كل شيء
وحلاً . ان روسيا المقدسة عاجزة عجزاً مطلقاً عن ابداء أية مقاومة لأي
شيء . وبفضل الاله الروسي ما يزال الشعب الروسى هادئاً بعض الهدوء .
ولكن المعلومات الأخيرة تدل أن الاله الروسي لم يبق له كثير من قوة ،
وأن الغاء الرق قد أوشك أن يسقطه ، وهو قد هزّه هزاً قوياً على كل

حال • ثم ، هناك السكك الحديدية ، وهناك أتم ••• انتى ، فيما يتعلق
بالاله الروسى ، أصبحت لا أؤمن به بتاتاً •

– والاله الأوروبى !

– انتى لا أؤمن بأى اله • لقد افتروا علىَّ عند الشبيبة الروسية •
ان قلبى كان دائماً معها • وقد اطلعت على المنشورات التحريضية التى تنتشر
هنا • انها تدع الناس مبليين حيارى ، لأن لهجتها تروِّع عقولهم ، ولكن
الجميع مقتنعون ، حتى دون أن يدركوا ذلك ، بأن لها تأثيراً قوياً • ان كل
شئ يتدحرج الى الهوة منذ مدة طويلة ، والناس يعلمون منذ مدة طويلة
أيضاً أنهم لا يستطيعون أن يتشبثوا بشئ • ومما يزيد يقينى بنجاح هذه
الدعاية السرية أن روسيا هى الآن بين سائر بلاد العالم البلد الذى يمكن
أن يحدث فيه كل شئ دون أن تعترضه أية مقاومة مهما تكن يسيرة •
انتى أفهم كل الفهم لماذا كان الروس الذين يملكون ثروة ما ، يجتازون
الحدود مترايدين سنةً بعد سنة • ان الغريزة هى التى توجههم وتقود
خطاهم • حين توشك سفينة على الفرق فان القران أول من يتركها • ان
روسيا المقدسة بلد البيوت الخشبية ؟ انها بلد بائس شقى و ••• خطر ؟
انها بلد شحاذين ، مغرورين فى الطبقات العليا ، لكن سوادهم الأعظم
يعيش فى أكواخ مترنحة الجدران • فهم يسعدهم أن يجدوا أى مخرج ،
ويكفى أن يدلهم أحد على أى مخرج • الحكومة وحدها ما تزال تريد أن
تقاوم ، ولكنها تلوِّح بهراوتها فى الظلام وتهوى بها هنا وهناك خبط
عشواء ، وتصيب الموالين • هنا كل شئ محكوم عليه ، مقضى عليه •
روسيا ليس لها مستقبل • أنا أصبحت ألمانياً ، وانى لأعتر بهذا •

– لقد بدأت كلامك بالحديث عن المنشورات التحريضية •
فما رأيك فيها ؟



الكاتب كارمازنيوف

- جميع الناس خائفون منها . معنى هذا أنها تؤثر تأثيراً كبيراً قوياً .
انها تفضح الكذب فضحاً صريحاً ، وتبين أن لا شيء عندنا يمكن التعلق
به والاستناد اليه والاعتماد عليه . انها ترفع صوتهما عالياً بينما يصمت
الجميع . أمجد شيء فيها رغم شكلها انما هو الجرأة الحارقة في النظر الى
الحقيقة وجهاً لوجه . ان هذه القدرة على النظر الى الحقيقة وجهاً لوجه
لا يتصف بها الا الجيل الروسي الحالي . لا ، الناس في أوروبا ليس لهم
هذه الجسارة بعد : البنيان الأوروبي من حجر ، وما يزال المرء هناك يجد
ما يتعلق به ويستند اليه . اذا صدقت رؤيتي واذا صدق حكمي ، فان
الفكرة الثورية الروسية تقوم أساساً على نفى الشرف . يعجني أن أرى
هذا معبراً عنه بمثل هذه الشجاعة ومثل هذه الجسارة . لا ، في أوروبا
ما يزال الناس لا يفهمون هذه الفكرة ؛ ولا كذلك عندنا ، فالى هذه الفكرة
بعينها انما سيهرع الناس . ليس الشرف في نظر الروسي الا حملاً
لا فائدة منه ؛ والأمر على هذا النحو في جميع الأزمان على امتداد تاريخ
الروس كله . لذلك سيكون من اليسير اغراؤه وجرؤه بالمناداة « بحق
التخلي عن الشرف » صراحة . اننى أتمنى الى الجيل القديم ، واعترف
أننى ما أزال أعتقد فكرة الشرف . ولكن ذلك ليس الا عادة . ما زلت
متمسكاً بالأشكال القديمة . لنسلم بأن هذا ضعف منى . انه لجدير بالمرء
أن يموت مع المبادئ التى تعلق بها طوال حياته ...

قطع كارمازينوف كلامه فجأة . وحدث نفسه يقول : « اننى أتكلم
وأتكلم . ويبقى هو صامتاً يراقبنى . لقد جاء لألقى عليه سؤالاً محدداً .
فلسوف ألقى عليه ذلك السؤال » .

سأله بطرس ستيفانوفتش فجأة :

- لقد رجتنى جوليا ميخائيلوفنا أن أسألك ببراعة عن موضوع
المفاجأة التى تهيئها للحفلة الراقصة بعد غد ، فما هى هذه المفاجأة ؟

- نعم ، ستكون مفاجأة حقاً • وسأُدهش جميع الناس لكننى
لن أكشف لك عن سرى •
- بذلك أجاب كارمازينوف متعاطفاً •
- فلم يلح بطرس ستيفانوفتش كثيراً •
- قال الكاتب العظيم :
- يوجد هنا رجل اسمه شاتوف • هل تتصور اننى لم أره بعد ؟
- هو شخص ممتاز • وبعد ؟
- لا شئ خاصاً • لكن الناس يتكلمون عنه كثيراً • أليس هو الذى
صفع ستافروجين ؟
- نعم هو الذى صفع ستافروجين •
- ما رأيك فى ستافروجين ؟
- الحق اننى لا أدرى ما هو بين أصناف الرجال • أحسب انه نوع
من دون جوان •
- كان كارمازينوف يكره ستافروجين ، لأن ستافروجين اعتاد أن
لا يلتفت اليه وأن لا يكثرث به •
- قال وهو يضحك ساخراً :
- إذا تحقق عندنا ما تنادى به المنشورات التحريضية ، فى يوم من
الأيام ، فسوف يكون زير النساء هذا أول من يجب شنقه •
- فقال بطرس ستيفانوفتش :
- قد يُشنق قبل ذلك •
- فقال كارمازينوف مجبداً مؤيداً ، دون أن يضحك فى هذه المرة ،
وكانت لهجته جادة :

- لعل ذلك أن يكون خيراً •

- سبق أن قلت هذا • واعلمُ اننى نقلت كلامك اليه •

- حقاً ؟ فعلت هذا ؟

كذلك سأل كارمازينوف وانفجر ضاحكاً • فقال بطرس
ستيفانوفتش :

- وقد أجاب بأنه اذا سُئِلَ هو ، فيكيف أنت أن تُجِلد جلدًا ،
لا على سبيل المزاح ، بل جلدًا صارمًا ، كما يُجلد الفلاحون •

وتناول بطرس ستيفانوفتش قبعة ونهض • فمدَّ اليه كارمازينوف
كلتا يديه • وقال يسأله بصوته المتلطف المرائي الذى اصطنع نبرة جديدة
على حين فجأة ، مع استمرار الكاتب العظيم فى امساك يدي الشاب بيديه :

- قل لى : اذا كانت مشروعاتكم ستتحقق ••• فمتى ••• متى يمكن
أن يحدث هذا ؟

فأجابه بطرس ستيفانوفتش بفضافة :

- ما يدرينى !

ونظر كل من الرجلين فى عيني صاحبه •

فألح كارمازينوف سائلًا بصوت فيه مزيد من العذوبة واللفظ •

- تقريباً ؟ على وجه التقريب ؟

فجمجم بطرس ستيفانوفتش يقول بمزيد من الفضافة :

- لديك متسع من الوقت لبيع أرضك ، ولديك متسع من الوقت

لتفري بجلدك •

وكان الرجلان ما يزال كل منهما ينظر فى عيني الآخر •

• وساد الصمت دقيقة من الوقت •

وقال بطرس ستيفانوفتش أخيراً :

– سيبدأ الأمر في شهر أيار (مايو) ، فلا يأتي عيد « الشفاعة »
الا ويكون كل شيء قد انتهى •

قال كارمازينوف بلمهجة مؤثرة وهو يشد على يدي زائره :

– أشكرك أصدق الشكر •

وحدث الشاب نفسه قائلاً بعد أن ترك كارمازينوف : « لديك متسع
من الوقت ، يا أيها الفأر ، لترك السفينة قبل غرقها • ولكن اذا كان هذا
الذي يشبه أن يكون رجل دولة يسألني بهذا الجدل كله عن تاريخ البدء
يوماً وساعة ، ويشكرني بهذه الحرارة على المعلومات التي زودته بها ،
فلا يجوز أن نشك في أنفسنا بعد هذا (قال بطرس ستيفانوفتش ذلك
وضحك ساخراً) • همّ • حقاً انه ليس غيباً ، و ... ما هو الا فأر
يهاجر • مثله لا يشي » •

وأسرع الى منزل فيليوف ، شارع ايفانيا •

دخل بطرس ستيفانوفتش أولاً الى مسكن كيريلوف . كان كيريلوف وحيداً على عادته ، وكان يقوم ببعض التمارين الرياضية وسط الغرفة . لقد باعد ساقه وجعل يُدير ذراعيه فوق رأسه . وكانت كرة من الكاوتشوك ملقاة على أرض الغرفة . ولم يكن شأى الصباح قد رُفع عن المائدة بعد أن أصبح بارداً .

وقف بطرس ستيفانوفتش على العتبة لحظة . ثم قال مرحباً بصوت رنان وهو يلج الغرفة :

- أرى أنك تعنى بصحتك عناية كبيرة رغم كل شيء . يا لها من كرة جميلة ! ما أحلى توائها ! أهى أيضاً للقيام بتمارين رياضية ؟ ارتدى كيريلوف رديجوتته . وقال بخشونة :

- نعم ، اننى أعتنى بصحتى . اجلس .

- لقد جئت لأمكث لحظة قصيرة . على كل حال ، هأنذا أجلس . الصحة شيء ممتاز ، ولكننى أتيت لأذكرك بما تمّ عليه الاتفاق بيننا . ان الألوان يقترب « بعض الاقتراب » .

بهذه الجملة الأخيرة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه مازحاً .

- أى اتفاق ؟

- تسألنى أى اتفاق ؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وانتفض مرتاعاً .

فقال كيريلوف :

- ليس بيننا اتفاق ولا التزام • أنا لا أفسر بأننى مرتبط • انك
مخطئ •

فصاح بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو ينهض على حين فجأة :
- ما هذا الذى تقول ؟

- اننى أنفذ مشيئتى • اننى أحقق رغبتى •
- أية رغبة ؟
- رغبتى تلك نفسها •

- كيف يجب أن أفهم هذا الكلام ؟ هل معناه أنك ما تزال مصمماً
على ما عقدت النية عليه ؟

- نعم ، ولكن الأمر ليس أمر اتفاق ، فما كان ثمة اتفاق قط ،
ولست بمرتبط • وانما هى مشيئتى وحدها ، كانت وما تزال مشيئتى
وحدها •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعود الى الجلوس راضياً مرتاحاً :

- طيب ، طيب ، أسلمَ بأنها مشيئتكَ الحرة ، وانما المهم أن لا تكون
مشيئتكَ هذه قد تغيرت • انك تندفع وتحمس من أجل كلمة • لقد
أصبحت سريع الاحتياج فى هذه الآونة الأخيرة • لذلك صرت لا أزورك •
على اننى كنت أعرف أنك لن تخون •

- اننى لا أحبك البتة • ولكن فى وسعك أن تعتمد علىَّ ، رغم اننى
لا أقبل تعبير الحياة هذا •

قال بطرس ستيفانوفتش وقد عاد اليه قلقه :

- ان علينا مع ذلك أن نتكلم بوضوح حتى لا نتعرض للبلبله • ان

هذه القضية تتطلب دقة ووضوحاً • وأقوالك هذه تقلقني كثيراً • هل
تعديني بأن تتكلم ؟

قال كيريلوف بخسونة وهو يحدق الى زاوية من الغرفة :
- تكلم !

- لقد قررت منذ مدة طويلة أن تنتحر ... أقصد أن هذه الفكرة
قد قامت في نفسك • هل وُفقت في التعبير ؟ ألم أرتكب خطأ ما ؟

- وهذه الفكرة ما زالت قائمة في نفسي •

- عظيم • لاحظ أن أحداً لم يجبرك عليها اجباراً •

- نعم • ما أغبى تعبيرك عن فكرك !

- طيب ، طيب • لقد عبّرت عن فكري بغباء وحماسة • لا شك أبداً
في أن الكلام على الاجبار هنا حماسة • والآن أتابع : انك كنتَ عضواً في
الجمعية منذ انشائها ولقد كاشفت أحد أعضائها بمشاريعك •

- لم أكاشف أحداً بشيء ، وانما قلت ببساطة ما أريد أن أفعله •

- طيب • صحيح • الكلام على « المكاشفة » هنا سخف • لم يكن
ذلك منك اعتزافاً • وانما أنت قلت ما قلته ببساطة • كلام عظيم •

- لا ، ليس هذا كلاماً عظيماً • انك تتردد وتلتوى في أقوالك ولا
تلتزم الصراحة • لست مضطراً الى أن أشرح لك كل شيء ، وما أنت
بقادر على أن تفهم أفكارى • لقد قررت أن أنهي حياتي لأن هذه فكريتي ،
لأنني أريد أن أنتصر على الرعب من الموت ... لأن ... ولكن ليس
عليك أن تعرف لماذا • ماذا تريد ؟ شايًا ؟ الشاي بارد • انتظر سأتيك
بكأس أخرى •

كان بطرس ستيفانوفتش قد أمسك ابريق الشاي فعلاً ، وكان يبحث
ببصره عن كأس فارغة • فمضى كيريلوف الى الخزائن ، وتناول منها كأساً
نظيفة •

قال الزائر :

— لقد تغديت عند كارمازينوف ، وأصفيت الى حديثه ، فعسرت ،
ثم ركضت لأجىء الى هنا فتصبب عرقى مزيداً من التصبب ، فأنا الآن ميت
ظماً !

— اشرب ! الشاي بارد ! ذلك ممتاز •

عاد كيريلوف يجلس ، وحدّق بعينه مرةً أخرى الى زاوية من
الغرفة • واستطرد يقول بتلك اللهجة نفسها :

— لقد قدّروا ، فى الجمعية ، اننى بانتحارى أستطيع أن أخدمهم :
فاذا قمتم هنا بعمل شئ ما ، فأخذت السلطات تبحث عن الفاعلين ، أطلقت
أنا على رأسى رصاصة تاركاً رسالةً أذكر فيها أننى أنا الذى فعلت كل
شئ • فبذلك تفلتون من الشبهات خلال سنة بكاملها •

— بل تكفيننا بضعة أيام ، بل قد يفيدنا يوم واحد أكبر الفائدة •

— حسن • فطلبوا منى أن أنتظر • فأجبت بأننى سأنتظر الى أن
تنبشنى الجمعية بأن أفعل ، فأفعل ، لأن الأمور عندى سواء •

— نعم ، ولكن تذكر أنك تعهدت بتحرير هذه الرسالة معى ، وبأن
نصبح متى وصلت الى روسيا ••• أن تصبح رهن اشارتى ، لهذا الأمر
وحده طبعاً ، أما فى كل ما عدا ذلك فأنت حر •

كذلك أضاف بطرس ستيفانوفتش بلهجة تشبه أن تشتمل على تودد
وتعجب •

- لم أتعهد بشيء • وانما أنا قبلت لأن الأمور عندى سواء •••
- طيب ••• طيب ••• ليس فى نيتى قط أن أجرح كرامتك ،
ولكن •••

- ليست المسألة مسألة كرامة •
- تذكر مع ذلك أنك أعطيت مائة وعشرين ديناراً لتتمكن من
السفر • فقد تقاضيت اذن مالاً •

صرخ كيريلوف يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة :

- هذا خطأ ! أنا لا أعمل من أجل مال •

- بلى ، أحيانا •

- أنت تكذب • لقد كتبت من بطرسبرج عارضاً جميع الايضاحات
اللازمة ، وقد رددت فى بطرسبرج مبلغ المائة وعشرين ديناراً ، رددته
بنفسى ••• فالمال رُدَّ اذن ، اللهم الا أن تكون قد احتفظت به لنفسك •
- طيب طيب • موافق • لقد رُدَّ المال • وانما المهم أن تكون ماتزال
مستعداً لما كنت مستعداً له من قبل •

- نعم ، ما أزال مستعداً • فمتى أتيت فقلت لى : « آن الأوان » ،
فعلت ما وعدت به • هل الموعد قريب ؟

- بعد بضعة أيام ••• ولكن لا تنس أن علينا أن نحرر الرسالة
معاً فى تلك الليلة •

- وحتى قبلها بليلة ان شئت • لقد قلت ان علىَّ أن أضع على عاتقى
تبعة المنشورات التحريضية •

- نعم ، وأشياء أخرى أيضا •

- لن أحمل نفسى كل شيء •

سأله بطرس ستيفانوفتش مرتاعاً من جديد :
- ما الذى ترفض أن تحمّله نفسك ؟
- ما لا أريد . وكفى هذا ! أصبحت لا أطيق الكلام فى هذا
الموضوع !

سيطر بطرس ستيفانوفتش على نفسه وغير مجرى الحديث . قال :
- هناك الآن شيء آخر : هل تجيء الليلة الى عند أصحابنا ؟ اليوم
عيد فرجنسكى ، وسوف نجتمع متعللين بهذه الحجة .
- لا أريد .

- بل تعال ، أرجوك . يجب أن تجيء . يجب أن نفرض عليهم
مهابتنا بعددنا ومظهرنا . . . ان لك وجهاً . . . وجهاً لا تُقاوم له جاذبية .
قال كيريلوف ضاحكاً :

- أهذا رأيك ؟ طيب . سأجىء . ولكننى لن أجيء من أجل أن
تفرض عليهم مهابتنا بوجهى . فى أية ساعة يكون الاجتماع ؟
- فى وقت غير متأخر ، فى الساعة السادسة والنصف . وتستطيع أن
تدخل فتجلس ولا تكلم أحداً ، مهما يكن العدد كبيراً . ولكن لا تنس أن
تحمل قلماً وبضعة أوراق .

- لماذا القلم والأوراق ؟

- بالنسبة اليك لا قيمة لهذا ، أما بالنسبة الىّ فإن له قيمةً كبيرة .
ستمكث هناك جالساً لا تقول كلمة ، بل تصغى وتظاهر من حين الى حين
بأنك تدوّن شيئاً . لك أن ترسم اذا كان يحلو لك ذلك .

- ما هذه السخافات ؟ ما الغرض من هذا كله ؟

- أليست الأمور عندك سواء • انك ما تنفك تردد بأن جميع الأشياء
عندك سواء •

- بل قل لى لماذا !

- طيب • اسمع : ان العضو الذى تنتظره ، وهو المفتش ، كما تعلم ،
لم يستطع أن يغادر موسكو • وأنا قد أبلغت عدداً من الأعضاء أن مفتشنا
سيحضر الاجتماع • فسوف يظنون اذن أنك أنت المفتش ، وسيدهشون
دهشة كبيرة لا سيما وأنك هنا منذ ثلاثة أسابيع •

- هذه كلها ترهات ! ليس لكم مفتش بموسكو •

- طيب • لنسلم بذلك • لنا مفتش • سحقاً للمفتش • ولكن هل
يزعجك ما أطلبه منك ؟ هل يؤذيك أو يسيء اليك ؟ أنت أيضا عضو فى
الجمعية •

- قل لهم اننى مفتش • سأبقى جالساً لا أنطق بكلمة • ولكننى
لا أريد قليماً ولا ورقاً •

- ولكن لماذا ؟

- لا أريد !

صار وجه بطرس ستيفانوفتش ضارباً الى الخضرة من شدة الغضب ،
ولكنه كظم غيظه وسيطر على نفسه من جديد ، ونهض وتناول قبعته •
وقال يسأل بصوت خافت :

- هل « الآخر » عندك ؟

- نعم •

- طيب سأخلّصك منه قريباً • اطمئن بالاً ولا تقلق •

- لست قلقاً البتة • انه لا يجيئ الا فى الليل • المرأة المعجوز فى

المستشفى ، وامرأة ابنها ماتت ، وأنا وحيد منذ يومين • وقد دلت على
اللوح الخشبي الذي يمكن تحريكه بسهولة في الحاجز ، فيستطيع أن
يدخل دون أن يُرى •

- سأخلّصك منه قريباً •

- هو يقول انه لا تعوزه أمكنة يسكن فيها •

- هو يكذب • انه ملاحق مطارد • وهم الى الآن لا يشتبهون في
وجوده هنا • هل تتحدث معه مصادفةً ؟

- نعم ، طول الليل • انه لا يكف عن شتمك • قرأت عليه رؤيا
يوحنا في الليلة الماضية ، وشربنا شايًا • أصفى باتباه شديد ، بل شديد
جداً ، طول الليل •

- لسوف تهديه الى الايمان بالمسيحية !

- انه مسيحي • ولكن اطمئن : سوف يقتل • من تريد أن
يقتله لك ؟

- لا ، لست في حاجة اليه من أجل أن يقتل ، بل من أجل شيء
آخر ... هل شاتوف على علم بأمر فدكا ؟

- نحن لا نتخاطب أبداً • أنا وشاتوف لا يرى أحد منا الآخر •

- أأنتم متخصصان ؟

- لا ، لسنا متخصصين ، ولكن كلاً منا يحتاج الى الآخر • لقد
اضطجعنا في أمريكا جنباً الى جنب مدة مسرفة في الطول •

- سأصعد اليه •

- افعل ما تشاء •

- قد نجيئك أنا وستافروجين بعد الخروج من السهرة في نحو
الساعة العاشرة •

- تعالا •

- هناك أشياء هامة يجب أن أكلمه فيها • اسمع : اعطني كرتك ،
هل أنت في حاجة إليها الآن ؟ أنا أيضا سأقوم بتمارين رياضية • سأدفع
لك ثمنها ان شئت •

- خذها • انتي أهبها لك •

وضع بطرس ستيفانوفتش الكرة في الجيب الخلفي من ردنجلوته •
دمدم كيريلوف يقول فجأة وهو يشيخ زائرہ الى الباب :
-لن أعينك على ستافروجين في شيء •

فنظر اليه الزائر مدهوشاً ، ولكنه لم يجب •

ان هذه الكلمات الأخيرة التي قالها كيريلوف قد بثت في نفس
بطرس ستيفانوفتش اضطرابا عميقا • ولكن وقته لم يتسع للتفكير في
الأمر ، لأنه تذكر وهو يصعد سلم شاتوف أن عليه أن يسبق على وجهه
الحائق هيئة اللطف •

كان شاتوف في بيته ، راقداً على سريرہ وهو مرتدٍ كلَّ ثيابه :
كان يشعر بأن حالته الصحية ليست حسنة تماما •

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو في العتبة :

- يا لسوء الحظ ! أنت مريض حقاً ؟

واختفى عن وجهه قناع اللطف فجأة ، ولم بعينه لهيب خبيث •

قال شاتوف وهو ينهض :

- لا ، أبداً ، لست مريضا البتة • ولكن رأسي ...

كان زائع الهيئة : ان ظهور بطرس ستيفانوفتش على هذا النحو
المباغت قد روعه حقاً .

بدأ بطرس ستيفانوفتش يتكلم فقال بلهجة فيها ايجاز ، وفيها مايشبه
أن يكون أمراً :

أنا انما جئت لأحدثك في أمر يقتضى أن تكون في صحة جيدة .
اسمح لي أن أجلس .

قال ذلك وجلس ثم أردف يقول :

ـ وأنت عُدْ فاجلس على سريرك . نعم . هكذا . في هذا المساء ،
سيعقد بعض أصحابنا اجتماعا عند فرجنسكى ، متعللين بحجة عيد ميلاده .
وسأجىء أنا مع ستافروجين . واذا اتى عالم بما أنت عليه الآن من حالة
نفسية خاصة ، فما كان لي أن أجركَ حتماً الى هذه السهرة ... تحاشياً
لتعذيبك بطبيعة الحال ، لا خوفاً من وشاية منك . ولكن الطرف يوجب أن
تحضر الاجتماع قطعاً . ستجد هناك أشخاصا تتفق معهم اتفاقاً نهائياً على
الطريقة التي يجب أن تخرج بها من الجمعية ، وتعطيهم الأشياء المختلفة
المودعة عندك . سنرتب الأمر خفية : أقودك الى ركن من الأركان ،
وهناك يتم كل شيء ، لأن عدد الحضور سيكون كبيراً ، ولا داعي لأن يطلع
الجميع على المسألة . لا أكتمك أنتى تعبت كثيراً في الدفاع عنك . ولكنهم
الآن موافقون فيما يبدو لي . على شرط أن ترد المطبعة وجميع الأوراق
طبعاً . وبعد ذلك تكون حراً طليقاً ، وتمضى الى حيث تشاء .

كان شاتوف يصفى اليه مفاظ الهيئة مقطب الحاجبين . ان خوفه
المصبي الذي رأيناه فيه منذ قليل قد بارحه الآن تماماً . قال شاتوف بلهجة
قاطعة :

- أنا لا أعد نفسي ملزماً بتقديم حسابٍ لأى شيطان ! لست فى حاجة لأن تُردَّ الىَّ حريتى ، فأنا حر .

- لا كل الحرية . لقد عهد اليك بأشياء كثيرة . وليس من حقك أن تترك دون أن تبلغ أحداً ما عازمت عليه . ثم انك لم تفصح عما بنفسك افصاحا واضحاً حول هذا الموضوع فى يوم من الايام ، فجعلتنا فى حيرة من أمرنا .

- منذ وصولى بعثت رسالةً واضحة كل الوضوح .

أجابه بطرس ستيبانوفتش بهدوء :

- لا ، لم تكن رسالة واضحة البتة . مشال ذلك اننى بعثت اليك قصيدة « البطل » لتطبعها هنا ، ولتحتفظ بالنسخ الى أن تُطلب منك ، وكذلك بعثت اليك نشرتين ثورتين . فرددت هذا كله مع رسالة مشبهة لا تعنى شيئاً على وجه الاجمال .

- بل أعلنت صراحة اننى أرفض أن أطبع .

- نعم ، ولكن جوابك لم يكن واضحاً . لقد كتبت تقول : « لا أستطيع » وهذا لا يعنى أبداً : « لا أريد » . لقد أمكننا أن نفترض أنك ترفض بسبب بعض الظروف المادية . هكذا فهم جوابك ، واستنتج منه أنك ما تزال عضواً فى الجمعية . لقد عهدوا اليك بأشياء ، فأصبحوا بذلك معرضين للخطر . هم يقولون هنا انك انما أردت أن تخدعهم لتحصل على بعض المعلومات الهامة ثم تشى بهم . وقد دافعت عنك بكل ما أوتيت من قوة ، وأطلعتهم على جوابك الذى يتألف من سطرين ، كوثيقة تبرئك . ولكننى اذ أعدت قراءة هذه الرسالة اضطررت أن أعترف أنا نفسى بأنها لم تكن واضحة ، وبأنها يمكن أن توقع فى الخطأ .

- هل حرصت اذن على الاحتفاظ برسالتى ؟

- فيم يضريك هذا ؟ انها ما تزال معي •

صاح شاتوف يقول غاضباً :

- هنيئاً لكم بها ! ليكن ما يكون ! اذا كان أصحابك الأغنياء هؤلاء يتصورون أنني وشيت بهم ، فليس يهمني ما يتخلون ! وددت لو أعرف ما الذي يمكنكم أن تصنعوه بي !

- يمكن أن تُراقب ، وأن تشنق عند أول نجاح تحققه الثورة •

- أي حين تستولون على السلطة وتسيطرون على روسيا ؟

- لا تضحك • أعود فأقول لك انني دافعت عنك • مهما يكن من أمر ، فاني أنصحك بأن تأتي هذا المساء • علام هذه الأقوال التي لا طائل تحتها ، وفيه هذا الزهو الزائف والمعجب الباطل ؟ أليس الأفضل أن تنفصل على مودة وصداقة ؟ ينبغي لك على كل حال أن تردّ اليهم المطبعة والأحرف ، وكذلك الأوراق القديمة • على هذا انما سنتفق •

جمع شاتوف قائلاً :

- سأجيء •

كان خافض الرأس ، شارد الذهن ، حالم الهيئة • وكان بطرس ستيفانوفتش يتفحصه من مكانه خلسة •

وقال شاتوف فجأة يسأل وهو يرفع رأسه :

- هل سيحضر ستافروجين ؟

- نعم ، قطعاً •

- هيه ، هيه ! ...

وصمت الرجلان من جديد • وابتم شاتوف ابتسامة فيها مرارة
واشمزاز •

- وهل طُبعت أخيراً قصيدتك الدنيئة « البطل » التي رفضت أن
أطبعها ؟

- نعم •

- وهل يؤكدون لطلاب المدارس الثانوية أن هرتسن نفسه هو
الذى كتبها فى دفترك •

- نعم ، هرتسن نفسه •

ساد صمت جديد دام ثلاث دقائق • ونهض شاتوف أخيراً وقال :
- أخرج من هنا • لا أريد أن أبقى معك •

فسرعان ما نهض بطرس ستيفانوفتش وقال بما يشبه المرح :

- هأنذا أنصرف • كلمة أخيرة : هل كيريلوف وحيد تماماً فى
جناحه الآن بغير خادمة ؟

- نعم ، وحيد تماماً • هياً انصرف • اننى لا أطيق أن أبقى معك
فى غرفة واحدة •

حدث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً حين أصبح فى الشارع :
« هأنت ذا فى أحسن حالة • وفى هذا المساء ستكون على ما أحب لك أن
تكون • ما كان يمكن أن أتمنى خيراً من هذا • نعم ، ما كان يمكن أن
أتمنى خيراً من هذا • ان الاله الروسى نفسه قد أرسلك عوناً لى » •

لا شك أنه تحرك كثيراً في ذلك اليوم ، ولا شك أن مساعيه لم تخل من نجاح اذا صدق ما كان يعبر عنه وجهه من بهجة منتشرة على أساريه حين وصل الى عند ستافروجين في الساعة السادسة تماماً من المساء . الا أنهم لم يدخلوه على الشاب فوراً ، فان ستافروجين كان منذ برهة قصيرة قد خلا الى مافريكي يقولانفتش في حجرة عمله . ولقد سبب هذا النبأ لبطرس ستيفانوفتش شيئاً من انشغال البال . وها هو ذا يجلس قرب باب الحجرة منتظراً خروج الزائر . كان يدرك لفظ الحديث ، ولكنه لا يميز الأقوال . ولم تدم زيارة مافريكي يقولانفتش مدة طويلة . فان فرخوفنسكى لم يلبث أن سماع صيحات قوية ، ثم سرعان ما فتح الباب وخرج الضابط شاحب الوجه ممتقع اللون ، حتى انه لم يلاحظ بطرس ستيفانوفتش ، ومرّ مسرعاً . فهرع بطرس ستيفانوفتش الى حجرة ستافروجين فوراً .

لا أملك أن أعفى نفسي من أن أصف هنا ، على وجه التفصيل ، اللقاء الذي تم بين « الخصمين المتنافسين » ، وهو لقاء بدا أنه لا بد أن يكون مستحيلاً بسبب الظروف القائمة ، ولكنه تم مع ذلك .

اليكم كيف جرت الأمور : كان يقولاي فسيفولودوفتش غافياً غفواً خفيفاً على ديوانه بعد الغداء ، حين جاء الكسى ايجورتش يعلن له زيارة مافريكي يقولانفتش . فلما سمع ستافروجين هذا الاسم هب واقفاً على حين فجأة ، وكأنه لم يصدق أذنيه . غير ان ابتسامته لم تلبث أن ظهرت على شفتيه ، ابتسامته فيها معنى الزهو بالانتصار ، ولكن فيها معنى الدهشة

المرتبة فى آن واحد • ولا شك أن مافريكى نيقولايفتش الذى دخل فى تلك اللحظة ، قد خطفت تلك الابتسامة بصره ، لأنه توقف فى وسط الفرفة فجأة ، وكأنه كان يتساءل أليس الأفضل أن يرجع أدراجه . ولكن ستافروجين قد أسرع بدّل تعبير وجهه أثناء ذلك ، وما هو ذا يتقدم بضع خطوات للقاء الزائر ويمد اليه يده ، وفى هيئته دهشة صادقة • غير أن مافريكى نيقولايفتش لم يتناول اليد الممدودة ، وأسرع يأخذ كرسيّاً بحركة خرقاء ، ويجلس أمام رب الدار دون أن يقول كلمة ، ودون أن ينتظر أن يدعوه رب الدار الى الجلوس •

جلس نيقولاى فسيفولودوفتش على الديوان مواردبا ، ونظر الى الزائر بانتباه ، وانتظر صامتاً •

قال مافريكى نيقولايفتش فجأة :

- تزوج ليزافنا نيقولايفنا اذا شئت •

وأغرب ما فى الأمر أنه كان يستحيل على المرء أن يدرك من لهجته هل عبارته تلك رجاء أم هى نصيحة ، أم هى تنازل ، أم هى أمر يأمره به •

لبث نيقولاى فسيفولودوفتش صامتاً • لكن الزائر وقد عبّر تعبيراً واضحاً عن الهدف من زيارته كان يحدق اليه بنظرة ثابتة، ويتنظر جوابه • قال ستافروجين أخيراً :

- اذا لم أخطئ ، وما أنا بسخطىء حتماً ، فان ليزافنا نيقولايفنا خطيبتك •

أجاب الزائر مؤيداً بصوت واضح ثابت :

- نعم ، نحن مخطوبان رسمياً •

- هل ... تشاجرتما ؟ معذرة يا مافريكى نيقولايفتشس .
- لا ! انها « تجبنى » ، وهى « تقدرنى » . هذه أقوالها هى نفسها .
وأقوالها أنمن شئ عندى .
- طبعاً .

- ألا فاعلم مع ذلك أنها اذا ناديتها أنت أثناء قيام الكاهن بمراسم
زواجنا فى الكنيسة أمام الهيكل وهى واضعة حجابها على وجهها ، فسوف
تبادر الى تركى أنا والآخرين فى سبيل أن تلبى نداءك وتبتع خطاك !
- حتى فى لحظة الزواج ؟
- حتى فى لحظة الزواج .
- ألسنت تخطىء الظن والتقدير ؟

- لا . انها تحت الكره المستمر الصادق العميق الذى تحمله لك ،
يتفجر فى قلبها الحب فى كل لحظة ... وينفجر الجنون ... أصدق الحب
وأوسع ... والجنون ! وبالعكس : تحت الحب الذى تحمله لى يتفجر
الكره ، يتفجر كره فظيع رهيب . ما كان لى أن أتخيل فى يوم من الأيام
قبل الآن حدوث تحولات كهذه التحولات ... أو انقلابات كهذه
الانقلابات ! ...

- يدهشنى مع ذلك أنك خطيب ليزافتا نيقولايفنا والحال ما وصفت !
هل لك حق فى ذلك ؟ هل أجازته هى لك ؟
اكفهر وجه مافريكى نيقولايفتشس وخفض رأسه .
وقال أخيراً :

- انك تنطق بأقوال لا داعى اليها ولا جدوى فيها . انك تنتقم
وتنتصر . أنا على يقين من أنك تقرأ بين السطور . هل هنا مجال لزهو

كهذا الزهو ؟ أأنت راضياً كل الرضى ، مرتاحاً كل الارتياح ؟ هل يُعقل أن أظل مضطرباً الى وضع النقاط على الحروف ؟ أن أكون ما أزال محتاجاً الى توضيح الأمور ؟ طيب ! ليكن ! سوف أضع النقاط على الحروف اذا كنت فى حاجة الى اذلالى . ليس لى أى حق ، ولم أحصل على أية اجازة . ان ليزافنا نيقولايفنا ليست على علم بشئ ، وقد فقد خطيبها كل شعاع من عقل وأصبح مهياً لدخول مستشفى من مستشفيات المجانين . وأعجب ما فى الأمر أنه يجيئك هو نفسه ليعلم لك ذلك . انك الرجل الوحيد الذى يمكنه أن يجعلها سعيدة ، فى هذا العالم ؟ وليس هناك الا رجل واحد يستطيع أن يجعلها شقية : وهذا الرجل الأخير هو أنا . انك تكافح فى سبيل الظفر بها ، وتعذبها وتضطهدها ، ولكنك - وهذا ما لا أدرى سببه - لا تتزوجها . اذا كان الأمر بينكما لا يعدو أن يكون أمر اختصام حيين قام بينهما فى الخارج ، واذا كان يجب على فى سبيل انتهاء هذا الاختصام أن أضحي بنفسى فأنا مستعد للقيام بهذه التضحية . ليست أقوالى هذه اجازة ولا أمراً . فما ينبغي أن يُجرح من هذا شمعورك ، ولا أن تُمسَّ كبرياؤك . اذا أردت أن تحل محلى أمام الهيكل فى الكنيسة ففى وسعك أن تفعل ذلك دون أن أجيزه له ، وما كانت بى حاجة طبعاً الى أن أعرض جنونى . لا سيما وأن زواجنا ، بعد هذه الخطوة التى قمت بها ، قد أصبح مستحيلاً . لا أستطيع الآن أن آخذها الى الكنيسة للزواج : فوجودى هنا ، وكونى جثك متازلاً لك عن خطيئى ، جثك أنت عدوِّها ، هما فى نظرى ذنابة لن أستطيع احتمالها طبعاً .

- هل تتحرر حين نُنزَّوج ؟

- لا ! ولكن اتحرر بعد مدة طويلة . لا أريد أن أُلطخ بدمى نوب

زفافها . وقد لا اتحرر لا الآن ولا فى المستقبل .

- اغلب الظن أنك تقول هذا الكلام لتهدئنى .

ـ لأهدئك ؟ وهل يعنيك قليل من الدم زيادةً أو نقصاناً ؟

كان شاحب الوجه ، وكانت عيناه تسطعان • وران الصمت دقيقة •

استأنف ستافروجين كلامه فقال :

ـ اعذرني اذا أنا سألتك • ان هناك اسئلة لا يحق لي حتى أن ألقبها عليك • غير أن بين تلك الأسئلة سؤالاً يخيل اليّ أنه يجوز لي القاءه • قل لي : ما الذي حضّك على الاعتقاد بعواطفى نحو ليزافا نيقولايفنا ؟ على أى أساس أقمت هذا اليقين الذى أتاح لك أن تجيء الىّ وتصارحنى بما صارحتنى به ••• وأن تجاوز فتعرض علىّ هذا العرض ؟ قال مافريكى نيقولايفتش وهو ينتفض دهشة :

ـ كيف ؟ ألم تحاول أن تخطبها ؟ ألا تطمع فى زواجها ؟ ألا تفكر أنت نفسك فى هذا ؟

ـ اننى على وجه العموم لا أستطيع أن أكلّم أى انسان عن عواطفى نحو امرأة • معذرة • هذه سمة شاذة من سمات طبيعتى • ولكننى فى مقابل ذلك سأقول لك الحقيقة كلها فيما يتعلق بالباقي : اننى متزوج ، ويستحيل علىّ اذن أن أتزوج امرأة أخرى ، أو أن أحاول « طلب يد امرأة أخرى » •

بلغ مافريكى نيقولايفتش من الدهول أنه ارتدى الى وراء ، وحدّق الى وجه ستافروجين بنظرة متجمدة • ثم دمدم يقول بعد برهة :

ـ تصور أنتى لم أكن أتوقع أى شىء من هذا القيل بتاتاً • لقد قلت منذ حين انك لست متزوجاً ••• فصدّقت أنا أنك لست متزوجاً •••

واصفر وجهه اصفراراً رهيباً • وها هو ذا يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية على حين فجأة ، ويقول :

– بعد اعتراف كهذا الاعتراف ، ان لم تدع ليزافتا نيقولايفنا وشأنها
هادئة البال فأنها تشقيها ، ولأضربنك عندئذ بالعصا كما يضرب كلب •
قال ذلك ونهض وائباً وأسرع يخرج من الغرفة •

وهرع بطرس ستيفانوفتش يدخل على رب الدار ، فوجده فى حالة
نفسية لم يكن يدور فى خلدہ أن يجده عليها •

قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً صاخباً مجلجلاً يبدو أن دخول
بطرس ستيفانوفتش متعجلاً مستطعماً عجيب الهيئة هو الذى أطلقه فيه :

– آ • • هذا أنت ! أكنت تنصت على الباب ؟ انتظر ! لماذا كان عليك
أن تجيء ؟ أظن أننى كنت قد وعدتك بشيء ما • • • آ • • • نعم • • •
تذكرت : سذهب الى « جماعتنا » ! أنا سعيد بوصولك ! لا تستطيع أن
تتخيل شيئاً جاء فى محله كوصولك الآن •

وتناول قبعته ، وانصرف فوراً •

قال بطرس ستيفانوفتش مرحباً :

– انك تضحك سلفاً من فكرة رؤية « جماعتنا » •

وكان بطرس ستيفانوفتش يحاول تارة أن يمشى الى جانب رفيقه على
رصيف الأجر الضيق ، وتارة يركض على وحل أرض الشارع ، لأن
ستافروجين لم يلاحظ البتة أنه كان يسير فى وسط الرصيف فيملؤه كله •

أجاب ستافروجين يقول بصوت رنان فرح :

– أنا لا أضحك بتاتاً بالعكس : اننى مقتنع بأنهم جميعاً أناس جادون

– ما هم الا « أغبياء متجهمون » ، كما تفضلت فوصفتهم بهذا فى يوم
من الأيام •

- لا شيء أدعى الى التسلية أحياناً من رؤية « أغبياء متجهمين » !

قال بطرس ستيغافوفتش :

- آ ... لا شك أنك تفكر فى ما فريكى نيقولا يفتش • أنا واثق بأنه جاء يعرض عليك أن يتنازل لك عن خطيبته ، هه ؟ تصور اتنى أنا الذى حضضته على هذا حضاً غير مباشر ! واذا رفض أن يتنازل عنها ، فسأخذها منه أخذاً ، هه ؟

كان بطرس ستيغافوفتش يعرف حتماً ما يخاطر به حين يتكلم بهذه اللهجة • ولكنه حين يكون حالة من الاهتياج الشديد يؤثر أن يجازف بكل شيء على أن يظل فى حالة بلبلة ليس فيها يقين •

اكتفى ستافروجين بأن ضحك • وسأله :

- أما تزال متوباً أن تساعدنى ؟

- نعم ، اذا ناديتى ، ولكن هل تعلم أن هناك وسيلة أخرى ، أفضل كثيراً ؟

- أعرف هذه الوسيلة •

- لا • ان الأمر ما يزال سرّاً • ولكن لا تنس أن هذا السر يكلف مالاً •

- أعرف مبلغ المال اللازم !

كذلك قال ستافروجين ، ولكنه سيطر على نفسه وصمت •

سأله بطرس ستيغافوفتش وقد قلق فجأة :

- كم ؟ ماذا قلت ؟

- قلت : اذهب الى الشيطان ، أنت وسرك ! الأفضل أن تقول
لى الآن : من هم الذين سلقاهم هناك ؟ أنا أعلم أن الأمر أمر احتفال بعيد
فرجنسكى ، ولكن من هم المدعوون الى الحفلة ؟

- أنواع شتى ! سيكون هناك كيريلوف أيضاً .

- جميع أعضاء فؤتك ؟

- هوه ! أرى أنك متمجّل كثيراً . اننا لم نكوّن هنا فئة واحدة
حتى الآن !

- فماذا فعلت اذن حتى استطعت أن توزع ذلك العدد الكبير كله من
النشرات التحريضية ؟

- فى المكان الذى نذهب اليه لا يوجد الا أربعة أعضاء منتسبون .
أما الآخرون فانهم ينتظرون متجسسين بعضهم على بعض ، وينقلون الى
كل شيء . أناس مضمونون . تلك كلها مواد يجب تنظيمها ، ثم تجرى
الأمر . ثم انك أنت الذى وضعت النظم التى يجب اتباعها ، فما حاجتى
الى شرح هذا لك ؟

- والأمور لا تجرى ؟

- بل تجرى ! لا يمكن أن تجرى خيرا من ذلك ! سوف أضحكك :
ان أحسن وسيلة للتأثير انما هى الزى الرسمى الموحد . لا شيء أقوى
أثرا من الزى الرسمى الموحد . لذلك أوجدت طائفة كبيرة من الألقاب
والوظائف : انتى أنشىء سكرتيرين ، ومفوضين سرين ، وأمناء صندوق ،
ورؤساء ، ومسجلين ، ومساعدين للمسجلين . ذلك كله يرضى كثيرا ،
ويحدث فى النفوس أثرا كبيرا . ثم هنالك العاطفية طبعاً . ان الفضل
فى نجاح الاشتراكية يرجع أكثره الى العاطفية . وانما البلاء أن المرء يقع

أحياناً على ضباط صفار حائقين مسعورين ما يلبثون أن يعضوا • وهناك أيضاً أناس ليسوا إلا أوغاداً • هم رجال شجعان على وجه الاجال ، رجال يمكن الانتفاع بهم كثيراً • غير أن المرء يضع معهم وقتاً طويلاً ، لأن عليه أن يراقبهم عن كثب • والقوة الرئيسية أخيراً ، أو قل الاسمنت الذى يربط كل شيء ويشد بعضه الى بعض ، انما هو الخوف من رأى الآخرين • هذه قوة حقاً ! اننى لأسأله أحياناً عنى يجب أن نشكر له أنه برع تلك البراعة كلها فى أنه جعل الناس لا يملك واحد منهم فكرة شخصية • لكنهم يستحيون أن يفكروا لأنفسهم بأنفسهم •

— اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تحمّل نفسك هذا العناء كله ؟

— كيف لا تستفيد من هذا الطرف ؟ كيف لا تستولى على من يمد اليك ذراعيه ؟ أنت لا تؤمن حقاً بالنجاح ؟ الايمان موجود ، لكن ما نفتقر اليه انما هو ارادة العمل • ومع أمثال هؤلاء الناس انما يكون النجاح ممكناً • أقول لك : انهم مستعدون لأن يلقوا أنفسهم فى النار اذا لزم الأمر • يكفينى من أجل ذلك أن آخذ عليهم فتور اعتقاداتهم • ان البلاء يميون على أننى خدعت جميع الناس حين تكلمت عن اللجنة المركزية ، و « تشعباتها التى لا نهاية لها » • أنت نفسك لمتى على هذا فى ذات يوم • والواقع اننى لم أخدع أحداً : ان اللجنة المركزية هى أنت وأنا • وأما تشعباتها فسوف يكون لنا منها القدر الذى نشاء •

— ولا أحد غير الرعاع ؟

— هؤلاء مواد • سوف يكونون نافعين فى شيء ما •

— وما تزال تعتمد على ؟

— أنت زعيم • أنت قوة • أنا أقف فى ظلك • أنا سكرتيرك •

اننا نبحر على ظهر سفينة ، مجاديفها من قبقب ، وأشرعتها من
حرير ، وفي مؤخرتها ترربع ليزافة نيقولايفنا الجميلة *... أوه ! نسيت
الأغنية !... .

قال ستافروجين ضاحكاً :

- ها هو ذا ينسى بقية القصة . سأحكى لك حكاية أخرى . لقد
أتيت منذ هنيهة على تعداد القوى التي تملكها وتتصرف فيها . صحيح أن
الوظيفية والعاطفية هما اسمت ممتاز حقاً . غير أن هناك ما هو خير من
هذا : ادفع أربعة من أعضاء فئتك الى قتل خامسهم بحجة أنه يخونهم
أو يتجسس عليهم أو يشى بهم ، فان هؤلاء الأربعة ما ان يشتركوا معاً
في سفك دم حتى يرتبطوا ارتباطاً قوياً ، فيصبحوا عبيداً لك ،
ولا يجسروا بعد ذلك أن يتمرّدوا ، أو أن يحاسبوا . ها ها ها !

قال بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه : « أنت ... أنت ستدفع لى
ثمن هذا . بل ستدفعه فى هذا المساء نفسه . انك تجيز لنفسك أشياء
كثيرة مسرفة فى الكثرة !... » .

فى هذا أو فيما يشبهه انما فكر بطرس ستيفانوفتش . وكانا قد
اقتربا من دار فرجنسكى .

سأله ستافروجين قائلاً :

- أغلب الظن أنك قدمتى بصفتى عضواً فى اللجنة المركزية آتياً
من بطرسبرج ، أو مفتشاً على صلة بالأمية * ، أليس كذلك ؟

فأجاب بطرس ستيفانوفتش بقوله :

- لا ، لم أقدّمك مفتشاً . لست أنت المفتش . وانما أنت أحد

الأعضاء المؤسسين ، وأنت على علم بأهم أسرار التنظيم • ذلك هو دورك •
سوف تتحدث حتماً ، أليس كذلك ؟

- من زعم لك هذا ؟

- أنت الآن ملزم بالتحدث •

وقف ستافروجين مدهوشاً في وسط الشارع ، غير بعيد عن أحد
المصابيح • ولبت بطرس ستيفانوفتش ينظر اليه وفي وجهه تحدٍ • فبصق
ستافروجين وتابع طريقه • ثم سأل صاحبه :

- وأنت هل سوف تتحدث ؟

- لا بل اكفى بالاصفاء اليك •

- شيطان يأخذك ! ولكن اسمع ... انك توحى الىّ في الواقع
بفكرة ...

أسرع بطرس ستيفانوفتش يسأله :

- ما هي هذه الفكرة ؟

- جائز جداً أن أتحدث هناك • ثم أهوى عليك بضرب مبرّح !

- بالمناسبة ، لقد نقلت الى كارمازينوف منذ قليل أنك قلت ان من
الواجب أن يُجلد ... لا جلداً شكلياً فحسب ، بل جلداً حقيقياً كما
يُجلد فلاح !

- لكنني لم أقل هذا الكلام في لحظة من اللحظات •

- سيان ... « اذا لم يكن هذا واقعاً ، فهو خيال جميل » ، *
(باللاتينية) •

- طيب ... شكراً ! أنا ممتن أعظم الامتان •

- هل تعرف ماذا يقول كارمازينوف ؟ يقول ان عقيدتنا فى الواقع تنفى الشرف ، وان خير وسيلة لاغراء الروس وجرحهم انما هى الدعوة الصريحة الى حق المرء فى انكار الشرف •

صاح ستافروجين قائلاً :

- كلمات رائعة ! كلمات من ذهب ! لقد وضع اصبعه على الحقيقة ! الحق فى انكار الشرف ! جميع الناس سيحيثون الينا • لن يشاء أحد أن يبقى فى الخلف ! ولكن ألا يمكن أن تكون فرداً من أفراد من الشرطة السرية يا فرخوفنسكى ؟

- حين يكون فى رأس المرء أفكار كهذه ، فانه يحاذر أن يعلنها ••

- صحيح • ولكننا نتكلم الآن على انفراد لا يسمعا أحد •

- لا ، لست من الشرطة السرية بعد • ولكن كفى ! لقد وصلنا • اصطنع السحنة المناسبة للظروف يا ستافروجين • اننى دائماً اقمّل هيئة خاصة حين أدخل عليهم • يكفى أن تتخذ هيئة مظلمة • ذلك كل شيء ، ليس الأمر أصعب من هذا •

شخصيات الرواية

اركل

ضابط ، عضو في الجمعية السرية الثورية

آرينا بروخوروفنا

راجع اسم فرجنسكى

الكسى ايجورتش أو ايجوروفتش

خادم فرارا بتروفنا ، ومحل ثقتها

الكسى نيليتش

راجع اسم كيريلوف

ليزافتا نيقولايفنا

راجع اسم لوشين

آندره انطونوفتش

راجع اسم لمبكه

ايفان اوسيبوفتش

حاكم المقاطعة السابق • قريب فرارا بتروفنا ستافروجين •

باشكا

تصغير اسم بافل فيدوروفتش

بتروشكا

تصغير اسم بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى

براسكوفيا ايفانوفنا

راجع اسم دروزدوف •

بطرس ستيفانوفتش

ويرد اسمه مصغرا : بتروشكا

راجع اسم فرخوفنسكى

بلومر (فون بلومر)

سكرتير الحاكم آندره انطونوفتش فون لمبكه ، ومحل ثقته .

تليانتيكوف (اليوشا تليانتيكوف)

سكرتير الحاكم السابق ايفان اوسيبوفتش

توشين

هي اليزافتا او ليزافتا نيقولايفنا توشين . ويرد اسمها مصغرا :
ليزا ؛ ولدت لبراسكوفيا ايفانوفنا من زوجها الاول الكابتن لوشين .
خطيبة مافريكي نيقولايفتش .

تولكاتشكو

مستخدم في السكك الحديدية . عضو الجمعية السرية الثورية .

تيخون

أسقف معتزل في دير . يتلقى اعتراف نيقولاى فسيفولودوفتش
ستافروجين .

جاجانوف (ارتيمي بافلوفتش جاجانوف)

كابتن متقاعد . ابن بافل بافلوفتش جاجانوف ، رجل عجوز ممن
يحيطون بستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى

ج . . . ف (انطون لافرنيتيتش)

القاص . صديق ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى

جوليا ميخائيلوفنا

راجع اسم لمبكه

داريا بافلوفنا

ويرد اسمها مصغرا : داشا ، داشكا
راجع اسم شاتوف .

داشا ، داشكا

تصغير اسم داريا بافلوفنا

دروزدوف (براسكوفيا ايفانوفنا دروزدوف)

أرملة الكابتن توشين ، ثم الجنرال ايفان ايفانوفتش دروزدوف ،
صديقة آل ستافروجين . أم اليزافتا نيقولايفنا توشين .

ستازيا

تصغير اسم ناستاسيا

ستافروجين (فرارا بتروفنا ستافروجين)

مالكة اطيان ، غنية ؛ أرملة الجنرال ستافروجين . أم نيقولاى
فسيفولودوفتش (نيقولنكا) ، الضابط سابقا ، المنتمى الى الجماعة
الثورية . متزوج سرا من تيموفثيفنا لبيادكين .

ستيفان تروفيموفتش

راجع اسم فرخوفنسكى

سيميون ايجوروفتش

راجع اسم كارمازينوف

سيميون ياكوفلفتش

« مجذوب » ينسبون اليه مواهب نبوءة .

شاتوف (ايفان شاتوف)

طالب ، عضو سابق فى الجمعية السرية الثورية . ابن القن بافل
فيدوروفتش (باشكا) الذى كان خادما آل ستافروجين . زوج
ماريا اجناتيفنا ، وأخو داريا بافلوفنا (داشا ، داشكا) . ربيب
فرارا بتروفنا ستافروجين .

شيجاليوف

أخو آرينا بروخوروفنا فرجنسكى . عضو فى الجمعية السرية
الثورية .

صوفيا ماتفييفنا أوليتينا

بائعة متجولة ، رفيقة سفر ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى

فرجنسكى

موظف • عضو فى الجمعية السرية الثورية • زوج آرينا
بروخوروفنا ، القابلة ، أخت شيجالوف •

فرخوفنسكى (ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى)

أستاذ سابقا • أديب • صديق فرفارا بتروفنا ستافروجين التى
ترعاه وتحميه • أبو بطرس ستيفانوفتش (بتروشسكا) رئيس
الجمعية السرية الثورية •

فرفارا بتروفنا

راجع اسم ستافروجين •

فومكا زافالوف

عامل • قاتل • شريك فيدكا فى الجرم •

فدكا او فيدكا (لبت فيلدور فيلدوروفتش)

محكوم عليه بسجن الأشغال الشاقة • هارب وقاتل •

كارمازينوف

كاتب شهير • قريب جوليا ميخائيلوفنا فون لمبكه

كيريلوف (الكسى نيليتش كيريلوف)

مهندس • رفيق شاتوف بالمهجر • عضو الجمعية السرية الثورية •

ليبادكين (اجناس ليبادكين)

يزعم أنه كابتن متقاعد • عشيق آرينا بروخوروفنا فرجنسكى
سابقا • أخو ماريا تيموفنيافنا المتزوجة نيقولاى فسيفولودوفتش
ستافروجين •

لمبكه (أندره أنطونوفتش فون لمبكه)

حاكم الاقليم • زوج جوليا ميخائيلوفنا قريبة أسرة دروزدوف •

ليامشين

مستخدم بمصلحة البريد • يمثل دور المسلى فى بيئة ستيفان
تروفيموفتش ثم فى بيئة جوليا ميخائيلوفنا • عضو الجمعية السرية
الثورية •

لیزا

تصغیر اسم لیزافتا نیقولایفنا توشین

لیبوتین (سرجی فاسیلیفتش لیبوتین)

موظف • متعلق بستیفان تروفیموفتش فرخوفنسکی • عضو
الجمعية السرية الثورية •

لیزافتا نیقولایفنا

راجع اسم توشین

ماریا تیموفیئفنا

راجع اسم لیبادکین

ماریا اجناتفنا

امراة ایفان شاتوف الذی ترکته من أجل نیقولای فسیفولودوفتش
ستافروجین •

ناستاسیا

ویرد اسمها مصغرا : ستازیا

خادمة ستیفان تروفیموفتش فرخوفنسکی •

نافریکی نیقولایفتش

کابتن • ابن أخت الجنرال دروزدوف • خطیب لیزافتا نیقولایفتش
توشین •

نیقولای فسیفولودوفتش

ویرد اسمه مصغرا : نیقولنکا

راجع اسم ستافروجین •

نیقولنکا

تصغیر اسم نیقولای فسیفولودوفتش ستافروجین

حواش

٩ * ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى : ان هذا الاسم العلم مشتق من الكلمة الروسية المجردة فرخوفنستفو ، ومعناها التفوق . وهو يمكن أن يدل على أن هذه الشخصية ، كأكثر الاساتذة الروس ، تنحدر من أرومة من رجال الدين . غير أن له معنى أعمق كما تبين ذلك ملاحظة وردت في إحدى مسودات الرواية ، حيث يقول دوستويفسكى : « ان فرخوفنسكى يظل طوال الرواية ينافس ابنه على التفوق » (فرخوفنستفو) .

١٠ * بطرس تشادييف (١٧٩٣ - ١٨٥٧) : ضابط سابق من ضباط فرسان الحرس ، وكاتب سياسى ، وفيلسوف اعتنق الكاثوليكية . ألف باللغة الفرنسية أربع «رسائل فلسفية» ، يظهر فيها تعصبه الشديد للغرب ، ويحكم حكما قاسيا على روسيا التى يرى أنها فى أعقاب انقسام الكنيسة قد انشقت عن الغرب . ثم لم تحمل الى التراث الانساني المشترك أى فكرة . والرسالة الاولى من تلك الرسائل الأربع قد ترجمت الى اللغة الروسية ونشرت دون علمه . فعل ذلك الأستاذ نادجدين اذ نشر الرسالة فى مجلته «التلسكوب» سنة ١٨٣٦ ؛ فكانت فضيحة . وقد منعت مجلة التلسكوب ونفى محررها الى برم ، كما أعلن رسميا أن كاتب الرسالة مجنون ، وصار يزوره طبيب فى كل أسبوع . . . ولكن ذلك لم يمنعه من التآلق بأحاديثه الكاوية فى صالونات موسكو ، حيث كان أنصار الغرب يقدسونه تقديسا .

أما بيلنسكى الذى يورد المؤلف اسمه بعده فهو فساريون بيلنسكى (١٨١١ - ١٨٤٨) الناقد الادبى الشهير الذى كان فى أول الأمر من أنصار النزعة الغربية اللبرالية ، ثم صار فى أواخر سنى حياته الى الاشتراكية .

وأما جرانوفسكى الذى يرد اسمه بعد ذلك فهو تيموتى

جرانوفسكى (١٨١٣ - ١٨٥٥) أستاذ التاريخ العام بجامعة موسكو . وقد حصل علومه فى ألمانيا ، وكان من أنصار النزعة الغربية المعتدلين . وكان لمحاضراته عن تاريخ أوروبا فى القرون الوسطى دوى كبير فى الأربعينات من القرن التاسع عشر

وأما الكسندر هرتسن (٨١٢ - ١٨٧٠) فهو الابن الشرعى والوريث للميونير اسمه ايفان باكوفليف ، وهو كاتب لامع من دعاة النزعة الغربية . وقد بدأ بالفيلسوف الالمانى هيغل ، شأنه فى ذلك شأن بيلنسكى ، ثم صار الى اشتراكية ثورية . وهاجر منذ سنة ١٨٦٠ ، وأنشأ فى لندن مجلة معارضة اسمها « الناقوس » نفذت الى روسيا بل وصلت حتى الى مكتب الكسندر الثانى ، وكان لها فى العقول تأثير كبير .

١١ * « مدينة هاناو الألمانية الصغيرة » : تقع على نهر الماين ، وهى مدينة ليس لها أى شأن . وههنا فى الواقع اشارة الى رسالة الدكتوراه التى كتبها جرانوفسكى عن مدن القرون الوسطى « فولن » ، و « يومسبورج » ، و « فينيتا » (١٨٤٠) ، والتى جرح فيها شعور أنصار السلافية . ويحسن أن نشير هنا عابرين الى أن الرسالة الاولى التى يقدمها صاحبها الى الجامعة فى روسيا لا تخوله الا لقب « مرشح » . ولكى يصبح استاذاً فوق العادة يجب أن يقدم رسالة « استاذية » . ولكى يصبح أستاذاً عادياً يجب يقدم رسالة « دكتور » . وكانت المناقشة العلنية لهذه الرسائل تعد فى روسيا على الدوام حدثاً هاماً .

ويظهر أن هذا الاستاذ جرانوفسكى نفسه قد نشر سنة ١٨٤٧ فى مجلة « مكتبة القراءة » التى كان يصدرها سنكوفسكى دراسة عن الفارسى بايار وفيها يمجّد مزاياه الاخلاقية .

١٢ * حين اعتقال أعضاء حلقة بتراشفسكى ، فى الثالث من شهر نيسان (أبريل) سنة ١٨٤٩ عثروا لدى سرجى دوروف رسالة من الشاعر آ . بلشتايف يتكلم فيها عن جرانوفسكى ممجداً معظمها . وقد أمر الجنرال حاكم موسكو يومذاك بأن يراقب الاستاذ مراقبة سرية .

١٢ * وفى كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٩ اتهم جرانوفسكى بأنه يعادى الدين فى محاضراته ، واضطر أن يقدم إيضاحات للسلطات المختصة بموسكو .

والكلام على الجمعية التى يبلغ عدد أعضائها ثلاثة عشر انما هو اشارة دعابة الى حلقة بتراشفسكى التى كانت تدين بالاشتراكية ، والتى انتمى اليها دوستويفسكى من ١٨٤٦ الى ١٨٤٩ .

أما ما يرد بعد ذلك من كلام عن قصيدة لستيفان تروفيموفتش فان دوستويفسكى حين يشرح هذه القصيدة يجعل منها محاكاة للقصيدة الرومانسية التى نظمها فلاديمير بتشيرين بعنوان « انتصار الموت » ، سنة ١٨٣٤ ؛ ان كاتب القصيدة هو أستاذ فى فقه اللغة (١٨٠٧ - ١٨٨٥) غربى النزعة ، درس ببرلين ، وترك كرسيه الجامعى بموسكو مهاجرا الى انجلترا حيث صار كاهنا كاثوليكيًا . اننا نرى فى هذه القصيدة أغاني زياح ونجوما ولهيا . والموت يظهر فيها فتى جميلا جمالا لا مثيل له ، ممتطيا صهوة جواد أبيض ، تهتف له الشعوب فى مختلف الكواكب صائحة باللغة الفرنسية «عاش الموت» ، «عاش الموت» . وهذه القصيدة المحتدمة المحارة قد ضمنها هرتسن سنة ١٨٦١ الديوان الذى أسماه « الادب السرى الروسى فى القرن التاسع عشر . واليكم مقطعاً من تلك القصيدة :

ما أجمل أن يبفض المرء وطنه ،
أن ينظر دماره نهما ،
أن يتنبأ من خراب بلده
بحلول يوم التغير الكونى الشامل .

٣١ * نستور كوكولنيك (١٨٠٩ - ١٨٦٨) : شاعر وكاتب خصب أصبح الآن منسيا ، وقد ألف تراجيديات تاريخية تناصر الاتجاه الملكى .

٣٢ * توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) : الصحفي الشهير والسياسى

الفرنسي ، مؤلف كتاب «النظام القديم» وكتاب «الثورة» ، وقد كان مقروءا في روسيا .

أما روايات بول دو كوك فقد كانت رائجة في روسيا راجعا كبيرا .

٣٤ ★ نيقولا رادشتشيف : مؤلف كتاب ثوري عنوانه « رحلة من سان بطرسبرج الى موسكو » . ظهر الكتاب سنة ١٧٩٠ .

٣٨ ★ في سنة ١٨٦٢ كانت تعقد في بطرسبرج اجتماعات تناقش مشكلات تربوية ، منها تبسيط قواعد الاملاء . حتى لقد اقترح رجل يقال له كاوفسكي احلال الالفباء اللاتينية محل الالفباء الروسية . وقد نشرت مجلة دوستوفسكي « الزمان » ، سنة ١٨٦٢ ، مقالة عن هذه المشاجرة حول الاملاء .

٣٨ ★ نشرت مجلة « روسيا الفتاة » سنة ١٨٦٢ مقالة بقلم زابتنشيفسكي نداء تطالب فيه باحالة روسيا الى اتحاد جمهوري فدرالي لمقاطعات ، وتطالب باحلال ميليشيا وطنية محل الجيش ، وباستقلال بولنده ، وبانفاء الحواجز وحق الارث ، وبالمساواة في الحقوق بين الرجال والنساء ، الخ .

٣٩ ★ آندره كرايفسكي (١٨١٠ - ١٨٨٩) ، هو ناشر ورئيس تحرير مجلة « حوليات الوطن » .

٤١ ★ « ليف كامبيك » : ناشر جريدة رسول بطرسبرج من ١٨٦١ الى ١٨٦٢ أما « فييك » (العصر) فهي جريدة يومية كانت تصدر في ذلك الاوان نفسه . وهنا يستخر دوستوفسكي سخرًا قائما على التقفية كما كان ذلك رائجا أيامذاك .

٤٤ ★ « سهرات أثينية » اشارة الى المناقشات الفلسفية في حدائق أثينا عند هبوط المساء ، وهي السهرات التي تكلم عنها أفلاطون .

٤٨ ★ ليبوتين : تدل مسودات رواية الشياطين على أن دوستوفسكي قد استخدم في تصوير هذه الشخصية شخصية صديقه الكسندر ميليوكوف (١٨١٧ - ١٨٩٧) وهو مؤرخ أدب وعالم

تربية عرفه فى حلقة بتراشفسكى . لقد كان ميليوكوف من
المعجبين باشتراكية فورييه وكان فى الوقت نفسه طاغية فى
منزله .

٤٨ ★ شاتوف : اسم لعسل المؤلف اشتقه من كلمة شاتات بمعنى
اهتزاز أو ترجع . ربما كان فى هذا اشارة الى ما تتصف به
آراء هذه الشخصية من عدم الاستقرار .

٥٢ ★ فرجنسكى : اسم مشتق من الكلمة اللاتينية فيرجو/فيرجينيس
(العذراء) ؛ ولا بد أن يدل على أن صاحب هذا الاسم ينتمى الى
فئة أبناء رجال الدين .

٥٤ ★ محاكاة لرأى من آراء تشيرنشفسكى عن الحب الحر ، وهى
الآراء التى عرضها فى كتابه « ما العمل ؟ » .

٥٨ ★ « عن الاله الروسى خاصة » : اشارة الى قصيدة نقدية هجائية
نظمها الامير بطرس فيازمسكى (١٧٩٢ - ١٨٧٨) وظهرت سنة
١٨٢٨ بعنوان « الاله الروسى » .

٥٨ ★ بعد الحملة المهزومة التى قام بها غاريبالدنى سنة ١٨٦٢ أكثر
الكلام على تجريد البابا من سلطته الزمنية .

٥٩ ★ هو يوم الفاء الرق أو القنانة (١٩ شباط فبراير ١٨٦١) .

٦١ ★ « الكارامنسكايا » : رقصة روسية شعبية يصاحبها غناء فخر .

٦١ ★ راشيل العظيمة : ايليزا راشيل (١٨٢١ - ١٨٥٨) الممثلة
الدرامية الشهيرة المولودة بروسيا . ولقد قامت بجولة فى
روسيا ١٨٥٣ - ١٨٥٤ ولقيت نجاحا كبيرا .

٦١ ★ « أزهار الامبراطورة » : عطر كان على المواضع ، وقد سمي
كذلك تكريما للامبراطورة أوجينيا .

٦١ ★ « أنطون جوريميك » : قصة كتبها ديمترى جريجوروفتش
(١٨٢٢ - ١٨٩٩) ، صديق شباب دوستوفسكى كما نعلم .
وقد نشرت القصة سنة ١٨٤٧ ، وفيها يصف المؤلف بطريقة
واقعية عاطفية فى آن واحد آلام قن فقير .

- ٦١ ★ « أنطون بتروف » : فلاح من قرية بزدنا في اقليم قازان ، زعيم عصيان قام به الفلاحون في تلك القرية . لقد كان الفلاحون مستائين من أن اصلاح ١٨٦١ لم يعطهم كل أراضي المالك . وقد أعدم بتروف رميا بالرصاص سنة ١٨٦١ .
- ٦٢ ★ هي المدرسة الألمانية التي تأسست ببطرسبرج في القرن الثامن عشر ، وكانت ما تزال تقدر تقديرا عظيما حتى سنة ١٩١٨ ، وهو العام الذي ألغيت فيه .
- ٦٢ ★ بلادنا المقدسة روسيا : ان هذا القول : « بلادنا المقدسة روسيا » نجده في الأغاني الملحمية الروسية منذ عام ١٨٦١ . وكان رائجا في الاوساط المنادية بالسلافية في ذلك الأوان .
- ٦٢ ★ كان دعاة الوحدة السلافية والوعي القومي يتكلمون في ذلك الأوان كثيرا عن نقطة القوميات السلافية في النمسا - المجر وفي تركيا ويحلمون بوحدة سلافية بقيادة روسيا المقدسة .
- ٦٢ ★ « عهد الأمير ايجور : كان ايجور ، ابن روريك ، الأمير الأكبر لروسيا من سنة ٩١٢ الى سنة ٩٤٥
- ٦٤ ★ في سنة ١٨٤٧ كان بيلنسكي في الخارج فكتب الى جوجول رسالة حامية مضطربة سنة ١٨٤٧ بمناسبة نشر جوجول لمراسلاته . وفي تلك الرسالة يهاجم الناقد مسيحية جوجول مؤكدا أن الشعب الروسي هو بين الشعوب أكثرها لحادا .
- أما الرواية التي بينت فيها جورج صاند أن المسيحية لم تفهم الدين فلعلها رواية « ليلي » التي نشرت سنة ١٨٣٩ وعالجت فيها قضية المرأة .
- ٦٥ ★ « المستطلع » : حكاية شهيرة من الحكايات التي كتبها كريلوف عن الحيوانات . فالمستطلع يتحدث عن زيارة قام بها لمتحف التاريخ الطبيعي فاعجب بحشرات كثيرة ، لكنه لم يلتفت الى الفيل . أما قول دوستويفسكي « الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا » ، فلعله ينصرف الى أنبياء الاشتراكية الخيالية من أمثال فورييه وكايبه وغيرهما .

- ٧٠ ★ «يذكر بشباب الأمير هاري» : في مسرحية شكسبير التاريخية «هنري الرابع» ، نقرأ أن ابن الملك ، الأمير هاري ، عاش حياة ماجنة في صحبة فالستاف . لكنه حين أصبح ملكا باسم هنري الخامس تكشف عن شخصية ملك عاقل حكيم نير .
- ٧٩ ★ « واستطاع سنة ١٨٦٣ أن يتميز وأن يلمع » : (هو الأمير هاري أيضا) ، ولعل الإشارة هنا الى فترة قمع الثورة في بولنده .
- ٨٣ ★ « الصوت » : هي الجريدة الليبرالية التي كان يصدرها كرايفسكي في بطرسبرج من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٨٣
- ٨٨ ★ « كونسيدران » : هو فكتور كونسيدران (١٨٠٨ - ١٨٩٣) ، أحد مريدي فورييه ، فيلسوف واقتصادي فرنسي .
- ٩٦ ★ هو الجنرال المتوفى ستافروجين ، والد نيقولا فيسيفولودوفتش ستافروجين .
- ٩٧ ★ كان أوتو فون بسمارك الذي سيصبح مستشار ألمانيا ، كان سفيرا ببطرسبرج وباريس ، وكان يعد دبلوماسيا بارعا جدا .
- ٩٨ ★ « كارمازينوف الكاتب ؟ » : هذه صورة كاريكاتورية للروائي الروسي الكبير تورجنيف . ان اسم كارمازينوف يذكر بالكاتب العاطفي كارامزين ، ولكن من الجائز أن دوستويفسكي قد أشتقه من كلمة بولندية تعني الارستقراطية . فيكون ذلك اشارة الى العادات الارستقراطية عند تورجنيف .
- ١١٨ ★ « حملة ايجور » : ان القصيدة الروسية التي يرجع عهدها الى القرن الثاني عشر والتي تصور حملة الأمير ايجور دي سيفيريا على القومانيين سنة ١١٨٥ هي من أجمل القصائد الغنائية الوطنية الملحمية الروسية . وقد استخرج منها المؤلف الموسيقي بورودين موضوعا للأوبرا التي وضعها بعنوان «الأمير ايجور» . أما الجنرالة ستافروجين فكانت تعد هذا الأثر من آثار القرون الوسطى باعنا على الملل والضجر .
- ١٢١ ★ هذه نقطة تقوى التشابه أو التوازي بين فرخوفنسكي وبين

الأستاذ جرانوفسكى الذى نشر سنة ١٨٥٤ بحثا بعنوان :
« الملحة الاسبانية » .

- ١٢٦ ★ « بتروشكا » : تصغير اسم بطرس تحببا وتديلا .
- ١٣١ ★ « بانديجه » : هو رجل حرفته البناء ، أعار ملابسه للأمير
لويس نابوليون ليسهل له الهرب من سجن هام سنة ١٨٤٦ ؛
يريد فرخوفنسكى أن يقول اذ يشسبه نفسه ببانديجه انه
ليس الا شخصا لا قيمة له .
- ١٤٠ ★ بين يورى نيكولسكى فى كتيب أصدره بعنوان « تورجنيف
ودوستويفسكى » فى صوفيا سنة ١٩٢١ ، أن دوستويفسكى
يحاكى فى هذه الصفحة تورجنيف الذى يلح خاصة على مشاعره
الخاصة ، والذى أشاح وجهه أثناء « تعذيب تروبمان » ،
توقية لأعصابه .
- ١٤٥ ★ « لوحة تينيه » : كانت لوحات دانييل تينيه (١٦١٠-١٦٩٠)،
مقدرة تقديرا عظيما فى ذلك الأوان بروسيا ، كسائر آثار
المدرسة الفلمنكية على كل حال .
- ١٤٦ ★ « الرجل الذى يضحك » : رواية فكتور هوجو التى ظهرت سنة
١٨٦٩ . وكان دوستويفسكى يحب روايات فكتور هوجو
كثيرا .
- ١٥٦ ★ « مؤتمر السلام ٠٠٠ » : هو مؤتمر « عصبة السلام والحرية »
الذى عقد فى جنيف سنة ١٨٦٧ وحضره دوستويفسكى، فسمع
خطب غاريبالدى وفكتور هوجو وهرتسن وباكونين . وان أفكار
باكونين الفوضوية هى التى يقصدها المؤلف هنا حين يذكر أن
المؤتمر قد خيب آماله . لقد كتب دوستويفسكى الى س .
ايفانوفنا يقول لها فى ١١ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٦٧ :
«بدأوا بأن قالوا أنه لا بد من استئصال المسيحية للحصول على
السلام فى العالم . وفى رأيهم أنه متى انعدم كل شيء فان السلام
يولد » .
- ١٦٧ ★ يظهر ان الإشارة هنا الى مثل روسى ترد فيه ألفاظ قاسية .

- ١٩٤ ★ الاشارة هنا الى حصار سيبياستوبول سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٥٥
من قبل الجيش الانجليزى - الفرنسى - التركى .
- ١٩٨ ★ « كوروبوتشكا » شخصية من شخصيات كتاب « النفوس
الميتة » لجوجول ، ومعنى الاسم «العلبة الصغيرة» ، والشخصية
هى شخصية مالكة بخيلة محدودة تؤمن بالخرافات وتتسلط
عليها الأوهام .
- ٢١١ ★ كان دوستوفسكى قد خطر بباله يوما أن يجمع فى كتاب
طائفة من الوقائع المختلفة تصور الحياة الروسية وتستمد من
الجرائد .
- ٢١٧ ★ تأسست جمعية لحماية الحيوانات سنة ١٨٧٥ ببطرسبرج .
- ٢١٧ ★ قبل اصلاح ١٨٦١ كانت قيمة الارض تقدر بعدد « النفوس »
الأقنان .
- ٢٢٨ ★ الاشارة الى جملة لجوجول يقول فيها انه فى نقده يضحك من
خلال الدموع .
- ٢٣٠ ★ بين آ . دولينين فى تعليقه على رسالتين من دوستوفسكى أن
قصة شاتوف عن سفره الى أمريكا تستمد بعض عناصرها من
مقالة كتبها آ . أوجورودفيكوف وظهرت فى مجلة « الفجر »
سنة ١٨٧٠ ، وفيها يتحدث الكاتب عن انطباعات رحلته الى
أمريكا .
- ٢٣١ ★ « قانون لنتش » : من الاجراءات التى كانت معروفة فى أمريكا
أن الجمهور حين يقبض على مجرم يستطيع أن يحكم عليه
بالاعدام وأن ينفذ الحكم فوراً .
- ٢٣٦ ★ « شاتوشكا » تصغير لاسم شاتوف من باب التودد والتدليل
- ٢٤٣ ★ هذه أغنية دينية شعبية .
- ٢٤٦ ★ هنا ينشد لبيادكين قصيدة جميلة (لكنه يشوهها) الشاعر
الفنائى آتاناازى فت شنشين ، نشرت سنة ١٨٤٣ .

- ٢٥٢ ★ « فانيا » تصغير اسم ايفان . وهو لقب يلقب به الخوذون .
وكانوا يلقبون أيضا بلقب فانكا .
- ٢٥٤ ★ عرفت بعض مناطق روسيا بعض المجاعات أثناء ١٨٦٧
- ٢٨٩ ★ الكسى ايرمولوف (١٧٧٢ - ١٨٦١) : جنرال شهير برز أثناء
حملة ١٨١٢ ، ثم أصبح بعد ذلك قائدا للجيش الروسى
بالقوقاز .
- ٢٩١ ★ بيت من الشعر مستمد من قصيدة كوكولنيك « الشك » ، وقد
وضع ميشيل جلنكا موسيقى لهذه القصيدة ، فاشتهرت كثيرا .
- ٢٩٤ ★ « ... ان كريلوف الشاعر الكبير الذى نظم حكايات عن
الحيوانات ، قد اقام له وزير التعليم العام نصبا تذكاريا فى
« حديقة الصيف » : ان هذا النصب الذى شاده المثال البارون
كلودت قد اقيم سنة ١٨٥٦ .
- ٢٩٦ ★ دينيس فاسيليفتش دافيدوف (١٧٨١ - ١٨٣٩) : ضابط
من سلاح الفرسان ، قاد حرب انصار سنة ١٨١٢ ، ونظم
شعرا فى الحرب والخمرة .
- ٣١٨ ★ « هوراسيو » هو الصديق المخلص لهاملت فى مسرحية
شكسبير .
- ٣٤٣ ★ هو ميشيل لونين (١٧٨٧ - ١٨٤٥) الضابط الذى كان احد
متمردى ديسمبر ١٨٢٥ . وقد نفى الى سيبيريا ومات فيها .
لقد قام ديسمبرى آخر هو سفستونوف بوصف طبع لونين .
وذلك حين عاد من سيبيريا سنة ١٨٥٦ ؛ ولا شك ان
دوستوفسكى قد اطلع على مذكرات هذا الديسمبرى التى
أودعت فى « الارشيف الروسى » عام ١٨٧١ . يجب أن نشير
هنا الى أن اسم الديسمبريين كان يطلق على أعضاء جمعيات
سرية تشكلت فى روسيا فى نحو نهاية حكم الاسكندر الاول .
فلما مات العاهل حاولوا فى ١٤ ديسمبر ١٨٢٥ تحريك جيش
سان بطرسبرج . ولكن نيوقولا الاول الذى خلف الاسكندر
الاول استطاع أن يسحق الثورة . وقد شنت خمسة
ديسمبريين ، ونفى الباقون الى سيبيريا .

- ٣٥٢ * « زمزتوف المقاطعة » أو هو مجلس للادارة المحلية فى الاقليم .
وكثيرا ما كان هذه المجالس تبدى فى مناقشاتها آراء لبرالية .
وذلك ما لفت نظر وزارة الداخلية .
- ٣٥٨ * « بازاروف » : نموذج عدمى وصفه تورجنيف فى كتابه « الآباء
والأبناء » .
- ٣٥٨ * « نوزدريوف » : أحد شخوص كتاب جوجول « النفوس الميتة » .
هو شخص كذاب مدع متبجح .
- ٣٧٧ * « ملة الخصيان » : ملة صوفية يسمى أصحابها بالروسية
« سكوبتزي » ، وهم يمارسون خصى أنفسهم نشدانا للكمال
الأخلاقي .
- ٣٧٨ * هل من حاجة الى التذكير بأن « الرابطة الاممية للعمال » ،
(« الاممية الأولى ») ، انما أسسها كارل ماركس بلندن سنة
١٨٦٤ ؟
- ٣٩٠ * ان البارون هكرن ، سفير هولانده فى روسيا ، قد تبني شارل
دانتيس الذى كان يفازل زوجة بوشكين . ففى ٢٦ كانون
الثانى (يناير) ١٨٣٧ ، كتب الشاعر الى البارون رسالة مهيئة
تشتعل على سب وشتم ، وتتهم البارون بتهم بشعة عن علاقته
بابنه المتبنى ؛ وفى تلك الرسالة طلب بوشكين البارون الى
المبارزة . وقد أناب السفير عنه فى المبارزة ابنه المتبنى دانتيس
الذى أصاب بوشكين بجرح قاتل كما هو معلوم .
- ٣٩٥ * من المعروف أن دوستويفسكى قد تأثر كثيرا بهذه العبارة
الواردة فى رؤيا القديس يوحنا . وقد تحدث عنها فى كتابه
« الأبله » .
- ٤١٧ * فى انجيل متى (الاصحاح الرابع ، ٩) أن الشيطان عرض على
المسيح أن يكون له سلطان على مملكة هذا العالم . اشارة الى
السلطة الزمنية للبابا الكاثوليكي بروما .
- ٤١٨ * هذه العبارة نفسها وردت فى رسالة بعثها دوستويفسكى الى
السيدة فونفيزينا من أومسك بعد خروجه من السجن فى شهر
شباط (فبراير) ١٨٥٤

- ٤١٩ ★ راجع رؤيا القديس يوحنا (الاصحاح الثاني والعشرين ، ١) .
- ٤٢٤ ★ « ستنكا رازين » : زعيم عصبة قوقازية أثار الفلاحين في شرق روسيا وجنوبها من سنة ١٦٦٧ الى سنة ١٦٧١ ، وفي سنة ١٦٧١ خانه أنصاره فأعدم .
- ٤٢٦ ★ يعد الشعب الروسى الأرض أما . وفى رواية «الجريمة والعقاب» نرى صوفيا تنصح راسكولنيكوف بتقبيل الأرض تعبيرا عن التوبة والتكفير .
- ٤٢٧ ★ تصغير اسم بأفل على سبيل التحقير .
- ٤٣١ ★ يتحدث أبناء الشعب عن أنفسهم أحيانا بصيغة الجمع من باب التأدب .
- ٤٣٢ ★ فى عهد القنانة كان يجوز بيع الخدم عبدا أو التنازل عن امتلاكهم سدادا لدين .
- ٤٣٩ ★ زوسيم هو اسم الراهب الذى أنشأ دير زولوفكى فى الجزر المقفرة الخالية بالبحر الابيض فى القرن الخامس عشر .
- ٤٣٩ ★ يروى لبيادكين هنا بيتين من قصيدة للأمير ب.آ. فيازمسكى، وهما فى سياقهما لهما معنى مختلف كل الاختلاف ، فالأمر هنالك أمر عربية ترويكما على الطرق الروسية .
- ٤٤٣ ★ أخمولنسك مدينة صغيرة فى سيبيريا الغربية .
- ٤٤٤ ★ يتحدث جوجول فى وصيته (راجع الفصل الأول من «رسائله الى أصدقائه» ، ١٨٤٧) عن «قصة وداع» يصفها بأنها أغنية نابغة من القلب ، ويجب أن لا تنشر الا بعد موته . ولكن أحدا لم ير هذه القصة يوما ، وأغلب الظن أنها لم تكتب أبدا .
- ٤٥١ ★ المنشور المقصود هنا هو النداء المعروف الذى وزع سرا بعنوان « روسيا الفتاة » .
- ٤٥١ ★ هو جيريل دريافين (١٧٤٣ - ١٨١٦) : شاعر مشهور نظم قصيدة ذاع صيتها كثيرا عنوانها «رب» ، وفيها هذا البيت الذى أصبح كلاسيكيا :

أنا ملك ، أنا عبد

أنا دود ، أنا رب

- ٤٦١ * جريشكا أوتريبييف : هو مغامر استطاع أن يقنع الناس بأنه دمترى ، آخر أبناء القيصر يوحنا الرابع الذى قتل سنة ١٥٩١ ، واستطاع أن يحظى بعرش روسيا سنة ١٦٠٥ ؛ وحين قتله الشعب فى السنة التالية استنكارا لميوله الكاثوليكية أعلنت الكنيسة طرده ، وكان هذا الطرد يتكرر كل سنة فى الأحد الثالث من الصيام الكبير فى جميع أنحاء روسيا .
- ٤٦٤ * فى الأغاني الروسية الشعبية ، كثيرا ما نقع على تشبيه الشاب بصقر نبيل .
- ٤٧٦ * « تلك المدرسة العسكرية الخاصة ٠٠٠ » : هى مدرسة الحرس الامبراطورى ببطرسبرج التى كان لا يقبل فيها الا أبناء أو أحفاد جنرالات . أن تلاميذ هذه المدرسة يقومون بدور الحرس الغلمان فى احتفالات البلاط الامبراطورى ، ويتخرجون من المدرسة ضباطا فى الحرس . وقد تحدث «الفوضى - الأمير» عن هذه المدرسة فى « مذكراته » .
- ٤٩٤ * كانت المبارزات شائعة جدا بروسيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، رغم أنها ممنوعة قانونا ، فكان الضباط الذين يقومون بمبارزات يجردون من رتبهم العسكرية ، ويرسلون الى القوقاز جنودا لا أكثر .
- ٤٩٧ * أنشئت المحاكم الجديدة سنة ١٨٦٤ فكانت محل هجوم الرجعيين عليها ، وتندرهم بها .
- ٥٠٠ * كان دوستوفسكى شديد الإعجاب بمارونا سيستين التى رسمها رافائيل والتى كانت فى معرض درسدن .
- ٥٠٢ * تشكىل « مجلس الامبراطورية » سنة ١٨١١ كمجلس استشارى ، وكان يناقش مشاريع القوانين مرتبطا بالامبراطور .
- ٥٠٦ * هى الرواية الاشتراكية التى كتبها تشيرنيتشفسكى ، ونشرت سنة ١٨٦٤ وحظيت بشهرة واسعة واعجاب كبير لدى الشبيبة

- الراديكالية . وقد هاجمها دوستوفسكى مهاجمة شديدة فى قصته « فى قبوى » .
- ٥١٤ ★ كان بين الألمان فى روسيا عدد غفير من كبار العسكريين وكبار الموظفين ، لا سيما فى عهد نيقولا الاول . « مولاي ، اجعلنى بالترقية ألمانيا » كذلك قال الجنرال آ . ايرمولوف ثلقيصر نيقولا الاول الذى كان يريد أن يكافئه .
- ٥١٥ ★ « فرا ديافولو » الاوبرا الكوميدية التى وضعها دانييل فرانسوا أوبري (١٧٨٢ - ١٨٧١) ، وكانت واسعة الشهرة والانتشار فى ذلك الأوان .
- ٥٣٤ ★ ان الحرب الفرنسية الالمانية التى قامت بين ١٨٧٠ - ١٨٧١ تصورها هذه القطعة الموسيقية القصيرة فى صورة صراع بين نشيد « المارسييز » وبين أغنية ألمانية عنوانها « حبيبى أوغسطين » . وقد سبق أن أشار دوستوفسكى الى هذه الأغنية فى بداية روايته « مذلون مهانون » ، وهى تنتهى بهذه الجملة « أوغسطين راقد فى الوحل » .
- ٥٣٦ ★ كانت الموسيقى الواقعية رائجة فى تلك السنين . وقد ألف موسجورسكى سنة ١٨٦٨ مجموعة قطع موسيقية بعنوان « لوحات من معرض » . وكانت احدى هذه القطع تمثل يهوديين يتشاجران .
- ٥٤٠ ★ ان شخصية سيميون ياكوفلفتش هذه تذكر بشخصية واقعية هى ايفان ياكوفلفتش كوريشا (١٧٨٠ - ١٨٦١) ، وهو رجل متنبئ دجال كان له بموسكو معجبات .
- ٥٥٧ ★ « فاموشكا » : تصغير اسم فوما تحببا .
- ٥٦٢ ★ هو بنجامان كابفيج : مؤرخ فرنسى ملكى الاتجاه .
- ٥٦٣ ★ يتهم دوستوفسكى هنا على الرأى الذى ذهب اليه تشيرنيشفسكى القائل بأن « آثار الفن أقل قيمة من الجمال الواقعى » ، وهو الرأى الذى يدافع عنه تشيرنيشفسكى فى كتابه « العلاقات الجمالية بين الفن والواقع » .

- ٥٦٧ ★ بيتان من الشعر للشاعر بوشكين فى قصيدته «الفارس الفقير»
- ٥٧٣ ★ هؤلاء هم المثلون الثلاثة « للمذهب المادى العامى » فى ذلك الاوان . فكتاب « رسائل فزيولوجية » (فوجت ١٨١٧-١٨٩٥) وكتاب « القوة والمادة » (لودفيج بوشنر ١٨٢٤ - ١٨٩٩) قد ساهما مساهمة كبيرة فى نشر المادية والحاد بروسيا بين ١٨٦٠ - ١٨٧٠ . وسوف يصف انجلز هؤلاء الكتاب بأنهم « باعة مادية رخيصة » .
- ٥٧٣ ★ يحدثنا هرتسن فى « مذكراته » أنه قد زاره فى لندن سنة ١٨٥٨ فتى كان مسافرا الى جزر ماركيز وهو يحمل ثلاثين ألف فرنك لينشىء هنالك رابطة اشتراكية . والشاب انما هو فى الواقع سيد اسمه بولس باخمتيف سافر فعلا الى نيوزيلانده ، ولم يعرف أحد ما صار اليه .
- ٥٧٤ ★ هذه القصة مستوحاة من واقعة حدثت فعلا : وهى الاضراب الذى قام به عمال مصنع النسيج (ستيجلتس) فى بطرسبرج سنة ١٨٧٠ ؛ ان نحو ثمانمائة عامل قد أعلنوا هنالك الاضراب لأن ادارة المصنع احتجزت جزءا من أجورهم بينما كانوا يطالبونهم بزيادة الاجور . وقد قدموا عريضة لرئيس الشرطة فزار المصنع ، فأحيل ثلاثة وستون عاملا الى المحاكمة فى شهر حزيران (يونيه) . ان هذا « الاضراب الاول » الذى انطلق فى روسيا قد أحدث أثرا عميقا ودويا كبيرا .
- ٥٨١ ★ « بطل يثير الحمية » : معارضة لقصيدة نظمها مهاجر اسمه نيقولا أوجاريوف (صديق هرتسن) وأهداها الى الشاب نتشايف وطبعت بمدينة جنيف سنة ١٨٧٠ على ورقة مستقلة وأعاد نتشايف طبعها فى العدد الثانى من جريدة « عدالة الشعب » الصادرة فى جنيف أيضا ، وقد وزعت أثناء محاكمة ١٨٧١ بموسكو .
- ٥٨٩ ★ مثل روسى معناه : كفى كلاما ولننتقل الى العمل .
- ٥٩٠ ★ المرحوم هرتسن : معروف أن ألكسندر هرتسن قد مات بباريس فى ٢١ كانون الثانى (يناير) ١٨٧٠ .

- ٥٩٦ ★ « الشعبية الثالثة » من مكاتب الامبراطور هي الدائرة التي تهتم بالشئون السياسية وتلاحق الثوريين .
- ٦٠٤ ★ كان كوندراى ريليف شاعرا ذا موهبة كبيرة . وقد نشر سنة ١٨٢٥ ديوانا من الشعر يضم قصائد تاريخية ، بعنوان « افكار » ، وهى قصائد تستلهم روحا وطنية ليبرالية . وبعد اعدام ريليف سنة ١٨٢٦ ، بصفته أحد قادة ثورة ديسمبر ، انما منعت الرقابة آثاره .
- ٦٤٢ ★ هذا تذكرا لأغنية شعبية تصور زعيم ثورة ١٦٦٧ ، ستيفان رازين ، مبحرا فى نهر الفولجا مع فتاة جميلة جالسة على حافة سفينته .
- ٦٤٢ ★ « الأمية » أو « الانترناسيونال » : معروف أنه كان فى ذلك الاوان أمميتان اثنتان احدهما هى « الرابطة الأممية للعمال » التى أسسها كارل ماركس فى لندن سنة ١٨٦٤ ، والثانية هى « الرابطة الديموقراطية الاشتراكية » التى أنشأها باكونين فى جنيف . ولقد كان نتشايف على صلة بالثانية .
- ٦٤٣ ★ « اذا لم يكن هذا واقعا فهو خيال جميل » : من الامثال السائرة الايطالية

فهرس

رقم الصفحة

الموضوع

الجزء الأول

| | |
|-----|--|
| ٩ | الفصل الأول : « بمثابة مدخل : بضعة تفاصيل عن حياة المحترم المبجل ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى » |
| ٦٧ | الفصل الثانى : « الأمير هارى * عرض زواج » |
| ١٣٢ | الفصل الثالث : « خطايا الغير » |
| ٢٠٦ | الفصل الرابع : « العرجاء » |
| ٢٦٣ | الفصل الخامس : « الأفعوان البارع » |

الجزء الثانى

| | |
|-----|---|
| ٣٤٩ | الفصل الأول : « الليل » |
| ٤٣٠ | الفصل الثانى : « الليل - تنمة » |
| ٤٧١ | الفصل الثالث : « المبارزة » |
| ٤٩٢ | الفصل الرابع : « الجميع ينتظرون » |
| ٥٢٩ | الفصل الخامس : « قبل الحفلة » |
| ٥٦٩ | الفصل السادس : « بطرس ستيفانوفتش يسعى » |
| ٦٤٥ | شخصيات الرواية |
| ٦٥١ | حواش |

الأعمال الأدبية الكاملة

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| <u>المجلد الأول</u> | <u>المجلد الثامن</u> |
| الفقراء | الجريمة والعقاب - ١. |
| المثل | <u>المجلد التاسع</u> |
| قلب ضعيف | الجريمة والعقاب - ٢. |
| <u>المجلد الشافعي</u> | <u>المجلد العاشر</u> |
| نيتوتشكا نزنفا نونفا | الأبلة - ١. |
| الليالي البيضاء | <u>المجلد الحادي عشر</u> |
| بروخار تشين | الأبلة - ٢. |
| الجارة | <u>المجلد الثاني عشر</u> |
| المهرج | الشياطين - ١. |
| السارق الشريف | <u>المجلد الثالث عشر</u> |
| البطل الصغير | الشياطين - ٢. |
| قصة في تسع رسائل | <u>المجلد الرابع عشر</u> |
| شجرة عيد الميلاد والزواج | المرامق - ١. |
| زوجة آخر، ورجل تحت السرير | <u>المجلد الخامس عشر</u> |
| <u>المجلد الثالث</u> | قصص |
| قرية ستينا تشيكوفو ومكانها | <u>المجلد السادس عشر</u> |
| حلم العم | الأخوة كارامازوف - ١. |
| <u>المجلد الرابع</u> | <u>المجلد السابع عشر</u> |
| مذلولون مهانوف | الأخوة كارامازوف - ٢. |
| <u>المجلد الخامس</u> | <u>المجلد الثامن عشر</u> |
| ذكريات من منزل الأموات | الأخوة كارامازوف - ٢. |
| <u>المجلد السادس</u> | |
| في قبوي | |
| قصة اليمه | |
| ذكريات شتاء عن مشاعر صيف | |
| التمساح | |
| <u>المجلد السابع</u> | |
| المقامر | |
| الزوج الأبدى | |

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذلين المهانين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."
الكسندر ف. سولزنيف